

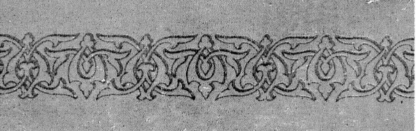


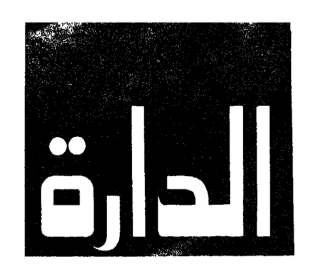
الدارة

مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز
العدد الأول السنة السادسة شوال ١٤٠٠هـ ـ سبتمبر ١٩٨٠م

من محتويات العدد







مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز
تعنى بتراث وفكر المملكة والجزيرة العربية
والعالم العربي والاسلامي مماله صلة بالجزيرة العربية

العدد الأول ـ السنة السادسة
شوال ١٤٠٠هـ ـ سبتمبر ١٩٨٠م

الرياض — ص٠ب ٢٩٤٥
المملكة العربية السعودية — تلفون ٤٠٣٨٦٤٦

الاخراج الفني : محمد أبو الفتوح الخياط

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

رقم الصفحة

لعدد في الداخل ريالان والاشتراك السنوي خمسة عشر ريالا وفي البلاد العربية
، خمسين قرشا سعوديا للعدد او مايعادل خمسة عشر ريالا للسنة . في جمهورية
العربية خمسة وعشرون قرشا . في خارج البلاد العربية دولار للعدد الواحد
دولارات للسنة .

ترسل الاشتراكات باسم امين عـــام الدارة اما المقـالات والبحـوث فترسل باسم رئيس التحرير ـ الرياض ص.ب ٢٩٤٥ ترتيب المواضيع داخل العـــدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لهـــا بمكانة الكاتب . آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي المجـــلة

إفتتاحية



وعلى بركة الله تبدأ مجلة الدارة عامها السادس لتؤكد من جديد نهجها التخصصي الذي دأبت عليه منذ صدورها عام ١٣٩٥ هـ .

فقد أمكنها بفضل الله وعونه أن تصدر عشرين عددا من بينها أربعة أعداد خاصة واكبت بهم المجلة مناسبات علمية وتاريخية تهم العرب

والمسلمين وحين تبدأ عامها السادس ليسرها كل السرور أن توضح لقرائها وعشاقها من المتخصصين أنها بصدد اصدار عددين خاصين الأول عن « الأهمية التاريخية للبحر الأحمر » وسيكون هذا

العــدد
تهنئة

لرئيس التحرير

العدد وفي هذا الوقت بالذات اضافة علمية جديدة لمكتبتنا العربية ، أما العدد الثاني فسيكون عن « العمارة الاسلامية » بالتعاون مع ندوة جامعة الملك فيصل عن العمارة الاسلامية وسوف يكون التركيز في هذا العدد على العمارة الاسلامية في الجزيرة العربية .

وأرجو أن تكون هذه المقدمة دعوة للأساتذة والباحثين المتخصصين للمساهمة المستمرة في دعم مجلتهم « الدارة » شاكرين للجميع عونهم وتأييدهم والله الموفق ؟

رئيس التحرير
محمد حسين زيدان

. الاستاذ أحمد بن حافظ الحكمي أحد كفاءاتنا الوطنية وقد خص الداره ببحث ممتاز قام بإعداده ، وعنوانه « آثار الشيخ عبد الرحمن بن حسن - مجدد الدعوة الاصلاحية في نجد ١١٩٣ هـ/١٧٧٩ م - ١٢٨٥ هـ/١٨٦٩ ويسر الداره ان تنشر أولى حلقات هذا البحث ، باعتباره جهدا علميا طيبا حرص فيه الباحث على القاء الضوء لآثار علم جليل من أعلام الدعوة الاصلاحية السلفية في نجد ، وهو الامام عبد الرحمن بن حسن بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب مجدد الدعوة السلفية رحم الله الجميع .

آثار الشيخ عبد الرحمن بن حسن مجدد الدعوة الإصلاحية في نجد

الحلقة الثانية

للأستاذ :
أحمد بن حافظ الحكمي
المحاضر بكلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

الأجـر والثـواب آمـين

تقع النسخة في ٢٩ ورقة ، فيها ترقيم حديث بقلم (رصاص) عـادى ، أكل التجليد الحديث أكثره ٠

أوله : قال شيخنا عبدالرحمـن بن حسن ابن الشيخ الامـام محمـد بن عبدالوهاب ٠٠٠ الخ ٠

وآخره : صفحة ب من الورقة ٢٩ ما نصه :

« ٠٠٠ تم نسخ ذلك في ٥ رمضان سنة ١٣٤٦ هـ بقلم الفقـير الى اللـه عبدالله بن ابراهيم الربيعي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين خصوصا أهل هذه الدعوة النجدية والطريقة المحمدية أئمتنا ومشايخنا عليهم الرضوان والرحمة ما تعاقبت الملوان ونطقت شفة بلسان آمين » ٠

وفي الجانب الأيمن من الصفحة بالخط نفسه ، لـكن بمداد مختلف ، هو أكثر سوادا : « بلغ مقابلة وتصحيحا على حسن الطاقة » ٠

وتحته بقليل كتب بنفس المداد المعلق به التعليق السابق ٠

« ولد الشيخ الأجل الحبر المفضل عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين في سنة ١١٩٤ انسلاخ القعدة حتى هو (كذا) (١) بذلك في رحلتي اليه في سنة ١٢٧٩ قاله بعض تلاميذه » ٠

ـ مقاس النسخة : ١٧½ × ½ ٢٣ سم ٠

ـ المكتوب من الصفحة : ١٥ × ٢١ سم تقريبا ، والباقي حواش بيضاء خالية من الكتابة ، اللهم الا تصحيحات قليلة جدا ٠

ـ في كل صفحة بين ٢١ ـ ٢٤ سطرا ٠

٨ ـ « الايمان والرد على أهل البدع » :

طبع ضمن (مجموعة الرسائل والمسائل) بأرقـام صفحات مستقلـة : ٢ ـ ١٣١ ـ ١٣٨ ص ، الطبعة الأولى سنة ١٣٤٤ هـ ، بمنطبعة المنار بمصر ٠

وسيأتي تفصيل كامل له عند حديثي عن رسائل ابن حسن في (مجموعـة الرسائل والمسائل النجدية) ـ ينظر ـ ٠

٩ ـ رسالة في بيان دراسته وشيوخه ومروياته عنهم :

وردت في (مجموعة الرسائل والمسائل) : ٢/٢٠ ـ ٢٤ ، ضمن كتـاب (الايمان والرد على أهل البدع) ـ ينظر ٠

وفي عقد الدرر فيما وقع نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر ٠٠ لابراهيم بن صالح بن عيسى : ص ٧١ ـ ٧٦ ٠

١٠ ـ رده على البردة : (أي قصيدة البردة للشاعر البوصيري) ٠

طبع ضمن (الدرر السنية) : ٩/٧٩ ـ ٨٤ ٠

وقد اطلعت على نسخة خطية من هـذا الرد بعنوان : « رد الشيخ عبد الرحمن على البردة » ، رقمه ٨٦/٦١٠ مكتبة الرياض السعودية ، وهي تقع في ٧ صفحات مرقمة ترقيما حديثا ، يبدأ الكتاب من ص (ب) من الورقة الأولى ، وليس على ص (أ) منها أي تعليق ولا تسجيل لاسم النسخة ، والجانب الأيسر من النسخة متآكل ٠

أولها : قال شيخنا شيخ الاسلام عبد الرحمن بن حسن : اعلم أن البردة التي تنسب للبوصيري قد ضمنها أبياتا شركية تنافي ما بعث الله به رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في توحيده ، وقد افتتن بها كثير من الناس ٠٠ الـخ ٠

وفي آخر صفحة منها (ص) التي كتبت الى منتصفها فقط ، ما نصه :

« ٠٠٠٠٠ دعوة الى الله تعـالى بالحكمة والموعظة الحسنة جعلها الله خالصا لوجهه (كذا) ، نافعا لمن بلغه أو نظر فيه أو سمعه ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا $\frac{١٢٨٣}{٣٠٥ ل}$ (كذا) » ٠ ولم يسجل الكاتب اسمه في نهايتها ٠

وفي الجانب الأيمن من الصفحة الأخيرة ما نصه : « بلغ مقابلة على نسخة قرأت (كذا) على المصنف على حسب الطاقة والامكان ١٢٨٣ هـ » ٠

ـ مقاس الصفحة : ١٦½ × ٢٢½ سم تقريبا ٠

ـ مقاس المكتوب : ١٢ × ١٨ ـ ١٩ سم تقريبـا ، ما عدا الصفحـة الأخيرة المكتوبة إلى منتصفها ، والبـاقي حواش ، كثرت الكتابة في ص ٦ فقـط ٠

ـ في كل صفحة ما بين ٢٤ ـ ٢٦ سطرا ، أما الصفحة الأخيرة فلا تحتوي الا على ١١ سطرا فقط ٠

١١ ـ رسالة في الرد على رجل من أهل فارس :

طبعت في (الدرر السنية) : ٩/١٢٨ ـ ١٣٥ ٠

وقد وقفت على نسخة خطية منها ، ضمن مجموع مخطوط بقلم واحـد ، متناثر الاوراق غير مجلدها ، في مكتبة الرياض السعودية ، رقم ٨٦/٦٥٨ ٠

ولكل نسخة في هذا المجموع ترقيم حديث مستقل ، بقلم أحمر المـداد ، عـادي ٠

وهذه الرسالة اول المجموع ، مطلعها بعد البسلمة والحمد له : (وبعد ،

فقد وقفت على ورقة لرجل من أهل فارس تضمنت من الجهل والشقاق لاهل التوحيد ما يتبين للبصير أنها لم تخرج الا من رجل أجهل من حماره ... ، وهذا لفظه : من عبد الرحمن بن محمد الى مخدومنا الحاج ادريس ، أما بعد ، فلا يخفى على جنابك من طرف هذا الرجل .. الخ) .

تقع الرسالة في ١٢ صفحة بترقيم حديث ، ليس لها عنوان ، وانما بدأ الترقيم بالصفحة الأولى الحاوية للبسملة وما بعدها .

آخرها في آخر (ص ١٢) قوله : « ... وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين وامام المتقين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما ، آخر ما ذكره شيخنا الشيخ عبدالرحمن بن حسن أيده الله تعالى آمين ، حرر في جمادى ٢ سنة ١٢٧٦ هـ ، نقله من قلم الشيخ محمد بن عمر آل سليم رحمه الله كاتبه عبدالله الرشيد الفرج ٦ ص سنة ١٣٥٣ هـ » .

- مقاس النسخة : ٣/٤ ١٧ × ١/٢ ٢٤ سم .
- المساحة المكتوبة : ١٣ × ١٩ سم تقريبا ، والباقي حواش بيضاء .
- في كل صفحة ما بين ٢١ الى ٢٥ سطرا .

١٢ - المقامات : الفها في الرد على عثمان بن عبد العزيز بن منصور ، قال مؤلف (مشاهير علماء نجد وغيرهم) عنه : « ورد على عثمان بن عبدالعزيز بن منصور الناصري برد سماه (المقامات) ، وقد استطرد فيه فأتى على جميع الحروب التي وقعت بين أهل هذه الدعوة السلفية والدولة العثمانية المصرية ، فهو بحق رد وتاريخ » (٢) . ومثل هذا القول قاله في كتابه (علماء الدعوة) الا انه زاد عليه قوله : « ولكنه مع الأسف لا يزال حبيس مكتبات بعض أحفاده من أهل الرياض » (٣) .

وقد طبعت هذه المقامات ضمن مجموعة (الدرر السنية) : ٩/٢١٤ - ٢٣٠ .

وقد اطلعت قبل ذلك على نسخة خطية في المكتبة السعودية بالرياض لهذه المقامات برقم ٨٦/٦٥٨ ، وهي في المجموع المشار اليه آنفا عند ذكر الرسالة التي رد بها على رجل من أهل فارس ؛ وفي هذا المجموع عدة رسائل مخطوطة للشيخ عبدالرحمن .

وقد كتب في أول هذه الرسالة التي تلي الرسالة السابقة في هذا المجموع ، هكذا :

« المقامات للشيخ الجليل الفاضل النبيل
عبدالرحمن بن حسن بن شيخ الاسلام
رحمهم الله تعالى
وعفى عنهم
امين »

يبدأ البحث من الصفحة نفسها التي فيها العنوان ، اذ لا صفحة للعنوان مستقلة به .

يقع في ٢٧ صفحة وسطرين في (ص ٢٨) أو ص ١ ، اذ فيها بعد انتهاء السطرين الكتاب التالي لهذا الكتاب في الصفحة نفسها .

وقد كتب في أول (المقامات) بعد البسملة والحمد له : « أما بعد ، فليعلم أن هذا الذي علقته في هذه الورقات قد اقتصدت منه واقتصرت على ما تحصل به الفائدة ويحصل به الثواب من الرب الكريم الوهاب .. ، فاقول قبل الشروع في تحرير الجواب : أن عثمان بن منصور اعترض على شيخنا رحمه الله تعالى فيما دعا إليه من توحيد الله تعالى من الحنيفية ملة ابراهيم وما بعث به محمدا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليهما وعلى جميع المرسلين .. الخ » .

ونقرأ في السطرين الأخيرين في (ص ٢٨) أو (ص ١) وهما آخر هذه النسخة :

« .... وغفر لنا ولهم الذنوب ، اللهم اغفر لنا ولهم لنتوب ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ، حرر في ٦ و م (كذا) مضت من صفر سنة ١٣٥٣ هـ » .

ـ المقاسات السابقة نفسها في الكتاب الأول من هذا المجموع (الرسالة السابقة) من حيث الصفحة والمكتوب فيها تقريبا ، وكذلك الامر بالنسبة لعدد الأسطر على وجه التقريب ، ونوعية الخط اذ الكاتب واحد .

وفي ص ١٦ من هذا الكتاب بعد انتهاء (المقام الثامن) قال : « وصلى الله على سيد المرسلين وامام المتقين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا ، سنة ١٢٨٣ هـ » .

ثم قال بعده : « وهذا هو المقام التاسع .. الخ » . وقد كتب بجانب هذا القول بخط آخر بقلم مغاير : « لعله تهجر المؤلف عفى الله عنه » .

وهذا يدل على ان المؤلف قد ختم كتابه بعد المقام الثامن ، ثم انقطع عن الكتابة ورأى بعد ذلك أن يضيف بعض المعلومات فجعلها في مقام تاسع أخير طويل .

١٣ ـ الجواب المنثور ، في الرد على ابن منصور :
(تنظر الدرر السنية) ٠

ومنه نسخة خطية في المكتبة السعودية ـ تابع المجموع السابق ـ رقم ٨/٦٥٨ ، أولها بعد أول الصفحة بقليل

« الجواب المنثور في الرد على ابن منصور

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته بعد الحمدلة قوله : « أما بعد ، فاعلم أيها الناظر الى ما علقته في هذه في كشف حال أهل الشقاق والنفاق أن عثمان بن منصور بعد مجيئه من البصرة والزبير وطول اقامته عند مشايخه ابن سند وابن جديد وابن سلوم أقبل الى نجد فكرهه من كرهه من المسلمين واغتر به من اغتر من المقدمين ٠٠ الخ » ٠

يقع (الجواب) في (٣٥ صفحة) ، مرقمة ترقيما حديثا ، الصفحة الأخيرة مكتوب فيها نحو الربع فقط ٠

ـ المقاسات السابقة نفسها ، وكذلك الأمر بالنسبة لعدد الأسطر في الرسالتين قبله ٠

ـ آخرها : « وصلى الله على نبينا محمد وعلى اله وسلم تسليما كثيرا الى يوم البعث والنشور » ٠

ـ الحواشي تخلو من التعليقات ٠

١٤ ـ وفي المجموع المخطوط نفسه ، المشار اليه في الرسائل الثلاث السابقة : رسالة في (٦ صفحات) ، الاولى هي في الثلثين الاخيرين من ص (ب) من الورقة الاخيرة في الرسالة قبلها ، وآخرها ص (أ) من الورقة الأخيرة في المجموع ، بكتوبة الى نحو منتصفها تقريبا ٠

وقبل هذه الرسالة في المجموع مباشرة رسالة من الامام فيصل بن تركي الى من يصل اليه ٠٠٠ من أشراف اليمن وعلمائهم ووجوه القبائل الخ في (٦ صفحات) الأخيرة منها غير كاملة ، اذ في ثلثيها الأخيرين أول رسالة الشيخ عبدالرحمن المشار اليها ٠

ـ المقاسات نفسها وعدد الأسطر السابقة نفسها ، وفي الصفحة الأخيرة (٨ أسطر) وفي الأولى من هذه الرسالة (١٣ سطرا) ، والباقي هوامش بيضاء ٠

ـ أولها بعد البسملة : « قال شيخنا عبدالرحمن بن حسن ـ عفى الله

عنه بمنه آمين ... الحمد لله الذي هدانا لتوحيد العبادة الذي هو أساس الملة والدين ومفتتح دعوة المرسلين ، وقد غلط في مسمى التوحيد الاذكيـــاء من المتأخرين والفقهاء والصوفية والمتكلمين ٠٠ الخ » ٠

ـ وآخرها في (ص ٦) : « وما توفيقي الا بالله عليه توكلـــت واليه أنيب ، وصلى الله على محمد ٠٠٠ حرر سنة ١٣٥٣ هـ » ٠

١٥ ـ رسالة منه الى الامام فيصل بن تركي :

طبعت ضمن (مجموعة الرسائل والمسائل) : ٣٢١/١ ـ ٣٢٥ ٠

وضمن مجموعة (الدرر السنية) : ٣٢/١١ ـ ٣٤ ٠

وضمن (المجموع المفيد من رسائل أهل التوحيد) : ٣٣/٢٧/١ (الطبعة الأولى ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م ـ منشورات المكتب الاسلامي ، بيروت) ٠

وقرأت نسخة خطية منها ، في المكتبة السعودية بالرياض ، هي فيها برقم ٨٦/٦٦٨ ، عنوانها كذا :

« رسالة من الشيخ عبدالرحمن بن حسن الى
الامام فيصل بن تركي »

تقع في (٥ صفحات) ، الأخيرة منها ليس فيها الا (٥ أسطر) هي خاتمة الرسالة ، أى أنها تقع في ٣ ورقات ٠

ص (أ) من ورقة (١) ليس فيها كتابة ، ولا تحمل عنوانا ، وتبدأ الرسالة من ص (ب) ورقة (١) ، أولها بعد البسملة :

« من عبدالرحمن بن حسن ، الى الأخ المحب الامام المكرم فيصل بن تركي ألهمه الله رشده ووقاه شر نفسه ٠٠ الخ » ٠

وآخرها ص (٥) : « ٠٠٠ وأنت سالم والسلام ، ولا حول ولا قـــوة الا بالله العلي العظيم ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وســـلم ، غفر الله للشيخ الامام وجميع المسلمين آمين » ٠

ـ ليس عليها اسم الكاتب لها ، أعني الناسخ ٠

ـ مقاس الصفحة : ١٧ × ٢٤½ سم ٠

ـ المكتوب منها : ١١½ ـ ١٢ × ١٨½ ـ ١٩½ سم ، والباقي هوامش بيضـــاء ٠

ـ في كل صفحة (٢٣ سطرا) ، ما عدا ص (٣) ففيها (٢٢ سطرا) . و ص (٥) ليس فيها الا (٥ أسطر) فقط ٠

١٦ ـ بيان كلمة التوحيد ، والرد على الكشميري عبدالحميد (٤) :
طبع ضمن (مجموعة الرسائل والمسائل) : ٣١٩/٤ ـ ٣٦٢ ، وعليـــه

ذيل للشيخ أبي بطين : ٤/٣٦٣ ـ ٣٦٤ ٠
وضمن (الدرر السنية) : ٩/٨٥ ـ ١٠٩ ٠
ألفه في الرد على عبدالحميد الكشميري ٠
١٧ ـ تفسير سورة الفاتحة :

ذكره ابن قاسم في ترجمته للشيخ عبدالرحمن في (الدرر السنية : ١٢/٦٣) وأورد نصه في (الدرر السنية ـ مطبوعا ـ : ١٠/٣٥ ـ ٣٩) مع تفسير الاستعاذة والبسملة ٠

١٨ ـ رسالة في تحريم صيام يوم الشك :

ذكر صاحب (مشاهير علماء نجد وغيرهم) (٥) أنها طبعت في المكتب الاسلامي ٠

ولعله يريد تلك الرسالة والفتوى التي كتبها الشيخ عبدالرحمن في حكم صيام يوم الشك وفطر المسافر ، وبعث بها الى عبيد بن رشيد ، وقد نشرت في (المجموع المفيد من رسائل اهل التوحيد ـ الطبعة الاولى ، المكتب الاسلامي ـ بيروت ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م ، الجزء الاول : ص ٧ ـ ١٤) ٠

وقد تكون هذه الرسالة وردت في (مجموعة الرسائل والمسائل) ، أو في (الدرر السنية) مجزأة ٠

ب) ـ رسائل لم أطلع عليها :

١ ـ الفرق بين الاسلام والايمان :

رسالة موجودة برقم ٨٦/١٨٧ في فهرس مخطوطات مكتبة الرياض السعودية ، ولكني لم أعثر عليها في رفوف المكتبة ، ولعلها فقدت لقلة العناية ٠

وقد تكون وردت في الجزء الأول من مجموعة (الدرر السنية) كاملة أو مجزأة فهناك شيء مما يدخل تحت هذا الموضوع ٠

٢ ـ رسالة في معنى الطاغوت ، وأنواع العبادات :

موجودة أيضا في فهرس مخطوطات المكتبة السعودية بالرقم السابق نفسه ولم أعثر عليها ٠

٣ ـ مختصر تفسير (قل هو الله أحد) :

ذكره الشيخ ابن قاسم في ترجمة المؤلف في (الدرر السنية : ١٢/٦٣) ، ولم يورده في الجزء الخاص بتفسير القرآن من المجموعة ٠

٤ ـ الرد والردع على داود بن جرجيس : (٦)

ولعله ورد في (مجموعة الرسائل والمسائل) ، او (الدرر السنية) بغير

هذا العنــــوان ·

٥ ـ خمس رسائل :

طبعت في القاهرة ـ المطبعة السلفية ، مع كتاب (الكلمات النافعــة في المكفرات ـ للشيخ محمد بن عبد الوهاب) (٧) ·

لم أتمكن من الاطلاع عليها ، ولعـــــلها هي الرسائل الخمس الموجودة في (مجموعة التوحيد النجدية) ، و (الجامع الفريد) نفسها والتي فصلنا القــــول فيهـــا ·

٦ ـ اختصر قطعة من العقل والنقل (٨) ·

٧ ـ شارك عمه الشيخ عبدالله في رده على الزيدية (٩) ·

جـ) ـ آثاره في (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية) :

طبعت هذه المجموعة في مطبعة المنار بالقاهرة على فتــرات تتراوح بــين ١٣٤٤ ـ ١٣٤٦ هـ (١٩٢٨م) ، في أربعة أجزاء كبيرة ·

ج ١ ـ أ ـ ل فهارس وتصويبات ، ٧٦٣ صفحة ·

ج ٢ ـ يحتوي على كتب ورسائل متعددة ، كل قسم فيه يستقل بترقيم صفحاتـــه ·

ج ٣ ـ خاص بكتب ورسائل ابن الشيخ عبدالرحمن (الشيخ عبداللطيف ابن عبدالرحمن) ·

ج ٤ ـ ٢ ـ ١٤ فهارس ،١ ـ ٨٧٦ صفحة بما فيه من كتب ·

ـ في مجموعة (الرسائل والمسائل) للشيخ عبدالرحمن بن حســـــن،، ما يلي مفصـــــلا :

(أ) الجزء الأول « القسم الثاني » (ص ٣٢١ ـ ٥٢٥) ، وهو بعنوان « رسائل وفتاوى للشيخ عبدالرحمن بن حسن » : (ص ٣٢١ ـ ٤٠٧) (١٠) وهذه الرسائل والفتاوى مع أرقام الصفحات التي تحددها كما يلي : ـ

١ ـ رسالة في « النصيحة لله ولرسوله ، وما يجب على من ولاه الله أمـــر الدين والدنيا » ، موجهة الى الامام فيصل بن تركي : « ص ٣٢١ـ٣٢٥) ·

٢ ـ رسالة في « توبيخ الجاهل بأمر التوحيد (موجهة الى الشيخ عثمان ابن منصور كتوبيخ له على جهله بالتوحيد وسوء عمله : (ص ٣٢٥ـ٢٧ ٣)·

٣· ـ رسالة في « حكم صوم الثلاثين من شعبان » وغير ذلك من الموضوعات موجهة الى عبيد بن رشيد : (ص ٣٢٧ ـ ٣٣١) ·

٤ ـ رسالة ضافيــــة في « الربا وحكــم نقــود الجــــدد الزيــوف فيه » :

(ص ٣٣١ ـ ٣٤٢) ٠

٥ ـ رسالة في « بطلان تصرف المرء بمال غيره » موجهة الى أهل العلم والفهم : (ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣) ٠

٦ ـ رسالة في « أصول فرق المبتدعة والرافضة والزيدية » موجهة الى راشد بن مطر : (ص ٣٤٤ ـ ٣٤٧) ٠

٧ ـ رسالة في « شان دجال يأخذ العهد على منع الحيات » الى علي بن حمد الجريوي واخوانه : (ص ٣٤٧ ـ ٣٥٠) ٠

٨ ـ سؤال وجواب « فيمن جعل ميزانين ، أحدهما للقبض ، والثاني للبيع » : (ص ٣٥٠ ـ ٣٥١) ٠

٩ ـ مسائل وأجوبة في « قبض دين السلم وغير ذلك » جواب سؤوال لعبدالرحمن بن عدوان : (ص ٣٥١ ـ ٣٥٣) ٠

١٠ ـ مسائل وأجوبة في « العمرة والحج » : (ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤) ٠

١١ ـ رسالة في « أركان الحج » موجهة الى صالح بن محمد المشتري : (ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥) ٠

١٢ ـ رسالة في « اعطاء المرأة حليها لبنتها تحمل به لزوجها ، فلما ماتت الأم ادعت البنت استحقاقها له » موج ة الى الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن (ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦) ٠

١٣ ـ جواب « عما ذكر أحدهم من أمر مواريث كانت في الأصل فصارت اليوم في غير يد أهلها يتصرفون فيا ا تصرف الملاك » : (ص ٣٥٦ ـ ٣٥٧) ٠

١٤ ـ أسئلة « بما تخص به بعض الأيام من الصوم والنحر وغير ذلك وجوابها » (ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨) ٠

١٥ ـ رسالة في « الطلاق الفاسد والباطل » موجهة للشيخ جمعان بن ناصر : (ص ٣٥٨ ـ ٣٦٠) ٠

١٦ ـ رسالة في « الانابة في الحج » موجهة الى حمد بن عبدالله بن عمران : (ص ٣٦٠ ـ ٣٦١) ٠

١٧ ـ سؤال وجواب في « حكم تنصيف المهر والطلاق قبل الدخول » : (ص ٣٦١ ـ ٣٦٢) ٠

١٨ ـ رسالة هي « نصيحة للمسلمين في مسالة الرهن » : (ص ٣٦٢ ـ ٣٦٣ / ٠

١٩ ـ مسألة وجواب في « مراعاة شرط الواقف » : (ص ٣٦٣) ٠

٢٠ ـ مسائل وأجوبة في « النفقة على الأولاد وغير ذلك » ، وفيها أربع

مسائل ، موجهة الى الشيخ رجب : (ص ٣٦٤ ـ ٣٦٥) .

٢١ ـ حديث عن « شراء المغصوب ، وغير ذلك » : (ص ٣٦٥ ـ ٣٦٨) .

٢٢ ـ رسالة في « اجارة الشجر مفردا بأصع معلومة ، وبيع الثمر بالسنين » موجهة الى الشيخ عبد بن حمد : (ص ٣٦٨ ـ ٣٧٠) .

٢٣ ـ رسالة « فيما تفعله الحائض في الحج ، وكون السعى لا يصح الا بعد الطواف » موجهة الى فائز بن علي واخوانه : (ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢) .

٢٤ ـ سؤال وجواب « فيمن يقول لمن شرب هنيئا » : (ص ٣٧٣) .

٢٥ ـ رسالة في « الوقف على الذرية » الى سليمان بن عبدالله : (ص ٣٧٣ ـ ٣٧٤) ، وفيها مسألة ثانية « فيمن غرس أرضا مستأجرة للغراس ومضت مدة الاجازة وجوابها » .

٢٦ ـ سؤال وجواب في « قسمة النخل المشترك الذي طلب أهله القسمة » : (ص ٣٧٥) .

٢٧ ـ رسالة في « صيام يوم الشك » الى سليمان بن عبدالرحمن بن عثمان (ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦) .

٢٨ ـ رسالة في « حكم الاستنجاء في البرك ونحوها » : (ص ٣٧٦ـ٣٧٧).

٢٩ ـ رسالة في « الوقف على الذرية والورثة » الى الشيخ حمد بن مانع : (ص ٣٧٧ ـ ٣٧٩) .

٣٠ ـ رسالة في « حكم خروج النساء من البيوت بالزينة ، وفروع فقهية أخرى مختلفة » الى علي بن فواز : (ص ٣٧٩ ـ ٣٨١) .

٣١ ـ رسالة في « قلب الدين على المدين ، وغير ذلك » الى من تصله من الاخوان : (ص ٣٨١ ـ ٣٨٣) .

٣٢ ـ رسالة في « الجواب عن مسائل أربع : مسألة الانفاق على زوجة المفقود ، ومسألة المظاهر ، ومسألة الشفعة ، ومسألة عيب الجرب » الى جمعان ابن ناصر : (ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤) .

٣٣ ـ رسالة في « دية المرأة » الى جمعان أيضا : (ص ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .

٣٤ ـ رسالة في « النشوز والتحكيم بين الزوجين » مرسلة الى سعيد بن عيد : (ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦) .

٣٥ ـ رسالة في « مسألة مد عجوة ودرهم » الى صالح بن محمد وأحمد بن عتيق : (ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧) .

٣٦ ـ رسالة في « حكم تحريم الزوجة ، ظهار أم يمين ؟ ومسائل أخرى كثيرة في الدين والرهن والاستئجار والمضاربة والباطل والفاسد عند أهل

الأصول وغيرها » مرسلة الى جمعان : (ص ٣٨٧ ـ ٤٠٣) ٠

٣٧ ـ رسالة في « من نفر من الحج ولم يطف طواف الزيـارة والسعي » موجهة الى عثمان بن عيسى : (ص ٤٠٣ ـ ٤٠٤) ٠

٣٨ ـ رسالة في « انكار كون القدرة لا تتعلق الا بما تتعلق به المشيئة » مرسلة الى عثمان بن بشر : (ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥) ، وقد أثبتها ابن بشر في كتابه (عنوان المجد : ٢/٢٢) ٠

٣٩ ـ مسالة وجواب : « علي طلاق » صريح أم كناية ؟ ومسالة أخرى عن رجل أسلم الى آخر في طعام معلوم الى أجل معلوم ثم طلب المستحق مـن المستحق عليه أن يبيع عليه أرضا ٠٠٠ الخ : (ص ٤٠٦) ٠

٤٠ ـ فتوى في « بطلان الوقف على الذكور دون الاناث » : (ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧) ، وأظنها ليست له ، فقد كتب : رأيت في فتاوى الامام عبد الكريم بن زياد الشافعي ـ رحمه الله ـ ما لفظه : ٠٠٠ (الفتوى) ٠

ثم في (ص ٤٠٧) قول له سجله تحت فتاوى أعمامه من مسائل الربـا والحيل المحرمة ، يقرر فيه ما قالوه من عدم التفصيل ، حيث حسموا المادة ٠

(ب) الجزء الثاني ، من (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية) ـ الفهرس في أوله مرقم بحروف ، ثم كل كتاب أو قسم منه يستقل بترقيم خاص ـ ٠

في هذا الجزء مما يختص بالشيخ عبدالرحمن بن حسن من مؤلفات ما ياتي:
١ ـ كتاب « الايمان ، والرد على أهل البـدع » : (ص ٢ ـ ١٣١ ـ ١٣٨ ص) ، وهذا الكتاب عبارة عن « مجموعة فوائد تشتمل على شيء من تقريراته ـ رحمه الله ـ.، وقد طبع طبعته الأولى سنة ١٣٤٤ هـ ، بمطبعة المنار بمصر ، ويقع في (١٣٨ صفحة) ٠

وباطلاعي على الكتاب استطعت أن أقسمه الى أربعة أقسام رئيسية تندرج تحتها كثير من الفوائد والمسائل والاجوبة والردود والفتاوى والمعاني والحكم والمواضيع الأخرى المختلفة والمتفرقة ٠

أ ـ فالقسم الأول (ص ٢ ـ ٤١) : تحدث فيه عن ست فوائد :
الاولى : في الاسلام والايمان : (ص ٢ ـ ٥) ٠
الثانية : في كلمة الاخلاص ونفسها : (ص ٥ ـ ٧) ٠
الثالثة : في النهى عن مفارقة الجماعـة ، كتبها الى من تصـل اليه من الاخوان : (ص ٧ ـ ٩) ٠

الرابعة : تتضمن أجوبة عن أسئلة متعددة وجهها اليه جمعـان بن ناصر عن الفساد الواقع في بعض العقود ، وظهار المملوك ، وبيان أكثر مدة الحمل ،

وحكم الدم المحتقن في جوف الذبيحة ، وحكم ذبيحة الكافر والمرتد ، وعن زوجة الكافر اذا مات هل عليها عدة ، وغيرها : (ص ٩ ــ ٢٠) . ثم تاتي اجابته .

الخامسة : في أحكام الحج : (ص ٢٥ ــ ٢٦) .
السادسة : في أحكام تحريم الرجل امرأته على نفسه ، ومسائل أخرى كثيرة : (ص ٢٧ ــ ٤١) .

ب ــ والقسم الثاني (ص ٤٢ ــ ٦٣) : يتضمن عدة أجوبة حول بعض المسائل ، هي :

ــ جواب مسألة في الاستدانة الى أجل : (ص ٤٢) .
ــ جواب مسألة في تحريم الربا وما يفعل من المعاملات ... الخ : (ص ٤٣) .

ــ جواب مسألة فيمن اشترى الفلوس أربعة عشر قرطاسا بدرهم ويصرفها ثلاثه عشر بدرهم هل يجوز ؟ : (ص ٤٤) ــ الجواب في أقل من خمسة أسطر ــ .

ــ جواب مسألة في بيع الاكاديس الافرنجية بالدراهم الاسلامية ــ الخ : (ص ٤٤ ــ ٤٧) .

ــ ثم أجوبة على عدة مسائل مختلفة قصيرة ، وفتاوى متعددة مختصرة في أمور كثيرة : (ص ٤٧ ــ ٦٢) ، وتنتهي هذه المسائل بجواب مسألة فيمن يقول « الخير من الله والشر من أنفسنا » : (ص ٦٢ ــ ٦٣) .

ملحوظة : يلي هذا القسم من الكتاب نصوص كتب في أولها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين : هذه مسائل نقلها الشيخ حمد ابن ناصر بن عثمان من أجوبة لابن حجر الهيتمي : (ص ٦٤ ــ ٩١) : وهي أسئلة وأجوبة كثيرة في مواضيع متعددة ومختلفة ، لا أعتقد أن للشيخ عبدالرحمن بن حسن صلة بها الا أن يكون كاتبها وجامعها بين أوراقه والله أعلم ، فقد جاء في آخرها قوله : « والله أعلم ، آخر مسائل ابن حجر ــ وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم ــ » .

جـ ــ القسم الثالث (ص ٩٢ ــ ١١١) : فيه مسائل كثيرة وأجوبتها :
المسألة الاولى : من قال لمن اشترى بعشرة : أنا أعطيك مثلها بتسعة ، أو قال لمن باع سلعة بتسعة : عندي فيها عشرة ليفسخ البيع ويعقد معه : (ص ٩٢) .

المسألة الثانية : اشتراط المشترى على البائع شرطين كحمل الحطب وتكسيره (ص ٩٢ ـ ٩٣) .

المسألة الثالثة : اذا اشترى سلعة فوجدها معيبة ولا يعلم زمن عيبها ولا بينـــة : (ص ٩٣ ـ ٩٤) .

المسألة الرابعة : معنى بيع الدين بالدين : (ص ٩٤) .

المسألة الخامسة : اذا باع نخلا قد تشقق طلعه ، ولم يشتـــرط المشترى الثمرة ، ثم تنازعا بعد ذلك في الثمرة : (ص ٩٤ ـ ٩٥) .

المسألة السادسة : من أسلم في ثمرة نخل بعينه ست سنين أيصح ذلــك أم لا ؟ : (ص ٩٥) .

المسألة السابعة : اذا سبل في أرض نقدا معلوما ، ثم امتنعت المعاملة به ما الحكم في ذلك ؟ : (ص ٩٥ ـ ٩٦) .

المسألة الثامنة : اذا اختلف الراهـــن والمرتهن في قدر الديـــن ... : (ص ٩٦ ـ ٩٧) .

المسألة التاسعة : في ضمان المجهول ، كمن ضمن على انسان دينا لا يعلـم قدره ثم علم ذلك : (ص ٩٧) .

المسألة العاشرة : من وكل رجلا في بيع سلعة بعشرة فباعها بثمانية ، ووكله في شراء سلعة بثمانية فاشتراها بعشرة ما الحكم في ذلك : (ص ٩٧ ـ ٩٨) .

المسألة الحادية عشر : اذا دفع الى انسان مالا مضاربة فاشترط لأحدهما ثلث الربع ، وللاخر الثلثين ، ثم اختلف العامل ورب المال فيمن له الثلــث ولا بينة لهما : (ص ٩٨ ـ ٩٩) .

المسألة الثانية عشر : اذا أعطى ثوبه خياطا بلا عقد ، ثم اختلفا في قــدر الاجرة : (ص ٩٩) .

المسألة الثالثة عشر : اذا اختلف المعير والمستعير في الدابة بعد مضي المدة فقال المالك : أجرتك ، وقال الآخر : أعرتني ، ولا بينة لهما : (ص ٩٩ ـ ١٠٠) .

المسألة الرابعة عشر : اذا استولى على أرض غصبت وبنى فيها وغرس ، ثم نازع المغصوب منه الغاصب بالقلع وأرش نقصها والتسوية والأجــرة : (ص ١٠٠ ـ ١٠١) .

المسألة الخامسة عشر : اذا فضل بعض اولاده بعطية مال فمات قبل المواساة فالكلام في هذه المسألة في مقامين : (الأول : ص ١٠١ ـ ١٠٣ ، والثاني : ص ١٠٣ ـ ١٠٤) .

المسائل ١٦ . ١٧ . ١٨ ، ١٩ : مسائل في الرضاعة (كلهن حـــلال) : ص (١٠٤) ٠

المسألة العشرون : شهادة الأخ لأخيه (هي جائزة) : (ص ١٠٤ ــ ١٠٥)٠

المسألة الحادية والعشرون : شهادة الوالــد على ابنه وابن ابنــــه (هي مقبولة) : (ص ١٠٥) ٠

المسألة الثانية والعشرون : الشهادة بالاستفاضة والشهرة : (ص ١٠٥ ــ ١٠٦) ٠

ــ ثم تأتي في الصفحات التالية فائدتان : ــ

١ ــ فائدة في قضاء رمضان وغيره : (ص ١٠٦ ــ ١٠٨) ٠

٢ ــ فائدة في الاقامة أثناء السفر ، وقصر الصلاة ، وغير ذلك : (ص ١٠٨ ــ ١١١) ٠

ملحوظة : يلي ذلك ما أوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اجوبة من حسن ابن حسين الى الاخ عبدالله وفقه الله تعالى » : (ص ١١٢ ــ ١١٧) ٠

ثم فائدة : قال الامام القرطبي في شرح مسلم : (ص ١١٧) ٠

ثم جواب من الشيخ عبدالله بن محمد على مسألتين : (ص ١١٨) ٠

ثم أقوال أخرى ، كتب في نهايتها : « من كلام الشيخ عبدالرحمن بن حسن بقلم الفقير ٠٠٠ عبدالله بن عبدالرحمن بن عبداللطيف ٠٠٠ » : (ص ١١٩)

د ــ القسم الرابع : (ص ١٢٠ ــ ١٣١) يحتوي على أسئلة وأجوبتها على النحو التالـــــي :

١ ــ سؤال أول : ما قول العلماء الأعلام أئمة الاسلام فيمن يقول (لا اله الا الله) ويدعو غير الله هل يحرم ماله ودمه بمجرد قولها أم لا ؟ : (الجواب في ص ١٢٠ ــ ١٢٢) ٠

٢ ــ سؤال ثاني : عن تقبيل يد السادة المنسوبين لأهل البيت هل يجــوز أم لا ؟ : (الجواب في ص ١٢٢ ــ ١٢٣) ٠

٣ ــ سؤال ثالث : عمن يصلي على النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويترضى عن الصحابة (رضى الله عنهم) جهرا والامام يخطب يوم الجمعة : (الجواب في ص ١٢٣ ــ ١٢٤) ٠

ــ وقد كتب في آخر ذلك (ص ١٢٤) : « أملاه الشيخ عبدالرحـــن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب ٠

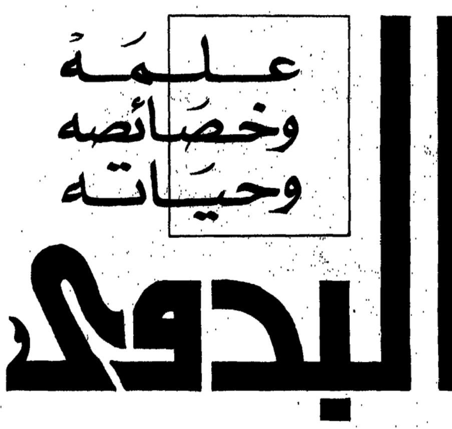
وقد فرغ من تصحيح هذه النسخة يوم الاربعاء في ١٦ /شهر ربيع الثاني/ سنة ١٣٣٣ هـ ٠

٤ ـ ثم في (ص ١٢٥ ـ ١٣١) : أجوبة من عبدالرحمن بن حسن لما سـأل عنه عبدالرحمن بن محمد القاضي ، وهي أسئلة مختلفة في أمـور وقضايا متعـددة .

ملحوظة : يلي ذلك وفي نهاية هذا الكتاب رسالة لحفيد المؤلف الشيخ محمد ابن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن : (ص ١٣٢ ـ ١٣٨) .

(١) لعله : حدثني هو .
(٢) مشاهير علماء نجد وغيرهم ـ للشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ : ص ٦٢
(٣) علماء الدعوة : للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ : ص ٤٤ .
(٤) في مجموعة الرسائل والمسائل (٤/٣١٩) : عبد المحمود .
(٥) مشاهير علماء نجد وغيرهم للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ : ص ٦٢ .
(٦) انظر الدرر السنية : ١٢/٦٣ ، ومشاهير علماء نجد : ص ٦٢ .
(٧) مجلة العرب : ٧/٤٥١ .
(٨) انظر الدرر السنية : ١٢/٦٣ .
(٩) انظر السابق ـ الصفحة نفسها) .
(١٠) هذا الترقيم بالنسبة لصفحات المجلد بكامله .



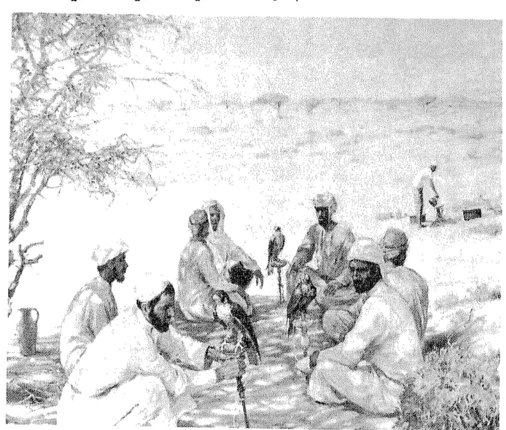


أهل البادية نارهم لا تموت

بقلم الأستاذ
محمد حسين زيدان

الكلمة عن البدو ، عن البادية والعلم لا أريدها ان تقتصر على ما هو واقع الآن من انتشار التعليم فيهم ، ولا أريدها أمنيات أو اقتراحات عما نريده جميعا لهم ٠

أريد أن أتوسع في شرح نعرف منه هذا « القبيل » من الأمة العربية ، عمر جزيرة العرب في حجازها ، ونجدها ، وتهائمها ٠ فمن هم العرب ؟ هل نختصر الكلام فنقول التعريف السائد : هم البائدة ، العاربة ، المستعربة ؟ ان هذا التعريف لا يكفي لأنه يعرب عن نهاية التكوين للأمة العربية ، أما البداية التي تثبت عراقة هؤلاء البدو ورسخت أقدامهم في أغوار التاريخ البعيد ، فينبغي أن نستعيرها مقتبسين من عباس محمود العقاد ومن كتابه « أثر العرب في الحضارة الاوروبية » ٠ ننقل فاتحة الكتاب بعنوانه ونصه ـ من هم العرب ؟ « هم أمة أقدم من اسمها الذي تعرف به اليوم ، لأنها على أرجح الأقوال أرومة الجنس السامي الذي تفرع منه الكلدانيون والآشوريون والكنعانيون والعبرانيون وسائر الأمم السامية التي سكنت بين النهرين وفلسطين وما يحيط بفلسطين من بادية وحاضرة ، وقد تتصل بها الأمة الحبشية بصلة النسب القديم مع اختلاط بين الساميين والحاميين ٠



فهذه الأمم كلها تتكلم بفرع من فروع لغة واحدة هي أصل اللغات السامية ، ويدل على تلك اللغة اشتراك فروعها في بنية الفعل الثلاثي الذي انفردت به بين لغات العالم بأسره . وتشابه الضمائر والمفردات في ملامح الوجوه ، وخصائص الأجسام قبل أن يكثر التزاوج بينها وبين جيرانها من الأمم الآسيوية أو الافريقية ٠

واذا كان لهذه الأمم جميعا أصل واحد ، فأرجح الأقوال وأدناها الى التصور أن يرجع هذا الأصل الى الجزيرة العربية لأسباب كثيرة منها :

١ ـ ان التحول من معيشة الرعاة الى معيشة الحرث والزرع والاقامة في المدن طور من أطوار التاريخ ، وليس من أطواره المعهـــودة أن يتحول الناس الى معيشة الرعاة الرحل في بوادي الصحراء بعد الاقامة في الحواضر والبقاع المزروعة ٠

٢ ـ ومنها أن الجزيرة العربية ـ في عزلتها المعروفة ـ أشبه المواقع بالمحافظة على أصل قديم ، وهي كذلك أشبه المواقع أن تضيق فيها موارد الغذاء على سكانها فيهجرونها الى أودية الأنهار القريبة ٠

٣ ـ ومنها أن اتجاه الهجرة من ناحية البحرين وناحية الحجاز متواتر في الأزمنة التاريخية القريبة والبعيدة ، وأقربها ما حدث بعد الاسلام في وقت واحد ، في زحف العرب على العراق ، وزحفهم على الشام ، في عهد الخليفة الصديق ، وليس لدينا ما يمنع أن يكون التاريخ الحديث دليلا على التاريخ القديم ٠ ولا سيما اذا خلا التـــاريخ كل الخلو من رواية يقينية أو ظنية تومىء الى هجرة النهريين وسكان الأودية الى الجزيرة العربيـــة في زمن بعيد ، أو قريب ، فان السومريين ، سكان ما بين النهرين الأقدمين ، كانوا هناك قبل عشر آلاف سنة ، ولم يصل الينا قط خبر عن هجرتهم الى مكان في الجزيرة العربية ، كائنا ما كان موقعه من تلك البـــلاد ٠ بل ثبت على التحقيق أن الساميين هم الذين هجروا مواطنهم الى ما بين النهرين حيث قامت العواصم التي تسمى بالأسماء الساميـــة كمدينة بابل (باب الله) أو (باب ايل) ٠ أما الرأي الآخر الذي يرجح أن الأمم السامية نشأت في بقعة من الأرض غير الجزيرة العربية ، فأشهر القائلين به هو الاستاذ جويدي الكبير العالم الايطالي المعروف في القاهرة ، وأقوى الحجج التي يستند اليها مستمدة من مضاهاة اللغات الســامية وكثرة أســـماء النبت والأمواه في لهجاتها الأولى ، وعنده أن اشتراك اللغات السامية في هذه المفردات يدل على أرومة نشأت في بلاد مخصبة كثيرة الزرع والأنهار ولم تنشأ في صحراء





العرب ، وما شابهها من البقاع ٠

وهذا الرأي ضعيف لا يقـــوم بالحجة الناهضة ، ولا تؤيده حـــالة الجزيرة العربية قبل الكشوف الحديثة بزمن طويل ، فضلا عن حالة الجزيرة التي تدل عليها تلك الكشـــوف في طبقات الأرض وعوارض الجو وعـــلم الأجناس ٠

فالمروج الفيحاء ، والبقاع الخصبة ، لم تكن مجهولة قط في جنوب الجزيرة ، ولا في جوانبها الشرقية الشمالية عند البحرين ووادي اليمامة ، وهي البقاع التي مر بها المهاجرون من قديم الزمن ، تارة من اليمن الى البحرين ، بداءة الى ما وراءها من مشارف الشـــمالية ولم تزل بقاع اليمامة الى ما بعد الاسلام مشهورة بالمراعي الواسعة والعيـــون الثرارة والأمطار الغزيرة والمروج المعشبة التي تخلفت مما هو أخصب منها وأعمر بالانسان والحيوان في أقدم الأزمان • وقد لاحظ الرحالة الألماني شوينفرت أن القمح والشعير والجاموس والمعز والضأن والماشية وجـــدت في حالتها الأبدة في اليمن وبلاد العرب القديمة قبل أن تستأنس في مصر والعراق •

وتبين من الكشوف العلمية في العهـــــد الأخير أن الجزيرة العربية تعرضت لأدوار الجفاف وطوارىء الزلازل ، منذ عصور موغلة في القدم ، فكان القفر فيها يجور على الخصب في أدوار طويلة بعد أدوار أخرى على التدريج ، قبل أن تجور الصحراء على معظمها في عصور التاريخ •

فحالة الجزيرة العربية كافية لتفسير التشابه بين لغات الساميين في ألفاظ الخصب والثمرات والأمواه • ولكن الرأي الآخر ــ رأي الاستاذ جويدي ــ لا يفسر لنـــا الفرض القـــائل بهجرة العرب مثـــــلا مما بين النهرين ، أو من الشام ، الى قفار الصحراء ، وهو فرض لا دليل عليه من الروايات القديمة ولا من الأحوال المرجحة على حسب التقدير المعقـــول ، ولا من السوابق المألوفة كما رأينا الأمثلة جلها من التاريخ الحديث •

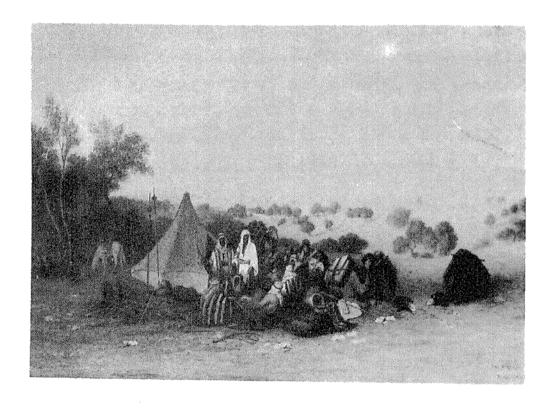
وعلى هذا يصح أن نعتبر أن سلالة العرب الناشئين في جزيرتهم الأولى قد سكنت أواسط العالم المعمور منذ خمسة آلاف سنة على أقل تقدير ، وأن كل ما استفاده الاوروبيون من هذه البقاع في هذه العصور ، هو تراث عربي ، أو تراث انتشر في العالم بعد امتزاج العرب بأبنـــاء تلك البلاد •

وليس هذا التراث بقليل ، لأنه يشتمل على كل أصل عريق ، عند الاوروبيين في شؤون العقل والروح وأسباب العمارة والحضارة هي :

١ ــ العقائد السماوية •
٢ ــ آداب الحياة والسلوك •
٣ ــ فنون التدوين والتعليم •
٤ ــ وصناعات السلم والحرب وتبادل الخبرات والثمرات » •

انتهى كلام العقاد ، وليس هذا حشوا مني أن أنقـــله ، وانما هو

التعريف بهذا البدوي أريد له العلم · فلئن كان العرق العربي قد انتشر في العصور السحيقة من هذه الجزيرة ، من جنوبها ووسطها ، ومن يمنها عن طريق بحرينها ، ومن تهامتها عن طريق البحر يتجه شرق الى شمال ، ويتجه غربا الى شمال ، فان هذا البدوي باسلامه ، بلغته ، قد انتشر فاتحا في أول الأمر ، ناشرا للاسلام ، وقد انتشر ثانيا بهجرة عربية عربت شمال افريقيا كله ، ورسخت العروبة في مصر ، ليرجع دعاة الفرعونية الى أصل عربي حتى بفرعونيتهم ·



هذا البدوي هو العربي في أعراقه حضارة ، في دمائه علم ، في قلبه عقيدة ، لم يعش يوما واحدا دون عقيدة · صابئيا ، عابد كوكب ، ابراهيميا حنيفيا ، مشركا عابد صنم ، مسلما موحدا بالله ، لم يتقبل هذا كله الضال والهادي الا بقلب حضاري رغم هذه البداوة فيه ، تكلموا معـــــه الآن ، لتتعلموا منه اللغة · ليست المقررات فحسب ، وانما الأسلوب ، الاسلوب

الفصيح ، الراقص ، المهندم ٠

الجزيرة العربية ، مهد العرب ، لم تكن في الماضي السحيق كما لمح اليه العقاد صحراء جدباء ، فهم كنسل سام عاشـــوا في الجزيرة العصر المطير ، فلا يعني وجود النهر في العراق أو النهير في الشام انهم نشأوا هناك ، لأن في لغتهم الزراع ، لقد نشأوا في أرض ممرعة ، مزهرة ، فيها حيوان الغاب وصفوه الوصف الدقيق ، ســـموه الأسماء المائة ، لو لم يعرفوه ، لو لم يعاشروه ، لما سموه ولما وصفوه ٠

ليزر واحد منكم « عشة » في جيزان ، فانه سيجفل حينمـــا يدخل الحوش ، فيه البقرة ، فيه رائحة الروث ، ولكنه حينما يدخل « العشة » يجدها النظيفة ٠ يجدها « مدوكرة » فيها حلية ، أخذت تشكل ديكورا ٠ طار معلق ، عود ، صحن ، صورة ، هذه الجيزانية التي تعني « العشــة » تضع فيها الزينة لا شك أنها وان تبدت اليـــوم فان في قلبها حضـــارة ٠ لو شاهدتم ما يصنعون من زهر « الفـــل » لعجبتم من الذوق الحضاري ، أساور ، تيجان ، عقود ، وربى ٠ انها لجميلة تنبيء عن حضارة ! ٠

●● البـدوي هنـا وهنـاك

البداوة لديكم ظاهرة ، تشعرون بها من عدم الامتزاج بين المدينـة والقرية ، بين من يزعم أنه حضري وبين من هو بدوي ، ولكنها في لبنـــان مثلا مندمجة ، فالقيمة للبناني انه متحضر الى حد بعيد ، وفي الوقت نفســه بدوي الى حد بعيد ، ومثله السوري تقريبا ٠ ومثله الجزائري والمغربي ٠ كل هؤلاء من أصل بدوي ، من هنا لا يشعر بدوي في غربة من حضري هناك أما لدينا ، فالبدوي لا يزال يشـــعر ببعض الغربة ان خفت حدتها الآن بوحدة الكيان الكبير ، بالرعاية الكاملة بالمواصلات السريعة . فانها كانت من قبل حادة الى درجة الانفصال ٠

ليس هؤلاء البدو الذين ترون جماعة من الناس يحسبون في البدائيين ، ليست البداوة لدينا تمثل البدائية ٠ البدو لدينا عندهم حضـــارة يمثلون جزءا من شعب ، جزءا من أمة ، الأمة العربية ، ذات الحضارة العريقة ٠

فلنتفق أولا على الحضارة ٠ هل هي استعمال أم طبيعة ؟ ان كانت هي الاستعمال فهذا البهرج من أدوات المدينة ٠ أو هذا الانتاج له ، والتعـــامل معه صناعة وبيعا وشراء واستهلاكا فكلنا من حضري في المدينة ، أو بدوي في الصحراء كلنا شعب بدوي ٠ وان كانت الحضارة استعدادا وطبيعة وفكرا

وثقافة فليس هذا البدوي بالانسان البدائي ، وانما هو انسان متحضر لديه الاستعداد لأن يتعلم · لقد نجحوا في المدارس ، وفي الجامعات بصورة رائعة ، فأكثر العشرة الأوائل منهم ، لقد نجح من نزح منهم الى المدينة : مهندس تلفونات ، سائق دركتر ، مهندس كهرباء ، مهندس سيارات ، وما الى ذلك ، أما الطبيعة طبيعته فليس المظهر الذي ترون من خشونة الملبس والمأكل ، الا شيئا عارضا لعوامل أخرى كالجدب ، كالبعد ، كعدم الرعاية ، أما وقد بدأ يزول كل ذلك حيث يجد البدوي ما يغنيه عن الكلأ ، وما يقربه الى المدينة ، وما يحوطه بالرعاية ، فانكم ترون الرقة وحسن السلوك والفهم والرفاه · ويفسر ذلك موقف علي بن الجهم ·

والفكر ما دليله ؟ ما انتاجه ؟ أليس في هذا الشعر ، في الكلمة الشاعرة ، في اللغة الشاعرة ؟ والثقافة ؟ أنا معكم أن البدوي غير متعلم ، وأرجو أن تكونوا معي تعترفون بأنه المثقف ـ البدوي والبدوية ـ كل منهما مثقف ، يعرف ما حواليه ، ينسج بيته في الشعر ، من الغزل ، من خدمة الصوف ينسج العباءات « البتية » · والبدوي ينسج المصانف ، يدبغ الجلد ، يصنع منه السعن ، القربة ، النرب ، القلص ، الحوض ، الأحذية ، وقد لا يعرف أن يطبب نفسه ، ولكنه طبيب ماهر لماشيته ، ثقف الخيل ، ذلل الجمال ، عسف الحمير ، رعي الشياه · وأكثر من ذلك ، لديه ثقافة زراعية ممتازة · يعرف أوان ما يزرع ، وكيف يزرع ، وماذا يزرع سواء كان ما يزرعه عثريا أو مسقويا ، مارس الطب بالكي ، العلماء ، كل الفرق أنه بعد عن المدينة ، وتباعدت المدينة عنه ·

●● مصدر علم

لقد كان هذا البدوي مصدر العلم ، علم اللغة ، كل أئمتنا الرواد جمعوا اللغة ألفاظا تلقنوها عن البادية · كان الامام أبو عمرو بن العلاء ، أحد الأئمة القراء السبعة ، شيخ الأئمة في البصرة ، جالسا وبين يديه طلاب العلم فسأله أحدهم : مم اشتق اسم الخيل ؟ فقال : لا أدري ، انتظروا قليلا · وبينما هم ينتظرون طلع عليهم اعرابي من هؤلاء الذين يزحفون على العراق من نجد فاستوقفه الامام يسأله : مم اشتق اسم الخيل ؟ ولم يقف الاعرابي ، شمخ بأنفه ، وقال لهم وهو يسير : من السير · ولم يفهم الطلاب ، فقال لهم أبو عمرو بن العلاء : أفهمتم ؟ قالوا : ما فهمنا شيئا · قال الامام : لقد اشتق اسم الخيل من سيرها ، من الخيلاء · ألا ترونها تمشي العرضنة تيها وخيلاء ؟ هم بكل ذلك ، بكل زحف ، حملوا مشاعر العلم والمعرفة حينما

وجدوا من يلتقط العلم والمعرفة ، وليست الثقافة أو العلم أو المعرفة أحمالا وأكداسا .

لم يكن هذا مقصورا على العصر الأول . أنه في هذه الأيام ، ولكن الذاهبين الى البادية ليتعلموا اللغة لا يجدون . أنا الماثل أمامكم ما كنت أعرف ذلك قبل أن أصطدم به .

خذوا ألفاظا تعلمتها من بعض البادية . كنت بعد ظهيرة أجلس في « مقعد » في « القراءة » فاذا ببدوي هزلي يقف علينا ويقول ـ مسترفدا لنا ـ فالبدوي من كبر نفسه لا يسمي هذا الاستعطاء تسولا وانما يسميه « رفدا » .. زقت مشاعره ، فرقت ألفاظه ، قال هذا البدوي وهو يسترفد ، أو على حد تعبيركم « يتسول » : « ثوبي تهتر ياولد » . وسرقتني كلمة « تهتر » فأنا المتعلم ، الاستاذ كما تسموني ، لا أعرف الا أن المهاترة هي ترديد الكلام ، تشقيقه ، ورجعت الى « اللسان » فاذا بي أجد « تهتر » في الأصل تعني « تمزق » . كان هذا البدوي أستاذي في هذه الكلمة ، هو مثقف بطبيعته ، وأنا متعلم منه !

وبدوي من حضرموت ، كان سائق سيارة عندي وصف شارع علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فقال : « هذا شارع نفيس » وقلت أي نفاسة في هذا الشارع ؟ فقد تبادر الى فهمي أن النفيس بمعنى الغالي الثمن ، النادر وسألته : ماذا تعني بكلمة نفيس ؟ فقال : الواسع . وعرفتها في الحال . كانما هي الأصل النفيس يعني الواسع ، حيث جاء منه النفس ، المتنفس ، النفساء ، النفس ، وبدوي آخر من بدو حضرموت قلت له ـ وهو سائق سيارتي أيضا : لماذا لم تاكل البيض ؟ قال ان البيض رث لا أستطيع أن آكله ، وسألته : ماذا يعني بالرث ، نحن المتعلمين نعرف أن الرث هو البالي ، القديم ، أما أنه الفاسد المتعفن ، فهذا شيء جديد علي أحسب انه الأصل في الكلمة « رث » .

● ● صبر البدوي

من عجيب أمر هؤلاء أنهم قد أودع الله فيهم قوة صبروا فيها على كل المهلكات ، ليمدوا الأمة العربية بمدد زاخر يمتد ويمتد ، أي قدرة في هذا البيت الشعر على أن يصبر هذا الصبر ، المرض ، بجميع أنواعه ، القحط ، الفقر ، القتل ، الاهمال ، كل هذه عوامل مبيدة عاش رغمها هذا البدوي يمد الأمة العربية في جميع أقطارها ، بما ملأ هذه الأقطار .

ان الفتح الأول لم يرسخ العروبة في مصر ، وفي ليبيا ، وفي تونس وفي الجزائر ، انما الذي رسخها وقضى على ماعداها هو زحف هذا البدوي « جهنيا يشكل دولة في جنوب مصر وشمال السودان • هلاليا ، عامريا ، سليميا ، يبتلع صعيد مصر ، ليكون عربيا ، يهضم ليبيا لتكون

العربية ، يطحن الأعاجم والأعجمية في تونس والجزائر ليجد الرديف قبله في المغرب وموريتانيا ، يتصافح معه ، بيد عربية • بسماحة عربية ، بلسان عربي مبين ، يتوج بالاسلام •

ولقد أنصفنا هذا البربري الصنهاجي صاحب اللسان العربي زعيم الاسلام في الجزائر عبد الحميد بن باديس يرحمه الله ، قالها كلمة وهو سليل الملوك الذين سلب ملكهم بنو هلال ، قال بانصاف يصف بني هلال : لئن قيل أنهم خربوا ، فقولوا لهم أنهم عربوا • وكأن عمر بن الخطاب ينظر بعين الغيب • كأنه ينظر الى انتشار أمته هذا الانتشار • قالها وهو المحدث ، قالها عبقري هذه الأمة ، قالها في عام الرمادة وقد أجدبت الأرض ، وأمسكت السماء فجاء هؤلاء البدو الى المدينة يلجأون اليه ، لم يتركهم • عاشرهم عاش معهم ، لم يطعم في بيته طعام ، ما أكل سمنا ولا زبدا ، ما دس في قعر داره عيشا ناعما ، بل كان يأكل معهم زيتا وخبز شعير ، صبر عليهم وصبر من أجلهم ، كتب الى ولاته يطلبهم المدد عيشا لهؤلاء ، كتب الى عمرو ابن العاص وهو في مصر يقول له : من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى عمرو بن العاص يا لكع بن لكع ، لا تبالي أن تعيش أنت ومن معك لأهلك أنا ومن معي • فكتب اليه عمرو بن العاص : لبيك ثم لبيك ، هذه العير أولها عندك وآخرها عندي ، وأكل هؤلاء أكل قوم عمر ، أمة محمد ، قالها عمر وهو يستغيث الله ، كتب على نفسه الرحمة ، قال وهو يستغيث : اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي •

● ● ورثة حضارة

البدو سكان الجزيرة ، ورثوا تراث حضارة من قديم القديم ، أنظروا الى آثارها الآن ان لم تتضح ، فستحمل لكم الكشوف الأثرية غدا العجيب العجيب وكما هم ورثة حضارة ، رواد حضارة ، مؤسسو عمران ، منظمو دول ، أفلا ينبغي لنا أن نلتفت اليهم ؟ ان هذه الوحدة في الكيان الكبير كله لا أحسبها الا ارهاصا لعمل كبير تأتي به هذه الأمة من بدوها وحاضرتها ، اذا ما تم الاعداد توجيها وارشادا وتعليما •

ان الدولة في شخص كل وزارة : المعارف والصحة والزراعة والمواصلات والشؤون الاجتماعية ، تسير سيرا حثيثا في تعليم الشعب ، في تعليم البادية ، ولكن رغم انتشار هذه المدارس وتحديد المناهج فاني أرجو من وزارة الشؤون الاجتماعية ووزارة الصحة ووزارة المعارف أن تتفق على تنسيق العمل بينها ٠

ان بعض هؤلاء يحتاج الى كساء ، ثوبين في الصيف ، وجاكتة أو بالطو في الشتاء تصرف لكل تلميذ ، رعاية لصحته ، اغراء له ولأمثاله بالدوام على الدراسة ، ان هذا لا يكلف كثيرا ، وشيء من التمر أو العدس ، في الصباح يعطي لهذا الطالب ، يشتريه ليتغذى به ، عشر تمرات أو قطعة من العجوة ، ان لم يكن العدس ، يأكلها ، هذا الطالب يتغذى به ٠ ان كوبا من العدس أو عشر تمرات عماد لمقاومة ضعف الغذاء ، وضعه حافظ عفيفي يرحمه الله في كتابه « على هامش السياسة » كمخطط لتغذية أبناء الريف لمقاومة السل ، كوب العدس ، بضع تمرات ، حفنة فول سوداني ٠ الفول السوداني لا لزوم له عندنا فالتمر متوفر وهو يغني عنه !

وشيء آخر ألفت اليه نظر وزارة المعارف ، فاني أرجو التقليل من من فخامة بناء المدارس في القرى ٠ ان أبناء مدرسة فاخرة في قرية كل بيوتها من اللبن ، أو بيوت الشعر ، أمر يضر بالتلميذ ، أقل أضراره كراهيته لبيته ٠ حتى اذا كبر ترك قريته وطلب المدينة التي فيها هذا البيت الكبير ٠ ان مدارس في « رابغ » بنيت حديثا أحسن بكثير من بعض المدارس التي بنيت في مدن كبيرة ٠ وحبذا أن يكون البناء قويا ونظيفا لا بهرج فيه ولا زينة ولا غير ذلك ٠ القصد منه عدم وجود الفوارق بين بيت الطالب ومدرسته ٠ وأعني بالفوارق : الفوارق الكبيرة ٠

هناك نوع من التصرف الحضاري سبقت به الأمة العربية كل الأمم ، وأعني به عملية الهضم ، هضم كل من عايشهم وساكنهم ، هضمت القحطانية العدنانية ، وهضم العرب الموالي والحلفاء ٠ كل من ساكن قبيلة وعايشها صار منها ٠ هذه العملية لا تتأتى الا لفكر حضاري ونفس متحضرة ٠ والأمثلة على ذلك كثيرة ، فالعرب سبقوا فيها الولايات المتحدة تهضم كل المهاجرين ، والعرب هضموا كل المتعايشين معهم والمساكنين لهم ٠ ومن الأمثلة على ذلك : لا ينبغي أن ننسى السكان في السودان يتبعون تقاليد عربية ليست غريبة علينا حتى في هذا « الجمل » اتخذته قبيلة الجمليين ٠ تدخل كل عربي فيها (قد جعلناكم منا) ٠

فليس هذا بدعا جاءت به قبيلة في السودان ، بل هو الأصل في الأمة العربية : هضم قحطانيها عدنانيها · فابتلع عدنانيها جرهمها ، حتى صار السيد فيها لغة وقيمة وقيادة وتحقيق هذا في جاهلية جهلاء ·

وبعد اسلام وبالاسلام (الولاء لمن اعتق) و (مولى القوم منهم) والدم الدم · والهدم الهدم · يشمل المولى والحليف والأصيل ·

ولقد كان بلال جمحيا قبل أن يعتقه أبو بكر فصار تيميا بعدما أعتقه (سلمان منا أهل البيت) تفعل هذا العربية في كل حين · جعلت من أبي حنيفة والحسن البصري والبخاري ·· الأئمة في اسلامها كالأئمة في أعراقها ، وجعلت من سيبويه مهندس نحوها وقانون لغتها ، وجعلت من الجرجاني والزمخشري والتفتازاني المهندمين لبنيانها · ومن الجاحظ وابن المقفع المقاييس للكاتب المبين ، وجعلت من أبي نواس وبشار ومهيار وابن الرومي المزخرفين لشعرها ، والزينة الحلوة في لغتها الشاعرة ، وجعلت وجعلت ·· جعلت من شوقي أمير شعرائها ، وستجعل وستجعل ، مادام هذا القول قائم فيها : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » · وستجعل مادام هذا الأثر الكريم يروى عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم « ليست العربية بأم أحدكم ولا بأبيه ·· كل من تكلم العربية فهو عربي » ·

اننا ، حينما نعني بالبادية انما نعمر أرضنا ، نصون أنفسنا ، فهم الأكثرية فينا ، والمعول عليهم في بناء دولتنا · ولعلكم تعرفون أكثر مني أن وحدة المشاعر كوحدة القبيلة ، كوحدة الأرض ، فيهم صنع لنا الشيء الكثير ، وقد يشعر أي حضري أنه غريب في مدينة أخرى يذهب اليها · أما هذا البدوي فانه لا يشعر بغربة حيث رحل في هذه الجزيرة · فلا الدوسري يشعر بغربة عند الجهني ، ولا العجمي يشعر بغربة عند الحربي ، ولا الغامدي يشعر بغربة عند الدوسري ·

هذا البحث يعرض لنقاش ودراسة أمور ثلاثة : مشاكل تعريف النظرية كوسيلة من وسائل التفسير العلمي ، مسلكا التفسير العلمي المسلك الاستقرائي والمسلك الاستنتاجي ودور كل منهما في الوصول الى الحقيقة وتفسيرها ، واخيرا دراسة مقارنة لبعض الطرق النظرية التي تستخدم لتفسير وشرح الوقائع . وهذا العرض لا يجب ان ينظر اليه على أساس أنه تخطيط مفصل للطرق العلمية . لأن أي نظري theorist يعلم أنه يجابه بثلاث مصاعب رئيسية : طرق الاستقصاء التي يتبعها لغرض تكوين فرضـيـة ، ثم الطريقة التي يستخدمها لتجميع وسائل التأييد لما يتوصل اليه ، وأخيرا الطريقة التي بواسطتها يقدم ما توصل إليه من نتائج .

مَشاكل تكوين النظرية العلمية

بقلم : الدكتور عبد العزيز عبد اللطيف آل الشيخ
قسم الجغرافيا - جامعة الرياض

تستعمل كلمة « نظرية » في العادة لتعني أشياء عديدة . فمن الممكن أنها تعني : أفكار غامضة ، أو افتراضات عن ما يرغب بالنسبة للسلوك الاجتماعي مثلا ، أو أية فرضية غير مختبرة . أو كما يذكر Harvey « أي تخيل تأملي قد يعتبر لذلك نظرية من نوع ما » (١) ولكن ما يهمنا هو النظرية العلمية والتي من الممكن أن تعتبر كمجموعة من الجمل المؤلفة من مفردات vocabulary وعبارات sentences وقواعد rules ونص أو متن text .

هناك تعريفات كثيرة للنظرية . وسنستعرض هذه التعريفات لغرض المقارنة : تعني النظرية عند البعض مجموعة من الافتراضات (٢) . النظريات بالنسبة لـ Blalock هي عبارة عن فرضيات لها الطابع القانوني . وهذه الفرضيات لابد أن تربط بأفكار مجردة concepts أو متغيرات . أو بمعنى آخر حسب رأي Blalock هي عبارة عن نظام معقد أو ترتيب يشبه بيت العنكبوت (٣) .

أما النظرية بالنسبة لكل من Reynolds و Stinchombe فهي ببساطة عبارة عن جملة نظرية theoritical statement (٤) .

وقد تعتبر النظرية العلمية ممثلة لبناء ذي مقياس أو وحدة قائمة بذاتها . ومن أجل أن تأخذ نظرية ما الصبغة العلمية ، يجب من ناحية مبدأية أن يتم تقديمها على هذا الأساس من البناء . لابد وأن تخضع النظرية العلمية لشروط معينة لكي تسمى بهذا الاسم . هنالك على الأقل أربع أسس يجب وضعها في الذهن : لابد وأن تكون النظرية متطورة لكي يكون لها فائدة ، كذلك لابد وأن يخضع النظرية العلمية للتجربة الواقعية ، كذلك لابد وأن تحتوي على منطق داخلي وأن تكون غير متناقضة ، وأخيرا يجب الا تكون النظرية فكرة متطرفة في التجرد ولا علاقة لها بالواقع (٥) .

ومن ضمن الشروط الأخرى للنظرية العلمية أن تكون قابلة للنقض أو الدحض falsifiability . ولكي تكون نظرية ما قابلة للنقض لابد وأن يعين نوع العلاقات ــ الموجودة بين سوابقها antecedents ولواحقها Consequent clauses مثلا جملة مثل « أ تنتج ب » ، « أ تسبب ب » ، « أ مربوطة بـ ب » ، « أ لها علاقة بـ ب » ، وما الى ذلك . مثل هذه الجمل من الصعب دحضها لعدم وجود ذكر في هذه الجمل هل أ هي شرط ضروري لـ ب أو هل أ هي شرط كاف لـ ب أو هل أ و ب شرط ازدواجي ؟ .

وفيما يتعلق بالنظرية وصلتها بالتفسير العلمي يذكر Zetterberg ان « البحث عن التفسير أو الشرح هو بحث عن نظرية » (٦) · وكما ذكر سابقا أن أي خيال تأملي قد يعتبر نظرية من نوع ما · ولكن يجب أن نستدرك وبسرعة أن نظرية من هذا النوع ·لا يمكن أن تصل الى مستوى النظرية العلمية بأي حال · والتفسيرات العلمية (كما سوف نناقشها) لها علاقة كبيرة بتكوين النظرية · ويعتمد نجاح النظرية الى درجة كبيرة على الطريقة التي أخذت بها هذه الجمل التأملية وحولت الى أنظمة من الجمل على درجة من الوضوح الجيد وذات جمل على درجة من التفسير الكبير · وعلى هذا الأساس من الممكن تعريف نظرية ما بأنها عبارة عن نظام واضح ذي جمل لها طاقة على القدرة التفسيرية articulate system of statements

وتعريف Hempel للنظرية يلخص ما ذكر سابقا من أن النظرية العلمية « من الممكن أن تعتبر كمجموعة من الجمل المعبر عنها بواسطة مفردات محددة » (٧) · ومن محتوى النظرية (المبين أدناه) ، يتبين لنا المقصود منها · تتكون النظرية العلمية من الأمور التالية :

١ ـ المفردات the vocabulary وتشتمل على :

(أ) مصطلحات بدائية primitive terms والتي لا يمكن تعريفها ·

(ب) مصطلحات محددة defined terms والتي من الممكن تكوينها من المصطلحات البدائية ·

٢ ـ الجمل sentences وتشتمل على :

(أ) جمل بدائية primitive sentences أو ما تسمى الجمل البديهية ·

(ب) جمل مستخلصة . derivative sentences أو فرضيات theorms

٣ ـ القواعد rules والتي تحكم تكوين الجمل المستخلصة · وهذه القواعد هي المتمثلة في الاستنتاج · المصطلحات البدائية والجمل البدائية والقواعد التكوينية تكون في نهاية ما يسمى ب calculus

٤ ـ النص text أو الشرح ، ويقوم بوظيفتين هامتين :

(أ) يعطي ترجمة اللغة النظرية العظيمة في التجرد الى لغة التجربة والتطبيق · وبدون مثل تلك الترجمة لن يكون بالإمكان تأييد النظرية أو دحضها ·

(ب) يحدد النص ميــــدان النظرية ويبين ذلك الجزء أو الأجزاء ،
الواقع والتي تغطيه النظرية ٠

وكمثال لما ذكر أعلاه نجد الهندسة الإقليدسية نســـــبة الى أقليد،
Euclidean Geometry ٠ تكون بعضـــا من مصطلحات هــذه النظر
(مثـــل : نقطـــة ، وخط و مســـتوى) ، المصـــطلحات البـــدائية
primitive terms واذا وضعت تلك المصطلحات في جمل تصبح الجمـ
البدائية primitive sentences والتي منها يستخلص التكوين الكلـ
للفرضية الهندسية الاقليدسية Euclidean theorm

التفســـير العـــلمي

يعرف Nagel التفسيرات العلمية بأنها الأجوبة على السؤال « لماذا »
وتبعا لنوع السؤال هنالك تفسير مطابق ٠ ويذكر أن هنالك أربعة أنوا
من التفسيرات (٨) :

١ ـ النموذج الاستنتاجي deducting model ، وهذا النـــــوع م
التفسير كثير ما يتبع في العلوم الطبيعية على الرغم من أنه ليس مقصور
على هذه العلوم ٠ ويمثل فرضيات هذا النـــوع من التفسير شر
كافيـــا ٠

٢ ـ التفسير الاحتمالي probabilistic explanation وهنا الفرضــيات غ
كافية منطقيا لتقرر الحقيقة للشيء المراد تعليله أو تفسيره ٠ ولكـ
يكفي أن يقال أن تجعل هذا الأخير محتملا ٠
ويعتبر التفسير الاحتمالي أحيانا نصف الطريق الى التفســـ
الاستنتاجي ٠

٣ ـ التفســـير الوظيفي functional explanation ؛ أو الغرضـ
teleological ، وهذا النوع غالبا ما يستعمل في البيولوجيـ
وفي دراسة شؤون الانسان ولو أنه ليس مقصورا على هذا الاستعمال
هذا النوع من التفسير يبين وظيفة أو أكثر من وظائف وحدة ما والتـ
لها دور ابقاء النظام أو تقوم بدور معين في هذا النظام ٠

٤ ـ التفسير التكويني genetic explanation ، وهـــذا المنمي غالـ
ما ينماه المؤرخون لتفسير ظاهرة ما أو لوصف أن شـــيئا ما تطو
زمنيـــا ٠

ينظر بعض الباحثين الى التفسير في صفته الاستنتاجية ولهذا يفرقون بين العلوم الطبيعية والانسانية . يذكر Dilthey مثلا أن الفكر الإنساني يختلف فيما يخص هذين الفرعين الرئيسيين من المعرفة من ناحيتي التكوين والطريقة . تعنى العلوم الطبيعية بالحقائق ، بينما تعنى العلوم الانسانية بالمعاني . تهتم العلوم الطبيعية بالناحية التعليلية explanation أو التفسيرية للظواهر ، بينما تأخذ العلوم الانسانية الطابع التأملي أو التفهم understanding

يخالف Rickert من ناحية أخرى Dilthey في هذا الشأن . يرى Rickert أن المجال العلمي هو التعليل للظواهر وهو لا يفرق في ذلك بين العلوم الطبيعية والعلوم البشرية أو الانسانية إلا أنه يعتقد بأن الفرق الحقيقي في الطريقة العلمية هو بين التاريخ والعلوم الأخرى . والفرق هو في كون العلم هو تحليل الطبيعة من ناحية القوانين السببية causal laws بينما التاريخ هو تحليل الطبيعة كنمط لحوادث فريدة unique events . (٩)

وبشكل عام هنالك مسلكان أو طريقتان من الممكن اتباع احداهما لتكوين قانون علمي .

١ ـ الطريقة الاستنتاجية ابتداء من مباديء عامة الى شرح لمجموعة من الحوادث الخاصة .

٢ ـ الطريقة الاستقرائية ابتداء من حالات معينة كثيرة الى تعميمات .

التفسير الاستنتاجي :

تتطلب البديهات axioms والقوانين والتفسيرات العلمية طريقة منطقية متينة من الاستنتاج deduction للاستدلال inference لأن تكون مفيدة . يذكر معظم الكتاب بأن النطق المناسب هو النطق الاستنتاجي . ويذكر Nagel أن « الفكرة القائلة بأن التفسيرات العلمية لابد وأن تأخذ دائما الشكل الاستنتاجي هي فكرة مؤيدة من الكثيرين » (١٠) ومن مميزات الاستنتاج بالشكل الاستدلالي هو أنه اذا كانت الأسس premises صحيحة فان النتائج conclusions ستكون صحيحة بالضرورة . ولهذا يرى Hempel أن التفسير العلمي يجب أن يكون بالأسلوب التالي : س١ ، س٢ ، ... ، سن (كمجموعة من الشروط

المبدأية) ، ل١ ، ل٢ ، لن (كمجموعة من القوانين) ولذلك فان أ هي الشيء المراد تفسيره • (١١) وهذا التفسير ، والذي يدعوه Hempel بالاستنتاج القانوني deductive nomological يشمل ذكر مجموعة من الشروط المبدئية ومجموعة من القوانين وهذه الأشياء مجتمعة تبين أن حادثة ما (أ) لابد وأنها وقعت بالضرورة •

التفسير الاستقرائي :

الطريقة الأخرى تتمثل في التفسير الاستقرائي • هذا النوع من التفسير العلمي يعتمد على الاحتمالات • يذكر Hempel بان هذا النوع مهمٌ بدرجة خاصة بالنسبة للتاريخ حيث العلاقات معقدة وخاصة أن هذه العلاقات بالنسبة للتاريخ غير خاضعة للتجربة المعملية • يقوم المؤرخون حسب رأي Hempel بما يمكن أن يطلق عليه التفسير التقريبي sketch explanation وليس التفسير المركز vigorous explanation ولهذا لا يعني المؤرخون بتكوين القوانين العامة • وبدلا من ذلك يعنون بتفسير الحوادث explanation of events والضعف الأساسي في الطريقة الاستقرائية هو أنه من الممكن أن نتوصل إلى خواتم (نتائج) خاطئة من أسس صحيحة (١٢) • وللمقارنة بين خطوات المسلك الاستنتاجي والمسلك الاستقرائي أنظر شكل (١) •

طرق تكوين النظرية : مقارنة

١ ــ استراتيجية البحث ــ ثم ــ النظرية Grounded Approach

يرى المؤيدون لهذه الطريقة أن الباحث يجب ألا يقدم أفكارا مجردة بل ليدع البيانات data تتكلم بنفسها • وهذه الاستراتيجية من البحث يطلق عليها Reynolds استراتجية « البحث ــ ثم ــ النظرية • » وهذه الطريقة من الممكن مقارنتها بالاستراتيجية الاخرى وهي « النظرية ــ ثم ــ البحث » • الاستراتيجية أو المنهج الأول مبني على الافتراض القائل بأن هناك أنماطا حقيقية موجودة في الطبيعة ومهمة العلماء هو اكتشاف هذه الأنماط • ولكن هذه المهمة ليست سهلة لا سيما اذا كان بناء النظرية في ميدان العلوم الاجتماعية ، وذلك لسببين : الأول هناك كثير من المتغيرات والتي من الممكن أن تسهم في تفسير ظاهرة من الظواهر ، الثاني وجود عدد كبير من العلاقات السببية والتي تحتاج الى تصنيف (١٣) •

طريقة تحليل الحقائق Factor Analysis أو في الواقع تجميع

الحقائق هي طريقة تسمح للباحث بأن يقرر ما هي المتغيرات التي من الممكن أن تصنف تحت مجموعة من المجموعات • ولكن من المشاكل المتعلقة بهذه الطريقة هي مشكلة الجزء النظري لمعرفة هذه المتغيرات وما تنتمي إليه من مجموعات • صحيح أن تلك الطريقة تجعل في مقدور الباحث تجميع عدد كبير من الدلائل والتي لها بعض الفائدة النظرية وتحويلها الى عدد صغير من المتغيرات • ولكن من الممكن أن ينتهي الأمر بالباحث إلى تكوين مجموعة من الحقائق factors والتي لها أهمية نظرية قليلة جدا (١٤) •

ولتفادي مثل هذه المشكلة لابد وأن يكون هناك افتراض ضمني فيما يخص عدد الحقائق المتعلقة بمجموعة من المتغيرات • يبين Armstrong الخطورات الموجودة في طريقة تحليل الحقائق factor analysis عندما لا يوجد فرضية أو نظرية (١٥) •

٢ ــ الطريقة البديهية Axiamatic Approaeh

على خلاف الطريقة الاولى هذه الطريقة تؤكد على استراتيجية « النظرية ــ ثم ــ البحث » • ومن شأن هذه الطريقة التي تشتمل على اختصار عدد التعريفات الى أدنى حد وعلى ترتيب الافتراضات أن تجبر الباحث على توضيح افتراضاته وسوف تذكره بأي تجاوز لأية ضمنيات • وباستعمال جدول الطريقة البديهية يستطيع الباحث أن يدرك أي من الافتراضات له علاقة بافتراض ما وليس له الصفة القانونية • فلو أن أحد الافتراضات مثلا استخلص من افتراضين آخرين ثم اكتشف أنه غير صحيح هذا يعني أن الافتراضين الآخرين غير صحيحين ولهذا من الممكن استبعادهما من الجدول matrix •

ومشكلة تلك الطريقة تنحصر في كيفية اختيار البديهيات axioms • يقترح بعض الباحثين أنه من الممكن اختيار تلك الجمل التي لها مرتبة القانون فقط • ولكن المشكلة هنا أن القانون لابد وأن يؤيد تأييدا كاملا من الواقع قبل أن يصبح قانونا (١٦) • بينما يقترح Blalock بأن الجملة التي لها علاقات سببية من الممكن أن تؤخذ كبديهيات axiomatic (١٧) •

على الرغم من بعض الصعوبات المتعلقة بالشكل البديهي axiomatic form • لهذه الطريقة عدة مزايا منها :

١ ــ تتوفر فيها أعلى امكانية بالنسبة لكمية البيانات الميدانية •

٢ ــ من الممكن إدراك مصدر فشل الفرضية عند تعريضها للفحص الواقعي •

٣ ـ يسمح هذا النمـــوذج بالتفريق الواضـــح بين الافتراضات propositions أيٌّ منها تعريفات وأيٌّ منها فرضيات .

٤ ـ تمثل الأفكار والافتراضات أعظم اختصار لنتائج البحث .

٥ ـ ليس من الضروري لجميع الأفكار أن تكون قابلة للقياس .

٦ ـ الشكل الاكسيوماتيكي يمكن الباحث من فحص جميـع مراحل افتراضاته .

٧ ـ الشـــكل الاكسيوماتيكي من النظرية يعـادل الشكل السببي causal process (١٨) .

٣ ـ الطريقة المثالية Ideal Typical Approach.

تعتبر هذه الطريقة مركبا فكريا . هذا النــوع يسمى مثاليا لأنه يوجد كفكرة . يقول Weber أنه من النادر جدا أن توجـــد في الحياة نفسها (١٩) . والنوع المثالي ليس فرضية وإنما هو وسيلة (أداة) تحليل لحوادث تاريخية ثابتة . وهذا النوع من التحليـــل يتطلب أفكارا محددة وبطريقة دقيقة (٢٠) .

ففي ميدان النظرية الاجتماعية يجادل في حديثه عن الاقتصاد والمجتمع ويقول من أجل التحليل العلمي النموذجي typologial scientific analysis من الممكن مثلا معالجة السلوك غير المعقول irrational كحالات شاذة من النوع المثالي المعقول rational ideal type . ولهذا فالعالم الاجتماعي مثلا يستطيع دراسة الطرق التي بواسطتها يتأثر السلوك البشري بمبادىء غير المعقول non-rational .

إلا أن هذه الطريقة لها مصاعبها . تلك الصعوبات يبينها Weber في نموذجه الرباعي لتفسير الحركة الاجتماعية والمبني في كل حالة على أسلوب التوجيه السلوكي . هناك صـــنفان للحركة الاجتماعية يعتبرهما منطقيين : rational أحدهما الوسائل للغـــايات means to ends والثاني الوســائل للقيم means to values . أما الصنفان الآخران فهما التقليدي traditional والعاطفي affectional .

ولكن هنا تبرز الصعوبة التالية : إذا كان النوع المثالي (وفي هـذه الحالة يفترض أن هذا النوع مبني على أساس التصرف المعقول) كيف يكون من الممكن تكوين أنواع مثـــالية من التصرف غير المعقول ؟ لم تســـتطع تفسيرات Weber أن تحل عدم الانسجام هذا .

الفائدة الرئيسية للنوع المثالي ideal type هو أنه يكون نموذجا مجردا abstract model . ومن الممكن بعد ذلك أن يدرك أي اختلاف أو شذوذ عن النوع المثالي ومن الممكن أن تكون النظرية لتفسير مثل تلك الاختلافات وهذه الطريقة من باب تفسير الأشياء بأضدادها .

٤ ــ الطريقة النموذجية Analogical Approach

يعني المصطلح " analogy " أو النموذج anologue تحويل نوع من النموذج أو النظرية الى نوع آخر من النموذج أو النظرية . قد يعني النموذج لبعض الناس نظرية ، أو قانونا ، أو علاقة ، أو فرضية ، أو معادلة . وتستعمل النماذج للكشف عن الحقيقة وتستخدم كوسائل للشرح أو لتساعد على التوقعات المطلوبة (٢١) .

وأبرز المشكلات المتعلقة بالنماذج هي علاقة النماذج بالنظرية . لقد أكد Nagel بأن أي نموذج يجب أن يعتبر متميزا عن النظرية . كما أن النموذج يجب أن يشتمل على نفس التكوين كما في النظرية التي يمثلها . واذا أخذنا بوجهة النظر تلك ، فوظيفة النموذج هي اعطاء تفسير للنظرية (٢٢) .

ولذلك من الأهمية بمكان أن نفرق بين النماذج والنظريات . النماذج غالبا ما تكون مصدرا مفيدا لاقتراح فرضيات ، ولكن لا تستطيع النماذج وحدها أن تبرهن شيئا . يصبح النموذج نظرية عن العالم الحقيقي عندما يوضح جزء من ذلك العالم ضمنه .

أما فيما يتعلق بأنواع النماذج نجد أنها أربعة أنواع حسب رأي Kaplan (٢٣) :

١ ــ النماذج الطبيعية والتي تشمل نماذج المقاييس .
٢ ــ النماذج المتماثلة Symmetrical والتي تشمل النماذج الفكرية ونماذج اللعب game models .
٣ ــ النماذج الشكلية .
٤ ــ النماذج التفسيرية .

أما Chorley فيعطي تصنيفا آخر للنماذج فيقسمها إلى ثلاثة أنواع (٢٤) : ــ

١ ــ النماذج الرياضية بعضها مبني على مسببات حتمية ولهـــذا تسمى نماذج حتمية deterministic models وبعضها مبني على مسببات احتمالية وهي لهذا تسمى نماذج احتمالية stochastic models

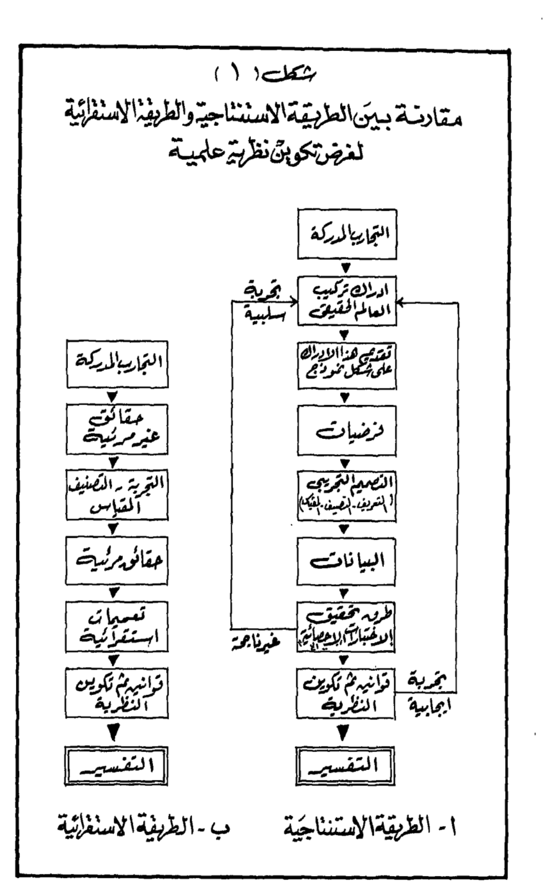
٢ ــ النماذج التجريبية ، وتشمل نماذج القياسية ٠

٣ ــ النماذج الطبيعية ، وتلك نماذج مبسطة والتي من الممكن أن تستخدم كأساس لدراسة أخرى ٠

واستخدام النماذج معترف به منذ وقت طويل كأداة قوية لكل مرحلة من مراحل التعليل ولإلقاء ضوء على الواقع ٠ إلا أن هناك مشاكل تتعلق باستعمال النماذج ناتجة عن عدم الاتفاق حول الطرق الصحيحة التي تتبع لاستخدام النماذج في التحريات العلمية ٠

هنالك طريقتان فيما يتعلق باستخدام النمـــاذج : الطريقة الأولى النظرية ثم النموذج ٠ وهنا تقدم النظرية بواســـطة نوع من التكوين النموذجي ٠ وفي هذه الحالة يطور النمـــوذج ليمثل النظرية ٠ والطريقة الثانية هي تكوين نموذج يسبق تكوين النظرية نفسها ، وتلك الطريقة هي الأكثر اتباعا في العلوم الاجتماعية ٠

هنالك طرق أخرى من الممكن استعمالها لتـــكوين النظرية العلمية وتشمل على سبيل المثال الطرق التحليلية analytic ، وطريقة الأنظمة Systems ، وطريقـــة اللعب game ، ثم الطريقة الرياضـــية mathematical (٢٥) ٠ وليس هناك طريقة من الممكن أن تفضل على أخرى ، فمن الاستعراض السابق اتضح أن لكل طريقة مزاياها ومساوئها وكذلك مشاكلها ٠ ويعتمد اختيار طريقة ما أو اهمال أخرى على عدة أمور منها غرض البحث ، وطبيعته ، واستراتيجيته ، واطلاع الباحث وتمكنه من استيعاب الطرق العلمية المكونة للنظرية العلمية ٠



شكل (١)
مقارنة بين الطريقة الاستنتاجية والطريقة الاستقرائية
لغرض تكوين نظرية علمية
التجارب المدركة
ادراك تركيب
العالم الحقيقي
تجربة
سلبية
تقديم هذا الادراك
على شكل نموذج
فرضيات
التصميم التجريبي
(التعريف - التصنيف - القياس)
البيانات
طرق تحقيق
الاختبارات الاحصائية
غير ناجحة
قوانين ثم تكوين
النظرية
تجربة
ايجابية
التفسير
التجارب المدركة
حقائق
غير مرئية
التجربة - التصنيف
المقياس
حقائق مرئية
تعميمات
استقرائية
قوانين ثم تكوين
النظرية
التفسير
ا - الطريقة الاستنتاجية
ب - الطريقة الاستقرائية

الهــوامش

1. D. Harvey, Explantion in Geography, (New York : St. Marin's Press, 1969), 87.

2. N. S. Timasheff, Sociological Theory, Its Nature and Growth, New York : Random House, 1961.

3. H. M. Blalock, Jr., Theory Construction : From Verbal To mathematical Formulations, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, Inc., 1969.

4. P. D. Reynolds, A Primer in Theory Construction, Indianapolis, Ind. : The Bobbs-Merrill Co., Inc., 1971; A. L. Stinchombe, Constructing Social Theories, New York : Harcourt Brace & World, Inc., 1968.

5. F. S. Chapin, " Selected Theories of Urban Growth, " in Internal Structure of the City, (Ed.), L. S. Bourne, New York : Oxford University Press, 1971), 141.

6. H. Zetterberg, On Theory and Verfication in Sociology. (Totawa, N. J., 1965), 11.

7. C. G. Hempel, Aspects of Scientific Explanation, (New York, 1965), 182.

8. E. Nagel, The Structure of Science : The Problems in the Logic of Scientific Explanation, London : Routledge & Kegan Paul, 1916.

9. D. Martindale, The Nature and Types of Sociological Theory, Cambridge, Mass. : The Reversid Press, 1960. Sss also : R. Hartshorne, Perspective on the Nature of Geography, (Washington, D. C. : The Assoc. of Am. Geogr., 1959), 98-107.

.0. E. Nagel, (1961), 29.

.1. G. G. Hempel, (1965).

.2. D. Harvey, (1969), 37.

.3. P. D. Reynolds, (1971), 140-142.

.4. H. M. Blalock, Jr., Socal Statistics, (New York: Mc Graw-Hill, 1960), 384.

15. J. S. Armstrong, " Derivation of Theory by Means of Factor Analysis or Tom Swift and His Electric Factor Analysis Machine, " The Amer, Statistician, 21 (1967), 17-21.

16. P. D. Reyanlds, (1971), 95.

17. H. M. Blalock, (1969), 18.

18. P. D. Reyonlds, (1971), 96.

19. M. Weber, The Theory of Social and Economic Organzation, Trans. by A. M. Henderson and T. Parsons, Glenco, Ill. : The Free Press and the Falcon's Wing Press, 1947. See also : M. Weber, The Methodology of Social Scinces, (English edition, Glenco, Ill. : The Free Press, 1949), Chap. 2.

20. M. Weber, (1947), 90.

21. R. L. Ackoff, Scientific Method, New York : John Wiley & Sons, Inc., 1962.

22. E. Nagel, (1961), 96.

23. A. Kaplan, The Conduct of Inquiry, San Francisco, 1964.

24. R. J. Chorley, " Geography and Analogue Theory, " Annals of the Associ. of Am. Geogr., 54 (1964), 127-137.

25. For analytic approach, see : T. Parsons, The System of Modern Soceties, Englewood Cliffs, N. J. : Prentice-Hall, Inc., 1971. For systems approach, see : Von Bertaleuffy, " General System Theory, " in System, Change, and Conflict, (Eds.), N. J. Demorath and R. A. Peterson, (New York : The Free Press, 1967), 115-129. For game approach, see : A. Rapoport, Two-Person Game Theory Essential Ideas, Ann Arbor : The University of Michigan press, 1966.

أحاديث عن أحاديث السَّمَر

بقلم

الدكتور محمد السليمان السديس

مرت على داخل شبه الجزيرة العربية قرون عدة أرخت سدولها عليها دياج كثيفة الظلمة ، وتراجعت أثنـــاءها ألوان المعرفة عن ميادين الحياة ، وتقوقعت حتى كرُبت أن تُقبر في جدثٍ ذي جـــوف عميق ٠

فمنذ وقع اختيار الأمويين لدمشق عاصـمة للدولة العربية ، وبني العباس ـ من بعدهم لبغداد نات مراكز الإشعاع الحضاريّ والمدّ الثقافيّ عن بلاد العرب ما خلا الديار الحجازية التي ضمن لها الركن الخامس صلة لا تنقطع بتلك المراكز وبغيرها ، وأثمرت تلك الصلة الدائمة حركة فكرية لم تتسنّ للأنحاء الداخلية ٠

وكأن من ثمرة تلك العزلة التي تمطت بصـــلبها ، وأردفت أعجازا وناءت بكلكل ، وضربت أطنابها قرنا إثْرَ قرن إلى أن أزاحتها النهضة الحديثة ، أن تبددت معظم الموروثات الثقافيـة التي صنعتها الأجيال خلال ما يذرّف على ألف عام ٠

إن الأحداث التي يروي لنا آباؤنا أخبارها ـ حتى تلك التي وقعت في بداية القرن الهجري الماضي على قربه ـ كثيراً ما تصل إلينـــا محرفة أو ناقصة ، ناهيك بالذي ضل الطريق الينا وخانت الذاكرة الشعب فلم يعِه ! فما بالك بأحداث جرت في القرن السابع أو الثامن ؟ أو حتى القرون الثلاثة التالية لهما ؟ ٠

لا شك أن هذه الفيافي ، وما في بطونها من أماكن استقرار ، كانت ميدانا لما لا يعدّ ولا يحصى من الأحداث التي لو وصلتنا أخبارها لألفينا في بعضها عبرا وعظات ، وفي بعضها الآخر متعة وسلوى ٠ ولكان في بعضها ما يحفزنا على مكارم الأخلاق ، وفي بعضها ما يثبطنا عن رديء السلوك ٠٠ وفيها كلها ملء ثغرات تكاد تكون خالية في أذهاننا عن تلك الحقب ، وعن النمط الحياتيّ الذي سار عليه الأجداد في معيشتهم اليومية ، وتعامل بعضهم مع بعض ، وتعاملهم مع الأشياء ، وتكيفهم مع محيطهم المتقشف ٠

وفيها إلقاءٌ ضوءٍ على جذورنا وتذكيرٌ لنا بأصولنا ، ونحن الآن في هذه الحياة الصاخبة المضطربة الشاغلة الملهية المتعبة أحوج ما نكون الى مثل ذلك التذكير ، ليكون زماما يكبح جماحنا عن الاغترار ببريق الحضارة وقشورها المتلألئة ٠

ان تلك الأخبار لبنة لا غنى عنها في تاريخنا ، مهما كانت مضامينها ٠٠ فالخبر ذو المضمون السيىء ، هو الآخر ، لا يخـــلو من درس ومغزى ٠٠

والحياة مزيج من الخير والشر ، والعـــذوبة والمرارة ٠٠ ولولا ذلك لكانت جنـــة ٠

وقد أدرك المرحوم الأستاذ فهد المارك في وقت مبكر نسبيا قيمة تلك الأخبار ، فانتخب منها القصص ذات المعنى الكريم المشرف ، وأمضى زمنـا طويلا يجمعها ويتثبت من صـــحتها ، ويرويها عن رجال ثقات ان أمكنـه ذلك ، وألف منها كتابه ذا الأجزاء الأربعة (من شيم العرب) فكان رائدا في هذا المضمار سجل قصصا رائعة كاد يطويها النسيان ٠ فرحمه الله رحمة واسعة وأثابه على عمله الجليل ٠

وحذا حذوه المرحوم الأستاذ محمد الأحمد السديري فألف « أبطال من الصحراء » وصدر الجزء الأول منه ، وخص به بعض أبطال قبيلة عنزة وحدها ، ولم تصدر الأجزاء الأخرى ، وقد اخترمت يد المنون المؤلف قبل أن يتم كتابه ! ٠ ياحبذا لو طبعت الأجزاء الباقية ان كان قد أتم تأليفها !

ثم سلك مسلكهما الطيب الأستاذ العلامة الشيخ عبد الله بن خميس فلمّ شتات عدد من القصص في كتاب أسماه (من أحاديث السمر) وصدر الجزء الأول منه منذ وقت غير بعيد ٠٠ وقد اهتم بالقصص التي كانت المناطق الداخلية من بلادنا مسرحا لها ٠

وعمل الشيخ ابن خميس إدراك منه لحاجتنا الى تدوين القصـــص والأخبار الحقيقية التي تصور لنا بعض جوانب حياة أجدادنا الأدنين ٠٠ وتعرفنا على كثير من عاداتهم ومواقفهم ونظرتهم للأمور ٠٠ وهي جزء مهم جدا من مأثورنا الثقافي الذي ينبغي أن نبادر الى التشبث به وتسجيله قبل أن نلتمسه فلا نجده لأن النسيان يكون قد حال بيننا وبينه ٠

لقد أسدى الأستاذ ابن خميس خدمة جلى لبني وطنه عامة ، وللمهتمين منهم بهذا اللون القصصي وبالتراث الشعبي الشفوي خاصة ٠

وصياغة القصص بأسلوب عربي فصيح بعد سماعها تحكى بكلام عامي تتطلب رسوخ قدم في اللغة ، وغزارة في المادة العلمية والأدبية ، وبراعة في بناء الجمل ، وفي تحويل العبارات العامية إلى فصيحة أو استبدالها بجمل يستسيغها القارىء المثقف الحديث ٠٠ ولست أنوي أن أزعم أني أجود على المؤلف الفاضل فأعلن توفر هذه الأمور فيـــه ، فقد حازها بنفســـه ٠٠ و (حلبها بالساعد الأشدّ) ، وشهدت له تلك المقالات الرائعة التي كانت تدبجها يراعته في السبعينات والثمانينات الهجرية على صـــفحات مجلته ـ المحتجبة الآن ـ (الجزيرة) ٠٠ ثم إسهاماته الكثيرة في الحيـــاة الأدبية

والثقافية لهذه البلاد والتي استرعت اهتمام القاصي والداني حتى رشحه المجمعان لعضويتهما ٠

إن القصص السبع والثمانين التي حوتها دفتا ذلك الكتاب ثروة لأبناء الجزيرة الذين آن الأوان أن ينبشوا التراب عن جذورهم ٠٠ وأن يقرأوا متأنين متأملين أعمال سلفهم المكافح الصابر المثابر ، بما فيها من حسن وسيىء ، فالثمرة المجتناة هي العبرة في الحالين كلتيهما ٠

لقد أحسن المؤلف الكريم بتدوين تلك القصص قبل أن يأتي الوقت الذي تخفق فيه الذاكرة الشعبية في الإلمام بها ، وبأحداثها ، وبأسماء شخصياتها ، ومسارح وقائعها ٠٠ فتندثر كما اندثر سواها من تراث هذه الأمة النفيس ٠٠ فاستحق بما عمل الثناء العاطر والشكر الجم والتسامح الكثير ٠٠ على أن التسامح لا يعني أن يكفّ القارىء عن التنبيه على ما قد يصادفه في الكتاب من هنات وهفوات لا تخدش وجه العمل ، ولا تسلبه ما يستحقه من قيمة ، فالكمال لذي العزة والجلال وحده ٠

ولذلك فقد أحببت أن أتصفح الكتاب تصفح المتريث ، فأتأمل بعض الأساليب التي تستوقف القارىء لحسنها ، أو لخلاف ذلك ، وأدلي ببعض الملاحظات حوله ، وألفت النظر الى أخطاء نحوية ولغوية وغيرها ٠ ولم أتعمد الاستقصاء ٠ وما لي من غاية سوى سد الخلل في الكتاب لتكتمل فائدته ٠ وأنا على ثقة أن المؤلف الكريم سيسعد بملاحظاتي ويتقبلها بصدر رحب ، وروح راضية ٠ عسى أن يكون فيها ما آمله من نفع أرجو أن يظهر أثره على الكتاب في طبعة له لاحقة ٠

ملاحظات عامة :

١ ــ يعلق المؤلف الفاضل على كثير من قصصه ٠٠ وقد دعاه الدكتور عبد الستار الحلوجي الى الاستغناء عن تلك التعليقات لأن القارىء « يحب من المؤلف أن يثق به ، وأن يطمئن الى قدرته على فهم مغزى القصة ، أما أن تأخذ بيده لتدله على موطن العظة والعبرة فيها ، فذلك أمر يتنافى مع طبيعة القصص ، فما ينبغي لقاص أن يوقف الأحداث ليخطب فينا بما يراه ، بل عليه أن يحرك الأحداث في الاتجاه الذي يوصلنا الى مايريد أن يقوله دون أن يسمعنا صوته » (١) ٠ وأضم صوتي الى صوت الدكتور الحلوجي فأحث المؤلف الكريم على تحرير الكتاب من معظم تلك التعليقات ، وإبقاء القليل الضروري منها ، أو أن تفصل عن المتن وتسرد مرقمة في آخر الكتاب ٠

انها حقا ثقيلة على النفس ٠٠ فقارىء القصة الحقيقية يتطلع لما فيها من طرافة أو غرابة أو ندرة أو إثارة ٠٠ والتعليق يعـوقه عن هدفه ، ويزعجه ، مما قد يحـدو به الى الكف عن القراءة ٠ ويلاحظ أن المؤلف الفاضل يخص بالتعليق الأعمال المجيدة ، أما غيرها فنادرا ما سمعنا صوته عاليا واضحا ، حتى وان كانت انتهاكات صارخة للقيم الدينية والإنسانية مثل مقتل بندر السعدون وقومه (ص ١٤٥) ٠

وفي الصفحات ٦٨ و ٩٣ و ٩٦ و ١٤٩ و ١٥٥ تكرر ذكر تقليد سائد من أسوأ تقاليدنا وأضرها وأكثرها تعارضا مع التعاليم الإسلامية وحقوق الإنسان ، لما فيه من تسلط وإجحاف ، وسلب لحرية الانسان في أن يسلك السبيل الذي يختاره في أهم شأن من شئون حياته ، وهو الزواج ، ذلك هو (الحجر) ٠٠ وهو أن يكون لابن عم الفتاة في البادية الحق في أن يتزوج بها راضية أو ساخطة ٠٠ ويمنع غيرها من خطبتها ٠٠ واذا لم تقبله زوجا لها حال بينها وبين إتمام دينها قسرا (اي حجر عليها) فلم يقبل أن تتزوج ٠ هذه العادة الذميمة كانت بحاجة الى تعليق مسهب (وليس مختصرا كما فعل المؤلف) في الحاشية يبين مضارها ومجانفتها للحق ، ومجافاتها للصواب ، ومخالفتها لتعاليم الدين ، وآثارها الضارة لا على المرأة البدوية فحسب ، ولكن على علاقات الناس في ذلك القطاع الهام من هيئتنا الاجتماعية وأعني به أبناء البادية ٠

٢ ـ يغفل المؤلف الكريم شرح معاني الأشعار والقصـائد العامية وكلماتها ، وكثير من المفردات العامية التي ترد في ثنايا الكتاب ٠٠ مما ضيق دائرة الاستفادة منه ، وجعله وقفـا على فئـة من القراء ٠٠ إذ أنّى لمن لا يتحدث بلهجة تلك الأبيات أن يفهمها ؟ ومعظم القراء كذلك ٠ ثم إن علينا أن نشرك غيرنا في الاستمتاع بهذه القصص والانتفاع بها ، فلابد أن نحل لهم معمى ألفاظها ومستعصى معانيهـا ، وما يكمن في بعض التعابير والاصطلاحات من دلالات وإشارات لا يلمّ بها الا الناطقون بلغتها ٠

ولست أقصد أن المؤلف يهمل دائما تفسير الألفاظ ذات المدلولات المحلية ٠٠ فقد فسر عددا منها (مثل الدحل ص ١٣٥ والقطي ص ١٣٧) لكنه يهمل الكثير (مثل القشك ص ١٥ ـ المغربة ص ٤٨ ، رخله ص ٤٩ ـ غيـه ص ٢٦ ـ حيافه ص ٢٥) ٠

٣ ـ ذكرت في الكتاب أعـلام كثيرة لأماكن ، وقبـائل ، وأشخاص مشهورين ، يعرف المؤلف ببعضها تعريفات كافية على الرغم من ايجازها ،

ويغفل بعضا · ومن أمثلة هذه الأخيرة المغفلة : الفغم (لعله الفرم) ، وجويدي العاصمي ، وابن منـــديل الخالدي ·· وقد جاء ذكرهم كلهم في ص ٨٢ ، ومنها (حفيرة الشقيق) ، و (بيضا نثيل) وذكرتا في ص ١٣٧ ، و (عريق المظهور) و (نواظر) وذكرتا في ص ١١٦ ، و (الحتيفة) وذكرت في ص ١٤٠ :

وحديثنا عن الأعلام في الكتاب يجرنا الى تمني أن يحتوي الكتاب على مسرد لما ذكر منها فيه ·

٤ ـ قصيدة (عدوان الهربيد الشمري) في ص ١١ ، تنتهي كلمة الروي فيها بالهاء ، وكان الأدق أن تنتهي بالياء طبقا للهجة شمر وسكان منطقة حائل الذين يميلون الى قلب تاء التأنيث ـ مفتوحة كانت أو مربوطة ـ ياء ، أو ياء بعدها هاء كما في (غابي) أو (غابيـــه) أي (غابت) · و (نخلي) أو (نخليه) أي (نخلة) ·

وكان من المفيد إيضاح ما اعترى الروي والتحدث عن هذه الظاهرة في الحاشية ·

٥ ـ ص ٧٣ شطح يراع المؤلف لما تحدث عن قصيدة أبي تمام في فتح عمورية ، ولم يقتصد في وصفها بل غلا كثيرا فوصفها بأنها « لم يتنفس شاعر في فتح بمثلها ولا قريب منها ، لأنها صورت حقيقة ووصفت واقعا » · هذا قول ناء عن الدقة ·· لا قيمة له مالم يقرأ قائله شعر شعراء العـــالم عن بكرة أبيهم ·· ويمعن في تفهم الالياذة والأودسا والمهابهاراتا والرامايانا والزندافســـتا ·· واذ ذاك له أن يوازن بين قصـــيدة حبيب بن أوس والأشعار المقولة في الحروب ، ويقول ما قال ·

ومما يلاحظ على المؤلف الفاضل عدم اقتصاده أحيانا في الوصف ، وعدم اختيار الألفاظ ذات المعاني الدقيقة المحددة ، الخالية من المبالغة التي وان استعذبت في الشعر القديم لا تروق لقارىء النثر الحديث ·· فنجـده في حديثه عن (القرى) في قلب الجزيرة ـ على سبيل المثال ـ ص ١٢٢ يثني على كل الناس فيقول :

« وكل قرى قلب الجزيرة يتسابقون على الجود ، ويتنافسون في الخير ، يأبون الا عاداتهم العربية الأصيلة ، وسلوكهم الخلقي المعروف » ··

هذا الثناء عاطفي شبيه بمدح أم العروس وما شطتها إياها ·· لايصمد للفحص العقلي المجرد ··.ففي القرى تجد كثير من الأدواء الاجتماعية كالحسد والتشاجر والأثرة لها أرضا خصبة ·· ومن أهل القرى من لا شاغل له

سوى التدخل فيما لا يعنيه ، والتطفل الساذج ، والغيبة ، وانتقاص الآخرين ٠

ويقول في ص ١٨١ : « كل هذه الصفات وغيرها تجدها في الأعرابي ، ولكن صفات الخير ودواعي الفضيلة تغلب دائما فيه الصفات الأخرى ٠٠ »
كان الأدق والأحوط أن يقول : « ٠٠ غالبا ما تغلب فيه الصفات الأخرى ٠٠ » لا « دائما » ٠

ويقول في ص ٣٩ : « وهكذا يقضي على الجريمة في وسط لا تسوده غير عاطفة الخير ، ولا يحكمه الا تعالي النفوس عن الرذيلة ، وحبها لشيوع الفضيلة » ٠ فما رأيك ــ بورك فيك ــ فيما ذكرته لنفسك في قصة (طريق الجلمودية) ــ ص ٨٧ ــ مما صنعه (العصلب الظفيري) من دفن للمناهل التي بين نجد والعراق ؟ ألم يكن ذلك عملا اجراميا شنيعا ؟ وما صنعه عبد العزيز بن متعب بجنديه البر المطيع (فهد الهثيمي) حيث دبر له مكيدة كادت تهلكه (قصة حوادث الدهر ص ٢١٧) و (فلاح ابن زبدية الرشيدي) من اختطاف لفتاة بريئة (قصة « ما كنت أول عاشق » ص ١٤٩) ، والأشنع من ذلك استسهال قتل النفس التي حرم الله ٠٠ كما فعل (على سبيل المثال فقط) صفوق الجربا وقومه ببندر السعدون وتمزيقه شر ممزق (قصة « الجواب ما ترى لا ما تسمع » ص ١٤٣ ــ ١٤٦) ٠ وفي هذه الأمثلة ، وأشباهها لا تحصى ، شاهد على أننا ، كغيرنا تماما ، فينا البر والفاجر والخير والشرير ٠٠ ولا يليق بنا أن نضفي على أنفسنا من الاطراء ما يشبع غرورنا ٠٠ ويكون غذاء ضارا لناشئتنا الذين ما أن يشبّوا عن الطوق ويبصروا العالم حتى يتبين لهم أن ما اعتادوا سماعه ما هو الا ألفاظ جوفاء لا طائل تحتها ٠٠ وحينذاك يواجهون صدمة نفسية تهز عقولهم ، وتضعف قناعاتهم حتى في الحق مما يسمعون عن أسلافهم ٠

٦ ــ أورد المؤلف الكريم في ص ١١٤ س ١٦ في سياق قصة (الشريف جبارة) معنى التعبير المألوف : « هذا الفال ويتبعه العقال » على هذا النحو « هذا الفال ويتبعه ما بعده » ولعل الأحسن في مثل هذه الحالة ذكر التعبير الشائع بنصه ، ثم اعادة معناه بألفاظ فصيحة ٠

٧ ــ استعمل المؤلف الكريم تعبير (الرجل المريض) في حديثه عن (السلطنة العثمانية) ص ٢٢٤ س ٩ ، وهو تعبير صنعه الغرب المسيحي ، ويجتر معه قدرا غير قليل من الزراية بل والشماتة بدولة بني عثمان وبتركيا ٠٠ فمن اللباقة واللياقة أن لا نحاكيه في استعماله ٠

٨ ـ ص ١٢ س ٨ ورد البيت :

تيسٍ يُحطّه وال الأقدارْ بِيديـــكْ
أحلى من الشّرشوحْ عنـــد الرِّفاقهْ

ولعجزه رواية أخرى هي (اَخْيَرْ مْنَ الشّمْشَولْ بِيدْ الرِّفاقِهْ) ٠

الأســـلوب :

لا يخفق الكتاب في ان يمتع قارئه بأسلوب الشيخ ابن خميس الأدبي الأخاذ ٠٠ لنقرأ مثلا هذا الوصف الدقيق لهيئة (قاطع الطرق) ووسائله التي تضمن له البقاء طويلا في البراري لممارسة مهنته ٠٠ « هذا أحـــد لصوص الخيل يقطع الديار ماشيا على قدميه ، ويسير في الليل ، ويكمن في النهار لئلا يبصر به أحد ، ويتخذ حذاءه سبتا واحدا يحزمه على قدميه ، ويجعل ماءه في سقاء لا يتجاوز حجمه كف اليد ، واذا ورد الماء أخرج خيطا دقيقا مبرما واستقى به ، وملأ السقاء ٠٠ أما قوته فيكون في جراب صغير جدا ، وأما لباسه فيكون قاتما أغبر كطبيعة الأرض التي يتلصص بها ٠٠ فهو ذئب بشري أطلس » (٢) ٠

وهذه المقدمة الجميلة لقصة (نتيجة الإكراه) : « نشات وضـــحى (كذا) الهتيمية بين أسرتها الموفورة العدد ، الكثيرة الرزق ، محتلة من أرض نجد سنامها ، ومن جبالها أمنعها واغناها ، فهي اذا أســـهلت ففي رياض (القصيم) ، ومنبسط (الرمة) ، وســـهول (السر) ٠٠ واذا تحصنت ففي (أبانين وجبلة وطخفة) ، تروح وتغدو على مضاربها أذواد الابل ، وقطعان الغنم ، ويروح كل يوم قناصو العشـــيرة مثقلين بطرائد الظباء ، وعديد الأرانب ، وجون القطا ، ومن ذا الذي يباري القانص الهتيمي الملحم في حذقه ومهارته بالقنص ؟! ٠٠ ويبدأ السمر على غليان القدور بلحوم الصيد ، وافعام الأواني بالألبان ، ومطارحة الأحاديث على كئوس القهوة ، واحتساء العبيل (؟) ٠٠ لذلك قل أن يحتاجوا الى شرب الماء ٠٠ واذا احتاجوا اليـــــه كان في الربيع مما تحلبه المزن على محاني الأباطح ، وفي الصيف مما تنضحه الجبال في منيعات القلات (٣) ٠

ولنتأمل وصفه لثعبان هرم أعمى بأنه (عظيم الخلقة ، متغضن اللحم ، متشقق الشدقين ، وقد ترك منه طول الدهر ثاويا ، شثن الجلد ، مقوس الظهر ، أعمى العينين ، تتردد منه الروح في جثة هامدة) (٤) ٠

هذا الوصف الحي البديع الذي يرسم صورة ذلك الثعبان وكانه أمام باصرتينا ٠٠ وكثير غير ذلك من العبـــارات الجميلة التي وفق المؤلف الى

انتقائها فكانت لقصصه كالتوابل والمقبلات ٠٠ كقوله : « ولما أخذ النوم بمعاقد الأجفان بعد سير وسرى ومقاساة لوعثاء السفر ٠٠ » (٥) و « ألبسه الجوخ ليكون وجه النادي وتلبية المنادي ٠٠ » (٦) ، و « أما أنا فظللت أئن وأتشحط في دمي » (٧) ، و « أخذ الغريم بتلابيبه » (٨) ٠

ومن تلك العبارات ما ازداد قوة وجمالا بما فيه من (اقتباس) لطيف مناسب من التنزيل المطهر في غالب الأحوال ، ومن الحديث الشريف ، ومن (تضمين) لأبيات شعرية وأشطار أبيات وأمثال ٠٠ ومن ذلك : « فأقبلت قبيلة عتيبة بخيلها ورَجِلها » (٩) ، و « الذين هم ردء له في كره وفره » (١٠) ، و « فاجبلت بخيلها ورجلها وأميرها ومأمورها » (١١) ، و « سواء بذله في سباخ أو في ربوة ذاتِ قرارٍ ومعين » (١٢) ، و « إنك محبوس هنا في هذا القصر حتى ننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين » (١٣) ٠ و « لما توارت الشمس بالحجاب ٠٠ » (١٤) ، و « هذا ما حاك في نفس رثماء » (١٥) ، و « يأبى الله إلا أن يتم أمره ولو كره الغيد الحسان » (١٦) ، و « وأوي الى ربوة » (١٧) ، و « فقص عليه القصص » (١٨) ، و « هده الكبر وبلغ منه عتيا » (١٩) ، و « هم من البصرة قاب قوسين او أدنى » (٢٠) ، و « ويسلق بشعره من أرادهم بأذى » (٢١) ، و « ولو كان ياوي إلى ركن شديد » (٢٢) ، ونحو « فلم تصلح إلا له ، ولم يك يصلح إلا لها » (٢٣) ــ وهنا لا أدري لماذا حذف (يك) الأولى قبل (تصلح) الأولى ؟ ٠ و « فليس له من ودهن نصيب » (٢٤) ، و « ثالثة الأثافي » (٢٥) ، وأخيرا هذا الاقتباس الرائع : « وقال الذي اشتراه من البصرة لأهله احسنوا مثواه فهو خليق بأن ينفعنا » (٢٦) ٠٠ على أن المؤلف الكريم لو اكتفى هنا باستبدال (البصرة) بمصر ، وابقى الآية كما هي : « وقال الذي اشتراه من البصرة لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا » لكان الاقتباس أبلغ وأروع ٠

وما هذه الا أمثلة لما في الكتاب من أساليب عذبة وتعابير طلية ٠ لكن الى جانب هذا كله وأكثر منه ، لم يكن الكتاب بمنجاة من الجمل والعبارات ذات الأسلوب الضعيف أو البناء الرخو ، أو النسج المهلهل ٠٠ على أن تلك المآخذ الأسلوبية وغيرها لا تفقد الكتاب قيمته ، ولا تضعف أجر المجتهد ، والغاية من ذكرها كما ألمحنا أعلاه أن تتلافى في طبعة أخرى ٠ وفيما يلي بعضها :

١ ــ استعمل المؤلف عبارة « مرة من المرات » أربع مرات في

كتابه (٢٧) ، وعبـــارة « في سنة من الســـنين » أو بدون « في » ثلاث مرات (٢٨) ، وعبارة « وعلى مورد من الموارد » مرة واحدة (٢٩) ·· كما استعمل عبارة « في يوم من الأيام » احدى عشرة مرة (٣٠) ، وعبارة « يوما من الأيام » مرتين (٣١) ، وما ضعف هذه العبارات بخفي ، لما في كل منها من الحشو ·· فلا نفع يجنى من هذه الجارات والمجرورات « من المرات » و « من السنين » و « من الأيام » و « من الموارد » ، وشيوعها في الحديث الشفوي لا يبرر استعمالها في الكتابة الأدبية · ويغني عنها « ذات مرة » أو « مرة » ، و « ذات يوم » ــ وقد استعمل الكاتب الأخيرة مرة (٣٢) ــ ، و « أحد الأيام » واستعمل هذه مرة أيضا (٣٣) ، فليته تشبث بهما ــ ، ومثل ذلك يقال عن « السنة » ، أما « على مورد من الموارد » فيكفي عوضها « على أحد الموارد » ·

٢ ــ ص ١٥ س ١٧ و ١٨ ورد « فيعرفان أن وقت الصيد قد حان وأن ساعة القنص قد حانت » ! ·· هذا التكرار لم يأتِ بجديد ، ولم يضف جمالا · ومجيء (حانَ) في جملتين متتاليتين أضرّ بهما كلتيهما · فلو حل (آنَ) محل (حانَ) في إحداهما لكان ذلك أبلغ ·

٣ ــ ص ١٧ س ١٩ ورد « وقام حوله الثغاء والرغاء » كيف يقــوم الثغاء والرغاء ؟ ·· الأحسن : انتشر أو ساد أو أحاط به الثغاء والرغاء ·

٤ ــ تحدث المؤلف الفاضل في ص ٢٥ (من س ١٣ الى س ١٤) عن ابن عريعر ثم بدأ الجملة من أول السطر وقال : « أما هذا فقد تجمع يوما لديه بعض لصوص الخيل وحافتها ، فقـــال : من يأتني (كذا) بحصان حمدان الغبيني ؟ ·· » ·

إن « أما هذا » والفاء بعدها توحي بأن المتحدث عنه احــد غير ابن عريعر ، والأمر بخلاف ذلك · فيجب حذفها والاستمرار في القول : « وقد تجمع يوما لديه ·· الخ » ·

٥ ــ في الصفحة نفسها س ١٩ و ٢٠ ورد « وكان هذا جعلا مغريا جدا لم يسبق أن جعله ابن عريعر جعلا لأي جواد قبـــله » ·· تكررت مــادة « جعل » في سطر واحد مرات ثلاثا · ولنا مندوحة عن ذلك كان نقــول : (وكان هذا جعلا لم يسبق أن خصصه ابن عريعر لأي جواد » أو نحو ذلك ·

٦ ــ في الصفحة نفسها س ٣ ورد « من يعرف قصتها ومن لا يعرف قصتها » الأحسن الاكتفاء بالضمير في آخر الجملة « من يعرف قصتها ومن لا يعرفها » ·

٧ ـ في الصفحة نفسها السطر الأخير ورد « اذهب وأنت ونصيبك ٠٠ » هذا التعبير من لغة الحديث الشفوي ، ينبغي تجنبه وأمثاله ٠

٨ ـ ص ٢٦ س ١٠ و ١١ ورد « ويعيـــده في مربطه » والصحيح استعمال « الى » عوض « في » هنا ٠ (٣٤)

٩ ـ استعمل المؤلف عبـــارة « على أساس » (٣٥) و « على أساس أن » (٣٦) ، وهي عبارة عامية مبتذلة ٠

١٠ ـ ص ٣٤ س ١٠ ورد « وقيل انه من بني صــــخر من عرب الشمال ٠٠ وهو اسمه فيصل الجميلي ٠٠ » لا حاجة لنا بالضمير (هــو) هنـا ٠

١١ ـ س ١٠ من الصفحة نفسها ورد « ومستبشرين بلم شمل بعد طول مدى » ٠ أكلمة « مــدى » في موضعها المناسب هنا ؟ ٠٠ لا ٠٠ اذن فليستبدل بها « غياب » مثلا ٠

١٢ ـ ص ٣٦ س ١٢ و ١٣ ورد « فلا داعي لأن يخفف من جرمه » ثم في س ١٤ مباشرة ورد « فلا داعي أن يلطف من جرمه » ! ٠

١٣ ـ ص ٣٨ قال المؤلف متحدثا عن رجل اسمه غليس : « ٠٠ فوجد من هم على شاكلته ، فكونوا عصابة تلتمس الغرات ، وتتبع الغفـــلات ٠ أغاروا يوما على عرب فشعروا بهم وخفوا للفتك بهم ، ففتكوا وأبادوهم ، وظل رمق قليل في غليس ٠٠ » ٠ هذا التعبير ذو سبك يعوزه الاحكام ٠٠ قارن بينه وبين : « ٠٠٠ فوجد من هم على شاكلته ، فكونوا عصابة تلتمس الغرات ، وتتبع الغفلات ، أغاروا يوما على عرب فشعر هؤلاء بهم ، وخفوا للفتك بهم ، فكان لهم ما أرادوا اذ قضوا على المعتدين وظل رمق قليل في غليس » أليس هذا أوضح من ذاك وأقوى ؟ ٠

١٤ ـ في الصفحة عينها وبعد عبارة المؤلف الآنفة الذكر تابع حديثه عن غليس « ٠٠ واذا بظعن يقبل عليه ٠٠ رجل وامرأته وابلهم وماشيتهم ، فعرجوا على مكان المعركة ، فوجدوا هذا حيا فرقوا له ورحموه ، وأرادوا أن يعملوا فيه خيرا » ٠٠

في هذه العبارة عيبان : الأول قوله « يقبل عليــه ٠٠ رجل وامرأته وابلهم وماشيتهم ٠٠ فعرجوا على مكان المعركة ٠٠ » أخبر عن اقبال الرجل عليه فلم ذكر ذلك الاقبـــال من جديد بقـــوله : « فعرجوا على مكان المعركة ٠٠ » ؟ ٠ كان ذلك لائقا لو قال بعد « ماشيتهم » هكذا : « كانوا سائرين في طريقهم فاسترعى انتباههم منظر الرجال القتلى ، والخيل الصرعى ،

فعرجوا على مكان المعركة » .

الثاني : استعماله (أن يعملوا فيه خيرا) وهو تعبير لاكته السنة العوام ، وخير منه « أن يحسنوا اليه » .

١٥ ـ ص ٤١ س ٢٠ ورد « اعمل ما أقوله لك بحذافيره » . ثم تكرر الجار والمجرور « بحذافيره » سريعا في س ٢٣ : « وأوصاها بأن تعمل بما أوصاها به بحذافيره » ، وفي الصفحة التي تليها (س ٢) . كما أن الأولى استبدال (وصيته) بالموصول وصلته .. أي تجنب تكرار المادة نفسها في حيز قصير .

١٦ ـ ص ١٦ س ١٨ وما بعده ورد « ولكن الصفو لابد وأن يتكدر ، والجمع لابد أن يتشتت ، فقد اخترمت يد المنون ثالث هذا الوكر وعميده بعد أن يترك لابنه ووالدته نعما وسمعة طيبة وذكرى حسنة نعما بها وتقلبا في بحبوحتها ، ولكنه كان يشعر بخمول الذكر .. » لِمَ تَرْك الماضي واللجوء إلى المضارع (يترك) ؟ . ثم أيهما السابق اختراع يد المنون ثالث هذا الوكر وعميده أم تركه لابنه ووالدته نعما ؟ . ثم إلامَ يعود الضمير في « لكنه » ؟ ، يبدو من الجملة أنه يعود الى « ثالث هذا الوكر وعميده » ، لكن السياق دل على أنك تقصد الابن فالها ؛ فكان يجب أن تستبدل بالضمير الاسم الظاهر فتقول : « لكن فالحا » . والضمير في « والدته » أردت أن يعود الى الابن لكنه يحتمل أن يعود الى (ثالث هذا الوكر) ، ولتلافي ذلك كان ينبغي القول : « ابنه وزوجه » .. أو « ابنه وأم ابنه » .

١٧ ـ ص ٥٩ س ١٤ ورد « وقال : هذه الفرس وما يغزو عليها الا أنا » . هذا أسلوب عامي .. ويجب إعادة صياغته .. « لن يغزو على هذه الفرس سواي » أو نحو ذلك .

١٨ ـ ص ٦٣ س ٢ ذكر « الروسان » هكذا دون تعريف بهم ، ودون أن يعزوهم لقبيلة بعينها .. ثم لما ذكرهم مرة أخرى في س ١٥ من الصفحة نفسها أردف « من عتيبة » ، فكان الأولى أن يذكر ذلك بعد « الروسان » الأولى .

١٩ ـ ص ٦٧ س ٤ ورد « يذكرنا بأعلام العرب الذين نتلقى اخبارهم وآثارهم بما يشبه الأساطير » . لم تكن العبارة ملائمة للمعنى المراد . فما معنى أن نتلقى أخبارهم بما يشبه الأساطير ؟ . كان ينبغي أن تكون نهاية العبارة هكذا « ... وآثارهم الشبيهة بالأساطير » .

٢٠ ـ س ١٠ من الصفحة نفسها ورد « لا أثر فيها للحطب كليا

ولا للحجارة » الكلمة « كليا » هنا ثقيلة جدا ، وتؤدي الجملة المعنى بدونها ٠

٢١ ـ ص ٦٨ السطر الأخير ورد « وعلق بها بما لم يستطع قلبه أن يسلوّها ٠٠ » هذا التركيب واهي النسج ٠٠ ويجب إعادة صياغته ٠٠ كان يقال : « وعلق بها فلم يستطع قلبه أن يسلوها ٠٠ » ٠

٢٢ ـ ص ٧١ س ١٢ ورد « ولقد ذل قوم هوجموا في عقر دورهم » ٠ وقد سبق علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الى هذا المعنى في خطبة ألقاها بجنده في الأنبار بعد أن استولى جيش معاوية بقيادة سفيان بن عوف الغامدي عليها ، وقتلوا عامل علي حسان بن حسان البكري فقال : « فوالله ما غزى قوم في عُقْر دارهم إلا ذلوا » (٣٧) ، فكان الأولى إيراد عبارة علي ، خاصة وأن الكاتب جاء بمعناها وبثلاثة من ألفاظها « قوم ، وعقر ، ودور » ٠

٢٣ ـ ص ٧٨ س ١٧ و ١٨ ورد « وهو غاص بالناس من بعيد ومن قريب ، ومن كبير ومن صغير » ، اعادة حرف الجر (من) ثلاث مرات لم تجر الا الى اضعاف الجملة ٠٠

ومن عادة المؤلف أن يعيد ذكر كلمة مع أنه ذكرها بعينها في جملة سابقة قريبة لا يفصلها عن الأخيرة عدا سطر أو سطرين ، ففي ص ١٢٠ س ٢ أورد جملة « أدرك واقعهـــا » ، وفي الســـطر الذي يليـــه قال : « فلندرك ٠٠ » ثم في س ٤ قال : « ولا يدرك فضله الا من عرف ضده » ٠ وتكررت مادة « الادراك » هذه نفسها أيضـــا قبل ذلك في ص ٧٠ س ٣ وما بعده ٠٠ لنقرأ « وآلى أن لا يفارقه حتى يدرك محبوبته ، مما اضطر ابن دعيجا لأن يذهب الى قبيلة محبوبة محيسن ، ويبقى فيهم أجيرا متنكرا يرتقب الفرص ، ويدبر الحيل لعله يدرك فرصة يدرك بهـــا بغيته » !! وقال في ص ١٢٧ س ٨ و ٩ : « وكان العربيات لا يؤخـــذن بشيء مثلما يؤخذن بالفروسية والشجاعة فهي تستهويهن وتأخذ بألبابهن ٠٠ » فجاء ذكر « الأخذ » ثلاث مرات في سطرين متتاليين ٠

وفي ص ١٢٩ س ٢ ورد « وهو مشهور بالكرم ، ومكارم الأخلاق ، واكرام الضيف ٠٠ » هذه المرة وردت ثلاث كلمات من مادة لغوية واحدة في سطر واحد ٠ وفي ص ١٣٠ س ١٤ ورد « لعلي أزداد عندها حبا ، وأحظى منها بالحب والعطف والرضا ٠٠ » ٠

وفي ص ٢٤٥ س ١٦ وما بعده ورد « ونجـــوا بإبلهم ومتاعهم ٠٠ ولكن الضفير أعادوا الكرة مرة أخرى ، وتجاولوا ، وانخزل من المنزيين قسم نجوا بابلهم ولكن الباقي ثبت وناضل حتى نجوا ٠٠ » ٠

هذه الاعادات أخلت بأساليب جملها ، واضعفت بنيانها ، ولا يخامرني أدنى شك في أن بوسع المؤلف الأديب الكبير الفاضل أن يصطفى من خزائنه اللغوية الثرية جدا عدة ألفاظ مترادفة تعبر عن المعنى عينه أو قريب منه ، وتجنبه الركاكة .

٢٤ ـ ص ٨٠ السطر الأخير ورد « تقدم بخطبة الفتاة .. » . انه تقدم لخطبتها ، أو لطلب يدها .. فالباء في الجملة في غير موضعها .

٢٥ ـ ص ٨١ س ٦ « وفي مرة صادفه صاحب ... » . ما النفع من ادخال (في) على (مرة) ؟ . ثم ان الضمير في (صادفه) يوحي بأن المصادف ـبفتح الدالـ هو ابن أبي الميخ كما يدل عليه السياق ، لكن مابعد ذلك يبين أن المصادف هو أبو الميخ نفسه .. فلازالة هذا اللبس يجب استبدال الاسم الظاهر بالضمير .. أي هـــكذا : « ومرة صادف أبا الميخ صـــاحب الجرم أبو الغلام .. فلم يكتف بجرمه الأول ، بل قال له كيف الطريق .. الخ » . وفي س ٩ ورد « فقال أبو الميخ : هو لم يكن سهلا » . هذا التعبير ليس خلوا من ركاكة بسبب الابتداء بالضـــمير « هو » .. فبـــدا كأنه ترجمة حرفية لعبارة في لغة أوروبية .

٢٦ ـ ص ٨٢ س ٥ ورد « ولا يقدم القهوة الا مصنوعة من ساعتها » .. الصواب أن يستبدل بمن (في) .

٢٧ ـ في السطر الأخير من الصفحة نفسها ورد « ولكن ان قدر الله على فرسي وسلاحي .. » هذا تعبير يفهم معناه في اللغة المتحدث بها .. أما في اللغة المكتوبة الفصحى فلابد لـ « قدر » من مفعول به .. فالصحيح « ان قدر الله على فرسي وسلاحي أخذا « أو سلبا » ، أو أن تؤخذ « أو أن تسلب ، أو نحو ذلك » .. فتكون أن والمضارع الذي تدخل عليه في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به .

٢٨ ـ ص ٨٥ س ١١ ورد « يدركون أن الرجل يدعى من ليلتين ويطول غيابه ثم يعود وهكذا .. » ما هذا التعبير بسليم ولا معناه بجلي ! .

٢٩ ـ ص ٨٧ س ٨ ورد « وظلت ـ أي الابل ـ ليس بها الا رعاتها » . والصحيح « ليس معها الا رعاتها » .

٣٠ ـ ص ١٠٣ س ١٠ ورد « وكان الوقت بردا » وهو مستعار من العامية ، وبديله الصحيح : « وكان الوقت باردا » أو « وكان الوقت وقت بـــرد » .

٣١ ـ قال المؤلف في مقدمة القصة : « الشاعر الوضيحي .. وحسن

التصرف » ص ١٠٨ : « شاعر خليع · وزير نساء · ومغرم بالجمـــال · وشعره رقيق عذب ، له جاذبية ومغناطيسية محببة · وجله في الغزل ·· وشخصية الوضيحي أيضا شخصية جذابة حلوة ·· ويقال عنه أنه جبان شان كثير ممن هذه صفاتهم ·· وحينما تذكر له امرأة جميلة يفتعل الأسباب ·· ويصطنع المناسبات ·· لكي يصل الى مضربها ·· ويحاول أن يراها ، أو أن يسمعها شعره » ·

لابد أن القارىء الكريم قد فطن للنقطة التي شئت أن أوجه انتباهه إليها ·· إنها هذه الواوات الكثيرات (عشر واوات في خمسة أسطر) التي أرهقت كاهل السطور حتى أوشكت أن تضجّ بالشكوى ·

٣٢ ـ وفي س ٩ من الصفحة نفسها في سياق حديث المؤلف عن زوجة ابن خلبوص قال : « وتناقل الرواة ملاحتهـا » ·· الرواة يتناقلون ذكر ملاحتها ، لا الملاحة نفسها · أليس كذلك ؟ ·

٣٣ ـ وفي س ١٤ من الصفحة نفسها ورد « لعل نصيبي معك يبرأ من علته التي هدني فقرها وعوزها » هذا الأسلوب ركيك ومدلوله غامض ·· وعلة ذلك اضافة الفقر والعوز الى ضمير يعود الى العلة · ولو قال المؤلف : « لعل نصيبي يبرأ من علته ·· علة الفقر والعوز التي هدتني » لصح بناء الجملة واتضح المعنى ·

٣٤ ـ ص ١١٥ س ٣ وما بعده ورد « فقالت له ألم تكن غائبا منـــذ أسبوع والآن قدمت ·· هذا هو الأمر » · ينبغي أن يستبدل هذا بنحو من « فقالت له سنزعم لهم أنك غائب منذ أسبوع وقدمت الآن ·· » ·

٣٥ ـ ص ١١٨ س ١٧ وما بعده ورد « ولما أخـــذا مكانهما الذي سوف يتغذيان فيه ويستريحان ، وقد غفلا عن طيريهما ، انقض طير الشمالي على طير رفيقه فمزقه » ·· خير من هذا أن تكون العبارة على هذا النحو : « ولما أخذا مكانيهما ·· غفلا عن طيريهما فانقض طير الشمالي ·· » ·

٣٦ ـ ص ١٢٩ السطر الأخير ورد « وهي أيضا ينقل أنها تتمنى رؤيتي » خير من هذا لو قلت : « وقد نقل إليّ أنها أيضا تتمنى رؤيتي » أو غير ذلك ·

٣٧ ـ ص ١٣٨ في قصة « عقاب العواجي وفهيد الفواري » وبعـد ثلاثة أبيات للفواري قال المؤلف : « وبهذه المناســـبة قال والده سعدون العواجي يفتخر : ··· » · وهذا يوحي بأن الوالد والد الفواري ، وليس به ، لكنه والد عقاب العواجي · فلتغير العبارة الى : « ·· قال ســـعدون العواجي أبو عقاب يفتخر : ··· » ·

٣٨ ـ ص ١٥٤ ورد « وصلت جملها الذي سوف تمتطيه الى مضارب

اهلها » ·· الأحسن أن يقال : « الذى كانت ستمتطيه » ، أو « الذي تنوي امتطاءه » · ونحو ذلك ما جاء في ص ١١٨ س ١٨ « الذي سوف يتغذيان فيه » ، الأحسن « الذي كانا سيتغديان فيه » ·

٣٩ ـ ص ١٧٧ س ١٦ ورد « ومالك مثل هذه في ذلك الزمن مثل (الفانتوم) في هذا الزمن » · كان يجب أن تكون العبارة هكذا : « ومالك مثل هذه في ذلك الزمن مثل مالك الفانتوم في هذا الزمن » ، أو « ومالك مثل هذه في ذلك الزمان كمالك أحدث طائرة الآن » ، والعبارة الأخيرة خير من الأولى ·

٤٠ ـ ص ١٨١ س ١٧ ورد « وكان من هم على شاكلته من عشاق النهب والسلب ، وأهل شريعة الغاب كانوا متمسكين بغرزه ··· » · لا حاجة لإعادة الفعل (كان) فالأول كاف ·

٤١ ـ ص ١٩١ س ١١ وما بعده ورد « ولما جد بهم السير في غزوهم كره ابن منديل أن يتأمر على ابن صويط وهو صاحب الرئاسة في الضفير ، وهذا لا يعدو أن يكون جارا عندهم ·· » فالعبارة الأخيرة توحي بأن المقصود بالجار ابن صويط ، والأمر ليس كذلك ، فالجار هو ابن منديل ·· فينبغي أن تكون العبارة : « في حين أن ابن منديل لا يعدو ·· الخ » أو نحو ذلك ·

٤٢ ـ ص ١٩٢ س ٩ و ١٠ ورد « فقال لا يغسل عار هذه عند العرب الا أن أقتل ولدي ، وقيل ولد أخيه ، فقالوا : الأمر لك ، فقال لأخيه عم الشاب : قم ··· » · لا يخفى ما في أسلوب هذه العبارة من تفكك · وتربيطها ممكن بصياغتها هكذا مثلا : « فقال « لا يغسل عار هذه عند العرب الا أن أقتل ولدي » ـ وقيل ان الولد كان ولد أخيه ـ ، فقالوا : « الأمر لك » ، فقال لأخيه ـ عم الشاب على الرواية الأولى ـ : « قم ·· » ·

٤٣ ـ ص ١٩٣ س ٢ ورد « عنزي أصيبت ابله بالجرب ، وأين ما وجه بها طرد مخافة أن يعدي مرضها إبلهم » · إبل مَن ؟ علامَ يعود الضمير في (إبلهم) ؟ ·· ان بديل هذه العبارة هو « ·· واذا توجه صوب قوم طردوه مخافة أن يعدي مرضها إبلهم » ، أو « وأينما توجه بها طرد مخافة أن يعدي مرضها الإبل » ·

٤٤ ـ ص ١٩٣ س ١٠ ورد « ولا يرضون أن أحـــدا يتعرض له بسوء » · ولو قال المؤلف : « ولا يرضون أن يناله أحـــد بسوء » لكان أبلغ ·

٤٥ ـ وفي الصفحة نفسها س ٢ ورد « والجرب داء خبيث يصيب الابل فلم يزل بها حتى يبيدها » · الصحيح « ·· فلا يزال بها ·· » ·

٤٦ ـ ص ٢٠٩ س ١٦ ورد « وأصدر أوامره عليهم » ·· « وأمرهم » أوجز وأبلغ ·

٤٧ ـ ص ٢١٢ س ٤ « الا أنه مصمم ·· » · الأنسب « إلا أنه كان مصمما ·· » ·

٤٨ ـ ص ٢١٧ س ٣ و ٤ ورد « لديه من المـــلاحة ··· ما لدى نصر بن حجاج حينما تغنت به الغيد في الخدور » · وخير من ذلك أن يقال : « ··· ذلك الذي تغنت به الغيد ··· » ·

٤٩ ـ ص ٢٢٥ س ١ ورد « محمودا المتقمص في الظـاهر شخصية التاجر المغامر ·· » لتحذف « في الظاهر » فانها حشو ·

٥٠ ـ ص ٢٢٤ س ٧ وما يليه ورد « فتشـــاوروا بينهما بأن هذا لا مطمع فيه الا أن نحتال عليه احتيالا ، فلو حاولنا أخذه وهو على راحلته فتك فينا » · هذا التعبير مختل · وصحته هكذا : « فتشاوا وقالا : ان ذلك لا مطمع فيه الا بأن نحتال عليه احتيالا ، فلو حاولنا أخذه وهو على راحلته لفتك بنا » ·

٥١ ـ ص ٢٣٦ س ١٧ ورد « فهما أشباح ليس بها الا الأرواح » · الأصح « فهما شبحان ليس بهما إلا روحاهما »··

٥٢ ـ ص ٢٤٢ س ٢ وما يليه ورد « انطلقت التي ليس هو بحوارها الحقيقي الى الماء ·· أما أمه الحقيقية فبقيت حوله تتلوى من شدة الظمأ ، وحينما أدرك ذلك العارفة أطلقه ، ثم انطلقت به لا تلوي على شيء حتى وردت الماء ·· فحكم به لصاحب الناقة التي بقيت عند الحوار » ·· أسلوب مضطرب للتعبير عن فكرة غير معقدة ·· والأولى أن يقـــال : « انطلقت احداهن الى الماء ·· وبقيت الأخرى حوله ·· فأدرك العارفة أيهن الأم ، وحكم به لصاحب الناقة التي ظلت عنده » ·

٥٣ ـ ص ٢٤٣ س ١٥ ورد « ومن ثم صفر اليدين » · وصـحتها « ومن ثم يعود صفر اليدين » ·

٥٤ ـ س ١٦ والي يليه في الصفحة نفسها ورد « واذا به أمام البيت

يجبر رجل حمل ولد البارحة ... » . ليس هذا النص جزءا من حوار أو قولا لأحد أشخاص القصة .. فلا تستعمل كلمة « البارحة » بل يقال مثلا : « حمل حديث الولادة » ، أو « يبدو أنه ولد في الليل السابق لذلك اليوم » .

٥٥ ـ ص ٢٤٤ س ٨ ورد « انك جئتني ثلاث سنوات » . والمؤلف يريد « انك جئتني ثلاث مرات في ثلاث سنوات في كل سنة مرة » ، ولو قال هكذا لكان أبين للمعنى وأصح للكلام .

٥٦ ـ س ٧ من الصفحة نفسها ورد « وهو يحمل عزما بأن لا يعود » . خير من هذا وأيسر « وهو عازم على أن لا يعود » .

٥٧ ـ س ١٣ من الصفحة نفسها ورد « ان ما فعلته بالحمل هو أنني أعرف أنه .. « . » ان » و « أن » ثم « أن » في جملة قصيرة .. الأجمل « فما فعلته بالحمل سببه معرفتي بأنه .. » . وبعد هذه الفقرة مباشرة ورد « لولا حقير المال لم يأت كبيره » . وهذا المعنى مستعار من المثل العامي السائر « لولا دقاق المال ماجا جلاله » ، فكان الأحسن الاستشهاد به بنصه .

٥٨ ـ س ١٥ من الصفحة نفسها ورد « ثم أنفقته في واجبه .. » . وكان ينبغي أن يقال « ثم أنفقته في موجب ، أو في وجوه ، أو في موضع انفاقه » .

٥٩ ـ ص ٢٥٤ س ٢١ ورد « فجعل كل القوم تسأل عن مسعود » . والأصح « فجعلت القوم كلها تسأل عن مسعود » أو « وجعل كل القوم يسألون عن مسعود » .

٦٠ ـ ص ٢٥٢ س ١٠ و ١١ ورد « الا أن الرقيبة يغفل ويجوز ـ كذا بالزاي وصحته بالراء ـ سلطان النوم » . في هذا النص مثلان شائعان أحدهما ضمن بنصه وهو « الرقيبة يغفل » ، والرقيبة : الرقيب الذي توكل اليه مهمة البقاء في مكان عال (مرقب) والتطلع في الآفاق لانذار الناس بقدوم العدو .. ومعنى المثل : « حتى الرقيب قد يغفل » . فكان الأدق أن يوضع بين قوسين . أما الثاني فضمن بنص قريب من نصه « النومْ سلطانٍ جايرْ » .

٦١ ـ ص ٢٣٨ س ٦ و ٧ ورد « وما قال الحكيم العربي قبل :

إنّ بنيَّ صبيةٌ صيفيونْ
أفلحَ من كان له ربعيونْ » .

ذلك الحكيم هو أكثم بن صيفي . وقيل سعد بن مالك ابن ضبيعة (٣٨) .

٦٢ ــ ص ٢٣٦ س ١٩ ورد « فلم يطق أن يتحمل ما بلغ به الأمر » ٠
والصحيح « فلم يطق أن يتحمل ، فبلغ به الأمر ٠٠ » ٠

مسائل لغــوية :

أولا : للمؤلف الكريم مقـــدرة فائقة على انتقــاء الكلمات العربية الأدبية الرشيقة الفصيحة ٠٠ مما يمتع قارئة الذي يجد في هذه الألفــاظ الجيدة نقلة من تلك التي أنهكها الاستعمال ، وابتذلها المتحدثون ، والتي تكرر وتعاد على المسامع والأعين آناء الليل وأطراف النهار ٠ لكن سعى المرء الكاد لتصيد الألفاظ البكر ربما نأى به أحيانا عن الدقة في استعمالها ٠٠ وفيما يلي بضعة أمثلة قد تكون من ذلك الضرب :

١ ــ « مفوه ومفوهة » : وصف المؤلف بها الفرس : « لديه فرس أصيل مفوهة » (٣٩) ، والحصان : « له حصان مفوه » (٤٠) ، والفارس : « خلف بن دعيجا فارس مفوه » (٤١) ، والبندقية (٤٢) ٠ فلْنَرَ ما تقول المعاجم في هذه الصفة ؟ وما معناها المحدد ؟ :

قال ابن دريد : « الفوه عظم الفم واتساعه ٠ فوه الرجل يفـــوه فواها فهو أفوه والأنثى فوهاء ، وكذلك في الخيل قال الشاعر :

فهي فَوْهاء كالجُوالق فُوهــا
مســتجافٌ يضِلُّ فيه الشكيم

وطعنة فوهاء واسعة ٠٠٠ » (٤٣) ٠

وجاء في لسان العرب : « الفَوَّهُ أصل بناء تأسيس الفم ٠٠٠ ورجل أفوه عظيم الفم طويل الأسنان ، ومحالة فوهاء اذا طالت أسنانها التي يجري الرِّشاء فيها ٠٠٠ وقالوا رجل مفوه إذا أجاد القول ٠٠٠ وقال الفراء : رجل فاووهة يبوح بكل ما في نفسه ، وفاهٌ وفاهٌ ورجل مفوّه قادر على المنطق والكلام ، وكذلك فَيِّهٌ ٠٠٠ والمفوه المِنطيق ، ٠٠٠ ابن الأعرابي : رجل فَيِّهٌ ومُفَوَّهٌ إذا كان حسن الكلام بليغا في كلامه » (٤٤) ٠

يتبين من ذلك أن معاني هذه المادة مرتبطة بالفم والأسنان وما له صلة بهما كالكلام فلم يكن استعمال المؤلف الفاضل لها دقيقا كل الدقة ٠٠ بل لقد حملها من الدلالة مالا طاقة لها به ، كالشجاعة التي أراد أن يصف بها الفارس ، والمتانة أو جودة الصنع التي شاءها للبندقية ٠

٢ ــ ص ٧٣ س ١٠ ورد « فأوما كل منهما على صاحبه بالرمح ٠٠ » ٠ تعدية الفعـــل « أوما » بحرف الجر « على » عاميـــة ٠ والفصـــيح : « أوما اليه » (٤٥) ٠

٣ ـ ص ٩٧ س ٨ ورد « وأغراها بأن تذهب بصرة هذا المال لفلانه » ٠ أشار المؤلف الى المال مع أنه لم يرد له ذكر قبل الجملة ٠٠ وكان الصواب أن يقول : « بصرة من المال » ٠

٤ ـ ص ١٠٤ س ١ ورد « فلان صاحب الأمانة » ٠ واستعمال « صاحب » صحيح لا شيء فيه ، لكن أبلغ منه استعمال « ذو » التي بمعنى « صاحب » ٠

٥ ـ ص ١١٨ س ١٨ ورد « الذي سوف يتغذيان فيه » بالذال المعجمة ٠ والمقصود « يتغديان » بالمهملة أي « يتناولان وجبة الغداء » ٠

٦ ـ ص ١٤٣ السطر الأخير ورد « اعتادت هذه القبائل شن الغارات على بعضها البعض » ٠ وصحة العبارة « ٠٠٠ بعضها على بعض » ٠ « اعتاد بعض هذه القبائل شن الغارات على بعض ـ أو ـ على بعضها الآخر » ٠

٧ ـ ص ١٣٦ س ٣ ورد « وركبا راحلة المطيري ونجيا بنفسيهما » ٠ الصحيح : « نجوا » بفتح الواو ، كدعا ودعوا ٠٠ أصل الألف واو فلما التقى الساكنان أعيدت الى أصلها لمنع ذلك ٠

٨ ـ ص ١٩٥ ورد « وأوقدي على القدر ليري الدخان » ٠٠ هذا ما تقوله العوام ٠٠ أما في اللغة العربية الفصحى فلا يصح ٠ بل : « أوقدي النار تحت القدر ليري الدخان » ٠

ثانيا : ياليت الأستاذ الكبير المؤلف لم يكثر من استعمال الكلمات العامية في كتابته ٠٠ وليته اذا استعملها وضع كلا منها بين قوسين ليُبيِّنَ أنه تعمد استعمالها لما قد تضفيه على موضوع القصة من صبغة لا تؤديها الكلمة الفصيحة ٠

ولئلا يساء الفهم أجدني مسوقا الى القول بأني لست ألومه على ما جاء في النصوص العامية من شعر وغيره من كلمات غير فصيحة ، بل على ما في إنشائه هو ٠ على أن موضوع الكتاب وكونه يتناول قصصا دارت أحداثها في زمننا هذا أو زمن قريب منه ، ونقلها من لسان عامي ، وأنها « أحاديث سمر » كما سماها ، يشفع له بعض الشفاعة ولا يعفيه من الملامة الإعفاء التام ٠

ومن ذلك :

١ ـ « بندق » ٠٠ استعملها المؤلف بمعنى « بندقية » ٠ كما استعمل صيغة الجمع منها « البنادق » (٤٦) ٠ و « بندق » عامية والفصيحة « البندقية » التي يرى الدكتور عبد المنعم سيد عبد العال أنها منسوبة الى « البندقة » ، وهي « كرة صغيرة من نحاس أو نحوه توضع في القوس ويرمى

بها ، وجمعها بندق » (٤٧) .

وفي القاموس المحيط : «البندق الذي يرمى به والواحدة بندقة» (٤٨) وهي عبارة اللسان الا أنه زاد : « والجمع البنادق » (٤٩) .

٢ ـ عنوان القصة التي في ص ٢٢ صدر بيت من قصيدة وردت فيها هو « الزول زوله والهلايا حلاياه » . وهذا العنوان بحاجة الى بيان معاني مفرداته ، أو أن يستبدل به عنوان آخر بالفصحى لأن غالبية قراء الكتاب لن يكون لها أدنى معرفة بمعناه .

وذلك ينطبق أيضا على القصص التالية :

لعاد بالدنيا صِديقِكْ يخليكْ ص ١١ ـ خلوج ابن رومي ص ١٢ ما الخلوج ؟ ان معظم القراء وخاصة قاطني المدن لا يدرون ماهي ؟ رغم أنها أوحت للشاعر العوني قصيدته الرائعة المتداولة ـ الفرخ لا يغويك في صَفّة الريش ص ٢٨ ـ يا بِعْدْ فرقْ الناسُ ص ١٠٤ ـ جدد جروح العود ص ١٥٢ ـ مسقى ظوامي قِصِيرِهْ ص ١٨٩ ـ قواهِنيْ البهايم ص ٢٤٧ .

٣ ـ عضباء : وردت في عنوان قصة في ص ٤٠ وفي السطر الأخير في ص ٤٣ . وقد قصرت اتباعا لاستعمالها في الحديث ، لكن ينبغي مدهـــا لتتمشى مع الجملة غير العامية .. ولأنها ممدودة لغة (بمعنى أنثى الحيوان ذات القرن المكسور كما سيأتي » .

ولكن هل هذه الكلمة فصيحة ؟ . نعم . اذا قصد بها الشاة أو الناقة المكسورة القرن . قال الكميت بن زيد :

ولا أنا ممن يزجر الطـــير همـــه
أصـــاح غراب أم تعرض ثعلب

ولا السانحات البارحات عشـــية
أمرّ سليم القرن أم مرّ أعضب (٥٠)

وقال الأخطل :

إن الســـيوف ، غدوّها ورواحها
تركت هوازن مثل قرن الأعضب (٥١)

والعضباء أيضا الناقة أو النعجة المشقوقة الأذن . أما اليد المقطوعة من الانسان فلا يقال لها عضباء ، بل توصف بذلك اذا كانت قصيرة . جاء في القاموس المحيط :

« الأعضب من لا ناصر له ، والقصير اليد » . ولم يقل) « ومقطـوع

اليـــد » (٥٢) ٠

٤ ـ ص ٢٥ س ١٨ ورد « بعض لصوص الخيل وحافتها » ٠ وس ١٩ ورد « حيافة » وص ١٧٧ س ٢ ورد « حيافة الخيل وسرقتها » ٠ والحيافة مصدر حاف يحوف فهو (حايف) ، أي طاف حول الحي ملتمسا غرة لينهب الخيل أو الماشية ٠ وهي كلمة عامية ٠

٥ ـ ص ٢٦ س ٩ ورد « غيّته » أي غيّة الحصان ٠ ولعلها فصيحة الأصل فقد ورد في القاموس المحيط « الغياية وهي كل ما أظل الانسان من فوق راسه كالسحابة ونحوها » (٥٣) ٠

٦ ـ ص ٢٨ س ٣ ورد « وأحلى الرجال عندهن ٠٠ » ٠ « أحلى » بمعنى « أجمل أو أكثر وسامة أو جاذبية » ، كما في العبارة عامية غير نجدية الأصل ، لكن العرب قد يستعملون الحلاوة بمعنى قريب من معناها ذاك ، وهو « استخفاف الشيء واستحلاؤه » ٠٠ جاء في اللســـان : « والحـــلو من الرجال الذي يستخفه الناس ويستلحونه وتستحليه العين ، أنشـــد اللحيـــاني :

وإنّي لحلوٌ تعتريني مرارةٌ ،
وإنّي لصـــعب الراس غيرُ ذلول

والجمع حلوون ، ولا يكسر ، والأنثى حلوة والجمع حلوات ولا يكسر أيضا ٠٠٠ والحلو الحلال الرجل الذي لا ريبة فيه ، على المثـــل ، لأن ذلك يستحلى منه ، قال :

الا ذهبَ الحـــلو الحـــلال الحُلاحِلُ
ومن قوله حكمٌ وفضلٌ ونائلُ » (٥٤) ٠

٧ ـ ص ٣٧ س ٩ ورد « فاستلحقه » أي « فاستدعاه » ، وكذلك في ص ٩٧ س ٧ « استلحق » ٠ وهي ، مع فصاحة أصلها ، عامية بمعناها هذا ٠ أما « استلحق » في الفصـــحى فمعناها زرع « الألحاق » وهي « مواضـــع من الوادي ينضب عنها الماء فيلقى فيها البذر ٠ الواحد لحق محركة » (٥٥) ٠

٨ ـ ص ٤٨ س ١٦ ورد « من رجال المغرّبة ـ وهم رجال الأعمال قبل اربعين سنة أو تزيد ـ » ٠٠ هذا التعريف العام لا يفي بالغرض ، ويحسن الحديث في الحاشية عن اشـــتقاق لفظ « المغرّبة » ومدلوله في نجد فهو مما لا يعرف الكثيرون معناه ممن لا صلة لهم بالحياة الريفية في وســـط الجزيرة ٠

٩ ــ « انهزم بالشيء » أي انطلق به .. مستعملة في اللهجة النجدية .
استعملها المؤلف بهذا المدلول في ص ٨٧ س ١٩ : « وانهزموا بها » .

١٠ ــ ص ١٠٤ س ٥ وردت لفظة « عفش » .

١١ ــ ص ١٠٦ س ١٧ استعمل لفظ « المداماه » بمعنى « النزاعات التي سفك فيها الدم » . والكلمة الفصيحة البديلة هي « ترات » جمع ترة .

١٢ ــ ص ١٠٨ س ١٦ ورد « ضرب خف راحلته بمخيط بخصها بها » .. ومعنى « بخص » هنا : « أصاب بخصتها وهو فرسنها بحيث تضلع في سيرها » .. والأولى شرح معنى « بخص » .

١٣ ــ في ص ١٢٢ ورد لفظ « الهجن » أي الابل . والكلمة عامية .
وأصلها الفصيح « الهجان » للمفرد والجمع . جاء في القاموس المحيط :
« وناقة هجان . وابل هجان أيضا . وهجائن . بيض كرام » (٥٦) .

قال عمرو بن هميل الهذلي :

فقتلاً بقتلانا .وسُقنا بسبينا
نساءٌ وجئنا بالهِجانِ المُرَعَّلِ (٥٧)

وقال الراعي النميري :

فابصرتُها كوماءَ ذاتَ عريكةٍ
هجاناً من اللائي تمتعن بالصَّوى (٥٨)

وقال حزاز بن عمرو ، وهو شاعر قرشي جاهلي :

لنا إبلٌ لم تُهن ربَّها
كرامتها ، والفتى ذاهب
هجان تكافأ فيها الصديق
ويدرك فيها المنى الراغب (٥٩)

١٤ ــ ص ١٣٠ س ١٣ ورد « لعيون هذه الفتاة » بمعنى « من أجل هذه الفتاة » . وكون هذا التعبير عاميا بين .

١٥ ــ ص ١٣٢ س ٧ ورد « السرح » ، وهي ــ على فصاحتها ــ تفتقر الى « شرح » .

١٦ ــ ص ١٣٣ س ٩ ورد « الرجال لا يكالون بالأصواع » .
« الأصواع » جمع فصيح صحيح .. لكن الجملة مقتبسة من كلام لضمرة ابن ضمرة التميمي قالها في حوار جرى بينه وبين النعمان بن المنذر .
ونصها : « إن الرجال لا يكالون بالصيعان » (٦٠) .

١٧ ـ ص ١٣٨ س ٢ ورد « وبعدها نكل فجعل يرعى ابله في اتجاه آخر » · « نكل » بكسر أوله وفتح ثانيه بمعنى « تاب » عامية ، على أن معنى « نكل » بفتح النون وكسر الكاف في الفصحى ليس كبير البعد عن معنى « تاب » ، وهو « نكص وجبن » (٦١) ·

١٨ ـ ص ١٥٦ س ٢ ورد « حجيرته » · وس ٤ ورد « حجيرها » · ومدلول الحجيرة والحجير عامي ·· فكان ينبغي احاطتهما بأقواس ·

١٩ ـ ص ١٥٩ س ٩ وردت هذه العبارة المنقولة بنصها ضمن الحوار في القصة « يا بعد حيي اشتان بشانك ماني يمك » · ولا شيء في ذكرها بنصها ·· لأنها في حوار ، ولها مدلول خاص · لكن كان ينبغي شرحها في الحاشية ·

٢٠ ـ ص ١٦٥ س ١٠ ورد « تقصد بالنساء » أي تقول الشعر ·· تنظم القصيد في النساء · وهذا الفعل مع فصاحه أصله (٦٢) ، بحاجة الى بيان مدلوله لغير الملمين بلهجاتنا ·

٢١ ـ ص ٢٠٠ س ٤ ورد « متظاهر » · وصحتها « متظاهرا » ·

٢٢ ـ في الصفحة نفسها س ١٠ ورد دلائل تورى بأنه نال هذه الثروة » والصحيح « دلائل ترى بأنه الخ » ·

٢٣ ـ ص ٢٢٦ س ٥ ورد « يخفيها اللال ويبديها » · « اللال » بلامين بعد « ال » التعريف ، بينهما ألف ، وهي من الكلمات العامية المستعملة في الشعر · ومعناها « السراب » ·· وهي في الفصحى « الآل » بهمزة ممدودة ولام ·

٢٤ ـ ص ٢٣٨ س ٨ و ١٥ استعمل لفظ « البطن » بمعنى « الولد » · ومدلول البطن هذا معروف عند العامة وحدهم ·

٢٥ ـ ص ٢٥٣ س ١٠ ورد « ليصحوا » أي « ليوقظوا من النوم » · وهي عامية اذ لم ترد في اللسان ولا في القاموس بمعنى الاستيقاظ أو الايقاظ من النوم ·· بل في الصحو من السكر ومن الشوق (٦٣) · على أن ابن فارس ذكر أن « الصاد والحاء والحرف المعتل صحيح يدل على انكشاف شيء » (٦٤) ، ثم مثل للصحو من السكر ولاصحاء السماء · (٦٥) · ولعل المؤلف الكريم يفيدنا حول هذه اللفظة افادة توسع ما ضاق من مدلول هذه المادة ·

٢٦ ـ ص ٢٥٤ س ٩ ورد « استلم ثمني » · والصحيح تسلم ثمني » · قال الفيروزآبادي في قاموسه المحيط « وسلمته اليه تسليما فتسلمه : أعطيته فتناوله ··· واستلم الحجر لمسه اما بالقبلة أو باليد

كاستلأمه » (٦٦) ٠ وجاء في اللسان : وتسلمه مني قبضه ٠ وتسلمت اليه الشيء فتسلمه ، أي أخذه » (٦٧) ٠ وذكر في مكان آخر الاستلام للحجر الأسود ٠ (٦٨) ٠

٢٧ ـ ص ١٣٠ س ٨ ورد « نهضتهما » بمعنى « رفعتهما » ٠٠ وهي بهذا المعنى عامية ٠٠ حيث يقال في الحديث الشفوي « نهض فلان الشيء ينهضه » أي رفعه يرفعه ٠

٢٨ ـ ص ٤١ س ٢ ورد « واذا أرشد في تصرفه » ٠ أي سلك مسلك الراشدين من الناس ٠ و « أرشد » بصيغة أفعل تستعملها عامة زماننا ٠ أما في اللغة العربية فيقال « رشد الانسان ، بالفتح ، يرشد رشدا بالضم ، ورشد بالكسر ، يرشد رشدا ورشادا ، فهو راشد ورشيد ، وهو نقيض الضلال ، اذا أصاب وجه الأمر والطريق » (٦٩) ٠

٢٩ ـ ص ٢٤١ س ١٠ ورد « الفارضة أو القارض » ٠ ولعل المقصود « العارفة أو العارف » ٠٠ وقد ذكرت « العارفة » في القصة نفسها والصفحة عينها « س ٢٠ » ٠

هفوات نحوية :

١ ـ ص ١٥ س ١٥ ورد « فتعود مرة أخرى بقدح كاد اللبن أن يغرقه ، فيتناولا ما طاب لهما من الطعام » ٠٠ الفعل المضارع « يتناولا » لم تسبقه أداة ناصبة أو أداة جازمة ، فحقه الرفع « فيتناولان » ٠

٢ ـ ص ٢٥ س ١٩ ورد « من يأتني بحصان حمدان ٠٠ ؟ » بحذف ياء « يأتي » ، والواجب إثباتها « يأتيني » فالفعل هنا غير مجزوم لأن « من » التي سبقته هي الاستفهامية وليست الشرطية التي تجزم فعلين ٠

٣ ـ ص ٣٢ س ٥ ورد « أن يقسمها فيهم مازال في نُسكة من عقله » ٠ واستعمال « مادام » هنا هو الصحيح ٠ كما أن « يقسمها بينهم » أدق من « يقسمها فيهم » ٠

٤ ـ ص ٣٧ س ٦ و ٧ ورد « وانه لم يتأثر ، أو يهتز ، أو يتغير شعوره ، أو يخاف ـ كذا ـ من الموت ٠٠ » ٠ الأفعال الثلاثة بعد « يتأثر » كلها مجزومة ، فهي معطوفة عليها بأو ، ف « يهتز » مجزوم بسكون مقدر منعت من ظ وره حركة الخفة ، و « يتغير » بالسكون الظاهر ، و « يخاف » يجب أن تكون « يخف » لأن المضارع الأجوف يفقد حرف علته ـ أي

تجويفه ـ اذا جزم تجنبا لالتقاء الساكنين ٠

٥ ـ في الصفحة نفسها س ٣ ورد « ونستأنى به » ٠ و « استأنى » فعل متعد بنفسه ٠ قال جرير مخاطبا الراعي النميري :

لبئس الكسبُ تكسبه نميرٌ
إذا استأنوك وانتظروا الإيابا (٧٠)

٦ ـ ص ٣٨ س ١٦ والذي بعده ورد « بحيث عملوا الخير أولا ولا يريدون أن يكدروه ثانيا» . يجب أن تستبدل بواو الجمع هنا ألف التثنية لأن الحديث عن المرأة وزوجها ، ولا ثالث لهما ٠ وينبغي أن يستغنى عن « بحيث » ويستعاض عنها بما هو أكثر مناسبة للمعنى المقصود نحو : « لأنهم » أو « فهم قد » ٠

٧ ـ ص ٣٩ س ٢ ورد « ووصفت لهم هذا الرجل غليس » ٠ وصحته « ٠٠٠ غليسا » بالنصب على البدلية ٠

٨ ـ ص ٤١ ورد « وفارقت » هكذا لازما ٠ و « فارق » لابد له من مفعول ٠ جاء في اللسان : « وفارق الشيء مفارقة وفراقا : باينه ٠٠ » (٧١) ٠

٩ ـ ص ٥٩ س ٦ ورد « يعطيها لابنه الشجاع » ٠ « أعطى » يتعدى بدون اللام ٠٠ وان عدى بها فذلك شاذ ٠٠ كما في قول ليلى الأخيلية :

أحجاجُ لا تعطى العصاةَ مناهم
ولا الله يعطي للعصاةِ مناها

حيث دخلت اللام على مفعول (أعطى) الأول (٧٢) ٠

١٠ ـ ص ٦٣ س ١٠ ورد « وجمعوا له ابلا عن الابل التي أخذت له » ٠ ومن معاني « عن » في العامية : « بدل » التي تقوم الباء مقامها في الفصحى ٠٠ تقول : أعطيناك بكبشك نعجة ٠ وجاءت « عن » في الجملة على ذلك الاستعمال ٠ وقد بحثنا في بعض كتب حروف المعاني فلم نجد هذا المدلول لـ « عن » مذكورا ضمن معانيها (٧٣) ٠

١١ ـ ص ٦٩ س ١ ورد « فحاول ابن دعيجا أن يقنع محيسن » ٠ وبدهي أن الصواب نصب محيسن ٠

وأصاب الخطأ النحوي محيسنا ذا الحظ الرديء هذا ثانية في الصفحة نفسها س ٤ : « ولكن هذا العاشق محيسن أصر ٠٠٠ » والصواب : « ولكن هذا العاشق محيسنا أصر ٠٠٠ » ٠

١٢ ـ ص ٧٢ س ٦ و ٧ ورد « وعيناه اللتان لا تخلوان من عمش

ضئيل لم يطفيء من بريقها أو يقتل فيها سمة الحرارة ٠٠ » ٠ والصحيح استبدال ضمير المثنى الغائب هما بضمير المفردة الغائبة في « بريقهـا » و « فيهـا » ٠

١٣ ـ ص ٨٨ س ٣ ورد « مع نفس الطريق » ٠ والصحيح « مع الطريق نفسها » ٠٠ قال ابن مالك :

بالنفسِ أو بالعينِ الاسم أُكِّدا
مع ضميرٍ طابقَ المؤكَّدا (٧٤)

١٤ ـ أشبع المؤلف الفاضل تاء المخاطبة فرسم بعدها ياء في بضع حالات في كتابه ٠٠ ففي ص ٩٨ س ١٠ جاء : « فاستنكفتي وأبيتي » ، وفي ص ١٠١ س ١١ و ١٢ : لو تعرفين عن (نيف) مثلما أعرف لعذرتيني » ٠ وفي ص ١٥٠ س ٦ : « زينتي وخاب طالبك ، أما أنتي ٠٠٠ » ، وفي ص ٢٠٩ س ١٥ : « أما أنتي يا أم فلانة ٠٠٠ » ، وفي ص ٢٣٨ س ١١ : « « بما في ذلك أنتي وبناتك الثمان » ٠

ويبدو أن المؤلف الكريم يهوى هذا الضرب من الإشباع اذ نجده عند كتابة بعض الشعر العامي يشبع الكسرة بحيث تتولد ياء لا حاجة للوزن والموسيقى بها ٠٠ ففي قصيدة عامية (ص ١٠١ ـ ١٠٢) أشبع الكسرة في الكلمات التالية (مرسومة كما رسمها) : « نايميني ـ يزيني ـ كاسبيني ـ مسعديني ـ الكميني ـ العايليني ـ حزيني » في قصيدة أخرى (ص ١٦١ » أشبع الكلمات التالية : « الصخاني ـ الثماني ـ الهواني » ٠ وفي قصيدة ثالثة (ص ١٥٣) : « عراضي » ـ ناضي ـ باعتراضي » ، وفي القصيدة الأخيرة حذفت الياء من كلمة « قاضي » في آخر بيت فيها مع أن اثباتها لازم ٠ وفي قصيدة رابعة (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) : « الظلامي ـ الغمامي ـ المنامي » ٠٠ بينما تكفي الكسرة لاستقامة الوزن ٠٠ وربما أن المؤلف تعمد رسم الياء في تلك الأمثلة احتياطا ، لعلمه أن الكتاب سيخلو من الشكل ، وبدون الكسرة يختل الوزن ٠

١٥ ـ ص ١٠٤ س ١ ورد « كيف فلان صاحب الأمانة والديانة ينحدر الى هذا المستوى ؟! » ٠ تقدم الفاعل « فلان » على عامله « ينحدر » ٠ وحدث مثل ذلك في ص ١٤٩ س ٥ و ٦ حيث ورد « لماذا ابن عمها يحول بيني وبينها ؟ » ، وفي ص ٢٢٤ س ٢ حيث جاء « لماذا منطقة نجد تغص بأمهات قبائل العرب » ، وفي ص ٢٤٠ س ١ حيث ورد « هل قسوة قلبك

تبلغ الى هذا الحد ؟ » • وحكم الفاعل التأخر عن رافعه • قال الزمخشري : « الفاعل هو ما كان المسند اليه فعل أو شبهه مقدما عليه أبدا كقولك ضرب زيد وزيد ضارب غلامه وحسن وجهه ••• » (٧٥) •

١٦ ــ ص ١٠٦ س ٩ ورد « عرف حيلان أنه مخطىء فسكت ، وأغاروا على جذيل ومن معهُ ، وأصيب بجرح أثناء المعركة » •

واضح من السياق أن الضمير في «أغاروا» عائد على «حيلان ورفقته» •• لكن لم يكن لرفقته ذكر قبله مباشرة • وأقرب ما يمـــــكن أن يعود عليه الضمير هو لفظ « الركب » قبل ذلك بثمانية أسطر •• فكان يجب ذكرهم بأن يقال : « فاغار هو ورفاقه على جذيل » ، ثم بعد « وأصيب » كان ينبغي الا يترك اي مجال للشك في المصاب فيقال : « وأصيب هـــذا بجراح » أي جذيل •

١٧ ــ ص ١١٤ س ٧ ورد « وكانت سنة شهباء ، وزمن مدقع •• » • والصحيح « وزمنا مدقعا » ••

١٨ ــ ص ١١٨ س ١٩ ورد « ولم يتنبها الا وهو مزقا » • وحق الكلمة الأخيرة الرفع لأنها خبر •

١٩ ــ ص ١٢٢ س ٥ ورد « وكل قرى قلب الجزيرة يتسابقون على الجود » • وصحة العبارة « وكل سكان قرى قلب الجزيرة يتســـــابقون الى الجود ــ أو في الجود » •

٢٠ ــ ص ١٢٧ س ١١ ورد « فغمزت الفارس بداح » • وصحتها « فغمزت الفارس بداحا » •

٢١ ــ ص ١٢٩ (السطور من ١٥ الى ١٨) ورد « ولم تزل الأخبار تترامى الي أن فلانة بنت ابن مهيد أملح ما خلق الله من الفتيات في جيلها ، يخلعون عليها من الصفات الجميلة ، ويعطونها من مقومات الحسن •• » • علام يعود الضمير « واو الجماعة » في « يخلعون » و « يعطون » ؟ • لم يرد ذكر « جماعة » قبله • ان هذا غير جائز في غير لسان العامة • ونحو ذلك جاء في ص ٢٤١ س ١ حيث ورد « لم يكن عهدهم الذي كانوا يعيشونه » ، وفي ص ١٩٣ س ٢ و ٣ حيث ورد « عنزي أصيبت ابله بالجرب ، وأين ما وجه بها طرد مخافة أن يعدي مرضها ابلهم ••• » ، وفي ص ١٥٢ س ٢ حيث ورد « المشغوف يحبهن » • حب من ؟ علام يعود الضمير « هن » ؟ • لعل « المعنى في بطن الشاعر » ، أما نحويا فلابد من عود الضمير على اسم متقدم عليه « أو متقدم لفظا ومتأخر رتبة » •

٢٢ ـ ص ١٤٠ س ٥ و ٦ ورد « يستذل القبـــائل ويرهبهم » ٠ والصحيح « يرهبها » ٠

٢٣ ـ ص ١٥٦ س ٦ ورد « ولكن لماذا أليس ـ كذا ـ هذه عادة ظالمة ومبدأ مسرف في الجهل ومنهج جائر » ؟! وصحة العبارة « ٠٠٠ ومبدأ مسرفا في الجهل ، ومنهجا جائرا » ف « مسرف » نعت لـ « مبدأ » المعطـــوفة على « عادة » المنصوبة لوقوعها خبرا لليس ، و « منهج » معطوف على « مبدأ » منصوب ٠ و « جائرا » صفة لـ « منهج » منصوبة ٠

٢٤ ـ ص ١٨٧ س ١٠ ورد « ذبح له كبشا » ٠ والصحيح رفع الكبش فهو نائب الفاعل ٠

٢٥ ـ ص ١٩٢ س ٢ و ٣ ورد « وجاء ابن منديل لزيارة الشـيخ ابن صويط~أبو الولد » وصحة آخر الجملة « ٠٠٠ أبي الولد » ٠

٢٦ ـ ص ٢٠٥ س ١١ ورد « مر قافلة » والصحيح تأنيث الفعل ٠

٢٧ ـ ص ٢٠٩ س ١٨ و ١٩ ورد « وضع الهودج فوق الآخر » ٠ يعني الجمل الآخر ، ولم يرد ذكر جملين ، فكان يجب القول « فوق جمل آخـــر » ٠

٢٨ ـ وفي الصفحة نفسها س ٣ ورد « يدعى علوش » ٠ والصحيح نصب « علوش » أو وضعها بين قوسين على الحكاية ٠

٢٩ ـ ص ٢١٢ س ١٣ ورد « لا تبيت في بطن واد » والصـــحيح « لا تبت » ٠

٣٠ ـ وفي الصفحة نفسها س ٢١ ورد « لقيـــه النعت المذكور » ـ والمقصود « لقيه صاحب النعت المذكور » ٠

٣١ ـ ص ٢٣٩ س ١٣ ورد « بهذا الأثناء » والصحيح « بهـــذه الأثنـــاء » ٠

٣٢ ـ ص ٢٣٧ السطر الأخير ورد « فكم لك من أيادي لا تنسى » ٠ الصحيح « ٠٠٠ من أياد لا تنسى » ٠ وشبيه بهذا ما ورد في ص ٢١٨ س ٦ « الى خمس ليالي » ٠ والصحيح « ليـــال » ، وفي ص ٢٥٤ س ١٩ ورد « ومكث عنده ليال » وصحة هذه « ليالي » ٠ لأنها منصوبة تثبت ياؤها ٠ و « أيادي » و « ليالي » تعامل معاملة الاسم المنقوص الذي تثبت ياؤه في حالة النصب دائما ، وتحـــذف في حالتي الرفع والجر الا ان عرف بأل أو أضيف (٧٦) ٠

٣٣ ـ ص ٢٤١ س ١٣ ورد « ناقتين لقحتين ضلتا » ٠ وصحة الجملة « ناقتان لقحتان ضلتا » بالرفع على الابتداء ٠

٣٤ ـ في الصفحة نفسها السطر الأخير ورد « وذهب الناقتان » ٠ والصحيح تأنيث الفعل لأن الفاعل مؤنث حقيقي غير مفصول عن فعله فتأنيث العامل واجب ٠

٣٥ ـ في الصفحة نفسها س ١٨ ورد « مع العلم أن فحلها واحد » ٠ والصحيح « ٠٠٠ أن فحلهما واحد » ٠

٣٦ ـ ص ٢٦ ـ س ١٦ ورد « ما هو الهدف الحقيقي ؟ » ، وص ٨٠ س ١٠ « ما هو المخرج ؟ » ، وص ٢٤٧ س ١٠ « ما هي السيادة يا أبا بحر ؟ » ٠ والأصح فيها كلها الاستغناء عن الضمائر : ما الهدف الحقيقي ؟ وما المخرج ؟ وما السيادة ؟ ٠٠

٣٧ ـ ص ٢٥٢ س ١٦ و ١٧ ورد « الذي لم يصحو » بإثبات الواو ٠ وصحتها « الذي لم يصحُ » بحذف الواو ، لأن الفعل مضارع معتل الآخر مجزوم ٠

أخطاء طباعية :

وأخيرا أدوِّن في الكشف التالي أهم الأغلاط الإملائية ، والتي يبدو أن كثيرا منها تطبيعي ـ وهي لم ترد في بيان الخطأ والصواب في آخر الكتاب ـ ليتمّ إصلاحها في الطبعة الثانية لـ « أحاديث السمر » ٠٠

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٤	٥	زملول	زِعْول
٢٣	٢	عذري	عذرا
٢٤	١٠	استأخذ	استاخذ
٢٥	٩ ـ الأخير	بن عريعر	ابن عريعر
٤١	٩	فشكى	فشكا
٥٣	الأخير	أقوم وأنا	أقوله وأنا
٥٤	١٧	يا ركبين	يا راكبين
٦٤	الأول	لا تحسبن	لا تحسب أنّ
٦٤	٢	العواد	الأعواد
٦٨	٢٠	نبؤتها	لعلها (مطلب)
٧٣	١٣	مكلب (؟)	نبوءتها
٧٤	٢٠	بن جبرين	ابن جبرين
٧٥	٩	يابن جبرين	يا ابن جبرين

٧٧	٩	أبا بيع	آبا ابيع
٨٤	١٣	بن جرى	ابن جرى
٨٥	٢١	بنات حوى	بنات حواء
٩٣	٢ (وكررت بعد ذلـك)	وضحى	وضحا
١٠٩		هجة	هجت
١٠٩	١٦	يابن خلبوص	يا ابن خلبوص
١١٨	١٧	لأحد بادية	لأحد أبناء بادية
	٤	جنوب الجزيره	جنوب الجزيرة
١١٦	٩	عجمى	عجما
١١٦	١٥	وجنى	وجنا
١١٧	٥	ورى	ورا
١١٧	٧	المظيوم	المضيوم
١١٧	١٥	قالو	قالوا
١٢١	٢	ابن سندا	ابن سند
١٢١	٣	تقديمنه	تقدمينه
١٢١	١٤	المروه	المروءة
١٣٤	١٠	لي عده	لي عدت
١٣٥	٢	هل الملحه	(لعلها) : هل الملحا
١٣٥	١٩	فلجنا	فلجاً
١٣٧	٢٠	مروه	مروءة
١٣٧	٢٠	فعفى	فعفا
١٤٤	٢٠	العوى	العوا
١٥٩	١٨	البكاء	البكار
١٦٦	٤	أو يخرجنه	أن يخرجنه
١٧٤	١	تهلكو	تهلكوا
١٨٨	١	الخوله	الخوولة
١٨٨	٢	اذ استطاع	اذا استطاع
١٨٩	١	قصيرة	قِصيرهُ (الهاء هنا ضمير الغائب وليست تاء التانيث)
		حياظهم	حياضهم
١٩٠	٢	زحول الرجال	زُمُول الرجال
١٩٧	١٥	العشوى	العشوا
١٩٨	٧ـ١١ـ١٨		

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٩	٦	شراءها	شراؤها
١٠٢	١١	الحشوش ـ بالحاء	الجشوش
٢٠٦	٢	تنص	تنصى
٢٠٦	٤	ال شرى	آل شرى
٢٠٦	٥	تر	ترى
٢٠٦	٧	الصفارى	الصغارا
٢٠٧	٤	يجرؤن	يجرؤون
٢٠٧	٨	بن وعله	ابن وَعْلَه
٢٢٠	٢	يومهى جعلت	يوم هي جلعدت (؟)
٢٢٦	٢٣	ألفي	الفي
٢٢٨	٣	من بنى على حرب	من بنى على من حرب
٢٢٨	٤	المرؤه	المروءة
٢٣٠	٨	بالأبنا	بالأبناء
٢٣٢	٦	٠٠ و :	(تحذف)
٢٣٢	٨	خيل الخيل	خيال الخيل
٢٣٣	٢٣	وضحى	وضحا
٢٣٦	٤	قسى	قسا
٢٣٦	الأخير	(فاقضي ما انت قاضي)	(فاقضِ ما أنتَ قاضٍ)
٢٤٣	١٥	ومن ثم صفر اليدين	ومن ثم يعود صفر اليدين
٢٤٤	٥	وجاءت السنة	وجاء في السنة
٢٤٥	١٦	ونجو	ونجوا
٢٤٧	٣	واخر	أو آخر
٢٤٨	٧	تطابقو	تطابقوا
٢٥٧	١٩	كان هو رأي	كان هذا رأي ٠٠
٢٥٨	١٦	درت	زرت

وقبل أن ألقي قلمي جانبا يأبى الا أن يخط هنا عبارة شكر للمؤلف الكريم الذي أمتعتني قصصه ٠٠ كما أتاحت لي هذه البرهة النافعة التي قضيتها متأملا كثيرا من الأساليب والألفاظ ومدلولاتها ٠

وأخيرا ليدركْ من يقرأ هذه الملاحظات النقدية أنه لو تولى تأليف هذا الكتاب غير صاحبه هذا لربما كان فيه من المآخذ والهفوات أضعاف ما ذكرناه ٠٠

وجل من لا يسهو ولا يزل ، و (لا تأخذه سنة ولا نوم) ٠

د٠ محمد السليمان السديس
كلية الآداب ـ جامعة الرياض

حواش وتعليقـــات

١ ـ د٠ عبد الستار الحلوجي ، قرأت لك : من احاديث السمر ، الدارة ، العدد الثالث ، السنة الرابعة ، شوال ١٣٩٨ ، ص ٢١٩
٢ ـ ص ١٧٧
٣ ـ ص ٩٣
٤ ـ ص ١٨١ السطر الأخير ، وص ١٨٢ س ١ و ٢
٥ ـ ص ٢٥٢ س ١٣
٦ ـ ص ٢٥٤ س ٢٠
٧ ـ ص ١٣٠ س ٧
٨ ـ ص ٥٧ س ١٧
٩ ـ ص ٧١ س ١٠
١٠ ـ ص ٧٢ س ١١
١١ ـ ص ١٤١ س ١١
١٢ ـ ص ٨٤ س ٦
١٣ ـ ص ١١٤ س ٣ و ٤
١٤ ـ ص ٢١٨ س ١٤
١٥ ـ ص ٧٢ س ١
١٦ ـ ص ١٦٧ س ١٠ و ١١
١٧ ـ ص ٢١٢ س ١٩
١٨ ـ ص ٢٣٥ س ٢
١٩ ـ ص ٢٣٩ س ١
٢٠ ـ ص ٢٥٣ س ١
٢١ ـ ص ١٤٣ س ٦
٢٢ ـ ص ٥٨ س ١ و ٢
٢٣ ـ ص ١٥٥ س ٩
٢٤ ـ ص ٢٨ س ٤

٢٥ ـ ص ٢٤٤ س ٧
٢٦ ـ ص ٢٥٤ س ١٨
٢٧ ـ ص ١٣ س ٧ ، وص ٥٦ س ١٢ ، وص ١٣٢ س ٧ ، وص ١٧٩ س ٦
٢٨ ـ ص ١٢٠ س ٧ ، وص ١٢٩ س ١٤ ، وص ٢٠٧ س ٧
٢٩ ـ ص ١٧ س ٦
٣٠ ـ ص ٣٠ س ١٣ وس ١٨ ، وص ٥١ س ١٢ ، وص ٧٠ س ٧ ، وص ١٠٤ س ١٦ ، وص ١١٨ س ١٠ ، وص ١٣٠ س ١ ، وص ١٤٩ س ٩ ، ص ١٦٣ س ٦ ، وص ١٨٩ س ١٢ ، ص ٢٣٤ س ٦ ٠

٣١ ـ ص ٣٨ س ١٤ ، وص ١٧١ س ٢
٣٢ ـ ص ٢١٨ س ٢٢
٣٣ ـ ص ٢٣٨ س ١٧
٣٤ ـ انظر اللسان (عود)
٣٥ ـ ص ٢٠٩ س ٩
٣٦ ـ ص ٣٣ س ٥ ، وص ١٢٣ س ٢ وس ٣
٣٧ ـ نهج البلاغة ، شرح الامام محمد عبده ، ت ٠ محمد احمد عاشور ومحمد ابراهيم البنا ، القاهرة (د٠ت) ، ص ٥٢ ٠

٣٨ ـ انظر لسان العرب ، مادة (صيف) ٠
٣٩ ـ ص ١٧٧ س ١٣
٤٠ ـ ص ٢٥ س ١٠
٤١ ـ ص ٧٠ س ١٢
٤٢ ـ ص ٢٥٧ س ١٢
٤٣ ـ جمهرة اللغة ، ٣ ، ص ١٦١ (ف و ه) ٠
٤٤ ـ مادة (ف و ه) ٠
٤٥ ـ انظر مثلا القاموس المحيط ، واللسان ، واساس البلاغة للزمخشري (وما)
٤٦ ـ ص ٧٧ س ٢ و ٤ ، وص ٨٢ س ٢ ، وص ١٣٢ س ٩
٤٧ ـ د٠ عبد المنعم سيد عبد العال ، معجم الالفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ١٤٣ ٠

٤٨ ـ (ب ن د ق) ٠
٤٩ ـ المادة نفسها
٥٠ ـ شرح الهاشميات ، للشاعر الشهير الكميت بن زيد الأسدي ، المتوفى سنة ١٢٦ هـ ، بقلم محمد محمود الرافعي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٢٩ هـ ، ص ٣٦

٥١ ـ ايليا سليم حاوي ، شرح ديوان الأخطل التغلبي ، بيروت ، ١٩٦٨ ص ٣٢٩ ، واللسان (ع ض ب) ٠

٥٢ ـ انظر القاموس المحيط (ع ض ب) ٠
٥٣ ـ مادة (غ ي ي) ، وانظر أيضا المادة نفسها في اساس البلاغة ٠
٥٤ ـ مادة (حلا) ٠
٥٥ ـ القاموس المحيط (ل ح ق) ٠
٥٦ ـ المصدر نفسه (هـ ج ن) ٠
٥٧ ـ كتاب شرح أشعار الهذليين ، صنعه أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري ، حققه عبد الستار احمد فراج ، ٢ ، بيروت ، (د٠ت) ، ص ٨١٥ ٠ ومعنى « مرعل » أن يشق في آذانها شقيق صغير توسم بذلك ، ويقال المرعل : الخيار السمان ذوات الأسنمة ٠٠ » عن المصدر نفسه ٠

٥٨ ـ شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، نشره احمد امين وعبد السلام هارون ، القسم الثالث ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٨م ، ص ١٠٥٢ ٠

٥٩ ـ المصدر نفسه ، القسم الرابع ، ص ١٦٧١
٦٠ ـ انظر جمهرة خطب العرب لاحمد زكي صفوت ، ١ القاهرة ، ١٣٨١ هـ ، ص ٦٦ ٠

٦١ ـ انظر مثلا القاموس المحيط (ن ك ل) ٠

٦٢ ـ جاء في القاموس المحيط مادة (قصد) : « القصد ٠٠٠ ومواصلة الشاعر عمل القصائد » ٠

٦٣ ـ انظر مادة (صحا) في اللسان و (ص ح و) في القاموس المحيط ٠

٦٤ ـ معجم مقاييس اللغة لاحمد بن فارس ، ت عبد السلام هارون ، ١ ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م ، ص ٣٣٥ ٠

٦٥ ـ المصدر نفسه ٠
٦٦ ـ مادة (س ل م) ٠
٦٧ ـ مادة (سلم) ٠
٦٨ ـ المادة نفسها ٠
٦٩ ـ لسان العرب مادة (رشد) ٠

٧٠ ـ شرح ديوان جرير ، تاليف محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، ١ بيروت ، (مصور ـ د٠ت) ، ص ٧٢

٧١ ـ اللسان مادة (فرق) ٠

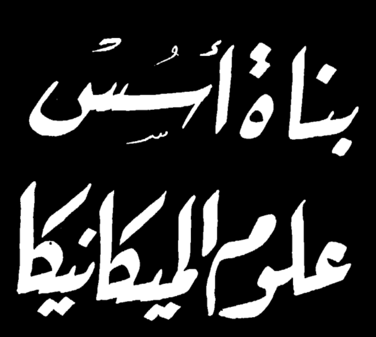
٧٢ ـ عباس ابو السعود ، ازاهير الفصحى في دقائق اللغة ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص ١٣٥ ٠

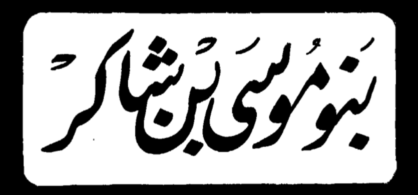
٧٣ ـ انظر مثلا (رصف المباني في شرح حروف المعـــاني) ، للامام احمد ابن عبد النور المالقي ، ت ٠ احمد محمد الخراط ، دمشق ، ١٣٩٥ هـ ، ص ٣٦٦ ـ ٣٧٠ ، و (كتاب الأزهية في علم الحروف) ، تاليف علي بن محمد النحوي الهروي ، ت ٠ عبد المعين الملوحي ، دمشق ، ١٣٩١ هـ ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ ٠

٧٤ ـ انظر شرح ابن عقيل ، ٢ ، ت ٠ محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط ١١ ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ٠

٧٥ ـ المفصل في علم العربية ، تاليف ابي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، ط ٢ ، بيروت ، (د٠ت) ، ص ١٨ ٠

٧٦ ـ انظر مثلا شرح ابن عقيل ، ١ ، ط ١١ ، ص ٧١ ـ ٧٤ ٠





بقلم الدكتور على عبدالله الدفاع
عميد كلية العلوم - جامعة البترول والمعادن

عاش موسى بن شاكر في زمن الخليفة العباسي المـــأمون ، في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) في بغداد ، فكان ممن يهتم بشئون الفلك في بلاط المأمون ، وذلك في ١٩٨ ــ ٢١٨ هجرية الموافق (٨١٤ ــ ٨٣٣م) فصار من كبار المنجمين ومن المقربين للمأمون ــ اشـــتهر موسى بن شاكر بأزياجه الفلكية · كما برز هو وأبناؤه الثلاثة محمد وأحمـــد وحسن في الرياضيات والهندسة الميكانيكية · كان موسى بن شاكر من المقربين للمأمون ، لذا أرسله في بعثة الى منطقة سنجار لقياس المسافة التي تقابل درجة واحدة على خط الطول (وهذا ما يكافيء قياس محيط الأرض ، اذا قدرت هـــذه المسافة بـ ٣٦٠°) ، فبعد الحساب الطويل والدقيق توصلت البعثـة الى أن المسافة تساوي ٦٦٪ ميلا عربيا (١) · وهذا ما يعادل ٤٧ر٣٥٦ كيلومترا لمدار الأرض وهذه النتيجة قريبة من الحقيقة اذ مدار الأرض الفعلي يعادل ٤٠ر٠٠٠ كيلومتر تقريبا · يؤكد لنا حميد موراني وعبد الحليم منتصر في كتابهما (قراءات في تاريخ العلوم عند العرب) أنه يعزي لبني موسى بن شاكر القول الجاذبية العمـــودية بين الأجرام الســـماوية ، يربط كواكب السماء بعضها ببعض ويجعل الأجسام تقع على الأرض · وقد كلفهم المأمون بقياس محيط الأرض · وقد قدره بنحو أربعة وعشرين ألف ميل ، وقد اختار مكانين منبسطين ، أحدهما صحراء سنجار نصبوا الآلات وقاسوا الارتفاعات والميل والأفق ، وعلموا أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها ٦٦٪ ميل وتوافق الحساب · مع ما عملوه في أرض الكوفة ، وقيـــاس العرب هو أول قياس حقيقي أجرى مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المســـــاحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل ·

بنى موسى بن شاكر وأولاده مرصدا كبيرا على طرف جسر بغداد ، فكانت أرصادهم مرجعا لمن أتى بعدهم من علماء عرب ومسلمين وغيرهم · ويذكر محمد فائز القصري في كتابه (مظاهر الثقافة الاسلامية وأثرها في الحضارة) : قام محمد بن موسى بن شاكر وأخواه بحسابات فاقت ما وصل اليه بطليموس وفلكيو العصر المروزي حتى أن البيروني الكبير صرح بعد

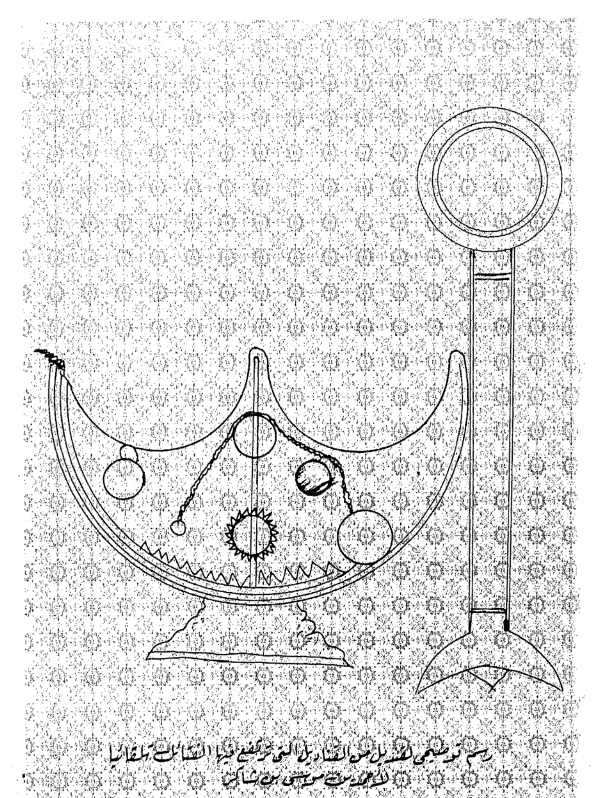
مرور مائة وخمسين عاما (أني أرى أن بوسع المرء أن يعتمد على ما قام به أبناء موسى من أبحاث .. فهم وضعوا طريقة البحث وكانوا الوحيدين في عصرهم وتركوا المجال لغيرهم من العلماء أن يتحققوا من صحة قياساتهم . كما ترجموا عن اليونانية الكثير من كتب الرياضيات والفلك والفوا في هذين الحقلين . كما ألف بنو موسى في علم الحيل (٢) كتاب « حيل بني موسى » ويحتوي هذا المؤلف على مائة تركيب ميكانيكي كما كتبوا أو بحثوا في علم مراكز الأثقال (٣) ، يقول عمر رضا كحالة في كتابه « العلوم البحتة في العصور الاسلامية » بنو موسى بن شاكر من علماء القرن التاسع للميلاد ، فقد ألفوا كتابا يعرف بحيل بني موسى ، وهو عجيب نادر يشتمل على كل نادرة ، وقد يكون الكتاب الأول الذي يبحث في الميكانيك ، وهو من أحسن الكتب وأمتعها في مجلد واحد ويحتوي هذا الكتاب على مائة تركيب ميكانيكي ، عشرون منها ذات قيمة علمية كما ألفوا في علم مراكز الأثقال . » وقد قال ابن خلكان في كتابه « وفيات الأعيان » : « لأبناء موسى بن شاكر كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريب ، ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد » . واكتشف بنو موسى طريقة جديدة لرسم الشكل الاهليلجي وذلك بغرس ابرتين في نقطتين ثم أخذ خيط أكثر من ضعف بعدي هاتين النقطتين ، ثم يربط هذا الخيط من طرفيه ويوضع حول الابرتين ويولج فيه قلم الرصاص ، فعند ادارة القلم يتكون الشكل الاهليلجي . وتسمى النقطتان «محترقي» الاهليلجي أو «بؤرتيه» . ويقول أنور الرفاعي في كتابه « الاسلام في حضارته ونظمه » : « شرح بعض أبناء موسى صعود مياه الفرات والعيون الى أعلى وكيفية ترشيح مياه الآبار من الجوانب وبينوا كيفية صعود المياه الى الأماكن العالية بالقلاع ورءوس المنارات وطبعوا ذلك على حاجاتهم اليومية وفي القلاع المرتفعة ، وكان علم السوائل عندهم من فروع الحيل » .

مات موسى بن شاكر في سن مبكرة عندما كان أولاده الثلاثة في سن الطفولة فرعاهم المأمون أحسن رعاية وعلمهم حتى إن الكبير منهم وهو محمد صار له شأن عظيم في السياسة ، فحل محل أبيه عند الخليفة المأمون ولم يكن محمد بن موسى سياسيا فقط ولكنه أيضا كان عالما ورياضيا من الدرجة الأولى ، كما اهتم بالأرصاد الجوية والانشاءات الميكانيكية . يقول أنور الرفاعي في كتابه « الاسلام في حضارته ونظمه » (الادارية والسياسية والأدبية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والفنية) : « رعى المأمون

تربيتهم فأوكل أمر العناية بهم الى اسحاق بن ابراهيم المصعبي (٤) ، حتى اذا ما شبوا دفع الى يحيى بن منصور (٥) رئيس بيت الحكمة فتفتحت أمامهم في تلك الأكاديمية كل أنواع المعرفة والعلوم ووسائل الدرس والاستفادة ، حتى برزوا « في علم الفلك والرياضيات والميكانيكا والهندسة والموسيقى والطب والحكمة وعلم الفلسفة » ٠

وقضى محمد وهو الابن الأكبر لموسى بن شاكر ، جل وقته في دراسة وتطوير علم الفلك والرياضيات والفلسفة وعلم طبقات الجو ، اضافة الى اسهامه في علم الميكانيكا التي كانت من اهتمامات أخيه أحمد ٠ وقد اشتهر محمد بسعة اطلاعه في معظم فروع المعرفة ، لذا كان يلقب بحكيم بني موسى ٠ يقول أنور الرفاعي في كتابه (الاسلام في حضارته ونظمه) : نبغ في الفلك والرياضيات والفلسفة والطب ونبغ أحمد في علم الميكانيكا ، وبرز الحسن في علم الهندسة ٠ وبعد أن عمل الاخوة الثلاثة في دار الرصد المأمونية في الشماسية في أعلى بغداد ، أنشأوا مرصدا خاصا بهم في دارهم التي أقاموها عند باب (الطاق) في جانب الرصافة في بغداد ٠ وأسهموا في عملية قياس محيط الأرض التي تمت في عهد المأمون في صحراء سنجار في شمال العراق تدمر في بر الشام » ٠ أما زيغريد هونكه فذكرت في كتابها (شمس العرب تسطع على الغرب) : « لم يكن محمد عالما فلكيا ورياضيا طويل الباع فحسب ، بل كان أيضا ممن انصرفوا الى تعاطي الفلسفة وخاصة علم المنطق منها ، ووضع كتابا في الأسباب الأولى لوجود العالم ٠ كما أنه اهتم بعلم طبقات الجو Meteorology وذيلها ببعض الملاحظات ، بل تعدى ذلك كله فاهتم بالانشاءات الميكانيكية ، وهو موضوع كان من اختصاص أخيه الثاني أحمد وكتب موسعا عن القدماء حول الميزان السريع » ٠

أما أحمد ، وهو الأوسط من بني موسى بن شاكر ، فكان يميل الى الأعمال التطبيقية والآلات المتحركة ، وقد بنى أحمد بالاشتراك مع أخيه محمد ساعة نحاسية كبيرة الحجم استفاد منها معاصروه ٠ وتذكر المؤلفة الألمانية زيغريد هونكه في كتابها « شمس العرب تسطع على الغرب » أن أحمد ابن موسى بن شاكر تفنن في الهندسة الميكانيكية فاخترع تركيبا ميكانيكيا يسمح للأوعية أن تمتلىء تلقائيا كلما فرغت ، والقناديل ترتفع فيها الفتائل تلقائيا كلما أتت النار على جزء منها ويصب فيها الزيت تلقائيا ولا تنطفيء عند هبوب الريح عليها ، كما ابتكر آلة ميكانيسكية للزراعة والفلاحة تحدث صوتا بصورة تلقائية كلما ارتفع الماء الى حد معين في الحقل



رسم توضيحي لقنديل من القناديل التي ترتفع فيها الفتائل تلقائيا
لأحمد بن موسى بن شاكر

عند سقيه • واخترع عددا كبيرا من النافورات التي تظهر صـورا متعددة بالمياه الصاعدة • والجدير بالذكر أن نظريات أحمد بن موسى لازالت تستخدم عنـد تصمم النافورات الحديثـة • وأضـاف معروف ناجي في كتـابه (المراصد الفلكية ببغداد) « في مرصد سامراء رأيت آلة بناها الأخوان محمد وأحمد أبناء موسى ، وهي ذات شكل دائري تحصل صور النجـوم ورموز الحيوانات في سطحها ، وتديرها قوة مائية • وكلما غاب نجم في قبة السماء اختفت صورته في اللحظة ذاتها في الآلة ، واذا ما ظهر نجم في قبة السماء ظهرت صورته في الخط الأفقي من الآلة » ويتضح أن أحمد بن موسى له السبق بين أخويه ومعاصريه في صنع الآلات المنزلية ولعب الأطفال وبعض الآلات المتحركة مثل الروافع المبنية على القواعد الميكانيكية والتي تستعمل لجر الأثقال أو لرفعها أو لوزنها ، فتناول هذه الموضوعات بالبحث والتدقيق •

أما ثالثهم ، وهو الحسن بن موسى ، فكان النابغة المغرم بعلم الهندسة الذي نال سمعة كبيرة في هذا المجال ، يحل المسائل المستعصية على معاصريه ، حتى أصبحت له مكانة مرموقة عند المأمون والذي قربه واعتبره أحد علمائه الكبار في حقل الهندسة • وألف الحسن بن موسى كتابا في قطع المستديرات ، بقي مرجعا لعلماء أوربا في الأشـكال الأهليلجية • وتذكر المؤلفة زيغريد هونكه في كتابها المذكور أعلاه قصة شيقة وهي أن أحد العلماء المتخصصين في حقل الرياضيات والمعاصر للحسن بن موسى اتهمه بالاهمال أمام الخليفة المأمون وذلك بقوله : « ان الحسن بن موسى لم يدرس الا ستة كتب من كتب اقليـدس » فتعجب المأمون من هـذا الخبر وتساءل عن صـحته • فرد الحسن بن موسى على تساؤلات الخليفة بقوله : « والله يا أمير المؤمنين ، لو أردت أن أكذب ، لقلت اتهاماته كاذبة ، ولوضعته ازاء تجربة حاسمة ، ذلك أنه لم يسالني عن واحدة من مسائل الكتب التي لم أقرأها ! ولو أنه فعـل ، لكنت حللتهـا بسرعة البرق وأخبرته بالنتـائج ثم جهلي بهـذه الكتب لا يعوقني أمام الصعوبات ، فهذه الأشياء هينة بالقياس الى مهما صعبت » • كما ذكر عبد الحميد صبره في كتاب (عبقرية الحضارة العربية) ، (ينبوع النهضة) والذي ألفه جمهرة من المستشرقين : « ومن الجلي أن الأولاد الثلاثة كانوا موهوبين • فقد أتقن أكبرهم محمد الهندسة والفلك وتفوق أحمـد في الميكانيكا ، أما الحسن فكان شديد الاهتمـام بالهندسة التي مهر فيهـا

بسليقته ، اذ استطاع ، بعد أن أكمل دراسة الكتب الستة الأولى من أصول اقليدس أن يحل بمفرده مسائل الكتب السبعة الباقية من هذا المصنف ٠ وكان من دلائل ما لتعاليم القدماء من حرمة في نفس المأمون أن قرع الحسن ذات مرة لأنه لم يكمل قراءة « الأصول » هذا النص الأساسي الجليل ، وان لم تكن به حاجة الى ذلك » ٠

في بادىء الأمر اهتم بنو موسى بترجمة كتب الفلك والميكانيكا والرياضيات من لغات مختلفة الى اللغة العربية حتى أسند اليهم الخليفة المأمون الاشراف على قسم الترجمة في بيت الحكمة . فصاروا يختارون المترجمين والمواد العلمية التي تلزم ترجمتها ، فاختاروا من بين هؤلاء المترجمين : حنين بن اسحاق وثابت بن قرة وغيرهما كثير ٠ كما تنقل أكبرهم في بلاد كثيرة سميا وراء جمع المخطوطات في جميع فروع المعرفة وبالأخص كتب الميكانيكا والفلك والرياضيات والفلسفة والطب والصيدلة ٠ ويقول فلورين كاجوري في كتابه (تاريخ الرياضيات) « اهتم بنو موسى في جمع الكتب اليونانية حتى أن محمد بن موسى ذهب الى اليونان كي يتمكن من الحصول على المخطوطات العلمية التي تبحث في الرياضيات والفلك » ٠ وأضاف كاجوري قائلا : « ان أبناء موسى قد استعملوا وطوروا قانون هيرون لايجاد مساحة المثلث اذا علم طول كل من أضلاعه » ٠

تحدث معظم المؤلفين في تاريخ العلوم عن قيمة كتاب «حيل بني موسى» العلمية فاتضح لديهم أن لهذا الكتاب مكانته التكنولوجية العظيمة التي توضح بعض ما قدمه العقل العربي والاسلامي للعالم من ابتكارات علمية ٠ ويذكر صاعد الأندلسي في كتابه « طبقات الأمم » أن محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر قد برزوا بصفة عامة باشتغالهم في علم الميكانيكا الى جانب شهرتهم في الفلك والرياضيات والهندسة ، فبرهنوا على مقدرة الأمة العربية فائقة النظير في حقل التكنولوجيا المتطورة ٠ وأضاف عز الدين فراج في كتابه « فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوروبية » قائلا : « أما اخوة بني موسى ففي كتابهم (كتاب عن الميكانيكا) يعملون شروحات ميكانيكية قيمة ، ثم يصف الكتاب طريقة حفظ مستوى الماء في الأنابيب » ٠

مؤلفاتهم :

عكف بنو موسى بن شاكر على مؤلفاتهم كغيرهم من علماء العرب والمسلمين فصنفوا في حقول عديدة مثل الهندسة والمساحة والمخروطات والفلك والميكانيكا والرياضيات ، ومن مؤلفاتهم ما ذكره قدري طوقان في كتابه

« تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك » وغيره وهي :
١ ـ كتاب بني موسى في القرسطون (أي الميزان ذي العاتق)
٢ ـ كتاب مساحة الأكر (للحسن)
٣ ـ كتاب يحتوي على تنقيح مخروطات أبو لونيوس
٤ ـ كتاب أوضح فيه كيفية ايجاد الوسط التناسبي بين مقدارين أو كميتين معلومتين ·
٥ ـ كتاب يبحث في الآلات الحربية
٦ ـ كتاب حاول أحمد فيه البرهان على عدم وجود فلك تاسع
٧ ـ كتاب بين فيه بطريق تعليمي ، مذهبا هندسيا ، أنه ليس في خارج كرة الكواكب الثابتة كرة تاسعة (لأحمد) ·
٨ ـ كتاب الشكل المدور والمستطيل (المراد به الأهليلج) للحسن
٩ ـ كتاب قياس المساحات المسطحة والمستديرة · ترجمة جيرار الأكويني وعرف في أوروبا باسم كتاب الأخوة الثلاثة في الهندسة ·
١٠ـ كتب حيل بني موسى جمعوا فيه علم الميكانيكا القديمة ، وتجاربهم الخاصة · أما محمد فله الكتب الآتية : ـ
١١ـ كتاب حركة الفلك الأولى ·
١٢ـ كتاب الشكل الهندسي ·
١٣ـ كتاب الجزء ·
١٤ـ كتاب في أولية العالم ·
١٥ـ كتاب على مائية الكلام ·
١٦ـ كتاب المخروطات ·
١٧ـ كتاب المثلث ·
١٨ـ كتاب التقاويم المنازل السيارات ·

وفي الختام من الملاحظ أن أبناء موسى بن شاكر عاشوا في بيئة علمية بحتة ، حيث أن والدهم موسى بن شاكر كان من مشاهير علماء الفلك عند أمير المؤمنين المأمون · ولما توفى موسى لم يدخر المأمون وسعا بأن يرعى هؤلاء الأيتام ويشرف على تربيتهم بنفسه حتى وصلوا الى « المستوى الرفيع الذي خولهم الى الانضمام الى أساتذة بيت الحكمة » فبذلوا جهدهم هناك حتى نالوا احترام علماء العرب والمسلمين أعضاء بيت الحكمة ، وصاروا علماء بارزين في كثير من المجالات العلمية النظرية والتطبيقية ·

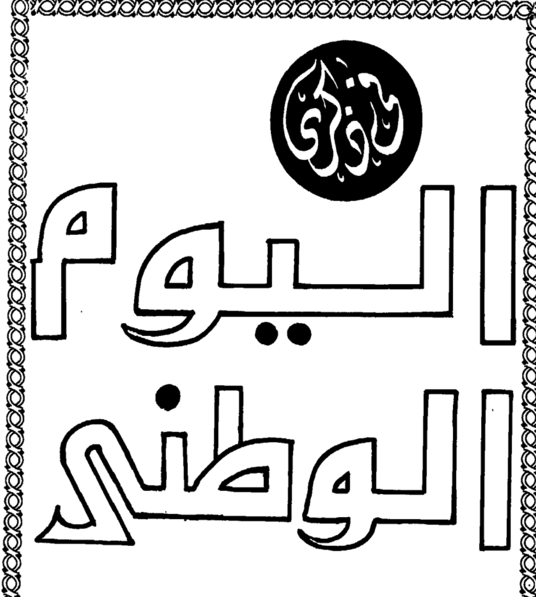
لقد تطرق أبناء موسى بن شاكر الى بعض الموضوعات التي لم تحظ

بتقدير كاف من علماء اليونان مثل الهندسة الميكانيكية ، فقدم أبناء موسى فيها ابتكارات كثيرة استفاد منها التابعون لهم من العلماء الى عصرنا هذا . فنذكر على سبيل المثال نظريات اختراع النـــافورات والساعات النحاسية والآلات الميكانيكية التي تستخدم في علم الفلك وألعاب الأطفال والأدوات المنزلية . وتعطي تلك الابتكارات وغيرها فكرة جيدة عن اتجاه علماء العرب والمسلمين نحو التقنية . ومن المؤسف حقا أن علماء الغرب ينشرون فـكرة كاذبة وهي أن اهتمام العرب والمسلمين اقتصر على العلوم الانسانية وأهمل العلوم النظرية والطبيقية . ويظهر مما تقدم عن أعمال بني موسى بن شاكر أن هذه مقولة عارية من الصحة .

حقيقة أن موسى بن شاكر حول من بيته جامعة ومن أبنـــائه طلابا نابغين فنجد أن محمدا قد نال شهرة عظيمة في عـــلوم الفلك والرياضيات والفلسفة والطب بينما اهتم أحمد بالناحية التقنية ، لذا ركز على تطوير وابتكار كثير من الآلات الميكانيكية . أما الحسن فحصل على زيادة عصره في علم الهندسة ، ومما يجب ذكره هو تعاون بني موسى فيما بينهم الى درجة أصبحوا فيها مثالا يحتذى ، حيث أن كثيرا من بحوثهم ومؤلفاتهم مشـــتركة بينهم . نرجو أن يكون أبنـــاء موسى قدوة حسنة لشباب أمتنــــا العربية والاسلامية في الاخاء والتعـــاون على ما فيه الخـــير لهم ولأمتهم وللانسانية جمعـــاء .

المراجـــع

١ ـ صاعد الأندلسي : طبقات الأمم .
٢ ـ بنو موسى : حيل بني موسى .
٣ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان .
٤ ـ أنور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه .
٥ ـ عبد الحميد صبره : عبقرية الحضارة العربية .
٦ ـ قدري طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك .
٧ ـ عز الدين فراج : فضل علماء المسلمين على الحضارة الأوربية .
٨ ـ محمد فائز القصري : المظاهر الثقافية الاسلامية وأثرها في الحضارة .
٩ ـ عمر رضا كحالة : العلوم البحتة في العصور الاسلامية .
١٠ ـ فلورين كاجوري : تاريخ الرياضيات .
١١ ـ حميد موراني وعبد الحميد منتصر : قراءات في تاريخ العلوم عند العرب .
١٢ ـ معروف ناجي : المراصد الفلكية في بغداد .
١٣ ـ زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب .



« التاسع والأربعون »

بقلم : محمد أبو الفتوح الخياط

بالأمس القريب احتفلت المملكة العربية السعودية بذكرى اليوم الوطني ، وكانت المجلة ماثلة للطبع ، وحين نشارك بهذه الصفحات تلك الذكرى الطيبة فانها تؤكد من جديد اهمية هذا اليوم في حياة العرب والمسلمين ، فقد برزت فيه المملكة العربية السعودية الى العالم الدولي قوية موحدة تحت راية « لا اله الا الله محمد رسول الله » .

وهذه الصفحات المشرقة من تاريخ الوطن السعودي المسلم تعبير حي واصيل لملحمة رائعة صاغها الملك عبد العزيز بوعي وبصيرة وتطلع واصبح علينا ان نذكره لأن الذكرى تنفع المؤمنين ، كما ان قراءة هذا التاريخ واجب حضاري نستمد منه الكثير لمستقبلنا ومستقبل اجيالنا المسلمة .



- عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود ..
- بطل من أبطال التاريخ العربي المعاصر ، ومن صانعي أحداثه ، وراسمي اتجاهاته ..
- صورة حية لكفاح الرجال .. وصبر الرجال .. واصرار الرجال على قهر المعجزات ، وتحطيم الحواجز ، والانطلاق لآفاق التقدم ..
- صانع كيان قوي وهائل لا يستطيع صناعته الا القلة النادرة من الرجال الأقوياء ..



[] اننا حين نقف مع مسار التاريخ لنذكره ·· ولنستعيد كفاحه ·· فاننا نستجلي جزءا من الصورة المشرقة التي بدأت واضحة جلية مع بداية العقد الثالث من عمر عبد العزيز ·· وحيث بدأ مسيرته النضالية الرائعة لتحقيق الأمل ·· ويحرر البلاد من كل نفوذ وتسلط وخوف ، ويبسط راية الوحدة على كل ربوع مملكتنا العربية السعودية ، وينطلق بها الى آفاق التقدم الرحبة لتأخذ مكانها على الخريطة الدولية ·

ـ ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود في قصر الامارة بالرياض في التاسع عشر من شهر ذي الحجة عام ١٢٩٧ هـ الموافق ٥ ديسمبر



١٨٨٠م ، وأمضى عبد العزيز باكورة صباه يعيش مع القبائل البدوية ، ويركب الخيل ويتعلم الفروسية ويتدرب على فنون الحرب والقتال بالسيف والبندقية بين أقرانه أبناء آل سعود وأتبـــاعهم ٠٠ عاش بينهم وعايشهم فدرس عاداتهم وتقاليدهم وعاش واقعهم :

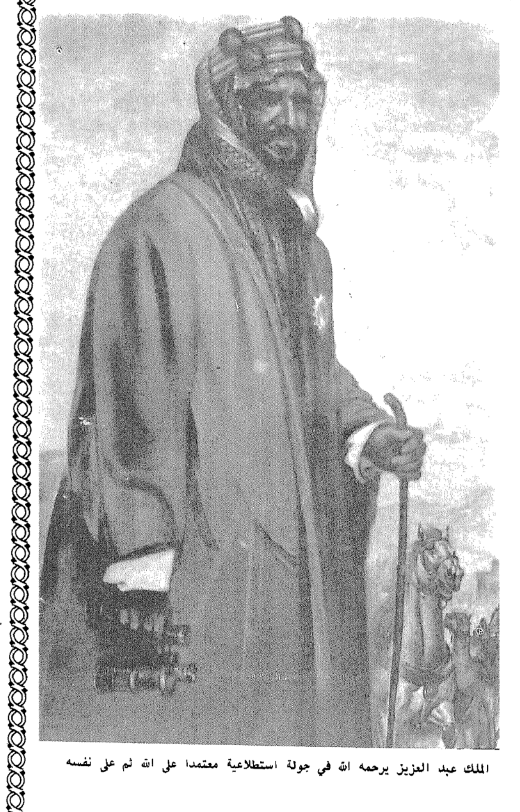
تعلم القراءة والكتابة وقرأ القرآن وتلقى أصول الفقه والتوحيد على يد الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف وسرعان ما خالط الرجال حتى رحل للكويت مع والده ولم يكن قد تجاوز الحادية عشر من عمره ٠٠ ولكنه بهمة الرجال وتطلعـــاتهم وعى تجربة الكويت وما عاشـــته في تلك الفترة ٠٠ واستوعب أحداثها ، وقارن واقعها بما عرفه عن أجداده العظام ٠٠ فكان ذلك بمثابة الوقود لعزيمته والحافز لطموحه وآماله ٠ ولكن عبد العزيز تميز بصبر الرجال وعزيمتهم الصلبة ٠

ـ شارك عبد العزيز مع أبيـــه الامام عبد الرحمن وحاكم الكويت الشيخ مبارك الصباح في الذود عن الكويت ضد مخاطر عبد العزيز بن متعب وتطلعاته للسيطرة على الكويت ٠

ليخرج عبد العزيز بدرس عظيم في وضع الخطة وتأمين البـلاد ٠٠ وليتجه بفكره وطموحه للرياض ٠٠ متسائلا ؟ :



لوحـــة تمثـــل معركة روضـة مهنـــا



الملك عبد العزيز يرحمه الله في جولة استطلاعية معتمدا على الله ثم على نفسه

•• هل يفرض علينا هـــذا الموقف أن نستسلم ونعيش غرباء عن وطننـــا ؟ •

•• هل سهل علينا مجد أسرة سعود وتاريخها المشرق ؟

وكأنه يحدث التاريخ عما سيكتبه مستقبلا ••

ويواجهه والده الامام عبد الرحمن بروح الأبوة الصادقة قائلا :

« ترى يا عبد العزيز ليس لي قصد في أن أقف في سبيل اقدامك •• ولكن كما ترى موقفنا وحالنا يقضيان باستعمال الحكمة في ادارة أمرنا •• أما وقد عزمت فأسأل الله لك العون والظفر » •

وبدرت دمعة من عين الأب كانت أثمن ما حمله قلب الابن في سيره الى المعركة التي خرج من أجلها •

ويخرج عبد العزيز الى الرياض في موكب الخالدين متخذا طرقا غير مألوفة •• وكأنه قائدا محنكا خابر القتال وعايشه ، تارة يتحدث اليهم وتارة يستمع اليهم ليعيشوا جميعا في واقع واحد وهدف واحد •• حتى أن الامام عبد الرحمن أرسل اليه وهو لايزال في الطريق يطلب اليه العودة •• وسرعان ما تحدث لرجاله قائلا :

« لا أزيدكم علما بما نحن فيه ، وهذا كتاب والدي يدعونا للعـودة للكويت •• قرأته عليكم ، ومبارك ينصحنا بالعودة •• أنتم احرار فيمـا تختارونه لأنفسكم •• أما أنا فلن أعرض نفسي لأكون موضع السـخرية في أزقة الكويت ، ومن أراد الراحة ولقاء الأهل ، والنـوم ، والشبع فالى يساري •• الى يساري » •

وبكل الشجاعة وعزة النفس •• يصيحون رافضين الا تحقيق الهدف الغالي •• ويكتب عبد العزيز لوالده :

« موعدنا انشاء الله في الرياض »

وفي الخامس من شوال •• تشرق شمس هذا اليوم المبارك من عـام ألف وثلاثمائة وتسع عشر •• وعبد العزيز ورجاله يجـولون في شوارع الرياض بهمة واعتزاز •• تتعالى الصيحات :

الله أكبر ••• الله أكبر ••• الملك لله ثم لعبد العزيز ••

ويتوافد أهل الرياض مستبشرين بالفاتح الجديد •

كانت عملية استرداد الرياض أول تجربة عاشها الملك عبد العزيز وطبقها بوعي وبصيرة وايمان ••

سجل بوعيه وادراكه سلوك خصـــمه وعاداته ٠٠ ثم خفـــة الحركة واستخدام الحرب الخاطفة ثم حرب الازعاج ٠٠ ثم توحيد القوات وتصنيفهم حسب مهام كل منهم ٠٠ وتوعيتهم بأهدافه وأسلوبه ٠٠ ثم ٠٠٠

لقد أذهل ذلك كله ٠٠ المؤرخين والمحققين ٠٠ فعبد العزيز لم يدرس فن عسكري ٠٠ أو استراتيجية معـــاصرة ولكنه درس في أرض الواقع واســـتوعب تاريخ بلده فانطلق بالهـــام فطري وراثي ٠٠ ليحقق أول هدف ٠٠ ولتكون الرياض المنطلق لتوحيد البلاد ٠

يرسل عبـــد العزيز لوالده الأمام عبد الرحمن بالـــكويت يدعوه للعودة قائلا :

« **الامارة لكم ، وأنا جندي في خدمتكم** » ٠٠

ويرد الامام عبد الرحمن « اذا كان قصدك من استدعائي الى الرياض أن أتولى الامارة ٠٠ فهذا لن يكون ، وليس أمامي الا أن أخرج منهـا اذا أصررت ٠



عبد العزيز يتحدث لرجاله ويحثهم على الوحدة في الرأي والتمسك بعقيدة الاسلام ٠

وتحت الحاح العلماء ‥ وتدخلهم يعلن الامام عبد الرحمن في ساحة المسجد الكبير بالرياض نزوله عن حقه في الامارة لأكبر أبنائه عبد العزيز ‥ ويهديه سيف « سعود الكبير » ويترك له قصر آل سعود ‥

وينطلق عبد العزيز بهمة المنتصر العائد ‥ ليتابع بنفس الايمـــان والاصرار مسيرته المباركة وليستكمل للبلاد تحريرها ووحدتها ٠

كانت نجد وتحريرها من أي نفوذ متسلط عليهـــا ‥ هدفا آخر لعبد العزيز ‥٠ أعد له العدة ‥ ليحقق نصرا عزيزا في موقعة الدلم ‥ سارعت بعده القبائل تعلن تأييـــدها لعبد العزيز وتشاركه تطلعاته ‥ فاستولى على عنيزه ثم بريده ‥ حتى كانت وقعة الشنانة (١٨ رجب ١٣٢٢) التي وطدت قدم عبد العزيز في نجد وأطاحت بالنفوذ التركي المتحالف ٠

ويعيش معهم عبد العزيز معارك سياسية متعددة فهو يدرك حقدهم والتواءهم وأساليبهم في التضليل والخيانة ٠
فهم يطمعون في اقامة مركزين عسكريين في بريده وعنيزه بحجة أن يستمر ذلك لحين اتفاق عبد العزيز مع ابن الرشيد ولكن الأهـــالي يلتفون حول عبد العزيز رافضين تلك المحاورة المغرضة ، ويواجه عبد العزيز الموقف بشجاعته واصراره ليسترد القصيم ويخلصها مما تعرضـــت له من غبن وقسوة ٠

ــ كان العثمانيون يطلقون على الاحساء والقطيف « لواء نجد » فقد احتلوها عام ١٢٩٧ هـ ـ ١٨٧٩م ‥ وأقاموا فيها حاميات عسكرية تدعم وجودهم ، وكانت الهفوف مركزا لهم ٠ وكان العثمانيون مشغولون باحتلال ليبيا ‥ ورأى عبد العزيز أنها فرصة يسترد خلالها الاحساء ‥ واستردها بفضل الله ثم اخلاص قيادته وجنوده ‥ وسقطت الهفـــوف واستسلمت الحاميات العثمانية في القطيف والقصيم ، وأرغم العثمانيون على الاعتراف الرسمي بعبد العزيز ملكا على نجد والقصيم والاحساء ، وتبدأ بريطانيا في الاتصال بعبد العزيز لتؤمن نفوذها في منطقة الخليج ‥ وتعقد معه معاهدة العقير وهي أول معاهدة يوقعها عام ١٣٣٤هـ/١٩١٥م ٠

كانت لهذه المعاهدة أكثر من هدف هي :
أولا : هي خطوة جادة في سبيل التخلص من الدولة العثمانية ٠
ثانيا : اعتراف رسمي من بريطانيا بسيادة البلاد الكاملة ٠
ثالثا : ضمان عبد العزيز لمساعدة بريطانيا له اذا ما اعتدت عليه الدولة العثمانية ٠



الملك عبد العزيز آل سـعود يرحمه الله في لقـاء مع ونستون تشرشل على ضفاف بحيرة قارون بالفيوم بمصر ٠

رابعا : اطمئنان عبد العزيز للانجليز في الجنوب ٠

وتبدو صورة الطمـع الاستعماري من جانب المانيا وروسـيا ويشتد الصراع الدولي ويتجه عبد العزيز لجيرانه من الأمراء والحكام ابن الرشيد والشريف حسين والشيخ مبارك ليتدارس معهم الموقف ليجنب البلاد أطماعهم وتطلعاتهم الاستغلالية ٠ وينجح عبد العزيز في تنفيذ هدفه ليشعر بثقـة جديدة يضيفها لرصيده المتجدد من الثقة بالله والنفس ٠٠

ولم يتركه العثمانيون ويعودوا من جديد ليؤلبوا عليه ابن الرشيد في جبل شمر ويقدموا له المساعدات ، كما بدأ الشيخ أحمد الجابر حاكم الكويت في توقيع اتفاق للصلح واقامة المنطقـة المحايدة فكان ذلك بمثابة تأمين للحـدود الشرقية وللأماني العربية بعيدا عن فتن الاسـتعماريين والمتسلطين ٠ هذه الخطوة الجريئة دفعت بالأسرة السعودية وعلماء نجـد ورؤساء العشائر للقاء مبارك نادوا فيه بعبـد العزيز سلطانا على نجد وملحقاتها ٠٠

ويبدأ عبد العزيز في رسم صورة جديدة لمواجهة مشكلة جبل شمر حيث أمكنه بفضل الله وعونه أن يستولي على حائل ليدخلها في ٢٩ صفر ١٣٤٠ هـ ويتصافح مع حكامها من آل رشيد في لقاء عربي كريم اتسم بالود والتسامح كتعبير صادق عن مدى الحرص من جانب الطرفين على التقاليد العربية والتسامح والود المتبادل ..

وعلى بركة الله .. يتابع عبد العزيز المسيرة المظفرة .. فيتجه غربا لمناطق الحجاز .. وليواجه الشريف الذي تصاعد عداؤه وكبر حقده ... وساءت سمعته حتى بين الشعوب العربية ويوجه عبد العزيز نداءه لأهل مكة مناديا أن يكون أمر هذين الحرمين الشريفين شورى بين المسلمين ..

وفي الثالث عشر من شهر ربيع الثاني عام ١٣٤٣ هـ يتحرك الملك عبد العزيز متجها لمكة يرافقه كبار القوم والعلماء يتقدمهم الأمير محمد بن عبد العزيز والأمير خالد بن عبد العزيز والشيخ عبد الله بن حسن آل الشيخ قاضي جيشه والشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف وغيرهم كثيرين . ليصل مكة في السابع من جمادى الأولى فيدخلها محرما ويخطب في الناس الذين تجمعوا لاستقباله .. وليكتمل للبلاد السعودية وحدتها وعزتها ورفعتها .

كان يقول دائما : « ان الدين النصيحة وهذه عقيدتي » ويدخل محمد ابن عبد العزيز المدينة .. في (١٩ جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ) وفي الاسبوع الأول من شهر جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ تستقبل جدة العاهل السعودي لتسدل الستار على ما كان يسمى بالعرش الهاشمي .

ويبايع أهل جدة الامام عبد العزيز ملكا على الحجاز على كتاب الله وسنة رسوله وما عليه أصحابه رضوان الله عليهم والسلف الصالح والأئمة الأربعة رحمهم الله .

ويتحدث الامام عبد العزيز قائلا :

« لقد بذلت جهدي وما تحت يدي في تخليص الحجاز لراحة أهله ، وأمن الوافدين اليه ـ اطاعة لأمر الله .

وفي عام ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٢ م توحدت الأقاليم الثلاثة الحجاز ـ عسير ـ نجد لتصبح المملكة العربية السعودية التي ترتبط ارتباطا عضويا وروحيا بمشاعر الشعوب الاسلامية مهما تدانت ديارها وتباينت اتجاهاتها .



ان هذه قصة موجزة ومعبرة بصدق عن مرحلة هامة في التاريخ العربي السعودي ٠٠ قدمت فيها جاهدا تسلسلا تاريخيا مبسطا لصفحة مشرقة من تاريخ الملك عبد العزيز ٠٠ على مدى ثلاثين عاما جاهد فيها بايمان وصبر وعزيمة لا تلين ٠٠ ليؤسس المملكة العربية السعودية ذلك الكيان الكبير ٠٠ الذي يتعهده اليوم بالعناية والرعاية جلالة الملك المعظم خالد بن عبد العزيز وسمو ولي عهده الأمير فهد بن عبد العزيز ٠

حفظ الله الجميع ٠

محمد أبو الفتوح الخياط



الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز طيب الله ثراه



جلالة الملك المفدى خالد بن عبد العزيز
ملك المملكة العربية السعودية



صاحب السمو الملكي الأمير فهد بن عبد العزيز
ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء



١ - فجر الدولة السعودية الأولى

بقلم : الدكتور أحمد فؤاد متولي

دخل السلطان سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م ، ٩١٨-٩٢٦هـ)
حلب في يوم الجمعة غرة شعبان ٩٢٣ هـ (٢٩ اغسطس ١٥١٦ م) ،
بعد أن هزم السلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠١ - ١٥١٦ م ،
٩٠٦ - ٩٢٢ هـ) في معركة مرج دابق في ٢٤ اغسطس ١٥١٦م
(٢٥ رجب ٩٢٢ هـ) ۰ وأقام صلاة الجمعة بمسجد الملك الظاهر ۰
وقد قرئت الخطبة باسم السلطان العثماني ، ووصفه الخطيب في خطبته
بانه « مالك الحرمين الشريفين » ، فنهض سليم من مكانه واقفا ،
وقال : « من أنا حتى أكون مالكا للحرمين ، انني أفتخر بأن أكون
خادما للحرمين لا مالكا لهما (١) » ۰

أمر السلطان بكتابة رسائل للتبشير بالفتح ومنح الأمان مصحوبة بالفرمانات ، الى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع (٢) في يوم الجمعة ١٣ فبراير ١٥١٧م (٢١ المحرم ٩٢٣ هـ) ، قبل دخوله القاهرة بيومين ، على اثر قيام جنوده بتطهيرها ، وبعد أن استتبت الأمور لسليم في القاهرة ، أرسل شريف مكة زين الدين بركات (حكم ١٤٩٧ - ١٥٢٥م) ابنه أبا الحسنى ومعه مشايخ طوائف الأعراب للتهنئة بالفتح وعرض الطاعة والولاء ، فأخلع السلطان عليهم وأحسن اليهم جميعا (٣) ۰

بعد أن قبل السلطان سليم طاعة شريف مكة المكرمة زين الدين بركات التي قدمها ابنه ، أرسل اليه الشريف ابنه الأكبر محمد أبانمي ، يطلب خلعته وابقاءه في حكم بلاده ۰ وعندما علم سليم بقدوم محمد أبي نمي الى القاهرة في يوم الجمعة ٣ يوليو (١٣ جمادى الثانية) ، أمر بارسال الأغوات لاستقباله ۰ وفي يوم الاثنين استقبل السلطان ابن شريف مكة استقبالا حافلا ۰ وبعد مضي ستة أيام قدم محمد أبو نمي الطاعة والولاء وبعض الهدايا للسلطان سليم (٤) ثم سلمه مفاتيح الأماكن المقدسة والآثار النبوية الشريفة الموجودة في مكة المكرمة والمدينة المنورة (٥) ۰ وهكذا أصبحت الحجاز تابعة للامبراطورية العثمانية ۰

أقر سليم حكم الحرمين الشريفين على ما هو عليه ، وبعث مع محمد أبي نمي رسالة بالعربية الى أبيه ، تتضمن الموافقة على أن يكون حكم مكة المكرمة في الشريف بركات وابنه الأكبر محمد من بعده (٦) ٠

كان حكم آل عثمان اذ ذاك شاملا لكافة الحجاز حتى رأس حلى جنوب القنفذة ، وأما نجد وسائر الجهات الداخلية في حدود المملكة الحالية فلم يكن لهم فيها نفوذ فعلي ٠ وضعفت هيبة سلاطين آل عثمان بعد السلطان مراد الرابع (١٦٢٣ ـ ١٦٤٠م ، ١٠٣٢ ـ ١٠٤٩ هـ) ؛ لأنهم بانشغالهم بالفتن الداخلية والحروب الخارجية ، أهملوا حكم البلاد ، وتركوا الأحكام في أيدي الأمراء المحليين من الأشراف والأمراء (٧) ٠

ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت قوية مرهوبة الجانب طوال حكم العشرة سلاطين الأول الذين يطلق عليهم السلاطين العظام ٠ ثم بدأت ملامح الضعف تظهر على الدولة العثمانية بعد هؤلاء السلاطين ٠ وقد ظهر الضعف الشامل في الامبراطورية العثمانية في أواخر عهد مراد الثالث ، ابتداء من سنة ١٥٩٠م (١٠٩٨هـ) ٠ وأخذ الضعف يزداد شيئا فشيئا ، ولم تجد معه الاصلاحات والتنظيمات كثيرا ، رغم جدية السلاطين وتفانيهم في تطبيقها ، غير عابئين بالمخاطر التي تنتظرهم من جراء محاولاتهم هذه ٠ فقد دفع بعضهم حياته ثمنا للاصلاحات ، وضحى البعض الآخر بعرشه ٠

كانت الدولة العثمانية في حالة ضعف شامل عند ظهور الدعوة السلفية ٠ وكانت هذه الفترة حافلة بالحروب مع روسيا والبندقية والنمسا ٠ وتوالت هزائم العثمانيين أمام أعدائهم هؤلاء ، لأن أعداءهم كانوا قد أخذوا بأسباب التقدم ، وكونوا جيوشا مدربة على الأصول الحديثة ، في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية آخذة في الانهيار والتدهور ٠ وكانت أهم أسباب التدهور ، هي : انصراف السلاطين عن تصريف أمور البلاد ، وفساد الانكشارية وكثرة هزائمها ، والأزمات الاقتصادية الشديدة ، وتسلط العلماء ، وعدم الأخذ بأسباب التقدم الذي قطع فيه الأوربيون شوطا بعيدا (٨) ٠

يوشك ان يكون تاريخ الحرمين خلال الألف سنة الماضية عبارة عن تاريخ الشرافة ونشوئها وارتقائها ثم تداعيها وهبوطها ٠ وقد انقضت على الشرافة حقب كانت فيها كل شيء في الحجاز ، كما أنها في حقب أخرى

لم تكن شيئا مذكورا بل كان القـــائم بأمرها العوبة في أيدي المـــلوك والسلاطين والخلفاء (٩) ٠

ان ضم السلطان سليم للحجاز كانت له نتائج بعيدة المدى من حيث علاقة الشرافة بالسلطنة ، وضعف هذه العلاقة وقوتها ، وطروء طوارىء جمة في البلاد الحجازية لم تكن من مصلحة أهل البلاد أنفسهم ٠ فقد وجد السلطان في الشريف أداة صالحة لحكم الحرمين فأطلق له الحرية في العمـــل واكتفى منه باظهار العبودية والطاعة ، وقراءة اسمه في الخطبة ، وتسهيل قدوم المحامل من الجهات الشامية والعراقية والمصرية وفيما بعد اليمنية ، واعتبار نفسه تابعا للسلطان في صغير الأمور وجليلها ، وموظفا عثمانيا يصدر بتعيينه فرمان سلطاني (١٠) ٠

ويتلخص تاريخ الشرافة في عهـــد « ابي نمي الثـــاني » (١١) (٩٣٢ ـ ٩٩٠هـ) الى أيام الشريف غالب بن مساعد (١٢٠٢ ـ ١٢٢٨هـ) في القرن الماضي بأنه تاريخ مطرد ، ووصف متشابه ، لما كان يجري بين الأشراف أنفسهم من فتن ومعارك كان القصد منها تبديل أمير ، وفيمـــا يجري بين الأشراف والموظفين العثمانيين من أمراء الحج وولاة البـــلاد المجاورة ، وفيما يقع في الحرمين وأطرافها من غزو البدو واعتدائهم على السابلة وقطعهم الطريق وانتهابهم للحجاج ، وفيما يقوم به الأشراف من تجريد الحملات لكبح جماحهم وتاديبهم (١٢) ٠

والواقف على تاريخ الأشراف في الحجاز يرى أنه تاريخ مملوء بالدماء والفظائع ، فالشريف منهم في سبيل الامارة لم يكن يتورع عن قتل أخيه وأبناء عمومته في سبيل الحكم ، ولقد بلغت ببعضهم القسوة أن قتل أحدهم أخاه وطبخ لحمه ودعا اخوانه الباقين لوليمة ، قدم لهم فيها لحم أخيه ! (١٣)

وصلة الحجاز بنجد صلة قوية ، وحدودها غير واضحة ولا مرسومة ٠ هذا فضلا عن أن أشراف مكة ، كانوا يعتبرون بلاد نجد ، وخصـــوصا المجاورة للحجاز ، مشمولة بنفوذهم وخاضـــعة لهم ، وكانوا يواصلون ارسال الحملات عليها لتأديبها وجباية الزكاة من أهلها ٠

وتابع الأشراف سيرة الدعــوة الســـلفية باهتمــام وماكانوا كأكثر الناس في ذلك العهد ، يتوقعون لها نجاحا ، على أن نظرتهم اليها أخذت تتبدل بعد أن شرقت وغربت ، وضمت معظم مقاطعات نجد اليها وأدخلتها في دائرة طاعتها ، وأنشأت فيها دولة جديدة يحسب حسابها ٠ وما قامت

فيها دولة من قبل بلغت ما بلغته ووصلت الى ما وصلت اليه (١٤) ٠

اغتبر أشراف مكة الدعوة السلفية خروجا على الدين الاسلامي وتعاليمه ٠ ورغم صراعاتهم التي لا تنتهي فيما بينهم ، الا أن هذا لم يمنع الشريف مسعود بن سعيد (توفى ١١٦٥هـ) الذي عاصر الأمير محمد بن سعود من رفض السماح لأهل نجد بأداء فريضة الحج (١٥) ٠

وهناك حقيقة لابد لنا من تقريرها ، وهي أن آل سعود لم يبدأوا الأشراف بالعدوان ولم يستفزوهم ، ولم يأتوا بما يشتم منه رائحة التحدي لهم ٠ بل سعوا سعيا حثيثا للتفاهم معهم ، ولاقناعهم بحسن نيتهم وصادق رغبتهم في انشاء أفضل علاقات الود والصداقة معهم ٠ فلم يجدوا تجاوبا ولم يلمسوا عطفا ، بل ولا ميلا للتفاهم والتواصل ، اذا لم نقل العكس ٠ وهو أن الأشراف هم الذين بدأوا بالتحدي والاستفزاز ، وعملوا لتشويه سمعة الدعوة واظهارها على غير حقيقتها ٠

لقد كانت مكة في ذلك العهد ، حاضرة كبيرة من حواضر الثقافة في العالم الاسلامي ، ومركزا كبيرا من مراكز الدعاية ، بسبب وفود الحجاج سنويا اليها من جميع أنحاء هذا العالم ٠ فكان الأشراف يرسلون دعاتهم ، فيندسون بين الحجاج ، فيصفون لهم الحالة في نجد ، ويبكون وينوحون ويشقون الجيوب ، ويلطمون الخدود أسفا على الأضرحة والقباب التي هدمتها الدعوة ، وعلى منعها الاستغاثة بقبور الأولياء والصالحين ، وحملها الناس على اتباع سيرة السلف الصالح والاهتداء بهديه ، ومقاومتها البدع والخرافات ٠ ويقولون انها تحارب الاسلام وتقضي عليه ، وتنشر دينا جديدا ونحلة جديدة ، يبرأ منها الاسلام وينكرها ٠

ووصلت أخبار هذه الحملة المفتراة الى نجد ، وعرف أبناؤها أن الأشراف يحاربون الدعوة حرب دعاية عنيفة ٠ فرأوا باديء ذي بدء ، وقبل اتخاذ أي اجراء أو تدبير عسكري ، أن يسعوا للتفاهم معهم عن طريق وفد يرسلونه اليهم ، فيطلعهم على حقيقة حركتهم ويصف لهم الأغراض التي ترمي اليها ، والمباديء السامية التي انبثقت عنها ، ويذكر النتائج الباهرة التي ادركتها ٠ فقد استطاعت في سنوات قليلة أن تنقذ شعب نجد من الجهالة التي كان يخب فيها ٠ وتنشيء مجتمعا جديدا يؤمن بالتوحيد ويتفانى في سبيله (١٦) ٠

ارسل أبناء سعود بعض علمائهم الى مكة مرارا لاقناع علمائها بالدعوة

السلفية التي أرسى أصولها شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ، ولكن رغم اقتناع علماء مكة بدعوة علماء نجـــد ، الا أن موقف الأشراف ظل متصلبا ومعاديا واستفزازيا · فقد امتنع الحج على أهل نجد ، تحديا من الأشراف وتعســـفا (١٧) ·

ورأى الشريف غالب ألا يكتفي بمنع النجديين من دخول الحجاز وأداء فريضة الحج ، فأعد جيشا من البدو والأنصار ، زحف من مكة سنة ١٢٠٥هـ يريد الدرعية ، فكان ذلك فاتحة هذا النضال العنيف بين آل سعود والأشراف ، وقد استمر نحو ١٤٠ ســـنة (١٢٠٥ ـ ١٣٤٤هـ) وانتهى بفوز الأولين وبخروج الآخرين (١٨) ·

أرسل الشريف غالب بن مساعد حملته الأولى سنة ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م) ، وكانت الدرعية وجهتها واخضاع نجد غايتها · ولكنها لم توفق · ونتيجة لذلك أحس الشريف بأن قبائل كثيرة في الحجاز انضوت تحت لواء آل سعود وقدمت لهم البيعة ، فخاف على ملكه أن يزول · فجمع علماء مكة والمدينة واستكتبهم رسائل للسلطان العثماني سنة ١٢٠٧هـ لطلب النجدة العـــاجلة لانقاذ الأماكن المقدسة من خطر آل سعود (١٩) ·

ويذكر المؤرخ التركي أحمد جودت باشا في كتابه ، أن أحمد باشـــا الجزار ذهب الى الحجاز لأداء فريضة الحج ١٢٠٨هـ ، فشـــكا اليه الشريف غالب مر الشكوى من آل سعود ، فنصحه الجزار بأن يكتب تقريرا بذلك الى السلطان العثماني (٢٠) · فلما وصل التقرير الى السلطان حوله الى مجلس الشورى لبحثه ، وكانت النتيجة سلبية لتوهم الأعضاء أن التقرير مبالغ فيه وأن المسألة لا تعدو أن تكون تنافسا شخصيا (٢١) ·

وفي سنة ١٢٠٩ هـ (١٧٩٤م) أراد آل سعود الرد على حملة الشريف ، فأعدوا جيشا كبيرا للاستيلاء على الحجاز ، ولكنـــه لم يوفق كثيرا · ورد الشريف على هذه الحملة بحملة أخرى أعدها في العام التالي ، ولكن نتيجتها كانت كسابقتها تقريبا · وأعاد الشريف غالب الكرة مرة ثالثة في نفس العام ، ولكن المحصلة كانت واحدة أيضا · وتوالت المعارك والحملات بين الطرفين على مناطق الأطراف بينهما وكانت النتائج محـــدودة (٢٢) · ثم هزم الشريف سنة ١٢١٢هـ (١٧٩٧م) أمام آل سعود في حملته التي قادها ضدهم في بيشة · ولما تحقق من ضعفه ، مال الى الصلح ، فعقد الصلح بين الطرفين سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) شريطة السماح للنجديين بالحج · وذات

يوم حدث خلاف بين الشريف ووزيره عثمان بن عبد الرحمن المضايفي ، فغادر الوزير مكة والتجأ الى الدرعية وبايع الأمير . ثم أقام في العبيلا ، ولما علم الشريف بذلك جهز جيشا هاجم به العبيلا ، ثم ارتد عنها خائبا الى الطائف (٢٣) ، فلحق به عثمان بعد أن جهز له جيش كبير من الدرعية ، وهاجم الطائف فانسحب الشريف الى مكة ، فتعقبه عثمان ودخل مكة منتصرا سنة ١٢١٧هـ (١٨٠٣م) بعد أن استولى على الطائف (٢٤) · ثم لحق به الأمير عبد العزيز بن سعود بجيش كبير وادى فريضة الحج (٢٥) ولما أنس الشريف في نفسه الضعف أرسل وهو في جدة طالبا الصلح ، فأجابه الأمير الى طلبه وأعاده الى منصبه ، وترك حامية قوية بمكة ثم قفل راجعا الى الدرعية (٢٦) ·

وهنا ينبغي علينا أن نتعرف على رد الفعل لدى العثمانيين عندما خرجت مكة المكرمة من أيديهم :

بعد أن سقطت مكة في أيدي آل سعود ، ارتاع السلطان سليم الثالث (١٢٨٩ ـ ١٨٠٧م ، ١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ) عندما سمع الخبر · وقد وافاه الشريف غالب بن مساعد أمير مكة المكرمة بتقرير مفصل في غرة صفر سنة ١٢١٩هـ عن استيلاء آل سعود على مكة · وعندما قرأه السلطان كتب تأشيرة أعلاه قائلا : « لقد سببت لي أحوال الحرمين اضطرابا فائقا » (٢٧) · وكتب الشريف رسالة أخرى في اليوم نفسه الى السلطان يرجوه أن يطلب من مصر الامدادات العسكرية العاجلة (٢٨) · ولم يقتصر الأمر على الشريف غالب ، بل ان عبد الله باشا العظم والي الشام كتب للسلطان تقريرا عن الدعوة السلفية · وبعد أن اطلع عليه السلطان ، كتب أعلاه تأشيرة ، تقول : « انني لا أذوق طعم النوم ·· انني أكاد أبكي ، ولكن البكاء ليس من شيمة الرجال (٢٩) » ·

هذا كله يدل على أن الدولة العثمانية أصابها الارتباك الشديد واعترتها الحيرة ، حيث تأكد لديها أن قوة الدرعية لا يستهان بها ، وأن الدعوة السلفية تنتشر انتشارا سريعا · وأن مكة المكرمة قد ضاعت من يدها ولم تعد لها السيطرة عليها ، وهذا ما يؤدي بالتالي الى فقدان العثمانيين لهيبتهم لدى العالم الاسلامي وضياع مركزهم المتميز بين دوله ·

والحاح الشريف غالب على السلطان لكي يطلب له العون العسكري العاجل من مصر ، يبرهن على أن قوة آل سعود كانت كبيرة ، وقد زادهم صدق دعواهم حماسا وشجاعة وتفانيا من أجل نشر مبادئهم التي نادوا بها ·

فكانوا لا يخافون أحدا ٠٠ تحدوا الدولة العثمانية واستولوا على مكة المكرمة ثم على الحجاز بأكمله فيما بعد ٠ وتحدوا الدولة العثمانية وأغاروا على العراق فالشام من بعد ٠ وكل هذا يدل دلالة واضحة على تفانيهم ، فهم أصحاب دعوة سامية ضحوا من أجل نشرها دون خوف أو تردد ٠

انتهز الشريف غالب فرصة الصلح ، ثم أخذ يدعم قواته ٠ ولما آنس في نفسه القوة أخرج الحامية النجدية من مكة ، واستقل بالحكم استقلالا تاما ٠ فتحرك الأمير سعود على رأس قواته ودخل مكة ، فاستقبله الشريف وبايعه ، فأقره في منصبه ، وقد استسلمت المدينة المنورة وأطاعت قبل مكة ، ولكن سعود لم يأت الى المدينة الا بعد دخوله مكة ومصالحته للشريف غالب ٠

جاء سعود الى المدينة المنورة في آخر ذي الحجة سنة ١٢٢١ هـ ، فضبطها وأقام فيها حامية كبيرة ، وأجلى كل من فيها من الموظفين الترك (٣٠) ٠

كان استيلاء سعود على الحرمين الشريفين ، تحديا صارخا للسلطان العثماني ٠ ولو لم تكن الدولة العثمانية ضعيفة تمزقها الفتن الداخلية والحروب الخارجية ، لما سكتت على هذا التحدي ٠ ولسير السلطان جيوشه الى الحجاز ونجد لمحاربة سعود منذ أن استولى على الحرمين الشريفين (٣١) ٠

وكثيرا ما تطالعنا الوثائق التركية بالسلطان العثماني يطلب من ولاة الشام والعراق مرارا مكافحة آل سعود أو (السلفيين) (٣٢) ، منذ أن ظهرت قوة آل سعود وبدأت دعوتهم في الانتشار ٠ وبعد أن استولى سعود على الحرمين الشريفين ، بدأت الدولة العثمانية تلح الحاحا شديدا على ولاتها في الشام والعراق وتستحثهم لكي يتحركوا بعد أن استفحل الخطر على حد زعم السلطان العثماني ٠ فقد قام سعود فضلا عن غزوه للحرمين الشريفين بطرد الموظفين والجنود العثمانيين من الحرمين ، ومنع الدعاء للسلطان العثماني على المنابر لأنه من البدع (٣٣) ، وحرمانه من أعز لقب يحمله وهو « خادم الحرمين الشريفين » ٠

وبعد أن تولى السلطان محمود الثاني العرش (١٨٠٨ ـ ١٨٣٩م ، ١٢٢٣ ـ ١٢٥٥هـ) ، آل على نفسه أن يخلص الحرمين من أيدي ابن سعود ٠ وكان السلطان يستعظم جيوش سعود ويحسب حسابها ٠ ولا يتصور أن محمد علي باشا والي مصر يمكنه أن يقوم بالعبء وحده ٠ والحقيقة أن كلا من والي الشام ووالي العراق تلكأ في القيام بالمهمة بحجة عدم القدرة منفردا ٠ وكان كل منهما يتملص من المسئولية ويزعم أن مصر وحدها هي

التي تقدر على القيام بالمسئولية ، خاصة وأن جيشها سيعبر البحر في أمان ٠ أما قوات الشام والعراق ، فانها ستجتاز صحراء واسعة مليئة بالمخاطر (٣٤) ٠

أمر السلطان العثماني بارسال رسالة الى محمد علي لتكليفه بالقضاء على السلفيين ، فورد الرد من والي مصر بالاعتذار عن القيام بالمهمة المذكورة في وقتها ، نظرا لوجود بعض القلاقل في صفوف الجيش ٠ والرسالة التالية التي بعث بها القائمقام موسى باشا الى محمد علي في ٨ شوال سنة ١٢٢٢ هـ (ديسمبر ١٨٠٧م) ردا على رسالة الأخير توضح هذه المسائل (٣٥) : « ٠٠٠٠ وردت الينا تحريراتكم الطيبة التي تفضلتم بارسالها الينا ، وبعد ان احطنا بما فيها وفهمنا مؤداها واطلعنا على تفاصيلها ، علمنا أنكم قد عقدتم النية وصممتم العزيمة على اتباع الوسائل الكفيلة بدحر الوهابيين والقضاء عليهم ، بعد دخولكم مصر ، وقيامكم بالقضاء على الفتن التي حدثت بين العساكر بسبب الرواتب وتصميمكم على ضبطهم وربطهم منعا للقيل والقال » ٠ ثم يستحث موسى باشا محمد علي ، قائلا : « وبما لكم من خصائل حميدة كالشجاعة والروية ، فان الذات السامية تطلب منكم الاقدام والتصميم في كلا المسألتين ٠ ونأمل ونتوقع أن تبذلوا مساعيكم وتركزوا اهتمامكم سواء في القضاء على الوهابيين أو في سائر الأمور الأخرى التي تؤمرون بها (٣٦) » ٠

وأخذ السلطان العثماني يغري محمد علي ويدفعه لكي يذهب الى الحجاز ، فأرسل اليه القابجي المسمى بيانجي بك « بالأوامر لخروج العساكر للبلاد الحجازية وخلاص البلاد من أيدي الوهابية ٠ وفي مراسيمه التي حضر بها التأكيد والحث على ذلك ٠ فلم يزل الباشا يخادعه ويعده بانفاذ الأمر ، ويعرفه أن هذا الأمر لا يتم بالعجلة ، ويحتاج الى استعداد كبير وانشاء مراكب في القلزم وغير ذلك من الاستعدادات (٣٧) » ٠

ثم ارسل السلطان محمود الثاني الى محمد علي يحثه على اعداد جيشه والسفر الى الحجاز ، ويذكر له « أنه حرم النوم والراحة على نفسه منذ أن تولى العرش ، بسبب وجود الحرمين الشريفين في قبضة ابن سعود » ، ثم يمدحه قائلا : « اذا أراد الله بملك خيرا جعل له وزيرا صالحا ان نسي ذكره وان ذكر أعانه (٣٨) » ٠

وقد رد محمد علي على السلطان في ٢٢ ذي القعدة ١٢٢٣ هـ شارحا له الظروف التي أدت الى تأجيله موعد القيام بمهمته في الحجاز ، قائلا على لسان معتمده عابدين باشا : « عندما وصلت التحريرات السنية تستفسر عن

تحركنا شخصيا للقضاء على الوهابيين الذين استولوا على الحرمين الشريفين وتصميمنا الشديد على ذلك ، بحث الموضوع من جميع جوانبه ووجد أن تحرك مولانا بمفرده يتنافى مع شروط الحيطة والحذر طبقـــا للمحاذير والاستطلاعات · ويحتاج الأمر الى التحرك من ثلاث جبهات (٣٩) ، لاتمام المأمورية ، وقد أرسلنا اليكم تحريراتنا نخبركم فيها بأنه عندما ترســل المهمات اللازمة ، نبذل الهمة والنشاط في العام القـــادم لكي نتحرك · وتتيسر المصلحة اذا أرسلتم الينا سبعة آلاف أو ثمانيـــة آلاف من عساكر الروملي الشجعان مع لوازمهم ، لأن عساكر الشام وعكا لا تقدر على الحرب ، فقد أشيع أن أكثرهم من العجزة (٤٠) » ·

وكان الواجب يقتضي من السلطان العثماني ــ في ظني ــ أن يقف على حقيقة الدعوة السلفية الاصلاحية ، بدلا من أن يحرض محمـــد علي لمحاربتها والقضاء عليها · فالســلطان أولى باتباع تعـــاليم هذه الدعوة الصحيحة ، هي أولى له وأنفع لبلاده وللمسلمين كافة ·· فقد انتشر الفساد في داخل الامبراطورية العثمانية وخارجها ، وراجت فيها الوشـــوة وكثر الانحراف وعمت الفوضى ، وعاث الانكشارية فيها فسادا ونهبا ، واهتزت الثقة في أمور الادارة ، واستولى علماء الدين على عقول الحكام والســلاطين واصبحت الدولة تسترضيهم في شتى المناسبات ، وقد لعبوا دورا هاما في عزل الولاة وتنصيبهم ·

وكتب التاريخ العثماني تذكر لنا الكثير من الأمثلة على انتشار الفساد والاضمحلال وتردي السلطة الحاكمة · والأمثلة على ذلك كثيرة :

هذا السلطان يطلب من شيخ الاسلام أن يقوم بعمل « اســـتخارة » لمعرفة أكفأ الرجال لمنصب الصدارة العظمى ·

وذلك السلطان يستبعد أحد المرشحين ، لأنه سمع من أحد العلماء بأن اسمه لم يكن من الأسماء التي تقترن بـ « اليمن » ·

وهذا القائد يتوقف عن الحركات العسكرية ، انتظارا لحلول « أشرف الساعات » التي يعينها المنجمون ·

وذلك القائد يمتنع عن الهجـــوم ليلا ــ وفق اقتراح مســـتشاره العسكري ــ لأن العلماء الذين كانوا يرافقون الجيش قالوا له « ان الهجوم ليلا ، لا يتفق مع شعائر الاسلام (٤١) » ·

ويذكر بعض المؤرخين أن آل سعود لو لم يتعرضوا للحجاز ، لبقـوا

في مأمن من الدولة العثمانية ، ولكبرت دولتهم واتسعت وقويت في وسـط الجزيرة ، مع اتباع سياسة ودية أو شبه ودية مع استانبول ، والاكتفاء بنوع من التحالف مع شريف مكة لضمان ولائه (٤٢) ٠ ولكنني لا أوافق هؤلاء فيما ذهبوا اليه ، اذ أن العداوة والبغضاء بدأت من أشراف الحجاز لآل سعود ، كما أن المناوشات والاعتداءات بدأت من جانبهم أيضا على أطراف نجـد ٠ وكان على آل سعود أن يردوا على الشريف لكيلا يـكون خطرا على دولتهم الناشئة وهي في مرحلة التكوين ٠ وفوق كل ذلك فان الدعوة السـلفية ، قامت لكي تنتشر في الربوع والآفاق ، لا لكي تتقوقع ، أو تظل حبيسة في حدود نجد ، لأنها دعوة اصلاحية عظيمة تصحح مسار الاسلام الذي انحرف به العباد ٠٠٠

« ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا ، وحاربوا ابن سـعود في داره بأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان المرجو أن يوحد كلمة العرب في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم في القرن الأول (٤٣) » ٠



الحـــواشي

١ ـ احمد راسم : عثمانلي تاريخي ، حاشية ص ٢٩٦ ، ٢٩٧ استانبول ١٣٢٩ هـ ٠

٢ ـ حيدر جلبي : روزنامة حيدر جلبي ، ضمن مخطوط برقم ١٩٥٥ ر في مكتبة طوبقبو سرايي باستانبول ، بعنوان : سلطان سليمك ايران سفرينة دائر مخابرات ، ورقة ١٥٠ أ ٠

٣ ـ احمد فريدون : منشات الملوك والسلاطين ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايي برقم ١٩٦٠ ر ٠

٤ ـ حيدر جلبي : نفس المرجع ، ورقة ١٤٣ ـ ١٦٠ ٠

٥ ـ مترفجي نصوح : فتح نامة ديار عرب ، مخطوط وحيد في مكتبة نور عثمانية باستانبول ، رقم ٤٠٨٧ ٠

لا تزال بعض هذه الآثار التي جاء بها السلطان سليم والتي اتى بها آخرون ممن جاءوا بعده ، محفوظة حتى اليوم في جناح الأمانات المقدسة بمتحف طوبقبو سرايي ٠

٦ ـ جلال زاده قوجه نشانجي مصطفى : مآثر سليم خاني طاب ثراه ، مخطوط بمكتبة طوبقبو سرايي ، برقم ٤١٥ ، ورقة ١٤٣ ب ١٤٤ أ ٠

٧ ـ فؤاد حمزه : قـــلب جزيرة العرب ، ط ٢ ، ص ٣٠٥ ـ الريـاض ١٣٨٨ هـ (١٩٦٨م) ٠

٨ ـ لتفصيل ذلك انظر :

Stanford Shaw : Between Old and New,
The Ottoman Empire under Selim III PP. 3 - 11

٩ ـ فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٣ ٠

١٠ ـ فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٧ ٠

١١ ـ وضع أبو نمي قانونا مكونا من ست وثلاثين مادة تحـــكم بموجبه الاراضي الحجـــازية ٠

[انظر نص القانون في كتاب حسين بن محمد نصيف : ماضي الحجــاز وحاضره ، ج ١ ، ص ١٧ ، ١٨ ـ مصر ١٣٤٩هـ]

١٢ ـ فؤاد حمزه : نفس المرجع ، ص ٣١٩ ، ٣٢٠ ٠

١٣ ـ حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ، ص ١٥٠ ـ القاهرة ١٩٦٧ ٠

ويذكر كتاب « التاريخ العثماني المفصل » كثيرا من الاحداث الدامية التي جرت بين الشريف غالب واخيه الشريف عبد الله على الشرافة ٠ وقد ادت هذه الأحداث الى توقف الأذان والصلاة في المسجد الحرام وتناثر بعض الرصاص داخل الحرم ٠

[Bir Heyet : Mufassal Osmanli Tarihi, cilt 5,s. 2703
Istanbul 1962]

١٤ ـ امين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ، ص ٦٢ ، ٦٣ ـ بيروت ١٩٦٤ ٠

١٥ ـ أحمد السباعي : تاريخ مكة ، جـ ١ ، ص ٣٠٢ ـ القاهرة ١٩٥٢ ٠

١٦ ـ امين سعيد : نفس المرجع ، ص ٦٣ ، ٦٤ ٠

١٧ ـ أنظر : حسين بن غنام : تاريخ نجد ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ـ ١٤٥ ـ الرياض ١٣٦٨هـ (١٩٤٩م) ٠

١٨ ـ امين سعيد : نفس المرجع ، ص ٦٦ ٠

١٩ ـ انظر الوثيقة التي ارســـلها علماء المدينة للســـلطان ســـليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧م ، ١٢٠٣ ـ ١٢٢٢هـ) في ١٣ شوال ١٢٠٧ هـ لهـــذا الغرض ٠

[الوثيقة محفوظة في متحف طوبقبو سرايي باستانبول ، تحت رقم ٣٨٥٥]

٢٠ ـ لم يكن هنـــاك نفوذ لأي قوة أجنبية في الجزيرة العربيـــــة في مطلع القرن الثامن عشر ، الا للعثمانيين في الحجاز ٠

[Derek Hopwood : The Arabian Peninsula, Society and Politics, P. 54 London 1972]

٢١ ـ احمد جودت باشا : تاريخ جودت ، م ٦ ، ص ٩٢ استانبول ١٣٠٣ ٠

انطلقت الدعوة السلفية من نجد ثم ضمت الاحساء والبحرين ، وهـــددت البصرة

وبغداد وانتشرت حتى عمان ومسقط ، وامتدت الى الحجاز واليمن • وباختصار انتشرت في الجزيرة كلها تقريبا • وعندما رفع شريف مكة شكواه الى استانبول ، انشغل علماؤها بمناقشة الشكوى لبحث شرعيتها أو عدم شرعيتها • وكانت الدولة العثمانية غافلة عن معاليم الدعوة ومراميها ، في الوقت الذي اصدرت فيه الدول الاوربية مؤلفات كثيرة عن الوهابيين بلغات عدة •

[Ismail Hami Danismend : Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, cilt 4,S.80 Istanbul 1972]

ولم تنتبه الدولة العثمانية الا بعد ان غزا ابن سعود الحجاز ، ولم تحس بالخوف الشديد الا بعد ان اغار على العراق والشام •

Baily Winder : Saudi Arabia in the Nineteenth Century, New york 1965] P. 7

٢٢ ـ انظر : حسين بن غنام : نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٤٥ ـ ١٨٥ •

٢٣ ـ عثمان بن بشر : عنوان المجد في تاريخ نجد ، جـ ١ ، ص ١٢٢ الرياض ١٣٩٤ هـ

٢٤ ـ انظر :

John Philby : Saudi Arabia, Beirut 1968, PP. 103, 104

٢٥ ـ استكتب الشريف ايضا المجاورين للحرم الشريف ، فكتبوا للسلطان العثماني سليم الثالث في ١٩ المحرم ١٢١٨ هـ يشكون من آل سعود • وكذلك فعل مع علماء المدينة المنورة ، فكتبوا للسلطان العثماني في نفس التاريخ [انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٩ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي] •

٢٦ ـ انظر : امين سعيد : المرجع السابق ، ص ٦٦ ـ ٧٠

وانظر ايضا : عبد المنعم الغلامي : تاريخ الدولة السعودية ، ص ١٠ ـ ١٢ (د•م) ١٩٥٤ •

٢٧ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٦ ـ ا المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي •

٢٨ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٧٨٦ ـ ب المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي •

٢٩ ـ انظر الوثيقة رقم ٣٨٥٤ ـ أ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي •

٣٠ ـ عثمان بن بشر : نفس المرجع ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ •

د• منير العجلاني : تاريخ البلاد العربية السعودية (عهد سعود الكبير) ، جـ ١ ، ق ٣ ، ـ بيروت د•ت ص ٤٨ •

Yilmaz Oztuna : Osmanli Tarihi, cilt 11, s. 122, 123 Istanbul 1967

يذكر بايلي وندر في كتابه ان « آل سعود فاجاوا العالم بطردهم للعثمانيين من مكة والمدينة سنة ١٨٠٦م (١٢٢١هـ) • واصبحت الدولة السعودية في نهاية العقد الاول من القرن المذكور (التاسع عشر) ، تبحث لقوتها النامية ودعوتها الناشئة عن مخارج من دمشق وبغداد الى اليمن وحضرموت ومن الخليج الى البحر الاحمر • واتسعت الدولة الجديدة كثيرا بحيث يمكنها ان تدافع عن نفسها ضد اي غزو اجنبي •

[Baily Winder : Ibid., P. 6]

٣١ ـ د• منير العجلاني : نفس المرجع (عهد سعود الكبير) ، جـ ١ ، ق ٣ ص ٩١

٣٢ ـ انظر الوثائق ، رقم ٣٦١٠ ، ٣١٢٦ ، ٣٨١٩ ، ٣٤٩٢ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي •

٣٣ ـ احمد جودت : نفس المرجع ، م ٨ ص ١٠٢ ، ١٠٣ •

٣٤ ـ انظر الوثائق ، رقم : ٣٩٠٦ ، ٣١٠١ ، ٤٧٥٩ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي وانظر ايضا : احمد جودت : نفس المرجع ، م ٦ ، ص ١٠٠ ، ١٠١ •

٣٥ ارسل موسى باشا الرد على رسالة محمد علي في عهد السلطان مصطفى الرابع (١٨٠٧ ـ ١٨٠٨م ، ١٢٢٢ ـ ١٢٢٣ هـ) •

٣٦ ـ انظر الوثيقة رقم ٥ بالمحفظة رقم ١ من مجموعة بحر برا ، المحفوظة في دار الوثائق المصرية •

٣٧ ـ عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، م ٣ ، ص ٢٣٥

بيروت ، دار الفارس (د•ت) •
٣٨ ـ أنظر الوثيقة رقم ٢٦٩٣ المحفوظة في متحف طوبقبو سرايي •
٣٩ ـ يقصد الشام والعراق ومصر •
٤٠ ـ أنظر الوثيقة رقم ١٥ بالمحفظة رقم ١ من مجموعة بحر برا ، المحفوظة في دار الوثائق المصرية •
٤١ ـ ابو خلدون ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ط ٢ ، ص ٥٢ بيروت ١٩٦٠ •
٤٢ ـ د• منير العجلاني : نفس المرجع ، جـ ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣ •
٤٣ ـ طه حسين : الحياة الادبية في جزيرة العرب ، مقال في ص ٦١٠ من مجلة الهلال في عددها الصادر في مارس ١٩٣٣م •



س - ١/ ٥

سعادتلو مكرمتلو مودتلو مروتلو قرنداشم اعز واكرم سلطانم حضرتلری

مصره دخولمزدن صكره وهابيلرك انهزام وكليا اندفاعی اسبابنك استحصاله اقدام بيورلديغنی

حاوی وبين العساكر ماهيه خصوصنده برمقدار گفتگو وقوع بولمش ايسه دخی بحث رابطه يه

ادخال بيوريله رق دفع قيل وقال اولنديغی تفصيلاتنی محتوی فرستاده واصل بيورلان

تحريرات سعادتلری ايات مشيرانه لری وارد وواصل ومفهوم ومواداتنه اطلاع خالصانه مز

محيط وشامل اولمشدر وهابيلر حقنده واقع اولان نيت خيريه لری وبين العساكر وقوعبولان

گفتگونك اثر تدبير مشيرانه لريله دفعی باعث ممنونيت ووفور خلوصوری اولمشدر همان

جناب خير الناصرين امور مأموره لرنده توفيقات عليه سن مقارن ايليه آمين جناب مستودلری

خصائل عاليه ذاتيه لری وحميتاريله موصوف اولدقلرينه بنا هر برماده ده جناب

محیط وشامل اولجه وهابی حقنده واقع اولان تنبیهات خیریه لری و بین العساکر وقوعبولان

الفتکو نلکده اثر تدبیر مشیرانه‌لریله دفعی باعث محفوظیت دخول خلوصوری اولمشدر همان

جناب شیرانه‌لرینک امور مأموره لرینه توقیفات عمومی مقادن ابیه‌امین جناب ستوده‌لریکه

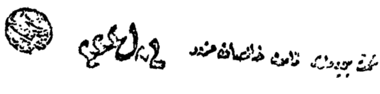
خصائل عالیه‌لری و انتجاری وحمیتلرینه موصوف اولدقلرینه بناً هر بر ماده ده جناب

عالیلرندن حسن تشبث واقدام و درجه‌ء تمام اولنه‌جغی واهتمام مأمول و منتظرمز اولغله

بوندن بویله دخی کرک شو وهابی غائله‌سی دفعنده وسائر مواد مأموره لرنده صرف

تقدیر اقدام وهمت بیورلمق کماکان شیمه‌ء ذوتمندلری ایدوکی بیانیله قائمه‌ء مخالصت تحریر

وترقیم نادیه سعادتمهیرلری قلنمشدر ان شاء الله تعالی لدی الوصول بروجه محرر حرکته



بنم سعادتلو مکرمتلو دولتلو عزتلو قرنداشم اعز واکرم (سلمهم) حضرتلری

عربان مذکورینه استناداً حوزه ضاربینلرك قهر واستیصالی وتأدیب

شقیلرینك ابادهٔ منحوسه‌لرینه نیت واستحصالیچون بالنفس حرکت

وعزیمت دستوریلری صورتنك استعلامنی متضمن کوندریلن تحریرات

سنیه‌لری وصول اولدی وبعض محذوراتی ومطالعاتی مبنی جناب

بالنفس حرکتلری حزم واحتیاط شریعتنه منافی اولدیغی افاده اولنمش

ومعلوم مصلحت طریق تمیزدن کلنلرده حرکت وعزیمته محتاج اولدیغی کیفیت

بحثنه تعقیبیم بیوریلان دفتر موجبنجه مهمات مرزوعه کوندرلدیکی صورتده

سنهٔ اتیه‌ده حرکت وعزیمته همت بیوریلمسی خصوصنی ماه شام ومحاکمه کرک

اکثریجه معقوله سندن اولدیغندن جنکه مقتدر اولدقلری بیاننده

ودم ابی ولاوداندن بو سکز بیك مقداری عسکر نیب وجمیع لوازماته

سبب بیورلدیغی صورتده حصول مصلحته مدار اوله‌جغی

افاده‌سنی محتوی بو ورقه فرستاده وتبعات بیوریلان تحریرات دستوریلری

اولنمشدر . خان . . .

و حسبی حس ---

بحثلری تقدیم بیوریلان دفتر موجبنجه مهمات دونانمه کوندریلدیکی صورتده

سنه آینده حرکت وعزیمته همت بیوریلدیغی خصوصی مادهٔ شام وعکاکره

اکثر تجزیه مقوله سندن اولدیغندن بنکه مقتدر اولهمدقلری بیانیله

بونم ایچی ولا دوانذن یوی سکز بیک مقداری عسکر ترتیب وجمع لوازماتنه

شروع بیورلدیغی صورتده حصول مصلحته مدار سهولت اولهجغی

افاده سنی محتوی بولنان تذکره وایعاف بیوریلان تحریرات دستوریلری

واقف درداصل ولزوم وصولنده اطلاع مخلصی محیط وشامل اولمشدر

خصوص مذکور مواد جسیمه دن اولمغله بتقارب دولتلو مرحمتلو نعمتم

صدراعظم افندم حضرتلرینک تشریفلرنده صورت نظامی تقریبیله قرار کر

اولهجق کیفیت صورت حالاتلرینه اولوقت اشعار اولنه جغی وادستهٔ قید

بیان احوالنه افاده سی سیاقنده قائمهٔ مخالصت تحریر وترشادده نادک

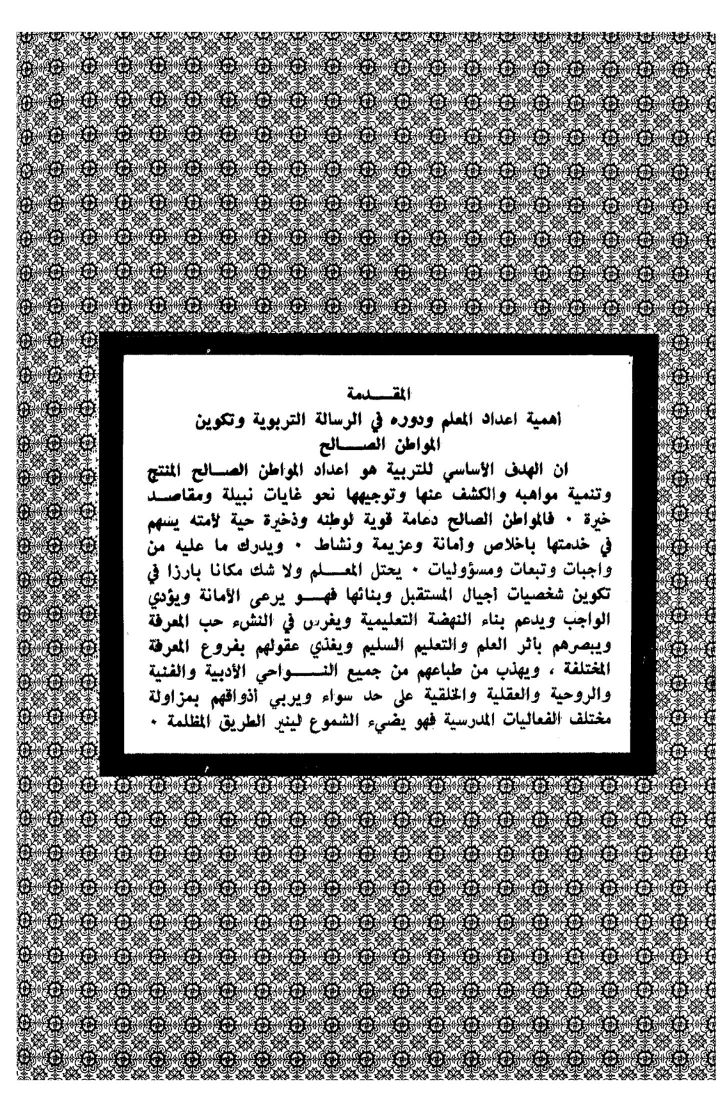
سعادتلو تصبیری فیشندرد انشاالله تعالی لطف الوصول قباعید دخی طرف

فی ... ترات مخبیرلری فی خزانه همت ... فی ... فی ...

التطور التاريخي لتأسيس معاهد المعلمين

بالمملكة العربية السعودية

بقلم الأستاذ / عبدالله حمد الحقيل
مدير عام الإدارة الفنية بدارة الملك عبدالعزيز



المقـــدمة

أهمية اعداد المعلم ودوره في الرسالة التربوية وتكوين المواطن الصـــالح

ان الهدف الأساسي للتربية هو اعداد المواطن الصـــالح المنتج وتنمية مواهبه والكشف عنها وتوجيهها نحو غايات نبيلة ومقاصـد خيرة ٠ فالمواطن الصالح دعامة قوية لوطنه وذخيرة حية لأمته يسهم في خدمتها باخلاص وأمانة وعزيمة ونشاط ٠ ويدرك ما عليه من واجبات وتبعات ومسؤوليات ٠ يحتل المعـــلم ولا شك مكانا بارزا في تكوين شخصيات أجيال المستقبل وبنائها فهـــو يرعى الأمانة ويؤدي الواجب ويدعم بناء النهضة التعليمية ويغرس في النشء حب المعرفة ويبصرهم بأثر العلم والتعليم السليم ويغذي عقولهم بفروع المعرفة المختلفة ، ويهذب من طباعهم من جميع النـــواحي الأدبية والفنية والروحية والعقلية والخلقية على حد سواء ويربي أذواقهم بمزاولة مختلف الفعاليات المدرسية فهو يضيء الشموع لينير الطريق المظلمة ٠

فالمعلم هو الذي يكون للأمة أبناءها ويربي أجيالها الصاعدة المتفتحة للحياة والتي سيقع على كاهلها عبء النهوض والتطور بالمجتمع نحـــو الأهداف الخيرة الفاضلة وسيجعل التوجيه التربوي من المعلم عضوا نافعـا فعالا في مجتمعه فالمعلمون هم رعاة الأمانة والأمنــاء على تكوين المواطنين الصالحين ·

ونتيجة لذلك نرى الأمم تتسابق اليوم في تطوير المعـــلمين وتنمية معارفهم وقدراتهم وميولهم واتجاهاتهم وتوسيع مفاهيمهم التربوية والوقوف على ما لديهم من استعدادات ذهنية وفكرية ووجدانية وتطويرها نحـــو الأفضل · اذ أن وسائل التربية تتطور بتطور الزمان ونمو المجتمع ·

وفي بلادنا والحمد لله حماس رائع واهتمام متزايد لاعداد المعـــلم ثقافيا وعلميا وتربويا الى جانب الاهتمام بقيمنا الروحية وتراثنا الخالد وعلى أسس من العقيدة والأخلاق السامية والى رفع مستواه العلمي والثقافي والسعي في الوقت نفسه الى الاكتفاء الذاتي بالمعلمين من أبناء البلاد وتحقيق تطورهم ومن هذا برزت أهمية المنطلق السليم نحو التخطيط والدراســة لاعداد المعلمين وتدريبهم وانشاء الكليات المتوسطة والســـعي لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة ·

والمعلم الجيد له فائدة في تحسين نوعية التعليم وتطوير العمليـــة التربوية لذا فقد تحولت بعض المراكز والمعاهد الى مراكز وكليات متوسطة بمستوى التعليم العالي في السنوات الأخيرة ·

ولقد شاعت فكرة انشاء الكليات المتوسطة في الكثير من بلدان العالم وبخاصة في أمريكا واليابان وغيرهما وسوف نتطرق لهذا النوع من الكليات في نهاية البحث ·

التطــور التـــاريخي
لتاسيس معاهد المعلمين في المملـــكة

نظرة تاريخية :

لقد تأسست مديرية المعارف لأول مرة في عام ١٣٤٤هـ الموافق ١٩٢٦م وكانت في الواقع بداية لفترة انتقال نحو بناء صرح العلم وتثبيت قواعده على أساس من المعرفة الصحيحة والتربية القويمة ·· ولم تـــكن آنذاك مدارس قائمة تذكر سوى بضع مدارس في كل من مكة المكرمة والمدينــة المنورة وجدة وكانت تعني بتعليم اللغة العربية والدين ·· فحسب ·

وكان التعليم الشكلي نادرا في مختلف مناطق المملكة عدا بعض المدن التي تتوفر فيها بعض الكتاتيب وحلقات المساجد ٠٠ وكان مقر الكتاب لا يتعدى الغرفتين أو الثلاث ويقوم بالتدريس فيه شخص واحد يسمى « المطوع » ولا يتعدى عما يقرأه الصبي فيهـــا عن قراءة القرآن الكريم وحفظه وتعلم الخط مع نبذ يسيرة مقتضبة من الفقه والتوحيد ٠

فلم تكن تؤتي بالثمرة المرجوة ٠٠ أما حلقات المساجد فقد كان يدرس فيها العلماء والقضاة ويؤمها الطلاب لتلقي العلم كما كان الطلاب يدرسون فيها الفقه والتوحيد وقواعد اللغة العربيـــة والصرف والعروض وعـــلم الفرائض ٠

وللحقيقة والتاريخ فقد خرجت هذه المساجد علماء وقضاة أســـهموا بنصيب كبير في نشر الدين الاسلامي والتعريف به وسدوا حاجة البلاد في بعض وظائف التعليم ٠

وبعد تأسيس هذه المديرية حرصت على تطوير المعلم باعتباره الركيزة الأولى ومن أهم وسائل التعليم فأنشأت المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة ٠

المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة :

لقد أنشأت مديرية المعارف هذا المعهد عام ١٣٤٧ هـ وقد كانت شروط القبول به حسب ما جاء في خطاب مدير المعارف المرقم ٣٨ ا ١٣٤٧/١/٢٧هـ المرفوع الى صاحب السمو الملكي النائب العام لجلالة الملك المعظم كالآتي حسب الاعلان المنشور في جريدة أم القرى عام ١٣٤٧هـ ٠

اعــــلان

تعلن ادارة المعارف العمومية أنها قد اعتزمت بعونه تعالى على فتح المعهد العلمي لتلقي الفنون التي تؤهل الطالب لأن يكون أستاذا في المدارس الأميرية في مدة ثلاث سنوات وأن يخصص لكل طالب اعانة شهرية جنيهان تنشيطا له ومساعدة لحاله وأن العدد المحدود قبوله من الطالبين أربعون طالبا على أن يكون كل طالب متصفا بما يأتي :

١ ــ أن يكون ملما بقسم العبادات ٠

٢ ــ أن يكون عارفا بقواعد اللغة العربية البسيطة ٠

٣ ــ أن يكون ملما بالاملاء والخط والحساب الى الأعمال الأربعة ٠

فعلى كل من يرغب في الانتظام في ســـلك الطالبين أن يراجع ادارة المعارف العامة من تاريخ الاعلان الى يوم ٢٠ صفر ١٣٤٧ لقيد اسمه ضمن الطالبين ولذلك صار الاعلان ٠

ملاحظة : لقد كانت هناك سنة اعدادية قبل البدء في الدراسة بالمعهد ٠

ولقد كانت مدة الدراسة ثلاث سنوات بعد اتمام الدراسة الابتدائية ثم طورت الدراسة في عام ١٣٦٥ هـ فأصبحت خمس سنوات كما أنشيء معهد آخر بالمدينة المنورة عام ١٣٦٨هـ ٠

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر الخريجين لم يزاولوا مهنة التدريس سوى أفراد قلائل اذ أن الغالبية منهم قد واصلوا دراساتهم العالية في كليتي الشريعة والمعلمين بمكة المكرمة كما ابتعثت أعداد أخرى الى الخارج لمواصلة دراساتهم ٠

ملاحظة : والواقع أن هذين المعهدين لم يكونا في الواقع معاهد لاعداد المعلمين بالمعنى المفهوم اذ أن مناهجهما كانت خالية من التطبيقات العلمية كما أن خططهما الدراسية لم تهتم بالموضوعات التربوية والمهنية واقتصرت الدراسة فيها على الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بالمنهج الابتدائي وكان نصيب التدريس من خريجي هذه المعاهد ضئيلا ٠

ويتضح من خـــلال البحث أن بداية العمر الحقيقي الزمني لاعداد المعلمين أنه في عام ١٣٤٧ وأن فكرة اعداد المعلمين لم تكن مقتصرة على اسم معهد معلمين بل ان المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة وكلية المعلمين بمكة المكرمة سابقا والمعاهد الليلية للمعلين وكلية الشريعة بمكة المكرمة ٠

كل هذه المؤسسات ذات الأسماء المتباينة قد أسهمت في تخريج عدد من المعلمين حيث أن اعداد المعلم كان من ضمن أهدافها ٠

الخطة الدراسية بالمعهد العلمي السعودي :

السنة الاعدادية	صحة
قواعد	تفسير
انشاء	مطالعة
حساب	حساب
أصول حديث	السنة الأولى
تاريخ	التربية العملية
فقه اللغة	رسم
رسم	قواعد
تقويم	خـــط
امـــلاء	تاريخ

توحيد
أصول تفسير
أدب
خط
أصول حديث
توحيد
توحيد
أصول تفسير
حساب
آدب
هندسة
حديث
مطالعة
السنة الثانية
التربية العملية
رسم
قواعد
انشاء
حساب
تاريخ
خط
مبادىء فرائض
هندسة
توحيد
فقه
أدب
تقويم البلدان

صحة
فقه
انشاء
تقويم البلدان
تفسير
حديث
مطالعة
السنة الثالثة
توحيد
هندسة
فقه
مسك الدفاتر
تفسير
حديث
فرائض
نحو
جبر
بلاغة
انشاء
آداب اللغة العربية
تاريخ
خط
جغرافيا
حساب
تربية عملية
لغة انجليزية
المبادىء والصحة

خطة الدراسة في منهج عام ١٣٧٢ هـ بالمعهد العلمي السعودي .

المادة	السنة الاولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة
التوحيد	٣	٣	٢	٢	٢

الفقــــه	٤	٤	٣	٤	٤
الفرائض	١	١	١	١	١
التفســـير	٢	٢	٢	٢	٢
أصول الفقه	—	—	٢	٢	٢
المصـــطلح	١	١	—	—	—
الحــــديث	٢	٣	٣	٣	٣
أصول الفقه	—	—	٢	٢	٢
البـــــلاغة	—	١	١	١	١
الحســـــاب	٣	٣	٢	—	—
الأدب والمحفوظات	٢	٢	٢	٢	٢
التربية وعلم النفس	—	—	—	٣	٣
التربية العملية	—	—	—	١	١
تقويم البلدان	٢	٢	٢	١	١
التـــــاريخ	٢	٢	٢	٢	٢
الهندســـــة	—	—	١	١	١
القـــواعد	٣	٣	٣	٤	٤
فقه اللغـــــة	—	—	—	١	١
الانشـــــاء	٢	٢	٢	٢	٢
الخطـــــابة	—	—	١	—	—
الخـــــط	١	١	١	١	—
المطـــــالعة	١	١	١	١	١

المعهد العلمي السعودي ـ من عام ١٣٦٥هـ ٠

قامت مديرية المعارف في عام ١٣٦٥ هـ بتطوير الدراسة في المعهد العلمي وأصبحت الدراسة فيه عبارة عن خمس ســـنوات وأطلق على شهادة الثلاث السنوات الأولى (شهادة القسم التجهيزي أما شـــهادة قسم المعلمين الثانوي فتمنح بعد دراسة خمس سنوات به وبعـــدها يتمكن الطالب من الالتحاق في كليات الآداب ودار العلوم في جامعات الأزهر وكلية الشريعة بمكة التي تم افتتاحها عام ١٣٦٩ هـ ٠

الخطة الدراسية عام ١٣٦٥ هـ :

	السنة				
المادة	الاولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة
التفسير	٣	٢	٢	٢	٢
الحديث	٣	٣	٣	٣	٣
الفقه	٤	٤	٣	٣	٣
التوحيد	٣	٣	٢	٢	٢
أصول التفسير	١	—	—	—	—
أصول الحديث	١	١	—	—	١
أصول الفقه	—	١	١	١	١
القواعد	٣	٣	٣	٤	٤
الانشاء	٢	١	٢	١	١
أدب	٢	٢	٢	٢	٢
البلاغة	—	٢	١	١	١
فقه اللغة	—	—	—	—	١
الخطابة	—	—	١	—	١
المطالعة	١	—	١	١	١
الاملاء	١	—	—	—	—
الخط	١	١	١	١	١
التربية وعلم النفس	—	—	—	٣	٣
التاريخ	٢	٢	٢	٢	٢
الجغرافيا	٢	٢	٢	١	١
علوم حديثة	١	١	١	١	١
الحساب	٣	٣	٢	—	—
الهندسة	—	—	١	١	١
الرسم	١	١	١	١	١
اللغة الانجليزية	٣	٣	٣	٣	٣
	٣٦	٣٦	٣٦	٣٦	٣٦

نظام الامتحان :

كانت نظم الامتحان في المعهد العلمي السعودي وفق ما جاء في نظام المدارس الصادر عام ١٣٤٧هـ وفي نظام المدارس الأميرية عام ١٣٥٨ هـ وقد كانت أنظمة هذه المعاهد تسير حسب نظام الامتحانات في المدارس الثانوية حتى عام ١٣٨١ هـ حيث أن هذه المرحلة تعادل المرحلة الثانوية في مجموعها ·

العلامات الكبرى والصغرى :

المادة	النهاية الكبرى	النهاية الصغرى
القواعد	٣٠	١٥
انشاء	٢٠	٨
حساب	٣٠	١٥
أصول حديث	٢٠	٨
تاريخ	٢١	٨
فقه اللغة	٢٠	٨
فقه	٣٠	١٥
رسم	٢٠	٨
تقويم البلدان	٢٠	٨
املاء	٣٠	١٨
توحيد	٣٠	١٥
أصول تفسير	٢٠	٨
أدب	٢٠	٨
خط	٢٠	٨
صحة	٢٠	٨
مطالعة	٢٠	١٠
تفسير	٣٠	١٥
حديث	٣٠	١٥
تربية عملية	٣٠	١٥
هندسة	٢٠	٨
مسك الدفاتر	٢٠	٨
قرآن كريم	٣٠	١٥
جبر	٢٠	٨

بلاغـــة	٢٠	٨
أدب اللغة العربية	٣٠	١٥

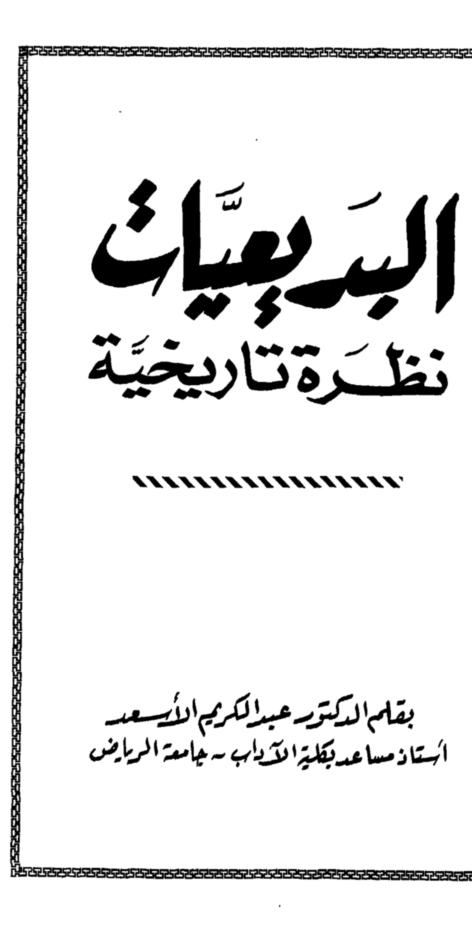
لقد دفعت الحاجة لتوفير المعلمين خلال تلك الفترة الى الاستعانة بكل من يرغب في العمل في هذا الميدان ويحســـن القراءة والكتابة الى جانب استقدام الأعداد الكبيرة من أبناء البلاد العربية الشقيقة ولم تكن الظروف تسمح بمراعاة المستويات التربوية والمسلكية العالية خلال استخدام المعلمين في تلك الحقبة فكانوا من الفئات التي أطلق عليها معلمي الضرورة ٠

وعند صدور المرسوم الملـــكي بانشاء وزارة المعارف فقد أخـذت الوزارة على عاتقها ايصال نور العلم والمعرفة الى أبنـــاء الأمة كافة وفي مختلف المنـــاطق وكان ذلك في ١٣٧٣/٤/١٨ هـ حيث وضعت سياسـة تعليمية وبرامج تربوية تستهدف تطوير التعليم وازدهاره وتوفير الأعداد الكافية من المعلمين وتطوير مفاهيمهم التربوية واعدادهم اعدادا مسلكيا يمكنهم من القيام بواجباتهم على أفضل وجه وفقا لامكانيات الوزارة وأنظمة التعليم المعمول بها آنذاك فوضعت خطة لاعداد المعلمين وتدريبهم أثنـاء الخدمة وفق الحاجة وفي ضوء الواقع ومحاولة الاكتفاء الذاتي بالمعلمين من أبناء البلاد ٠ ولغرض تحسين الخدمات التعليمية وتطويرها ودفعها قدما الى الأمام بكل وسائل الدفع المادية والمعنوية ٠

ومن خلال ذلك بدأت الوزارة بتنفيذ خطة في اعداد المعلمين وتدريبهم ليكونوا محققين لأحسن النتائج التعليمية فبدأت المرحلة الأولى اعتبارا من عام ١٣٧٣ هـ حيث رسمت خطة تربوية تهدف الى انشـاء معاهد المعلمين الابتدائية ومعاهد المعلمين الثانوية وتدريب المعلمين أثناء الخدمة ومعاهد المعلمين الليلية وتنظيم دورات صيفية في الطائف بغية النهوض بمستوى معلمي الضرورة وتدريبهم وتطوير مداركهم وتشـجيعهم على التطـــور والابتـــكار ٠

ولقد أسهمت تلك البرامج والخطط في تكوين المعلمين ورفع مستوياتهم نحو الأفضل وتحقيق الأهداف المتوخاة وتوجيههم الى طرق المعرفة ووسائل التربية الحديثة التي تعينهم وترشدهم الى تأدية واجباتهم أثنـــاء خدمتهم التعليمية والتي أسهمت ولا شك في تطوير التعليم بصورة عامة ٠

« يتبـــع »



البديعيات

نظرة تاريخيّة

بقلم الدكتور عبد الكريم الأسعد
أستاذ مساعد بكلية الآداب - جامعة الرياض

يطلق البيان على معنيين : معنى أدبي واسع يشمل الافصاح عن كل ما يختلج في النفس من المعاني والأفكار والأحاسيس والمشاعر بأساليب تتصف بالدقة والاصابة والوضوح والجمال ، وهو بهذا المعنى يجمع فنون البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع ، ومعنى علمي ضيق وهو التعبير عن المعنى الواحد بطريق الحقيقة أو المجاز بانواعه أو الكناية ، وهو بهذا المعنى أحد فروع البلاغة الثلاثة عند المشتغلين بها .

وكانت علوم البلاغة الثلاثة التي عرفناها فيما بعد عند المتاخرين تسمى قديما علم البيان (١) ، والذين أطلقوا عليه هذا الاسم آنذاك لم يريدوا منه المعنى الضيق الذي يعني أنه أحد فروع علم البلاغة الذي يقصد به الابانة عما في النفس بطرق مختلفة ، حقيقة حينا ومجازية حينا آخر ، وانما أردوا منهمعنى أعم من ذلك ، وهو المعنى الذي يشمل علوم البلاغة الثلاثة : المعاني والبيان والبديع . وقد سميت البلاغة أيضا في أوائل حياتها بديعا ، وأطلق على الفنون البلاغية التي عرفت اذ ذاك لقب البديع ، اي أن كلمة البديع كانت ترادف في الاستعمال كلمة البلاغة وكان يقصد باحداهما ما كان يقصد بالأخرى (٢) .



وهذا كله يعني وقوع العموم والشمول في استعمالات القدماء لمصطلحات البلاغة والبديع والبيان ، بل ان المتقدمين سموا علم البلاغة وتوابعها بعلم نقد الشعر ، وصنعة الشعر ، ونقد الكلام ، وانما التسمية بالمعاني والبيان والبديع حادثة عند المتأخرين (٣) .

وفي نظرة سريعة على تطور معنى لفظ البديع واستعمالاته نرى أن هذا اللفظ ومشتقاته قد ورد أول ما ورد في الشعر الجاهلي ، ثم في شعر المخضرمين بمعنى الجديد والمخترع ، وورد هذا اللفظ كذلك في القرآن الكريم (٤) بمعنى مقارب هو الخلق والانشاء والبدء على غير مثال سابق ، وورد في الحديث الشريف بمعنى الجيد الطيب ، وبمعنى المحدث والجديد ، وورد في شعر صدر الاسلام وفي نثره بالمعاني السابقة كلها .

ولما جاء العصر العباسي الأول ظهر فيه بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ ومسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨هـ وأبو تمام المتوفى سنة ٢٣١ هـ وابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤هـ والبحتري المتوفى سنة ٢٨٤هـ أيضا وابن المعتز المقتول سنة ٢٩٦هـ ، وهؤلاء هم الشعراء الذين سموا بشعراء البديع بسبب اندفاعهم في الصنعة البديعية الى درجة الافراط كما حدث من أبي تمام ، ومع الوقوف عند حد القصد كما حدث من البحتري وابن المعتز .

وقد ذهب بعض الرواة الى أن بشارا هو مخترع البديع على ما ادعاه ، أو أنه أول من استعمل الأنواع الجديدة في شعره ، وتبعه بعد ذلك شعراء البديع السابقون واستعملوها في أشعارهم .

ولكن هذا لم يسلم لمن رووه ، اذ رد عليهم ابن المعتز (٥) بأن هذه الأنواع الجديدة كانت موجودة قبل ذلك في شعر القدماء ، وأنه لا فضل لبشار في ابتكارها ولا في البدء باستعمالها ، وان كانت له ولشعراء البديع معه صفة الاكثار منها في أشعارهم ، وذكر ابن المعتز أيضا أن اسم البديع انما هو من وضع الرواة والشعراء المحدثين ، وليس من ابتكاره ، وأنه كان فقط أول من صنف في هذا الفن تحت عنوان « البديع » وان كان أستاذه ثعلب قد سبقه الى جمع أكثر ما جمع في كتاب واحد ، ولكن تحت اسم « قواعد الشعر » .

وقد جعلت الصور البديعية الجديدة تجري منذ ذلك الوقت على ألسنة الشعراء جريا متزايدا وكأنها تستشرف الى من يجمعها ويتوجها بعنوان يضعه لها وضعا علميا ثابتا حتى تأخذ سمتها البلاغي الدقيق وحتى تصبح

ذات اعتبار علمي فني محدد ، وقد حقق ذلك الأمير الشـــاعر عبـد الله ابن المعتز ، فوضع اللبنة الأولى في صرح البلاغة في كتابه البديع سنة ٢٧٤هـ الذي عد فيه البديع خمسة أنواع هي : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي (٦) ، وهي أنواع ليست مقصورة على الصور البديعية الجديدة كما هو ملاحظ ، وانمـا هي شاملة تعم أنواعا تتقاسمها الآن علوم البلاغة الثلاثة ٠
ثم أخذت البلاغة تسير مع الأيام نحو التخصص والتحديد مع التوسع والتفصيل فبعد أن كانت العلوم الثلاثة في كتابه ممتزجة الى حد كبير كما ذكرنا ، وبعد أن بقيت مسائل البديع مختلطة بمسائل المعاني والبيان لم ينفصل بعضها عن بعض بصورة حاسمة بعد ابن المعتز عند كبار النقاد والبلاغيين الآخرين من علماء القرنين الرابع والخامس الهجريين من أمثال قدامة بن جعفر وأبي هلال العسكري وابن سنان الخفاجي وابن رشيق القيرواني كما كان واضحا من استعمالاتهم التي كان يأتي فيها مصطلح البديع أحيانا دالا على مجرد الصنعة البديعية التي تكسب الكلام حسنا وقوة وبيانا ، كما كان يأتي في أحيان أخرى بصورة أعم وأشمل ليشمل ألوانا مما أصبح فيما بعد داخلا في نطاق علم المعاني أو علم البيان ٠

أقول : بعد ذلك ذلك آل الأمر في النهاية على يد الســكاكي المتوفى سنة ٦٢٦هـ وعلى يد رجال طبقته ثم من وليهم الى علوم البـــلاغة الثلاثة المعروفة عند هؤلاء المتأخرين بكل ما أصبح فيهـــا على يديه وأيديهم من تخصص وتحديد وتوسع وتفصيل ٠

ومن المعروف أن أمر البديع قد وصل عند المتأخرين وفي مقـــدمتهم السكاكي والقزويني الى وضعه في ذيل سلسلة علوم البلاغة مكملا لها يليها لا يتقدمها ولا يوازيها من حيث الأهمية ٠

ولعل هذا هو الذي حدا بأصحاب البديعيات وشراحها الى محاولة رد الاعتبار للبديع ، فبدأوا يحاولون ذلك منذ منتصف القرن السابع الهجري تقريبا قاصدين من وراء محاولتهم الى أن يجعلوا مباحث البديع في أهمية مباحث علمي المعاني والبيان وليس بعدهما ، بل زاد بعضهم بأن أطلقه على المعاني والبيان حتى انضويا تحت لوائه ، وعاد البديع في نظر هؤلاء مرادفا للبلاغة ، وكأنما كان هذا رد فعل في نفوسهم لما أصاب البـــديع على يد السكاكي ومدرسته من تهوين ، يقول ابن حجة الحموي وهو من أصـحاب

البديعيات في الاستعارة مثلا « ليس في أنواع البديع أعجب منها اذا وقعت في مواقعها (٧) » ٠

ويعد كتاب ابن المعتز « البديع » كما ذكر مصنفه أول ما ألف فيه بهذا الاسم ، وقد اعتبر صاحبه البديع اسما أعم مما اصطلح عليه المتأخرون ، وذلك لما جمعه تحته في هذا الكتاب من ألوان الاستعارة والتشبيه والكناية والتمثيل التي عدها من فنون البديع ، ثم زاد معاصره قدامة عشرين نوعا من فنونه اتفق معه في سبعة منها فكان جملة مازاده ثلاثة عشر ، فوصل ما جمعه الى ثلاثين نوعا ، ثم أوصل أبو هلال العسكري في (الصناعتين) هذه الأنواع الى خمسة وثلاثين نوعا ، وجمع ابن رشيق في (العمدة) مثلها ، وتلاهما شرف الدين الشاشي فبلغ بها السبعين ، وصنف مجـــد الدين بن منقذ الشيزري المتوفى سنة ٥٨٤هـ كتابه « التفريع في البديع » ورتبه الى خمسة وتسعين بابا ضمن كل باب منها نوعا من البـــديع ، وكان أول الأبواب أجناس التجنيس ، وآخرها التهذيب والترتيب ٠

وكانت خاتمة المطاف المدحة النبوية لصـــفي الدين الحلي المسـماة « الكافية البديعية » جمع فيها مائة وأربعين نوعا ٠

وقد أصبحت البديعيات بأخرة مصطلحا يطلق على القصائد المنظومة في مدح الرسول أو أصحابه ، التي تتضمن أبيأتها في الوقت نفسه أنواعا من البديع مصرحا بها أو غير مصرح ٠

وقد انبثق فن البديعيات على يد أمين الدين السليماني أحد أدباء مصر في عصر المماليك المتوفى سنة ٦٧٠هـ ، ثم اشتهر شهرة واســـعة على يد شرف الدين محمد البوصيري المصري المغربي الأصل المتوفى سنة ٦٩٥ هـ أو ٦٩٦هـ حتى لكأنه انبثق على يديه ، وهو أحد شعراء الزهد والتصوف والمديح النبوي الذي كثر في عصر المماليك ، وعرف أيضا بالدلاصيري ، وقد حفظ في صباه القرآن ودرس في الأزهر وبرز في الأدب ، وعين في شـــبابه موظفا في بلبيس بشرق مصر فلقي من زملائه الموظفين مالا يرضي فنظم فيهم قصائد عدة ذكر فيها مساوئهم ، ثم استقال وتزهد بعد ذلك في كهولته ، واتصل بأبي العباس المرسي شيخ الطريقة الشاذلية الصوفية ، وتتلمذ له بالاسكندرية ، وعاش في هذه المدينة حتى مات عن ثمانية وثمانين عاما ، وله فيها مسجد فيه ضريحه ، ويقع في مواجهة مسجد أستاذه ، وتتحلى جدران مسجد البوصيري بأبيات من بردته كتبت بالنقوش البارزة المحلاة بالنحاس

المطلي بماء الذهب وهي لا تتجاوز عشرين بيتا ، ومسجد البوصيري هذا على نمط مصغر لمسجد محمد علي بالقلعة بالقاهرة الذي نقشت أبيات البردة كلها على جدرانه ٠

وقد اتجه البوصيري بكليته الى المدائح النبوية وأكثر من نظم القصائد الطويلة فيها بحرارة واقتدار وصدق ، وعرض فيها جوانب من السيرة العطرة في شعور دافق وقدرة فائقة ودافع من خلالها عن الاسلام حتى ليصح لنا أن نسميه مادح الرسول ونلحقه لذلك بحسان شاعر الرسول ، ولسمو قصائده في المديح تعدد شراحها من العلماء ، وشطرها وخمسها ونهج نهجها الكثير من فحول الشعراء في كل جيل من الزمان ٠

وتعد بديعية البوصيري « البردة » أنفس مدائحه النبوية وأعظمها شهرة وأكثرها شروحا (٩) وحواشي ، وهي قصيدة ميمية طويلة تضم مائة واثنين وستين بيتا ، وقد نسجت حولها أخبار شتى منها : أنه أنشدها بين يدي الرسول في المنام فخلع عليه بردته الشريفة كما خلعها من قبل على كعب بن زهير حين أنشده قصيدته التي يعلن فيها اسلامه ويعتذر عن هجائه السابق ويرتجي العفو ، والتي مطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول
متيم اثرها لم يفد مكبول

ومنها : أنه بعد أن شرع في نظمها أصابه فالج فلم يستطع اكمالها وتوقف عند شطرة :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر

ثم جاءه الرسول في المنام وخلع عليه بردته ومسح على جسده فعوفي

واستكمل البيت بقوله :

وأنه خير خلق الله كلهم

ثم فتح الله عليه وأتم القصيدة بعد أن أطلق عليها البردة ٠

وقد بدأ البوصيري بردته بغزل عفيف على عادة كثير من شعراء العربية من العصر الجاهلي الى شطر مبكر من العصر الحديث وقال في أولهما :

أمن تذكر جيران بذي سلم
مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ثم اتهم نفسه بالتقصير عن سنة الرسول الذي كان يصلي حتى تتورم قدماه ، ويجوع ويربط الحجر على بطنه لايثاره الفقراء على نفسه ، وقد راودته الجبال العالية أن تصير له ذهبا فأبى وآثر الزهد فقال :

ظلمت سنة من أحيا الظلام الى
أن اشتكت قدماه الضر من ورم
وشد من سغب أحشاءه وطوى
تحت الحجارة كشحا مترف الأدم
وراودته الجبال الشم من ذهب
عن نفسه فأراها أيما شمم

ثم عرض بعض شمائل الرسول فقال :

نبينا الآمر الناهي فلا أحد
أبر في قول لا منه ولا نعم
فاق النبيين في خلق وفي خلق
ولم يدانوه في علم ولا كرم
كالزهر في ترف والبدر في شرف
والبحر في كرم والدهر في همم

وتحدث عن القرآن كمعجزة خالدة عجز المشركون عن معارضته لبلاغته ، وعلل لانكارهم له بأن الأرمد لا يرى ضوء الشمس فينكره ، وبأن المريض لا يتذوق عذوبة الماء فيجحدها ، قال :

لا تعجبن لحسود راح ينكرها
تجاهلا وهو عين الحاذق الفهم
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم الماء من سقم

وعرض للاسراء والمعراج ولتقريب الله للنبي ولرياسته للأنبياء جميعا فقال :

سريت من حرم ليلا الى حرم
كما سرى البدر في داج من الظلم
وبت ترقى الى أن نلت منزلة
من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم
وقدمتك جميع الأنبياء بها
والرسل تقديم مخدوم على خدم
وأنت تخترق السبع الطباق بهم
في موكب كنت فيه صاحب العلم

وللبوصيري مدائح نبوية أخرى منها بائية تقول :

بمدح المصطفى تحيا القلوب
وتغتفر الخطايا والذنوب

ومنها لامية عارض بها لامية كعب بن زهير : بانت سعاد ٠
وله الرائية « المضرية في الصلاة على خير البرية » ومطلعها :

يارب صل على المختار من مضر
والأنبيا وجميع الرسل ما ذكروا

وله حائية مطلعها :

يا من خزائن ملكه مملوءة
كرما وباب عطائه مفتوح
ندعوك من فقر اليك وحاجة
وجمال فضلك للعباد فسيح
فاصفح عن العبد المسيء تكرما
ان الكريم عن المسيء صفوح
واقبل رسول الله عذر مقصر
هو ان قبلت بمدحك الممدوح
في كل واد من صفاتك هائم
ويطل بحر من نداك سبوح

وله قصيدة همزية في مدح الرسول سماها « أم القرى في مدح سيد الورى » ومطلعها :

كيف ترقى رقيك الأنبياء
يا سماء ما طاولتها سماء

وهي أطول قصائده وأشملها ، فقد ذكر فيها موجز السيرة النبوية ، ودافع عن الاسلام ، وتحدث عن كثير من الصحابة ، وقد بلغت عدتها ٤٥٦ بيتا ، وقد اهتم بهذه القصيدة العلماء ، وكتبوا عليها شروحا وحواشي كثيرة ٠

وقد كثر أصحاب البديعيات الذين حاكوا بردة البوصيري فيما بعد ، ورأينا منهم صفي الدين الحلي المتوفى سنة ٧٥٠هـ ، وأبا عبد الله محمد ابن جابر شمس الدين الأندلسي الضرير المشهور بابن جابر الأندلسي المتوفى سنة ٧٨٠ هـ ، وعليا عز الدين الموصلي المتوفى سنة ٧٨٩هـ ، وأبا بكر تقي الدين بن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ ٠

وأشهر بديعيات هؤلاء وغيرهم قصيدة صفي الدين الحلي التي سماها « الكافية البديعية في المدائح النبوية » ومطلعها :

ان جئت سلعا فسل عن جيرة العلم
واقر السلام على عرب بذي سلم

وقد ضمنها مائة وأربعين نوعا من أنواع البديع في مديح الرسول على مثال ما ذكره البوصيري في بردته وهمزيته ، ونسج على منوالها من جاء بعده من أرباب البديعيات ، وقد وضع لها شرحا سماه « النتائج الالهية في شرح الكافية البديعية » .

ومن أشهرها أيضا قصيدة ابن جابر الأندلسي ومطلعها :

بطيبة انزل ويمم سيد الأمم
وانثر له المدح وانشر طيب الكلم

وقد سميت « الحلة السيرا في مدح خير الورى » واشتهرت ببديعية العميان لأن ناظمها كان ضريرا ، وقد وضع لها أبو جعفر شهاب الدين أحمد بن يوسف الغرناطي الأندلسي صديق ابن جابر شرحا سماه « طراز الحلة وشفاء الغلة » .

أما علي عز الدين الموصلي فقد نظم بديعية سماها « التوصل بالبديع الى التوسل بالشفيع » ومطلعها :

براعة تستهل الدمع في العلم
عبارة عن نداء المفرد العلم

وقد نظمها في معارضة بديعية صفي الدين الحلي ، وسماها أيضا لهذا السبب « الفتح الألي في مطارحة الحلي » وقد وضع لها شرحا كبيرا وازن فيه بين بديعيته وبديعيات من قبله .

وأما أبو بكر تقي الدين بن حجة الحموي فقد نظم بديعيته المسماة « تقديم أبي بكر » في معارضة بديعية الحلي وبديعية الموصلي ومطلعها :

لي في ابتدا مدحكم يا عرب ذي سلم
براعة تستهل الدمع في العلم

ثم وضع لها شرحا سماه « خزانة الأدب وغاية الأرب » وهو أوسع شروح البديعيات على الاطلاق ، وأحفلها بالنقد والبلاغة .

وقد نقد أبو بكر العلوي الحسيني الحضرمي بديعية ابن حجة بكتاب « اقامة الحجة على التقي ابن حجة (١١) » وتكلم فيه على كل بيت منها بما ظهر له .

ومن أصحاب البديعيات في العصر المملوكي أيضا بعد هؤلاء أو معهم :

ـ اسماعيل بن أبي بكر شرف الدين الشهير بابن المقرئ اليمني المتوفي سنة ٨٣٧هـ ، واسم بديعيته « الجواهر اللامعة في تجنيس الفرائد الجامعة

للمعاني الرائعة » وأولها :

شـــارفت ذرعا فذر عن مائهـــا الشبم
وجزت نملا فنم لا خـــوف في حرم

وقد جمع فيها مائة وخمسين نوعا من أنواع البديع ، وعمل لهـــا شرحا ·

ـ تاج الدين عبد الوهاب بن عربشاه المتوفى بالقاهرة سنة ٩٠١هـ ، واسم بديعيته « شفاء الكليم بمدح النبي الكريم » (١٢) ·

ـ عبد الرحمن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ، واســم بديعيته « نظم البديع في مدح خير شـفيع » وقد شرحها في كتاب ســـــمي « شرح السيوطي » ·

ـ عائشة الباعونية المتوفاة سنة ٩٢٢هـ ولها بديعيتان احداهما تسمى « الفتح المبين في مدح الأمين » وأولها :

من مبتـــــدا خبر الجرعاء من اضم ،
حدث ولا تنس ذكر البان والعـــلم

وقد شرحتها شرحا طبع على هامش احدى طبعات خزانة ابن حجة ، والتزمت في هـــذا الشرح أن أذكر عند كل محسن من المحسـنات البديعية ما قاله ابن جابر الأندلسي وصفي الدين الحـــلي وعز الدين الموصـــلي وابن حجة الحموي في بديعياتهم ·

أما في العصور العثمانية فان أشهر شعراء البديعيات : شرف الدين السعدي عيسى بن حجاج ، والشيخ محمـــد ناظم الملتقى الذي نظم بديعية لامية سنة ١١٠٥هـ وشرحها في كتابه « تحفة الأدباء وتسلية الغرباء » وأحمد البربير البيروتي المتوفى سنة ١١٢٦هـ الذي نظم بديعية شرحها مصـــطفى الصلاحي ، وعبد الغني النابلسي المتوفى سنة ١١٤٣هـ الذي نظم بديعية سماها « نسمات الأسحار في مدح النبي المختار » وأولها :

يا منزل الركب بين البان والعـــلم
من ســــفح كاظمة حييت بالـــديم

وقد شرحها شرحا سماه « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار في مدح النبي المختار » ومحمود صفوت الساعاتي المتوفى سنة ١٢٩٨هـ ، ولكثير من معاصريه في البلاد العربية بديعيات ، حتى أننا نجـــد بعض المسيحيين اللبنانيين يؤلفون بديعيات في مدح عيسى والرسل ، وربما كان آخر من أسهم من المسلمين في هذا الفن الشيخ طاهر الجزائري المتوفى سنة ١٣٤١هـ ، فله بديعية صنف لها شرحا سماه « بديع التلخيص وتلخيص البديع » (١٣) ·

ولما استهل العصر الحديث طرق الشعراء موضوعات عدة متصلة بالاسلام ، وكان منها المديح النبوي ، فنظم محمود سامي البارودي مثلا قصيدتين احداهما في ٤٤٧ بيتا عنوانها « كشف الغمة في مدح سيد الأمة » وهي محاكاة لبردة البوصيري التي كانت تتمتع بشهرة خاصة بين القصائد الدينية ، ومطلعها :

يا رائد البرق يمم دارة العلم .
واحد الغمام الى حي بذي سلم

وقد نظم أحمد شوقي أيضا قصيدة على منوال البردة سماها « نهج البردة » وهي قصيدة مشهورة مغناة .

ولكن هذه الحركة البديعية لرفع شأن البديع لم تؤد أغراضها المقصودة منها ، ولم تحل بالتالي دون استقرار مصطلحات المعاني والبيان والبديع عند أهل البلاغة من المتأخرين على النحو الذي قال به السكاكي ثم القزويني ، فتكاملت عندهم تقسيمات هذه العلوم وموضوعاتها التي نعرفها ، وتم وضع البديع في ذيل المعاني والبيان .

١ ـ انظر احمد امين ، ظهر الاسلام ٢ : ١٢٤
٢ ـ انظر د. بدوي طبانه ، علم البيان ١٠ ، ١٢
٣ ـ انظر حاشية الانبابي على رسالة الصبان البيانية ٣
٤ ـ انظر سورة البقرة آية ١١٧ ، وسورة الأنعام آية ١٠١
٥ ـ انظر ابن المعتز ، البديع ، المقدمة ١ تحقيق كراتشكوفسكي .
٦ ـ انظر ابن المعتز ، البديع ، ٣ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٧ ، ٥٣
٧ ـ ابن حجة الحموي ، خزانة الادب وغاية الأرب ٤٨
٨ ـ منسوب الى قلعة شيزر بالشام .
٩ ـ لجلال الدين المحلي المتوفى سنة ٨٦٤هـ شرح لبردة البوصيري ، وعلى هذا الشرح حاشية لمحمد بن عرفة الدسوقي المتوفى سنة ١٢٣٠هـ ، ولابراهيم الباجوري المتوفى سنة ١٢٧٦هـ حاشية على بردة البوصيري هذه .
١٠ ـ منسوب الى الحلة ، وهي تقع قرب بغداد على فرع من نهر دجله ، وهو الامام البليغ الناظم الناثر ، ولد بالحلة سنة ٦٧٧هـ ورحل الى مصر سنة ٧٢٦هـ ، وله ديوان شعر في ثلاثة مجلدات جمعه بنفسه وكله من عيون الشعر .
١١ ـ طبع بالهند سنة ١٣٠٥هـ .
١٢ ـ ويعرف أيضا بابن الأسيوطي ، ولد لأم تركية وأب مصري ونشأ يتيما ، وله مؤلفات كثيرة جدا منها : شرح الخلاصة ، الفتح القريب على مغني اللبيب ، جمع الجوامع وشرحه همع الهوامع ، الأخبار المروية في سبب وضع العربية ، التوشيح على التوضيح ، شذا العرف في اثبات المعنى للحرف ، السيف الصقيل في حواشي ابن عقيل ، شرح لمعة الاشراق في الاشتقاق ، نكت على التلخيص ، عقود الجمان في المعاني والبيان وشرحها ، شرح ابيات تلخيص المفتاح ، نكت على حاشية المطول للعنزي . وله أيضا مع جلال الدين المحلي التفسير المشهور المسمى تفسير الجلالين .
١٣ ـ انظر د. شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ، ٣٦٦ .



بقلم الأستاذ / عبد الرحمن شلش

هذا الكتاب دراسة موضوعية جادة لأمثالنـــا العربية القديمة لما يتسم به من دقة في المنهج ، ووضوح في التفكير ، واستقصاء لجزئيات الموضوع ، ونصاعة الحجج والبراهين ٠

ومؤلف الكتاب هو المستشرق الألماني رودلف زلهايم الذي يعتبر واحدا من المهتمين بالدراسات العربية ، ونشر كتابه باللغة الألمانية في عام ١٩٥٤م ٠

وأما مترجم الكتاب فهو الدكتور رمضـــان عبد التواب أحـــد باحثينا الممتازين وترجع قصته مع ترجمة الكتاب الى عام ١٩٦٢ حين انتهى من دراسته للدكتوراه في ميونخ بالمانيا الغربية ، وأراد أن يترجم بعض آثار المستشرقين الجادة في مجال الدراسات العربيـــة ، فكان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي تطلعت نفسه الى ترجمتها ٠

وفي هذه الاطلالة على الكتاب ، يهمنا أن نتعرف على أهم ما جاء فيه من خلال عرضنا السريع له ٠

يقول المترجم في مقدمته التي تتصدر الكتاب حول أهمية هذا النوع من التراث الشعبي : « الأمثال عند كل الشـــعوب مرآة صافية لحياتها ، تنعكس عليها عادات تلك الشعوب في رقيها وانحطاطها ، وبؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها ٠ وقد وصفها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد بأنها : وشي الكلام ، وجوهر اللفظ ، وحلي المعاني ٠٠٠ تخيرها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها في كل زمان ، وعلى كل لسان ، فهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة ، لم يسر شيء مسيرها ، ولا عم عمومها ٠ كما يقول عنها أبو الحسن بن وهب في كتابه البرهان في وجوه البيان : أما الأمثال ، فان الحكماء والعلماء والأدباء ، لم يزالوا يضربون الأمثال ، ويبينون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشباه والأمثال ، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلبا ، وأقرب مذهبا ٠٠ ولذلك جعلت القـــدماء أكثر آدابها ، وما دونته من علومها بالأمثال والقصص عن الأمم » ٠

ويقول المترجم عن مكانة الأمثال عند العرب : « بلغت العرب في ضرب الأمثال شأوا لا يدرك ، فسلكوا فيها كل مسلك ، ولم يخل كلام لهم من مثل تضاعيفه ، كما زينوا بها فنون القول وتصاريفه ، فلا عجب أن يهتم بها اللغويون العرب الذين جمعوا لنا منها قدرا كبيرا منذ فجر التأليف في العربية ، وتناولوها بالشرح والتفسير ، كما جمعوا لنا قصصها التي حدثت بالفعل ، أو حيكت حولها وبينوا لنا موردها ومضربها ، ورتبوها في ضروب مختلفة من الترتيب والتبويب » ٠

ويشير المؤلف المستشرق في المقدمة الى طبعة كتابه قائلا : « هذا الكتاب نتيجة الاشتغال باعداد نشرة محققة لكتاب (الأمثال) لأبي عبيد القاسم بن سلام ، بشرح البكري ، ولا يدعي هذا الكتاب كمالا ، لأن الحظوة التي نالتها الأمثال وتنالها عند اللغويين والأدباء ، أدت الى تأليف الكثير من الكتب فيها ، وتخصيص الفصول الكاملة في كثير من كتب الأدب » ٠

ويحتوي الكتاب على خمسة فصول ، يبحث كل منها في جانب من جوانب الموضوع ٠

يتناول الفصل الأول : الأمثال العربية وقصصها ، ويعرف المثل من خلال أقوال علماء العرب ، فقد عرفه الزمخشري بقوله : « المثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير » ٠ وقال المبرد : « المثل هو قول سائر يشبه به حال الثاني بالأول » ٠ وقال الفارابي : « المثل ما ترضاه العامة والخاصة في لفظه ومعناه » ٠ وقال ابن السكيت « المثل لفظ يخالف لفظ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ » ٠ وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : الأمثال ، وهي حكمة العرب في الجاهلية والاسلام ، وبها كانت تعارض كلامها ، فتبلغ بها ما حاولت من حاجاتها في المنطق ، بكناية غير تصريح ، مجتمع لها بذلك ثلاثخلال : ايجاز اللفظ ، واصابة المعنى ، وحسن التشبيه » ٠

وكان المؤلف حريصا على أن يضم لكتابه مجموعة من أمثالنا العربية القديمة التي يجدر بنا ذكر بعضها على سبيل المثال لا الحصر ، فمن الأمثال التي تعرض المسلمات بوضوح : (العصا من العصية) ٠ و (التمرة الى التمرة تمر) ٠ ومن الأمثال التي تتعرض لصورتين من صور المعارك : (لا يجتمع السيفان في غمد) و (عصا الجبان أطول) و (اسمع جعجعة ولا أرى طحنا) ٠ ومن الحكم التي صارت أمثالا : (السر أمانة) و (انصر أخاك ظالما أو مظلوما) و (العدة عطية) و (شر ما نال امرؤ ما لم ينل) ٠

ومعم هذه الأمثال لها مقابل حرفي في كثير من الأحيـــان في أمثال الشعوب الأوربية مما نتج عنه تشابهها ، وهذا يرجع الى تأثير الثقافات ، واختلاط الشعوب ·

وتنقسم الأمثال العربية بحسب أعمارها ـ كما أشار المؤلف ـ الى ثلاثة أقسام ، وهي الأمثال القديمة ، فالأمثال الجـــديدة أو المولدة وهي التي جمعت وأضيفت الى الأمثـــال القديمة في مجموعات الأمثـــال منـــذ القرن الرابع الهجري ، وقد جمعها الميداني في كتابه (مجمع الأمثال) · ثم الأمثال الحديثـــة ، وهي التي جمعها الأوروبيـــون وغيرهم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين من مصر وســـوريا وفلســطين وغير من الدول العربية ونشروها ·

ومن المعروف أن كل مثل عربي كان مرتبطا بقصـــة وكانت تلك القصص تروى في كتب الأمثال عند العرب ، وغالبية الأمثال المتداولة حتى اليوم كانت مرتبطة بقصص ، ولكن مع مر الزمن نسيت القصص ، وبقيت الأمثال نرددها في أحاديثنا ، ونكتبها في كتاباتنا ·

ترى متى بدأ اشتغال العرب بالتاليف في الأمثال ؟ ·

هذا ما نتعرف عليه في الفصل الثاني الذي يتعرض لتنـــاول كتب الأمثال قبل أبي عبيد ، فيرجع المؤلف الاشتغال بالتاليف في الأمثال الى أوائل عصر الخلفاء الأمويين ، ويقال عن عبيد بن شرية الجرهمي وعلاقة بن كريم الكلابي وصحار بن عياش العبدي أنهم ألفوا كتبا في الأمثال ، ويظهر ان مؤلفاتهم قد فقدت منذ عصر مبكر · وقد جمعت صحائف في الأمثال في نهاية العصر الجاهلي قبل هؤلاء الرجال الثلاثة · غير أنه لم تصل أخبار مؤكدة عن كتب الأمثال ومؤلفيها الا من القرن الثامن الى القرن التاسع الميلادي أي النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ·

ويشير المؤلف الى أقدم مؤلف لكتاب في الأمثـــال وهو المفضل الضبي الكوفي من الذين عاشوا في عهد الدولة العباسية · كما يشير الى أبي فيـــد مؤرج بن عمرو السدوسي العجلي وله كتيب في الأمثـــال ، والى غيره من البصريين الذين ضاعت كتب الأمثال التي ألفوها ·

ويتناول المؤلف حياة أبي عبيد وكتاب الأمثال الذي كتبه في الفصل الثالث من الكتاب ·· يقول عن كتابه :

« وصل الينا كتاب أبي عبيد في الأمثال ، في عدة مخطوطات ، الأمر الذي لا يعد غريبا في كتاب محبوب ومشهور كهذا الكتاب » ·

وكان أبو عبيد قد جمع في كتابه أكثر من ألف مثل ، ومائتين وعشرين بيتا من الشعر ، ومائة وثلاثين حديثا مع قصصها في بعض الأحيان ، وقسم كتابه الى أبواب في صنوف المنطق ، وفي جماع أمثال الرجال ، والأقربين ، والجود ، والمجد ، والاخاء ، والأموال ، والمعاش ، والعلم ، والمعرفة ، والجهل ، والبخل والذم ، وغير ذلك من الصفات • كما ذكر مصادر كتابه والرجال الذين روى عنهم مثل : الأصمعي ، وابن المثنى ، والمفضل الضبي وسواهم • والأمثال عنده مرتبة ترتيبا موضوعيا في تسعة عشر قسما ، مقسمة في داخلها الى أبواب مبدوءة في كل منها بالبسملة ، ويبدأ أبو عبيد دائما ـ وهو لغوي ـ بشرح المثل شرحا لغويا وافيا ، بعد أن يسبق ذلك بذكر مصادره • وانتشر كتابه في الآفاق انتشارا واسعا ـ كما ذكر المؤلف ـ فقد شغل العلماء في العالم العربي ، ولا سيما في المغرب وأسبانيا •

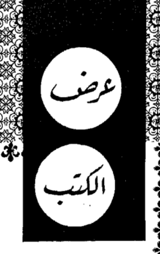
ويخصص المؤلف الفصل الرابع لشرح البكري لأمثال أبي عبيد ، فيتناول حياة البكري ، ومخطوطاته ، وأسلوب روايته للكتاب ومصادر شرحه ، وفضله في هذا الشرح •

ثم يتناول كتب الأمثال العربية القديمة بعد أبي عبيد في الفصل الأخير ، ومن بين هذه الكتب : كتاب أبي عكرمة الضبي ، وكتاب أبي محمد التوزي ، وكتاب يوسف بن السكيت ، وكتاب محمد بن حبيب ، وكتاب أبي اسحق الزيادي ، وكتاب الجاحظ •

ومعظم هذه الكتب غير موجودة الآن • أما الكتب الموجودة فمن أشهرها كتاب (جمهرة الأمثال) للعسكري ، وكتاب (مجمع الأمثال) للميداني ، وكتاب (المستقصى في أمثال العرب) للزمخشري •

تلك اطلالة على تراث الأمثال عند العرب من خلال رؤية مستشرق ألماني أحب هذا النوع من تراثنا ، فدرسه ، وتعمق فيه ، فكان هذا البحث القيم في أمثالنا العربية القديمة •

ولقد صدر الكتاب ـ وهو اضافة للمكتبة العربية في موضوعه ـ من دار الرسالة للنشر ببيروت •



الموشحات الأندلسية

بقلم الأستاذ
مصطفى كمال منصور

الكتاب : من سلسلة عالم المعرفة وهي سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت ، ويقع في ٣٢٠ صفحة من القطع المتوسط .

المؤلف : الدكتور محمد زكريا عناني الأستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة .

- وقد ولد الدكتور محمد زكريا عناني بمصر سنة ١٩٣٦ ميلادية .
- وتخرج في قسم اللغة العربية بجامعة الاسكندرية سنة ١٩٦١ ميلادية بامتياز مع مرتبة الشرف .
- تابع دراسته في جامعات الولايات المتحدة ، وفي فرنسا حيث نال درجة الدكتوراه سنة ١٩٦٨ ميلادية في النقد ، ثم دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون سنة ١٩٣٦ ميلادية بمرتبة الشرف الأولى .
- عمل بالتدريس في الجامعات والمعاهد العليا بفرنسا ومصر .
- ظهرت له أكثر من خمسين دراسة في مجالات الأدب والنقد والتحقيق .

تمهيد :

وقد بدأ الدكتور عناني كتابه بتمهيد قال فيه : لاسم الأندلس في النفوس ايقاع شجي عميق آسر ، يحمل في طياته أصداء قرون من التوهج ، ويعيد للخاطر أمجاد مدن لا تنسى : قرطبة ، غرناطة ، أشبيلية ، وذكرى أعلام خلدوا على مر الزمان ، وصفحات مفعمة بالشجن لرايات تطوى ، وحضارة تنطفيء وتغيب في ضباب الأيام .

انتهت الأندلس كأسطورة من الأساطير ، ولكن أطيافها لا تزال تهوم بين الحين والحين ، وصدى لحن قديم يسري فتهتز له النفوس ، وأسماء ومعالم لا تزول ما بقي الدهر : الحمراء ماثلة كزنبقة لا ينطفيء منها العبير أبدا ، أزجال ابن قزمان بكل ما تنبض به حيوية وعذوبة ، والموشحات : نهر جياش يتدفق بالشذى والرؤى .

ويقول المؤلف ان الموشحات قد شغلت أجيالا من العلماء في الشرق

والغرب ، ولا تزال تغري بالبحث ، وتتكشف من حين لآخر جوانب وضاءة من هذا الفن الذي اجتمعت له عناصر الأصالة والجدة ، وتمثلت فيه عبقرية الشاعر الأندلسي بكل ما فيها من غنائية وأخيلة واحساس بالحياة ٠

وقد قسم المؤلف كتابه الى أقسام ثلاثة : القسم الأول تحدث فيه عن مصادر دراسة الموشحات ، وتحديد ملامح نشأتها وتطورها وأقسامها ، ونظام الأوزان والقوافي التي سارت عليها ٠

أما القسم الثاني فيدور حول الموضوعات التي تناولها أدباء التوشيح ، وهي نفس الأغراض التي شاعت في الشعر العربي الكلاسيكي ، وان كان الوشاحون قد استطاعوا اضافة لون من الجدة في النسيج الفني للموشحة ٠

والقسم الثالث يجد فيه القارىء لمحات عن أكثر من مائة وشاح أندلسي ، لا يظن المؤلف أنهم ذكروا جميعا من قبل في كتاب واحد ، وقد استطاع أن يتلقط أخبارهم من مصادر شتى ٠

وفي نهاية المطاف يضيف الدكتور عناني ملحقا يضم منتخبات تمثل الموشحات في عصورها وألوانها المختلفة ٠

الموشحات الأندلسية
بين النشأة والتطور

في القسم الأول من هذا الكتاب يتناول الدكتور عناني نشأة الموشحات الأندلسية وتطورها وأقسامها ولغتها ، ويبدأ هذا القسم بالحديث عن مصادر دراسة الموشحات ٠

١ ـ مصادر الدراسة :

قسم المؤلف هذه المصادر الى مجموعتين : مغربية ومشرقية ، أما المصادر المغربية وتتضمن الأندلسية بطبيعة الحال فانها تمدنا أساسا بقدر وفير من النصوص ، ولكنها لا تتضمن الا معلومات ضئيلة عن البناء الفني للموشحات ، فكتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة) لا يذكر عن هذا الفن الا عبارات متناثرة ، ونص مؤلفه ابن بسام على أنه لن يتعرض لها في كتابه لأن أوزانها خارجة عن غرض الديوان ٠

أما عبد الواحد المراكشي صاحب (المعجب في تلخيص أخبار المغرب) فانه يعتذر عن عدم ذكر الموشحات لأن العادة لم تجر بايرادها في الكتب المخلدة ٠

ومن الذين ذكروا الموشحات من مؤرخي الأندلس والمغرب ابن دحية صاحب (المطرب من أشعار المغرب) ، ولكن هذا الفن لا يحتل الا منزلة ثانوية في كتابه ٠

وابن سعيد المغربي على الرغم من أنه اهتم بالموشحات في كتابه (المغرب في حلى المغرب) ، فانه لم يتناول الجوانب الفنية ، أو يسعى لابراز صورة جلية عن الموشحات ٠

والمقري في كتابه (نفح الطيب) و (أزهار الرياض) يكتفي بتقديم طائفة من النصوص المختارة من موشحات أهل الأندلس والمغرب ومن نسج على منوالهم من الشعراء المشارقة ٠

أما كتاب جيش التوشيح للسان الدين بن الخطيب فلا يضم سوى مختارات من الموشحات ٠

وهناك أيضا لابن بشرى الغرناطي كتاب عنوانه (عدة الجليس ومؤانسة الوزير والرئيس) ، اشتمل على أكثر من ثلاثمائة موشحة ولكنه لم يتضمن مقدمة ذات شأن في هذا الفن ٠

وينتقل الدكتور عناني بعد ذلك من المصادر المغربية الى المصادر المشرقية فيقول ان أهمها كتاب دار الطراز ، وهو كتاب صغير يقع في نحو مائة وخمس بن‌صفحة ، ويضم أربعا وثلاثين موشحة أندلسية ومغربية أردفها مؤلفة ابن سناء الملك بخمس وثلاثين موشحة ٠ من نظمه هو٠

ومن بين هذه المصادر المشرقية التي ذكرها المؤلف كتاب المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي ، والدر المكنون لابن اياس ، وخلاصة الأثر للمحبي ، وما يوجد في كتب التراجم مثل معجم الأدباء لياقوت الحموي ، والوافي بالوفيات للصفدي والمنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي ، وكل ما ذكر في هذه الكتب ملحوظات عن هذا الفن ٠

وهناك كتاب للصفدي عنوانه توشيح التوشيح يتضمن عددا من موشحات المغاربة وأهل الأندلس ، وموشحات شعراء مشارقة ، وفيه قدر وفير من موشحات الصفدي نفسه ٠

ومن الكتب التي لاتزال مخطوطة كتاب عقود اللآليء في الموشحات والأزجال لشمس الدين النواجي ، وكتاب سجع الورق المنتحبة في جمع الموشحات المنتخبة ٠

نشأة الموشحات :

الآراء حول نشأة الموشحات أكثر من أن تحصى ، وطالما تناولتها ولا تزال تتناولها الأقلام ، وهل بدأت هذه النشأة في المشرق أو في المغرب ، ويثور الجدل في الغالب كما يقول الدكتور عناني حول النص الشهير :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

فهذه الموشحة نسبت في بعض الأحايين لعبد الله بن المعتز وهو شاعر مشرقي ، لا علاقة له بالأندلس من قريب ولا من بعيد ٠

ولكن هذا النص نفسه ينسب في العديد من المصادر للوشاح الأندلسي أبي بكر بن زهر المعروف بالحفيد ٠

ولكن ليس معنى هذا الجدل واختلاف الآراء وتضاربها أن الموشحات ظاهرة مستقلة لا علاقة لها بالشعر العربي ، فمؤلفو الموشحات هم أولا وأخيرا شعراء عرب ، وهذه حقيقة لم ينكرها حتى المستشرقون المنـــادون بأن في الموشحات عناصر أسبانية محلية ٠

وقد اشتقت كلمة الموشح على الأرجح من المعنى العام للتزيين سواء كان ذلك وشاحا أم قلادة مرصعة ، أم غير ذلك ٠ كما استعملت الكلمة في أحايين كثيرة للتعبير عن بعض المعاني البلاغية ٠ ثم يستطرد الدكتور عناني قائلا : لكن الذي يعنينا هنا منها دلالتها على قالب من قوالب الشعر العربي ، عرف على مدى الأيام باسم الموشحات أو التوشيح أو الموشح ، وعرف الناظم فيه باسم الوشاح ٠ وان لم يؤثر عن واحد ممن برعوا في الموشـــحات أنه اقتصر على النظم فيها وحدها ، بل المعروف أن شـــعراء الأندلس كانوا يقرضون الشعر وينظمون الموشحات ٠

وفي كتاب الذخيرة أن أول ما صنع أوزان هذه الموشـــحات واخترع طريقها ــ فيما بلغني ــ محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار على الأعاريض المهملة غير المستعملة ٠

تركيب الموشحة :

ويتابع الدكتور عناني هذه الدراســـة الجادة المضنية للموشـــحات الأندلسية ، والتي أعتقد أن أحدا لم يسبقه اليها بهذه التفاصيل الدقيقة ، وذلك الوعي الأدبي المتفتح ، يتابع هذه الدراســـة بالحديث عن تركيب الموشحة فيقول : ونحن نتحدث عن الموشحات سنمر بعدد من المصطلحات ، ومن الأفضل أن نتبين معالم هذه المصطلحات من خلال التطبيق على واحد من النصوص الشهيرة ، وليكن هذا النص موشحة للأعمى التطيلي ، وهو نص من أجمل ما وصل الينا من موشحات الأندلس ، وهو أول الموشحات المذكورة

في كتاب دار الطراز ، وجعله مثالا للموشح التام ٠ وهذا هو نص الموشح :

ضاحك عن جمـــان   سـافر عـن بـــدر
ضـاق عنــه الزمــان   وحــواه صـــدري

★★★

آه مـمــا أجـــد   شـــفني مـــا أجـــد

★★★

قـــام بـي وقـــعد   باطـــش مســـتبد
كلمـــا قــلت قــد   قــال لي أين قــمــد

★★★

وانثنى خــوط بــان   ذا مهـــر نفـــر
عابثتـــه يـــدان   للصـــبا والقطـــر

★★★

ليس لك منـــك بـــد   خـــذ فــؤادي عن يـــد
لم تدع لي جـــلد   غـــير أني أجهـــد
مـكرع مــن شـــهد   واشـــتياقي يشـــهد

★★★

مـــا لبنت الدنـــان   ولـــذاك الثـــغر
أين محيـــا الزمـــان   من حميـــا الخمـــر

★★★

بي هـــوى مضـــمر   ليت جهـدي وفقـــه
كلمــــا يظـــهر   ففــؤادي أفقـــه
ذلـــك المنـــظر   لا يــداوي عشـــقه

★★★

بأبـــي كيـــف كان   فلـــكي دري
راق حـــتى استبان   عـــذره وعـــذري

★★★

هـــل اليـــك سـبيل   أو الى أن أياســـا
ذبت الا قليـــل   عـــبرة أه نفســا
مـــا عسى أن أقـــول   ســـاء ظـــني بعسى

★★★

وانقـــضى كل شـــان   وأنـــا أســـتشري

خالعـــا من عنـــان جـــزعي وصـــبري

★★★

مـا على من يلـــوم لـــو تنـــاهى عـــني
هـــل ســـوى حب ريم دينـــــه التجـــني
أنـا فيـــه أهـــيم وهـــو بي يفـــني

★★★

قد رأيتـــك عيـــان ليس عليـــك ما تـــدري
سا يطـــول الزمـــان وســـتنسى ذكـــري

★★★

واذا طبقنا المصطلحات التي استعملها ابن سناء الملك في مقدمة كتابه (دار الطراز) قلنا أن هذه الموشحة مما يطلق عليه اسم الموشح التـام . ونص قوله أي ابن سناء الملك : الموشح كلام منظوم على وزن مخصوص ، وهو يتألف في الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ويقال له التام ، وفي الأقل من خمسة أقفال وخمسة أبيات ويقال له الأقرع ، فالتام ما ابتدىء بالأقفال والأقرع ما ابتدىء فيه بالأبيات .

ويشرح الدكتور عناني في أناة ودقة ما ذهب اليه ابن سنـاء الملك حتى يسهل على القارىء فهم الأقفال والأبيات فيقول : ووفقا لهذا الحكم يكون مطلع الموشحة :

ضاحـــك عن جمـــان ســـافر عن بـــدر
ضـــاق عنـــه الزمان وحـــواه صـــــدري

وهذا المطلع هو القفل الأول من أقفال الموشحة ، ويعود الى ابن سناء الملك فيقول انه عرف الأقفال بأنها « أجزاء مؤلفة ، يلزم أن يكون كل قفل منها متفقا مع بقيتها في وزنها وقوافيها وعدد أجزائها » . والقفل كما تقدم يتردد في الموشح ست مرات في التام ، وخمس مرات في الأقرع . والقفل في موشحة الأعمى التطيلي السابقة يتركب من أربعة أجزاء بنيت على قافيتين .

ويأتي بعد ذلك البيت ، والبيت في الموشحة غير معناه في القصيدة التي ياتي فيها البيت مكونا من شطرتين .
والبيت الأول في موشحة الأعمى التطيلي هو :

آه ممـــا أجـــد شـــفني مـــا أجـــد

قـام بـي وقعـد باطش مستبد
كلمـا قـلت قـد قال لي أين قـد

وعرف ابن سناء الملك الأبيات بقوله أنها أجزاء مؤلفة مفردة او مركبة ، يلزم كل بيت منها أن يكون متفقا مع بقية أبيات الموشح في وزنها وعدد أجزائها لا في قوافيها ، بل يحسن أن تكون قوافي كل بيت منها مخالفة لقوافي البيت الآخر ، والبيت السابق يتركب من ثلاثة أجزاء مركبة ، أي أن كل جزء يضم فقرتين ٠

وقد لا يبدأ الموشح في بعض الأحايين بالقفل بل بالبيت مباشرة ، وفي هذه الحالة يطلق على الموشح اسم الأقرع ٠

وآخر هذه المصطلحات في تركيب الموشحة هو « الخرجة » كما جاء في مقدمة كتاب دار الطراز ٠ والخرجة هي القفل الأخير من الموشحة ٠ غير أن هناك بعض المصطلحات ترددت في بعض المصادر الأخرى الهامة ، ومن هذه المصطلحات « المركز » و « الأغصان » و « الأسماط » ، ويرجح الدكتور عناني أن المقصود بالمركز هو القفل ، أما الأسماط فليس ببعيد أن يكون المراد منها أجزاء الأقفال ، وأما الأغصان فيرجح أن تؤدي معنى أجزاء الأبيات ٠

أوزان الموشحات :

ويتحدث بعد ذلك المؤلف عن أوزان الموشحات فيقول ان ابن سناء الملك قسم الموشحات في كتابه دار الطراز الى قسمين :

الأول : ما بني على أشعار العرب ٠

والثاني : ما لا علاقة له بهذه الأوزان ٠

وقال ان ما بني على أشعار العرب من الموشحات ينقسم بدوره الى قسمين :

الأول : وليس فيه من حيث الوزن أي اختلاف عن الشعر العادي ، وأنه بالمخمسات أشبه منه بالموشحات ، ولا يفعله الا الضعفاء من الشعراء ، ولكنه استثنى من الذم ما كانت قوافي القفل فيه مختلفة مثل :

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم

فالجزء الأول من هذا القفل على قافية الدال ، أما الثاني فعلى قافية الميم ، والجزءان معا من بحر المديد بدون أي تغيير ، ومثل موشحة :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

أما القسم الثاني من هذا النوع فهو ما تخللت أقفاله وأبياته كلمة أو حركة ملتزمة كسرة كانت أو ضمة أو فتحة ، تخرجه عن أن يكون شعرا صرفا وقريضا محضا ، وضرب ابن سناء الملك مثلا لذلك قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العـــاني

ولم أقل للمطيل هجراني معذبي كفاني

فلولا الزيادة التي تتمثل في كلمتي « معذبي كفاني » لكنا أمام نص من بحر المنسرح ٠

وقد يحدث التغيير عن طريق ادخال قافية أخرى مثل :

يـــا ويح صـــب الى البرق لـــه نظـــر

وفي البـكاء مع الـــورق لـــه وطـــر

فهذه الفقرة يمكن أن تعطينا بيتا عاديا كما في الشعر التقليـــدي لو أنها جعلت :

يا ويح صب الى البرق له نظر وفي البكاء مع الورق له وطر

وبذلك يصبح من بحر البسيط ٠

لغة الموشحات :

وانتقل الدكتور عناني بعد ذلك الى لغة الموشحات ، فقال ان لغـــة الموشح تعد في مجموعها لغة صحيحة تتفق وقواعد اللغة العربية ، وتتسم بالرقة والعذوبة والصفاء ، حتى يمكن قراءة مجموعة كاملة منها دون أن نصادف فيها لفظة تستعصى علينا ، أو تركيبا فيه لون من الوان التعقيد ٠

وصنيع الوشاحين الأندلسيين يأتي امتدادا لما سار عليه الشـعراء المحدثون من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وابن المعتز ، واذا كان من الشعراء العباسيين من حرص في مدائحه على الديبـــاجة القديمة والجزالة العربية ، فان الموشحات بحكم قالبها الجديد وموضوعاتها ، وغنائيتها كانت في غنى عن الديباجة الفاخرة ، والأساليب التي تتسم بطابع البداوة ٠

ويذهب الدكتور عناني الى القول بأن لغة الموشـــحات في شفافيتها وتدفقها وأسرها ساعدت على تدعيم مكانة الفصحى ، لأنها أشاعت هـذه اللغة الجميلة بين الناس ، ومن ثم حالت دون سيطرة العامية ، وجعلت للزجل مكانة ثانوية في الأدب ٠

أغراض الموشحات

فاذا تركنا القسم الأول من هـــذا الكتاب القيم الذي تحدث فيه الدكتور عناني عن نشأة الموشحات وتطورها ، ولعله أهم قسم في مؤلفـه

لأنه دراسة تحليلية مستفيضة تتميز بقدرة الأديب والنـــاقد والباحث المتمكن الذي لا يترك صغيرة أو كبيرة الا وتحدث عنها وحللها في صبر وأناة .. نقول اذا تركنا هذا القسم الأول وانتقلنا مع المؤلف الى القسم الثاني وهو أغراض الموشحات ، نجد أنه يذكر أن الموشحات قد تناولت عدة أغراض هي : الغزل والخمريات والوصف والمديح والرثاء ، ثم الموشحات الدينية والصوفية .

ويأتي الدكتور عناني لكل غرض من هذه الأغراض بأمثلة عديدة من الموشحات ، ويبدأ هذه الأغراض بالغزل فيقول ان الموشحات الغزلية تحتل المكانة الأولى من حيث الكثرة العددية ، وأن الجانب الأعظم من هذه الموشحات الغزلية لا يعكس لنا صدقا عاطفيا ، ولا نحس فيه بلوعة المشاعر وعمق الأحاسيس ، ولكن الوشاحين استطاعوا في أحايين كثيرة التغلب على هذا الضعف عن طريق اصـطناع الألفاظ الرقيقة ، والصـور الشعرية الآسرة ، والموسيقى المتدفقة الموحية . ومن أمثلة هذه الموشحات موشحة عبادة بن ماء السماء التي يقول فيها :

من ولي   في أمة أمرا ولم يعـــدل
يعـــزل   الا لحاظ الرشا الأكحل

وموشحة أبي بكر بن زهر التي يقول فيها :

حي الوجـــوه المـــلاحا   وحي بخـــل العـــيون

★★★

هل في الهوى من جناح
أو في نـــــديم وراح
رام النصـــيح صــلاحي
وكيف أرجـو صــلاحا   بين الهـوى والمجـــون
أبكى العيون البـــواكي
تذكار أخـــت الســماك
حـــتى حمـــام الأراك

بـكى شـــجوني ونـاحـا   عـلى فـروع الغصـــون

أما الغرض الثاني وهو الوصف فيشكل بصورة عامة عنصرا أساسيا من عناصر الموشحة الأندلسية ، وهو يأتي فيها ممتزجا بالغزل والحديث عن الخمر . ولعل من أجمل الموشحات في وصف الطبيعة موشـــحة أبي جعفر ابن ســـعيد :

ذهبت شمس الأصيل فضة النهر
أي نهر كالمدامه
صير الظل فدامه
نسجته الريح لامه
وثنت للغصن لامه
فهو كالعضب الصقيل حف بالسمر

والغرض الثالث هو الخمريات ، وهذا الغرض كثير الشيوع في الموشحات ، وبخاصة ما دار منها حول موضوعات الحب والوصف ، مثل موشحة ابن بقي :

أدر لنا أكواب ينسى بها الوجد
واستحضر الجلاس كما اقتضى الود

ويأتي بعد ذلك المديح فيقول : الدكتور مصطفى عوض الكريم في كتابه فن التوشيح : كانت الموشحات في أول الأمر وقفا على الغناء ، فكانت تعالج موضوعات الغزل والخمريات ووصف الطبيعة ، ثم مالبثت أن صارت مطية ذلولا للأمداح ، حينما استغلها الوشاحون للوصول الى عطايا الملوك والأمراء وهباتهم . ومن أمثلة موشحات المديح موشحة الوزير أبي عامر بن ينق ، وأولها :

سراج عدلك يزهر قد عم كل العباد
ونور وجهك يبهر سناه للخلق باد

★★★

أنت العزيز الأبي والملك ملك الأنام
أنت السراج الوضي والبدر بدر التمام
ليث اذا ما الكمي قد هاب روع الحمام

أما الغرض الخامس وهو الرثاء فلم يؤثر عن الوشاحين الأندلسيين أنهم كرسوا للمراثي عناية تستحق الذكر ، ولم تشتمل المجموعات المعروفة على موشحات ما في موضوع الرثاء ، ولكن كتاب « المغرب في حلى المغرب » يمدنا بموشحة لابن حزمون قالها في رثاء أبي الحملات قائد الأعنة ببلنسية وقد قتله النصارى ، يقول ابن حزمون :

يا عين بكى السراج الأزهرا النيرا اللامع
وكان نعم الرتاج فكسرا كي تنثرا مدامع

ويختمها بالخرجة قائلا :

يا قلبي المهتاج تصبرا — زان الثرى مدافع
ابن أبي الحجاج فهل ترى — لما جرى مدافع

وفي نهاية هذه الأغراض تأتي الموشحات الدينية والصوفية ، ويقول الدكتور عناني اننا لا نعرف متى بدأ النظم في هـذا اللون من ألوان الموشحات ، وأقدم ماهنالك منها ما ينسب لابن عربي ، وهناك وشاح يدعى ابن الصباغ الجذامي خلف عددا من هذه الموشحات ، منها موشحة في المديح النبوي يقول فيها :

لأحمد بهجة كالقمر الزاهر — في أبرج السعد
علاؤها يسبي بنوره الباهر — كل سنا مجد

ويتضمن ديوان ابن عربي عددا كبيرا من الموشحات التي تسبح في الرموز الصوفية من قبيل الموشحة التي تبدأ بقوله :

تدرع لاهوتي بناسوتي — وحصل موسى اليم تابوتي

ومن هذه الموشحات واحدة جاءت على نسق موشحة ابن زهر « أيها الساقي اليك المشتكى » يقول ابن عربي في هذه الموشحة :

عندما لاح لعيني المتكا — ذبت شوقا للذي كان معي
أيها البيت العتيق المشرف
جاءك العبد الضعيف المسرف
عينه بالدمع شوقا تذرف
غربة منه وسكر فالبكا — ليس محمودا اذا لم ينفع

وشاحو الأندلس والمغرب

واذا انتقلنا من القسم الثاني الى القسم الثالث من كتاب الموشحات الأندلسية نجد أن الدكتور عناني قد أفرده لوشاحي الأندلس والمغرب ، فتحدث عن الجيل الأول الذي ظهر في طور النشأة ، أولهم محمد بن حمود القبري الضرير ، ثم مقدم بن معافي القبري وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد .

ثم يأتي بعد ذلك الجيل الثاني من الوشاحين ، ومنهم يوسف بن هارون الرمادي وعبادة بن ماء السماء وابن عبادة القزاز وأم الكرم بنت المعتصم وهي أول شاعرة أندلسية يذكر أنه كان لها اسهام في تأليف الموشحات .

أما عبادة بن ماء السماء فيقول عنه ابن بسام في كتابه الذخيرة في

محاسن أهـــل الجزيرة : انه كان في ذلك العصر شـــيخ الصناعة وامام الجماعة ، سلك في الشعر مسلكا سهلا ، فقالت له غرائبه مرحبا وأهلا ، وكانت صنعة التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتها غير مرموقة البرود ، ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوم ميلها وسنادها فكأنها لم تسمع بالاندلس الا منه ، ولا أخذت الا عنه ·

وأما ابن عبادة القزاز فيقول عنه ابن بسام : أنه من مشاهير الأدباء الشعراء ، وأكثر ما ذكر اسمه وحفظ نظمه في أوزان الموشحات ، وهو ممن نسج على منوال ذلك الطراز ، ورقم ديباجه ورصع تاجه ، فأما ألفاظه في التوشيح فشاهدة له بالتبريز والشفوف ·

وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول : كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز في ما اتفق له من قوله :

بدر تم شمس ضـــحى
غصـــن نقا مسك شـــم
مـــا أتـــم مـــا أوضحا
مـــا اورقـــا مـــا أنـــم
لا جـــرم من لمحـــــا
قد عشـــقا قـــد حـــرم

وتأتي بعد ذلك فترة النضج والازدهار فتضم مجموعة من أشـــهر الشعراء الوشاحين في الأندلس وقد رتبهم المؤلف على النسق التالي :

- ابن عمار « ذو الوزارتين ، أبو بـــكر بن محمد المهـــدي الأندلسي الشلبي » ويعده الصـــفدي في كتابه توشيح التوشـــيح من بين كبار وشاحي الأندلس ·
- ابن زيدون الوزير الشاعر الكاتب ، صاحب الرسالتين الهزلية والجدية ، والقصائد الوجدانية ذات الشهرة المدوية ·
- ابن رافع رأسه (أبو بكر محمد) ·
- ابن اللبانه (محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر اللخمي) ·
- ابن لبون (أبو عيسى ، لبون) ·
- ابن الزقاق (أبو الحسن علي بن ابراهيم بن عطية) ·
- ابن جاخ (الصباغ البطليوسي) ·
- ابن الأرقم (أبو الأصبغ عبد العزيز بن محمد النميري) ·
- ابن الفرج (ذو الوزارتين أبو عامر) ·

- المصري (أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الضرير) ٠
- الأعمى التطيلي (أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي) ٠
- الأبيض (أبو بكر محمد بن أحمد الأنصاري الأشبيلي) ٠
- ابن رحيم (ذو الوزارتين ، المشرف ، أبو بكر محمد بن أحمد) ٠
- ابن ماجه (أبو بكر محمد بن الحسين)
- ابن بقي (أبو بكر يحيى بن عبد الرحمن) ٠
- المرسي الخباز (أبو الوليد يونس بن عيسى) ٠
- ابن ينق (أبو عامر محمد بن يحيى بن محمد بن خليفة الطبيب الوزير) ٠
- ابن سعيد (أبو جعفر أحمد بن عبد الملك) ٠
- ابن قزمان (أبو بكر محمد بن عيسى بن عبد الملك بن عيسى الأصغر)
- مدغليس (عبد الله بن الحاج) ٠
- ابن مسلمه القرطبي (أبو الحسين) ٠
- ابن الصيرفي (أبو بكر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري) ٠
- عصا الأعمى (أبو القاسم بن أبي طالب الحضرمي المنيشي) ٠
- اليكي (أبو بكر يحيى بن سهل) ٠
- ابن مهلهل (أبو الحسن علي الجيلاني) ٠
- الادريسي (محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس) ٠
- اليشربي (محمد بن محمد القرطبي) ٠
- ابن الزيتوني (علي) ٠
- ابن الهازي (ابراهيم) ٠
- المرسي (أبو بكر) ٠
- ابن حمديس
- ابن شرف (أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل) ٠
- السرقسطي الجزار (أبو بكر يحيى) ٠
- ابن مالك السرقسطي (أبو بكر أحمد الانصاري) ٠
- نزهون (بنت الوزير القليعي) ٠
- ابن مؤهل ٠
- ابن خلف (الجزائري) ٠
- ابن خرز البجائي ٠
- ابن هردوس (أبو الحكم أحمد) ٠

- ابن الفرس (عبد الرحيم الغرناطي) ٠
- ابن حبيب (القصري الفيلسوف) ٠
- ابن حزمون (أبو الحسن علي)
- المنتاني (أبو العباس أحمد) ٠
- ابن زهر الحفيد (أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن مروان الاشبيلي) ٠

وهذا العدد الضخم من الوشاحين الذين ذكرهم الدكتور عناني في فترة النضج والازدهار يعد دليلا على انتشار الموشحات وازدهارها ازدهارا كبيرا في تلك الفترة ٠ ولقد كان الدكتور عناني وهو يذكر هؤلاء الوشاحين حريصا أشد الحرص على أن يعطي القارىء نبذة كاملة عنهم ويقدم أمثلة كثيرة من موشحاتهم لتكون بين كل من يريد أن يعرف أو يدرس هذا اللون من الأدب ، ولعل أبدع موشحة وأرقها لهؤلاء الوشاحين هي موشحة ابن زهر الحفيد التي جاءت مزيجا من الموسيقى والصور الموحية والتعبيرات البسيطة الشفيفة والاقتراب من أخيلة الشعب ، والتي يبدأها :

كل له هـواك يطيب   أنا وعاذلي والرقيب

وهي موشحة تدور حول الحب ، وفي نهايتها :

لم يدر عاذلي ورقيبي

أن الهوى أخف ذنوبي

وأنت يا عذاب القلوب

كم تشتكي اليك القلوب   وأنت معرض لا تجيب

قالت علي أنت ملول

فقلت : ودك المستحيل

فأنشد النصوح يقول

من خان حبيبه حسيب   الله يعاقبه ويثيب

وينتقل الدكتور عناني بعد ذلك الى وشاحي القرن السابع الهجري فيذكر منهم ما يقرب من أربعة وعشرين وشاحا ، ويسلك في الحديث عنهم ما سلكه في الحديث عن وشاحي فترة النضج والازدهار ٠

ثم ينتقل بعد ذلك الى وشاحي القرنين الثامن والتاسع الهجريين فيذكر منهم ما يقرب من ثلاثة عشر وشاحا ويسلك معهم المسلك نفسه ، ثم ينتقل الى بعض وشاحي المغرب في العصور المتأخرة والى وشاحين تعذر تحديد العصر الذي عاشوا فيه فيذكر من هؤلاء وهؤلاء عددا كبيرا بالمنهج الذي التزمه وسار عليه نفسه ٠

ويختتم الدكتور محمد زكريا عناني هذا المؤلف القيم بل المرجع الحافل في الموشحات الأندلسية بملاحق يضمنها نماذج من الموشحات ونصوصا تتعلق بالموشحات وتاريخها ، واهم المصادر والمراجع التي استعان بها على هـــذا الجهد الشاق المضني الذي يستحق عليه كل تقدير واعزاز ٠

ولعل اجمل ما نختتم به هذا العرض لذلك الكتاب الدسم أن نختار احدى الموشحات وهي لابن عيسى المرسي الخباز في النصف الأول من القرن السادس الهجري :

★★★

من لـــي بظبي ربيب   يصيد أسد الغيـــاض
لوى بديـــــني لمـــا   أملتـــــه للتقـــاضي
جمـــلت حظي منـــه   بين الرجـــا والتمني
بل قلت يا قلب صنه   لديـــك من سوء ظني
وأنت يا نفسي ذوبي   ويا مطيـــــل اعتراضي
نفـــذ بما شئت حـــكما   اني بحـــكمك راضي

★★★

ما حال قـــلب لديـــك   لا تنقضي حسراتـــه
يشـــكو جواه اليـــك   وليس تجـــدي شكاته
مهـــــلا ففي راحتيك   حيـــاته ٠٠ ومماتـــه

★★★

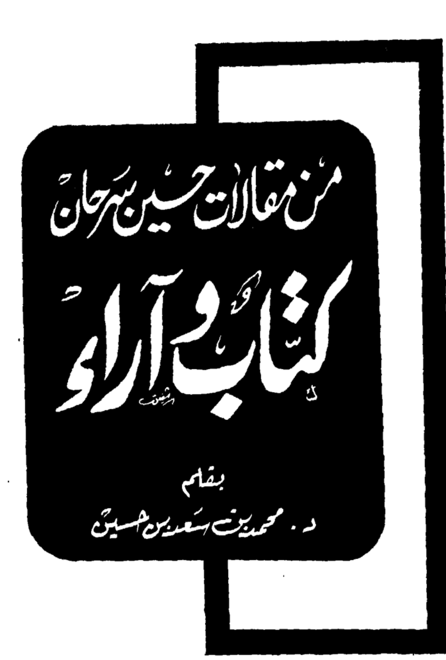
يا ممرضـــي وطبيبي   بقيـــك بـــرء المراض
ومنك قد ذبت ســـقما   فلتقض ما أنت قاض

★★★

يا من ينافر ظلمـــــا   من ليس عنه بصـــابر
ما ضر اذ ذبت سقما   لو لم تكن لي هـــاجر
رفقا فبي منـــك ألمي   وسنان ساجي النـــواظر

★★★

رام بســـهم مصيب   من الصـــحاح المراض
يرنو فيرســـل ســـهما   والقـــلب في الاعتراض


من مقالات حسين سرحان
كتاب وآراء
بقلم
د. محمد بن سعد بن حسين

هذا هو عنوان الكتاب الذي أصدره النادي الأدبي بالرياض من سلسلة كتاب الشهر فهو العدد الثالث عشر من هذه السلسلة وصدر في محرم ١٤٠٠هـ ـ نوفمبر/ديسمبر ١٩٧٩م وطبع في مطابع الفرزدق بالرياض ويقع في ٢١٦ صفحة من القطع المتوسط • وهو مجموعة مقالات للأستاذ حسين سرحان نشرها في الصحف المحلية فقام الأستاذ يحيى ساعاتي بجمعها من مظانها حتى كون منها هذا السفر •

ويحيى ساعاتي من شبابنا النشط الذي اقبل على العلم ووقف نفسه في خدمته حتى أن تخصصه كان في المكتبات ، وقد ولد في عام ١٣٦٦ ونال الليسانس من كلية الآداب بجامعة الرياض سنة ١٣٨٩هـ• ثم حصل على الماجستير في المكتبات سنة ١٣٩٦ هـ •• وله مجهودات طيبة في مجال المكتبات وتصنيف الكتب وله في ذلك كتابات •

والأستاذ حسين سرحان هو أحد رجال الطليعة في بلادنا ورائد من رواد الفكر في الكتابة والشعر وقد ولد بمكة المكرمة سنة ١٣٣٢ هـ وتلقى علومه بمدرسة الفلاح وتقلب في أعمال حكومية كثيرة وقد صدر له ديوانان اولهما (أجنحة بلا ريش) وثانيهما (الطائر الغريب) أصدره النادي الأدبي بالطائف • وهو ممن ترجم له : وحي الصحراء ، وشعراء الحجاز ، والموسوعة الأدبية ، وشعراء جزيرة العرب في العصر الحديث وغيرها ، وهو من الشعراء المجيدين عرف بأصالة فنه لغة وأسلوبا •

أما مقالاته التي نحن بصدد عرضها فانها خمس وخمسون مقالة •

وأولاها نقلت من « أم القرى » الجمعة ٢١ ربيع أول ١٣٤٩ هـ ، ١٩٣٠م ، وأخراها عن مجلة العرب جمادى الآخرة سنة ١٣٨٨هـ ولكون هذا الكتاب مجموعة مقالات فقد تطول وقفتنا معه فيها •

فأما المقال الأول فكان عن اثنين من المعمرين الذين أدركهم الشاعر في مكة وليس في حديثه عنهما ما يختلف عن صيغ الأخبار المجردة وكان في امكان كاتبنا أن يطلق لقلمه العنان في التحليل النفسي لعادات وتقاليد هذين الرجلين وبخاصة أنه أدركهما وتحدث اليهما • أما المقال الثاني فمن الأسماء المستعارة والذي يدعو له الاستاذ فيها أن يطرح الأدباء تلك الأسماء المستعارة التي تسترهم عن قرائهم وأن يصرحوا بأسمائهم لأن الأمة الناشئة في ميدان الفكر ـ كما يقول حسين سرحان في هذا المقال ـ « يحتاج جمهورها

الى التعرف على أدباء أمته » وأذكر أني قرأت قصيدة نظمها صاحبها في مطلع النصف الثامن من هذا القرن في وصف « العرضة النجدية » وهي قصيدة رائعة غير أن صاحبها لم يصرح باسمه وانما رمز لنفسه « بالفتى النجدي » وهو أستاذنا حسين سرحان ولقد استخدم الرمز في أكثر من موضع فلعله كان يرى ترك الرمز في مطلع حياته ثم أحس بضرورة ذلك أو الاحتياج اليه فاستعمله ٠

ولا نريد أن نغادر المقالات الأولى لحسين سرحان دون أن نسمعك طرفا من احداها لتتبين أسلوبه في أول عهده بالكتابة كما توضح لك طرق تفكيره واتجاه آراءه ! ففي ثالث مقال في هذه المجموعة نقل عن صوت الحجاز « الثلاثاء ٤ صفر ١٣٥٤ هـ » تحدث الكاتب عن جريدة صوت الحجاز في عهدها الجديد وانك لتحس غيرته على الأدب وحرصه على سمعة الأدباء واقباله على ما تنتجه أقلام الكاتبتين وحرصه على أن تمثل الصحف كتابها ، تمثيلا صادقا ، انك لتحس ذلك كله تنطق به كلماته وتوحي به عباراته وان كان لايزال اذ ذاك كاتبا ناشئا ٠ خذ مثلا قوله في صدر هذا المقال ص ١٤« الآن صدرت (صوت الحجاز) منفصلة تمام الانفصال عما مضى لها من عهد غابر فحقيق بالشباب المثقف أن يقابلها بالترحاب ويمد اليها يد المؤازرة والتشجيع ذلك لأنها في موقفها الحاضر تدعو الى الرزانة في التفكير وتحض على التسامي بالآداب في وقت واحد وما أحب الينا ــ نحن القراء ــ من أن يفكر أدباؤنا ويعملوا في اخلاص للأدب وحرية في الرأي فنتذوق من أدبهم الحسي شهدا مشتارا يفيدنا نحن ويرفعهم الى درجة الخلود » ٠

ثم يختتم مقاله هذا بقوله في ص ١٧ « والجريدة لا تؤدي رسالتها وتجلو صدأ الأذهان الا اذا حافظت على مبدئها وتحررت من الشوائب واختطت سبيلها في رزانة وتعقل واستقامة ولم تقف موقف الطفل الغرير كل من جاء لعب به واستهواه ٠ والآن وقد دخلت « صوت الحجاز » في طور جديد طور التقدم فعلى محرريها الأفاضل أن يعتنوا بالدقة فيما ينشرون ويحرصوا على الاجادة فيما يختارون فهاتان المزيتان بلاريب مما يكفل للجريدة رفعة مكانتها ويحببها الى قرائها ويقيل من عثارها ويوسع من دائرة شهرتها ٠

وليعمل كل أديب في نشاط واخلاص تاركا لزملائه الأدباء سبلهم وآراءهم والانسان موفق مجدود ما استمر على منهاج قويم » ٠

فانت ترى أسلوبه سهلا هادئا ، وأفكاره هادفة تنضح بالصدق ، وكلماته سهلة ميسرة لا تحتاج الى عناء ٠

وقد تلوح البساطة على لغته وأسلوبه في مقالاته الأولى وهذا ليس بعيب فكل ناشيء يكون كذلك ، بل ان ما قدمه في مقالاته الأولى يدل على ثقافة واسعة وحصيلة لغوية جيدة واصالة ونزاهة في الفكر واللفظ والموضوع ٠ وذلك اذا قيس بأترابه ٠٠ واذا أردت أن تعرف كيف يتطور أسلوب حسين سرحان ويرتقي وكيف يهذب مناهجه وأفكاره فتقرأ فيه كاتبا غير ما قرأت في المقالة الأولى فاقرأ كلمته « كيف أتمنى أن أرى ابن آدم » ص ٤٤ وهي عن « البلاد السعودية » سنة ١٣٦٥ هـ ويخيل لي أن الأستاذ حسين سرحان في هذا المقال يحكي صورة من صور طفولته جعلتها الحقيقة والمهارة في التحليل النفسي العميق رائعة من روائع أديبنا ، وما روائعه بالقليل ٠

ولعلك تريد أن تسمع أو تقرأ شيئا من روائع حسين سرحان بعد ما اشتد واستوى على سوقه واني لمختار لك هذا النموذج الذي يكشف فيه عن شيء من خلاله ويحمل فيه أيضا على أدعياء الأدب الذين يظنون أنهم دخلوا عالم الأدب والأدباء بطباعة ديوان أو نحوه وقد لا يكون هذا المطبوع مستحقا للقراءة ٠٠ يقول الاستاذ « حسين سرحان » تحت عنوان « النثر والشعر وأشياء أخرى » : « للأدب وقدة تلذع العقل ، فتخل بتوازنه أو تكاد ، ولا سيما عند ما يكون الأديب في مراحله الأولى التي لابد له من اجتيازها ٠ وهذه المراحل الأولى لازمة ، فان كل شيء لا ينتهى الى آخره الا مجتازا بأوله ، الا فكيف يكون له آخر ؟ ٠ وقد اجتزت هذه المراحل ٠ وأنفي من الرغام ، وان كنت ومازال أعتقد أني في أواخر هذه المراحل الأولى التي تجمع دائما بين السخف والغثاثة والثقل ٠ وقد لا يسمح أديب لنفسه أن يعترف بذلك ، ويريد أن يقول — بالفعل أو بالكلام أنه أصبح الآن في رأس الذروة ، ولكن ذلك لا يعنيني ، فانه ليس أحمق ولا أجهل ممن يغالط في الواقع الذي يكاد يفقأ عينيه » ٠

وبعض أدبائنا الآن يحسب أنه تصدر القافلة لأنه نشر له ديوانا او ألف كتابا ، وهذا الحسبان يقوم على شيء كبير من الوهم والهوج وقصر النظر ٠ وما من سبيل الى القياس « الصحيح » اذا كان كل أديب يتخذ لنفسه المقياس الذي يريده ، ويذهب راكبا رأسه على غير طائل ٠

والمقياس الصحيح الذي توجبه أبسط بسائط (البداهة) أن يقاس الأثر — من نثر وشعر — بجودته ولذته وجدواه لا بكثرته أو قلته ،, فان هناك أدباء مصريين وغير مصريين نشروا عشرات الكتب ، ولكنا لو تصفحناها لوثبنا من الغلاف الى الغلاف بنظرة واحدة .

وحيث تجد الأدب النزر تجد الاندفاع الى تسلق الشهرة قبل أوانها ، فهاك يامطبعة ، اخلطي البياض بالسواد وهاتي أوراقا مجموعة بين دفتين .. ثم اذا هي معلقة على واجهات المكتبات كأنهـــا النشرات التي تقذف من الطائرات للانذار والتخويف .

هذه الحالة مرت علي قبل سنوات عشر أو أكثر ، فهيات ما كان عندي من الشعر في أربعة دواوين — أو أكواخ — وســميتها — ليحفظها الله — الأغاريد ، وحادي العيس ، وهدهد سليمان ، والزبد — بفتح الزاي والباء — لا الزبد بضم الزاي وســكون الباء — حتى لا يبــادر القراء الى لحس شفاههم ..

جمعت هذه الدواوين الأربعة وكنت أستعجل النشر والطبــع وأود لو طبعتها على طائرة ؟! ومضى زمان كنت اعتقد فيه أن الناس — ما أشقى الناس — سيصابون بخسارة عظمى ان لم يقرأوا شعري وان كان لم يبلغ بي هذا الغرور المضحك الى أن أصدر دواويني برسومي الجميلة ! .

خفت سورة الحمى وبردت حرارتها ، بل هبطت الى ما تحت الصفر زمهريرا ولله الحمد فاقتنعت على فترات ان كل ذلك باطل الأباطيل وقبض الريح كما يقال .

وأحرقت شعري وأثاري الاولى ، وأرحت النـــاس ونفسي من شرها وركاكتها ، فان الناس لا يزدادون على ما بهم ، فلعل الله يلطف بعباده .

واليوم يسألني كثير من الناس : لمـــاذا لا أنشر شيئا من شــعري وقصصي ؟ ويعقبون علي ، وان لهم لمستمتبا ، لو كنت أملك أمري ، واجمع شملي ، وأجازف بنشر حماقاتي عليهم ، واذا كانت الحمـــاقة أعيت من يداويها كما يقول الشاعر : فاني قادر على مداواة حماقتي بحبسها في نفسي وكتمانها عن غيري ، وهو علاج بسيط ، ولكنه لا يوجد في « صــيدلية » كل أديب » .

ويروق للأستاذ حسين أن يصور بعض عاداته بمثل قوله في صـــدر موضوع تحت عنوان « شهوة الكلام » : « وأين مني هذه الشهوة اللذيذة ، والناس يعلمون أني كالحيوان الأعجم لا أتكلم الا ذاما ؟ .

وشهوة الكلام هنا ـ فيما أرجح ـ محصـــورة في هذا الكلام العادي او غير العادي الذي تنطلق به السنة الناس ، وتهدر كما تهدر الفحول ، وما بها ، « قطم » كما يقول المتنبي » ٠

وترى حديثه عن خلاله وعاداته مبعثرا هنا وهناك مثل قوله من حديث بعنوان « ذيل الطاووس » تحدث فيه عن الشهرة وتباهي الناس وفرحتهم بها وسعيهم من أجلها فهو موضوع اجتماعي أخـــــلاقي تحدث فيه كاتبه بصدق حتى عن نفسه أنه لم ينكر جنوحه للشهرة بل أنه عاب على مدعي العزوف عن الشهرة قولهم ، وهو حديث شـــيق لطيف نقتطف منه قوله (للشهرة ثوب مثل ذيل الطاووس براق اللون لماع الأفواف كلما انعكست عليه أشعة الشمس ازداد ألقا وجمالا ، وللطاووس ـ أو للمشهور مثلا ـ ألف عذر عندما ينظر الى ذيله ويثني عطفه ، ويرجع الطرف مرة بعد مرة الى هذا الذيل ـ أو الثوب ـ دون أن يمل رؤيته أو يشبع منها ٠

وكلنا يريد الشهرة بكل وسيلة من الوسائل ، وانه لكاذب كاذب ذلك الذي يدعي أنه يمقتها أو يزهد فيها ، وقد كنت من عشاقها المدلهين قبل أن يخضر عذاري ياله من عذار ـ فلما اسود هـذا العـذار أو ابيض ـ لا أدري أصبحت بعد ليلة واحدة مشهورا على الأقل في وطني وبين عشيرتي والحق أني نلت الشهرة من أبوابها الخلفية أعني من الأبواب الخيالية التافهة التي لا تستطيع الا أن تربط على بطنك حجرا لو أنك اكتفيت بها لبلوغ عيشك ، أو اتخذتها ذريعة لازدراد لقمتك ، وأعني بالأبواب الخفية ، أبواب الأدب والشعر والفن ، وكل ما تنفضه هذه الريشة الحمقاء مما يقال عنه أنه غذاء للأرواح وزاد للعقول وامتاع للقلوب ! ٠

ولم أستطع أن أبلغ الشهرة من أبوابها الأمامية المرعبة فأني أخيب ما أكون مشهورا في الثروة أو سعة النفوذ أو حســـن الادارة أو جـــلال الشخصية ، كلا ، لست هناك مادام دون ذلك صراع وهول ومكايدة وانزلاق على الرغام ، وسحب على التراب كما فعل (أخيل) ببطل طروادة (هكتور) بعد أن جندله ٠

ولم أصبح مشهورا لكتاب ألفته ، ولا لديوان أصـــدرته فأثار ضجة في الأوساط الأدبية وأثنت عليه الصحف وتبادر الكتاب والنقاد الى تقريظه ٠ فأني لأعجز وأثكل عن ذلك واني لكما يقـــول رئيس تحرير هــذه الجريدة (أقف على المحطة ، والفتيان الحجاج قد ركبوا وفاتوني) فلله دره ، لقد أحسن في وصفه وأساء الى موصوفه ٠

ولكني نلت ذيل الطاووس بدليل أن كثيرا من الناس يسألونني عن رأيي في كتاب صدر أو ديوان طبع أو شاعر أشرق نجمه ، وقد يركبني شيء من الغرور ، وقد أنظر طويلا الى (ذيل الطاووس) في خيلاء ودلال وأقول رأيي الذي هو القول الفصل كما أخال وأترقب مؤلفا كيسا « مثل الميداني » ليجعل من أقوالي (مجمع أمثال) آخر) ٠

و يحمل الأستاذ على الأديب ويصفه بأوصاف لو وصف بها الحمار الذي كان يركبه اذ ذاك لقذف به جانب الطريق فيقول « ان الأديب حيثما كان لمخلوق تافه ، وان طريقته في تفكيره وتناوله للأشياء لحقيقة أن تقوده الى الجنون الوشيك ٠ فأين يقذف بنفسه هذا الذي ما يفتأ يكظ رأسه ويملأ ذهنه بآلاف الألفاظ والعبارات الجوفاء حتى يكاد ينفجر مثل القنبلة الذرية ، ولكنه لا يحطم الا نفسه بدلا من أن يدمر مدينة يابانية مثلا ! ٠

هناك من يملأ فناءه بكرائم الأنعام والسيارات ، وهناك من يملأ بيته بنفائس الطنافس ، وهناك من يترع خزانته بأعلاق الذهب والفضة ، فأين يذهب هذا الأديب المحمق المرزوء ؟ ٠

ألفاظ يسحبها الأديب من بطنه مثل العنكبوت ثم يمد رواقهـــا على نفسه ، فاذا هو محبوس فيها يحور ويدور ، ولا يقدر على الانفكاك منها ٠

فما أعظم فجيعتنا في أعمارنا حينما اعتصرناها في اصطياد هـــذه الألفاظ الأوابد ٠

ان الانسان الذي يملك سيفا مذهبا مرصعا بفرائد اللآلىء ولا يعرف للسيف الا هذا الاسم فقط ، لهو أسعد وأرشـــد بلا ريب من الأديب الذي يحفظ للسيف مائة اسم من أمثال المهند والجراز والعضب والصمصام الى آخر هذه التفاهات ! وهو لا يملك قطعة من الفضة ! » ٠

ولكن لا تغرنك مقالة الأستاذ فان مستور المعنى فيها ينطق بغير هذا ٠ ويقيني أن الأستاذ هدف الى تصوير آراء بعض الناقمين على الأدب والأدباء ، أولئك الذين حرموا الشفافية والرقة واللطف في الاحساسات والمشاعر كما حرموا القدرة على التسامي عن الجانب المادي من الحياة فحيل بينهم وبين أن يعلقوا بشيء من المتعة العقلية التي تدرها الروحانية على الأديب الأصيل مثل أستاذنا (حسين سرحان) وحين أقول لكم انكم كلما أوغلتم في كتاب « مقالات سرحان » كلما بدا لكم أنه أكثر عمقا فصدقوني ، وان لم تصدقوا فخذوا هذا المطلع لمقالة « الصياد والسمكة » المنقول عن صحيفة « البلاد السعودية » عام ١٣٦٧ هـ يقول الأستاذ « ما من شك في أن الانسان عندما يكثر الاختلاط والامتزاج بشيء معين ، فانه يكتسب مع الاستمرار مشابهة

باطنة أو ظاهرة من ذلك الشيء ، وتبدو عليه سمات واضحة بالشكل أو خفية بالمعنى من كل مايتوفر عليه أو يمتزج به أو يصفيه وقته أو يبذل فيه جهده ، فالحداد مثلا ترى من ثيابه ووجهه صدأ الحديد ، فان كان يتأنق في هندامه بعض الشيء فستجد آثارا حديدية في عقليته أو في روحه أو في سلوكه أو في عباراته على الأقل ، والحمار لطول الفه للحمير وخدمته لهـا واختلاطه بها لن تعدم فيه شية حمارية [عالية] في بعض ما يبدو منه من حركة أو سكنة أو قول قاصدا أو غير قاصد » . لكن ترى الأستاذ بعد هذا في مقاله يخفق الى حد ما في تطبيق هذه النظرية على شكل الصياد حيث يقول « ولكنك لو رأيت [مسعودا] صائد الحوت لعلمت أن عناصر المخلوقات مهما تباعد بها التناقض فانها تتصل وتتشابه أتم التشابه ان لم يكن في البين الظاهر ففي الخفي المكنون .

ان مسعودا ـ سبحان الخالق ـ بعد أن غبرت عليه أربعـون سنة في اصطياد الحوت ! أصبح سمكة ناطقة تسير على قدمين آدميتين ، ولها مثـل وجه الآدمي أيضا مع بعض الانحراف المحسوس الى عرض الوجه بدلا من طوله ، حتى لكأنك أمسكت رأسه بيد وذقنه بيد ثم ضغطت ضغطة جيدة ، وأمسى أعلى رأسه سطرا مستويا ، لو رأيت ـ عن عرض ـ أعلاه وغاب عنك أسفله ، لبادرت ولو لم تكن صياد حوت الى الشبكة واحتويته فيها » .

ان شكل الوجه وسائر أجزاء الجسم لا يخفى على الأستاذ أنه يتكون قبل الولادة بوجه عام فكيف تركت الحرفة فيه أثرها ولو أن الأستاذ قال ان حرفة أبيه ساعدت على هذا التشكيل ربما كان أقرب للصواب ، وظني أنه أراد غمز شخص بعينه على أسلوب أدباء السخرية كالمازني وأمثاله غير أن هذا لا يكون عن طريق نظرية وتطبيقها ولست أخفي أثر الحرفة على صاحبها وبخاصة في أخلاقه وما ظهر من صفاته كالخشونة والنعومة والليونة في الخلق والملبس والأديم ، أما أن تؤثر في تكوين الجسد أو بعض أعضاءه كعرض الوجه أو استطالته فلا .

ويعمد كاتبنا حينا الى نقد أخلاق الناس وعاداتهم ومحاولة توجيهها الوجهة الصالحة فلا يجرؤ على مصارحتهم بل يجعل من نفسه كبش فداء ، أي أنه ينسب هذه الأخلاق الى نفسه قاصدا في ذلك انتزاعها من نفـوس الآخرين اقرأ في ذلك ان شئت حديثه (أنا لست بفاضل) ص ٨٥ .

وحين يقصد الى النيل من شخص فانه يناله من طريق لا يستطيع أحد أن يقول عنه أنه مسف ولكنه مؤلم أشد الايلام وأي ايلام أشـد من تهمة

التقصير في الواجب العام المرتبط بمصالح المجتمع ، هذا هو الطريق الذي يسلكه « حسين سرحان » اذا أراد أن يطعن في خصم ، واقرأ ان شئت في ذلك مقالته (لماذا تستفزنا) ص ٩٣ ٠ وهو لا يصرح بالأسماء ولكنك تكاد تسمع صوت من يتحدث عنه حين تقرأ حديثه عنه ووصفه له وهذا كثير في كلامه ومنه مقاله « جواب فات أوانه ص ١٠٠ » والطموح الذي اتسم به قلم سرحان ظل يصعد بأسلوبه وفكره حتى سما سموا يحسده عليه كل من يتوق الى أن يكون ذا قلم ناجح يستوى في ذلك عنده اللفظ والأسلوب والفكرة ثم المعنى أي أن سموه كان في الشكل والمضمون على حد سواء ، واذا أردت دليلا على ذلك فاقرأ على سبيل المثال مقالته ص ١٢٦ التي قال انها رد على رسالة من (عبد الغني قستي) وما هو في حقيقته الا حديث عن الشباب تحس فيه تحسر الأديب من انصرافهم عن القراءة والكتابة حتى صاروا أقل من أنصاف مثقفين ومما ستلحظه وأنت تقرأ هذه المقالة ، شكوى الأديب من الكساد الفكري والثقافي ، ذلك الكساد الذي صرفه عن جمع قصائده ومقالاته واكمال ما نقص منها ونشرها ، وهذه مسألة كثيرا ماوردت على لسانه في هذا الكتاب صراحة أو ضمنا ولعله بذلك يبحث عن مجتمع يشبه المجتمع الذي نشأ فيه وهو مجتمع في هذه الناحية مثالي ولكن هل تساعد أوضاع حياتنا اليوم وظروف معيشتنا على وجود مثل ذلك الفراغ الذي كان عند ذلك الجيل ٠

لقد تدفقت المادة وكثر الثراء ٠ ولكن الوقت ضاع في غمار حياتنا الجديدة ومتطلباتها وجر في أذياله بعض العادات الطيبة كالقراءة واللقاءات ومجالس الذكر والفكر فأين يومنا من أمسنا ؟ ٠

ويعالج مشكلتي الغلاء والغش فيتحدث عنهما بأسلوب الأديب لكنه يمزج حديثه بالفكاهة والسخرية ولكنها الفكاهة والسخرية المحتشمة ، استمع اليه يقول في ص ١٤١ [وأحسست بجوع فذهبت الى مطعم متواضع وطلبت طبقين أو ثلاثة ، وليس معقولا أن تقدم اليك الأطباق خالية فمن المفروض ــ أو المحتمل ــ أن يكون الطعام المطلوب موجودا في الأطباق ، وشككت وخامرني وهم عجيب ، على أني في النهاية استطعت أن أحدد موضع الأكل من الأطباق وعثرت عليه كما عثر [أرشميدس] على مفقوده المستعصي فأما الأرز فتستطيع أن تعده واحدة واحدة ، وأما اللحم فانك تحصي قطعه الثلاث على بعد أميال ، وتحمد تضلعك النزير من علم [الحساب] وأكلت مثل السنور مغمضا عيني ودسست يدي في جيبي ، وقلت كم الحساب ؟ ٠

وكان صاحبي هذه المرة [أندونيسيا] فاصفرت أسنانه ، وارتعشت شفتاه ، ووضع كلتا يديه على صدره ، تلك الطريقة التي يحسنها سكان الجنوب من شرقي آسيا ، وقال أربعة ريالات ! .

وكان يخرج العين [الحلقية] من أقصى حنجرته على تكلف واستكراه ولم أستطع أن أقول شيئا على الرغم من خواء بطني المحتج ونبـــذت اليه بالريالات الأربعة وسمعته يقول ـ وأنا خارج ـ : « بعودة ان شاء الله » ولم يســـمعني وأنا أقول : كلا لن أعـــود .. لا يمـــكن أن يمـــوت الانسان مرتين في ضحى يوم واحـــد !] ، وقد تلحظ أيهـــا القارىء الكريم أني أكثرت ايراد النصوص من مقالات حسين سرحان ، والحق أقول لك ، أني لو انسقت وراء رغبتي في أن تصحبني وأنا أقرأ مقالات سرحان لقدمت لك جل ما احتواه هـذا الكتاب ، ذلك أن لأسلوب سرحان حـلاوة وطلاوة هي السحر الحلال بحق ولا غرابة في ذلك ولا بدع أوليس الأديب الأصيل ؟ .

ويكتب في رثاء « زكي مبارك » فتراه ينسل الى أعماق نفس الأديب الراحل يتلمس خلاله وسجاياه في أساليبه التي يتعـــامل بها مع أعدائه وأصدقائه على حد سواء ويتحدث عنه حديث الأديب عن الأديب .. حديث يدفعه الوفاء والاعجاب لا الملق والرياء والمجاملة . أما حديثه عن ابتسامات الأيام لابن بليهد فانه حديث باء فيه بالاثم ـ أستغفر الله ، فقد سرت العدوى من أسلوبه الي » ـ أقول لقد قال في ديوان ابن بليهد قولا ردده كل من تحدث عنه بعد ذلك وخلاصته أن شعره العامي أقوى أمكن في الأصالة وأسباب الاجادة من شعره الفصيح . ولن أسأل أستاذنا سرحان أقرأ قصائد ابن بليهد التي لم يحوها ديوانه ولكن هل نظر في جميع قصائد الديوان فقرأ مثـل قصيدته :

أرقت لبرق ســـــاهر متألق
أراقبـــه كالمغرم المتشـــوق

. وهي في الديوان ص «٢٣٢» وعلى أي حال فربما جر لهذا الموضوع حديث آخر .. قلنا من قبل أن الأستاذ سرحان اذا أراد أن يطعن في شخص ويهجوه في كتابته فانه يعمد الى التلميح لا التصريح ولكنه يدلك على صاحبه بأسلوب كأنك من خلاله تضع يدك على كتفه ، وفي مقالة ص «١٦٤» ترى هذا الرمز في الهجاء بلغ من العمق الى أن سمى صاحبه وأجـــداده بأسماء نباتية فاسمه « كراث بن ليمون الفجلي » وعن هذا الصاحب تحدث بأسلوب

دلك على أن كراثا هذا رجل ثرثار يقحم نفسه في كل ميـــدان عرفه أو لم يعرفه ليقال انه عالم وان كان هذا العلم أوضح دليل على جهله ، يقـول سرحان عن صاحبـــه كراث « ولكن بني فجـــل بطن من بطـــون قبيلة (كزبرة) فهـــو كزبري عـــلاوة على أنه فجلي مردوده الى بطنـــــه ، وكان متعلما أحذق تعليم ومربي أروع تربية ، وله أشياخ عديدون في كل فن وعلم ، وتشيء فوق ذلك تنشئة (الحلية) التي هي في الخصام غير مبين ، بيد أنه كان مبينا في حرفته الخاصة ، وهذه الحرفة موجزها أنه يتحدث في مسائله الخاصة فيبين فيها كل بيان ، فيتكلم عن مزارعه وابله النجيبة وعرسه الكوكاكولا الكريمة ، ثم ينطق بأسماء شركات وهمية ، أو حقيقية ليريك أي مدى بلغ نفوذه فيها · وكان مع هذا كله يتكلم عن الطب في الأدب ، ويتحدث عن الأدب في الطب ، ويفيض عن الصناعة في الزراعة ، وهكذا كان صاحب نقائض وأخا مفارقات ، ورب متباينات » ، وبمثل هذا الأسـلوب يمكننا أن نحـــكم على سرحان بأنه كاتب رمزي ساخر هازل ، ولو تلمسنا أسباب هذا الاتجاه عند أديبنا لأمكن أن نرجعه الى أسباب ثلاثة ··

أولها : أن هذا اللون من الأساليب يجتذب القارىء اليه وفي هـــذا كسب كبير لمن يهدف الى اصلاح ما اعوج أو فسد من أوضـــاع المجتمع ، ولا شك عندنا أن هذا من أهداف أديبنا كما تشهد به مقالاته الاجتماعية الكثيرة التي حوى هذا الكتاب جزءا كبيرا منها ·

وثانيها : أنه يجد في هذا الأسلوب متنفسا يقذف من خلاله ما تضطرم به نفسه ازاء تصرفات بعض الأفراد ·

وثالثها : أنه كثيرا ما أودع في تلك المقالات الســـاخرة آلام نفس سمت بها عزتها وأنفتها عن الثرثرة في المجالس ، وعن محـــاورة الآخرين فيما يصدر منهم في حقها من أخطاء ·

واذا قلنا أن المقالات الأدبية والاجتماعية هي الصبغة العامة لهـــذا الكتاب « من مقالات حسين سرحان » فانا نود أن نشير الى أن للقصة فيهـا نصيبا اذ أن هناك ثلاث قصص في الصفحات ٤٠ و ١١٧ و ١٩٠ ، وأكثر من مقالة صاغها الكاتب في أسلوب قصصي أو شبه قصصي ·

وقصصه كلها اجتماعية هادفة منها مايعالج به كسل الموظفين واهمالهم كالأولى والثانية ، ومنها ما يقوم فيه مقام الواعظ ولكن بأسلوب لبق جذاب كالثالثة ·

وعندي أن ما قدمه أديبنا في ميدان الأقصوصة جيدا جدا لو احتذاه

كتاب القصة عندنا لأتوا في قصصهم بما يرضي ولأراحونا من هذا الغثاء الذي يغلب على انتاج ادبائنا في هذا الفن ٠

واذا كنا نعد الأستاذ حسين من النقاد الاجتماعيين فانا نسجل هنا أنه لم يجرؤ على أن يجبه مجتمعه صراحة بما فيه من عيوب ، بل كان يعمد الى الأسلوب الهازل والقصص الخيالية يوميء فيها الى مايريد ويلمح ولا يصرح ، واذا أردت أن تتبين ذلك فاقرأ مقالته « حلم غريب » ص ١٨٢ ٠

انه يريد أن يقول أن الاكراه في الزواج ظاهرة يجب أن تختفي ، لكن المجتمع لن يتقبل منه ذلك ، أو على الأقل عامة الناس ، وجل خاصتهم ، من هنا صاغ فكرته في رؤيا خيالية جعل صـــاحبه فيهـــا يرى أنه صار « اذن حمار » وحين ذهب الى مفسر الأحلام قال له « انك ستتزوج على رغم انفك » ٠ أما حسين سرحان الناقد الأدبي فانك تقرأه في بعض المقالات القليلة منها : ــ

١ ــ مقالات من الشعر البدوي ص ١٢١ ٠
٢ ــ ابتسامات الأيام ص ١٠٨ ٠
٣ ــ الأمس الضائع ص ١٧٦ ٠
٤ ــ اللفتات الذهنية في شعر ابن لعبون ص ٢١١ ٠

ونحن وان كنا ننوي أن نخص هذا الجانب عنده بحديث خاص الا أنا نود أن نشير هنا الى أن نقده الأدبي يدل أول ما يدل على ثلاثة أمور :
اولها : أن الرجل ينزع من منزع أصيل في لغته وأهدافه ويتجلى لك هذا في فصاحة لفظه ومتانة أسلوبه وجزالة تركيبه وسمو معانيه ٠
وثانيها : ثباته في وجه تيار المخالفات الأدبية التي أملاها حب الشهرة ولو عن طريق مخالفة الأصول الثابتة حتى لكأنما الأدب عند أرباب تلك الرغبات معرض أزياء أو متجر « مكياج » ٠

وثالثها : أنه رغم قدرة الرجل الكلامية تراه مهذبا ، لبقا ، يضع الكلمات في موضعها بلباقة وأدب ، ولما كانت الحقيقة في نظر النـــاقد قد تؤذي حينا ، « أو على الأقل لا تريح » فان سرحان يمزجها بشيء من المزاح أحيانا ، وهذا المنهج يظهر جليا في نقده ديوان حســـــن قرشي « الأمس الضائع » ولا بأس من أن نتعجل فنورد من ذلك المقـــال ما يشــــهد على صحة ما قلناه ، يقول حسين سرحان (وما من « أمس ضائع » في « ظلال الوحي » لو توخينا الانسجام حتى فضول الكلام ، ولكن هداب الألفاظ غير هداب (الدمقس المفتل) من شحم مطية (امريء القيس) وحظ العذاري أدسم وأنفع. ولا ريب من حظنا ٠ مع الفارق في الحالتين ٠

ورأيي على العموم في شـــعر الصديق القرشي ، أنه شـــعر عصري مناسب لمكانه في مراتب الشعر الحديث ومكانه من الشعر ليس بالمكان القليل ولا الضئيل في مثل هذا العصر الذي يجري كل شيء منه على عجل ·

ولا يعيب مثلا أن تجمع فيه الصفات على غير قياسها فيقال الحمراء بدلا من الحمر ، وما يشبه ذلك ، أو يمد فيه ضمير المتكلم (أنا) أكثر مما ينبغي ، أو أن تبدو في بعض المعاني فهاهة وعجز في مثل هذين البيتين :

كلما شمت في حيـاتي نبعا
سحر النبـع لي فكان سرابي !
أو تنورت في مسيري طريقا
ربضت ناره على أعتابي ! »

ولم أرتح لمناقشة آراء الأستاذ حسين التي اختلفت معه في وجهـــة نظره فيها وبخاصة ما كان منها في أول عهده بالكتابة ليقيني أن كل شاد تكثر هفواته حتى يشتد عوده ، وان كنت أستثني الأستاذ حسينا من هـذا العموم اذ أن هفواته عندي أقل كثيرا من هفوات مزامنيه من أترابه حتى اذا ارتحت الى الرجل قد نضجت ثقافته واتسعت واستوى فكره على سوقه أخذت في مناقشة الحساب فيما أختلف معه فيه ·

ويعجب سرحان بالشعر البدوي المتأخر فيدفعه اعجابه به على حمل مفرداته وجل عباراته على التفصيح وذلك في قوله في ص «١٢٥» فأما المفردات وأغلب العبارات فانها عربية صحيحة ويدخل بعضها تحريف طفيف « وهذا قول يحمل شيئا من المبالغة ، وان كانت مبالغة ربما ساغ انتحـال بعض المبررات لها ولكنها مغالاة على أي حال · فالشعر العامي لا جدال في أنه يمتزج بكثير من الألفاظ العامية التي لا أصل لها في اللغـــة أو التي اعتراها من التحريف ما قلب أمرها رأسا على عقب ، وما أظن هذا يخفى على أستاذنا الأديب الكبير ولكن « عين الرضا عن كل عيب كليلة » ولكن أيسوغ هذا من عين رضا الأديب الرائد ؟· وفي هذا البحث الذي كتبه عن الشعر العامي أثنى على قصيدة عامية لابن بليهد وأورد مطلعها ، غير أن روايته لها تختلف عما رواه لي مانع أبو العـــلا الذي روى له القصـــيدة كاملة مع خبرها ، فأما رواية سرحان ص ١٢٥ فهي :

أشوف الأيام تقدح بأهلها قدح المشاهيب
وقد تغـير ولا أدري ويش ينطل في عقـــابه

وأما رواية أبي العلاء فهي :

أشوف الأيام تقدح مثـــل قدحات المشاهيب

وقت تغير ولا أدري ويش ينطل من عقــابه

ولم أطلع على رواية أستاذنا حسين سرحان الا بعــــد طبع كتابي « الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد وآثاره الأدبية » · والا لأشرت اليها أو حققتها على ضوء مقابلة روايتيهما ·

وحين تقرأ الكثير من مقالات حسين سرحان وبخاصة تلك التي عالج فيها بعض أمراض المجتمع تجد أن حديثه يمتزج بســـخرية لاذعة ولكنها مترفعة لا تسف الى حد اضحاك الناس وانما هي من ذلك النوع من السخرية التي تنبه العقل بما يشبه الصدمة الكهربائية ·· ثم تجده في حديثه عن المازني الأديب الساخر يتحدث عن السخرية والساخرين حديث من يمقت هذا اللون فهو يقول في ص ١١٢ (كل انسان مهما كان ·· بمركب نقصه المجبول عليه ، ولكني أعتقد أن [الساخر] من الضعف البشري وأوضاع الحياة وحماقات الناس ، يحمل في نفسه أكثر من مركب نقص واحد ، وان كان هذا الساخر فيلسوفا عميقا أو شاعرا ·

والمازني غفر الله له ـ كان ممنوا بالشيء الكثير من مركبات النقص الظاهرة ـ فضلا عن الباطنة ـ فالقزامة في القامة ، وانحدار العين عن دمامة ، ورجله المهيضة ، التي ما يفتأ يشير اليها في مقالات عديدة وأطوار الاملاق التي اضطرته الى بيع مكتبته ، وأكلها وشربها ـ كما يقول ـ ·· فهل يعد هذا تناقضا أم أنه يسخر ولا يدري أنه يسخر ؟ أم ماذا ؟ ·

لعل أستاذنا حسين سرحان مد الله في عمره يتحدث لنا عن هذه الظاهرة فيما كتب · وكان يحسن بمراجع الكتاب عند طبعه أن يضع تطبيعا لما وقع من أخطاء بخاصة تلك الأخطاء التي قد تقلب المعنى أو تسيء الى فهم مقاصد الكاتب كمثل كلمة « اغراب » الواردة ص ١٢٤ في العبارة الآتية « وشر ما في هذا الشعر انعدام الاغراب فيه » وصوابها « انعدام الاعراب فيه » لأن الرجل يتحدث عن الشعر العامي ويشكو من خلوه من الاعراب ·

ومما تلحظه في رءوس الموضوعات عند سرحان أنه كان فيها موفقــا يخيل لك أنه تألق في اختيارها حتى جاءت معبرة ، توحي بمضمون ما وضعت له ، ولكنه ايحاء لا يحسه الا من منحه الله مثل ما منح سرحـــان من دقة ملاحظة ورهافة احساس وخبرة قوية متينة بالعربية وأساليبها ·· اقرأ مثلا هذه العناوين لبعض كلماته « جواب فات أوانه » « وترى الفتيان كالنخل » و « أنا لست بفاضل » و « لماذا تستفزنا » وهكذا ··

واذا وجدت من رءوس موضوعاته ما يفتقد تلك الدقة فاعلم أنه مما

كتب في أول عهده بالكتابة ومن ذلك عنوان أول مقال ورد في الكتاب وهو أسبق ما أثبت له وفيه وهو (المعمرون) .

فأنت حين تقرأ هذا العنوان يرد الى ذهنك أن الرجل اما أن يتحدث اليك عن المعمرين بوجه عام . ويتلمس الأسباب التي هيأها لهم الله ليكونوا كذلك .

أو أن يروى لك سير جملة من أولئك المعمرين أو أن يجمع بين هذا وذاك . حتى اذا ما قرأت مقاله هذا وجدته يتحدث عن رجلين فقط أحدهما كان جارا له والثاني يبـــــدو أنه كان خادما ، ولو أنه قال « معمران » أو « من المعمرين » لكان أدق .
وتظهر لك ثقافته فيما كتب على نحو لا يوحي باجترار تلك الثقافة لسد الفراغ وانما تأتي في صورة شاهد أو برهان أو حجة يسوقها في ميدان حديثه واذا شئت أقرب مثال لذلك فاختر اي موضوع له وليـــكن « ترى الفتيان كالنخل » ص ١٠٣ .

ولقد أسفت كثيرا على اخراج الكتاب المعتمد فيه على التســـــلسل التاريخي ذلك أنه ربما كان سببا في صرف بعض الكاتبين الذين لم يعرفوا الأستاذ حسينا عن مثالية أسلوبه في هذه المقالات التي يرتقي فيها أسلوبه شيئا فشيئا حتى يبلغ الذروة ــ وتمنيت لو أن الكتاب صنف حسب الموضوع وتوخى مصنفه أن يجعل من صدر الكتاب ما يمثل أستاذنا الكبير « حسين سرحان » تمام التمثيل . ولعل جامع هذا الشعر يقول أني لا أقدمه الا لكل رجل لا يحكم الا بعد الاستقراء أو أقول ان هذا قول حسن ولكن أترى قومنا كلهم من هذا الطراز ؟ انني لا أشك في حصافة آراء أدبائنا وأنهم لايصدرون الحكم الا بعد اقتناع ينتج عن فحص كامل للأثر ولكن لا أريد أن يصدم قارىء مقالات حسين سرحان بأضعف ماكتب لأنه كان اذ ذاك في بداية المشوار الثقافي والفكري وهو في السابعة عشرة من العمر .

واود أن أنبه هنا الى أنه قد فات جامع هذه المقالات الأخ يحيى اثبات مقالات أخرى فيها ماورد ذكره فيما أثبت الجامع في هـــــذا الكتاب كمثل [العقلية العامية] التي أشار اليها حسين سرحان نفسه في صدر مقالتـــه [هل يكتب شعري] ص ٧٨ من الكتاب بقوله « على أثر نشر مقالي بالبلاد السعودية بعنوان [المقلية العامة] » .

ومع أن مزامني الأستاذ حسين كان فحولهم يجنحون في كثير من أعمالهم الأدبية الى تحري الألفاظ الغريبة حينا الا أنك لا ترى ذلك عند أديبنا سرحان

الا نادرا كمثل « يتوقل الذرى العالية » « أي يصعد » في ص ٢٢ ، وكمثل « مشاهم » التي فسرها هو بأنها جمع مشية ص «١٠٦» على أن هذا النزر اليسير النادر يأتي في أسلوب سرحان كالمشهيات في الطعام ، ولست أعني بذلك أن ايراد مثل هذه الألفاظ عيب يؤخذ على الكاتب وانما أعني أنها تكون مأخذا على الأديب اذا جاءت نابية في موضعها ، ولا يكون ذلك الا نتيجة تكلفه وما كان سرحان في يوم من المتكلفين ·

ثم أني ارتاح كثيرا لبعض ألفاظ اللغة العربية التي باتت رهينة المعجم حين صرف عنها الكاتبون والشعراء ، غير أن هذا البعث لابد من أن يكون مصحوبا بحذر ولباقة حين استعمال الكلمات حتى لا يولد نبوها استهجانها والعزوف عنها ·

والآن وقد فرغت من قراءة هذا السفر النفيس وعرضه ، أجدني ارفعه الى مكانه في مكتبتي ونفسي تنازعني لاعادة قراءته لما فيه من أصالة وصدق فني ولأنك وأنت تقرأه لا يعتريك شيء من ذلك الملال الذي يولده حينا طول صحبتك للكتاب ، وما أسفت على شيء بعد قراءتي هذا الكتاب سوى أمرين ، اولهما ـ أن أستاذنا سرحان أحرق جملة من أعماله التي لا أشك في أنها في مستوى مقالات هذا الكتاب ·

وثانيهما : أنه كان يمكن الأستاذ سرحان أن يفيد أمته وبخاصة من يهمهم أمر الأدب بما هو أقدر عليه وأعرف به منا ، ولكنه فعل الأولى ولم يفعل الثانية سامحه الله في الحالتين ·

ومهما يكن من أمر فان هذا الكتاب قد سد فراغا كبيرا كان يشكو منه الدارسون لأدب أمتنا في عصرها الحديث فهل يتاح لنا من يجمع أعمال فحول أدبائنا الذين نأى بهم تواضعهم وتورعهم عن ميادين النشر والطباعة من أمثال حسين سرحان ، وعبد الوهاب آشي ، ومحمد سعيد عبد المقصود وأترابهم ·

ولقد اهتمت صحفنا « وان اختلفت في ذلك » اهتماما حسنا بأخبار هذا الكتاب وتحدث عنه بعض المحررين ·

ولست الآن بصدد الحديث عن تلك التعليقات ، لكني لا أود أن يفوت تعليق نشر في صفحة « أدب وأدباء » بجريدة « الرياض » منذ فترة ·· فلقد ورد فيه « وبطبيعة الحال لا يمكن أن تقاس معظم المقالات التي جاءت في هذا الكتاب بالمقالات الحديثة لأنها تعتبر ارهاصات جيدة لنشوء فن المقالة

في الحجاز ومن ثم في المملكة العربية السعودية » ٠

ومن يقرأ هـذا القول ثم ينظر الى ما في صحفنا اليوم من مقـالات ولم يكن قد كتب له أن يقرأ « مقالات حسين سرحان » فانه سيزدري هـذا الكتاب لا محالة مادام أن أسلوب المقالات فيه أقل مستوى مما في صحفنا اليوم ٠ ولكوني قد تحدثت في هذا البحث عن مقالات حسين سرحان كثيرا فاني سأترك النص الثاني لمحرري صفحة أدب وأدباء بصـحيفة الرياض ليوضح للقارىء مقصد صاحبه في العبارة الأولى بقـول المحرر : « ومن ناحية أخرى تجـد أن الكاتب يكشـف لنـا التطـور البطيء الذي المحرر : « ومن ناحية أخرى تجد أن الكاتب يكشف لنا التطور البطيء الذي طرأ على الصحافة السعودية من ناحية المقالة القصيرة فبعد أن كانت تلتمس وجودها من خلال الأدب أصبحت ذات وجود مستقل يمكن أن تصـل الى القارىء دون عكاز اللغة » ٠

اذن فميزة صحفنا اليوم أنها ألقت عكاز اللغة وتخلصت من العبارات والألفاظ التراثية ، كما يلح على ذلك محرر الرياض فيما لم أورده هنا ٠

ولكن لا بأس فمن الظواهر المألوفة في أيامنا هذه اضطراب المفاهيم واختلالها وأني لأخشى على لغة صحفنا من مضاعفات هذا الجموح ! ٠



الخوارزمي والمصطلح العلمي في كتابه مفاتيح العلوم

للأستاذ / سعيد زايد

الخوارزمي الذي نقصده هنا ، هو أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن يوسف الكاتب البلخي الخوارزمي ، وهو باحث من أهل خراسان وقد قال عنه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » والمقريزي في « خطط المقريزى» انه محمد بن أحمد بن يوسف ، وانفرد المقريزى باضافة لقب « البلخى » بدلا من قوله « الخوارزمى » ٠ وهو عالم آخر غير أبي عبد الله محمد بن موسى الخوارزمي ، الرياضي المعروف ، والذي عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ٠ اذ أن عالمنا هذا عاش في القرن الرابع الهجرى ٠ وألف كتابه الوحيد وأهداه الى أبي الحسن عبيد الله بن أبي العتبي الذي كان وزيرا من وزراء نوح الثانى السامانى ، فقد كان يشغل منصبا اداريا في بلاطه بنيسابور من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٨٧ هـ

وبقدر ما زخرت المراجع العامة بأخبار محمد بن موسى الخوارزمى وافاضت في ذكر أخباره وكتبه ، فقد ضنت على محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمى ، فلم يذكر أغلبها عنه شيئا ، والذى ذكر عنه لم يزد على مقتطفات هزيلة ،وكذلك الحال بالنسبة للمراجع الاجنبية التى حفلت بذكر أخبار العالم الأول ، فقد نال شهرة عظيمة عند الافرنج ودخل اسمه المعاجم الافرنجية فقيل : Algorismus, Guarismo, Algorithm
وقد تعلم أهل الغرب علم الحساب عن كتابه في الحساب بعد أن ترجم الى اللاتينية وعن كتب أخرى بنيت على هذا الكتاب ، وقد نشر فردريك روزن النسخة العربية لكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي سنة ١٨٣١م ، وطبعها في لندن ونشر معها ترجمة انجليزية له مع تعليق باللغة الانجليزية ، وبعد ذلك ترجم « مار » الفصل الخاص بالمساحات معتمدا على النسخة التي حققها روزن ٠ وفي سنة١٩١٥ نشر كاربنسكى ترجمة عن النسخة اللاتينية التى ترجمها روف أوف تشستر عن الأصل العربى ٠

هذا ، وقد حقق الكتاب المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة

والدكتور محمد مرسي أحمد عن نسخة محفوظة بأكسفورد ، ونشر هذا التحقيق في القاهرة سنة ١٩٣٧ م. وللخوارزمي هذا غير كتاب الحساب وكتاب الجبر والمقابلة كتاب في تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس . وكتاب رابع جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . (الدليل الببليوجرافى ، ط . مركز تبادل القيم الثقافية ، ص ٣٢٠ ، القاهرة ١٩٦٥)

ويقول فان فلوتن G. Van Vloten الذي نشر كتاب «مفاتيح العلوم» في ليدن في يناير سنة ١٨٩٥ وقدم له باللغة اللاتينية ان الخوارزمى (أبا عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف) على علم تام باللغة الفارسية فقد كان يرجع الكلمات العربية الى أصلها الفارسي . ومن المحتمل أنه كان يعرف شيئا من اللغات اليونانية والسريانية والسنسكريتية . ومما لا شك فيه أن معرفته بهذه اللغات أفادته من مؤلفات العلماء أمثال اقليدس ونيقوماخوس وهيرو وفيلون . غير أنه لم يكن من عادته ذكر أسماء المراجع التى اعتمد عليها الا فيما ندر ، عدا ما يتعلق بالخليل بن احمد الذى جاء ذكره في كتابه ثلاث عشرة مرة ، وذكر أيضا أسماء بن درستويه والأصمعي وابن المقفع ورسائل اخوان الصفاء .

ولم تذكر المراجع تاريخ مولد الخوارزمى ، واتفق أغلبها على ذكر تاريخ الوفاة ، فقد ذكر المستشرق فيدمان F. Wiedemann في دائرة المعارف الاسلامية ، وحاجى خليفة في كشف الظنون ، وفان فلوتن فى مقدمته لمفاتيح العلوم ، وبرو كلمان فى التاريخ الآداب العربية ، وجورج سارتون في المدخل الى تاريخ العلوم Introduction to the History of Science أن الخوارزمي توفى سنة ٣٨٧ هـ . ولكن البغدادي في كتابه (تاريخ العارفين) قال إنه توفى حوالي سنة ٣٨٠ هـ . وفي رأينا أن التاريخ الأول هو الأصح اذ أنه ظل يعمل في بلاط نوح الثاني الساماني من سنة ٣٦٦ هـ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

- ٢ -

وقبل أن نتحدث عن « مفاتيح العلوم » نذكر كلمة عن المصطلح العلمى Scientific Term المصطلح العلمى هو اللفظ الذى يتفق عليه العلماء ليدلوا به على شيء محدود ، ويميزوا به معانى الأشياء بعضها عن بعض . وهو جزء من المنهج العلمى وركن أساسى في كل علم ، فـ « العلم لغة أحكم وضعها » كما قيل قديما . فهو لغة التفاهم بين العلماء ،

وهو الذى يعين على حسن الأداء ويدور عليه تبادل الآراء والأفكار ، وهو أيضا النافذة التى يطل منها العلماء على غيرهم من الدارسين والمثقفين والأساس الذى يتبلور فيه التعاون بينهم ، اذ هو من ضرورات العلم واحدى وسائله الهامة في التعليم ونقل المعلومات · فبالمصطلحات العلمية تقرب المسافة ، ويختصر الطريق ، وتوضح الدلالة ، وتستساغ الحقيقة العلمية ·

والمصطلحات العلمية تتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها ، بما يصاحبها من اكتشافات واختراعات · فليس من شك في أن التقدم والتطور في مجال العلوم ـ تنتج عنه أشياء جديدة تقتضى مسميات فيصطلح العلماء على تسميتها تسمية توائم بين المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى الذى يختارونه أو لا توائمه ، فان العالم هو في اختيار اللفظ الذي يؤدى به الحقيقة العلمية · اذ من البديهي أن علماء كل علم هم ذوو الاختصاص المباشر في وضع مصطلحات علمهم ، وهم ـ فوق ذلك ـ قد يطلقون لفظا واحدا في علم واحد على معنيين مختلفين ، ما داموا قد ارتضوا ذلك واصطلحوا عليه ، وهم كما يستمدون لفظا من الفصحى فانهم يستمدون آخر من العامية ، وكما يستعينون باللغة الحية فانهم يستعينون باللغة الميتة ·

والمصطلحات العلمية قديمة قدم العلم ، عرفت أيام قدماء المصريين وأيام ازدهار حضارة اليونان والرومان ، وقد عرفها العرب قبل ظهور الاسلام بقدر ما كان لديهم من علوم محدودة تدور في فلك محدود وتتناسب مع حياتهم داخل الجزيرة العربية · وازدهرت بظهور الاسلام وما أتى به من نظم تغلغلت في حياتهم الخاصة والعامة ونظمت العلاقات الفردية والعلاقات العامة · فوضعت أسس المعاملة في داخل الأمة ، بل الانسانية جمعاء ، وما ينبغى أن يسير عليه الفرد بالنسبة لربه وما تقتضيه العبادات من شروط وأحوال · فكما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الاحكام الدينية ، فقد شرع أيضا أسس الاصطلاح واستعمال الألفاظ ، فنبتت على يديه بذور الاصطلاحات الفقهية في القرن الأول للهجرة ، وذلك بنقله بعض الألفاظ من معانيها اللغوية الى حقائق عرفية شرعية · وقد ظهرت آثار هذا النبت وأينعت في القرن الثالث الهجرى بفضل المدنية التى ازدهرت من أواخر القرن الثانى الهجرى فأثرت فى كل شىء بما فى ذلك تفكير الناس وتعبيرهم ، وبفضل التدوين ، فان التدوين يستلزم تحديد المعانى في ألفاظ تدون للدلالة عليها ، ويقتضى صبغ الأحكام بالصبغة

العلمية . ولقد كان للاختلاف بين فقهاء الحجاز وفقهاء العراق أثـــره الواضح في امعان النظر في أدلة الأحكام ومصادرها وتحديد ما يدل عليـــه الدليل وتمييزه عن غيره . وقد أدى ذلك الى وضع كثير من المصطلحـات التى كونت ثروة ضخمة ظهر أثرها جليا في دراسة العلوم القانونية باللغة العربيـــــة .

وكما أثرت مدنية الاسلام في الدراسات الفقهية ، فقد ظهر أثرهـــا أيضا في العلوم الأخرى فنشأت دراسات أسفرت عن علوم واضحة المعالـــم منهجية الأسس في اللغة والدين والقرآن والحديث والشريعة بصفة عامة ، علوم تداولها العلمـــاء وعلموها طلابهم وزخرت بالمصـطلحات العلمية .

ولقد كان لمدرسة المفكرين الأحرار في الاسلام ، وهى مدرسة المعتزلة بحوث عقلية هدفها الملاءمة بين العقل والنقل . فكان من الطبيعى أن تظهر في كتاباتهم مصطلحات واضحة ذات مفهوم محدد ، استعملوها في مجادلاتهم وسجلوها في كتبهم ، مثل كتاب المغنى لشيخهم القاضى عبد الجبار الهمدانى الذى نشرت أجزاؤه التى تم العثور عليها منذ مدة قريبة بالقاهرة . فمـــن أصولهم الخاصة اصطلاحات العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ،ومايتبعها من الصلاح والأصلح والحسن والقبيح العقليين والجبر والاختيار وما الى ذلك ، ثم المنزلة بين المنزلتين ،. والقول بالمعروف والنهى عن المنكر .

وقد تبنى الفلاسفة المسلمون ، بعد ذلك ، كثيرا من مصطلحاتهـــم مثـــل الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر الفرد ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون ، والجسم والروح ، وهى كلها ألفاظ عربية اختيرت في دقـــة متناهية بما يلائم المعاني التي يراد التعبير عنها .

أما عصر الترجمة فقد مر بدورين : دور النقل المعجل اشباعا للنهم العقلى ، وقد كان من الطبيعى أن تتسلل في هذا الدور بعض المصطلحـات الأعجمية مثل : هيولى ، وأسطفس ، وفنطاسيا ، وناموس ... الـــخ . ودور التمحيص والاتقان فيما ترجم ويترجم ، وفيه ظهر العقل العربـــى ماردا جبارا مستبصر المدارك مستنير الملكات ، فراجع ما نقل في هدوء ، ووضع مصطلحات عربية خالصة بدلا من المصطلحات الأعجمية ، بل جـــدد وزاد وأبدع وأجاد .

وقد نقل المسلمون عن العبرية والسريانية والفارسية والهنديـــــة واللاتينية واليونانية . وترجموا بعض الكتب عدة مرات وفقا للاصـــول التى عثروا عليها . وغذت مدارس الأسكندرية وجند يسابور وحـــران المسلمين بالكتب والمترجمين من مسيحيين ويهود وصابئة وهنـــود وفرس .

وقد تكونت بفضل الترجمة مصطلحات علمية في الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق والسياسة وجميع العلوم التى ترجمت · واعتمد المترجمون في هذا المجال على اللغة العربية أولا ، فاستعملوا المجاز باستعارة ألفاظ ذات دلالات لغوية معروفة ، وشاءوا لها تأدية معانى جديدة ، ولجأوا فى بعض الأحيان الى العلوم الأسبق تكوينا مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعانى الجديدة ، وبذا ظهر بعض المصطلحات المشتركة بين العلوم المختلفة عند المسلمين ، كما أشار الخوارزمى وكما سنبين ذلك في جزء لاحق من هذا الفصل ان شاء الله ·

ولم يقف العرب عند هذا ، بل نحتوا ، واشتقوا ، واستعملوا المصدر الصناعى · فقالوا بالهوية والماهية وما الى ذلك ، وضموا « لا » النافية لينشئوا لفظا جديدا ، فقالوا باللاأدرية واللانهائية ، وهو ما يسمى بالتركيب المزجى ·

وهكذا نرى أن العرب قد لجأوا في مصطلحاتهم العربية والدخيلة الى المجاز والاشتقاق والترجمة والتعريب ، ولم يستعينوا بالنحت الا فى النادر ، ولجأوا أيضا الى التركيب المزجى ·

وهناك كتب كثيرة تناولت المصطلحات العربية ، منها كتب عامة تعرضت لمجموعة من العلوم ، وكتبت خاصة تخصصت في فن معين · ونذكر منها على سبيل المثال ــ لا الحصر ــ كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، وكليات العلوم لأبى البقاء الحسينى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ، والتعريفات للجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، والبصائر النصيرية في علم المنطق للسادى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ · وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى ·

- ٣ -

لم يدلنا أى مرجع من المراجع العامة التى تحدثت عن الخوارزمى أن له كتابا آخر غير كتاب مفاتيح العلوم · وقد نشر الكتاب في القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ ، أى منذ خمسة وخمسين عاما ، في مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وذيل بفهرس عام في أربع صفحات · ولم يكتب على غلافه الا العبارة التالية التى تقول « عنى بتصحيحه ونشره للمرة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ ادارة الطباعة المنيرية » · وقد قام النشر على نسخة خطية مكتوبة بخط نسخ منقوط واضح القراءة ، على ما يبدو من احدى ورقات المخطوط التى صورت وظهرت فى أول الكتاب · ومن أسف ، لم يكشف الناشر عن اسم المخطوط ولا عن المكان الذى حفظ فيه · هذا من جهة ،

ومن جهة أخرى ، فانا لا نستطيع القول بأن هذا النشر محقق ، فهو لا يعدو أن يكون طبعا للمخطوط كما هو بدون تعليق أو شرح أو حتى تصحيح ٠

وليس صحيحا أن هذا النشر هو الأول ، كما ذكرت طبعة القاهرة ، اذ أن كتاب مفاتيح العلوم طبع طبعة علمية أخرى منذ أكثر من سبعين عاما فى ليدن ، بتحقيق فان فلوتن فى يناير سنة ١٩٨٥ م ، معتمدا في نشره على خمس مخطوطات ٠ متخذا مخطوطة ليدن أساسا ، ومراجعا لها على أربع مخطوطات أخرى : ثلاث مخطوطات في المتحف البريطانى ، والرابعة هى مخطوطة برلين التى توجد ضمن مجموعة لاندبرج وقد قدم له الناشر بمقدمة ضافية ، وان لم يذيله بفهرس عام ، كما فعلت نشرة القاهرة ، اكتفاء بالتقسيم الذى ذكره المؤلف في أول الكتاب للمقالات والأبواب والفصول ٠ وقد وقعت نشرة فلوتن في ثلاثمائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير ، منها مائتان وست وستون صفحة للنص ، وثلاث وخمسون صفحة للمصطلحات التى وردت في الكتاب ، وتسع صفحات لأسماء البلدان ، عدا مقدمة باللغة اللاتينية في سبع صفحات ٠

هذا ، وقد نشرت الألفاظ الاصطلاحية التاريخية التى وردت فى الكتاب في المجلد السابع من المجلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٨ مضبوطة محققة بمعرفة الدكتور يحيى الخشاب والمرحوم الدكتور الباز العرينى ، ومقدما لها بقلم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال ٠ وقد انفرد الدكتور يحيى الخشاب بضبط الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى المختص بعلم الكلام : وموضوع الفصل الأول « في مواضعات متكلمى الاسلام » ، وموضوع الفصل الثانى « في ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب الاسلامية » ٠ وأورد شروحا على ما ورد فيهما من مصطلحات من كتب : كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ، وكتاب تبصرة العوام في معرفة مقالات الأنام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب اليزيدية ومنشأ نحلتهم لأحمد تيمور ،وكتاب تاريخ اليزيدية وصل عقيدتهم لعباس العزاوى ، وكتاب مختصر كتاب (الفرق بين الفرق) للبغدادى ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبغدادى بقلم عبد الرازق بن رزق الله الرسعنى ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسر ترجمة يحيى الخشاب

عن الفارسية ، وكتاب التبصير في الدين للاسفرائينى وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع •

واشترك الدكتور يحيى الخشاب مع الدكتور الباز العرينى في ضبط وتحقيق الفصل الخامس من الباب الثانى من المقالة الأولى أيضا ، وعنوانه « في أسامى أرباب الملل والنحل المختلفة » والفصل السادس الذى يتكلم عن « عبدة الأصنام من العرب وأسماء أصنامهم » ،والباب الرابع بأكملهويحتوى على ثمانية فصول تتناول الكلام عنالألفاظ التى تستعملفي كتابة الدواوين كديوان الخراج وديوان الخزن وديوان البريد وديوان الجيش وديـــوان الضياع والنفقات وديوان الماء ، ومواصفات كتاب الرسائل ، وكذلـــك الفصول : الأول والثالث والسادس والثامن والتاسع من الباب السادس الذى يتكلم في الأخبار فيذكر ملوك الفرس وألقابهم وملوك اليمن في الجاهلية وألقابهم ، ويذكر بعض الألفاظ التى يكثر جريها في أخبار الفرس وأخبار عرب الاسلام وملوك عرب الجاهلية وملوك الروم • وقد قام الدكتور يحيى الخشاب بضبط وتحقيق الألفاظ الفارسية ، وقام الدكتور الباز العرينى بضبط وتحقيق الألفاظ العربية معتمدين على بعض المراجع العامة •

قلنا ان الخوارزمى كتب كتابه للوزير أبى الحسن عبيدالله بن أحمد العتبى • وقد بين ذلك في المقدمة القصيرة التى قدم بها الكتاب • ومفاتيح العلوم ـ كما يتبين من اسمه ـ يعد مدخلا للعلوم ومفتاحا لأكثرهـــا • ويتحدث عن الألفاظ المصطلح عليها في كل علم ، والتى تواضع عليـــها العلماء واتفقوا على معانيها والمجال الذى تستعمل فيه ، وهى ألفاظ ـكما يقول الخوارزمى ـ خلت منها أو من جلها كتب اللغة • وقد تحرى فـــى مصطلحاته « الايجاز والاختصار ، وتوقى التطويل والاكثار ، وابتعد عن ذكر المشهور والمتعارف بين الجمهور ، وكذلك الغامض الغريب الذى يحتاج الى شرح طويل وتفسير كثير » •

وقد قسم الخوارزمى « مفاتيح العلوم » الى مقالتين : تحتوى المقالة الأولى على ستة أبواب ، فيها اثنان وخمسون فصلا ، وتحتوى المقالة الثانية على تسعة أبواب ، فيها واحد وأربعون فصلا ، وبذلك يكون الكتاب كلـــه يحتوى على خمسة عشر بابا ، فيها ثلاثة وتسعون فصلا •

وقدخص المقالة الأولى بالعلوم الأدبية أو ما يغلب عليها روح الأدب من فقه وعلم كلام ونحو وكتابة دواوين وشعر وعروض وأخبار • وخص

المقالة الثانية بالعلوم التى تغلب فيها روح العلم من فلسفة ومنطق وطب وحساب وهندسة وعلم النجوم وموسيقى وحيل وكيمياء ·

ويبدأ الخوارزمى كتابه بالحديث عن الفقه في الباب الأول من المقالة الأولى ، فيتكلم في أصول الفقه والطهارة والصلاة والصوم .والزكاة والحج وشروطه والبيع والنكاح والديات والفريضة والنوادر · فهو في أصـــول الفقه يذكر أنها ستة أصول :ثلاثة متفق عليها وهي الكتاب والسنة والاجماع وثلاثة مختلف فيها وهى القياس والاستحسان والاستصلاح ، وهو في كـــل ذلك يضع شروحا وتعريفات توضح السبيل لمن يشتغل بعلم الأصول · أما فيما يتعلق بالطهارة ، فيعرف الخوارزمى الماء المضاف ، والماء المطلـــق ، والماء المستعمل ، وسؤر الكلب ، والتحرى ، والاستنثار · وفي فصل الصلاة والأذان يعرف التثويب والترجيع والتحريم والتشهد · ويتحدث عن الصوم فيعرف القلس والاعتكاف ، والفجر الأول ، والفجر الثانى · ثم يعرف ــ عند الكلام على الزكاة ــ الورق ، والنصاب ، والركاز ، والكسعة ، ومـا الى ذلك من أوزان ومكاييل تستعمل في مجال الفرض الثالث مـن فروض الاسلام · وعندما يتكلم عن الحج يعرف القرآن ، والتمتع ، والافـــراد ، والاستلام ، والهدى ، والتجمير · وفي الفصل السابع يتكلم عن البيـــع والشركة ، فيعرف بيع العرايا ، وبيع الغرر ، وبيع المزابنة ، وبيـــع المحاقلة ، وبيع النجش ، وبيع المضاربة · ثم يتناول الكلام عن النكـــاح والطلاق في الفصل الثامن ، فيعرف زواج الشغار ، وزواج المتعة ، وطلاق الظهار ، والايلاء ، والملاعنة ، والقرء ، والاستبراء والمحلل ، ويتكلم عن الديات في الفصل التاسع ، فيعرف الغرة والقسامة ، والأرش والشجاج · وفي الفصل العاشر يتكلم في الفريضة فيعرف العصبـــة ، والكـــــلالة ، والأكدرية ، ثم يعرف التناسخ في مجال الوراثة · وعندما يتكلم عن النوادر في الفصل الحادى عشر يعرف اليمين ، والنكول ، والجرح والحجـــــــر والتدبير ، والمكاتبة ، والتعجيز ، والرقبى ·

وهكذا يسير الخوارزمى فيما يتعلق ببقية أبواب وفصول المقالـــة الأولى من كتابه ،فيعرف المصطلحات التى ترد في علوم اللغة والكلام والنحو والشعر والعروض والأخبار ·

أما المقالة الثانية من « مفاتيح العلوم » فهى ــ كما قلنا ــ تتناول الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم وعلم الموسيقى وعلم الحيل والكيمياء · ويبدأ الخوارزمى مقالته هذه بالكلام في الفلسفة

وقد اعتبرنا من علوم العجم وهي العلوم التي وقف عليها هذا الجزء من كتابه ، وقد قسم الباب الخاص بها الى ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الاول عن أقسام الفلسفة وأصنافها ، وفي الفصل الثاني عن « جمل ونكت عن العلم وما يتصل به » ، وفي الفصل الثالث عن « ألفاظ ومواضعات يكثر جريها في كتب الفلسفة » • أما فيما يتعلق بأقسام الفلسفة ، فيبدأ الخوارزمي الكلام فيها بأن كلمة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلا سوفيا وتفسيرها محبة الحكمة . « ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح » • ثم قسمها قسمين : جزء نظرى ، وآخر عملي والنظرى له ثلاثة أقسام : قسم يفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة . وقسم يفحص فيه عن ما يخرج عن العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الالهية ، وقسم يفحص فيه عن أشياء موجودة في المادة لا عن أشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات ويسمى العلم التعليمي والرياضي • وهذا القسم متوسط بين العلم الأعلى وهو الالهي وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي • ثم يتناول الخوارزمي الفلسفة العملية فيقسمها الى ثلاثة أقسام أيضا : القسم الأول هو علم الأخلاق ، والثاني تدبير المنزل ، والثالث السياسة • ويرجع المؤلف مرة أخرى الى الفلسفة النظرية ليذكر الفروع التي تقع تحت أقسامها ، فيذكر أن العلم الطبيعي يندرج تحته علم الطب وعلم الآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وجميع طباع الأشياء التي تقع تحت فلك القمر ، وكذلك صناعة الكيمياء ويذكر أن العلم التعليمي والرياضي ينقسم الى أقسام أربعة .: الأريثماطيقي أي علم العدد والحساب ، والجويطريا أي علم الهندسة . والأسطرنوميا أي علم النجوم ، وعلم الموسيقى • هذا فيما يتعلق بأقسام العلم الطبيعي والعلم التعليمي • أما العلم الالهي فقد أفرد له الخوارزمي فصلا خاصا به سماه « في جمل العلم الالهي » ، فذكر أن « الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجود العالم وهو السبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق ، وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة او جهات ، وصفته الخاصة أنه واجب الوجود ، وسائر الموجودات ممكنة الوجود » • ثم عرف العقل الفعال بأنه القوه الالهية التي يهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلي من أفلاك وكواكب وجماد وحيوان وانسان • وعرف أيضا العقل الهيولاني ، والنفس ، والنفس الكلية ، والنفس العامة • ويخلص الخوارزمي بعد ذلك الى الفصل الثالث الذى خصه بالألفاظ التي تذكر كثيرا في الفلسفة

فعرف الهيولى ، والصورة ، والاسطقس ، والكيفيات الأول ، والمكـــان ، والخلاء ، والزمان ، والمدة ، والجسم الطبيعي ،والجسم التعليمي ، والتجزؤ الطبيعي ، والتجزؤ التعليمي ، وفنطاسيا التى قال فيها انها القوة المخيلة من قوة النفس وهى التى يتصور بها المحسوسات في الوهم وان كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة ٠ وعرف أيضا الأرواح عنـد الفلاسفة ، ورأى أنها ثلاثة أقسام : الروح الطبيعية وتشترك بين الحيوان والنبات ، والروح الحيوانية وتشترك بين الحيوان الناطق وغير الناطـق ومكانها القلب ، والروح النفسانية وهى تخص الانسان ومكانها الدماغ ثم عرف الكمون والاستحالة والارادة والمحال والكيان والنواميس ٠

أما الباب الثانى من المقالة الثانية فقد خصه الخوارزمى بالكلام في المنطق وقسمه الى تسعة فصول : تكلم في الفصـــل الأول عن ايساغوجي أي المدخل ، والثانى عن قاطيغورياس أى المقولات والثالث عن بارى ارمينياس أي العبارة ، والرابع عن أنولوطيقا أي القياس ، والخامس عن أفودقطيقي قطبقى أى البرهان ، والسادس عن طوبيقى أى الجدل ، والسابع عـــن أي البرهـــان ، والســـادس عن طوبيقي أي الجـــدل ، والســابع عن عن بيوطيقي أي الشعر ٠ ويلاحظ أنه اتبع التقسيم التقليدي لأجزاء المنطق الذى عرف منذ أرسطو وسار عليه فلاسفة الاسلام ، وما كان له ان يفعل غير هذا ، وهو الذى لا يهتم بالموضوع بقدر اهتمامه بالمصطلحات الواردة في العلم ٠

وقد تناول المؤلف في الباب الثالث من هذه المقالة موضوعات الطـب في سبعة فصول : فتكلم في الفصل الأول عن التشريح كما عالج الامــراض والأدواء والأغذية ثم الأدوية المفردة والمركبة وأوزان الأطباء ومكاييلهم في بقية فصول هذا الباب ٠ وقد عرف الشرايين والعروق والعضلات والأعصاب والمشيمة والشبكية والقرنية والاثنى عشر وغيرها ، كما عرف من الأمراض السمنة والهبرية والبهق والحصف والقوباء والجذام والســـح والسرطان والصرع واليرقان ، كما تكلم عن الأدوية المفردة فقـــال : انها اما نباتية وهي ثمر أو جـــذور أو زهر أو ورق أو قضـــبان او أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صموغ ، واما معدنية ، واما حيوانية ، وشرح الأفاقد والسنبل الهندي والميعة والســـاذج والضرو والجنطايانا واليبروج وعصا الراعى وعنب الثعلب ولسان الثور ٠

وفي الباب الرابع تعرض الخوارزمي لموضوعات الأريثماطيقي ، فعرف الكمية المفردة والكمية المضافة والأعداد والنسبة وحساب الهند وحساب الجمل ومبادىء الجبر والمقابلة ·

وتناول في الباب الخامس الهندسة وعالج موضوعاتها في اربعة فصول الاول في مقدمات الصناعة والثاني في الخطوط ، والثالث في البسائط ، والرابع في المجسمات ·

وتحدث في الباب السادس عن علم النجوم ، فعرض أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها وتركيب الأفلاك وآلات المنجمين كالاسطرلاب وأنواعه المختلفة من هلالى وكروى وزورقى وصدفى وغيرها ·

وخص الباب السابع بالموسيقى وآلاتها وايقاعاتها ·

والباب الثامن بالحيل من نحو جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، وآلات الحركات ·

وختم الخوارزمى كتابه بالباب التاسع من المقالة الثانية وخصه بالكيمياء وقسمه الى فصول ثلاثة : فصل في آلات الصناعة ، وآخر في العقاقير والأدوية من الجواهر والأحجار ، وثالث في تدبيرات هذه الأشياء ومعالجتهـا ·

والخوارزمي في جميع فصول كتابه يعرف المصطلحات تعريفات مختصرة أحيانا ، أو تعريفات تقرب من الشروح أحيانا أخرى ، وان كان الى المنهج الأول أميل · وهو في تعريفاته على العموم يراعي الدقة والايجاز ويضع اللفظ في مكانه المناسب ويستخدم التعبيرات العلمية ·

ومما لا شك فيه أن الخوارزمي في كتابه « مفاتيح العلوم » يعد من العلماء المستقرئين ذوى الاطلاع الواسع والقراءة الشاملة ، فقد اطلع على ما كتبه غيره من علماء وفقهاء وفلاسفة ومتكلمين ، واستخلص تعريفاته من مجالات استعمالهم لها ، وهذا شأن من يريد أن يبرز المصطلح العلمى في الحقل الثقافى . فهو يهتم أساسا بما تواضع عليه علماء كل علم وبما اصطلحوا عليه ، وباللفظ الذى نال حياة في كتاباتهم ، ثم يسجل هذا كله في قاموس مصطلحاته · فالمهمة الأساسية لواضع القاموس الاصطلاحى هى التسجيل بالاضافة الى الثقافة الواسعة والتزام المنهج العلمى في التبويب ، وهو ما نلحظه في كتاب مفاتيح العلوم وما يبدو واضحا في فصوله المختلفة فانه يذكر المصطلح الواحد في أماكن متفرقة في كتابه حسب التبويب الذي سار عليه ، ويفرق ــ بالطبع ــ بين استعماله عند طائفة من أهل العلم وبين

طائفة أخرى غيرهم ٠ فهـــو في الفصل الأول من الباب الثاني من المقالة الأولى الذى خصه بالكلام عن « مواضعات متكلمى الاسلام » يذكر تعريف الشىء عند المتكلمين بأنه « ما يجوز أن يخبر عنه وتصح الدلالة عليه » ٠ وفي مكان آخر من الكتاب يذكر أن « الشىء في كلام أهل الجبر والمقابلة هو الجذر المجهول » ، وذلك في الفصـــل الخامس الذي كان عنوانه « في وجوه الحسابات » من الباب الرابع من المقالة الثانية عند الكلام في الأريثماطيقي ٠

ويعرف « المعدوم » ــ عند المتكلمين ــ بأنه « ما يصح أن يقال فيه هل يوجد ، والمعدوم هو المنتفى الذى ليس بكائن ولا ثابت » ، ويقـــول بصدده ــ في مجال الكيمياء ــ ان الخارصينى جوهر غريب شبيه بالمعدوم »٠

ويعرف « الجوهر » عند المتكلمين ــبأنه « المحتمل للأحوال والكيفيات المتضادات » ويعرفه ــ عند الفلاسفة ــ بأنه « كل ما يقوم بذاته كالسمـــاء والكواكب والأرض وأجزائها والماء والنار وأصناف النبات والحيـــــوان وأعضاء كل واحد منها » ٠

ويذكر معنى « الاسم » ــ عند النحويين ــ بأنه أحد أجزاء الكـــلام الثلاثة ٠ ثم يذكره ــ عند المنطقيين ــ بأنه « كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه المحدود ، كزيد وخالد » ٠

ويعرف « الخط » ــ عند المتكلمين ــ بأنه « المجتمع من الجواهر طولا فقط » ، ويقول ــ عند الكلام في الأعداد المسطحة والمجسمة ــ « ان الواحد بمنزلة النقطة لأنه لا ينقسم ، الاثنان بمنزلة الخط لأنهما لا ينقسمان الا مرة واحدة ، كما أن الخط لا ينقسم الا طولا » ٠ وفي مجال علم الجغرافيا يعرف خط الاستواء قائلا : « ان خط الاستواء من الأرض هو الخط الذى يقابل معدل النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبى والشمالى ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبدا » ٠ وعند الكـــلام « في آلات المنجمين » يقول : « ان خط الاستواء هو الخط المقسوم الآخذ من المشرق الى المغرب المار على مركز الصحيفة ٠ وخط نصف النهار هو الخـــط الذى يقطع خط الاستواء على زوايا قائمة وابتداؤه من العروة » ٠

يعرف « الرجعة » ــ عند الشيعة ــ بأنها عند بعضهم « رجـــوع الامام بعد موته » ، وعند بعضهم الآخر « رجوعه بعد غيبته » ٠ ويقول عنها عند علماء الفلك ــ « بأن رجوع الكواكب ورجعتها هو سيرها طولا على خلاف نضد البروج » ويعرفها ــ في ألفاظ ديوان الكتابة ــ بأنها « حساب يرفعه المعطى في بعض العساكر بالنواحي لطمع واحد اذا رجع الى الديوان

و « الرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنـوف الاتفـــاق » ٠

ويعرف « الردف » — في علم العروض — بأنه « حرف لين قبـــل الروى مثل ياء ٠٠٠ » ويعرفه — في علم الأخبار — بأنه « هو خليفة ملك الحيرة وكان له المرباع من الغنائم وكان يجلس على يمين الملك ويشرب بعده قبل الناس كلهم ، والردافة هي الخلافة » ٠ ويقول عنه — في المنطق بأن « النتيجة ما ينتج من مقدمتين كقولك : كل انسان حى ، وكل حـى نام ، فنتيجة ما بين المقدمتين : كل انسان نام ، ويسمى الردف أيضا »٠

ويعرف « الضرب » — في علم العروض — بأنه « الجزء الاخير من البيت » ، ويعرفه — في الأريثماطيقي — بأنه « تضعيف أحد العددين بآحاد الآخر » ٠

ويعرف « العرض » — في الفلسفة — بأنه « ما يتميز به الشيء عن الشيء لامن ذاته ، كالبياض والسواد والحرارة والبرودة ونحو ذلـك » ويعرفه — في علم الكلام — بأنه « أحوال الجوهر ، كالحركة في المتحرك ، والبياض في الأبيض ، والسواد في الأسود » ٠

ويعرف « القلس » — في الفقه — بأنه « هو ما خرج من الحلق ملء الفم أو دونه » ، ويعرفه — في علم الحيل — بأنه « الحبل الغليظ الـــذى تشد به السفن وغيرها » ٠

ويعرف « القول » — في الفقه — بأنه « ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قاله » ، ويعرفه — في المنطق — بأنه « ما تركب من اسم » ٠

ويعرف « الوضع » — عند كتاب ديوان الجيش — بأن « يحلق على اسمه فيوضع عن الجريدة » ، وهو — في المنطق — « اسم للمقولة السابعة ويسمى النصبة وهى مثل القيام والقعود ٠٠٠ » ٠

هذه بعض المصطلحات التى وردت في كتاب « مفاتيح العلوم » والتى تستعمل في علوم مختلفة ، سقناها للدلالة على مدى الدقة التى وصـــل اليها المصطلح العلمى عند القدماء ، ومدى وضع المعنى الاصطلاحـى في تعبير موجز دال ، ومدى أهمية كتاب الخوارزمى في محاولة دراسة شاملة للمصطلحات العلمية عند العرب ٠ وان المتأمل فيها ليروعه تلك العقلية الفذة التى كان لها أثر واضح في كل مجالات العلم الموضوعية وكيـــف امتد هذا الأثر الى المجال الاصطلاحى ٠

منتخبات من الكتاب

١ ـ في أصول الفقه : أصول الفقه المتفق عليها ثلاثة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واجماع الأمة . والمختلف فيها ثلاثة : القياس ، والاستحسان ، والاستصلاح . فأما كتاب الله سبحانه ، فان سبيل الفقيه أن يعرف تأويله ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعموم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي ، والاباحة والحظر ، ونحوها مما شرح في التفاسير وكتب الدين . وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي ثلاثة أضرب : أحدها القول ، والثاني الفعل ، والثالث الاقرار . فالقول ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . والفعل ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله . والاقرار ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم . ثم من الأخبار (خبر التواتر) وهو ما رواه جماعة من الصحابة وقد اتفق عامة الفقهاء على قبوله ، ومنها ما هو خبر الواحد وهو ما يرويه الرجل الواحد من الصحابة وأكثر الفقهاء يقولون بقبوله على شرائط يطول الكلام بذكرها . ومن الحديث ماهو متصل ، وهو الذي رفعه الى النبي صلى الله عليه وسلم واحد عن آخر من غير أن ينقطع ، والمرسل والمنقطع مايرويه أحد التابعين الذين لم يرو النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل الحسن البصري وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، ويقول : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يذكر من حدثه به عنه ـ وقد قبله كثير من العلماء وزيفه بعضهم . وأما الاجماع فهو اتفاق الصحابة من المهاجرين والأنصار ، وكذلك اتفاق العلماء في الأمصار في كل عصر دون غيرهم من العامة . وأما القياس فقد قال به جمهور العلماء غير داود بن علي الأصفهاني ومن تبعه . والقياس نوعان : قياس علة ، وقياس شبه . فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة ولكن يقاس به على طريق التشبيه . وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما . وطرد العلة هو أن تجعل مطردة في جميع معلولاتها . وأما الاستحسان فهو ما تفرد به أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأى : ومثال ذلك جواز الحمام وان كان ما يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار . وقيل : الاستحسان هو قياس ، لكنه خفي غير جلي . وأما الاستصلاح فهو ما تفرد به مالك بن أنس وأصحابه ومثاله ما أجازه من تعامل الصيارفة وتبايعهم الورق بالورق والعين بالعين بزيادة ونقصان ، وان كان ذلك محظورا على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة .

٢ ـ أيس هو خلاف ليس ٠ قال الخليل بن أحمد : ليس انما كان لا في أيس ، فأسقطوا الهمزة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : ايتنى بكذا من حيث أيس وليس ٠

٣ ـ في ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وهـــي سبعة مذاهب : أحدها المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق ٠٠٠ والمذهب الثاني الخوارج وهم أربع عشرة فرقة ٠٠٠ والمذهب الثالث أصحاب الحديث وهم أربع فرق ، والمذهب الرابع المجبرة وهم خمس فرق ٠٠٠ والمذهب الخامس مذهب المشـــبهة وهم ثلاث عشرة فرقة ٠٠٠ والمذهب السادس المرجئة وهم ســـت فرق ٠٠٠ والمذهب الســابع مذهب الشيعة وهم خمس فرق ٠

٤ ـ في وجوه الاعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين ـ الرفع عند اصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة : وكذلك الضم وأخواته المذكورة والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة ٠ والفتح وأخواته عندهم الف ناقصة وان شئت قلت الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القيـــاس ٠ الروم والاشمام نسبتها الى هذه الحركات كنسبة الحركات الى حروف المــــد واللين أعنى الألف والواو والياء ٠

٥ ـ قانون الخراج أصله الذى يرجع اليه وتبنى الجباية عليه وهى كلمة يونانية معربة الرزنامج تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجرى كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك ٠٠ الموافقة والجماعة حســـاب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع اليه فان انفرد به أحدهما دون أن يوافـــق الآخر على تفصيلاته سمى محاسبة ٠

٦ ـ الفيء ما يؤخذ من أرض العنوة ٠٠٠ الخراج ما يؤخذ مــــن ارض الصلح ٠٠٠ العشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها والتى أحياها المسلمون من الأرضين أو القطائع ٠٠ صدقات الماشية هـــي زكاة السوائم من الابل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة ٠

٧ ـ التسبيب أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبـــب له العامل على استخراجه فيجعل وردا للعامل واخراجاً الى المرتزق بالقلم

الحبة سدس سدس مثقال ، وان شئت قلت ربع تسع مثقـال ، والدينار ست وثلاثون حبة ، والشعيرة ثلث الحبة ، والدينار مائة وثمان شعيرات والشعيرة ثلث ربع تسع مثقال ، وقد تختلف هذه المقادير باختلاف البلدان لكن ذكرت ما هو أعم وأشهر ٠

٨ ـ الترصيع أن يكون الكلام مسجعاً متوازن المباني والأجزاء التي ليست بأواخر الفصول مثل قول أبي البصير : حتى عاد تعريضك تصريحا وتمريضك تصحيحا ٠٠٠ التضريس هو ضد الترصيع وهو أن لا تراعـى توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعها ٠٠٠ المضارعة أن يكون شبيـــــه بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتني ولكن خسستني ٠

٩ ـ العروض هو الجزء الأخير من النصف الأول من البيت وهـي مؤنثة ، وبما سمي علم العروض لأنه ان عرف نصف البيت سهل تقطيعه ٠ الضرب هو الجزء الأخير من البيت ٠٠٠ السبب الخفيف حرفان أولهـما متحرك والثاني ساكن مثل قد وعلامته ١٥ والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل أر وعلامته ٥٥ وذلك أن علامة الحركة عند العروضيين حلقة كالهاء وعلامة الساكن خط كالألف ٠

١٠ ـ المرازبة جمـــع المرزبان وهم من وراء الملوك ، وهم ملوك الأطراف ، ومرز هو الحد بالفارسية مرزبان وهو صاحب الحد ، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعني جيحون مرز توران أي حـــد الترك ٠ وكان أهل خراسان يسمونه مرز ايران أى حد العراق ٠

١١ ـ الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السـبب الأول والعلة الأولى وهو الواحد والحق وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات وصفته الخاصة أنه واجب الوجود وسائر الموجودات ممكنـــة الوجود ٠٠٠ العقل الفعال هو القوة الالهية التي يهتدي بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من الأفلاك والكواكب والجماد والحيوان غيـــر الناطق والانسان لاجتلاب مصلحته وما به قوامه وبقاؤه على قدر ما تتهيأ له وعلى حسب الامكان ، وهذه القوة التى في الأشياء التى في العالـــم الطبيعى تسمى الطبيعة ٠٠٠ العقل الهيولانى هو القوة في الانسان وهى في النفس بمنزلة القوة الناظرة في العين : والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر ، فاذا خرجت هذه القوة التى هى العقل الهيولانى الـــى الفعل تسمى العقل المستفاد ٠

١٢ ـ الشرايين هى العروق النابضة ، واحدها شريان ، ومنبتها من القلب تنتشر فيها الحرارة الفريزية أى الطبيعة وتجرى فيها المهجة وهى دم القلب • وأما العروق غير النوابض فمنبتها من الكبد ويجرى فيها دم الكبد • ومن الشرايين الأبهران وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منهما سائر الشرايين •

١٣ ـ الترياق مشتق من تيريون اليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعى ونحوها ويقال لهبالعربية أيضا الدرياق••• السكنجبين هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وان كان مكان العسل سكر ومكان الخل رب السفرجل أو غيره •

١٤ ـ علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وباليونانية اصطرنوميا واصطرهو النجم ونوميا هو العلم •

١٥ ـ علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض ••• فلك البروج هو الدائمة التى ترسمها الشمس بسيرها من المغرب الى المشرق في سنة واحدة وهو مقسوم اثنى عشر قسما وهى البروج •



ما وراء اللغة

للدكتور : يحيى عبد الرؤف جبر

نعني بهذه العبارة ما تنبيء عنه اللغة من خـــلال التبصر في العلاقات القائمة بين ألفاظها ومدلولاتهـــا ، من أمور كانت وماتزال موضوع مناظرات شتى ، كالخلاف حول ما اذا كانت اللغـــــة توقيفا أو اصطلاحا ، الأمر الذي نجده في مصنفات ابن فارس ، وابن جني وغيرهما • وأين تقف العربية من « اللهجات » السامية بل من « لغات » كثير من الأمم • الى غير ذلك من الأمور ، وسننفذ الى مســـارب هذا الموضوع عبر البحث في ألفاظ الجهات الرئيسية ودلالاتهـــا والعلاقة بينهـــا •

لقد تنبه المتقدمون الى جوانب من العلاقة بين الانسان والكون ، يحسن أن توصف بأنها غيبية أو حدسية ، ذلك أنها قائمة على معارف سطحية ، منها نظرية العناصر الأربعة والأمزجة الأربعة ، ويعتذر لهم بقصور عصرهم عن بلوغ مستوى هـــذا العصر في التبـــوغ العلمي والفكري • ومنهم من ذهب الى أن العالم ، أن الكون هو صورة أخرى للانسان وأن الأجزاء في كليهما متناظرة (المقدسي في البدء والتاريخ) فالعينان والشمس هما سبيلا الرؤية ، واليدان من الانســـان هما القطبان من الكون ، والقفا هو المغرب والتراب هو اللحم والحجـارة تناظر العظم ، والماء الدم ، وغير ذلك مما لا يخفى على طالبه ••• وسنكشف ، فيما بعد ، عن حقيقة ترشح هذا المذهب •

واذا كان الزمان فصولا أربعة ، وكان بين الفصول ما ينسب في طبعه الى طبيعة الفصلين اللذين يمتد بينهما ، وكان الزمان ذا حـــدود وعلامات دقيقة من ثانية الى دقيقة فساعة فيوم فأسبوع فشهر فعام ··· واذا كان نهاره غير ليله في طبعه ، فان المكان أقسام ونواح أربع هي المشرق والمغرب والشمال والجنوب ، وبين كل جهتين متواليتين جهة ، بل جهات فرعية تنسب الى كلتا الجهتين تبعا الى قربهــا من احداهما ، ويقسم المــكان درجات طولا وعرضا ، يحدد بها وتقوم علامات عليه كأجزاء الزمان · واذا كان ما بين حدي كل فصلين متواليين من فصول الزمان تسعين يوما (أو تسعين وحدة زمنية) فان ما بين حدي كل جهتين متواليتين تسعون درجة (أو وحـــدة مكانية) ·

وقل مثل ذلك في الانسان حيث تليه أربع اتجاهات هي القبل والدبر والجنبان ويلاحظ القارىء أننا أغفلنا جهتي الفوق والسفل من الكون ، ومن الانسان ، كما أغفلنا مثل ذلك في الفصول ، حيث هي ستة أيضا ، ذلك أن التقسيم الشائع قاصر على طبائع الجو نهارا ، أما ترى أن ليل الصيف كنهار الربيع ، وليل الربيع كنهار الشتاء الخ ·· ولتوضيح ذلك نقول : ان الشمس تمر في ثلاث « محطات » تطوق الأرض عرضا هي المداران وخط الاستواء ، فتكون الطبائع الأرضية في « حال ما » عنـــد مرورها باحدى المحطات ، فهي اذا « ثلاث أحوال » غير أن هذه الأحوال ليست لكل الكرة ، انما هي للنصف الطولي المشرق · فاذا احتسبنا النصف الآخر ، كانت ست أحوال ، أي ستة فصول ·

وسبب هذا الاغفال ، أن الكون كري ، وليس في الكرة فوق وتحت ، ثم ان الجهات الأربع تحدد بعلامات تقوم عليها هي المشرق والمغرب وما عن يمين ممتد ما بينهما وما عن شماله ، على العكس من الجهتين الأخريين ، حيث لا يقوم الدليل عليهما الا بالحساب · وسبب اغفالنا فصلين ، راجع الى أن الشمس تمر « بمحطة » خط الاستواء مرتين ينجم عنهما أربع أحوال كل اثنتين منها متشابهتان ، الأمر الذي يسوغ اغفال اثنتين · وقل في الانسان مايقال في الكون ، حيث أن انتشاره على الأرض كري أيضا ·

وأن التناظر والترابط بين الأربعات السابقة واردان ، وتوجيه ذلك على النحو التالي :

الصيف : العامل فيه الشمس المشرقة (المشرق) = قبل الانسان وعيناه ·

الخريف : العامل فيه ميل الشمس عن سمت المكان (جنوب أو شمال) = جنب الانسان ·

الشتاء : العامل فيه ابتعاد الشمس أكثر عن سمت المكان (غرب) : قفا الانسان ، حيث انها تكون كالغاربة عنه ·

الربيع : العامل فيه عودة الشمس الى وضعها في الخريف (شمال أو جنوب) : جنب الانسان ·

وتختلف طبائع الفصول ، وكذلك طبائع الجهات ووجهات الانسان ، وفي بلاد العرب تلتقي معظم الطبائع ، فالشتاء بارد الا أن تهامة تكون دافئة فيه ، والصيف حار ، الا أن المنطقة من الطائف الى عدن تكون معتدلة فيه ، وأمطار الشتاء تهطل على شمالها الى وسطها ، وأمطار الصيف تهطل على جنوبها الى وسطها أيضا ، ولذلك ، رأيت أهل وسطها ، ولا سيما أهل مكة يتجهون للتجارة في الشتاء جنوبا الى اليمن ، وفي الصيف شمالا الى الشام ، ليس اتقاء للمطر أو البرد أو الحر وحسب ، ولكن طلبا للمحاصيل التي تنتجها تلك البلاد ، عقب موسم المطر السابق على أوان الرحلة ، ولذلك من الله عليهم أن سخر لهم تلك الطبائع في قوله : « لايلاف قريش ايلافهم ، رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » صدق الله العظيم ·

أما اختلاف طبائع الجهات ، فليس أدل عليه من ملاحظة ما يحدث فيها فالشرق مبعث الضوء والنور من الشمس والقمر على التوالي ، ومبعث المعرفة والالهام والوحي والفلسفة التي تضيء الروح وتسمو بالانسان · والغرب مغرب الشمس ، ومصدر الظلام ومصدر المادية التي تجذب الانسان الى الأرض ·

أما الشمال والجنوب ، فالاختلاف بينهما ظاهر في تقاطيع الأرض وتضاريسها فاليابسة في نصف الكرة الجنوبي أقل بكثير من الماء فيه ، ومن اليابسة في النصف الشمالي ، وطبائع الأرض اوالبحر هنا وهناك ليست واحدة ، أما ترى العلماء يقولون : إن حيتان نصف الكرة الجنوبي لا تنتقل الى نصفها الشمالي · أما السماء ، فنجوم النصف الجنوبي غير نجوم النصف الشمالي ، سواء في توزيعها او في لمانها أو غير ذلك · وقل مثل ذلك في طبائع الجهات ، ولنأخذ مثلا لذلك بلاد العرب وهي مقصودة بهذا الأمر دون غيرها ، حيث نجد أن جنوبها خير من شمالها في طبيعته ، وأن الرياح التي تهب

من جنوبها خير من التي تهب من شمالها ، وهذه مسألة أتبناها وأدافع عنها بالدليل الحاسم ·

أما جوانب الانسان الأربعة فهي كسابقتها في اختــلاف طبائعها وفي ما أوجده الله فيها من جوارح · ففي قبله عيناه ؛ وهما شمسه ، ومعظم حواسه ، وسبيلاه الى التناسل والبقاء · وفي قفاه « مغرب » شمسه حيث لا يرى ولا يرى ما يليه ، الا بمرآه تــكون كالقمر اذا حجب الأفق الغربي الشمس · وفي شقه الأيمن كبده ومرارته بينما قلبه في شقه الأيسر ، ويمناه (جنوبه) خير من شماله (شماله) على نحو ما سنفصله فيما بعد ·

والفصول والجهات والطبائع أمور نسبية ، فما هو الى الشمال منــك يكون الى الشرق من غيرك أو الى الجنوب منه ، وهكذا ، وما هو عن يمينك يكون ، كذلك ، عن يسار غيرك أو من ورائه ، والصيف هنا ربيع هناك · وشتاء هنا وصيف هناك ، وحر هنا وبرد هناك ؛ وهكذا · وكذلك الزمان ممثلا في جزئه الأعظم ، وهو اليوم ، بليله ونهاره فالساعة الآن السابعة صباحا ، هنا ، وهي السابعة مساء ، هناك ، أو أقل ، أو أكثر ·· فالآن ليل ونهار ، وما الزمان الا ليل ونهــار متحركان أبدا · وسبب انتظامهما وازدواجهما هو أنهما يتحركان على محيط دائرة (الكرة عــدد ضخم من الدوائر) ولولا ذلك لكان الزمان أكثر من يوم وليلة · وأنت ترى أن بين كل اثنين متواليين من الفصول او الجهات أو الليل والنهــار ، أو الطبائع ماينسب اليهما ويأخذ منهما كالحال آخر النهار الى دخول الليـــل ، وآخر الليل الى ارتفاع الشمس فوق الأفق الشرقي ، حيث لا يكون الضوء خالصا ، ولا الظلمة خالصة ، وانما هي ظل من ضياء وظلمة · ويمكن القول عقب ذلك كله ان لكل من الأربعات السابقة حدين اثنين وحسب ، وما الاثنـــان

الآخران الا حلقتي وصل بينهما ، فيهمـــا من طباعهما مايجعلهما وسطا بينهما ، غير أنهما تتدرجان في طبعهما بالنسبة الى مبدأ الحركة فيهما تجاه ما يليهما · ويسهل تصــور ذلك بالتمثيل بالليل والنهــار أي الظلمة « الخالصة » والضوء « الخالص » ، حيث يربط بينهما ظل الفجر الى الشروق ، وظل الطفل الى الغروب · والظل خليط من الضياء والظلمة ، غير أن بداية ظل الفجر أدنى الى الظلمة ، وبداية ظل الطفل أدنى الى النور ويزداد الضوء في ظل الفجر كلما دنا الشروق ، وكذلك الظلمة في ظــل العشى كلما دنا الغروب حتى يستحيل الأول ضياء ، فيكون النهار ، والآخر ظلمة فيــكون الليـــل ·

وسنتعقب فيما يأتي ، الألفــاظ التي تعبر عن الجهــات الأربع ،

وما يناظرها في بدن الآدمي ، وما توحي به العلاقات القائمة بينهـــا وبين نظائرها ومدلولاتها من علم وحقائق ٠

ألفاظ الجهات هي الشرق ، أو المشرق والغرب أو المغرب ، والشمال والجنوب ونظائرها في الخلق الآدمي القبل أو القدام والدبر أو الخلف والجنب الأيمن والجنب الأيسر أو الأشأم ٠

وقد ظهرت الألفاظ التي يعبر بها عن الجهتين المعلم عليها بالشمس قبل غيرها ذلك أنها تعكس دلالتين تقعان على حدثين ليس أجـــل منهما في أثرهما ، وهما الى ذلك يمثلان الحيـــاة والموت ، ونقصد بهمــــا الشروق والغروب ٠ وأنت ترى أن اثنتين منهما صيغتا في مبنى اسم المكان، حيث يعلم بالموضع أو الاتجاه الذي يكون منه شروق الشمس ، على جهة الشرق ، وبالموضع أو الاتجاه الذي يكون فيه غروبها على جهة الغرب ٠ وكل مادة تبدأ بشين فراء فهي تنصرف لدلالة تقع على معنى الخروج والظهور ، وكل مادة تبدأ بغين فراء أو غين وحســـب فهي لدلالة تنصرف لمعنى الاحتجاب والاختفـــاء ، ولك أن تقلب ما في ذاكرتك من المفردات لتقف على هـــذه الحقيقـــة ٠

ولما كان اعتماد الانسان قديما على حسه أكثر من عقله ، وكان الشروق والغروب يدركان بحاسة البصر ، وكانت هذه الحاسة أشد الحواس توجيها للانسان وتأثيرا على معارفه وعلومه ، فقد أدى ذلك الى ظهور تلك الألفاظ في اللغات منذ أمد بعيد وقبـــل الألفاظ التي يعبر بهـــا عن الشـــمال والجنوب (١) ٠

وكان الناس والعرب أقصد ، يعبرون عن جهتي الشـــمال والجنوب دائما وغيرهما أحيانا بالظروف المبهمة مضافة الى علم ما ، كأن يقولوا : دون كذا ، أو قبل كذا ، وتلقاء كذا (تلقاء مدين) وشطر كذا « شطر المسجد الحرام » وعن يمين أو شمال كذا ٠٠ الخ ، ويدلنـــا على هذا ، أن أدب الجاهلية وصدر الاسلام ، والقرآن الكريم جاءت خالية من ألفاظ مفردة يعبر بها صراحة عن تينك الجهتين ، على العكس من الجهتين الأخريين ٠ ذلك أن الشمال والجنوب انما يدركان بالحساب ، ثم أنهم كانوا يعبرون عنهما بذكر الجدي أو الحوت ، للشمال ، وسهيل للجنوب ، كأن يقولوا شق الجدي ، أو اتجاه الحوت أو نحو ذلك ، غير أن هذا الأسلوب قد ظهر عقب الاســـلام ، وأكثر وروده في كتب الحساب والرحالة من الجغرافيين ٠ وقد يبادر قارىء فيقول : « ان كلمتي « الشمال والجنوب » كانتا معروفتين عنـــد العرب

قديما ، فأقول نعم ، لكن لدلالتين مختلفتين ، الأمر الذي سنبحث فيه فيما بعد • وقد استخدم العرب في التعبير عن الجهتين اللتين يعبر عنهما بطلوع الشمس وغروبها الألفاظ التالية :

(أ) « شرق » وقد وردت منسوبا إليها في القرآن الكريم حيث قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا » (٢) •

(ب) « غرب » وقد وردت منسوبا إليها في القرآن الكريم أيضا ، حيث قوله تعالى : « وما كُنْتَ بِجانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأَمْرَ » (٣) •

(جـ،د) المشرق والمغرب ، وقد وردا في قوله تعالى : وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ » (٤) أي مافيهما •

(هـ،و) المشرقين والمغربين ، وقد وردا في قوله تعالى : « رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ » (٥) ، وقد قيل هما مشرقا الشمس ومغرباها صيفا وشتاء • وقيل : بل هما مشرقا الشمس والقمر ومغرباهما (٦) •

(ز،ح) المشارق والمغارب ، وقد وردتا في قوله تعـالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا » (٧) ، قيل هي مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وتكون مابين مشرقي الصيف والشتاء ومغربيهما ، وهي نحـو من ثمانين ومائة مشرق ومغرب (٨) ، وقد كثر استخدام هذه المفردات بعد الإسلام تأثرا بالنص القرآني ، ولا سيما عقب اتساع الدولة الاسلامية ، ومن ذلك قول أسماء بن خارجة الفزاري : (سريع)

ما أصبحت في شر أخبية

مابين شرق الأرض والغرب (٩)

ومن ذلك قول عوف بن محلم يمدح المأمون : (رجز)

وابن الذي دان له المشرقا م ن طرا ، ودان له المغربان

ويناظر المشرق في العبرية « מזרח مزارح » واراه قريبـا من « مسرح » بجهر السين لتوائم شدة الضوء ، أي حيث تبدأ الشمس سروحها ، وفي التقرية charqu وهي سواء والشرق • أما « المغرب » فيناظرها في العبـرية מערב معراف ، وفي السريانية ܡܥܪܒܐ : معربا ، وفي هذا التناظر إشارة الى اتفاق الساميين في اشتقاق الكلمات الدالة على تينك الجهتين من مادتي « شرق وغرب » في معظم لغاتهم •

أما الكلمتان : شمال وجنوب فلم تعرفا لدلالتيهما على الجهتين اللتين تنحوان تجاه القطبين متعامدتين مع جهتي المشرق والمغرب ـ إلا بعد القرن الهجري الثاني بعد ما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية ، واستقر العرب في البلدان المفتوحة ، ونشطت حركة التعريب والترجمة ، الأمور التي أدت إلى ضرورة البحث عن لفظين يخصان بتينك الجهتين ، سواء كان ذلك ناجما

عن حاجة الناس اليهما في تحديد المواقع ، أو نتيجة لازدهار علم الفلك ٠ وقد تمخض عن ذلك التحول الى استخدام الكلمتين (شمال وجنوب) لدلالتين تجاوران دلالتيهما على الريحين اللتين تهبان من قبل الشام واليمن ٠

الشمال والجنوب (الريحان)

لم ترد هاتان الكلمتان في شعر الجاهلية وصدر الاسلام لدلالة على غير الريحين اللتين تهبان من قبل اليمن والشام ٠ ولم تردا في القرآن الكريم قط ٠ وأول ما وردتا لدلالة على الجهتين في أنواء ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ٠ وانما كان عرب الجزيرة يعبرون عن تينك الجهتين بمنسوب او ذي علاقة لفظية بالشام واليمن ٠ وقد تغيرت دلالتا الكلمتين ، وانفتق اطارهما فأصبحتا تستوعبان الجهتين الى جانب الريحين المذكورتين ، ذلك لعلاقة الظرفية ، حيث أن الجهتين هما مهباهما ٠ وكما عبروا عن الجهات بذي علاقة بالشام واليمن ، ثم باسمي الريحين ، فقد عبروا عن الريحين بذي علاقة بالشام واليمن ، فقالوا نسبة : شآمية ويمانية ، وهما نعتان اقيما مقام موصوفيهما وسترد شواهد ذلك فيما بعد ٠

وقد قرن العرب بين ريح الشمال وما يتشاءم به ، وبين ريح الجنوب وما يتفاءل به ٠ وأسوق فيما يأتي جملة من الشواهد توضح ذلك ، قال ابو كبير الهذلي : (طويل)

اذا كان عام مانع القطر ريحه صبا وشمال قرة ودبور (١١)

حيث عد الشمال في الرياح ، ومنه قول عدي بن زيد : (خفيف)

وحبي بعدَ الهدو تزجيه م شمال كما يزجى الكسير (١٢)

حيث أسند سوق السحاب للشمال أي لريح الشمال ، ومن ذلك في ريح الجنوب قول حميد بن ثور : (طويل)

ليالي أبكار الغواني وطرفها الي ، واذ ريحي لهن جنوب (١٣)

ومنه أيضا قول عدي بعد البيت السابق :

فاستدرت به الجنوب على ال م حزنة فالحنو ، سيره مقصور

حيث أسند مرى السحاب واستدرار المطر للجنوب ٠

وأنت تلاحظ أن الشواهد الأربعة السابقة تنطق بحقيقة تتمثل في ربط ريح الشمال بالقحط وسفر السحاب ، والبرد ، بينما لم تذكر ريح الجنوب الا مع ماينسب الى الخير والغوث ، لذلك نعت حميد بن ثور ريحه بأنها جنوب ، كناية عن المواتاه ، ولذلك أيضا ، قال عدي بن زيد « فاستدرت به الجنوب » حيث شبه فعل ريح الجنوب بالسحاب بفعل الرجل اذا استدر الناقة

لطلبها · ونحن نعلم أن المطر كان ــ ومايزال ــ أبرز العوامل التي تحكمت في حركة الانسان وتوزيع جماعاته ليس في الجزيرة العربية وحسب ، ولكن في شتى بقاع المعمور ·

ومما يؤكد ماذهبنا اليه قول لبيد بن ربيعة العامري : (كامل)

مرت الجنـوب له الرباب بوابل   ومجلجل قرد الرباب مديم (١٤)

حيث أسند مرى السحاب الى الجنوب ، ومما يدل على ذلك أيضا ، أنهم سموا بناتهم بتلك الريح لاقترانها باللين والخير · ومن ذلك جنــوب بنت العجلان (١٥) ، وجنوب الهذلية الشاعرة (١٦) ، وجنوب صاحبة عبد الله ابن سلمة الغامدي ، وقد ذكرها في شعره حيث قوله : (وافر)

كأن بنات مخر رائحات ، جنوب ، وغصنها الغض الرطيب (١٧) ·

ومن الشواهد التي تعكس موقفهم من ريح الشـــمال ، ذلك الموقف المقترن بالكراهية والتشاؤم ــ قول طرفة بن العبد البكري : (طويل)

فأنت على الأدنى شـــمال عرية   شآمية تزوى الوجوه بليل (١٨)

حيث شبهه في اضراره بأقربائه بريح الشـمال الباردة التي تقشـع السحب وتحول دون المطر ، وتضطر المرء الى أن يزوى وجهه اتقاء لها ·

وتوجيه ذلك جغرافيا ، أن ريح الشمال تهب شتاء ، وتكون باردة ، وغالبا مايصاحبها القحط والجدب ، ذلك أن السحب التي تقلها ، ما أن تبلغ أطراف الجزيرة الشـــمالية ، حتى تكون قد هراقت ماءها على الســـواحل الشرقية الجنوبية من البحر المتوسط فيخف السحاب ، وتنخرق الريح مسرعة ، فيزداد البرد ، ويتأزم الحال ، ذلك أنها تضيف الى شح المطر بردا شديدا ·

أما الجنوب ، فهي على العكس من ذلك ، حيث تهب صـــيفا ، أي في الفترة التي تهطل فيها الأمطار الموسمية على جنوب الجزيرة العربية ، الى مكة المكرمة (١٩) · فبالاضافة الى مايصاحبها من مطر عادة ، فهي تلطف الجو ·

غير أن العرب قد نسبوا الفضل في المطر الى الرياح ، ذلك أنها تأتي بالسحب فذهبوا الى أنها تستدرها ، بل لقد ذهبوا الى أبعد من ذلك حيث اعتقدوا أن الرياح تلقح السحاب ، ومن ذلك الرياح اللواقح ، وهي التي تسبق المطر ، والريح العقيم ، وهي الشديدة التي تسفر السحاب ، وما ذلك الا من من المجاز ، وقد ورد شيء من ذلك في القرآن الـــكريم حيث قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح » (٢٠) وقوله : « وفي عاد اذ أرسلنا عليهم

الرِّيحَ العَقِيم » (٢١) ومن قبيل ذلك أنهم نعتوا الرياح بما تنعت به الماشيه في هذا المجال ، فقالوا : ريح حائل ، والحائل من الإناث التي لم تُعَشَّر وقد انصرم أوان النزو . قال الطرماح بن حكيم : (مجزوء الكامل)

قَلِقٌ لأَفْنَانِ الرِّيَاحِ م للاقحٍ منها وَحَائل (٢٢)

وقال النابغة الشيباني : (كامل)

مرُّ الدهورِ مع الشُّهورِ تَنُوبُهَا ومن الرياح لقاحُها وعَقيمُها (٢٣)

وقال كثيِّر عزة : (طويل)

إذا مُسْتَتَابَاتُ الرِّيَاحِ تَنَسَّمَتْ وَمَرَّ بِسَفْسافِ التُّرابِ عَقيمُها (٢٤)

ريحا الشمال والجنوب ، والإنسان :

لهاتين الريحين ، بل للريح بعامة علاقة بالانسان ذات شعب كثيرة ، وأبرز الرياح أثرا في حياة العرب في جزيرتهم ، هما تانك الريحان ، وإن أخطرما يكشف علاقة الريح بالإنسان ، هو ما يعبر به عن الانسان من أسماء هي في الواقع مشتقات مما يعبر به عن الريح من مواد اللغة .

فالإنسان روح :

والريح أصلا « روح » ثم قلبت الواو ياء ، بدليل الجمع « أرواح » حيث تصدق في جمع الروح والريح . قال النمر بن تَوْلب في جمع الريح :

(كامل)

وبوارحُ الأرواحِ كلَّ عشيَّةٍ هَيْفٌ تَرُوحُ وَشَيْهَكٌ تَجْرِي (٢٥)

أي : الرياح الحارة التي تهب في النصف الثاني من النهار . وقال رؤبة ابن العجاج : (رجز)

تَنْفَحُهُ الأرواحُ والبَرْقُ الشَّرِيّ (٢٦)

أي تسوقه من مكان إلى مكان آخر .

والإنسان نفس والريح نفس :

يقال في التعداد سبع أنفس ، ونحو ذلك . وقال اسحق بن خلف البهراني في الريح : (مجزوء الكامل)

وكأنما ذر الهباء عليه أنفاس الرياح (٢٧)

أي : كأنّ الرياح قد أثارت عليه الغبار الدقيق ، واضافة الكلمة للرياح من قبيل إضافة الشيء الى مرادفه أو ما هو في معناه .

والإنسان نسمة والريح اللطيفة نسيم أو نسمة :

ومن ذلك في الريح قول الشاعرة : (طويل)

وهبَّت له ريحُ الجنوبِ وأنْشَرَتْ له رَيْدَةٌ يُحيي المُمَاتَ نسيمُها (٢٨)

وأنشرت : هبت مساء . رَيدة : لطيفة طيفة . وقال الطرماح :

(مديد)

ليـــــلة ، هـــاجت جمـــادية   ذات صر جربياء النسام (٢٩)
أي : ريح شمالية باردة الأنسام ٠

ولا غرابة في الأمر ، اذ ما الريح والنفس والنسيم والأهواء متحرك ، والهواء المتحرك في مجراه من الجهاز التنفسي هو سر الحياة ٠ وما أشبه الروح بالهواء (الريح) في اللطف والخفة والأهمية ٠ الهـــواء لا يـــكون ريحا الا بالحركة ، والانسان لا يكون ذا روح الا بالهواء المتحرك في مجراه الطبيعي منه ٠ وليس الهواء نسيما ولا نفســـا الا بالحركة ، وكذلك الانسان فهو لا يحيا الا بهما ما تحركا في مجراهما تخرج روح الانسان اذا لم تتحرك فيه الريح ٠

وتخرج روح الانسان فلا تعود نفســـا مالم تتنفس فيه الريح ، أو يتنفس هو الريح وتخرج روح الانسان فلا يعود نســـمة مالم تجر فيه الأنسام ٠

وهذه الحقائق ترتد بنا الى ما شبه بعض المتقدمين الانسان به ، حيث قيل انه نظير الأرض وماحولها ٠ فالعينان شمسه ، والأرض بطنه ، ومايليه تحته ، وهكذا الأمر الذي يسوغ القول أن حيز الغـــلاف الغـــازي ــ رئتاه والهواء المتحرك روحه ، والفضاء فوق ذلك هو الفجوة حول عنقه ، أو عنقه ٠ والهواء ألطف العناصر الأربعة ، والروح ألطف ما في الانســـان ، وكذلك نفســـه ٠

وارتباط دلالات المفردات السابقة بمعنى الحركة ، يكشف عن حقيقة فطرية ذلك أن الهواء الساكن سرعان مايفسد فلايعود صالحا ، ويفقد صلاحيته للاستنشاق واستمرار الحياة ٠ ولذلك كانت التهوية ضرورية جـــدا ، وما التهوية الا « تحريك » الهواء باستبداله ٠ وكل متحرك ذاتيا حي (٣٠) ، أو صالح للحياة ، من حيوان أو نبات أو نحوهما والماء المتحرك ــ الجاري ــ لا ينجس ولا يتغير ، أما الراكد فانه سرعان ما يتغير والانســـان المتحرك والمجتمع المتحرك يحملان الدليل على حيويتهما ٠

ولست أظن أن الانسان هو الذي رسم ماسبق أن وضحته من علاقة بينه وبين الهواء المتحرك ، أو أنه هو الذي قام بتوجيه تسمية الروح والنفس والنسمة أو أن الصدفة كانت من وراء ذلك ٠ ربما كان له أثر في بعضها ، لكننا نستبعد أن يكون له أثر في بعضها الآخر ٠

وتبرز العلاقة بين الانسان والهواء في كلمة أخرى وفي دلالتهما ، وهي الجشأة (٣١) وتعني الريح التي تهب قبل شروق الشمس ، آخر الليل ٠ كأنه

تجشأ بها • وجشأة الانسان تخرج من ظلمة جوفه ، وهذه خارجة من ظلمة الليل • غير أن هذه الكلمة لا تشير الى أبعاد عميقة كتلك التي أشارت اليها المفردات السابقة ، ذلك أنها مجازية الدلالة •

ومما يوضح أهمية الهواء للانسان – ونحوه – هو أن الهواء يمثل المجال الرئيسي الذي يستطيع الانسان أن يتحرك ويباشر عمله فيه ، كما أنه المجال الرئيسي الذي تباشر أخطر الحواس نشاطها فيه ، أعني السمع والبصر والشم ، فهي ، ولا سيما الأوليان ، لا يمكن أن تعمل عادة الا في الهواء •

ريحا الشمال والجنوب ومايرادفهما :

تسمى العرب ريح الجنوب « اليمانية » وأكثر ماوردت في آثارهم هو أن تنسب للسرعة وقد تكون ، كذلك ، قبل المطر ، أو بعده •

قال أبو ذؤيب الهذلي : (وافر)

ولا متحير باتت عليه ببلقعة يمانية نفوج (٣٢)

أي سريعة ، وباتت عليه : اما بالمطر أو بما تذروه عليه من قمش الأرض ودقاقها • وقال شبيب بن البرصاء : (طويل)

وحتى رأيت الحي تذرى عراصهم يمانية تزهى الغمام دروج (٣٣)

أي تثير الغبار • وتزهي الغمام : تذهب به بعد أن أراق ماءه • دروج : مسرعة وانما سميت يمانية ، نسبة الى اليمن ، لأنها تأتي من قبله ، وهذا من باب نسبة الشيء الى جهته •

وكذلك الحال بالنسبة لريح الشمال ، حيث سموها شآمية ، حيث تهب على بلاد العرب من قبل بلاد الشام (٣٤) • كما تسمى أيضا ، «الشمل» ومن ذلك قول مالك بن الريب : (متقارب)

ثوى مالك ببلاد العدو وتسفى عليه رياح الشمل (٣٥)

أي تسفى عليه الرمل والتراب • وهي الشمال ، ومن ذلك قول الكندي : (طويل)

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل (٣٦)

أي : أمحت آثارها بما جاءت به ريحا الشمال والجنوب من غبار • وهي الشأمل ايضا ومن ذلك قول أحد بني العنبر في نخلة : (طويل)

تدحى وتسمو في السماء برأسها وان هب يوما شأمل لم تجلل (٣٧)

أي : ريح شمال ، وخصها لشدتها ، وفي ذلك بيان قوة النخلة وقدرتها

على المقاومة وأنت ترى أن المفردات التي يعبر بها عن الريح التي تأتي من قبل بلاد الشام وهي (الشمال ، وشمل ، وشامل ، وشـــمأل) من مادة واحدة ، بإسقاط الهمزة من الأخيرتين إن كان ذلك هو الصواب ، وسنناقش هذه المسألة فيما بعد ٠

وأود هاهنا أن اشير الى العلاقة اللفظية بين الألفاظ السابقة وكلمة « الشّمال » التي تطلق على اليد اليسرى ، فهي جميعا من مادة « شمل » فيما قد يبدو ٠ ويناظر هذه العلاقة اللفظية علاقة دلالية معنوية بينها ٠ فقد تبينت أن العرب كانت تكره ريح الشمال وتتشاءم بها ، ولم تذكرها بخير ، ذلك أنها تسفر السحاب ، وتأتي ببرد شديد وقلما تجيء بالمطر ، كما تكره الشّمال وتعبر بها عن المعاني المكروهة كما سترى ٠

أما الجنوب ، فكانت محببة إليهم ، وقد سبق أن ذكرت شواهد لذلك ، واضيف هاهنا دليلا آخر على تيمنهم بالجنوب ومكانتها القريبة من أنفسهم ، ويتضح ذلك في إطلاقهم عليها اسم « النعامى » وهو مشتق من المـــادة « نعم » ومنها النعمة والنعومة والنعيم ، وهي لمعانٍ محبوبة ، أما تراهم يسمون بناتهم : « نعيمة » ، بل أما ترى الله أسمى نفسه (المنعم) ؟ قال أبو ذؤيب الهذلي في سحابة : « وافر »

مَرَتهـــا النُّعـــامَى فلم تَعْتَرِفْ   خلافَ النُّعامَى ، مِن الشام ريحا (٣٨)

أي : استدرّت ريح الجنوب تلك الســـحابة ، ولم تعرض لها ريح غيرها ، قادمة من قبل الشام فتسفرها ٠

ومن أسماء الجنوب : الخَزْرَج (٣٩) ، وقد وردت لعلاقة بالمطر في شعر أبي ذؤيب الهذلي ، وهي « الأَزْيَبَ » بدليل قوله صلى الله عليـــه وسلم : « إنَّ لِلّهِ تعالى رِيحا اسْمُها الأَزْيَبَ ، وهي فيكم الجنوب » (٤٠) ٠ والأزيب : الرجل الناشط إلى عمله (٤١) ٠

الشّمالُ واليمين :

تنصرف كلمة « شِمال » في العربية إلى دلالة تقع ما ينسب الى شـــق البدن الأيسر ، ماكان منـــه ، أو فيه ، كاليد ، أو يليــــه من الأجسام أو الجهات ، اضافة الى الدلالة على مايكره وما يكنى به عن الإثم والخسران ، ونحو ذلك ، ٠أما اليمين فهي لعكس ذلك في كل شيء ٠ وليس هذا الأمر عند العرب وحدهم ، بل هو عند غيرهم من الشعوب ، وسنبين جانبا من ذلك في حينه ، والشواهد لذلك في العربية أكثر من أن تحصى واليك تفصيل ذلك في القرآن الكريم وآثار العرب :

(أ) شواهد ارتباط اليمين بالفلاح والحق والخير :

قال تعالى : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » (٤٢) حيث جاء بعده قوله « في سدر مخضود* وطلح منضود* وظل ممدود* وماء مسكوب* وفاكهة كثيرة* لا مقطوعة ولا ممنوعة* وفرش مرفوعة* الى آخر الآيات ، الأمر الذي يشير الى فلاحهم وأنهم أريد بهم خيرا ٠

والميمنة هي اليمين ، مفعلة منها ، اسم مكان ، ومنه قوله تعالى : « فأصحاب الميمنة* ما أصحاب الميمنة* (٤٣) » اذ المقام لبيان مكانتهم عند الله ٠٠٠ وبمعنى أصحاب البركة والسعادة ومن ذلك قوله تعالى : « فمن أوتي كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم (٤٤) » كناية عن السعد وحسن العاقبة ٠

(ب) شواهد ارتباط اليمين بالقوة :

قال تعالى : « والسموات مطويات بيمينه ، سبحانه وتعالى عما يشركون » (٤٥) ٠ المراد باليمين القدرة ، والقوة ، لأن اليد ــ اليمنى) هي أداة القوة ومن ذلك قول الشماخ بن ضرار ، يمدح عرابة الأوسي : « وافر »

اذا ما راية رفعت لحرب　　　تلقاها عرابة باليمين (٤٦)

(جـ) ونتج عن ذلك أن انصرفت « اليمين » الى معنى الحلف والقسم ، ذلك أن القسم انما يكون تأكيدا للعزم ٠ والقوة سبيل انقاذ ذلك ، واليمين اليد هي الأداة ، ويرشح ذلك ، بل يؤكده ، أن العرب كانت تبسط ايمانها عند التحالف أو الحلف والقسم ٠

أما الشمال فهي لعكس ذلك في العربية ، ويكنى بها عن الخسران ، بدليل قوله تعالى : « وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول ياليتني لم أوت كتابيه » (٤٧) لأنه يعلم أن مافيه شهادة بقصوره وباستحقاقه العذاب الأليم ، فهو يتمنى لو لم يتسلمه ٠

ثم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتناول الطعام والشراب باليمنى دون اليسرى (الشمال) لأن الشيطان يستخدمها في ذلك ، والشيطان رمز الشر ٠ وأنه نهى عن استخدام اليمنى في الاستنجاء والاستجمار ، وأنه حبذ النوم على الشق الأيمن دون الأيسر ، وأنه أمر بتسجية الميت عليه ، أيضا ٠ ثم انك اذا صليت داخل الكعبة استقبلت ركنها اليماني ، دون سواه ٠ أو ماترى أن القلب في الشق الشمال ، وأنه كما يقال ــ مصدر العاطفة وهي القائد الى المراتع الوخيمة مالم توجه ٠ وأن الشارع أمر بقطع يمنى السارق لا يسراه ، لأنها كانت أداته في سرقته ٠ وأن الناس تنكر

العسر في الأيدي وتعده عيبا •

ومما يرجح ما أسلفت أن العرب كانت تتطير بالبارح من الطير ، وهو ما جاء عن شمالك ، وتتفاءل بالسائح ، وهو ما جاء عن يمينك • والبارح في مبنى الفاعل من (برح) لدلالة تقع على معنى الشدة والكراهة ، والسانح في مبنى الفاعل من (سنح) لدلالة تقع على معنى المواتاة ، ولهذا فقد كنى العرب بطير الشّمال عن المكروه ، وما يتمناه المرء لعدوه ، ومن ذلك قول أبي ذؤيب الهذلي : (طويل)

زَجَرْتُ له طيرَ الشّمال فإن تكن هواك الذي تهوى يُصِبْكَ اجتنابُها (٤٨)

أي أردت به مكروها • فان كانت تُحِبُّك حقا ، فإنها لن تبخل عليك ، وستواتيك • وقد عبر عن ذلك بالاجتناب ، أي هبوب ريح الجنوب ، كناية عن المواتاة •

نخلص مما سبق الى تقرير مايلي :

(أ) الشّمال : ريح مكروهة وليس لها فضل الجنوب •

(ب) الشّمال : هي اليد يكنى بها عن الخسران ، وليس لها فضل اليمين •

(جـ) كلتا الكلمتين مشتقة من المادة (شمل) فيما يبدو • وسنناقش هذه المسألة فيما بعد •

(د) الجنوب : ريح ذات فضل ، والعرب تتفاءل بها •

(هـ) اليمنى (اليمين) : هي اليد التي يكنى بها عن الحق والخير والقوة ، ويتفاءل بها •

وتقفنا الدراسة المقارنة بين العربية وبعض الساميات في مجال الألفاظ التي تخص بالجهات ، حيث التناظر قائم بينها جميعا ، وباستثناء كلمة « شَمال » • ويناظر الشّمال في العبرية שמאל : سمول ، وفي السريانية ܣܡܠܐ سمولو • ويناظر اليمين في العبرية ימן يمن وفي السريانية ܝܡܢܐ يمنا • أما الجنوب ، الجهة وليس الريح ، فقد استخدمت كلمتا : « تَيْمَن وتيمُنا » في بعض النصوص الجغرافية العربية للدلالة عليها ، ومن ذلك أن الهمداني (٤٩) أطلق على الجهة التي تهب منها ريح الجنوب اسم التَّيْمُنا • وقال اليعقوبي (٥٠) : « ومهب الجنوب القبلة — وهو مطلع سهيل الذي يسميه الحُسّابُ التَّيْمُنْ » • يريد سمت قبلة أهل العراق ، وأراد بالحساب الفلكيين والمنجمين • ولعل في ذكره الحساب اشارة الى أثر الترجمة ، والى أن هاتين الكلمتين في صورتيهما تينك من المعرب • ويناظرهما في دلالتهما اليمن وهي جميعا من مادة واحدة هي (يمن) ، ومنها ، لذلك ،

اليمن واليمين ٠ اذا ، هل لليمن والتيمن علاقة بما أوضحنا مما تمتاز به ريح الجنوب التي تهب من قبـــل اليمن (أو اليمانية في بعض النصوص) وما تمتاز به اليد اليمنى من فضل على الشمال ، واتصاف بما يســـتحب ويتفاءل به ؟ أليست «اليمين والمفردات السابقة» «اليمن والتيمن والتيمنا» مشتقة من المادة (يمن) ؟ أليس « اليمن » هو الجامع اللفظي والدلالي بينها جميعها ؟ ذلك أنه ينصرف للدلالة على البركة والفضل والفأل الحسن ، وأنها لمان تدور في اطار تلك الدلالة ٠

لكن ما العلاقة بين « الجنوب » الريح ، والجنوب « الجهة ، واليمين واليمن واليمن والتيمن » لقد سبق أن أوضحت أن العلاقة المعنوية قائمة على نحو بين وجذري وقد بينا فضل اليمين من قبل في بضع نقاط ، أما اليمن ، فهو مهب ريح الجنوب ــ وقد بينا فضلها سابقا ــ وقد كان ــ ومايزال ــ بلدا طيبا خصبا ٠ وقد سماه الاغريق باليمن السعيد ٠٠ وفي القرآن أخبار عن طيبة حيث قوله تعالى « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية* جنتان عَنْ يمين وشمال* كلوا من رزق ربكم واشكروا له* بلدة طيبة ورب غفور* » (٥١) وفي الأخبار والسير والتراث الأدبي العربي مما يشهد بذلك كثير ٠ ولذلك كانوا يقصدونه للتجارة شتاء ٠ ومما يذكر من فضل اليمن تنوع الطبـائع الجوية فيه في الوقت الواحد ٠ فتهامته حارة رطبة ، والجبل معتدل ومايليه شرقا حارٌ نهارا ، معتدل ليلا ، هذا في فصل الصيف ٠ أما شـــتاء فتهامة معتدلة والجبل بارد ومايليه بارد ليلا ، معتدل نهارا ، الأمر الذي يهيء فرصا كثيرة لتنويع الزراعة واستمرار النشاط على مدار العام ٠ أما العلاقة اللفظية فلا تنتظم سائر المفردات ٠ فالجنوب من المادة (جنب) والمفردات الأخرى من مادة (يمن) ٠ وسنجتهد ــ غير متكلفين ــ في البحث عن العلاقة بين اليمين والجنوب فيما يلي هذا ٠

لماذا اتفقت الساميات في الألفاظ التي يعبر بها عن « اليمين » تماما ، وعن الجنوب الى حد كبير ولماذا لم تتفق في الألفاظ التي يعبر بها عن جهة الشمال ، ألأن للأوليين ارتباطا باليمن ؟ ولأن للشـــمال ارتبـاطا بالشؤم ؟ اني أرى ذلك استنادا لما سبق أن بينته من تفاضل بين شقي البدن وفضل ريح الجنوب على ريح الشمال ، وفضل جنوب الجزيرة العربية على شمالها ٠

وقد جرت العادة على أن يذكر مايتفاءل به ، ومايستحب من الأمور بلفظه صراحة ، ولذلك كان الاتفاق بين تكلم اللغات في ألفاظ «الجنوب» ،

وأن يكنى عما يتشاءم به أو كان مكروها أو ينمى الى الشر ، الأمر الذي يدعمه قانون « التابو » أو تسمية الشيء بضده أو بمخالف لا يحمل مايشير الى سوء في الدلالة أصلا • وأمثلة ذلك في العربية ، وغيرها من اللغـــات كثيرة جـــدا •

وقبل الابتعاد عن « الجنوب واليمن » والعلاقة اللفظية بينهما ، أود أن أقف مع الطبيب على الشق الأيمن من البدن (الركن اليماني) والشق الجنوبي (الجنب الأيمن) لأسأله : أليس في خلوه من بعض الجوارح (القلب ، الطحال ، البنكرياس) مايجعله مختلفا اختلافا كبيرا عن الشـــق الأيسر ؟ أليست اليمنى هي مناط القوة والتحمل .والاستخدام الأكثر أهمية وتأثيرا ؟ أليس النوم على الجنب الأيمن أصح وأن الانسان ميال اليه بطبعه ؟ اني أرى أن اشتقاق « الجنوب » من الجنب ــ الأيمن انما كان بعـــد أن خصت كلمة « جنب » في الاستخدام بالجانب الأيمن لأنه أخص من الأيسر من حيث أهميته وكثرة استخدامه • وهاتان الحيثيتان كافيتان لجعـــل قصر الدلالة في المشتق الجديد أمرا ممكنا • وبهذا تكون دائرة العلاقة اللفظية غير المباشرة ، والمعنوية المباشرة بين الجنوب واليمن واليمن واليمين والجنب الأيمن قد أحكم حبكها واستمر مريرها • والآن أسأل : هل هناك فضل لجهة على أخرى كفضل ريح الجنوب على ريح الشمال وفضل اليمنى على اليسرى ؟ •

لقد ذهب بعض القوم الى أن بعض الجهات أشرف من بعض ، وأظهر ما يتضح ذلك في « تهافت التهافت » (٥٢) حيث قال ابن حزم « ان الأرض ليس لها سبب في أن كانت تهوى الى أسفل الا صفة الأرضية ، .وليس للنار سبب في أن تعلو الى فوق الا نفس طبيعتها وصورتها ، وبهذه الطبيعة قيل انها مضادة للأرض ، وكذلك الفوق والأسفل ليس لهما سبب به صارت احدى الجهتين أعلى والأخرى أسفل ، بل ذلك بمقتضى طباعهما ، واذا وجب اختلاف الجهات لأنفسها واختلاف الحركات لاختلاف الجهات فليس هنا سبب يعطى في اختلاف الحركات الا اختلاف جهلت المتحركات ، واختلاف الجهات لاختلاف طبائعها ، أعني أن بعضها أشرف من بعض (٥٣) • مثال ذلك : ان الانسان اذا أحس الحيوان يقدم في الحركة احدى رجليه من جهة بدنه ثم يتبع بها الأخرى • فقال : لم كان الحيوان يقدم هذه الرجل ويؤخر الأخرى دون أن يكون الأمر بالعكس (٥٤) • لم يكن هناك سبب يوفى في ذلك الا أن يقال انه لابد في حركة الحيوان من أن يكون رجل يقدمها ورجل يعتمد عليها ، وذلك يوجب أن يكون للحيوان جهتان يمين ويسار ، وأن اليمين هي التي

تقدم ابتداء لقوة تخص بها وان اليسار هو الذي يتبع ابتداء في الأكثر ـ اليمين ، لقوة تختص بها ، وانه لم يمكن أن يكون الأمر بالعكس • أعني أن تكون جهة اليمين هي جهة اليسار ، من طبائع الحيـــوان تقتضي ذلك اما اقتضاء أكثريا واما دائما • وكذلك الأمر في الأجرام الســـــماوية ، اذ لو سأل سائل فقال : لم تتحرك السماء من جهة دون جهة ؟ قيل : لأن لها يمينا ويسارا ، وبخاصة اذ قد ثبت من أمرها أنها حيوان ، الا أنهـــا يخصها أن جهة اليمين في بعضها هي جهة اليسار في البعض • وهي مع هذا الجزء الواحد منها تتحرك الى الجهتين المتضادتين كالرجل الأيسر الأعسر ، فكما أنه لو سأل سائل فقال : ان حركة الحيوان كانت تتم لو كان يمينه يساره ، فلم اختص اليمين بكونه يمينا واليسار بكونه يسارا لقيل له : ليس لذلك سبب الا أن طبيعة الجهة المسماة يمينا اقتضت بجوهرها أن تكون يمينـــا ولا تكون يسارا ، وطبيعة اليسار اقتضـــــت بجوهرها أن تكون يسارا والا تكون يمينا ، وأن الأشرف للجهة الأشرف •

وكذلك اذا سأل سائل لماذا اختصت جهة اليمين في الحركة العظمى بكونها يمينا ، وجهة اليسار بكونها يسارا ، وقد كان يمكن أن يكون الأمر بالعكس ، كالحال في أفلاك الكواكب المتحيرة (٥٥) ، لم يكن له جواب الا أن يقال : الجهة الأشرف اختصت بالجرم الأشرف ، كالحال في اختصاص النـــار بفوق والأرض بأسفل •

وجـــاء فيه تأييدا لذلك ، قوله : « والبسيط (٥٦) بالمعنى المقـــول على الأجرام السماوية لا يبعد أن توجد أجزاؤه مختلفة بالطبع ، كاليمين والشمال للفلك ، والأقطاب ، والكرة بما هي كرة يجب أن يكون لها أقطاب محدودة ومركز محـــدود به تختلف كرة عن كرة (٥٧) » • وهذا يعني أنه لابد من يمين وشمال للجرم أيما كان وأينما كان ، وأن الجهة اليمنى أشرف من اليسرى ، وسنعرض لكيفية توجيه كل جهة والتعليم عليها في الصفحات التالية •

الآن أسأل : أليس في الكرة الأرضية ما يشير الى ماذهب اليه ابن حزم ؟ بل أليس في الكائنات المختلفة مايرشح ذلك ويرجحه ؟ أماترون الى الاختلاف في تركيب السطح بين نصفي الكرة شمال خط الاستواء وجنوبه من حيث الطبائع والمكونات ؟ أما ترون أن حيتان نصف الكرة الجنوبي لا تجتاز خط الاستواء شمالا ؟ •

أما ترون أن قطب المغناطيس الشمالي هو السالب ، والجنوبي هو الموجب ، وأن خطوط المجال المغناطيسي انما تتجه الى القطب الجنوبي ؟ ذلك

في كل أنواع المغناطيسية بما فيها المغناطيسية الأرضية تماما كما تفعل يدك الشمال أثناء العمل ، تقدم العون لليمنى وتناولها ، وليس العكس ·

ونستطرد بعض الشيء في بيان تفاضل الجهات ، حيث يتضح لك فضل « قبل » الانسان على « دبره » وفضل يمينه على شماله · ثم ، أما ترى أن الله قد خلق الانسان قويما ؟ ما هو « فوق » في مكانه « فوق » في رتبته كان الفوقية في الجهة والمكان فوقيه في « المكانة » · فترى عقله ، وهو أسمى ما فيه فوق « محل عاطفته » ان صدق القول أن القلب محلها ، وذلك فوق محل غذائه وهو بطنه ، وهذا فوق محل شهوته وهو فرجه ·· وأن الله لما أراد بالحيوان ما أراد ، ولم يجعل له مكانة الانسان ، فلم يجعل فرقا كبيرا بين مواضع تكلم الجوارح والغرائز فجعل خلقة الحيوان أفقية بحيث يستوى رأسه موضع عقله ، وصدره وبطنه وفرجه · ولذا كان من الحق أن يوصم الانسان بأنه حيوان ، اذا استوى عقله وعاطفته وغريزته وشهوته ·

ولما لم يكن الانسان كرويا ، فقد تميزت في ذاته الجهات الأربع ، أما الأرض ، فلم تمتز فيها الا جهتان وهما الشمال والجنوب ، أي الجهتان اللتان ينزع اليهما طرفا المحور الذي تدور عليه ولذلك ، كان لابد من الاستعانة بالشمس أو نحوها في تحديد الجهتين الأخريين · وقد خصت الشمس لأن العلاقة الدورية بينها وبين الأرض تتأطر في نحو ٣٦٠ يوما ، هي عدة زوايا الدائرة المتمثلة في خط الاستواء أو فلك البروج ·

ان العلاقة بين الشمال والجنوب (السالب والموجب ، الخير والشر ، النور والظلام) تعكس الجانب الذاتي في الانسان في تفاعله مع نفسه ، أي حياته ، أما ما بين الشرق والغرب من علاقة ، فتعكس الجانب الزمني وتعامل المرء مع غيره ، ومع الكون · واني أدعو العلماء الى القيام بدراسات مركزة ، للوقوف على مفارقات جوهرية بين الجنوب والشمال ، والموجب والسالب ، ونصف الكرة الجنوبي ونصفها الشمالي ، واليمين واليسار ونحو ذلك مما يتفق معه ، وأنا على يقين من أنهم سيقفون ــ آخر الأمر ــ على حقائق جليلة تكل عن ادراكها أفهام معظم الناس ·

وفي كثير من اللغات ما يشير الى أن ثمة علاقة أكيدة بين اليمين وما يستحب وبين الشمال وما يكره · وأن الكلمة التي تطلق على ما يكره كثيرا ما يعبر بها عن الشمال والتي تطلق على اليمين يعبر بها عن الجنوب · ومن أمثلة ذلك في :

★ الفارسية : دست راست : اليمنى ، راست : الحقيقي ، الصادق دست جب : اليد اليسرى ، جب : شرير ومنها جب كردن وتعني

« الشيوعيين والأشرار » ٠

★ وفي البشتو ، حيث تستخدم الكلمة التي يعبر بها عن اليسار في الدلالة على ما يكره والتي يعبر بهـــا عن اليمين للدلالة على مايستحب : (جب لاس ، بنى لاس) ٠

★ وفي الألمانية : Recht : يمين Recht : حق ٠

★ وفي التقرية : ادمان : اليد اليمنى ، وتعنى الصدق ٠ اد كلب ، ويتشاءم بما يكنى عنه بها ٠

★ وفي الفرنسية : droit (e) يمين ، يمنى droit : حق

★ وفي الانجليزية : right : يمين ، يمنى right : حق ، صحيح

★ وفي اللاتينية : dextera : اليد اليمنى

dextra : عهد مقدس ، ميثاق جليل ، القوة الجهد

dexter : يمين ، في المتناول ، حاذق ، حسن الحظ ، مرض ، سمح النفس ، بشير ، صحيح ، مستقيم ٠

sinister : أيسر ، شمال

sinistra, sinistrum : الجانب الأيسر ، اليد اليسرى ، مخطىء ، غير صحيح غير مرض ، غير محق ٠

★ وفي اليونانية :

يمين ، على اليمين ، اليد اليمنى ، القوة ، الجهد

سعيد ، محظوظ ، فأل (حسن) اضافة الى جميع معاني كلمة dexter اللاتينية ٠

طير أيمن ، حظ سعيد

شمالي ، أيسر ، لليســـــار

اليد اليسرى ، شؤم

فأنت ترى أن الألفاظ التي يعبر بها عن اليمين واليسار في هــذه اللغات يعبر بها عما يعبر بنظائرها في العربية عنه ، ولبعض هذه المفردات استخدام تحمل فيه دلالة معاكسة ذلك لاختلاف طبيعة المستوى اللغوي الذي يستخدم فيه ٠ ففي لغة العرافين الرومان تنصرف كلمة (اليد اليسرى ، غير صحيح) بمعنى ميمون ، سعيد ، مبشر بالنجاح ، ذلك أن الكهنة الرومان كانوا يتجهون نحو الجنوب عند ممارستهم النبوءة ، وبذلك يصبح الجانب الشرقي أو الخير ، عن يسارهم ٠٠ غير أنهم كانوا يتعبون التقاليد اليونانية أحيانا فتحمل الكلمة عندئذ دلالتها الأصلية على معنى غير ميمون ، غير سعيد ٠٠٠ » ٠

وفي اتجاه الكهنة الرومان نحو الجنوب ، اشارة الى فضل تلك الجهة سواء كان ذلك للجهة ذاتها ، أم كان الأمر اكبارا للبحر جنوب بلادهم . وفي اعتبارهم جهة المشرق نظيرا للخير ، ودليلا عليه ، فذلك لأنها الجهة التي تشرق منها الشمس ، أي لأنها توازي في الباطن ابتـــداء الحياة . وسنأتي على شيء من هذا القبيل عند المصريين القدماء فيما يأتي .

وكان العراف الاغريقي يتجه شمالا عند ممارسة الكهـــانة وبذلك يكون المغرب عن يساره ومن هنا كانت الدلالة على الشؤم ، وكان الارتباط بينهما ، حيث يناظر الغروب الموت في الباطن .

وقد استخدم المصريون القدماء كلمتين مشتقتين من المادة (يمن) وهذا يشير الى العلاقة بين المصريين واللغات الســـامية من ناحية ، وبين المصريين والساميين من ناحية أخرى — همـــا « يمنتى » و « أيمنتى » للدلالة على جهة الشرق ، كأنهم كانوا يتجهون أو ييممون وجوههم عند ممارسة الطقوس في اتجاه مجرى النيل ، أي شمالا ، ذلك لما له من أهمية في حياتهم ، وبذلك تكون جهـــة المشرق عن يمينهم ، والشروق واليمن من الخير ، والرابطة بينهما قوية في الظاهر والباطن . ولا يغيب عن البال هنا أن المصريين قد عبدوا الشمس « الاله رع » . واعتقد أن كلمة « يم » السامية الحامية بمعنى « نهر » انمـــا اكتسبت دلالتها العامة بعد دلالة خاصة كانت تقتصر على نهر النيل دون غيره ، وهذا ما يرشحه ويرجحه الاستخدام القرآني لهـــذه الكلمة ، حيث لم ترد فيه الا في خبر موسى مع فرعون وأهل مصر . ثم ان في دلالة المادتين (امم ويمم) في العربية ما يؤكد ذلك ، حيث تنصرفان لمعنى (اتجه) .

ومثل ذلك فعل سكان شمال السودان ، فقبـــائل « المحس » التي تعيش قريبا من دنقلة غرب النيـــل ، ماتزال تستخدم ألفـــاظا تتفق وما أسلفت ، حيث تنصرف كلمة « أر » الى المعاني « شرق ، نهر النيل ، يمين » وبهذا تكون العلاقة بين النيل واليم قد حبكت وفي ذلك مايؤكد أنهم كانوا يتجهون شمالا عند ممارسة الطقوس . حيث يكون النيل والشرق عن يمينهم ومن هنا جاز عندهم اسـتخدام كلمة واحدة لليمين ، والشرق والنيل .

ونعود الآن الى لغتنا ، أم اللغات ، بالسؤال التالي : هل هناك علاقة بين الشمال والشمال (والشام والشأم) والشؤم كتلك التي بين الجنوب واليمن واليمين واليمن . سبق أن بينا أن ريح الشمال ليست بذات فضل على الجزيرة العربية ، بل لقد كان العرب يكرهونها ، وكذلك هي الحال

بالنسبة للشمال ، ومايكنى بها عنه ، حسب ماتبين لك من قبل ٠

أما ما يتعلق بالشام والشأم والشآم فهي سواء من حيث الأصل اللغوي ٠ ومن حيث الدلالة ٠ وموقع الشام الى الشمال من بلاد العرب ، وعن شمالها اذا ما استقبلت الشمس لدى شروقها ٠ وقد تسمي ريح الشمال ، شآمية أو شامية نسبة الى الشام ، ذلك بما تهب من قبلها ٠ والشامة جهة الشمال ، والكلمة حية لدلالتها في لهجة الفلسطينيين الى يومنا الحاضر يقولون ــ شام ــ ٠ والأشأم الذي يقع عن شمالك ، وهي الشؤمى ــ أفعل فعلى ــ والشآم فعال منه ، والشام بتخفيف الهمزة ٠ قال المرقش : (مجزوء الكامل)

فاذا الأيامن كالأشا ... ئم والأشائم كالأيامن

كناية عن التباس الخير بالشر والحق بالباطل (٥٨) ٠

وقال القطامي التغلبي : (طويل)

فخر على شؤمى يديه فذادها ... بأظمأ من فرع الذؤابة أسحما (٥٩)

أي : على يده الشمال ٠ لكن ، هل من علاقة بين الشأم والشؤم غير العلاقة اللفظية السابقة كتلك التي بين ريح الشمال والشؤم ؟ وهل الشمال والشمال من مادة (شمل) أصلا ؟ ٠

ورد في الاختيارين قول أحد بني العنبر في نخلة ، (وقد سبق) (٦٠) :

تدحى وتسمو في السماء برأسها ... وان هب يوما شأمل لم تحلل

حيث تعني كلمة (شأمل) ريح الشمال ، التي تهب من جهة الشأم ٠ وفي هذه الكلمة مايمكن أن نناقشه على النحو التالي :

ما أصل هذه الكلمة ؟ هل هي منحوتة من شأم وشمل لدلالتيهما ؟ أم أنها من مادة رباعية (شأمل) ؟ أم أنها مركب اضافي أصله شأم ــ ال ، بمعنى الله يكره أو يتشاءم ، (ان كان يجوز اسناد التشاؤم الى الله) فهي في ذلك مثل : يسمع ال اسماعيل ، وعبد ال ، « عبد ل » ؛ عبد الله ونحوها ٠

وعندئذ ، أليس ممكنا أن نقول : أن هناك علاقة مكانية ولفظية بين هذه الكلمة وبين مملكة « الشمأل أو الشأمل* » التي ورد ذكرها في النقوش التي ترجع الى عهد الملك سليمان ، تلك المملكة التي كانت تقع بين حلب ونصيبين ، أي في شمال بلاد الشأم ؟ كانت هذه المملكة كثيرة الحروب وبخاصة مع الآشوريين لذلك كانت في حلف دائم مع ممالك الشام ٠ ويطلق عليها في العبرية اسم سمأل أو شمؤل وفي السريانية وتعرف في المراجع العربية باسم شمأل ، وشأمل ، وشمال ٠ ويطلق عليها في الآشورية Sumela وقد ذهب بروكلمان الى أن اسمها مشتق من « شأم » لعلاقة بالشؤم ، وهذا يرجح ما أسلفت ، نظرا لكثرة الحروب التي

كانت تسببها وتعرف في مراجع الآثار باسم « سند شيرلي* » ٠

وقد يقال ان العلاقة بين الشأم والشؤم غير واضحة في ماعدا الجانب اللفظي وقد يحتج علينا بما في الشام من خيرات ، وبالآية الأولى من سورة الاسراء « سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » حيث تشير عبارة « باركنا حوله » الى مالا يتفق مع الشؤم ، كما قد يحتج علينا بما يروى من الحديث « بارك الله في شامنا وفي يمننا » وبالحديث « بارك الله في الشام من فحص الأردن الى رفح (٦١) » وغير ذلك مما يشبهه فاقول : ان في الآية المذكورة تخصيص ، حيث نعت المسجد الأقصى بقوله « الذي باركنا حوله » أي بما يقع حوله ، وهـــذا النعت أولى مايكون بفلسطين ، بل ببعضها ، وهذا مايؤكده الحديث الأخير ، حيث ان في عبارة « من فحص الأردن الى رفح » تحديدا للمنطقة المباركة ، وهي منطقة بيت المقـــدس ومايليها مما يقع بين غور الأردن ــ فحص الأردن ــ ورفح ٠ وهي منطقة مقدسة وفيرة الخيرات ٠ ولعـلها المقصود بالشام المبارك في غير هذه المواضع ، ثم اننا نحتج لذلك بمسألة أخرى حيث نرد على المتذرع بخيرات الشام « بمفهومها العام » بقولنا : ان أنحاء كثيرة من تلك البلاد لم تكن معمورة حتى العصر الأموي ، وأخص بالذكر حماة وضياعها ، حيث لم تكن قد أنشأت قبل سنة ٦٨هـ ، ثم انه ليس لتلك المنطقة ما لفلسطين من فضل في ذلك ، وليس في الشأم الا غوطتها « غوطة دمشق » ، والطريق اليها من بادية الى بادية ، فهي على العكس من اليمن في ذلك ، اذ تمتد الطرق اليه عبر أراض يختلف المناخ فيها اختلافا يتيح للذاهب اليه أن يختار لنفسه الطريق التي تلائمه ٠ فان سلك تهامة فهي حارة صيفا ، معتدلة شتاء ، أو سلك الحجاز فهو بارد شتاء معتدل صيفا أو سلك البادية عن يسار الحجاز ، فهي على نحو مختلف ٠ ويضاف الى ذلك كله ، أن الأراضي المؤدية لليمن من الحجاز أراض دائمة الخضرة كثيرة المراعي ، وفيرة الماء الى حد كبير ، وهذه أمور لاغنى للمسافر عنها ، حيث يجد فيهما مايلزمه ويلزم راحلته ٠ أما الشام فطريقه عبر حرار شمال الجزيرة ، ثم عبر صحراء النفود ، فبادية الشام ، فحرار حوران عبر بلاد قليلة الماء كثيرة الغبار قليلة المرعى ٠ وهذه الصفات قد تكون كافية لأن تجعله مشئوما ، بالرغم من أن بعض حاجاتهم تقضي فيه ٠ ويضاف الى ذلك أن البرد يأتيهم من قبله وأن المطر قليل من ناحيته ٠

واذا كان هناك من يصر على أن العلاقة بين الشام والشؤم غير واردة في المعنى مستندا الى مافيه من خيرات ، وهي أقل من خيرات اليمن ــ فاننا نجاريه في ذلك لنجرده سلاحا ضده ، فنقول : نعم ، ان الشام بلاد يسر وخير ويسار لكن اليست اليد الشـّـمال أي الشؤمى ، التي تقابل بلاد الشام ، هي التي يشار بها لليسار ، وهي اليسرى ؟ وهو الأيسر كالأشأم · أو ما ترى أن لليسر علاقة بالشؤم ؟ وأن كلمة الأيسر تتبع ب « أعسر » مرادفة لها وأن الناس تكره « العسر واليسر » في الأيدي · أما ترى أن المادة (ي س ر) تنصرف أصلا الى معنى القلة ، والقلة نقص ، والنقص أدخل في الشؤم منه في غيره · ومن ذلك قولهم : النزر اليسير ، أي القليل · ثم أن في دلالة الكلمة على « وفرة المال وأسبابه » من زينة الحياة الدنيا ، ما يرشح علاقة الكلمة بما يكره ، ذلك أن المال ــ الكثير منه على وجــه الخصوص ــ غالبا ما يؤدي بصاحبه الى مايكره ·

انني أرى أن المادة « ي س ر » تنصرف أصلا لمعنى الضيق والشدة ، وما يكره ــ ومن ضمن ذلك معنى القلة معاقبة في ذلك المادتين « ا س ر » و « ع س ر » لفظا ومعنى · ونظرا لعلاقة « الشمال » بالشؤم ، فاننا نجد اللغات السامية مختلفة في الألفاظ التي يعبر بها عن تلك الجهة ، ذلك أن المفردات التي تدل على مايكره ومايسوء الناس ذكره ــ غالبا ماتختلف من مستوى لمستوى ، ومن لهجة لأخرى ، ومن جيل لجيل · فالشمال في العبرية צפון « تسفون » وفي السريانية ܓܪܒܝܐ كربيو · وكثيرا ماتكنى الناس عما تكره بألفاظ تنصرف أصلا لدلالات مستحبة ، يقـــولون في الأسود ، : أكحل ، وفي الفحم بياض ، وفي العبرية ، مثلا ، تستخدم بارك بمعنى لعن · وفي اللهجة الفلسطينية يقولون : رأيت « بسم الله » يقصدون « عفريتا أو شيطانيا » ، والأمر كله خاضع لنظرية « التابو » حيث تكره الناس استخدام المفردات ذات الدلالة السيئة ، وتعـــدل الى الكناية بما يستحب ، تفاؤلا بالخير ، واعراضا عن الشر · أعني بذلك ، أن كلمة « يسار » لمعنى الشمال قد تكون من هذا القبيل ، ذلك اذا أخـــذنا بأن « اليسار » لدلالة أصلية على « الخير المادي » وليس على القلة · فيكونوا بذلك ، قد سموا الشمال يسارا تماما كما يسمي كثير من العرب المصريين والليبيين الفحم بياضا ، وكما استخدم العرب « السـليم للديغ » ، وكما يستخدم عرب ليبيا كلمة « بصير » في مقام « أعمى » ·

اذا ، هناك علاقة لفظية ومعنوية بين ريح « الجنوب » و «اليمانية» التي تأتي عادة بالمطر ــ وهو جوهر الحياة ــ وجهة الجنـــوب « التمين »

ومايقع في الجنوب « اليمن » ، واليمن ، واليمين من البدن ، واليد اليمنى ، ومايكنى بها عنه ·

وهناك علاقة لفظية معنوية بين ريح « الشمال أو الشأمية » ؛ حيث تأتي بما يكره ، وجهة الشمال (الشأمة) ومايقع في الشمال (الشام ـ الشآم مملكة الشمأل الشأمل) والشؤم ، والجانب الاشأم «الشمال » أو «اليسار» من البدن ·

غير أن الظروف « شَمال ، وشِمال وجنوب ويَمين » مبهمة الى حد ما ، وفي بعض الأحوال · فهي بحاجة الى مايخصصها أو يعرفها · ثم أنها نسبية متغيرة فما هو عن يمينك قد يكون الى الشمال منك الآن ، والى الجنوب فيما بعد ، أو الى الشرق أو غير ذلك ، الأمر الذي تتحـــكم فيه قبلتك ووجهتك · اذا كيف تم تثبيت هذه المفردات لتلك الجهات والبلدان ، وتثبيت تلك الأسماء لتلك المســـميات ؟؟ وكيف كان التوافق الطبيعي بين الجهة وريحها التي تهب منها والبلد الذي يقع فيها ، وطبعه ، وأحد شقي البدن وأحد معنيي الخير والشر ، وأحد قطبي المغناطيس وأحد طبعي التيـــار الكهربائي : سالب ، موجب ·

وإجابة عن السؤال الأول نقول : ان أقل مايحدد به الاتجاه أمران هما ما يأخذ فيه وما يبدأ أو ينتهي اليه · ولما كانت الاتجاهات تأخذ في كل «اتجاه» ولاتبدأ في مكان بعينه أو تنتهي عنده (لكروية الأرض) فإن ذلك يوجب أن يكون التعليم عليها بما له مكانة عظيمة عند الانسان · وقد كان ذلك ـ حيث عُلِّم بالشمس ـ عند شروقها ، لأن الشروق علامة الحياة وأوضح الظواهر الطبيعية ـ وبالإنسان نفسه ، غير أن تحرُّكه وتغيُّر وجهته يتعارض مع الغاية · ذلك أن الثابت (الجهة) لا يحدد بمتحرك (الإنسان والشمس) ولذا ، فقد تم التحديد ـ تحديد الجهات ـ في مكان ثابت وهذا المكان يجب أن يكون ذا مكانة عظيمة تقابل عظمة الشمس ، إنه الكعبـــة المشرفة · الشمس منبع الضياء المادي ، والكعبة موئل الضياء المعنوي · فما كان عن يمين الواقف فيها أو عن يمينها عند شروق الشمس ، فهو « اليمن » وموضع اليمن والجنوب « استنادا الى العلاقة بالشق الأيمن = الجنب » ومهب الريح الطيبة التي تأتي بجوهر الحياة على الأرض ـ المطر ـ وهي جميعا ذات علاقة باليمين وباليد اليمنى (لفظـا ومعنى) · وما كان عن شمالها أو شمال الواقف فيها فهو « شام » وموضع « شؤم » وشَمال ومهب الشَّمال التي تسفر السحاب وتأتي بالبرد والغبار (٦٢) ·

أما التوافق الطبيعي بين تينك الجهتين وماذكر في السؤال الثاني ، فذلك مالا يعقل أن يتم نتيجة لتواضع واتفاق أجمع عليهما العرب ، الا أن يكون بينهم وبين الطبيعة توافق ، وهذا أمر ترشحه فطرتهم • وهذا أمر – نفي أم ثبت – يؤكد أن اللغة أو بعضها توقيف من الله تعالى لا اصطلاح ، وأذكر هاهنا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » ولا أخوض في هذه القضية التقليدية رادا من أراد ذلك الى المصنفات التي عرضت لها (٦٣) •

ونتساءل بعد ذلك كيف جاءت الكلمات « تيمنا » السريانية ، و « تيمن » العبرية و « اليمن » العربية، لدلالاتها على الجنوب ، سواء أكانت هذه الدلالات مباشرة أم غير مباشرة ؟ هل تواضع العرب والآراميون والعبرانيون على ذلك ، فاصطلحوا عليه أم أن الكلمتين في تينك اللغتين دخيلتان من العربية ؟ أليس في ذلك اشارة الى أن الكعبة « الحـــد المكاني للتعليم على الجهات لدى الاشراق » كانت مقدسة عند جميع الشعوب السامية منذ أمد بعيد يرجع الى الوقت الذي كانوا يحيون فيه قبائل رعوية أو قبل ذلك ؟ أوليس فيه اشارة الى أن بلاد العرب هي موطن الساميين الأصلي ، بل المنبع الذي صدر عنه الناس كافة ؟ ألم يقل تعالى « كان الناس أمة واحدة » ؟ • ان في لغـاتهم المعاصرة بقايا مما تشير اليه كلمة « واحدة » • كثير هي الشـعوب التي سمعتها تعبر عن نعم بالصوت «جـ» باخراج نقرة من جانب اللسان ، وعن « لا » بالصوت « تس » باخراج نقرة حادة من مقدم اللسان • وكم هي المفردات المشتركة ، وأسوق أمثلة بابا وماما وامبو من لغة الطفل • وطريف أن كلمة امبو تعني الماء باللغة السنسكريينية وهي مستخدمة لذلك في لغة الأطفال ببلاد الشام ومصر ، وفي لغة بقـــايا البربر والطـوارق ، وفي لغة الهوسا في وسط غرب افريقيا • ثم ان في دلالات « يمين ويسار أو شمال » على ما يستحب ويكره بالترتيب لدليلا على أنهم جميعا قد صدروا في ذلك عن فكر واحد لمجتمع كان يوما واحدا • ان حفريات القبور القديمة وأشكالها توحي بشيء من هذا التوافق غير الناجم عن مصادفة •

ان الجزيرة العربية مؤهلة لأن تكون مهد الانسان ووطنه الذي ارتحل منه الى جميع البلدان ، ذلك بمـــا تتمتع به من مناخات مختلفة في الوقت الواحد ، ولما يهطل عليها من مطر صيفا وشتاء يتناسب مع طبيعة الحيـــاة البدائية والرعوية • ثم انها متصلة بأفريقيا بواســـطة جزر باب المندب

(جنوبا) وبواسطة شبه جزيرة سيناء شمالا « غربيا » · ولقد كانت متصلة بها قديما حين كان ساحلا البحر الأحمر رتقا ، قبـــل الزمن الجيولوجي الثالث (٦٤) · وإن هذين الساحلين متشابهان في أكثر من ٨٠٪ مما يشهد أنه من طباع بشرية وألوان ومن بيئة طبيعية ، وأسلوب معاش ، ومناخ ونباتات وغير ذلك ·

وتتصل بآسيا عن طريق مضيق هرمز ، وعن طريق العراق ، وتتصل بأوروبة عن طريق الشام ، فهي ، بحق بؤورة العالم · ومكة بؤرتها والكعبة بؤرة مكة ، وان هذا ليتفق مع ماذهب اليه بعض المفسرين من أن ابتـداء دحو الأرض وبسطها كان من موضع الكعبة ، كان الأصل شبيها بحجر على الماء · فكأنّ ذلك الموضع مركز الأرض · واذا كانت هي مهبط الوحي من السماء ، فهي اذا مبدأ التكوين ، وهل مكة ، وبلاد العرب مؤهلة لذلك ؟

لعل فيما أسلفت من مميزات لجزيرة العرب ما يؤهلها لأن تكون كذلك دون غيرها · وقد جاء في كتاب « مغامرات لغوية » لعبد الحق فاضل ، قوله : « ان كلمة اليمين حجازية المنبت في عقيدتنا ، ولنا في نشأة اليمين واليسار رأي ليس هنا مقام شرحه » (٦٥) ·

ولا شك في أن صاحبنا واقف على حقيقة تدعم ماذهبنا اليه ·

كما نشر في مجلة العربي (٦٦) تحت عنوان « دراسة تثبت أن مكة مركز اليابسة ما نصه : قام الدكتور حسين كمال الدين ، أسـتاذ المساحة بدراسة أثبت خلالها أن مكة هي مركز الكرة الأرضية · وكان هـــدفه في البداية الوصول الى وسيلة تساعد أي مسلم في أي مكان على تحديد القبلة ·

الا أنه توصل أثناء بحثه الى ما يشبه النظرية الجغرافية بأن مكة هي مركز لدائرة تمر بأطراف جميع القارات ، فقد اتجه الى رسم خريطة للكرة الأرضية تحدد عليها اتجاهات القبلة فبعد أن رسم خريطة تحسب أبعـاد كل الأماكن على القارات الست وموضعها من مدينة مكة ، ثم أوصل بين خطوط الطول المتساوية « مع بعضها » (٦٧) ليعرف كيف يـــكون اسقاط خطوط الطول وخطوط العرض ، فتبين له أن مكة هي بؤرة هذه الخطوط ، ثم رسم خطوط القارات وسائر التفاصيل على هذه الشبكة ، واستعان في بحثه بالعقل الإلكتروني لتحديد المسافات ، والانحرافات المطلوبة ، ولاحظ أنه يستطيع أن يرسم دائرة يكون مركزها مكة وحدودها خارج القارات الأرضية ومحيطها يدور مع حدود القارات الخارجية ، وتوصل من نظريته الى مغزى الحـكمة الإلهية في اختيار مكة مكانا لبيت الله » ·

بهذا تكون الأدلة الدينية واللغوية والعامية متفقة على مكانة مكة وبلاد العرب وبهذا تتضح بعض الجوانب الميتافيزيقية في اللغة بعد أن تبين لك مدى التوافق الطبيعي بين الانسان ولغته وبيئته ·

ان في الكون لعبرا كثيرة لمن أراد ، ولمن تدبر وتفكر ، كل يمين موجب ، في الجسم ، وفي بلاد العرب ، بل في العالم بأسره ، وفي الرياح · وفي المغناطيس ، وفي الذرة ، وفي الكهرباء · وكل شمال الى شؤم ، وكل شمال سالب ، الالكترونات السالبة تتحرك مندفعة من مداراتها حول نواة الذرة فيتم الدمار · والشر يطغى على الخير فيكون الدمار ، والظلمة تزاحم الضياء فيكون العمى ·

وتبارك الله الذي خلق الكون الأصغر فجعله في هيئة الكون الأعظم ؛ ـ الانسان ـ الشمس عيناه ، وعقله المدبر من فوقه ، وأذناه القمر بما هما دون العينين في الادراك ، تماما كالقمر دون الشمس في الكشف أو هما قطبا الأرض ، أو المداران · وقبله مشرق ، ودبره مغرب ، ويداه القطبان الأعظمان ، أو قطبا الأرض ، فالشمالي منها سالب غالبا مايشهد ما يكره والجنوبي منها ميمون · وبلاد العرب بطن الأرض ورحمها التي زودت أنحاء الأرض المختلفة بالناس ، ومكة سرتها ، منها ابتداء الخلق المادي أو التكوين المادي للكرة ، وعبرها كان يتنزل الوحي المخرج من الظلمات الى النور ·

ليس في الأرض الا جهتان هما الشمال والجنوب · أما المشرق والمغرب والفوق والتحت فنسبة الى الشمس والحساب · فالأرض كرة وأظهر ما في الكرة محورها · واتجاهاه اللذان يأخذ فيهما من مركزها هما الشمال والجنوب ·

ورقبة الانسان هي الفضاء الخارجي ، والصدر والرئتان هي الغلاف الغازي وبقية جسمه هو الأرض ، والتراب من التراب الى التراب ·

اني أدعو العلماء الى البحث في خصائص القطبين وأوجه التفاضل بينهما ، والى البحث في أوجه التفاضل بين الشمال والجنوب ، وبين شقي البدن ، والى البحث في ماوراء اللغة ، فهي كتاب الحضارة وأداة الخلق · واني على يقين من أنهم الى نتائج باهرة لابد واصلون ·

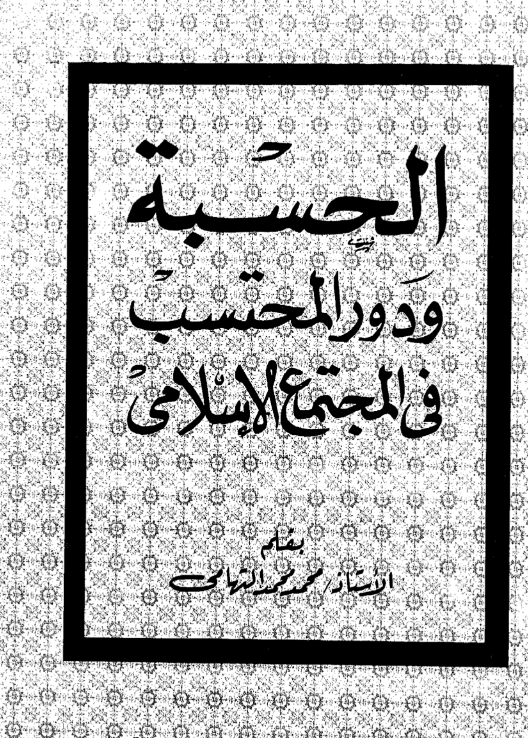
د· يحيى عبد الرءوف جبر

الهـــوامش

١ ـ ناقشنا هذه الفكرة في مقالنا « العين بين العلم واللغة » المنشور في عدد ديسمبر سنة ١٩٧٨م من مجلة الثقافة العربية •
٢ ـ مريم من الآية ١٦ ، وانظر نعت الزيتونة في سورة النور ، الآية ٣٥ •
٣ ـ القصص من الآية ٤٤ •
٤ ـ البقرة من الآية ١١٥ ، وانظر لمثله البقرة ١٤٢ ، ١٧٧ ، ٢٥٨ والشعراء ٢٨ والمزمل ٩ والكهف ٨٦ •
٥ ـ الرحمن ١٧ وانظر الزخرف ٣٨ •
٦ ـ ابن قتيبة ـ الانواء ـ ١٤١ •
٧ ـ الأعراف ١٣٧ وانظر لمثله المعارج ٤٠ والصافات ٥ •
٨ ـ انظر هـ ٦ سابقا •
٩ ـ الأصمعيات ٤٩ •
١٠ ـ أحمد فريد رفاعي ـ عصر المأمون ـ ٤٢٧/١ •
١١ ـ ابن قتيبة ـ الأنواء ـ ١٦٥ •
١٢ ـ المرزوقي ـ الأزمنة والأمكنة ـ ٣٤٣/٢ •
١٣ ـ ابن الانباري ـ شرح المفضليات ط لندن ـ ٧٧١ •
١٤ ـ لبيد ـ ديوانه ـ ١٨٥ •
١٥ ـ ابن بنين ـ اتفاق المباني وافتراق المعاني ، بتحقيقنا ـ ص ٤٣
١٦ ـ انظر مجموع اشعار هذيل •
١٧ ـ ابن الأنباري ـ المفضليات ـ ١٠٤
١٨ ـ طرفة بن العبد ـ ديوانه ـ ٥٢ •
١٩ ـ ينزل المطر على مكة ونواحيها صيفا وشتاء لأنها في منطقة تصل اليها الرياح الشمالية الغربية شتاء ، والرياح الموسمية صيفا •
٢٠ ـ الحجر ـ الآية ٢٢
٢١ ـ الذاريات ـ الآية ٤١ •
٢٢ ـ الطرماح بن حكيم ـ ديوانه ـ ٣٣٥ •
٢٣ ـ النابغة الشيباني ـ ديوانه ـ ١١١
٢٤ ـ كثير عزة ـ ديوانه ـ ١٧٥/١ •
٢٥ ـ النمر بن تولب ـ مجموع اشعاره ـ ٦٨ •
٢٦ ـ رؤبة ـ ديوانه ٥٨ •
٢٧ ـ المبرد ـ الكامل في نهاية الارب ـ ٢٤٦/١
٢٨ ـ أبو علي القالي ـ الأمالي ـ ١٨١/٢ • وانظر ماورد من بيان لطبع الجنوب في الصفحات السابقة •
٢٩ ـ الطرماح ٤١٢ •
٣٠ ـ لذلك ذهب بعض الفلاسفة المسلمين الى اعتبار الأجرام السماوية كائنات حيه لأنهـا تتحرك •
٣١ ـ انظر لدلالتها اللسان (جشا) •
٣٢ ـ السكري ـ شرح أشعار هذيل ـ ط القاهرة ـ ص ١٧٢ •
٣٣ ـ ابن الانباري ـ المفضليات ـ ١٧٠ •
٣٤ ـ انظر قول طرفه هـ ١٨ •
٣٥ ـ مجموع شعر مالك بن الريب ص ٥٣ ومثله لابن مقبل ـ ديوانه ـ ٢٣٣ •

٣٦ ـ امرؤ القيس ـ ديوانه ـ ٨ ٠
٣٧ ـ الاخفش الاصغر ـ الاختيارين ، تحقيق فخر الدين قباوة ـ ط دمشق سنة ١٩٧٤ ص ١٧٨ ٠
٣٨ ـ السكري ـ شرح أشعار الهذليين ـ ١/١٩٩ ٠
٣٩ ـ نفس المرجع ١/١٣٠ ٠
٤٠ ـ ابن الاثير ـ النهاية في غريب الحديث ، واللسان (زيب) ٠
٤١ ـ ابن فارس ـ معجم المقاييس ـ (زيب) والكلمة لدلالتها على النشاط سامية مشتركة ، (انظر : دراسات مقارنة في المعجم العربي ـ للسيد يعقوب بكر « أزيب ») ٠
٤٢ ـ الواقعة : ٢٧ وانظر لمثله المدثر : ٣٩ ٠
٤٣ ـ الواقعة : ٨ ، ٩ ٠
٤٤ ـ الاسراء ٧١ ، وانظر لمثله الحاقة ١٩ والانشقاق ٧ ٠
٤٥ ـ الزمر ٦٧ ٠
٤٦ ـ الشماخ بن ضرار ـ ديوانه ـ ١٨١ ٠
٤٧ ـ الحاقة : ٢٥ ٠
٤٨ ـ اللسان (شمل) ٠ وراجع الفصل الاخير من المجلد الرابع من المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي ٠
٤٩ ـ الهمداني ـ صفة جزيرة العرب ـ ١٥٤ ٠
٥٠ ـ ابن واضح اليعقوبي ـ البلدان ـ ٢٦٨ ٠
٥١ ـ سبأ : ١٦ ٠
٥٢ ـ ابن حزم ـ ط الكاثوليكية ببيروت ص ٤٨٨ ـ ٤٩٠ ٠
٥٣ ـ يتضح ذلك باستقراء ما سبق ، وباستقراء طبائع الجهات ولا سيما (شمال وجنوب) ٠
٥٤ ـ تذكر أن المدرب العسكري يخالف من يبدأ السير برجله اليسرى عند الايعاز « الى الامام سر » ! ٠
٥٥ ـ يقصد السيارة ٠
٥٦ ـ يقصد العنصر أو الاسطقس او واحد الاجرام العلوية ٠
٥٧ ـ ابن حزم ـ تهافت التهافت ـ ٢٤٣ ٠
٥٨ ـ جواد علي ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ ٤/٤٧٦ وانظر للبيت ديوان المرقشي ٠
٥٩ ـ القطامي التغلبي ـ ديوانه ـ ١٨١ ٠
٦٠ ـ انظر هـ ٣٧ ٠
٦١ ـ المعجم المفهرس لالفاظ الحديث (فحص) ٠
٦٢ ـ سمعتهم في تهامة عسير يقولون للمتجه شمالا : شايم او شاءم وللمتجه جنوبا يمن اي اتجه قبل الشام ، وقبل اليمن ٠ كل ذلك جنوب مكه المكرمه ٠
٦٣ ـ راجع ما ذهب اليه ابن فارس وابن جني في مصنفاتهما ، وما اورده السيوطي من ذلك في مزهره ٠
٦٤ ـ بروكلمان ـ تاريخ الشعوب الاسلامية ـ ترجمة منير البعلبكي ١/١٠
٦٥ ـ عبد الحق فاضل ١٢٦ ٠
٦٦ ـ العـــدد ٢٣٧ شعبان ١٣٩٨هـ ، اغســطس ١٩٧٨م ص ٧١ (اســتطلاع مكه المكرمه) ٠
٦٧ ـ هكذا وردت ٠
** انظر بحث ليد سبارسكي في :

Kelilnschriften und das alte
Tertament, s. 179 f.



هذه الصفحات من تراثنا الاسلامي تتناول القاء الضوء على الحسبة من حيث نشأتها والدور الذي قام به المحتسب في مجال الاقتصاد .

فقد كان من الضروري وجود من يقـــوم بالاشراف على التعامل في الأسواق وتنظيم المعاملات التجارية ، سواء بين التجار أنفسهم ، أو بينهم وبين المشترين ، ولذا وجد منصب الحسبة ، وأسند الى المحتسب القيام بهذا العمل ، يساعده في ذلك الأمناء والعرفاء . فالحسبة وان كانت في أساسها وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، والنهي عن المنكر اذا ظهر فعله (١) ، لقوله تعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٢) ، الا أننا لن نتعرض هنا لأحكام الحسبة الا فيما له صلة بالمعاملات التجارية خاصة فيما يتعلق بالغش والتدليس والمماطلة في دين من الديون ومنع المنكرات في الأسواق ومراقبة الأسعار والتجارات والمعاملات ، والاشراف على تنظيم الأسواق (٣) . وقد تخطت الحسبة بهذا المعنى الديني الخلقي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الى واجبات عملية مادية تتفق والمصالح العـامة للمسلمين ، واعتبرت خـدمة اجتماعية واقتصادية تعمل على تحقيق حسن المعاملات بين أفراد المجتمع في نطاق التعاليم الدينية والشرعية ، اذ هي تعني في التشريع الاسلامي بشكل عام ما يطلق عليه المصلحة العامة في التشريع العصري (٤) . والى جانب ذلك أيضا تعتبر وظيفة ادارية قضائية في آن واحد ، اذ أن المحتسب كان مكلفا بالفصل في بعض القضايا التي لا ينظرها القــاضي (٥) ، كما أن الحسبة أشمل في الموضوعات التي نباشر النظر فيها ، وهي من ناحية أخرى أشمل في تسميتها من كلمة أحكام السوق (٦) .

واختلف المؤرخون حول منشأ الحسبة ، فذهب البعض الى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أول محتســب لأنه نهى عن الغش وقال : (من غشنا ليس منا ، وذهب البعض الى القول بأن « عمر بن الخطاب » هو المحتسب الأول في الاسلام ، فقد كان يطوف بالشوارع والأسواق حاملا درته معه ، ومتى رأى غشاشا أو مدلسا خفقه بالدرة مهما يكن شانه ، وربما أتلف بضاعته ، على حين ذهب آخرون ، وبصفة خاصة من الكتاب المحدثين الى أن الحسبة قد عرفت في عهـــد الأمويين ، أو أنها نشأت في العهـــد العباسي (٧) . وعلى أية حال ، فقد تدعمت معالم الحسبة منذ القرن الثالث الهجري ، اذ حفلت المدن الاسلامية بالمراكز التجارية والصناعية والأسواق ، وزخرت بطوائف التجار وأهل الحرف والصناعات ذوي الميول والاتجـاهات السياسية المتعارضة والمذاهب الدينية المختلفة ، مما جعل الدولة الاسلامية

تنزع الى فصل الحسبة عن القضاء ، وجعلها أداة رقابة وضـــبط وتنفيذ سريع ، حتى لا يضطرب الأمن وتختل أصول المعـــــاملات التجارية وتعم الفوضى (٨) ٠

وقد قامت الحسبة في بلاد المغرب والأندلس على نفس الأسس والأصول التى وضعت لها ولتحقيق الأغراض نفسها ، اذ كانت خطة الحسبة في الأندلس يتولاها أحد القضاة (٩) ، وكثيرا ما كان يلقب بقاضي الجماعة ، وبالوزير تفخيما لشأنه وتعظيما لقدره ، ويـنــــدرج تحت اختصاصاته الاشراف على أعمال الحسبة (١٠) ، فقد كانت من الوظائف الهامة والمرموقة التي يتطلع اليها رجالات الدولة (١١) ٠ وتعتبر كتب الحسبة مصدرا رئيسيا لدراسة تاريخ الاقتصاد في البلدان الاسلامية والقاء الضوء على الحياة الاجتماعية والنشاط التجاري (١٢) ٠

أما عن المحتسب الذي يقوم بتنفيذ واجبات الحسبة ، فقد كان يشترط أن تتوافر فيه عدة شروط أهمها : معرفة أحكام الشريعة والتفقه في أمور الدين ، وأن يكون حازما في تنفيذ الأحكام الشرعية على المخالفين ، بعيدا عن الغرور والتفاخر والمباهاة بالمنصب أو السلطة ، عفيفـــا عما بأيدي الناس من أموال ، متورعا عن قبول الهدية أو الرشوة ، كما يشترط فيه حسن المظهر والهندام وأن يتصف بالرفق ولين القـــول ، وطلاقة الوجه وسهولة الأخلاق (١٣) ٠

وقد أوضحت كتب الحسبة ، سواء المشرقية أو المغربية ، أعمـــال المحتسب وواجباته وقد اتفقت في مضمونها مع بعضـــها البعض ، اذ أن الحسبة هي احدى النظم الاسلامية التي طبقت في دول العالم الاسلامي مشرقه ومغربه ٠ وقد تضمنت واجبات المحتسب عدة أغراض منها الاشراف على الآداب العامة والنواحي الدينية ، والأسعار ، والأسواق ، والباعة والمعاملات ، وكشف الغش والتدليس والمعاقبة عليه (١٤) ٠ وكذلك حمل الناس على المصالح العامة في المدينة والأسواق ، والاشراف على المكاييل والموازين والعمل على ضبطها ، واجبار المماطلين على دفع ديونهم طالما كان في امكانهم ذلك ، والى جانب ذلك معرفة حيل الباعة في أمور التدليس أو الغش وكشفها والقضاء عليها ، وتنظيم الأسواق التجارية بصفة عامة (١٥) ٠ هذا وان كانت قد أسندت الى المحتسب أعمال أخرى ، ولكنها لا تندرج تحت ما نحن بصدده من أعمال المحتسب في الأسواق والمعاملات التجارية ٠ ويصور لنا « المقري » نقلا عن « ابن سعيد » صورة حية نابضة بالحركة عن كيفية مباشرة المحتسب

لأعماله في الأسواق ، فقد كان يسير في الأسواق راكبا دابته ، ويصحبه في ركابه أعوانه حاملين معهم الموازين والمكاييل لمعايرة أوزان الباعة ، والتأكد من وزن الخبز بالذات ، اذ كان وزنه معلوما ومسعرا ، حتى لا يكون هناك مجال للتلاعب في أوزانه ، أما اللحم فكان يشترط عليهم وضع ورقة مكتوب عليها الأسعار التي حددها المحتسب ، كما اتبع المحتسب بعض الأساليب « التي مازلنا نستعملها حتى اليوم » في اختبار الباعة ومدى التزامهم بالأوزان والأسعار فقد كان يدس عليهم صبيا أو جارية ليبتاع منهم ثم يقوم باختبار الوزن ومراجعة السعر ، فان وجد نقصا في الوزن أو مخالفة لما حدده لهم من الأسعار ، قاس على ذلك حالهم مع الناس في التعامل ، ويقوم بتوقيع العقوبة الفورية على المخالف ، والتي تبدأ بالتوبيخ أو الضرب والتجريس والتشهير في السوق ، أو النفي من الأسواق ، بل من المدينة بأسرها ، وكل ذلك يجري وفق أحكام الحسبة وقواعدها التي يتدارسها المحتسب ويعلمها للباعة (١٦) ٠

وكان على المحتسب مفاجأة الأسواق والباعة في أوقات الغفلة عنه ، كما يتخذ له فيها عيونا يوصلون اليه الأخبار وأحوال السوقة (١٧) والاشراف على تنظيم الأسواق ومنع الجلوس في طرقاتها ، أو اخراج الباعة لمصاطب الدكاكين حتى لا يضايق المارة كما يمنع أحمال الحطب والتبن وأحمال الحلفاء من دخول الأسواق حتى لا تلحق الضرر بالمارة ، ويعمل أيضا على أن تكون حوانيت العطارين والبزازين بعيدة عمن كانت صناعته تحتاج الى وقود نار كالخباز والطباخ والحداد حتى لا يحدث ضرر بينهم لعدم التجانس ، والعمل على نظافة الأسواق (١٨) ٠

وكانت واجبات أعمال المحتسب في الاشراف على الباعة وأصحاب الصنائع في الأسواق متعددة ومتشعبة ، فقد كان عليه أن يشرف على الفرانين والخبازين ، فيقوم بتفريقهم على الدروب والمحال وأطراف البلد لما في صناعة الخبز من أهمية ويأمرهم باصلاح المداخن ، وتنظيف الفرن من اللباب المحترق والرماد المتناثر حتى لا يلتصق بالخبز ، الى جانب نظافة الفرانين وأدواتهم المستعملة في العجين ، كما فرض عليهم وضع علامات مميزة على أطباق العجين اذا كثرت عنده حتى لا تختلط مع بعضها البعض (١٩) ، أما بالنسبة للجزارين فقد فرض عليهم اتباع الأصول الشرعية في عمليات الذبح بذكر اسم الله ، واستقبال القبلة ، وعدم استخدام السكين كالة (أي غير مسنونة) وكذلك عدم نفخ لحم الشاة بعد السلخ حتى لا تتغير نكهة اللحم ، كما

اشترط على القصابين عدم بروز اللحوم عن حد مصاطب الحوانيت ، وعزل لحوم الماعز عن لحوم الضأن وتعليق أذناب الماعز على لحومها الى آخر البيع حتى لا يختلط الأمر عند المشتري ، وكذلك بيع الاليات مفردة عن اللحم ، ولا يخالطها جلد ولا لحم ، الى جانب اتباع النظافة الشخصية للمحل أيضا ، كما يختبر الذبائح اذا شك فيها ، بالقائها في الماء فان طفت فهي ميتة ، وان رسبت فهي مذبوحة ، واتبع هذه الطريقة في اختبار صلاحية البيض (٢٠) ٠

كما تولى الاشراف على صناع المأكولات المختلفة مثل صناع الزلابية (نوع من الفطائر التي يدخل في عملها العسل واللوز) (٢١) ، والشوائين ، اذ يقوم بوزن الحملان قبل ادخالها في التنور ويكتبها في دفتره ، ثم يعيد وزنها بعد اخراجها ، فاذا نقص وزنها الثلث فقد تناهى نضجها ، والاأعادها الى التنور مرة أخرى حتى يتم نضجها (٢٢) ٠ وكذلك الرواسين (أي بائعي الرءوس والكوارع) حيث يأمرهم بتنظيفها ، وعدم خلط رءوس الماعز بالضأن ، بأن يجعلوا في أفواه رءوس الماعز كوارعها لتمييزها (٢٣) ، كما تناولت وظيفة المحتسب الاشراف على الصيادلة الذين كانوا يبيعون أنواعا من الأعشاب الطبية والأدوية الجافة ، وأيضا الشرابين حيث كانوا يصنعون الأدوية السائلة والمركبة والمعاجين والمراهم ، وكذلك العطارين الذين كانوا يبيعون العقاقير الطبية ، خاصة أن هذه الأنواع من السلع كانت عرضة للغش بوسائل كثيرة يصعب اكتشافها (٢٤) ٠ وتناولت أعمال المحتسب أيضا الاشراف على البزازين (بائعي الثياب) ، والحاكة (من ينسج الغزل) ، والخياطين ، والقطانين (٢٥) ، والكتانين ، والحريريين ، وأيضا الصباغين ٠ وقد وضعت لهم شروط وقواعد لممارستهم لهذه الأعمال ، والابتعاد عن الغش أو التدليس (٢٦) ٠ وكذلك الاشراف على الأساكفة (صانعي الأحذية) ، والصاغة (صانعي الحلي المصنوعة من الذهب والفضة) ، والنحاسين والحدادين (صانعي الأدوات النحاسية أو الحديدية) ، ومنعهم من الغش أو التدليس فيما يقومون بصنعه (٢٧) ٠ كما تناولت أعمال المحتسب أيضا الاشراف على البياطرة ، وما يقومون به من علاج الدواب المختلفة ، وضرورة معرفتهم بعللها وطريقة معالجتها ، وكذلك الاشراف على الفصادين (٢٨) والحجامين (٢٩) والأطباء والكحالين (٣٠) والمجبرين (٣١) ، والجرائحيين (٣٢) ، ويختبرهم ويراقب أعمالهم ويلزمهم باتباع القواعد المتعارف عليها وفق الأصول العلمية المعمول بها (٣٣) ٠ وهذه الأعمال وان كانت تتسم بالصبغة الطبية مما يجعلها تبدو بعيدة عما نحن بصدده من تناول أعمال المحتسب في الأسواق ، ولكنها في الحقيقة وثيقة الصلة بموضوع الدراسة ، حيث أنها تعتبر نوعا من المعاملات ولها سمة التعامل التجاري لما تتضمنه من اتفاق نقدي بين القائمين عليها والمنتفعين بأعمالهم ٠

ولم تقتصر واجبات المحتسب على الأعمال السابقة ، بل تناولت أيضا الاشراف على نخاسي العبيد والدواب ، ومفاجأة أسواقهم ، ومراقبة مدى تنفيذهم للقواعد التي تتبع في تعاملهم في بيع العبيد والدواب ، كما وضعت الأسس التي تنظم هذه العملية (٣٤) · كما تولى المحتسب تحصيل الجزية من أهل الذمة طبقا لما تقرر عليهم (٣٥) وقام المحتسب أيضا بعدة أعمال أخرى تتصل بالنواحي الدينية والآداب العامة ، والعبادات ، وليس هنا مجال لذكرها لتشعبها وارتباطها بمجالات أخرى غير المجالات التجارية أو الاقتصادية ، وما يتصل بها من مراقبة الأسواق والباعة وضبط موازينهم ومكاييلهم ومنع الغش (٣٦) · كما أوضح « ابن عبدون » واجبات المحتسب التي أشرنا اليها ، وزاد عليها بعض الواجبات الملقاة على عاتقه في أمور الحسبة على القوارب التي تحمل البضائع والتجار ، ومراعاة عدم زيادة حمولتها عن المقدار المحدد لها (٣٧) ·

وقد بلغت وظيفة المحتسب وأعمال الحسبة في الدولة الاسلامية درجة كبيرة من الدقة في ضبط الأمور وتنظيم المعاملات في الأسواق مما دفع البيزنطيين الى أخذ نظم الحسبة ووظيفة المحتسب وتطبيقها عندهم ، وأضحت من الدقة والصرامة ، بحيث خشى بأسها التجار ، وكان من العسير عليهم تهريب السلع والبضائع ، أو التلاعب في أسعارها ، أو الاخلال بنظم الأسواق (٣٨) ·

ولعل من أهمية هذه الوظيفة أنها انتقلت الى ممالك أسبانيا المسيحية ، وان كان نفوذها قد تقلص عنها وصار عمل المحتسب مقصورا على مراقبة الأسعار والموازين ، ويسمى هناك بالاسم العربي نفسه Almohtacen كذلك ظلت وظيفة المحتسب قائمة في المغرب حتى اليوم ، في الوقت الذي انقرضت فيه من المشرق ، وهذا دليل على أصالتها وضرورة الحاجة اليها في بلاد الغرب الاسلامي ·

ولم تكن الدولة تتدخل في الحياة الاقتصادية العامة ، ولكن قام أولو الأمر بمراقبة الأسواق والمعاملات التجارية مراقبة دقيقة لمنع الغش وضبط الأمور (٣٩) · ويطلق بعض المستشرقين على المحتسب اسم « مفتش الأسواق والبضائع أو السلع ، والمقاييس والمكاييل والأوزان (٤٠) » ·

كما يطلقون على الحسبة اسم : الشرطة المدنية ، أو الشرطة المسئولة في الأسواق والآداب العامة (٤١) ٠ وهذا مما يدل على أهمية الحسبة والمحتسب في حجم المعاملات التجارية والاشراف على الأسواق ، كما يدل على ما بلغته من الدقة والتنظيم مما ساعد على استقرار الأمور ، وأسهم في ازدهار النشاط التجاري ٠

الأعوان والعرفاء :

على الرغم من تعدد الواجبات الملقاة على عاتق المحتسب وتشعبها ، الا أنه كان قادرا على مجابهتها ، والقيام بأعبائها ، وقد استعان على تنفيذ ذلك بالأعوان والعرفاء لمساعدته في تنفيذ مهام وظيفته ، ولهذا كان يختار بنفسه الأعوان الذين يعملون معه ، مراعيا في ذلك أن تتوفر فيهم الأمانة والنزاهة ، ويحدد للأعوان أجرة معلومة في اليوم حتى يمكن للمحتسب أن يقطع لهم منها في تصرفهم بحسب ما مضى من النهار (٤٢) ٠ كما اختار عريفا من أهل كل صناعة أو تجارة ليكون مسئولا أمامه عما يصدر من أهل حرفته ، ويلزم المحتسب معرفتها ، فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : « استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها » (٤٣) ويشير المقريزي الى وجود عريف على أرباب كل صنعة من الصنائع في كل سوق من أسواق مصر ، يتولى أمرهم ، كما يقوم أعوان المحتسب بالطواف على أرباب الحرف والتجارة ومراقبتهم (٤٤) ٠

العقوبات التي يوقعها المحتسب :

وقد سن للمحتسب نوعية العقوبات التي يوقعها على من يخالف وذلك حتى تكون له هيبة في النفوس ، ويخشوا بأسه ، ويكون ذلك لهم رادعا يمنعهم من ارتكاب المخالفات أو الأخطاء ، ولذا منح المحتسب سلطة تنفيذية في توقيع العقوبة الفورية على من يخطىء وهو ما عرف بالتعزير ، كنوع من العقاب والتأديب على ذنوب لم تشرع فيها الحدود ، وتختلف باختلاف نوع الذنب المقترف وحال فاعله ، ويكون بالاعراض عن المخطىء جليل القدر ، أو بالتهديد والتخويف ، أو بالضرب والحبس (٤٥) ، والتعزير يوافق الحدود من حيث أن الغرض منه هو التأديب والزجر بحسب اختلاف الذنب ، ويخالف الحدود من حيث أنه يجوز فيه الشفاعة أو العفو ، كما يختلف باختلاف منزلة ومكانة المخطىء ، الى جانب أن تعزيزه متروك للحاكم أو القاضي ، واذا حدث تلف بسبب التعزيز فيجب ضمانه (٤٦) ٠

والتعزير وان كان نوعا من العقاب لم يقرره القرآن ، ولكن اتفق عليه في معظم البلاد الاسلامية ، ويشترط فيه عدم الزيادة عن الحدود ، ويجوز في التعزير أن يجرد من ثيابه ، الا ما يستر عورته ، ويشهر في الناس وينادى عليه بذنبه اذا تكرر ذلك منه ولم يقلع عنه ، ويجوز أن يحلق شعره ولا تحلق لحيته ، واختلف في جواز تسخيم وجهه وان كان قد أجازته الأكثرية من الفقهاء (٤٧) · ويكون التعزير أيضا بالتوبيخ بالقول أو الضرب بالسوط المتوسط الغلظ ، أو بالدرة (٤٨) ، أو النفي من البلد ، أو التجريس والتشهير بأن يلبس المشهر به طرطورا من اللبد ، منقوشا بالخرق الملونة ومكللا بالودع والأجراس ويطاف به في الشوارع (٤٩) ، وتوقع هذه العقوبات تبعا للذنب الذي يرتكبه المخطيء ، وعلى حسب مركزه الاجتماعي ·

وقد قام الاشراف على الأسواق بدور ايجابي في استقرار المعاملات وانتعاش العمليات التجارية ، وضبط أمور أصحاب الصنائع ، وذلك نتيجة لتطبيق قواعد الحسبة ، وقيام المحتسب بواجبات عمله خير قيام ، يساعده في ذلك الأعوان والعرفاء ، الى جانب منحه سلطة تنفذية في توقيع العقوبات الفورية على المخالفين كل حسب ذنبه ، وهذا أدى من جانب آخر الى زيادة هيبة المحتسب في نفوس الباعة وأصحاب الصنائع وجعلهم يلتزمون الدقة والابتعاد عن الغش والتدليس أو الاخلال بالكيل أو الميزان مما أدى في نهاية الأمر الى انضباط أمور المعاملات التجارية في الأسواق ·



الهـوامش والمصـادر

١ ـ أبو يعلى : الاحكام السلطانية ، ص ٢٦٨ ، وانظر ايضا الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٨ ، ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٥ .

٢ ـ سورة آل عمران (٣) : آية ١٠٤ .

٣ ـ راجع أبو يعلى : الأحكام السلطانية ، ص ٢٦٩ ـ ٢٧١ ، الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٩ ومابعدها ، النويري : نهاية الارب ، ج ٦ ، ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

٤ ـ د. ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٥٥ .

٥ ـ راجع : ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٢٦ .

٦ ـ الكناني : (أبو زكريا يحيى بن عمر ، الأندلسي) : احكام السوق ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، نشر فرحات الدشراوي ، تونس ١٩٧٥ ، ص ٩ ـ ١٠ ، من المقـدمة .

٧ ـ د. الرافعي : حضارة العرب ، ص ١٣٧ ، وانظر ايضا : الشهاوي : الحسبة في الاسلام ، ص ١٠٣ .

٨ ـ الأستاذ/ عبد الحميد العبادي : صور وبحوث من التـاريخ الاسلامي ، ص ١١٢ ـ ١١٧ ، الشهاوي : الحسبة في الاسلام ، ص ١٠٣ ـ ١٠٥ .

٩ ـ المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢١٨ ، وانظر ايضا : زيدان (جورجي) : تاريخ التمدن الاسلامي ، ج١ ، ص ١٩٠ .

١٠ ـ المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص ٢١٨ وانظر ايضا : الاستاذ/ عبد الحميد العبادي : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ، ص ١٦٤ .

١١ ـ النباهي (أبو الحسن عبد الله) : المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، المنشور بعنوان (تاريخ قضاة الأندلس) نشر ليفي بروفنسال ، دار الكاتب المصري ، القاهره ـ ١٩٤٨ ، ص ٨١ ، وانظر ايضا :

١٢ ـ

— Provencal : Histoire de L'Espagne Musulmane, T3, P. 457.

— Dozy : Spanish Islam, P. 457.

١٣ ـ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٢٥ ، وانظر ايضا : الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ٦ ـ ١٠ ، المقري : نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

١٤ ـ انظر الكناني ، كتاب احكام السوق ، مقدمة الكتاب ، ابن الاخوة : معالم القربة في احكام الحسبة ، ص ٣ ، ابن تيمية (أبو العباس احمد) : الحسبة في الاسلام ، مطبعة المؤيد بالقاهرة سنة ١٣١٨ هـ ، ص ٥ وما بعدها ، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص ٤ ـ ٥ .

١٥ ـ انظر : ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٢٥ ، ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال في كتاب ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة ، المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥ ، ص ٣٥ ـ ٤٩ ، وكذلك : رسالة ابن عبد الرءوف في الحسبة . والمنشورة في نفس الكتاب السابق ، ص ٨٤ . وانظر ايضا في كتاب ثلاث رسائل اندلسية : رسالة عمر بن عثمان الجرسيفي في الحسبة ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ .

١٦ ـ المقري : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٢١٨ ـ ٢١٩ .

١٧ ـ الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠ .

١٨ ـ ابن الاخوة : معالم القربة في احكام الحسبة ، ص ٧٨ ، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١١ ، ١٤ .

١٩ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٢٢ ـ ٢٤ ، ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٩١ ـ ٩٢ .

٢٠ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ٩٣ ، وانظر ايضا ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في الحسبة ، ص ٤٣ ، وكذلك

ابن عبـــد الرءوف (احمـــــد بن عبـــد الله) : رســـالة ابن عبـــد الرءوف في آداب الحسبة والمحتسب ، نشر ليفي بروفنسال ، ص ٩٢ ـ ٩٥ ٠

٢١ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ٠

٢٢ ـ المصدر السابق ، ص ٣٠ ٠

٢٣ ـ نفسه ، ص ٣٢ ٠

٢٤ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٤٢ ـ ٥٨ ٠

٢٥ ـ القطانون (مفردها : قطان) وهو الذي يقوم بندف القطن ويقابله في العصر العالي المنجد (الشيزري : نهاية الرتبة ، هامش ١ ، ص ٦٩) ٠

٢٦ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٦١ ـ ٧٢ ٠

٢٧ ـ المصدر نفسه ، ص ٧٣ ، ٧٩ ٠

٢٨ ـ الفصد : شق العرق لاستفراغ الدم منه ، اما لرداءته ، واما خوفا من حدوث امراض نتيجة كثرة الدم (انظر الشيزري ، نهاية الرتبة ، هامش ١ ، ص ٨٩) ٠

٢٩ ـ الحجامة : امتصاص الدم الفاسد او الزائد (انظر الشيزري ، نهاية الرتبة ، هامش ٢ ، ص ٩٥) ٠

٣٠ ـ الكحال : طبيب امراض العيون ٠

٣١ ـ المجبرون : هم اطباء العظام في تلك العصور ٠

٣٢ ـ الجرائحيون : هم أطباء الجراحة (انظر : الشــــيزري : نهاية الرتبة ، هامش ١ ، ٢ ، ٣ ص ٩٧ ، عن الكحالين والمجبرين والجرائحيين) ٠

٣٣ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ٨٠ ـ ٩٧ ٠

٣٤ ـ المصدر السابق ، ص ٨٤ ، ٨٥ ٠

٣٥ ـ المصدر السابق ، ص ١٠٦ ٠

٣٦ ـ تجدر الاشارة الى أن (ابن الاخوة) في كتابه معالم القربة قد تناول اعمال المحتسب ، وان كان قد أخذ الأبواب الأربعين الرئيسية التي تناولها « الشيزري » في كتابه « نهاية الرتبة في طلب الحسبة » وأضاف اليها بعض الأعمال الدينية والاجتماعية التي أسندت الى المحتسب ، وبلغ كتابه سبعين بابا ٠

٣٧ ـ ابن عبدون : رسالة ابن عبدون في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال في « ثلاث رسائل اندلسية في الحسبة » ، ص ٣٩ ومابعدها ٠

٣٨ ـ د٠ العدوى : الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ١٢٧ ٠

٣٩ ـ د٠ زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص ٢٥٥ ٠

٤٠ ـ

— Dozy : Supplement Aux Dictionaires Arabs, VI, P. 85.

٤١ ـ د٠ شلبي : السياسة والاقتصاد في التفكير الاسلامي ، ص ١٧٧ ٠

٤٢ ـ ابن عبدون (محمد بن أحمد التجيبي) : رسالة ابن عبـــدون في القضاء والحسبة ، نشر ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ١١ ٠

٤٣ ـ الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٢ ٠

٤٤ ـ المقريزي : اغاثة الأمة بكشـــف الغمة ، الطبعة الثانية ، ص ١٨ ، وانظر ايضا : د٠ زيادة : لمحات من تاريخ العرب ، ص ٢٥٥

٤٥ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٥ ، الشيزري : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، ص ١٠٩ ، ابن الاخوة : معالم القربة ، ص ١٨٤ ـ ١٨٨ ٠

٤٦ ـ الماوردي : الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ، ابن الاخوة : معالم القربة في أحكام الحسبة ، ص ١٩٠ ـ ١٩٥ ، الشيزري : نهـــاية الرتبة ، ص ١١٠ ، وانظر أيضا : د٠ شلبي : السياسة والاقتصاد في التفكير الاســـلامي ، ص ١٧٨ ، وكذلك : الشهاوي : الحسبة في الاسلام ، ص ١٤٦ ـ ١٥٠ ٠

٤٧ ـ الجرسيفي : رسالة في الحسبة ، نشر ليفي بروفنسال ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ٠

٤٨ ـ الدرة : تصنع من جلد البقر او الجمل ٠

٤٩ ـ الشيزري : نهاية الرتبة ، ص ١٠ ، وانظر أيضا : د٠ ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية في العصور الوسطى ، ص ٦٥ ٠

رسائل علمية

شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام

قدمها : الأستاذ / محمد علي الهرفي
عرض : عصام ضياء الدين

قدمت هذه الأطروحة لجامعة الاسكندرية ـ كلية الآداب قسم اللغة العربية واللغات الشرقية ـ في ٢ ذي الحجة ١٣٩٨ ونال الباحث بموجبها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى ۰ وكانت لجنة المناقشة تضم كل من :

الأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي ـ نائب رئيس جامعة الاسكندرية : رئيسا ۰

الأستاذ الدكتور حسين محمد نصار ۰ وكيل كلية الآداب بجامعة القاهرة للدراسات العليا : عضوا ۰

الأستاذ الدكتور محمد مصطفى هداره ۰ أستاذ الأدب العربي بالكلية ـ عضوا ومشرفا على الرسالة ۰

وكان موضوع الرسالة « شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام » .
يرمي الباحث من وراء هذه الرسالة الى اثبات عدة حقائق :

اولها تأكيد ارتباط الشعر بالحياة ، وتأكيد معنى الجهاد وقيمته في حياة المسلمين في تلك العصور التي عرف عنها بأنها عصور تخلف وانحلال . فاثرت الحروب الصليبية في حياة المسلمين وشعرهم فعكس شعر الجهاد هذا التأثير برؤيا جديدة لحياة الجد والايمان في مواجهة عصر الانحطاط .

الحقيقة الثانية : تأثير شعر الجهاد في ألوان الشعر الأخرى التي كانت سائدة في هذه العصور فانحصر شعر الغزل والهجاء وشعر الخمر واللهو ، بينما انتعشت فنون أخرى تتواءم مع طبيعة الجهاد مثل شعر الزهد والحكمة وكل ما يحض على الفضيلة والأخلاق .

الحقيقة الثالثة : أهمية شعر الجهاد بوصفه وثيقة تاريخية سياسية اجتماعية تؤكد ما تناولته صفحات التاريخ عن معارك الاسلام في مواجهة الصليبيين . وتكشف في الوقت نفسه دوافع كثيرة وحقائق ربما أهملتها روايات المؤرخين .

الحقيقة الرابعة : دحض شعر الجهاد ما تناولته كتب التاريخ عن مظاهر التمزق والخلاف بين الأقطار الاسلامية ، فبرهن على حقيقة مشاعر الوحدة الاسلامية حينما تنادي الشعراء المسلمين في كل مكان . فدرس الباحث شعر ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي وأسامة بن منقذ والشهاب الحلبي وطلائع بن رزيك وابن سناء الملك . فضمت أطروحته مجموعة كبيرة من نصوص شعر الجهاد تجتمع لأول مرة في بحث متكامل . كما أنه أضاف الجديد باستخراجه قصائد من كتب مخطوطة غير منشورة .

وكان من الطبيعي أن يتناول الباحث دراسة تحليلية لشعر الجهاد من حيث عناصره الشكلية فقام بتحليل لغته وموسيقاه وصوره الفنية وزخارفه البديعية ونهج قصيدة الجهاد حيث لجأ الشعراء الى الابداع والتجويد دون التكلف والتصنع المقيت والتقليد .

ولقد قسم الباحث رسالته العلمية إلى أربعة أبواب ومقدمة تمهيدية حرص فيها على ايضاح السبب في اختياره لمنطقة الشام كي تكون محل دراسته لشعر الجهاد . فرد ذلك الى ما لأهمية هذه المنطقة من الناحية الدينية والناحية الاستراتيجية الأمر الذي حدا بالصليبيين الى الاستيلاء على الأماكن المقدسة في فلسطين وامتلاك الموانيء البحرية التجارية في بلاد الشام عموما .

وأخيرا كان من الطبيعي وهو بصدد تناوله شعر الجهاد أن يؤصل لفكرة الجهاد ومعناه في الاسلام ويبين أهميته والمثوبة التي وعد بها الله المجاهدين في الحياة الأخرى ٠

تناول الباب الأول الحديث عن تاريخ الحروب الصليبية وآثارها في بلاد الشام ، وقسمه الى فصلين بحث في الفصل الأول الصراع بين الاسلام والصليبية ابتداء من سقوط بيت المقدس عام ٤٩٢هـ وانتهاء بطرد الصليبيين عام ٦٩٢هـ ٠ بينما تناول الفصل الثاني الآثار الثقافية والاجتماعية التي خلفتها تلك الحروب في بلاد الشام ٠

ويأتي الباب الثاني عن الشعر في فترة الحروب الصليبية ٠ وقسمه أيضا الى فصلين الأول منهما عن الشعر بصفة عامة وظواهره الفنية واستخدام المحسنات اللفظية التي تبعد الشعر عن غاياته الأساسية ٠ أما الفصل الثاني فتناول شعر الجهاد من الناحيتين التاريخية والأدبية ، فتميز بالجدية والالتزام فكان للشعراء هدف يسمون اليه وغاية نبيلة يرجون تحقيقها فارتفعوا بشعرهم لغة وأسلوبا ومعنى ٠

أما الباب الثالث فتناول دراسة تحليلية لشعر الجهاد في فترة الحروب الصليبية ٠ وقسمه بدوره الى فصلين ، الأول منهما حرص فيه على تبيان اختلاف موضوعات هذا الشعر عما كان سائدا من موضوعات الشعر الأخرى آنذاك ، فجاء هذا الشعر مع بداية تلك الحروب ٠ أما الفصل الثاني فخصصه لدراسة الظواهر الفنية لشعر الجهاد فتحدث عن لغة الشعر وموسيقاه وبين أن شعراء الجهاد كانت لديهم القدرة الكافية على استيعاب المعاني وصياغتها بلغة عربية فصيحة ٠ هذا فضلا عن استخدامهم الصيغ البديعية خاصة الجناس والطباق ٠ كذلك أبرز الصور الفنية التي تشمل التشبيه والاستعارة وأوضح الصور القديمة والجديدة المستخدمة ٠ وأخيرا اذا كان الشعراء قد اقتبسوا بعض المعاني والصور من سابقيهم لا سيما « المتنبي » و « أبا تمام » الا أنهم تفردوا بذاتيتهم الخاصة في صورهم ومعانيهم وبالجملة لم يلتزموا بنهج القصيدة العربية القديمة ٠

ويأتي الباب الرابع والأخير الذي عرض فيه تراجم لأهم شعراء الجهاد وقسمه الى فصلين أيضا ٠ تناول الأول تراجم « ابن القيسراني » و « ابن الطرابلسي » و « أسامة بن منقذ » و « الشهاب محمود الحلبي » ٠
أما الفصل الثاني فلقد حرص الباحث على تناول تراجم بعض الشعراء المسلمين من غير بلاد الشام خصوصا مصر ٠

تعليق على رد

للدكتور: محمد السليمان السديس

اطلعت على ما كتبه الدكتور عبد الرحمن الشريف في العدد الرابع من السنة الخامسة لمجلة (الدارة) بعنوان « حول دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية » على (الصفحات ٢٩٥ الى ٢٩٨) ردا على ملاحظات نقدية كتبتها تحت العنوان نفسه في العدد الثالث من السنة نفسها من الدارة على الصفحات (من ١١٤ الى ١٣١) على مقال له بعنوان « دراسات في جغرافية المملكة العربية السعودية — مدينة بريدة » ، ومع اعجابي بسعة صدر الكاتب الزميل الفاضل وتقبله للنقد بروح الباحث المتحري للحقيقة الملتمس لجانب الصواب فيما يتعرض له من مواضيع ، وتقبلي لشكره بالتقدير ، فاني استشففت من ثنايا سطور رده ما يوحي بأنه كاد يضيق ذرعا بما كتبته .. فبدا منه تبرم قاده الى عدم الدقة ، وغياب الحيدة والموضوعية في الحوار فاذا بقلمه يتجاوز القول في صلب الموضوع المطروح للنقاش ويأوي الى الحديث عن اختصاصي وعدم التصاقه بالجغرافية ، ويكرر ذلك لينفذ عبره الى الزعم بأن (جميع) ملاحظاتي كانت لغوية (وان حاولت تصنيفها في فقرات عديدة) كما ذكر . وكأنه يريد الايحاء بأن لا ضير منها ، لهذا السبب ، على بحثه ، ولا دخل له بها .

أما التخصص — يا زميلي العزيز — فلا اخاله منضويا في حمى موضوع النقاش ، ولا يخفى أن من بدهيات الجدل الموضوعي تحاشي الحديث عن الكاتب وحصر القول في (المكتوب) .. ثم انه ليس لأحد حق في أن يحرم أي قارىء من قراءة أي موضوع وتفهمه وتذوقه ثم نقده — ان شاء — وتمحيصه اذا أنس في نفسه المقدرة على ذلك وأمن الوهم .. لا سيما وان

الدراسات الانسانية حلقات مترابطة .. والوشائج بينها وثيقة .. بل انها كالجسد الواحد ذي الحواس والأعضاء المتعددة . ثم اني لم أكن ياعتريزي الزميل أول امرىء غير جغرافي سار في دروب الجغرافية ، كما أن مما شجعني على ذلك أن مقالتك التي نحن بصددها كانت عن (بلاد بهـــا نيطت علي تمائمي ، وأول أرض مس جلدي ترابها) ولابد لمن كان كذلك أن يعلق في ذهنه كثير أو قليل من أحوالها الطبيعية والتاريخية والاجتماعية وغيرها . يضاف الى ذلك أن كثيرا من الهفـــوات الجغرافية الواردة فيه ظـــاهرة لكل ذي عينين .

وأما أن جميع الملاحظات كانت لغوية فالحق أن الأمر بخلاف ذلك ؛ وبوسع القارىء الكريم مراجعة مقالتي والتحقق من صدق مقولتي ، ولو كانت كذلك لما أوردتها في تصنيفات متعددة ، اذ كفى بالأخطاء اللغوية مأخذا .

ويضطرب كلام الدكتور الشريف في معرض ذكره الملاحظات والمـــآخذ فاذا به تارة يصفها بأن (معظمها) كانت أخطاء مطبعية ، وتارة بأنها (كلها) مطبعية .. ثم يتجنب بيان ذلك قائلا انه لا يريد أن يعدد تلك الملاحظات ... ولا اخال أحدا أيها الزميل الكريم سيقتنع بهذا . وليس من الموضوعية وتقبل النقد النزيه في شيء وصف تلك الأخطاء على تنوعها ، ومنها ما هو خطأ تركيبي وصياغي ومنها مايعود الى عدم الدقة في استقصاء المعلومات والاستفادة منها ، بأنها من اقتراف الآلة الطابعة .. وهي مقولة قد تتقبل لو حددت الأغاليط . ولقد ذكرت في مقالي أني غضضت النظر عن كثير من الأخطاء التي بدا لي أنها تطبيعية .. ولم أذكر مما ظننته من ذلك الضرب سوى عشرة .

ثم يقول الدكتـــــور الشريف (في ص ٢٩٦) : « غير أنه أبدى – مع الأسف – بعض الملاحظات اللغوية دون وجـــه حق ، ومن ذلك أنه اعترض في ص ١٢١ س ١١ على استعمال لفظ « العام » بصيغة المذكر ومرتين بصيغة المؤنث في ص ٢٦١ س ٥ ، ٦ ، ٧ على التوالي . مع العلم أنها كتبت في المرة الأولى بصيغة المذكر لأنها تصف اسما مذكرا هو « المخطط العام » وكتبت في المرتين الأخريين بصيغة المؤنث لأنها تصف اسما مؤنثا في الحالتين هما « النظافة العامة » و « الصحة العامة » اهـ .

وقد وهم أخي الدكتور الشريف هنا .. ومن يراجع ماقلته في مقالي يتبين أن اعتراضي لم يكن نحويا اذ قلت في معرض الحديث عن (أسلوب البحث) : « وأعيد ذكر لفظ (العام) في الأسطر ٥ و ٦ و ٧ من الصفحة

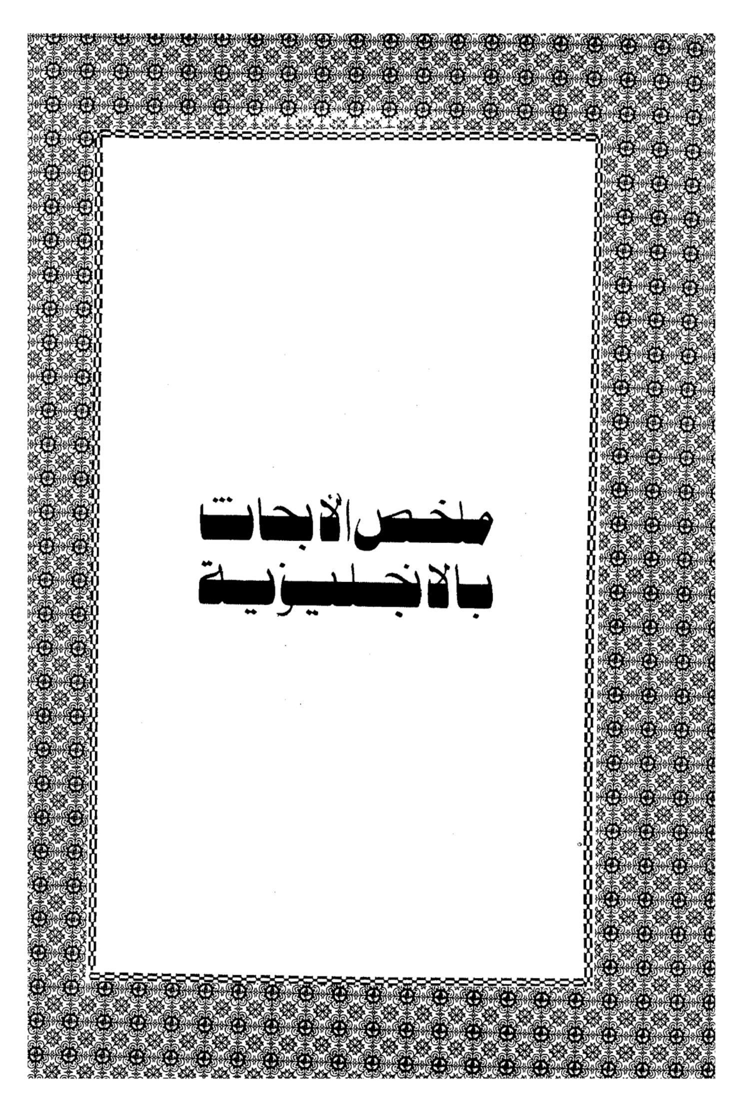
نفسها بصيغة المذكر في س ٥ وبصيغة المؤنث في س ٦ و ٧ » ·· لقد كان الاعتراض على تكرار كلمة (العام) في حيز قصير ·· وأشرت الى التذكير والتأنيث لازالة ما قد يتبادر الى الظن من أنهمـــا كلمتان مختلفتان ·· ولو كان اعتراضي نحويا لسقته في اطار حديثي عن « الأمور اللغـــوية والنحوية » · كما أنني بينت ما أقصده بعد ذلك بسطر واحد ·

ومن الأساليب الركيكة التي أشرت اليها قول الدكتـــور الشريف في مقاله : « الاحتلال المصري التركي عليها » وقلت في مقالي بأن الصحيح : « احتلال الأتراك والمصريين اياها » لكن الدكتور الشريف يقـــول في رده (ص ٢٩٦) : واستعمال الاحتلال التركي المصري ـ ويحذف « عليها » هذه المرة ـ اشارة الى حملة ابراهيم باشا ابن والي مصر من قبل الأتراك على نجد · فالتعبير لا يعني تحالفا تركيا مصريا في الحمـــلة نقول : « احتلال الأتراك والمصريين » · وهذه الجملة بالمناسبة غير واضحة المعنى ، ولعـل صحة آخرها : « لنقول : احتلال الأتراك ·· الخ » · فأقول : فُعلى هذا تكون صحة الجملة الأصلية : « الاحتلال التركي ـ المصري لها » لا « عليها » · وهنا يتضح أن الاعتراض لم يكن على تعبير « الاحتلال التركي ـ المصري » وأنه نحوي ·

ان التعابير التي أبديت تفضيلها في الاستعمال دون غيرها مما جاء في المقال هي الأسلم والأصح والأقوى وان لم يرق لكاتب المقـالة الكريم أن يتفق معي حولها ، وكونه لا يرى خيرا من استعمالها كما وردت في النص لا يعني البتة أن استعماله لها كان صحيحا · ومعروف من استعماله لها أنه لم يجد بديلا عنها ·· لكن بوسعه ذلك لو بذل المزيد من المحاولة ·

وكيلا أطيل بلا كثير طائل أضع اليراعة هنا ، ولكن قبل ذلك لايفوتني القول أن الدكتور الشريف يستحق الشكر على اهتمامه بالمملكة وبجغرافيتها ، والحق أنه عمل واجتهد وأصاب كثيرا ، وربما لم يصب أحيانا كبني جنسه جميعا فاستأهل نيل الأجر في كلتا الحالين ·

د· محمد السليمان السديس



ملخص الأبحاث بالانجليزية

in the second part of the book. This Kind of writing started with the earlier Omayyad caliphs. The oldest book written in Arabic proverbs was by Al-Mufadhdhal Al-Dhabbi Al-Kufi who lived in the Abbaside period.

On the famous book about the Arabic proverbs written by Abu 'Ubaid the author says in the third part of his book :

" It reached us in a number of manuscripts, a matter not strange for such a very popular and famous book. "

In his book Abu 'Ubaid collected more than one thousand proverbs, two hundred and twenty verses, one hundred and thirty sayings together with their back stories. He classified his book into parts, each for a separate subjct such as logice, men's proverbs, liberality, glory, fraternity, learning, knowledge, ignorance, avarice, and many others. He mentioned his sources and acknowledged his references.

In his book proverbs were classified by subject in nineteen parts, and these were subdivided into sections. As a philologist Abu 'Ubaid always started by giving a detailed explanation of the proverb after acknowleding his references. His book was so widespread that it drew the attention of all Arab scholars in the Arab world especially Morocco and Spain.

In the fourth part of Zelheim's book the author comments on Al-Bakri's explanations of Abu 'Ubaid's proverbs: He surveys Al-Bakri's life, examines his manuscripts, judges his narrative technique and the sources of his explanations.

The author, in the last part, moves to survey the books on the old Arabic proverbs after Abu 'Ubaid. Most of these books are not available now. Those available are the most-well - known : "Gamharat Al-amthal" by al-Askari, "Majma' Al-amthal" by Al-maydani and "Al-mustaqsi fi Amthal al-A'rab" by Al-zamakhshari.

This very quick survey is meant to be a bird's eye look on the legacy of the Arabic proverbs from the viewpoint of a German orientalist who acquired profound knowledge of our cultural heritage in general and of this branch in particular. Thus he has been able to introduce his valuable book to us.

" a product of editing a verified paper on the book titled " Proverbs " by Abu 'Ubaid al-Qasem ibn Sallam. He adds that his book pretends no perfection for the simple reason that its subject has been studied by so many philologists and dealt with in so many books. "

Zelheim's book is divided into five parts each dealing with one aspect of the subject.

The first part deals with the Arabic proverbs and their back stories. Some Arab scholars defined the meaning of the Arabic proverbs .... al-Zamakhshari said "To the Arabs the proverb means the similar or the equivalent. " al-Farabi said " The proverb is a saying whose words and meaning are accepted by all people high and low. " Abu 'Ubaid al-Qasem ibn Sallam said "The Arabic proverbs epitomise the wisdom of the Arabs in pre - Islamic times .... They have three characteristics : conciseness in words, appropriateness in meaning, and good allegorizing. "

The author was careful to have his book include a collection of our old Arabic proverbs.

Examples are : (Two swords never meet in a sheathe) (I hear much noise but see nothing) and many others.

Most of these Arabic proverbs have equivalents in European proverbs, which might be related to acculturalzation and mixing of peoples.

The Arabic proverbs are divided by the author into three classes according to their age : the old proverbs, the new proverbs - collected and added to the former since the fourth century Hijira — and the modern proverbs compiled and published by Europeans and others in the 19 th and 20 th centuries. They were taken from Egypt, Syria, Palestine and other Arab countries.

Every Arabic proverb has a story behind. These stories were told by the Arabs in their books on proverbs. But the back stories gradually sank into forgetfulness while the proverbs remained alive in our talks and in our literature.

Now the question arises : when did the Arabs start writing their proverbal sayings ? The answer is given by the author

The Classical Arabic Proverbs

BY

ABDUL-RAHMAN SHALASH

TRANSLATED AND ABRIDGED BY

SAID ABDUL AZIZ ABDALLAH

It is the title of a vigorous objective study of our classical Arabic Proverbs.

The author is the German orientalist Rudolf Zelheim. a scholar deeply concerned with Arabic studies. He published his book in 1954 It was translated into Arabic by Ramadan Abdul Tawwab, one of the best in the field of research and translation. Now we give a quick survey of the book.

In his introduction the translator describes this kind of folklore :

" Proverbial sayings, in all peoples, are an expression of the folk - consciousness, and clearly reflect their manners and customs in their rise and decline, and cast light upon their misery and comfort, their arts and their languages. In his book " Al-'aqd Al-fareed " Ibn 'Abd Rabbu defines proverbs as "The ornamentation of speech, the essence of words, and the decoration of meanings ..... The Arabs selected them, the Persians introduced them, and they were widespread everyw-here and at all times .... No wonder that they outlived poetry, were honoured more than orations. Nothing was ever more Popular or commonly used. " Abu - al - Hassan ibn Wahb adds that 'The wise men, the scholars, and the writers used to make proverbs, and to expound life misfortunes through proverbs. They saw in them a more successful means to touch the hearts. In this way the ancient took care to enrich their literature with proverbs and with stories about past peoples.'

As for the Arabs the translator says :

" The Arabs have reached unsurpassed level in applying proverbs to point out moral values. Their talk never missed a proverb. They embellished their arts of speech with them. No wonder, then, that the Arab philologists were keen on collec-ting a great deal of proverbs since the early history of the Arabic language, and on explaining them. They even left us the factual stories of these proverbs, pointed out their historical origin and place. and classified them in various categories and orders. "

In his introduction the author describes his book as

Al-Madina was boiling yith anger, dissension and the call to revenge the old caliph's murder. Some provinces supported the new caliph while others opposed him. The deposed rulers refused to give up their positions for the new ones appointed by the new caliph, The newly appointed governors could not carry out the caliph's orders and returned back to "Al-Madina,,. Some notable companions of the Prophet left "Al-Madina" in protest against Ali and persuaded 'Aisha (the Mother of the believers) to join them in Al-Basra city where they could find help of men and provisions to take up arms against Ali. In the year 36 Hijra the Battle of the Camel took place between the two camps. This led to the subsequent events of bloodshed and the emergence of the "Kharidjtes" or dissenters. Ali accepted arbitration as a final solution while those dissenters refused it. The majority of the moslem community did not accept the arbitral decision and the split hecame wider and deeper, until Ali was assasinated in the year 40 Hejira. Thus the first Islamic caliphate came to a close.

with the Islamic conquests during the reign of " Abu Bakr " where the moslem flag crossed the borders of Arabia.

— In the third part the author studied the period of " Umar Ibn Al-Khattab ", his domestic policies and his organisational talents in administration and in judicial fields. This Part also dealt with the soures of revenue in the new Islamic state : the head tax "Djizya", the land tax "Kharadj" and alms tax "Zakat".

The question of justice got great attention from caliph "Umar". Equality and justice prevailed. All sorts of oppression disappeared.

The author concluded this part by the reforms, security measures and construction works which caliph "Umar" ordered to be carried out in Al-Medina. He built and lighted mosques, formed government bodies, attended to the city markets, made people feel safe and ordered roads to be guarded. He was the first to use police guards in the Islamic state.

In the fourth part the foreign policy of caliph " Umar " was discussed. The author dealt with the conquests he completed. Caliph "Umar" died as martyr, He was assasinated on his way to dawn prayers.

The fifth part concentrated on the problems faced by "Uthman", the third caliph, and the difficulty a historian meets in making out honest, accurate and objective jbudgments. So many questions needed answers : the murder of "Umar" the attitude of " Al-Madina " city from the murder, the question whether non-Arab agents took part in the crime; the peaple's dissatisfaction with "Uthman's" Policy towards his governors in diffrent provinces, and with his deposition of the governors of Egypt, Al-Basra, and Al-Kufa. This part also showed how the situation developed from bad to worse in a general revolt against "Uthman" and how the conspirators infiltrated into Al-Madina and treacherously killed him.

In the sixth part we see how the fourth caliph was nominated amid an atmosphere of conflict, terror and split. The author discussed the attitude of some notable companions of the Prophet towards the choice of Ali as caliph (Talha and Al-Zubair). Caliph Ali took over and faced problems impossible to solve whether in the capital city itself or in the provinces.

community chose this system of government in their general conference immediately on the Prophet's death. The moslems voted For Abu Bakr as successor. Moslem jurisprudents and legislators defined the principles of the nomination of caliph. They said it might be done through a general agreement of giving a pledge of allegiance, a "bai'a" to the right man. The caliphate, to them, was a pledge between the governor and his subjcts.

Abu Bakr had an advisory council - not an appointed one. In his decisions he consulted both the Meccan emigrants "Al-Muhajirun" and Al-Madina Followers "Al-Ansar." Before his death Abu Bakr persuaded the moslem leaders to accept his pledge to Omar as second caliph.

The assasimation of "Uthman" the third caliph, was the beginning of a series of serious troubles and bloodshed that cut deep in the new state. The case of the murdered caliph contributed to the fall of the early caliphate. A revolt broke out in Iraq and Al-Sham under the pretence of revenging the murdered caliph.

The fourth caliph, "Ali" tried hard to avoid bloodshed and so accepted arbitration (tahkim) to decide who should take over as caliph, he or his opponent Mu'awiya. From that time onwards the subject of Islamic caliphate became a field of conflict among moslems. It continued so through the Omayyad, the Abbaside and the Fatemide periods. It brought split and bloodshed.

— In the second part of her book the author dealt with the reign of Abu Bakr and how difficult it was to steer the moslem ship in a sea of troubles. First he had to decide the question of succession, then came the serious threat of the apostatic movements in different parts of Arabia. Many tribes violated their obligations as moslems towards almsgiving "Zakah", Third "Abu Bakr" had to carry further the Islamic conquests started by the Prophet. Before all "Abu Bakr could" calm the moslem fears after moslems were greatly taken by the surprise of the Prophet's death. He delivered his famous speech including his memorable saying : "Those who worship Mohammad must Know that Mohammad is dead and those who worship God Know for sure that God is immortal."

The author also discussed some views on the apostatic movement as one with economic and social ends. she also dealt

A study on The Age of the Orthodox Caliphs

BY
Dr. FATHIA A. AL-NABRAWI
REVIEWED BY
KHALID S. AL-DREES
TRANSLATED AND ABRIDGED BY
SAID ABDUI AZIZ

The subject of Orthodox Islamic Caliphate has got much interest From Moslem historians, jurisprudents and political writers as well as non-moslem scholars. Its importance arises from the fact that it came after the Prophet's time and prior to the Omayyad and Abbaside ages. It was also the period when the newly formed moslem community had to face internal and external hostilities and develop its own codes of life within the rules of the holy Quran and Sunna. Moslems had to prove they had the spirit of continuity after the Prophet's death, and to fight in defence of their faith and unity.

The caliphate or Imamate was a term given to the islamic government after Prophet Mohammad. A number of rules governed the nomination of the caliph, his prerogatives and even his deposition. These rules were laid down by moslem jurisprudents.

The Problems faced by the first Islamic caliphate were numerous. On the domestic level two maior issues arose:

1. The Controversial question of the caliph's nomination,
2. The apostasy from Islam led by some Arab tribes.

On the external level the equally serious problems were the big hostile powers of Persia and the Romans.

However, the first caliph, Abu Bakr, could unite the moslem different views and crush the apostatic movement.

The second caliph, Omar, laid down the administrative foundations of the community and furthered the Islamic conquests begun by Abu Bakr.

But a serious intrigue led to dissension and civil strife with the reign of the third Caliph, 'Uthman Ibn' Affan. This developed with the fourth caliph "Ali Ibn Abi Talib". A tragic civil war split the moslem unity.

The author, in some details, devoted the first part of her book to the birth of the Islamic caliphate. The moslem

ADDARAH

Notice :

— All Correspondence should be directed to the Editor in- Chief
P. O. Box 2945 — Riyadh

— Articles are arranged technically, regardless of the writers' **prestige.**

— This English section contains summaries of some of the essays written in Arabic.

— **Price :**

a) **In Saudi Arabia :**
2 Riyals a copy.
15 Riyals per annum.

b) **In Arab Countries :**
The equivalent of 50 S. piastres a copy.
The equivalent of 15 riyals per annum.

c) **Non Arab Countries**
$1 a copy.
$6 per annum.

مطابع وإعلانات الشريف

الرياض ـ ت ٤٠٢١٨٧١

ADDARAH

QUARTERLY JOURNAL

by

King Abdul Aziz Research Centre
Concerned with

the Intelletual and Historical Heritage
of the Kingdom and the Islamic World.

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

SHAWWAL 1400 — SIXTH YEAR
SEPTEMBER 1980 — NO ; 1
P. O. B. 2945 — RIYADH
TEL : 4038646 — KINGDOM OF SAUDI ARABIA

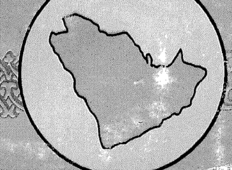
ADDARAH



QUARTERLY JOURNAL by KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
VOLUME 1 (6) 1400 A.H./1980 A.D.

IN THIS ISSUE

- A study on The Age of The Orthodox Caliphs
- The Classical Arabic Proverbs



مطابع واعلانات الشريف
الرياض ـ ص.ب ٤٤٩٧ ت ٤٠٢١٨٧١

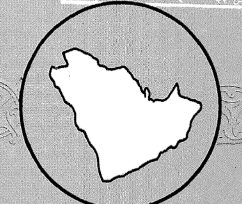


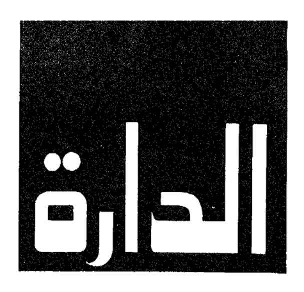


مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز

العدد الثاني/السنة السادسة/ربيع أول ١٤٠١هـ/يناير ١٩٨١م

من محتويات العدد





مجلة ربع سنوية تصدر عن دارة الملك عبد العزيز
تعنى بتراث وفكر المملكة والجزيرة العربية
والعالم العربي والاسلامي مماله صلة بالجزيرة العربية

العدد الثاني/للسنة السادسة
ربيع أول ١٤٠١هـ/يناير ١٩٨١م

الريـاض — ص·ب ٢٩٤٥
المملكة العربية السعودية — تلفون ٤٠٣٨٦٤٦

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

رقم الصفحة

- قيمة العدد في الداخل ريالان والاشتراك السنوى خمسة عشر ريالا وفي البلاد العربية مايعادل خمسين قرشا سعوديا للعدد او مايعادل خمسة عشر ريالا للسنة • في جمهورية مصر العربية خمسة وعشرون قرشا • في خارج البلاد العربية دولار للعدد الواحد

رقم الصفحة

ترسل الاشتراكات باسم أمين عـام الدارة أما المقـالات والبحـوث فترسل باسم رئيس التحرير ـ الرياض ص.ب ٢٩٤٥ ترتيب المواضيع داخل العـدد يخضع لأسباب فنية لا علاقة لهـا بمكانة الكاتب . آراء الكتاب لا تعبر بالضرورة عن راي المجـلة



إفتتاحية

ولست بصدد أن أكتب بحثا عن البحر الأحمر فقد أكتفي بهذه البحوث التي نشرت في هذا العدد كتعريف مبسط لمكانته وأهميته فان تشعبت الأحداث حواليه فقد جعلت له أهمية خاصة مع أنه في كل التاريخ ذو أهمية مما تظهره البحوث المنشورة بعد هذه المقدمة وانما ساكتب تعريفا لا تنساق به العاطفة الى حد لا يعقله عقل ، فأصدق التاريخ عقل لا يجور على العاطفة ، وعاطفة لاتقصي العقل .

ان البحر الأحمر كان أرضا برا كانما هو قد جعل جزيرة العرب افريقية ، بل وعلى الأصح قد جعل من

العدد

تنبيه

لرئيس التحرير

شرق افريقيا أرضا عربية • كان برا اتصلت به آسيا بافريقيا فاذا الانشطار يحدث به هذا الخليج : بحرنا الأحمر ، وكانما برزخ السويس قد كان الاشارة أو العلامة لتلك الصلة فحين كان برزخ السويس لا يعد البحر الأحمر الا خليجا عربيا ، وحين تم فتح قناة السويس أصبح مضيقا عربيا ، لا يملك أي شبر من سواحله الآسيوية الافريقية الا أهله العرب ، وان أخذت الحبشة بعض ساحله ، فحين كان خليجا عربيا لم تكن هناك حدود اقليمية داخل البحر تحدد بالأميال ، بل كله كان اقليما عربيا ، ولكن قناة السويس جعلته بحرا ترتفق به التجارة العالمية ، فهو ممر للتجارة وليس ملكا لأحد غير أهله •

ان البحر الأحمر قد أصبح أخطر مواضع الصراع حين جلب بعض المالكين لسواحله القوى الخارجية تتخذ من سواحله مامنـــا لأساطيلها كأنما هو الخطر من هذه الأساطيل قد جلبوه الى أنفسهم والى جيرانهم ، وبعض الخير من الشر ينبثق ، فلعل من ذلك أن يعرف العرب هذا الخطر فيعدوا أنفسهم بقوة تدفع عنهم الخطر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) •

فإن كان بعض القوة رباط الخيل فان كل القـــوة للبحر الأحمر رباط الأساطيل ، وهأنا حين أكتب هذه المقدمة أسمع البشائر باسطول سعودي تفتتح له قاعدة الملك عبد العزيز بالجبيل وأرجو أن يكون أسطولنا قوة تضاف الى قوة أخرى للأساطيل العربية كلها تتعاون في حدود التضامن لا في مجازفة فرض الامبراطوريات فان الامبراطورية العربية أصبحت غير ذات موضوع ، وانما هو التعاون والتضــامن • ولعـــلي أذكركم كيف نهج صلاح الدين الأيوبي يصنع اسـطولا في البحر الأحمر حين علم بان الأمير الصـــليبي (أرنولد) الذي يسميه تاريخنا أرناط قد هدد بانه ســـيغزو الحرمين فاعــد صلاح الدين السفن وأقسم أن يقتل أرناط بيده ، وقد أجاب الله دعوته حين أقسم فاذا الصليبي أســير يقتله الكردي الكركوكي الدمشقي المصري صلاح الدين كانما

هذه النشاة له وهذا الانتساب يجعله يمثل أمة الاسلام وأمة العرب .

ان هذا الخطر في البحر الأحمر أن أسعى أحصل على هــذه المقــالات بحوثا أعــدت في ندوة أقيمت في مصر وبحوثا طلبناها ، ولولا الاسراع في أن يصدر هذا العدد خاصا عن البحر الأحمر لكلفنا الكثير من العلمــاء أن يزيدوا البحوث بحوثا وان لم يكن ذلك اليوم فان غــدا لناظره قريب .

وأسال الله التوفيق ؟

الرومان والبحر الأحمر

للدكتور سيد أحمد علي الناصري
الأستاذ المساعد بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة

« ليس هناك أعداء دائمون ، ولا أصدقاء دائمون ، ولكن هنــاك مصالح دائمة » ، هذا القول المأثور المنسوب الى ونســـتون تشرشل ينطبق إلى حد كبير على تاريخ العــلاقات بين الدول الواقعة حول البحر الأحمر من ناحية ، وبين علاقتها بالرومان من ناحية أخرى ، لأننا نجد هذه العلاقات تتغير نتيجـــة لتغير موازين القوى السياسية والبحرية والاقتصادية ، أي انه لا توجد علاقات ثابتـــة بين الأمم ولا قوة دائمة الى الأبد .

فلو استعرضنا التغيرات السياسية في حوض البحر الأحمر منذ تطلع الرومان الى الاستيلاء عليه حتى قيام السيادة الاسلامية على جانبيه ، نجد عدة تغيرات متشابكة بدايتها تدهور نفوذ الدولة البطلمية في البحر الأحمر وتزايد نفوذ الأنباط على حسابها ، ثم احتدام الصراع على البحر الأحمر بين الأنباط والبطالمة ، ثم قيام الدولة السبئية ـ الحميرية في اليمن كمنافس جديد وتحالفها مع الأنباط ضد البطالمة ، بينما تحالف البطالمة مع دولة العرب اللحيانيين وبدينة العلا الحجازية ، ثم النشاط المحموم للبطالمة في البحر الأحمر بعد طردهم من سوريا عام ٢٠٠ ق٠م لتعويض ما فقدوه ، وتركيزهم على الساحل الافريقي للبحر الأحمر الذي اعتبروه امتدادا لسواحل مصر على هذا البحر ثم يلي ذلك سقوط حكم الأسرة البطلمية ودخول مصر في حوزة الرومان عام ٣٠ ق٠م حيث وصل الرومان الى مياه البحر الأحمر لأول مرة ، وبدأوا يدخلون ميدان السباق فيه بهدف فرض هيبة الامبراطورية السياسية والاقتصادية وتطبيق السلام الروماني بالسلم والحرب ، ثم بدأت روما تضع حدا للقوى السياسية المتصارعة على البحر الأحمر ، وبدأت في اخضاعها لسلطانها واحدة تلو الأخرى ٠ وظلت السيادة الرومانية لا تنافس حتى مطلع القرن الثالث الميلادي عندما بدأت الامبراطورية تضعف من الداخل ٠ بينما حدثت تطورات سياسية في البحر الأحمر مثل ظهور دولة أكسوم كمنافس جديد وظهور الدولة الساسانية في فارس والتي دعت الى طرد الرومان من الشرق كله ، ولما انقسمت الامبراطورية الرومانية الى شطرين بيزنطة في الشرق وروما في الغرب ، حاولت بيزنطة احياء النفوذ الروماني في البحر الأحمر على أساس استخدام نفوذها كمركز للعقيدة المسيحية ، وجعلت دولة اكسوم المسيحية قاعدتها بينما انتشر في اليمن والجنوب العربي حركة تهويد بعد هجرة عدد كبير من اليهود من فلسطين الى جنوب الجزيرة والى الحجاز ، وتعاطف الفرس مع اليمنيين والعرب المتهودين ردا على تعاطف الأكسوميين مع بيزنطة ، ومن ثم تحول الصراع الدولي بين القوتين الكبيرتين فارس وبيزنطة في القرنين الخامس والسادس الميلاديين الى صراع ديني بين اليهودية والمسيحية ، الى أن وضع الاسلام لذلك حدا وبرزت قوته لتفرض نفوذها على البحر الأحمر كله ٠

تلك نبذة تاريخية منذ مجيء الرومان الى مصر ولنبدأ الآن في معالجتها بشيء من التفصيل والتحليل ٠

بدأ اقتراب الرومان من البحر الأحمر تدريجيا بعد تدمير قرطاجة

وكورنثا عام ١٤٦ ق.م وتحقيق سيادتهم على البحر الأبيض المتوسط بعدها بدأت روما تتعامل مع الممالك الهللينستية وتتطلع لنشر نفوذها في دويلات شرق البحر المتوسط خاصة في مصر همزة الوصل بين البحرين .

غير أنه من العدل أن نقول انه لم يكن للرومان في البـــداية مخطط سياسي منظم من أجل السيطرة على البحر الأحمر ، وانما تعرفهم على أنماط جديدة للحياة الشرقية هو الذي لفت أنظارهم اليه ، وقد بدأ هذا التعرف أثناء حملة لوكوللوس في آسيا الصغرى في القرن الأخير ق.م ، ثم حروب سوللا في الشرق ووصول بومبي الى رسوريا وضمها للرومان ، ثم التغلغل التدريجي للنفوذ الروماني في مصر حيث كانت تجارة البحر الأحمر تمر عبرها ، كل ذلك أدى الى تعرف الرومان على بعض طرق الحياة الهللينستية والشرقية التي إعجبوا بها خاصة بعد تزايد موجة الرخاء في روما نتيجة للغنائم والضرائب التي دفعتها الشعوب الشرقية المغلوبة ، ومن ثم أدى ذلك الى تغيير كامل في حياة الرومان ، اذ بدأت البساطة القديمة تختفي ، وحل محلها تسابق على سلع الشرق وكمالياته وترفه ، وتطـــورت في أذواقهم سواء في الطعـــام أو الملبس ، أو حتى في الشعر والأدب . وبدأت التوابل الشرقية التي كانت تعتبر قبل ذلك شيئا مقدسا باهظ التكاليف تصل الى الرومان عبر أسواق الاسكندرية ، وأصبح الطعام الروماني يعتمد على هذه التوابل لدرجة أنه لأول مرة يضع متخصص مؤلفا عن فن الطهي عنـــد الرومان وهو مؤلف إبيكيوس Apicius الشهير والذي أصبح عماد المطابخ الرومانية (١) حتى القرن الثالث الميلادي (٢) ، وكنتيجة أيضا لوصول العطارة الشرقية ازدهرت مدرسة العقاقير والطب وبرز أطباء مشهورون يضـــعون التذاكر العلاجية التي تقوم على الأعشاب المستوردة من الشرق ـ كما انعكس ذلك حتى على الأدب اللاتيني نفسه اذ نجد في مسرحيات بلاوتوس (Plautus) وتيرنتيوس تلميحات الى أنواع البهارات والتوابل بأسمائها الشرقية الغريبة .

لم يكن الرومان بالشعب المغامر المغرم بالخيال وحب الاستكشاف ، بل كانوا شعبا واقعيا يتميز بالعبقرية العسكرية والقدرة الفائقة على خلق ادارة علمية منظمة وقوانين معقدة هي التي خلقت الامبراطورية وحققت السلام الروماني سواء في ايطاليا أو في الشرق الأوسط ، وفي ظلال هـــذا السلام ترعرعت التجارة العالمية ، ولقد ساهم أباطرة الرومان بمجهودات كبيرة من أجل خلق هيبة سياسية ، وثقة تعاملية في الامبراطورية خاصة عن طريق

عملتها كما حرصت روما على اظهار حسن النوايا مع الأمم الأجنبية مادامت صديقة وحليفة ، وبفضل حكمة وذكاء واخلاص أباطرتهم ، ونشاط تجارهم وحرصهم على سمعة بلادهم وتعاملهم الأمين مع غيرهم من الشعوب ، نجح الرومان في بناء هيبة لامبراطوريتهم في الشرق ، وحققت لهم الثقة والاحترام ظلت قوية حتى القرن الثالث الميلادي .

وبفتح أغسطس لمصر وبقيام السلام الروماني الذي وضع أساسه أغسطس ساد بين الرومان ميل شديد الى الكسب المادي بلا حدود (٥) مستغلين النظام السياسي الجديد ، وكان الدافع لتنشيط التجارة في البحر الأحمر عقب الاستيلاء على مصر دافعا ماديا بحتا ، وبعكس الحال أيام البطالمة حيث كان للرومانسية والخيال العلمي وحب المعرفة والاكتشاف دور كبير في ارتياد مجاهل ذلك البحر ، ولعل الذي ساعد على ذلك هو ازدياد تدفق الثراء على روما بعد نهب خزائن الملكة كليوباترا ، فضلا عن استغلال مناجم الفضة والذهب في أسبانيا مما خلق عند الرومان روحا جديدة تتمثل في الاقبال على الترف والميل الى الاستهلاك الكمالي للسلع الشرقية مثل العطور والأحجار الكريمة والحرير والتوابل .

وبالرغم من هذا لم تكن الامبراطورية الرومانية تميل الى احتكار التجارة لنفسها كما فعلت مصر في عهد ملوك البطالمة ، بل آثروا ترك المشروعات حرة لمن يريد ، ولكنهم كانوا يدعمون ويحمون التجارة خاصة الشرقية سواء بالنفوذ والسلام الروماني أو برأس المال ، اذ كانت الدولة ممثلة في القانون الروماني تضمن معاملات الروماني أو المتمتع بالجنسية الرومانية ، وهذا أعطى الثقة للتجار الشرقيين والسكندريين أن يشركوا معهم رؤوس أموال رومانية ، وكانت السفينة التجارية عادة ملكا لصاحب رأس المال الروماني Negotiator الذي كان يؤجرها أو يوكل أمرها الى تاجر سكندري أو شرقي Mercator عادة له خبرة بتجارة الشرق والطريق البحري الى الهند ، أما طاقم بحارة السفينة فكانوا عادة من الاغريق مصر المتمصرين الذين يعرفون موانيء مصر جيدا (٦) . وفي ظل هذه الظروف الجديدة (٧) تفتحت روح العمل والاستكشاف البحري من أجل الكسب ، وشهد البحر الأحمر نشاطا تجاريا محموما ، وعلى حد قول سينيكا « أن الرغبة في الكسب قد دفعت الانسان الى الترحال الى كل أرض وجعلته

يجوب كل بحر بحثا عن الكسب » (٨) ، لأن سطوة الامبراطورية الرومانية كما يقول بليني الأكبر « قد حققت للعالم الوحدة ، كما يجب أن يتفق الجميع أن الحياة الانسانية قد استفادت كثيرا من جراء الاتصال بالعالم الذي أصبح سهلا وكذلك من الاستمتاع بثمار السلام » (٩) ولقد نقل لنا سويتونيوس حادثة طريفة عن ذلك وهي عندما تصادف أن تقابلت سفينة تابعة لتجار من الاسكندرية مع يخت الامبراطور أغسطس خارج ميناء بويتولي في صيف عام ١٤م أي قبل موت الامبراطور بقليل وعندما شاهد البحارة السكندريون الامبراطور أغسطس حتى أوقدوا البخور وخروا ساجدين هاتفين : يا من خلاله نحيـا ومن خـلاله نبـحر ومن خـلاله نسـتمتع بالحـرية والرخاء !! » (١٠) هذه العبارة تلخص فضل الامبراطور أغسطس في خـلق عهد جديد للتجارة في البحرين الأبيض والأحمر ٠

هكذا بقيام الامبراطورية وباستيلائها على مصر ورثت روما مشروعات الفراعنة والبطالمة في البحر الأحمر وأصبح للامبراطور سياسة محدودة مع دول البحر الأحمر ، فقد رأى أغسـطس ضرورة تحويل طريق التجـارة في البحر الأحمر الى صالح الموانيء المصرية مثل بيرينـيكي (الهراس) ، وميوس هورموس (أبو شـعر القبلي) ، وأسـينوي (السـويس) ووجدت الامبراطورية نفسها وهي تدخل بثقل مجال الصراع من أجل تحقيق سيادتها الكاملة على البحر الأحمر ٠ فمنذ اللحظة الأولى بعد فتح مصر بدأ عهد جديد في تاريخ البحر الأحمر والتجارة مع الهند ، اذ فرض السـلام الروماني في البحر الأحمر ، وشرعت الامبراطورية في تطهير ذلك البحر من القراصنة الذين استفحل خطرهم منذ تدهور السلطة البطلمية ، وعندما كتب أغسطس مفاخرا في سجل أعمـاله « لقد طهرت البحر من القراصـنة » Mare Pacavi a Praedonibus (١١) فانه كان يعني البحرين الأبيض والأحمر ٠ ولكي يحقق ذلك وجد أغسطس أنه من المحتم عليه أن يحقق السيادة البحرية وأن يضع أسطولا من السفن التجارية oiapia بل وأن يمتلك قواعد بحرية ثابتة تكون في خدمة الخط الملاحي بين مصر والهنـد ٠

كانت استراتيجية أوكتافيوس إغسطس في البحر الأحمر تقـوم على تشديد القبضة على مصر لأنها هي همزة الوصل بين البحرين الأبيض والأحمر ، فضلا عن أن مصر تمتلك مساحات شاسعة من سواحل البحر الأحمر ، ولقد سعى فراعنتها منذ الأسرة الخامسة الى ارتياد البحر الأحمر (١٢) خاصة أن

كان لمصر علاقات قوية مع الساحل الافريقي ، ولهذا شقوا طرقا في الصحراء الشرقية تربط ما بين الموانيء المصرية على البحر الأحمر وبين موانيء النيل خاصة ميناء قفط الشهير ، بل حاول أحد فراعنة الأسرة السادسة والعشرين واسمه نيخو (نخاو) ٦١٠ ـ ٥٩٥ ق٠م أن يشق قناة تربط بين النيل وخليج السويس تبدأ من تل بسطة (Boubastis) محافظة الشرقية مارة بمدينة بيثوم القديمة (تل المسخوطة) وعبر وادي الطميلات فالبحيرات المرة فخليج السويس (١٣) ، ولقد ذكر هيرودوت أن نخاو هجر المشروع بناء على نبوءة بعد أن فقد ١٢٠٠٠٠ر١٢٠ عامل ، وعندما إحتـــل الفرس مصر عام ٥٢٥ ق٠م قام الملك دارا باكمال شق القناة التي بدأها نخاو ولم يخرج عما رسمه ، الفرعون المصري (١٤) ، ولما قامت أسرة البطالمة في مصر أدرك بطليموس الثاني أهمية هذه القناة (١٥) فأعاد حفرها كما نفهم من لوحة بيثوم الشهيرة والتي ترجع الى العـام السادس عشر من حكمه ٠ وقد كان من الطبيعي أن يعيد الامبراطور أغسطس تطهير هذه القناة بعد أن اهملت في أواخر عصر البطالمة حتى يعطي فرصة لتجارة البحر الأحمر أن تجـد طريقها الى الاسكندرية عبر النيل ، غير أن استخدام هذه القناة في العصر الروماني أصبح أقل بكثير من استخدام طرق القوافل في الصحراء الشرقية خاصة طريق ميوس هورموس ـ قفط ٠

ولهذا اعتنى الامبراطور اغسطس بمدينــــة « قفط » لأنها كانت مستودع تجميع وتوزيع البضائع الآتية من ميناء ميوس هورموس وميناء برينيكي ، فأعاد بناءها ، وطور من مينائها ، كذلك اهتم أغسطس بمنطقة ميناء برينيكي لوجود عدد من مناجم الذهب ومحاجر الرخام بالقرب منها ، وأمر بأن توضع تحت امرة ضابط يحمل لقب قائد برينيكي أو قائد جبل برينيكي Praefectus montis Berenicidis أو قائد الحاميات وجبل برينيكي Praefectus Praesidiorum et montis Berenicis وكان هذا القائد يتولى الى جانب ادارة المنطقة والاشراف على المناجم والمحاجر بمساعدة مشرف Procurator ـ يتولى قيادة الحاميات التي وضعت لحراسة هذه المناجم ولتأمين طريق القـوافل بين البحر الأحمر والنيـل ، والعناية ببناء صهاريج المياه وحفر الآبار على جانبيه (١٦) ٠

وكما نرى بدأ أغسطس سياسته ازاء البحر الأحمر باستغلال موقع

مصر الاستراتيجي كشريك كبير بين البلدان التي تقع على سواحله ، وكان هدفه هو جني أكبر دخل مادي للامبراطورية من الضرائب والمكوس التي فرضها على تجارة المرور من الشرق الى الغرب عبر الاسكندرية التي أصبحت مستودع التوزيع الأول لبضائع الشرق في البحر المتوسـط حيث ازدحمت أسواقها بالبضائع والتوابع والسلع الشرقية مثـل الحرير والقطن والعاج والجلود والعطارة والعطور واللؤلؤ والماس بل والعبيـد الافريقيين ، ومن أشهر التوابل الشرقية التي كان عليها طلب شديد في الغرب الفلفل الأسود Piper والقرفة Cinnamon والحنظل Myrrh والزنجبيل Zinngebri والذي كان يصدر الى روما ـ كما يقول ديوسكوريديس ـ في جرار خاصة (١٧) وكذلك الكندر والطيب والبخـور والقواقع الحمراء المستخدمة في الصناعة ، لقد راجت التجارة في الاسكندرية بعد الفتح الروماني رواجا منقطع النظير ، وكان هذا يعني أيضا دخلا وفيرا للامبراطورية من ضرائب المكوس والجمارك encyclion التي كانت تصل أحيانا الى ٢٠٪ ، كما أن ازدهار الحال لسكان الاسكندرية قصد به اشعارهم بأن حكم الرومان أسعد حالا وأكفأ مقدرة من حكم ملوكهم السابقين الضعفاء .

ولقد قام بترونيوس ثالث الولاة في مصر بالقيام باجراءات أمنية هامة ضد النوبيين في الجنوب ، وكان هدفه من ذلك اجبارهم على عدم ازعاج الحكم الروماني لمصر وأبعادهم عن التعرض لتجارة البحر الأحمر خاصة في المنطقة الساحلية الموازية لبلاد النوبة .

ولقد كشف المسح الأثري لصحراء مصر الشرقية عن مدى الاهتمـام الكبير الذي أبداه الرومان لهذه الصحراء الغنية بمحاجرها ومعادنها ، ولقد لاحظ الأثريون أن الطرق الرومانية في الصحراء الشرقية هي نفس الطرق التي بدأها الفراعنة وطورها البطالمة (١٨) ، وهي عبارة عن مدقات صغيرة غير معبدة ، وعلى مسافات معينة أقيمت علامات لتحديد المسـافات ومحطات لمياه الشرب hydreumata وهي ذات نظام واحد عبارة عن بناء مربع له بوابة يعلوها برجان للحراسة (١٩) ، ولقد أثبتت الأبحاث الأثرية أن طريق ميوس هورموس ـ قفط كان من أهم طرق نقل بضاعة البحر الأحمر خلال عصر الرومان ، بل كان لهذا الطريق طريق معبد صغير يربط بينه وبين محاجر جبل كلاوديوس ، حيث كانت العربات تحمل الرخام والأحجار

المنحوتة عبر هذا الطريق المعبد الى الطريق الغير معبد والذي كانت الجمال اهم وسائل النقل لا تحتاج الى طريق معبد ، ويتراوح عرض ذلك الطريق ما بين ١٥ و ٣٥ ياردة ، وقد قدر استرابون طوله بمسيرة ست أو سبعة أيام (٢٠) ، كما نوه بليني بصهاريج المياه ومحطات الاستراحة للتجارة ونقاط الحراسة (٢١) ، بل عثر على أطلال معابد ترجع لعصور البطالمة والرومان مثل معبد سيرابيس وايزيس مما يدل على أن هذه المنطقة كانت عامرة بالحركة والتجارة (٢٢) . وكانت المحطة التجارية في ميوس هورموس ذات بناء محصن بأبراج مثل القلاع تماما وبجوارها معبد صغير ، وهذا البناء يرجع في الأصل الى عصر البطالمة ، لكن حجمه زاد في عصر الرومان . كما كان هناك طريق يبدأ من ميناء بيرينيكي ويتجه الى قفط ، وقبل دخول قفط كان هذا الطريق يلتقي بالطريق القادم من ميوس هورموس ، ويرجع تأسيس ميناء بيرينيكي الى عصر بطليموس الثاني وهو يقع على مسيرة احد عشر يوما من قفط ، وكانت بيرينيكي الميناء الرئيسي أيام البطالمة لكن الرومان ادركوا بعدها النسبي عن النيل ووعورة الكثبان الرملية عند مداخلها وكثرة هبوب العواصف الرملية عليها ، ففضلوا طريق ميوس هورموس قفط والذي قدر طوله بمسيرة سبعة أيام . وبالرغم من هذا كان ميناء بيرينيكي وميوس هورموس من أهم الموانيء التي استخدمت في الفترة ما بين ٦ ــ ٦٢م (٢٣) . ونظرا لقلة الاشارة في العصر الروماني الى مينائي « ليوكوس ليمن » وفيلوتيراس التابعين للادارة العسكرية في طيبة فيرجح أن استخدامهما قد قل بدرجة كبيرة بالرغم من أن مناجم الذهب بالقرب من فيلوتيراس لم تتوقف منذ عصر أغسطس حتى عصر أنطونينوس . وكان هناك طريق يربط بين فيلوتيراس ومدينة كاينوبوليس Kainopolis (قنا) لكنه لم يكن بأهمية كبيرة ، كذلك أهمل ميناء أرسينوي بالقرب من خليج السويس لأن الرومان اكتشفوا نتيجة لتقدم علم الملاحة البحرية والجغرافيا بفضل علماء الاسكندرية أنه غير موات للملاحة .

ونلاحظ أن الرومان لم يقيموا أي موانيء جديدة على الساحل المصري على البحر الأحمر لأنهم وجدوا أن ما بناه البطالمة من موانيء يزيد عن الحد المطلوب وأنهم فضلوا التركيز على مينائي ميوس هورموس وبيرينيكي منعا للتهرب من دفع الجمارك (Portoria) ولهذا ركزوا جهودهم على تطوير وتحسين هذه الطرق وتامينها تحت ادارة ورقابة حازمة وتيسير حركة التجارة وتقديم كافة التسهيلات للقوافل التي تحمل عاج أفريقيا وتوابل ولبان بلاد العرب ولؤلؤ وحرير وقطن الهند وسيلان .

وفي أعقاب فتح مصر قام ابليوس جاللوس ثاني ولاة مصر ببناء أسطول في البحر الأحمر من نوع جديد من السفن الحربية أطلق عليه استرابون (٢٤) اسم Diorote والذي يعتقد المتخصصون في أنواع السفن القديمة انه كان تطويرا للبوارج البطلمية الحربية ذات الأربعة طوابق (Quadriremes) التي بناها بطليموس الثاني على أحدث ماأنتجت ترسانات العصر الهللينستي (٢٥) ، غير أن ظهور الأسطول الروماني الحربي في مياه البحر الأحمر في أعقاب فتح مصر كان بمثابة اعلان قيام سيادة روما على البحر الأحمر وعلى الدويلات التجارية الواقعة على جانبيه واعلان انتهاء عصور الصراع بين هذه الدويلات من أجل ملء الفراغ الذي تركه البطالمة في ذلك الممر المائي الحيوي ، كما أن الأسطول الروماني حرص على تعقب القراصنة الذين انتشر خطرهم في البحر الأحمر في أواخر عصر البطالمة حتى أن الأسطول البطلمي كان يسير لحماية السفن التجارية حتى باب المندب ، بل أن كل سفينة كانت تحتفظ بقوة مقاتلة للدفاع عنها ، وتتحاشى السير قرب السواحل الشرقية للبحر الأحمر خوفا من أوكار القراصنة ، لكن ظهور الرومان في البحر الأحمر أعاد للبحر الأحمر شيئا من السلام ولهذا استرخت السفن في اجراءاتها الأمنية التي كانت تتخذها قبل ذلك وهذا خفض من تكاليف السلع الشرقية في أسواق الغرب .

وإذا ما تركنا السواحل المصرية على البحر الأحمر نجد بعض الموانيء الهامة التي لعبت دورا كبيرا في التجارة مثل ميناء أدوليس (ميناء زولا قرب مصوع) وهو الميناء الرئيسي لدولة أكسوم (٢٦) التي كانت لاتزال ناشئة في ذلك الوقت وكان هذا الميناء مركزا لتجارة الجلود والقواقع الحمراء المستخدمة في الصباغة ، وكذلك العبيد وعاج وحيد القرن وعاج الأفيال ، لأن عدول كانت على بعد مسيرة ثلاثة أيام من كولوي Koloe (Kohaito) سوق العاج القديمة في أفريقيا ، لكنها تبعد عن العاصمة اكسوم (بالقرب من عطبرة) حوالي ثمانية أيام ، وبالرغم من أن الدولة الاكسومية الناشئة كانت تفرض مكوسا عالية على التجارة ، الا أنها لم تحاول أبدا تحدي روما أو تعطيل مصالحها ، بل حاولت اظهار حسن النوايا بعلاقتها التجارية مع مصر الرومانية حيث كانت تستورد القماش المصري والزجاج والزيوت والنبيذ والأسلحة والأدوات المعدنية (٢٨)، ومن الواضح أن تفاهما معينا كان قائما بين الامبراطورية الرومانية واكسوم بدليل أن ميناء عدول قد ورد ذكره في دليل الملاحة في البحر الأحمر كميناء معترف به .

واذا ما سرنا جنوبا بحذاء الساحل الصومالي نجد عدة موانيء لعبت دورها في حركة النشاط التجاري في البحر الأحمر في عصر الرومان مثل ميناء أوبوني opone في بلاد الصومال والذي كان يصدر القواقع الحمراء وأجود أنواع الرقيق (٢٩) والقرفة والحنظل واللبان خاصة من ميناء قريب آخر هو ميناء موندوس Mundus

وتحت مظلة السلام الروماني وصل التجار جنوبا حتى سواحل أوغندا حيث كان يقبع ميناء رابتا الشهير Rhapta وهو آخر ميناء عرفه دليل الملاحة لأنه بعده « يبدأ المحيط الذي لا يعرف مداه أحد » على حـــد قول الدليل (٣٠) ، وكان ميناء رابتا يمثل محطة الوصول الأولى للسفن القادمة عبر المحيط الهندي ومنه تتجه شــمالا لتدخل البحر الأحمر حتى ميوس هورموس ، وكانت هذه المنطقة من الساحل الافريقي تقع تحت النفـــوذ المباشر للدولة السبئية ـ الحميرية في الجنوب العربي حيث هاجر عدد كبير من اليمنيين ـ ربما بسبب الاضطرابات السياسية الداخلية (٣١) أو تحت ضغط البارثين في شمال شبه الجزيرة العربيـــة وحضرموت في القرن الأول الميلادي واختلطوا بالافريقيين ، غير أن الرومان لم يسمحوا للدولة السبئية ـ الحميرية باقامة أي وجود أو سيادة مباشرة لها على الساحل الافريقي الموجه لمضايق البحر الأحمر حتى لا يعطي ذلك فرصة لملوك الجنوب العربي بعرقلة النفوذ البحري الروماني (٣٢) ، أما فيما عـــدا ذلك لم يكن للوجـــود السبئي ـ الحميري أي تأثير سياسي على الملاحة في البحر الأحمر ٠ بالرغم من أن الرومان لم يتدخلوا في تجارتهم الافريقية ، اذ ذكر دليل الملاحة أن خطأ ملاحيا دائما كان يصـــل بين ميناء موزا في سبأ وميـــناء رابتا في أوغندا (٣٣) ٠

أما بخصوص سياسة الرومان مع الدولة الواقعة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر فقد تطلبت موقفا ايجابيـــا ، اذ كان هناك قوتان واحدة في شمال شرق البحر الأحمر وهم الأنباط والأخرى في الجنوب الغربي منه وهو السبئيون ـ الحميريون ٠ وكانت هاتان الدولتان تستمدان قوتهما ووجودهما من التجارة خاصة دولة العرب الأنباط لأنها كانت قليلة السكان وبلادهم قليلة الأهمية الا من طريق القوافل التي تمر بها (٣٤) ٠ ويرجع الأنباط في الأصل الى القبائل العربية الرحل التي تسللت في مطلع القرن السادس ق٠م ٠ من هضبة شرق الأردن واحتلت منطقة نبطية الصخرية الواقعة في الجنوب الشرقي من ســوريا حيث كان يعيش فيها قبـــل ذلك الأدوميون

Idumeans وفي عام ٣١٢ ق٠م انتزعوا منهم عاصمتهم « سلع » أي « الصخرة » وهي التي ترجمت الى الاغريقيـــة باسم Petra (أي الصخرة) ، وقد عرفت عند العرب باسم « الرقيم » ، وهي منطقـة وادي موسى الحالية في الأردن ، وتقع البطراء فوق هضبة صخرية يبـلـغ ارتفاعها ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، ولاتزال آثارها المنحوتة في الصخر تشـــهد بالروعة والجمال ٠ على أي حال منذ أواخر القرن الرابع ق٠م بدأ الأنباط يتوسعون حول « البطراء » التي أصبحت مدينة حيوية ومركز تجميع وخلط وتوزيع وتسعير للبضائع القادمة من جرها والخليج وميناء أبو لوجوس عند مصب الفرات عبر طريق القوافل المتجه الى البحر المتوسط كما كانت ملتقى لطريق القوافل الجنوبي القادم من سبأ وساحل البحر الأحمر ، وكانت قوافل الجمال تقطع هذا الطريق وهي تنقل البضائع حتى أن استرابون شبه هذه القوافل (٣٥) ، من كثرتها بالجيوش ٠ ولهذا كانت البطراء مقرا لعدد كبير من الأجانب (٣٦) ٠ وقد ذكر ديود وروس الصقلي أن الأنباط كانوا أقوياء ففي عام ٣١٢ ق٠م نجحوا في صد أنتيجونوس أحد المتصارعين على عرش الاسكندر ٠ ومنعوه مرتين من احتلال البطراء ٠

ولما قامت الدولة البطلمية في مصر على أشلاء امبراطورية الاسكندر كان الأنباط من أشد المنافسين لهم في السيطرة التجارية على البحر الأحمر وقد بدا هذا العداء واضحا منذ عصر بطليموس فيلادلفوس عندما شرع في احياء السيادة المصرية القديمة على البحر الأحمر ، وأرســـل أسطولا من البوارج الحديثة ذات الأربعة طوابق (٣٧)
(tetrerika skapha) quadrirmes
والسفن الصغيرة trieremiolia حاصرت سفن الأنباط ودمرتها في معركة بحرية ساحقة ربما في عام ٢٧٨ ــ ٢٧٧ ق٠م ، وقد زاد شكوك الأنباط عندما شرع بطليموس الثاني في ارسال بعثات استكشافية لسواحل البحر الأحمر الشرقية لاختيار مواقع لبناء موانيء ومستوطنات جـديدة ، ووصل أحد المستكشفين واسمه أرسطون الى منطقة خليج العقبة (٣٩) ٠ ربما ليختار مكانا لبناء ميناء يلغي أهمية ميناء ايلانا Aelana النبطي عند خليج العقبة ، ولقد أثار هذا التصرف من جانب بطليموس الثـــاني شكوك الأنباط الذين كانوا يحتكرون وينفردون بالتجارة بين موانيء سبأ في اليمن ــ حيث محطة وصول البضائع من الهند ــ وبين ميناء ايلانا ، بل كان ساحل الحجاز كله مليء بالمحطات التجارية وقد ذكر استرابون أن رحلة القوافل من معين Minaea في اليمن حتى ميناء ايلانا كانت تستغرق مسيرة سبعين يوما (٤٠) ، ولهذا السبب كان الأنباط يخافون من وجود حكم

قوي في مصر ويفضلون بقاءها ضعيفة ٠ وجدير بالذكر أيضا أن بطليموس الثاني كان أول من أقام مستوطنات على الساحل الشرقي للبحر عندما دعى سكان ميليتوس ـ التي كانت جزءا من امبراطوريته وقتذاك ـ لبناء مستوطنة لهم ، وبالفعل أقاموا ميناء أمبيلوني Ampelone الذي يعتقـــد « تارن » أنه كان يقع في شمال الحجاز بالقرب من ميناء جدة الحالي ، حيث يسهل الوصول الى حليفتهم ديدان (العلا) برا والى ميناء ميوس هورموس بحرا ٠ ومنذ حملة بطليموس الثاني بدأ نفوذ الأنباط ينحسر سواء من الناحية الاقتصادية أو العسكرية أمام المد البطلمي ، ولهذا لم ينس الأنباط أبدا ذلك ، ولهذا نجدهم ينضمون الى ملوك السليوكيين في حروبهم ضـد البطالمة حول جوف سوريا ، ولقد شجع السليوكيون حلفاءهم الأنباط لكي يقوموا بمقاومة نفوذ البطالمة في البحر الأحمر نيابة عنهم ، وكرد على تحالف السليوكيين مع الأنباط شرع بطليموس الثاني في اقامة تحالفات مع مدينة ديدان (العلا) والعرب اللحيانيين الذين كانوا يربطهم صـــلات ثقافية وحضارية قديمة مع البطالمة (٤٢) وصلت الى قمتها مابين عام ٢٨٠ ـ ٢٠٠ ق٠م ٠ وكانت ديدان والعرب اللحيانيون يجدون في الأسطول البطلمي حماية لهم من التوسع النبطي ٠

ولقد ظل ميزان القوى في صالح مصر حتى نجح السلوكيون في هزيمة البطالمة وطردهم من سوريا عام ١٩٧ ق٠م ٠ وبدأ الضعف والتحلل يدبان في أوصال الدولة البطلمية ، وبالتالي بدأوا يفقدون اهتمامهم بالســاحل الشرقي لشبه جزيرة العرب وبدأوا يركزون على الساحل الافريقي (٤٣) ، ونتيجة للانحسار البطلمي بدأ النبطيون يتوسعون على طول الساحل الشرقي ، واستوعبوا القبائل العربية التي كانت تسكن ساحل الحجاز ، كما استولى الأنباط على « الحجر » (مدائن صالح) وجعلوها قاعدة للانطلاق والتوسع ، وبالرغم من هذا تصدى اللحيانيون بمساعدة البطالمة للتوسع النبطي والذي بدأ على يد ملكهم القوي الحارث الأول عام ١٦٩ ق٠م ، ويبلغ أشده عندما تولى أريطاس الثالث العرش (٨٧ ـ ٦٢ ق٠م) ، ويبدو أن الأنباط وصلوا الى ميناء أمبيلوني بالفعل وخربوه وأعادوا بناءه أو بنوا بجواره ميناء جديدا لهم أسموه « ليوكي كومي » (الحوراء) أي القرية البيضاء ، ثم ربطوا بين مينائهم الجديد وبين مدينة يثرب التجارية بطريق قوافل وبذلك حولوا التجارة عن مدينة ديدان حليفة البطالمة وكان ذلك ضربة اقتصادية كبرى للنفـــوذ البطلمي في البحر الأحمر والذي تقلص تماما ٠

ولم تتوقف سياسة الأنباط عند هذا الحد بل سعوا الى اسقاط الحكم البطلمي ذاته بالتدخل في الصراعات الأسرية حول العرش ، وليس من المستبعد أن يكون الأنباط قد اشتركوا مع جابينيوس والى سوريا الروماني في اعادة بطليموس الزمار الى عرش الاسكندرية رغم أنف أهلها ، ثم نجد الأنباط يتدخلون الى جانب كليوباترا السابعة ضد أخيها · ومن الواضح أن الأنباط قد أدركوا نفوذ الرومان المتزايد في مصر منذ منتصف القرن الثاني ق·م وأدركوا طمع الرومان في الاستيلاء عليها يوما ما لأنها كانت مصدرا هاما للقمح الذي لا غنى عنه لاطعام شعبهم ، ومن ثم لجأ الأنباط – مثلما فعل اليهود – الى سياسة جديدة وهي اقامة جسور من الصداقة مع الرومان وتحريضهم على القدوم الى الشرق الأوسط ، ولقد بدأت الصداقة الرومانية – النبطية في عهد أريطاس الثالث (الحارث الثالث ٨٧ – ٦٢ ق·م) والذي نجح في انتزاع سوريا الحالية من أيدي ملوك السليوكيين الضعفاء ، والذي في عهده ظهرت أول عملة لدولة الأنباط (٤٤) ، والذي في عهده أيضا فتح القائد الروماني بومبي سوريا ، وليس من المستبعد أن يكون ذلك قد تم بمساعدته ، وعندما حوصر يوليوس قيصر في الاسكندرية عام ٤٧ ق·م وجه الدكتاتور الروماني ندا الى ملك الأنباط الملك مالخوس Malchos لتقديم العون اليه (٤٥) ، فارسل اليه قوة من الفرسان هي التي ساعدت يوليوس قيصر على الافلات من هزيمة محققة ، ومن المؤكد أن الأنباط قدموا مساعدتهم لأوكتافيوس عندما قرر فتح مصر خاصة أنهم قاموا بحرق أسطول كليوباترا بالقرب من هيرونوبوليس (تل المسخوطة وهي بيثوم الفرعونية) حتى يمنعوها من الهرب جنوبا في البحر الأحمر ، وكأنهم كانوا ينتقمون من تدمير بطليموس الثاني لأسطولهم عام ٢٧٨ ق·م (٤٦) · وبعد موت مالخوس تولى الملك عبادة الثالث Obadas III

(٢٨ – ٩ ق·م) والذي تعاون مع الرومان ايجابيا واشترك في حملة أيليوس جاللوس ضد ملوك حمير وسبأ · ولهذا لم يشأ اكتافيوس أغسطس أن يلحق أي أذى بالأنباط نظير خدماتهم الطويلة لروما ، لأن روما كانت لا تنسى أصدقاءها · واستفاد الأنباط من ذلك الوضع الجديد ففي ظل الحماية الرومانية وصلت دولة الأنباط الى أقصى اتساعها في عهد الحارث الرابع (٩ ق·م – ٤٠ م) ، وقد سبب هذا التزايد ازعاجا لدى الامبراطور تيبريوس ففكر في ضم الأنباط ضما شاملا ، لولا صداقته بالحارث الرابع ، وحرصه على اتباع سياسة أغسطس وعدم الخروج عليها ، وبعد الحارث الرابع تولى الملك مالخوس الثاني الذي سار على نفس سياسة الصداقة مع الرومان ،

والذي ساعد تيتوس Titus بألف فارس و ٥٠٠ من المشاة لكي يهاجم أورشليم وتدمير دولة يهودية (٤٣) . لقد وصلت البطراء الى أقصى اتساع لها في القرن الأول الميلادي لأن سياسة أغسطس وخلفائه كانت تهدف الى جعل دولة الأنباط دولة موالية للرومان وعازلة بين حدود الامبراطورية وبين دولة البارثيين ، وقد رضى الأنباط بذلك الدور لأنهم اعتقدوا أن الرومان سوف يكافئونهم بأن يطلقوا يدهم في تجارة البحر الأحمر وينفردون بها ، لكن الرومان عندما وصلوا الى المياه الشرقيـــــة بدأوا يغيرون فكرتهم وظهر الأسطول الحربي الروماني في مياه البحر الأحمر ببوارجه الحديثة ، وبدأ الرومان يقلمون أظافر حلفائهم حتى لا يتحولون الى خطر يهدد مصالحهم في هذه المنطقة ، وبالتالي بدأت دولة الأنباط تنكمش لتعـــــود الى حدودها الطبيعية بعد منتصف القرن الأول الميلادي خاصة أن السلام الروماني كان قد استتب تماما في البحر الأحمر ووصلت روما الى اتفاق مع البارثيين ، ولم يعد هناك حاجة الى الأنباط بعد أن أصبح طريق الملاحة الى الهند آمنا ومؤمنا (٤٤) ، وربما اتخذ الرومان اجراءات أمنية ضد الأنباط فوضعوا حامية رومانية بقيادة قائد مائة Cenlurion في ميناء ليوكي كومي لجمع المكوس لصالح الامبراطورية (٤٩) وليس من المستبعد أن يكون الرومان وراء تغيير طريق القوافل بين الخليج الفارسي والبحر الأبيض ليمر عبر مدينة بالمورا بعيـــدا عن أرض الأنباط لأننا نجـــــد في نفس الوقت تقريبـــا طريق التجارة البرية على ساحل البحر الأحمر يتخذ طريقا أبعد نحو الداخل بعيدا عن نفوذ الأنباط في نفس الطريق الذي أقام فيه العثمـــانيون خط سكك حديد الحجاز ، كل هذا لابد وأن يكون تخطيطا دقيقا لاضعاف الأنباط اقتصاديا ، وبالفعل بدأت دولة الأنباط تتدهور اقتصاديا وسياسيا في عهد آخر ملوكها رابيل الثاني (٧١ ــ ١٠٦م) الى أن رأى الامبراطور تراجانوس في عام ١٠٦م انهاء وجود دولة مستقلة للأنباط وتنفيذ مشروع تيبريوس القديم في نفس العام الذي استولى فيه على بلاد البارثيين ودخل عاصمتهم طيسفون (المدائن) ، وهكذا تحولت بلاد الأنبـــاط الى ولاية بلاد العرب الرومانيـــة وينتهي بذلك سفر طويل من علاقات الرومان بالأنباط انتهى بالتخلص التدريجي منهم لتنفرد روما بالسيادة المطلقة على البحر الأحمر لأن سياسة الرومان الدفاعية لم تكن لتسمح بوجود حليف قوي قد يتحول الى خطر عليهم مستقبلا وهي نفس السياسة التي جعلت روما تدمر قرطاجة وكورنثا وتزيلهما من الوجود عام ١٤٦ ق.م .

واذا ما غادرنا ميناء ليوكي كومي (الحوراء) جنوبا في اتجاه مضيق

باب المندب وجدنا ساحل شبه الجزيرة الشرقي وعرا لايصلح لرسو السفن وتسكن كهوفه عصابات قراصنة البحار (٥٠) ، ولهذا كانت السفن تتجنب السير بحذاء الساحل وتفضل أن تتخذ مسارها وسط البحر بل أن كل سفينة كانت تحرص على حمل قوة حراسة مسلحة للدفاع عنها ، مما يزيد من تكاليف نقل البضائع • ولقد رأينا كيف أن الأسطول الحربي في عصر البطالمة اضطر لمصاحبة السفن التجارية حتى باب المندب وساحل حضرموت لكن بظهور الأسطول الحربي الروماني تغير الحال تماما حيث أصبح البحر الأحمر آمنا تماما •

ولقد روى استرابون نقلا عن صديقه ايليوس جاللوس والي مصر الثاني أن ما يقرب من ١٢٠ سفينة أصبحت تمخر عباب البحر غداة الفتح الروماني لمصر وتقلع من ميناء ميوس هرموس في طريقها الى الهند بينما في أيام البطالمة لم تكن سوى عشرين سفينة على الأكثر تجرؤ من الخروج من البحر الأحمر (٥١) ، ونفهم من دليل الملاحة أن هذا العدد من السفن لم يكن سكندريا بل شمل قوميات أخرى مثل العرب والهنود (٥٢) ، ولم تعد السفن في حاجة الى تسليح نفسها كما كان قبل ذلك •

واذا ما اقتربنا من باب المندب تتغير طبيعة الساحل فيصبح أقل وعورة وأكثر خصوبة حيث هطول الأمطار وتنمو الزراعة ويقوم العمران والحضارة وحيث قامت عدة امارات مثل المعينية والقتبانية والسبئية والحضرموتية نجحت كل بدورها في توحيد اليمن وخلق الدولة المتحدة المنظمة •

وغير أنه بقدوم القرن السابع ق٠م نجد احدى هذه الامارات اليمنية وهي دولة سبأ تخضع الدولة المعينية وتفرض سلطانها على ساحل شبه الجزيرة الجنوبي والغربي كله ، بل امتد ، سلطان السبئيين الى مراكز المعينيين في الشمال ، وبذلك تحولت الى أيديهم زمام القوافل التجارية ، واتخذت الدولة السبئية مأرب حاضرة لها • غير أن نشاط بطليموس الثاني في البحر الأحمر عام ٢٧٠ ق٠م • ألحق ضربة اقتصادية بالسبئيين ولهذا وقفوا مع السليوكيين ضد بطليموس الرابع في معركة رفح عام ٢١٧ ق٠م كما نفهم من أحد النقوش اللحيانية والتي تبين أن اللحيانيين حلفاء البطالمة تعرضوا لعدوان السبئيين خلال هذه الحرب (٥٣) • لكن دولة السبئيين سرعان

ما تدهورت على أيدي ملوك ريدان أصحاب ظفار والذين فرضوا سلطانهم على الساحل الجنوبي والجنوبي الغربي لشبه الجزيرة في عام ١١٥ ق٠م ، وسيطروا على طريق البخور القديم ، وقد عرفوا باسم الحميريين ، ولكنهم تمسكوا باطلاق اسم السبئيين على أنفسهم ولهذا سماهم العلماء باسم السبئيين ــ الحميريين وهم الذين وجدهم الرومان يسيطرون على جنوب البحر الأحمر غداة فتحهم لمصر ، خاصة وان كان لهم موانىء هامة مثل ميناء موزا Muza (موخا الحالية) على الساحل الجنوبي الغربي ، وكان هذا الميناء هاما لدرجة أن مؤلف دليل الملاحة أثنى عليه وعلى تجارته الرائجة (٥٤) ٠ حيث كان يتجمع فيه محصول القرفة المجلوبة من الصومال ، وكان لهم ميناء آخر قرب باب المندب هو ميناء « أوكيليس » Ocelis والذي كان يتمتع بمزايا مثالية لرسو السفن التي كانت تتزود من مصادر مياهه العذبة قبل اقلاعها الى عرض المحيط الهندي في طريقها الى شبه الجزيرة الهندية ٠ وقد أثنى بليني أيضا على مزايا هذا الميناء (٥٥) ٠ وعلى مسافة ليست بالبعيدة من ميناء أوكيليس يقع ميناء عدن (Adana) والذي منه كانت السفن تقلع مباشرة الى الهند ٠ ولقد أطلق الكتاب الاغريق والرومان على ميناء عدن اسم بلاد العرب السعيدة Arabia Felix - Arabia Eudaimon وعمموا هذا الاسم على منطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية كلها ، ولقد ذكر استرابون أن بلاد السبئيين كانت أكثر البلاد يمنا Eudaimonestate وأن سكانها كانوا أثرياء يحتكرون تجارة التوابل والكندر والقرفة والبلسم ويكنزون الذهب والفضة ويقتنون الأحجار الكريمة ، كما أن بلادهم كانت تربح كثيرا من التوابل (٥٦) ٠ ولقد كان العرب اليمنيون تجارا مهرة مثل الفينيقيين ، تمتد تجارتهم من الهند شرقا حتى مصر شمالا ، كما أن موقع بلادهم أتاح لهم السيطرة على جنوب البحر الأحمر وساحل شبه الجزيرة الجنوبي حتى الخليج الفارسي شرقا ، كما سيطروا على ساحل أفريقيا المواجه لساحلهم من باب المندب شرقا حتى « رابتا » في أوغندا ، والى رأس « غار دافوى » جنوبا ، كما كان هناك خط ملاحي دائم بين ميناء موزا وميناء رابتا ، بل كان لهم مركز تجاري آخر في جزيرة سقوطراي (٥٧) ، وكان اليمنيون أول من استخدموا الجمال كوسيلة لنقل البضائع عبر مدقات الصحراء وعبر طريق البخور القديم من تمنع Thomna جنوبا حتى غزة شمالا وهي مسافة قدرها بليني بحوالي ٢٤٣٧ ميلا رومانيا (٥٨) ويتخللها حوالي ٦٥ محطة تجارية (٥٩) وقد ذكر استرابون أن المكوس والضرائب كانت تجبى من هذه القوافل عند هذه المحطات حسب مرورها من نفوذ قبيلة الى أخرى مقابل حماية الركب (٦٠) ٠

وعندما سمع أغسطس الذي كان يقتفي سيرة الاسكندر بثراء أهل اليمن قرر أن ينال للامبراطورية نصيبها من هذا الثراء ولكي يكمل سيطرة الامبراطورية على البحر الأحمر كان لابد من اخضاع هؤلاء العرب وهو أمر وعده به الاسكندر ولم يعش لتحقيقه عندما تحـــدوه ورفضوا الاذعان له (٦١) ، وارسال الهدايا مثل غيرهم من الشعوب ، كما هدف أغسطس الى كسر احتكارهم للتجارة الشرقيـــة وتحويل مسارها الى صـــالح الموانىء المصرية (٦٢) التابعة رسميا للامبراطورية الرومانية ، وهذا ينطبق مع روح السياسة المادية البحتة للامبراطورية ، خاصة أن تجارة العطـور والتوابل كانت في نظره يمكن أن تشكل مصدرا جديدا من مصادر الدخل المالي لصالح الامبراطورية من أجل العبور بها الى عصر الرخاء بعـــد الأزمات والحروب الأهلية التي قضت على اقتصادها ، فضـــلا عن ازدياد الطلب على العطور والتوابل والحرير وغيرها من المنتجات الشرقية بعد التغير الذي حدث في ذوق الشعب الروماني • وتمشيا مع السياسة الأوغسطية التي تهدف الى تقليم أظافر دويلات البحر الأحمر التي كانت تتصـــارع على ملء الفراغ الذي تركته مصر البطلمية قبل وصول روما الى ميـــاه البحر الأحمر ، كان على اغسطس أن يقوم بعمل عسكري حاسم ضد الدولة السبئية ـ الحميرية خاصة أنه لم يكن لها أي اتصال أو صداقة أو تحالف بالرومان يشفع لها ويعيق غزوها ، هذا هو الدافع الذي جعله يخرج عن السياسة العامة التي وضعها وهي عدم التوسع •

ومن أجل ذلك عهد الى ايليـــوس جاللوس ثاني ولاته على مصر (٢٦ ـ ٢٤ ق٠م) لكي يقوم بحملة على اليمن ، وحشد الوالي عشرة آلاف جندي من بينهم فرقة رومانية مجهولة الاسم وبعض الوحدات المساعدة التي سحبت من القوات الرومانية المعسكرة في مصر ، كما ساهم الملك عبادة الثالث ملك الأنباط وحليف الرومان بعشرة آلاف جندي وبعدد من الأدلاء يقودهم وزيره الخبيث سيلايوس Syllaeus ونستشف من حديث سترابون مؤرخ الحملة أن القوات النبطية اشتركت فيها على مضض لأن الحملة تعرضت للغدر والخيانة عدة مرات (٦٣) ، ومن المعروف أن الأنباط كانوا يتعاونون مع اليمنيين منذ زمن بعيد لاحتكار تجـارة البحر الأحمر ، كما أن سيلايوس وجنوده كانوا يعلمون أن هدف هذه الحملة ـ اذا ما نجحت ـ هو سيطرة

الرومان الكاملة على تجارة البحر الأحمر وحرمانهم واليمنيين من مصدر ثرائهم الوحيد ، كما اشترك هيرودور الأكبر حليف الرومان أيضا بقوة قدرها ٥٠٠ مقاتل ، وكان جاللوس قد بنى في عدد من البوارج الحربية الحديثة المطورة من البوارج البطلمية والتي أطلق عليها استرابون اسم Sikpota (٦٤) بلغ عددها ثمانون بارجة بنيت وأعدت في مصر بالاضافة الى ١٣٠ حاملة للجنود ، ومن الواضح أن الحملة قد خططت على عجل ودون دراسة لطبيعة حرب الصحراء ولم يتعظ الرومان من ذكرى هزيمة كراسوس في كارهاي ، وكان الحملة قامت على أساس الاعتماد الكامل على معاونة الأنباط .

وفي عام ٢٥ ق٠م أقلعت الحملة من ميناء كليوباتريس (قرب السويس) وأقلعت مباشرة الى ميناء ليوكي كومي النبطي ، ومن اللافت للنظر أن جاللوس فضل أن يبدأ رحلته من الساحل الشرقي للبحر الأحمر ومن ميناء نبطي يبعد مايقرب من ٩٠٠ ميل عن أرض سبأ ، بدلا من أن يبدأها من ميناء بيرينيكي على الساحل المصري التابع للرومان في الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، وهو المنافس للساحل المصري وموانيه وذلك لارهاب الأنباط والسبئيين معا لأن مخطط الحملة هو أن تسير أكبر قدر ممكن عبر أراضي الأنباط والعرب الجنوبيين ، وبعد خمس عشر يوما وصلت الحملة الى ميناء ليوكي كومي بعد أن تكبدت خسائر فادحة في السفن والأرواح بسبب صعوبة الملاحة في هذا الجزء من البحر الأحمر ، ومن ثم اضطر جاللوس أن يستريح بقية الصيف وشتاء العام كله ، ولم يستأنف السير الا في ربيع عام ٢٤ ق٠م ، وسلك دروب الصحراء مستخدما الجمال لنقل المياه والمؤونة والعتاد وبالطبع كان الأدلاء النبطيون يرشدون الحملة عبر مجاهل الصحراء ، واستمر السير ثلاثين يوما في أرض الملك أريطاس وخمسين يوما أخرى في أرض الملك سابوس أحد ملوك البدو في نجد ، حتى بلغوا سهل نجران حيث تمكنوا من الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة ، وبعد أن تزودوا بالمياه استأنفوا السير نحو ماريابا Mariaba (سد مأرب) عاصمة السبئيين ومقر ملكهم الذي كان يدعى في ذلك الوقت اليساروس Ilissaros والذي يعتقد البعض أنه « آل شرح يحضب » الذي ورد ذكره في نقوش السبئيين (٦٥) ، وضرب جاللوس الحصار حول مأرب ، ولكنه فشل في الاستيلاء عليها بسبب نفاد الماء والمؤونة ، فاضطر الى فك الحصار عنها ، وعرف جاللوس أنه على بعد مسيرة يومين من أرض أروما (سهل حضرموت ، وبعد

مسيرة ستة أشهر تعرض خلالها لغدر الأدلاء الأنباط ومقاومة السكان ، قرر الانسحاب عائدا الى نجران ، ثم سار أحد عشر يوما أخرى حتى وصل الى منطقة الآبار السبعة ، ثم اخترق الصحراء والحضر حتى وصل الى ميناء أجرا على البحر الأحمر ومنه ركب البحر عائدا الى ميناء ميوس هورموس ، ثم عبر طريق القوافل حتى قفط ومنها ركب النيل الى الاســـــكندرية ، وقد استغرقت رحلة العودة ستين يوما بينما استغرقت رحلة الذهاب مايقرب من ستة أشهر ٠

لقد أخفقت حملة جاللوس تماما من الناحية العسكرية لأنها تكبدت خسائر فادحة في الرجال والعتاد بسبب المرض والجوع والخيانة ، وفشـلت في احتلال اليمن ، لكنها من الناحية الســـياسية والاقتصادية حققت نجاحا منقطع النظير ٠ وذلك لأنها مزقت الحجب والغموض اللذان كانا يحيطان بشبه الجزيرة العربية وبدأ الاغريق والرومان يعرفون ويكتبون عن سكان شبه الجزيرة ، ويقول بليني الأكبر « اننا بفضل هذه الحملة عرفنا شيئا عن المعينيين والسبئيين والحميريين » ، ومن خلال وصف سترابون مؤرخ الحملة وصديق جاللوس قائدها ـ نستطيع أن نتخيل أنها اندفعت وسط هضبة نجد والحجر الى حدود حضرموت واليمن ، وكما يقول أغسطس نفسه في اثر أنقرة أنه وصل الى حدود السبئيين وسد مأرب ، كما أن سكان الجنوب العربي رأوا الرومان لأول مرة وجها لوجه وأعجبوا بهم وبقوتهم ، وبدأ عهد جديد من الصداقة الوطيدة بين الأباطرة وأمراء المشايخ العرب تبادلوا فيها الهدايا والوفود ، وعقدت اتفاقيات الصداقة (٦٦) ٠ ومن الناحية الاقتصادية كانت هذه الحملة بداية عهد جديد للملاحة في البحر الأحمر ، اذ حققت السيادة الرومانية على جانبي ساحل البحر الأحمر ، والغت القوى القديمة التي كانت تتصارع عليه والغت احتكار العرب وحولت التجارة الى الموانيء الواقعة على الساحل المصري التابع لهم خاصة مينـــــاء ميوس هورموس ، كما أعطت للرومان حقوقا في استخدام بعض الموانيء على الساحل كما رتبت الموانيء حسب درجات صلاحيتها ووضعها القانوني مع حكامها بالنسبة للامبراطورية وذلك حسب اتفاقيات محلية عقدتها روما وكما سنرى ليس من المستبعد أن تكون الامبراطورية قد فرضت مكوسا مقابل حفظ السلام في البحر الأحمر ٠٠

والحاقا بهذه الحملة الفريدة من نوعها في تاريخ الامبراطورية شرع أغسطس في العام الأول الميلادي في تنفيذ مشروع الاسكندر القديم وهـو

استكمال الدوران حول شبه الجزيرة العربية من الخليج الفارسي حتى البحر الأحمر ، واتبع في ذلك أسلوبا علميا تطبيقا واقعيا لا يقوم على الخيـال الرومانسي ، ولهذا قام بمسح واستكشاف جانبي الخليج الفارسي ، وقام بهذه المهمة ملاح اسمه ايسيدوروس من مدينة « خاراكس سباسيمو » عند الخليج ، ولا شك أن هذه الحملة قد تمت بالتفاهم مع البارثين وربما كان من نتائجها هو تلك الغارة السريعة المدمرة على ميناء عدن ٠

ولقد لاحظ العلماء أن الميناء الوحيد الذي أسقط مؤلف دليل الملاحة في البحر الأحمر ذكره من قائمة الموانيء القائمة وقت كتابة هذا العمـــل الشهير هو ميناء عدن ، والذي كان يعرف عند الرومان باسم بلاد العرب السعيدة Arabia Eudaimon وقد ذكر مؤلف دليل الملاحة أن هذا الميناء كان ذات يوم مدينة عامرة زاهرة بالتجارة والحركة قبل أن يدمره قيصر Caesar ويتركه كما وجده مؤلف الدليل قرية ساحلية لا أهمية لها بالرغم من أن موقعها كان لايزال وقتذاك مناسبا لميناء جيد مزود بمصادر ميـاه عذبة لتزويد السفن وتفوق في جودتها مياه ميناء أوكيليس Ocelis الذي انتقلت اليه الأهمية ، كذلك ذكر مؤلف الدليل أن في الأيام السابقة على عصره كان ميناء عدن محطة عالمية كبرى لتجارة أعالي البحار بين الشرق والغرب ٠

ولقد دار جدل بين العلماء حول من هو « قيصر » الذي دمر ميناء عدن حتى أنه لم يعد له قائمة منذ ذلك التاريخ مثلمـــا اختفت قرطاجة وكورنثا ، وحتى حدث ذلك ؟ وماهي الأسباب وراء ذلك العمل ؟ وقد قدم العلماء اجتهادات وافتراضات مختلفة ٠ فقد رأى بعضهم أن تدمير عدن تم داخل الصراعات المحلية في اليمن ، وأن موقع عدن الاستراتيجي الهام المتحكم في مداخل البحر الأحمر ــ والساحل الصومالي ــ الحبشي المواجه له ، وكذلك الطريق الساحلي الطويل المتجه صوب عمان والخليج ــ هو الذي جر عليها حقد الموانيء اليمنية الأخرى فتآمرت عليها ودمرتها ، ويعتقد أصحاب هذا الرأي أن حكام ميناء « موزا » لهم يد في ذلك ، فضلا عن حقد الحميريين من عدن وغيرتهم منها ؛ وقد اقترح الأستاذ شوف Schoff. في نهاية تعليقه على هذه الفقرة من دليل الملاحة أن كلمة قيصر في النص اليوناني ترجمة خاطئة لكلمة ملك عند العرب (٦٧) ٠ وهذا الملك الذي دمر هذا الميناء ربما هو شرحبيـــل ملك الحمـــيريين الذي عاش في عصر الأسرة البوليوكلاودية

(٤٠ ــ ٧٠م) ، ويدلل « شوف » على رأيه بأن أحداث التاريخ الروماني ومصادره لا تعرف ولم تسجل أي هجوم قام به أحد أباطرة هذه الأسرة على عدن ، وبالتالي فان المقصود بكلمة قيصر هو ملك الحميريين المذكور ، غير أن الأدلة والمنطق التاريخي لا يؤيد هذا الرأي فليس من المعقول أن تقوم دولة عرفت بقيام الاتحادات بين أجزاء اليمن بتدمير أجود موانيها بل أن الأجدر هو الاستيلاء عليه ، كما أن موانيء اليمن كانت متعاونة فيما بينها من أجل احتكار التجارة ، كما أن افتراض أن المؤلف قد أخطأ تحميل أكثر من اللازم للنص وبالتالي فليس من المعقول أن يكون موقع عدن الممتاز السبب في نكبتها على أيدي الحميريين ٠

وهناك رأي آخر يشكك في وقوع الحادثة ذاتها مدعين أنه لم يعثر على أي آثار تدل على عمل عسكري روماني في الميناء أو آثار احتلال (٦٨) دائم قصد به كسر شوكة العرب التجارية في البحر الأحمر وبحر العرب لتسهيل التجارة لصالح عملائهم وتجارهم في مصر ، ويقولون أنه لو كانت مثل هذه الحملة العسكرية قد حدثت بالفعل لهلل الكتاب والشعراء والمؤرخون الرومان لأنه أمر بعيد الاحتمال أن يغيب مثل هذا الانتصار الروماني الباهر في بلاد العرب السعيدة عن الدعاية الرومانية التي كانت جزءا من سياستهم العامة ، خاصة اذا كان قد ترتب عليه نتائج هامة ، في حين أن حملة جاللوس ظلت تتردد في مؤلفاتهم ولم تغب عن أذهانهم أبدا ويقولون أنه اذا كانت هناك مثل هذه الحملة حقا لما ذكر بليني الأكبر أن ايليوس جاللوس كان الروماني الوحيد الذي قاد جيشا الى جنوب بلاد العرب ٠ ومن ثم يخلص أصحاب هذا الرأي الى أن مؤلف دليل الملاحة في البحر الأحمر قد اختلط عليه الأمر ، اذ أنه قد سمع بلاريب عن حملة جاللوس في بلاد العرب السعيدة والتي كان اسمها يطلق أيضا على ميناء عدن فاعتقد خطأ أن الهدف منها كان الاستيلاء على الميناء وتدميره ، وافترض أصحاب ذلك الرأي أن النص يقصد عصر الأسرة البوليوكلاودية وبالأحرى عصر نيرون ، وبالفعل لم يحدث أي غزو روماني خلال حكم هذه الأسرة على عدن ٠ غير أن العبارة التي ذكرها الدليل أن ميناء عدن كان قائما حتى وقت « ليس ببعيد عن عصرنا » واذا قبلنا الرأي العام أن دليل الملاحة كتب مابين ٨٠ ــ ٨٥م فان الفاصل الزمني المناسب هو ثمانون أو خمس وثمانون سنة قبل تاريخ صدور هذا العمل ، أي عصر الامبراطور أغسطس نفسه ، أي أنه من الأحرى أن نعتقد أن النص صادق فعلا وان تدمير ميناء عدن قد تم بفعل حملة سريعة وحاسمة بهدف « اذهب ودمر ثم عد » وذلك بأوامر صادرة من الامبراطور أغسطس نفسه

وبتوكيل منه الى شخص وثيق الصلة به · وأن أقرب المقربين اليه في ذلك الوقت هو ابن ابنته جوليا من جنراله المخلص الراحل اجريبا ، وبالتالي فان كلمة « قيصر » وهي تعني جايوس قيصر أغسطس · وبالفعل فان لدينا أدلة على أن جايوس قيصر أغسطس قد كلف في العام الأول الميلادي بقيادة حملة سريعة لتدعيم مركزه كوريث مرتقب لأغسطس ، وأن السبب في تدمير عدن يتفق والاستراتيجية العامة لأغسطس بعدم التوسع مع السماح بالحروب المحدودة الدفاعية ، وأن خوف الامبراطور من خطورة هذا الميناء على مصالح الامبراطورية الاقتصادية في البحر الأحمر وعلى السلام الروماني هي التي دفعته لمثل هذا التصرف قبل أن يستفحل خطره ، ويدعم من هذا الرأي الذي نميل اليه أن هناك سوابق تاريخية لأعمال مماثلة قامت بها الامبراطورية لتدمير موانيء تجارية في البحر الأبيض كانت تخشى ازدياد خطورتها على السلام والمصالح الرومانية ، وأن صيحة كاتو الشهيرة « قرطاجة يجب أن تدمر » Delenda est Carthago تحمل هذه الفلسفة وكذلك دمرت الامبراطورية في عام ١٤٦ ق·م ميناء كورنثا بدون سبب في نفس العام الذي دمرت فيه قرطاجة ·

ان الرأي القائل أن النص خلط بين جاللوس وبين قيصر المجهـــول أمر بعيد الاحتمال لأن ايليوس جاللوس ـ وكما نفهم من نص استرابون لم يصل الى ساحل شبه الجزيرة الجنوبي حيث تقع عدن ، بل عاد قبل ذلك وكان على مسافة مسيرة عشرة أيام من « أرض الأروما » والمقصود بها سهل حضرموت وبالتالي نرفض ما جاء في الموسوعة البريطانية بأن الرومان عرفوا عدن واستولوا عليها عام ٢٤ ق·م (٦٩) ·

ان هناك أكثر من دليل على أن قيصر أغسطس الذي كان العمر قد تقدم به وقتذاك · قد كلف حفيده الذي تبناه وأعده للعرش بالاشراف على تنفيذ مخطط استراتيجي مدروس هدفه دعم السلام الروماني في البحر ودعم المصالح الاقتصادية للامبراطورية ومن بينها كما يبدو مشروع الدوران حول شبه الجزيرة العربية والذي كان امتدادا لحلم الاسكندر القديم ، كما نعرف أن جايوس قيصر ذهب بأوامر من جده في العام الأول الميلادي في مهمة عاجلة الى الشرق الأوسط وأن الامبراطور الجد كان قد كلف أحد الخبراء وهو مؤلف كتاب « وصف العالم » بجمع كل المعلومات الجغرافية والسكانية عن هذه المنطقة لتكون في خدمة الحفيد قبـــل أن يبدأ رحلته الى أرمينيـــا وبلاد العرب (٧٠) ·

وهناك دليل آخر يؤكد أن ميناء عدن قد دمر فعلا وأن الذي قام بذلك هو الحفيد جايوس وهو ماذكره بليني في كتابه الثاني عشر أثناء الحديث عن شبه جزيرة العرب وأهم النباتات التي تنمو فيها خاصة الكندر (اللبان) حيث ذكر ان جايوس كان أول روماني شاهد بنفسه شجر الكندر ودرسه عن قرب وأنه نقل المعلومات التي جمعها عن هذا النبـات الى ملك موريتانيا العالم جوبا (٥٠ ق٠م ـ ٢٣ ق٠م) لكي يضمنها في كتابه عن شبه الجزيرة العربية ، واعترافا بذلك الفضل أهدى جوبا كتابه الى جايوس ، واذا كان ذلك كذلك فكيف يتأتى لجايوس أن يدرس عن قرب شجر الكندر مالم يكن قد ذهب الى سهل حضرموت حيث تقع عدن ، وهي منطقة لم يسبق لأحد من الرومان الوصول اليها ٠ وهذا يؤكد بلاشك أن جايوس الحفيد هو الذي نفذ أوامر جده أغسطس بحرق ميناء عدن ومرافقه لأنه كان يشـــكل خطرا على مصالح الامبراطورية الرومانية في البحر الأحمر وأن الثراء المتزايد لدى سكان عدن قد يدفعهم الى توحيد صفوفهم ومقاومة الرومان في منطقة اشتهرت بأعمال المقاومة على طول التاريخ ، ولقد حققت هذه الحملة هدفها في ذلك ، بل وأصبح منذ تلك الحملة لروما نفوذ ووجود مباشر على البحر الأحمر ، وحققت الســـيادة الكاملة عليه بل وبدأت في فرض مكوس على الموانيء التجارية الهامة فيه كدخل جديد لخزانة الامبراطورية (٧١) والدليل على ذلك ماورواه بليني عن حكاية أحد عتقاء ثري شهير اسمه آنيوس بلوكاموس Annius Plocamus كان موكولا اليه جمع المكوس من موانيء البحر الأحمر لحساب الامبراطورية (٧٢) ، ولم يذكر بليني اسم ذلك المعتق الذي روى أن اعصارا حمله وألقى به وبسفينته الى جزيرة سيلان ، وهذا يبين لنا الى أي حد ذهب هذا المعتق في طلب المكوس من موانيء البحر الأحمر ، ولروعة التاريخ وتزاوج النصوص مع الأدلة الأثرية عثر على اسم هـــذا المعتق محفورا على احدى الصخور في طريق بيرينيكي قفط في شـــكل نقش مكتوب باللاتينية ومشفوع بترجمة يونانية ويقول النقش :

Λυσᾶς Ποπλίου Ἀννίου Πλοκάμου

ἧκω L λε Καίσαρος Ἐπιφὶ η

LYSA. P. Anni Pliocami Veni XXXV, III. Non. IVL.

« أنا لوساس عامل بوبليوس آنيوس بلوكاموس أتيت (الى هنـــا) العام الخامس والثلاثين من حكم القيصر ، الثامن من شهر أبيب (الموافق السادس من شهر يوليو العام السادس الميلادي » (٧٣) .

اذا فبين حملة جايوس في العام الأول الميلادي وتاريخ وصول عامل آنيوس بلوكاموس لجمع المكوس في السادس من يوليو العام السادس الميلادي

خمس سنوات ، أي أن هذه الحملة حققت الوجود الفعلي للرومان في البحر الأحمر لدرجة فرضهم المكوس ، وهذه احدى النتائج الأساسية التي حققها الامبراطور العجوز قبل وفاته في شهر أغسطس في العام الرابع عشر بعد الميلاد . وقد ظل هذا الوجود قائما حتى حدثت تطورات هامة في القرن الثالث الميلادي سوف نعود للحديث عنها .

وقبل أن نستطرد في بحث التطورات السياسية خلال القرون التالية لابد أن نتوقف للحديث عن ذلك المؤلف الهام « دليل الملاحة في البحر الأحمر ». ومايمكن أن نستخرجه من نصوصه من معلومات تخص سياسة الرومان في البحر الأحمر .

تباينت آراء المؤرخين حول التاريخ الذي كتبت فيه هذه الوثيقة الهامة وقد ضمن لنا شوف قائمة كاملة بهذه الآراء حتى عام ١٩١٢ (٧٤) ، كما أنه بعد ذلك التاريخ حدثت اجتهادات وآراء جديدة (٧٥) لكن باستعراض هذه الآراء يمكن أن نقول أن الحد الأدنى للتاريخ المقترح لظهور دليل الملاحة هو عصر الامبراطور كلاوديوس (٤١ ــ ٥٤م) لأنه حتى عصر كلاوديوس لم يعرف أحد شيئا عن الرياح الموسمية ، ويقترح « شوف » ويوافقه على ذلك ورمنجتون Warmington تاريخا أبعد قليلا وهو مطلع عصر نيرون (٥٤ ــ ٦٨م) (٧٦) ، أما الحد الأقصى لهذه الآراء هو رأي الآنسة بيرين Pirenne التي تقترح عام ١٠٦ ميلادية بعد ضم تراجان لمملكة العرب بالأنباط وخلق ولاية بلاد العرب غير أن الآنسة بيرين ذهبت أبعد من اللازم لأن هناك ثلاث اشارات تؤكد أن التاريخ الذي كتب فيه الدليل قبل ذلك بكثير . منها وصف مؤلف الدليل للبطراء عاصمة النبطيين وذكره أنها مقر مالخوس ملك الأنباط ، وقد سبق أن أشرنا وعرفنا أن المؤرخ اليهودي يوسف السكندري أن مالخوس ملك الأنباط هذا قد ساعد تيتوس في قمع ثورة اليهود في فلسطين ، وأنه تولى عرش الأنباط من ٤٠ ــ ٧١م . وعندما تحدث المؤلف عن ميناء عدن ذكر أنه قد دمر في وقت « لا يبعد كثيرا عن وقتنا هذا » وبالتالي فان هذا الوقت لا يمكن أن يزيد عن قرن من الزمان ، والاشارة الثالثة ماورد في الدليل من ذكر اسم الملك زوسكاليس Zoscales ملك اكسوم (الحبشة) والذي تعرف عليه علماء النقوش بانه هو الملك زا ــ ها ــ كالي Za-Ha-Kale والذي حدد موللر فترة حكمه مابين ٧٧ ــ ٨٩م ، فضلا عن اشارات أخرى وردت فيه حوليات ملوك الهند والصين القديمة ، وبناء على كل هذه الأدلة فان أغلب

المؤرخين يتفقون على ان الدليل كتب أو على الأقل صيغت نصوصه من نصوص وملاحظات سابقة مابين ٨٠ ــ ٨٥ ميلادية وقد وصل الى هذه النتيجة ماكرنيدال وسميث وميللار (٧٧) وغيرهم ٠

أما عن هوية المؤلف فقد دار فيها أيضا جدل كثير ، فقد اقترح بعضهم اسم آيانوس حاكم كايادوكيا والأديب الشهير الذي عاش في عصر هادريانوس وهو أول من وصف الملاحة في البحر الأسود والذي منه طور العمل الشهير Peripls Maris Euxini دليل الملاحة في البحر الأسود (٧٨) وربما يكون مؤلف الدليل بحارا سكندريا كان اسمه آريانوس السكندري ٠ لكن ذلك مجرد احتمال ، غير أن أغلب الظن يرجح أن دليل الملاحة حول البحر الأحمر لم يكن مؤلفا عاما من فعل مؤلف ، بل كان أشبه بوثيقة رسمية خاصة كتبت كبحث حتى يرسم على ضوئه سياسة ومصالح الامبراطورية التجارية في الشرق ويحدد على ضوئها الأموال التي تأتي لخزينة الامبراطورية ٠ أي أنها كانت وثيقة رسمية تابعة لادارة الخزانة الرومانية أو بحث رسمي كلف أحد الخبراء بعمله لصالحها ٠ ومن هنا يكون اسقاط هوية المؤلف أمرا متعمدا ، او انه ربما كان تقريرا اشترك في كتابته أكثر من خبير وبالتالي فان اسم آيانوس هو اضافة أضافها النساخون الى النص في وقت لاحق ، وأيا كان الأمر فان كاتب هذا البحث بحار اغريقي الجنسية أو اللسان أغلب الظن من سكان مدينة الاسكندرية وذلك لأن الدليل يصف ويسجل مجموعة من الرحلات البحرية كلها تبدأ من الموانيء المصرية على ساحل البحر الأحمر وتنتهي بجنوب الهند ، وبذلك فهو أول وثيقة أصلية عن موانيء البحر الأحمر وشرق افريقيا وجنوب الجزيرة العربية وسواحل الهند الشرقية والجنوبية أما السبب في أن الدليل عالج بسرعة عابرة منطقة الساحل الافريقي جنوب أوبوني Opone في أوغندا ومنطقة الخليج الفارسي فهذا مرجعه الى أن هاتين المنطقتين كانتا خارج حوزة الامبراطورية وفي أيدي الحكام العرب الجنوبيين وليس لها ارتباط مباشر بخط مصر ــ الهند الملاحي (٧٩) ٠

لقد وصف الدليل موانيء البحر الأحمر بالتفصيل العلمي الدقيق ، ورصد ظاهرة المد والجزر ومواقيت هبوب العواصف والأعاصير وكيفية التنبؤ بها ، ثم أحوال رسو السفن في هذه الموانيء ، ثم حجم التجارة في كل ميناء وطبيعة سكانه ومدى مايتوقعه التاجر البحري من تعاون من السلطات الحاكمة فيها في ضوء العلاقات التعاهدية بين هذه الموانيء وبين الامبراطورية الرومانية ، ويذكر جنسية السفن التي تتردد على هذه الموانيء فالى جانب

سفن السكندريين كانت هناك سفن الهنود والعرب ، ويؤكد الدليل أن أهم السلع التجارية في هذه الموانيء هي التوابل مثل الحنظل (المر) والكنـــدر (اللبان الذكر) والقرفة Cinnamon والفلفل الأسود وعطر الناردين ، وكلها كانت تحملها الســـــفن الى موانيء مصر خاصــة مينــــــاء ميوس هورموس (٨٠) وكما هو واضح كان مؤلف أو مؤلفو الدليل على معرفة جيدة بالطرق الملاحية وتردد التجار السكندريين عليهـــا ، ووجود روح التعــامل والتفاهم بين القوميات المختلفة من اغريق ومصريين وعرب وهنــود تحت مظلة السلام الروماني ، وأن حركة تجارية نشطة كانت قائمة من مينـــاء أرسينوى قرب خليج السويس حتى ميناء تاميل في جنوب الهند ، كما يعدد الدليل أسماء الموانيء والأسواق البحرية على طول جانبي البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي وهو المجال الجنوبي للاقتصاد الروماني في الشرق • وذكر أن عدد هذه الموانيء يبلغ سبعا وعشرين ميناء لكنه يصنفها الى ثلاث فئات حسب علاقاتها التعاهدية مع الامبراطورية وهي :

١ ــ موانيء صالحة للاستخدام وتلتزم بالقانون وهي موانيء الدرجة الأولى التي تضمن فيها حقوق المتعاملين وتؤكد صلاحية هذه الموانيء للرسو والاقلاع وقد وصف الدليل هذه الفئة باسم ὅρμοι ἀποδεδειγμένοι واللفظ يعادل باللاتينية Lege et Vsu recepta وهذه الموانيء هي ميوس هورموس وبرنيكي في مصر وميناء موسخا في حضرموت وهو أحــد مراكز تصدير الكندر (٨١) •

٢ ــ موانيء ملتزمة بالقوانين ὅρμοι νόμιμοι لكنها ليست في الخط الملاحي الدائم واللفظ اللاتيني لها هي Legitimum وتشمل هذه الفئة موانيء عدول (زيلا قرب مصوع) على ساحل الحبشة ، وميناء موزا (موخا) في جنوب شرق الجزيرة العربية وميناء أبولوجوس Apolcgos عند مصب الفرات (٨٢) •

٣ ــ موانيء قائمة من الناحية الطبيعية والواقعية ἔνθεσμα مثل ميناء كاللينا Calliena الميناء الأول لمملكة أندهرا Andhra في وسط الهند وبالقرب من بومباي (٨٣) وربمـــا يعني ذلك أنه مرخص باستخدامها لكن على مسئولية البحار •

ويذكر الدليل أن هذه السفن التي كانت تتردد بين موانيء البحر الأحمر كانت تحمل الى مصر لحاء القرفة من الصومال والفلفل والتوابل والحرير والقطن واللؤلؤ والأحجار الكريمة من الهند ، من الواضح أن الدليل لم يوضح على وجه الدقة الفروق بين هذه التسميات لكنها بلا شك تلمح الى أوضاع قانونية ومعاهدات ثنائية على درجات مختلفة بين هذه الموانيء وبين الامبراطورية الرومانية ، وبعض الضمانات والحماية التي تضمنها الامبراطورية عن طريق ممثليها في هذه الموانيء الذين كانوا أيضا يجمعون المكوس ٠

ومن الملاحظ أن الفئة الممتازة كانت موانيء مصر وهي موانيء معروفة منذ أيام البطالمة ، وربما سعى البطالمة الى نفس الشيء لكن في حيز محدود ، أما الموانيء التي كانت تقع خارج حدود الامبراطورية فنجد وضعها تحدده معاهدات ثنائية عقدتها الامبراطورية مع حكامها ، أما الهدف الأساسي من هذه المعاهدات هو ضمان الخط الملاحي التجاري بين ميوس هورموس وبيرينيكي في مصر وميناء موسخا في حضرموت ثم بين ميناء عدول (مصوع) وميناء موزا في اليمن وميناء أبولوجوس عند مصب الفرات وميناء كاللينا في وسط الهند ٠ ويقول الدليل أن ملوك سبأ وحمير صاروا أصدقاء للأباطرة ٠

وبعد موت أغسطس ورث خلفاؤه امبراطورية ذات سيادة فعلية على البحر الأحمر وتنعم بدخل اقتصادي كبير ولهذا سار الخلفاء على نفس سياسته ولم يأل أحدهم جهدا في دعم الاهتمام بطرق التجارة ، فمثلا أمر تيبريوس بخلع ملك الأنباط لتشككه في نواياه ، وكان يزمع ضم بلاد العرب الأنباط ضما مباشرا الى حوزة الامبراطورية وخلق ولاية بلاد العرب ولفرض السيطرة المباشرة على طريق القوافل الذي يربط بين ميناء ليوكي كومي وبين البطراء ، غير أن هذا المشروع لم ينفذ الا بعد سبعين عاما من موت تيبريوس وعلى يد تراجانوس لكن الامبراطور العجوز الشحيح أبدى قلقه وعدم ارتياحه ازاء النزيف الاقتصادي للذهب الروماني المتجه الى الشرق مقابل الكماليات خاصة الحرير الذي انتشر ارتداؤه بين الرومان سواء الرجال أو النساء ، ففي خطاب مفتوح موجه الى السناتو ونقله لنا المؤرخ تاكيتوس لفت تيبريوس نظر الأعضاء الى المبالغة في الترف والاقبال على شراء الحرير ـ مما يسبب نزفا للذهب الذي يذهب « حتى الى أعداء الامبراطورية » (وهو هنا يقصد البارثين) مقابل استيراد مواد « ذات طبيعة ترضي أذواق المخنثين » ولهذا

وجه لومه للرجال والنساء على السواء (٨٤) ، وكان من بين سياسة أغسطس جعل واعتبار الدينار الروماني رمزا لســـــيادة وعظمة الامبراطورية بين شعوب العالم ولذا دعم التجارة بكميات كبيرة من الذهب الجيد الذي سك في شكل عملات وهو بذلك قد فعل مثلما فعلت الملكة اليزابيث في القرن السابع عشر مع شركة الهند الشرقية ، كما أن رغبة الشرقيين في اكتناز الدينار الروماني وقلة طلبهم على منتجات الامبراطورية وهبوط مســـتوى المعيشة بينهم حول ميزان المدفوعات ــ لو جاز لنا استخدام هـــــذا التعبير الحديث ــ الى صالحهم (٨٥) ٠ ولقد حاول تيبريوس وضع بعض الاجراءات للحد من استخدام الحرير والأحجار الكريمة لكنه لم ينجح في محاولاته ٠ وفي عصر الامبراطور كلاوديوس نجد زيادة في الاهتمام بالطرق الصحراوية التي تربط بين ميوس هورموس وقفط (٨٦) ، وأصبح الميناء الرئيسي لتجارة مصر في البحر الأحمر ، فمثلا أعيد رصف الطريق وزود بالعلامات التي تحدد المسافات وحفرت الآبار وأقيمت خزانات المياه ونقاط الحراسة ومحطات استراحة للتجار ، كما أنه في عصر كلاوديوس استخدمت محاجر الصحراء الشرقية التي كانت تقع على بعد ثلاثين ميلا من ميوس هورموس وسمي أحد المحاجر باسم الامبراطور أي جبل كلاوديوس

كما بدأ في عصر كلاوديوس حركة استكشاف لنهـــــر الأردن وحدود فلسطين وسوريا وشمال شبه الجزيرة العربية والطرق التي تمر عبرها الى بلاد مابين النهرين وكان ذلك تمهيدا لضم مملـــكة العرب النبطيين لاكمال السيطرة المباشرة على البحر الأحمر (٨٧) ونتيجة لهذه الحركة الكشفية زادت الرحلات التجارية حول سواحل شبه الجزيرة وبدأت المعلومات تتزايد عنها وعن طرقهـــا وآبارها وأسرارهـــا كمـــا يظهر من وصـــف بطليموس الجغرافي (٨٨) ٠

ولقد أبدى نيرون اهتماما زائدا (٨٩) بالتجارة مع الشرق والعناية بالطرق التي كانت في خدمة هذه التجارة وكان هذا الاهتمام يلقى البحث العلمي والجغرافي عن الشرق ، والذي لم يتوقف منذ استرابون وصدور دليل للملاحة في البحر الأحمر ، بل استمر ولقي التشجيع من جانب الأباطرة ٠ لقد كتب الأديب بليني الأكبر الذي عاش في عصر نيرون عن التوابل والعطور والنباتات الطبية التي وضع قوائم مطولة بأسمائها ومصادر انتاجها ، بل وأسعارها وطريقة زراعتها وفوائدها ٠ كما أعطانا صورة حية عن الترف والبذخ الذي عاش فيه الرومان خاصة القصر الامبراطوري ، والذي ينعكس

في استهلاك كميات كبيرة من المنتجات الشرقية من عطور وعطارة وحرير ولؤلؤ ، فقد حرق جثمان بوبايا سابينا زوجة نيرون وسط أكداس من الأعشاب العطرية النادرة المستوردة من الشرق ، وقدرت كمية ما استهلك لهذا الغرض مايساوي الكمية التي تستوردها العاصمة من الشرق في عام واحد (٩٠) ولقد أبدى بليني اعجابه بذكاء نيرون عندما خفض وزن الدينار الذهبي (الأورايوس) . *Auraeus* وقلل من وزنه فجعله ١/٥٤ من الرطل الروماني بعد ماكان ١/٤٢ في عصر أغسطس ، كما خفض وزن الدينار الفضي من ١/٨٤ الى ١/٩٦ من الرطل الروماني ، كما خلط فضة الدينار بمعادن أخرى ، وقد فعل نيرون ذلك بعد أن فشلت فكرة سلفه كلاوديوس في سك عملة رومانية ذات قشرة فضية فقط ، وقد أوقف نيرون هذه المحاولة واتخذ قراره السابق ذكره والذي كان يهدف الى محاولة وقف نزيف الذهب والفضة الى شبه جزيرة (٩١) العرب والهند والذي قدره بليني — المعروف بدقته وحبه للاحصاءات والأرقام — بحوالي مليون سستركيس سنويا (٩٢) ، ومن الأشياء الهامة التي ذكرها بليني أن حاكم قتبان في جنوب الجزيرة كان الرجل الوحيد الذي بيده تحديد أسعار القرفة عالميا ، ولم يكن أحد ليستطيع تحديد سعر معين لها فقد وصلت حينا الى ألف دينار للرطل الروماني بحجة شبوب حريق في أشجارها أما في الأوقات العادية فكان الرطل يباع بنصف ذلك الثمن ، كما ذكر أن الاسكندرية كانت السوق الدولية التي يشترى منها الغرب توابل الشرق (٩٣) .

ومن أجل البحث عن طرق جديدة للتجارة مع الشرق أرسل نيرون بعثة استكشافية الى النوبة عام ٦١م عادت بخريطة مفصلة وتقرير شامل (٩٤) عام ٦٤م ، وقد قابلت السلطات النوبية هذه البعثة بالترحاب ويسرت لها مهمتها حتى بلغت النيل الأبيض اذ كان هناك علاقات صداقة بين أباطرة الرومان وملوك بلاد النوبة التي ذكر التقرير أنها في حالة انهيار شديد وأنها فقيرة السكان مليئة بغرائب المخلوقات ، ولقد تعددت الآراء حول الغرض من ايفاد بعثة الى النوبة ، فقال بعضهم أن نيرون كان يهدف الى نصر رخيص . وقال آخرون انه أرسل هذه البعثة تنفيذا لرغبة سينيكا وبليني لجمع المعلومات الجغرافية والنباتية والحيوانية ، وقال فريق ثالث انها كانت تمهيدا لحملة رومانية للاستيلاء على النوبة ، لكن أفضل الآراء هو الرأي القائل بأن البعثة استعراض قصد به انذار مملكة اكسوم التي كانت تهدف الى احتلال سواحل النوبة المطلة على البحر مما يهدد مصالح الامبراطورية التجارية خاصة أن ميناء عدول كان مركز تجارة العاج ، كذلك قصد بالحملة

تأييد معنوي لملوك النوبة الأصدقاء ، ولقد وردت الاشارة الى أطماع أكسوم الحبشية لأول مرة في دليل الملاحة عندما ذكر مؤسسها المجهول الاسم أقام قبل عام ٦٠ ميلادية نصبا تذكاريا عند ميناء عدول تخليدا لذكرى انتصاراته وروى فيه كيف أنه بسط سلطانه شمالا من الحبشة حتى حدود مصر الجنوبية ، وجنوبا حتى ساحل الصومال ، بل ادعى أنه عبر البحر الأحمر واحتل الساحل الجنوبي الغربي لبلاد السبئيين ووصل الى ميناء ليوكي كومي (٩٦) ، ولاشك أن الملك الأكسومي بالغ وهول من حجم انتصاراته لكنها أثارت قلق الرومان الذين توجسوا خيفة أن يكون هدف ذلك الملك البعيد هو غزو بلاد سبأ والتحكم في تجارة البحر الأحمر مما دعى الرومان الى اتخاذ خطوات ايجابية ، اذا فبعثة نيرون الى النوبة كانت تصرفا منطقيا لاهتمام الرومان المتزايد بالتجارة في البحر الأحمر وحماية السلام الروماني فيه من خطر الدويلات المحلية المطلة على شواطئه ، ووقف أي تغيير في موازين القوى حتى لا يحدث أي خلل في الميزان العسكري • وأود أن أضيف الى ذلك الرأي رأيا آخر هو أن نيرون أرسل هذه البعثة للبحث عن مناجم الذهب لأنه كان أكثر الأباطرة قلقا على استمرار نزيف الذهب الروماني الى الشرق ، وهذا التفسير يتفق وتفهم الغرض من خملة مماثلة فيما بعد وهي حملة تراجان على داكيا •

من المعروف أنه منذ وصول روما الى البحر الأحمر ، كانت السفن التي تقلع الى الهند تسير بحذاء الساحل بعد خروجها من باب المندب ، ومن ثم فقد كسبت بعض موانيء شبه الجزيرة العربية مثل أوكيليس Ocelis وموزا Moza وعدن أهمية تجارية كبيرة كمركز للتبادل التجاري ، وهذا جعل التجارة الشرقية في أيدي العرب وهو أمر أقلق الامبراطورية بالرغم من أن العرب كانوا مسالمين وأصدقاء للرومان (٩٧) غير أن تطورا هاما حدث أثناء حياة بليني وهو اكتشاف الرياح الموسمية بواسطة أحد البحارة السكندريين واسمه هيالوس الذي استطاع أن يرصد توقيت هبوبها على ألبحر الأحمر والمحيط الهندي اذ لاحظ أن من مايو حتى أكتوبر تهب الرياح من الجنوب الغربي في اتجاه الشمال الشرقي ، ومن نوفمبر الى مارس تهب عكس ذلك الاتجاه ثم استخدم ذلك في رحلة قام بها الى سواحل الهند ونجح فكان ذلك نقطة تحول بالنسبة لأحداث البحر الأحمر ، اذ أصبح بامكان البحار أن يقلع مباشرة الى الهند دون أن يتوقف عدة مرات عند الموانيء العربية ويدفع المكوس مما يزيد من تكاليف السلع كما أن

الامبراطورية لم تعد تخاف وتترصد الجنوب العربي لأن ذلك الاكتشاف ألغى الكثير من أهمية هذه الموانيء كمحطات وصـــول واقلاع ، كما أدى هذا الاكتشاف الى سرعة الاتصال بالهند اذ أصبح بامكان السفينة أن تقـــلع مثلا من مصر في شهر يوليو وأن تصـــل الى موانيء الهند في أواخر شهر سبتمبر ، وبعد أن تنتهي من التفريغ والشحن تقلع عائدة مستخدمة هبوب الرياح الشرقية فتصل الى أوكيليس أو عدن ثم الى ميناء ميوس هورموس ، أو تستمر شمالا الى خليج السويس ثم تمر بقناة سيزوستريس الى النيل ، وعلى أي حال كانت العودة في شهر فبراير · لقد كسر هذا الاكتشاف احتكار العرب للتجارة وأصبحت روما تتاجر مباشرة مع الهند بلا وساطة ، كما أن سرعة الرحلة وعدم التوقف عند الموانيء العربية ودفع المكوس لها خفف من تكاليف السلع الشرقية فانخفض سعرها مما أدى الى كثرة الطلب عليها (٩٨) وبالتالي زاد الاستهلاك وزاد نزيف الذهب الروماني الى الشرق ·

هكذا حقق هيبالوس ـ كولومبوس القرن الأول ق·م ـ شهرة عالمية وتاريخية وأطلق اسمه على الرياح الجنوبية الغربية ، وعلى رأس عنـــد الساحل الافريقي وعلى جزء من بحر العرب بالقرب من الخليج الفارسي (٩٩) .

وقد لاحظ المختصون بدراسة العملة الرومانيـــة وامكان انتشارها وجود النقود الرومانية التي ترجع حتى عصر نيرون في جنوب الهند حيث يكثر اللؤلؤ والحرير والعطور والأحجار الكريمة ، ولكن بعد عصر نيرون تقل هذه العملة من جنوب الهند وتظهر في شمالها حيث منـــاطق انتاج القطن والجوت مما يدل على أن اجراءات نيرون الحازمة للحد من السلع الاستهلاكية الكمالية قد نجحت الى حد ما والتي أكملها من بعده فسباسيانوس (١٠٠) ·

كان فسباسيانوس (٦٩ ــ ٧٩م) يعرف الشرق الأوسط جيدا ، كما كان مدركا لمشاكله ، فقد شغل منصب القائد الأعلى للقوات الرومانية التي سحقت ثورة اليهود ولهذا وضع حلولا سريعة لمشاكله مثل توسع البارثين ومنع وصولهم الى سواحل البحرين الأحمر والأبيض ، كما قام بتامين جنوب سوريا كجزء من تأمين البحر الأحمر فجنوب الأردن يشكل في تكوينه سهلا منخفضا يؤدي الى سواحل البحر الأحمر سواء الى ميناء ايلانا على العقبة أو الى طريق القوافل الذي يربط بين البطراء وميناء لوكي كومي ·

أما بخصوص قضية النزف الدائم لاحتياط الذهب والمتجه الى دول

الشرق مقابل الكماليات فيبـــدو أن فسباسيانوس أكمل ما بدأه تيبريوس ونيرون في الحد من ارتداء الحرير والأحجار الكريمة ، وقد سبق أن أشرنا الى أن النقود الرومانية بعد عصر نيرون تقل في جنوب الهند بينما تظهر في شمالها حيث منطقة انتاج القطن والجوت ، ولكن بالرغم من ذلك لم يتوقف استيراد التوابل بل زاد سوقها في روما حتى أن دوميتيانوس اضطر الى بناء حي خاص بسوق التوابل Horrea piperataria (١٠١) ٠

كان تراجانوس من أكثر الأباطرة اهتماما بالتجارة مع الشرق ، اذ قام باعادة حفر القناة التي تصل بين النيـــل والبحر الأحمر من كلوســـون Clysmon عند خليج السويس عرفت باسم قناة تراجانوس ، وكان اتساعها يقدر بـ ١٥٠ قدما وقادرة على استقبال أكبر السفن التجارية في ذلك الوقت كما كانت هذه القناة ترتبط بمنف عن طريق قناة صغيرة وبذلك ربطت مصر داخليا وخارجيا بالبحر الأحمر (١٠٢) ٠

واحكاما لقبضة الامبراطورية على البحر الأحمر أنهى تراجانوس فكرة وجود دولة مستقلة حتى ولو كانت عميلة ـ للأنباط ، وضم بلادهم كلها الى الامبراطوريـــة عـــام ١٠٦ ميـــلادية وســـماها ولاية بلاد العـــرب Provincia Arabia وتلى ذلك مشروعه باقامة شبكة من الطرق المعبدة التي تبدأ من شرق الأردن لربط المراكز التجارية الهامة وينتهي عند البحر االأحمر كما أقام نقاطا للحراسة (١٠٣) على طوله ، كما وضع أسطولا حربيا في البحر الأحمر لمطاردة القراصنة ، والقضاء على أية ظاهرة تمرد يقوم بها العرب الساخطون على مشاركة الرومان لهم في التجارة التي جنوا ثمارها منذ عصور ضاربة في القدم كوسطاء لها بين الشرق والغرب ٠ ولما كان هؤلاء القراصنة يمثلون تهديدا للسلام الروماني في البحر الأحمر ولحركة السفن التجارية فقد جعل الامبراطور تراجانوس أسطول الامبراطورية في خـدمة هذه السفن تماما مثلما فعل البطالمة من قبل (١٠٤) وبضم مملكة الأنباط الى الامبراطورية تضاءل شأن البطراء العاصمة التجارية القديمة ، وانتقلت الأهمية الى مدن أخرى مثل بوصري Bostra التي ازدهرت وأصبحت العاصمة لدرجة أنها سمت نفسها مدينـــة بوصري الجـــديدة التراجانية Nova Bostra Triaina كما ازدهرت مدن اخرى على حساب البطراء مثل فيلادلفيا (عمان) وكاناثا ٠ كما أقام وكلاء الامبراطورية في عهد تراجانوس طريقا جديدا يبدأ من حدود سوريا الجنوبية الى البحر

الأحمر ، وقد عثر على نقش هناك يتحدث عن بوابة أقامها أحد الأثرياء هناك مساهمة منه لرخاء الامبراطورية (١٠٥) ، وقد استقبل هذا الطريق كل أنواع التجارة التي تدفقت على دمشق ومدن الشمال من ميناء ايلانا النبطي وميناء ليوكي كومي على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، ولقد ساد احساس بالأمن لدى التجار نتيجة لغزوات تراجانوس وحملته الناجحة ضد البارثين واستيلائه على عاصمتهم طيسفون (المدائن) عام ١١٥م لأن هذه الدولة كانت الخطر الذي يهدد السلام والوجود الروماني في الشرق الأوسط والبحر الأحمر · كما حرص على ربط البحر الأحمر بالخليج الفارسي ، وكان يتمنى أن يستولى على الهند ليربط بين المحيط الهندي والخليج (١٠٦) ·

غير أن النزيف الدائم للذهب الروماني المتجه الى الشرق لم يتوقف ولم تأت محاولات نيرون بالهدف المرجو منها ، ولهذا نجد تراجانوس يتجه في غزواته الى منطقة داكيا الشهيرة بمناجم الذهب في عام ١٠٦م واستطاع أن يستولى على خزائن الملك هناك والتي قيل انها كانت تحوي ذهبا بما يساوي خمسة ملايين رطل روماني وزنا وضعف هذا الوزن من الفضة (١٠٧) ، ونتيجة لتدفق الذهب الجديد هبط سعر الذهب في الأسواق الرومانية بنسبة ٣٪ (١٠٨) ، بينما ارتفع سعر الفضة مما اضطر الامبراطور الى زيادة نسبة الخلط في الدينار الفضي الروماني باضافة القصدير والنحاس بنسبة معينة ليعيد التوازن بين النقود الذهبية والفضية (١٠٩) كما قام بجمع العملات القديمة التي سكها نيرون وهي ذات وزن ثقيل ومعدن صاف وسك منها عملته بل أن زاد نسبة القصدير في الفضة ، ولكن لا يعطي فرصة لاختزان العملات القديمة (١١٠) · لقد كانت سياسة تراجانوس النقدية جزءا لا يتجزأ من سياسة التوسع التجاري في البحر الأحمر لأن أغسطس وضع بداية هـــذه الاستراتيجية وهي أن يقوم الأورايوس الذهبي والدينار الفضي بدورهما في نشر النفوذ الروماني في البلدان الواقعة على جانبي البحر ويغزو أسواقها لأن تداول العملة الرومانية وعليها صورة الامبراطور وشعار الامبراطورية يحقق انتصارا معنويا على شعوب البحر الأحمر يفوق النفـــوذ السياسي المباشر · ولقد نجح تراجانوس في ذلك وعاد الوضـــع طبيعيـــا في ميزان المدفوعات (١١١) ، وقلل الاستهلاك من الكماليات الشرقية ، وكان نفوذ روما في الشرق قد أصبح قويا حتى الهند (١١٢) اذ أرســـل الملك الهندي كوشان وفدا رسميا لأول مرة لتهنئة تراجانوس بمناسبة جلوسه على العرش عـــام ٩٩م ·

وبعد تراجانوس قام خليفته هادريانوس بالكثير من الأعمال من أجل

دعم الطرق الخاصة بالبحر الأحمر ، ففي مصر قام ببناء طريق جـديد في الصحراء الشرقية يبدأ من مدينته التي شيدها في مصر على الجانب الشرقي للنيل وهي أنطونيوليس (الشيخ عبادة بالقرب من ملوي محافظة المنيا) وينتهي عند ميناء مصر الأول على البحر الأحمر وهو ميـوس هورموس ، وعرف هذا الطريق باسم طريق هادريان Hadriana وزوده بمحطات التموين والمياه وأقام فيه نقاطا للحراسـة (١١٣) ، وطريق هادريانوس الجديد يمر بمنطقة منبسطة آمنة وأجود بكثير من الطرق القديمة (١١٤) ، وكان هدفه بالطبع تحسين الاتصال بين البحر الأحمر والنيـل عن طريق تقصير المسافة بقدر الامكان لخفض تكاليف السلع ، وفي نفس الوقت يعطي لمدينته الجديدة شريانا اقتصاديا حيويا للدخل والتجارة · لتزدهر وتنافس مدينة قفط حيث أعفى سكانها من ضرائب المكوس على التجارة · ولقـد وصلت تجـارة الامبراطورية الى قمة نشـاطها في عصر هـادريانوس وأنطونينوس بيوس · وفي عهد ماركوس أويليوس وضع لأول مرة تعريفة جمركية للمكوس (Portoria) التي تجمع بين مواني البحر الأحمر عرفت أحيانا باسم « تعريفة المكوس السـكندرية » وقد تضـمنت هـذه التعريفة جميع أنواع التوابل والسلع الشرقية وقيمة الضرائب المفروضة على كل منها وهي عادة ٢٥٪ ، ولوحظ ان الفلفل الأسود أعفي من الجمارك وكذلك الكندر لأن استخدامهما أصبح أساسيا سواء في الطهي أو الأغراض الدينية ، وبالتالي لم يعتبرا من الكماليات (١١٥) ، ولكن الذي يهمنا هو أن وضع الامبراطورية لتعريفة جمارك لموانيء البحر الأحمر يدل على السيطرة الكاملة وعلى الدخل الوفير التي كانت تجنيه منه · ومن الطريف أن جستنيانوس استعان بهذه اللائحة عندما وضع لوائح مشابهة ·

غير أنه بمقدم القرن الثالث بدأت الأحوال تتغير نتيجة لحدوث تغيرات طرأت على الامبراطورية من ناحية ، وعلى دويلات البحر الأحمر من ناحية أخرى ونتج عن ذلك تدهور ملحوظ في حجم التجارة عبر البحر الأحمر · والذي يدل عليه انخفاض كمية النقود الرومانية التي يعثر عليها في الهند والتي ترجع الى مابعد القرن الثاني الميلادي (١١٦) ويلاحظ أن العمـلة الرومانية في البحر الأحمر فقدت الكثير من مهابتها وقيمتها النقـدية في القرن الثالث الميلادي الذي يمثل بداية الأزمات الاقتصادية بسبب الحروب الخارجية والأهلية وارتفاع الضرائب وقلة الانتـاج مما أدى الى ارتفاع الأسعار ووجود الاختناق الاقتصـادي في بعض السلع مما خـلق السوق السوداء أو مجتمع الأزمات السلعية ، ونتيجة لذلك اضـطر الامبراطور أوريليانوس في عام ٢٧٤م الى جمع العملات القديمة التي ترجع الى عهود

نيرون تراجانوس وصهرها واعادة سكها في عملة جديدة أما ديوقلديانوس (٣٨٤ ـ ٣٠٥م) فقد اضطر الى اصلاح الاقتصاد الروماني لاعادة الثقة في العملة الرومانية فيما وراء البحار ، فقام باعادة تثبيت الأورايوس الذهبي Auraeus لاعادة الثقة في قيمته المنهارة وذلك في عام ٢٩٤م ، اذ جعل وزنه ثابتا وبنسبة $\frac{1}{٦٠}$ من الرطل الروماني ، وتلى ذلك قيامه باصلاحات مالية جذرية ، وقد دعم هذا الاصلاح باصداره قائمة تحديد الأسعار والخدمات في عام ٣٠١م ٠ ومن المؤكد أن اصلاحات ديوقلديانوس بتوكيدها على الأورايوس الذهبي عملة الشرق المفضلة (مثل الماريا ترايزا في العصر الحديث) أعاد الثقة المالية والاقتصادية في الدينار الروماني وأيقظه من خموله في الأسواق الشرقية ٠

لا يمكن فصل التجارة عن السياسة فكلاهما مرتبط ومتأثر بالآخر ، والدينار القوي سفير قوي للدولة التي يمثلها ، ولقد ذكر بليني أن القادة الرومان في حملاتهم العسكرية كانوا يفكرون بعقلية التجارة ، كما أن المعسكرات الرومانية كانت تتحول الى أسواق Canabae وبعضها تحول بالفعل الى مدن (١١٧) فيما بعد ٠

غير أن القرن الثالث والرابع الميلاديين شهدا أحداثا وتطورات سياسية هامة كانت بداية نهاية السلام الأوغسطي في البحر الأحمر ، اذ بدأ الضعف السياسي والاقتصادي يهاجم الامبراطورية من الداخل ففقدت القوة الدافعة مما أدى الى ضعفها خارج ايطاليا ، وفي البحر الأحمر تزايد خطر ونمو دولة اكسوم التي سمعنا عنها منذ أيام نيرون ، واستطاعت في القرن الثالث أن تستولى على الدولة الكوشية في الشمال والصديقة للرومان وبدأت تدخل عالم تجارة البحر الأحمر بفضل مينائها عدول ، بل تطلعت الى الاستيلاء على اليمن لاحكام القبضة على البحر الأحمر ٠ وفي الشرق الأوسط برزت الدولة الساسانية في فارس والتي أحيت القومية والنفوذ الفارسي الذي ضاع منذ أن فتح الاسكندر بلاد الفرس في الثلث الأخير من القرن الرابع ق٠م ٠ وطالبت هذه الأسرة بحق الامبراطورية الفارسية في الشرق الأوسط كله ٠

وفي اليمن حدثت تطورات سياسية هامة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين فمن المعروف أن الدولة الحميرية التي نهضت في القرن الأول على أنقاض حكم قبيلة الأوسان نجحت في نهاية القرن الأول في بسط نفوذها على سبأ وفي اقامة حكم جديد قاعدته ظفار جنوب صنعاء الحالية ، كما نجحت

في فرض نفوذها على الساحل الجنوبي والجنوبي الغربي لشبه جزيرة العرب بعد أن أسقطت السيادة الحضرموتية على الساحل الجنوبي وخلال هذه الفترة توحد الجنوب العربي كله تحت قيادة واحدة ودولة واحدة ، وشهد خلالها اليمن المتحد أسعد أيامه وأكثرها رخاء ٠ حيث أصبح « التبع » ملكا على سبأ وحضرموت ويمنات وتهامة غير أنه من الملاحظ ان اليهـــودية بدأت تنتشر في جنوب الجزيرة منذ تدمير هاديانوس لأورشليم عام ١٣٧م وهجرة عدد كبير من اليهود الى اليمن وبدأت حركة تبشيرية يهـــودية في جنوب الجزيرة ، ولاشك أن تزايد النفوذ اليهودي في اليمن وفي الجنوب بكل مايحمله اليهود من ذكرى مريرة لتدمير الرومان لأورشليم خلق نوعا من العـــداء والحقد ازاء الوجود الروماني ، وهذا العداء أحيا حقد اليمنيين القـديم ازاء الرومان ، ولهذا بدأ الاتجاه العـــام في اليمن يتعاطف مع الدولة الساسانية الفارسية ويمهد لها لطرد الرومان من منطقة البحر الأحمر ٠

كانت الامبراطورية الرومانيـــــة في ذلك الوقت قد أنقسمت الى شطرين وورث الشطر الشرقي الذي كان عاصـــمته القسطنطينية والذي نعرفه بالدولة البيزنطية نفـــوذ روما في البحر الأحمر ، ولذا سارعت الامبراطورية البيزنطية التي كانت تعتبر نفسها حامية للمسيحية بالتنبيه لخطر التبشير اليهودي في الجنوب فسارعت بارسال بعثات تبشيرية مسيحية الى اليمن ونجحت في نشر المسيحية في نجران ابان القرن الخامس ، وقد فزع ملوك حمير من تغلغل المسيحية في ديارهم خوفا من تحولها الى البيزنطيين فناهضوها بشدة ٠ أما في الحبشة فقد ثبتت المسيحية أقدامها وقامت علاقات قوية بين بيزنطة والحبشة وتعاون الأحبـــاش مع الامبراطورية البيزنطية وأصبحوا هم المسؤولين عن نقل التجارة نيابة عن بيزنطة التي وقفت من ورائهم وشجعتهم على مقاومة اليهودية في اليمن وطرد النفوذ الفارسي حيث كان الفرس يساندون العرب الجنوبيين ويوكلون اليهم نقل التجـــارة بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر ، ومن ثم بدأ الأحباش يهـــــددون الجنوب العربي كله ويتطلعون الى احتلاله ، أي أن العداء بين الفرس والرومان اتخذ شكل الصراع الديني بين اليهودية والمسيحية على أرض اليمن (١١٨) بلغ أشده خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، ولا تلبث أن نرى ذا نواس آخر الملوك الحميريين يعتنق اليهودية ويحاول القضاء على المسيحيين في نجران عندئذ أوعزت بيزنطة الى النجاشي ملك الحبشة أن يغزو اليمن فغزاها سنة خمسماية وخمس وعشرين ميلادية ، واستولى عليها وضمها الى بلاده وظل هذا الاحتلال الحبشي قائما نحو خمسين عاما ثارت خلالها اليمن ثورات عنيفة ،

غير أن الفرس لم يسكتوا على هذه الخطوة من جانب الحبشة وحليفتهم بيزنطة ولما استنجد أهل اليمن بالفرس سارعت الامبراطورية الفارسية بالتدخل وأرسلت جيوشها فاستولت على اليمن عام ٥٧٠م وطردوا الأحباش والبيزنطيين • وبذلك أصبح البحر الأحمر ميدان صراع بين قوتين : الفرس ويسيطرون على الساحل الشرقي والبيزنطيين ويسيطرون على الساحل الغربي ، وظل الفرس في اليمن حتى سنة ثمان وعشرين وستماية ميلادية عندما أعتنق باذان عاملهم في اليمن الاسلام دينا وبذلك أسدل الستار على صراع القوتين الفارسية والبيزنطية على البحر الأحمر وبدأت السيادة الاسلامية تظهر في الأفق •

هكذا ننهي البحث بنفس العبارة التي بدأناها به وهي ليس هناك أعداء دائمين ولا أصدقاء دائمين ولكن هناك مصالح دائمة •

د• سيد احمد علي الناصري
قسم التاريخ ـ كلية الآداب
جامعة القاهرة

الهـــوامش

١ - Apicius, De Arte Conquinaria : J. I. Miller, The Spice Trade of The Roman Empire 29 B.C to A.D. 641 Oxford The Clarendon Press, 1969, P. 10 note 2.

٢ - يروي ان ايليوس خليفة هادريانوس كان يحمله معه في اي مكان حتى سرير النوم ، كما ان الامبراطور اليجابالوس قدر هذا العمل تقديرا خاصا :
Scriptores. Historiae Augustae, Aelian, V. 9; Elagabalus XVIII, 4. ; Miller, op. cit P. 10.

٣ - M. Cary & E. H. Warmington, The Ancient Explorers, (Regised edition published in Pelican Books), 1964. P. 94 F.

٤ - Miller, Op. cit, P. 190.

٥ - M. P. charlesworth, Trade-Routes and Commerce of The Roman Empire, George Olms, Verlagsbuchnadlung, Hildesheim, 1961, P. 224.

٦ - Seneca, ad Paul. 2.

٧ - pliny Historis Naturalis, XIV. 2.

٨ - Suetonius, Divus Avgustus, 98, 3.
انظر : سيد احمد الناصري - تاريخ الامبراطورية السياسي والحضاري - الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ١١٩ .

٩ - Charlesworth, Op. cit, P. 227.

١٠ - M. Cary & E. Warmington, Op. cit, P. 74 F.

١١ - Alan B. LLoyd, "Necho and the Red Sea : Some Considerations", Journal of Egyptian Archaeology, vol 63 (1977) PP. 142-155.

١٢ - Posener, "Le Canal du Nil a'la Mer rouge avant les Ptolemees, Chrniqne d' Egypte XIII (1938), P.

١٣ - Diodorus Siculus, E. 33. Strabo 17, I., 25 (C804), 16. 4. 23 (C780), Pliny, Historia Naturalis, VI, 165FF.
ابراهيم نصحي - مصر في عصر البطالمة .

١٤ - عبد اللطيف احمد علي - مصر والامبراطورية الرومانية في ضوء الاوراق البردية ، ١٩٧٢ ، ص ٤٥ ج ٤٦ .

١٥ - Diossofides, 11, 160, Charlesworth, op. cit, P. 66.

عن اسماء هذه المنتجات والسـلع كما ذكرت في الوثائق العربيـة ، انظر : دكتور محمد يوسف « علاقات العرب التجارية بالهند منذ اقدم العصور الى القرن الرابع الهجري » مجلة كلية الآداب ـ مجلد ١٥ جزء أول ١٩٥٣ ، ص ٢٧ ـ ٣٥ .

١٦ ـ G. W. Murry " Roman Roads and Stations in the Eastern Desert of Egypt", Journal of Egyptian Archaeology, Pl. 11. P. 139.

١٧ ـ D. Meredith, "Roman Remains in the Eastrn Desert", Journal of Egyptian Archaeology, vol 38 (1952), P. 101, and J.E.A., vol 39 (1953) P.95., charlesworth, Op. cit, P. 61 FF.

١٨ ـ Strabo XVIII, 1, 26.

١٩ ـ Pliny, Ibid, VI, 165.

٢٠ ـ Meredith, J.E.A., vol 38. (1952) P. 98 FF.

٢١ ـ Meredith. 10c cit P. 106 - 108.

٢٢ ـ Strabo XVI, 4, 23 (780)

٢٣ ـ L. Casson, Ship and Seamanship in the Ancient world (Princeton 1971) P. 97; Diodorus Siculus I, 55.

٢٤ ـ of. Pliny Historia Vaturalis, VI, 173; Miller op. cit P. 168 note 2.

٢٥ ـ of. Periplus 4.

٢٦ ـ CharlesWorth , P. 64.

٢٧ ـ Periplus 13; Miller Op. cit P. cit P. 185, 199.

٢٨ ـ Charlesworth Op. cit P. 65.

٢٩ ـ د. احمد فخري : اليمن ماضيها وحاضرها ـ المعهد العالي للدراسـات العربية جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٧٠ .

٣٠ ـ Charlesworth, Ibid, R. 65 - 66.

٣١ ـ Miller Op. cit, P. 147.

٣٢ ـ Philip. K. Hitti, History of The Arabs, Fifth edition revised, London Macmillan 1951, P. 67F.

٣٣ ـ Charlesworth, P. 54.

٣٤ ـ Miller, Op. cit P. 134 F.

٣٥ ـ Diodorus Siculus I, 55. Casson, Op. cit, P. 97.

٣٦ ـ Athenaeus, 5, 203C, Alon 11oyd, J.E.A., Loc. cit, P. 154.

٣٧ ـ W. W. Tarn, "Ptolemy II and Arabia, J.E.A, Vol. XV (1929) PP9 - 25 (P.17), also of his, Ptolemy Philadelphus. J.E.A, XIV (1928) P. 251.

٣٨ ـ Strabo XVI, Chapter 414.

٣٩ ـ والكلمة تعني الكروم ربما اشارة الى ديونسيوس الجد الاســـطوري للبطالة
Tarn, J.E.A, Vol. XV, P. 21. Hitti, Op. cit, P. 72.

او ربما اشارة الى ذي الشعرى رب

الصحاري عند العرب والذي ارتبطت عبادته بالكروم والخير

٤٠ ـ مثلا لوحظ ان اربعة او خمسة من ملوك اللحيانيين حملوا لقب طولماي الذي هو الصيغة العربية لاسم بطليموس •
Tarn. Loc. cit P. 120F. Pierre Grimal and Others, Hellenism and the Rise of Rome, Weidenfeld and Niodnon 1968, P. 291.

٤١ ـ انظر : علي عبد الله الغاتم ، اثيوبيا والاثيوبيون : بين المصادر الاغريقية الرومانية والادلة لاثرية » : رسالة ماجستير (غير منشورة) آداب القـــاهرة ١٩٧٦ : ص ٩٢ ـ ٩٤ •

٤٢ ـ Cf Hitti, Op. cit, P. 68.

٤٣ ـ Ibid, P. 68.

٤٤ ـ W.W. Tarn, Loc. cit, P. 25.

٤٥ ـ Josephus, Jewih wars, Book III, 4, 2; Book I, 14.

٤٦ ـ Hitti, Op. cit, P. 73.

٤٧ ـ جاء في دليل الملاحة Periplus, 19 وعند استرابون XVI, 4,21,24 وبليني Historia Naturalis, XII, 63,5

ولكن هناك جدل حول تفسير ماورد في دليل الملاحة فقرة ١٩ ، اذ يرى دارمنجتون ويشاركه في ذلك آخرون ان قائد المائة والحامية الموجودة في البطراء كانت رومانية
E. Warmington, The Commerce between the Roman Empire and India, (Cambridge 1928) PP. 16 and 309 (with notes),

بينما يرى شوف في تعليقه على الفقرة ان النص لا يثبت ان قائد المائة والحامية كانوا رومانا
Millar, Op. cit, P. 225 nots 1.

٤٨ ـ Charlesworth, Op. cit P. 66, P. 227.

٤٩ ـ Strabo XV. 1. 22.

٥٠ ـ عبد اللطيف احمد علي ـ المرجع السابق ، ص ١٣٥ •

٥١ ـ Pierre Grimal, Op. cit, P. 293.

٥٢ ـ Periplus 21, 24., Philip Hitti, Op. cit, P. 49, Schoff, Periplus, (New York) P. 24.

٥٣ ـ Pliny, Historia Naturalis, XII, 62.

٥٤ ـ Strabo XVI, 4, 19.

٥٥ ـ Charlesworth, Op. cit, P. 67.

وكان اسمها بالسنسكريتية « دويبا سخودارا » اي الجزيرة المقدسة

٥٦ ـ Pliny, Ibid XII, 64.

٥٧ ـ W. Philips, Qataban and Sheba (1955) P. 24, 27.

٥٨ - Miller, P. 16.

٥٩ - احمد فخري - اليمن ماضيها وحاضرها ، ص ٦٩ . Slrabo XVI, 4,27.

٦٠ - عبد اللطيف احمد علي - المرجع السابق ، ص ٦٣ .

٦١ - Cary and Warmington, Op. cit P. 192 - 193.

٦٢ - Strabo, XVI, 4, 23.

٦٣ - Hitti, Op. cit, P. 56 ff.

عن تفاصيل الرحلة انظر : عبد اللطيف احمد علي المرجع السابق ، ص ٦٤ - ٦٦ .
وكذلك انظر : ديتلف نيلسون ، فرتز هومل ، رود كاناكيس وادولف جرمان :
التاريخ العربي القديم ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي ومراجعة الدكتور
محمد زكي حسن ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٣٠٠ وما بعدها .

٦٤ - Periplus, 24, 26.

٦٥ - Millar, Op. cit, P. 14 (With Notes).

٦٦ - عبد اللطيف احمد علي - المرجع السابق - ص ١٣٤ .

٦٧ - Millor, Op. cit, P. 15, note 1.

٦٨ - Pliny, Historia Naturalis, VI, 31.

٦٩ - تدل النقوش ان اغسطس فرض ضريبة قدرها ٢٥٪ على بعض السلع الواردة من
الشرق بالاضافة الى مكوس الجمارك Portoria ، ومن اجل ذلك عين قائدا
Strategos له سلطات عسكرية وادارية لتحصيل مكوس البحر الأحمر
وكان هذا القائد يشرف على جميع
المكوس الجمركية في موانيء البحر الأحمر انظر C. I. G. 5675 نقش من عصر
اغسطس كتبه جامع المكوس ابولونيوس ومساعده اديتليوس وهو عبارة عن صلاة
شكر للرب هرمس رب التجار انظر : Warmington Op. cit, PP. 14, 333

٧٠ - Charlesworth, Op. cit, P. 237; Millar Op. cit, P. 15.

٧١ - D, Meredith, Annius Plocamus : " Two Inscriptions From the Berenike Road ". Journal of Roman studies, XLIII, 1953, P. 38 ff.

٧٢ - Schoff, Op. cit, pp. 290 - 239.

٧٣ - Millar, Op. cit, P. 16. Note 2.

٧٤ - Schoff, P. 67; Millar, Op. cit, P. 16F.

٧٥ - Millar, Ibid, P. 18.

٧٦ - C. Muller, Geographici Graeci Minores (1855 - 61) vol, 1., Prolegomena, XCVIII.

٧٧ - Millar, Op. cit, P. 19 - 20.

٧٨ - Charlesworth, Op. cit, P. 63; Millar, P. 20.

٧٩ - Periplus I. and 35.

٨٠ - PeriPlus IV, 21 and 25.

٨١ - Periplus 52.

٨٢ - Tacitus, Annoles, 11, 33; III, 53; also of Cassius Dio, LVII, 5; also. of J. Carcopino, La vie quotidienne a Rome a L'apogee de L' empire (1947), P. 200; English translation by E. O. Lorimer, P. 172.

٨٣ - Millar, Op. cit, P. 222; charles worth, P. 50;

٨٤ - Warmington & Cary, P. 44 F.
Charlesworth, P. 21;

٨٥ - Warmington Cary, P. 193=Dio cassius LXVIII, 14; LXXXV, 1,2; Eutropius VIII, 18; Pliny VI, 140; V,77,80

٨٦ - Ptolemy, VI, 7; 1-47.; Warmington & Cary P. 194.

٨٧ - Charlesworth, P. 34.

٨٨ - Pliny Historia Naturalis, XII, 84.=Millar, Op. cit, P. 14-20.

٨٩ - Millar, Op cit, P. 218.

٩٠ - Pliny, Historia Naturalis, XII, 84.

٩١ - Pliny, Historia Noturalis, XII, 93.

٩٢ - Chorleswarth, P. 33.

٩٣ - عبد اللطيف احمد علي - المرجع السابق ، ص ١٣٤ .

٩٤ - عبد اللطيف احمد علي - المرجع السابق - ص ١٣٤ - ١٣٥ .

٩٥ - Charlesworth, P. 60.

٩٦ - من الأمثلة على ذلك أن سعر قارورة عطر الناردين انخفض سعرها من ٣٠٠ دينار روماني في اول القرن الاول كما جاء في الانجيل (مرقص اصحاح ١٤ آية ٣ ، انجيل يوحنا اصحاح ١٢ آية ٣) الى ١٠٠ دينار فقط في عصر بليني في اواخر نفس القرن .

٩٧ - Wamington and Cary, Op. cit PP. 95 - 96.

٩٨ - Charlesworth, Op. cit, P. 61.

٩٩ - Millar, P. 83; P. 25; Charleswrth, P. 223.

١٠٠ - سيد احمد الناصري : تاريخ الامبراطورية الرومانية السـياسي والاجتماعي الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ٢٤٤ .

١٠١ - Charlesworth, P. 14, 43.

١٠٢ - Ibid P. 43.

١٠٣ - Charleswonth, Ibid, P. 231.

١٠٤ - الناصري : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

١٠٥ - Oxford Classical Dictionory sub Trajan.

١٠٦ - C. H. C. Sutherland, Jold; Its beauty, Power and allure London (1959) P. 98.

١٠٧ـ Millar, Op. cit, P. 219 - 220.

١٠٨ـ C F. Dio Cassius, LXVIII, 15.

١٠٩ـ Millar, Op. cit, P. 230.

١١٠ـ Charlesworth. P. 61.

١١١ـ Meredith, J.E.A, vol 38 (1952), P. 101.

١١٢ـ Charlesworth, Ibid P. 22, P. 62.

١١٣ـ Millar, Op. cit P. 25.

١١٤ـ Charlesworth, P. 61., P. 70.

١١٥ـ Ibid P. 232 - 4.

١١٦ـ Philip. K. Hitti, Op. cit, P. 60 F.

الأمن العربي والصراع الاستراتيجي في منطقة البحر الأحمر

د. علي الدين هلال
مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام

١ ـ تحديد المفاهيم :

تتناول هذه الدراسة البحر الأحمر كأحد مناطق الأمن الوطني المصري والأمن القومي العربي ، وربما يحسن البدء بتعريف لمفهوم الأمن القومي National Security ومنطقة الأمن Security Zone أما الأمن القومي فيقصد به « تأمين كيان الدولة ـ أو مجموعة من الدول ـ من الأخطار التي تتهددها داخليا وخارجيا ، وتأمين مصالحها ، وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق أهدافها وغاياتها القومية (١) . ومن ثم فان هذا المفهوم يدور حول ثلاثة محاور رئيسية :

ـ تأمين كيان الدولة ، أو مجموعة الدول ، الذي يتمثل في المقام الأول في وحدة أراضيها وحماية اقليمها .

ـ ان هذا التأمين يكون في مواجهة كافة الأخطار الداخلية والخارجية ، القائمة والمحتملة .

ـ تحقيق الأهداف العامة للمجتمع التي تتمثل عادة في الاستقرار السياسي والاجتماعي والتنمية الشاملة مع اختلاف الأساليب التي يمكن أن تتحقق بها هذه الأهداف .

القضية التي تثيرها دراسات الأمن القومي هي تحديد الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية التي يتحقق في ظلها استقرار

المجتمع ورفاهيته ووحدته الاقليمية ، وكذلك تحديد الظروف أو المواقف التي تمثل خطرا على هذا الأمن ، وتتطلب سرعة الحركة لمواجهتها أو العمل أصلا للحيلولة دون قيامها • الأمن القومي اذن ليس مجرد قضية عسكرية وحسب ولكنه مسألة متعددة العوامل والأبعاد تختلط فيها السياسة بالاقتصاد ، الجغرافيا بالعسكرية ، والوضع الاجتماعي بقوة الدولة ، والنظام السياسي بالاستراتيجية •

ويثور تساؤل عما اذا كان هناك مفهوم للأمن العربي أم ربما كان الأصح الحديث عن الأمن المصري وحسب (٢) • والحقيقة أن كلا المفهومين يمثلان مستويين مختلفين للتحليل ، فهناك بالتأكيد مقومات لمفهوم مصري للأمن يرتبط بمصر كواقع جغرافي وبشري وتاريخي واقتصادي يمكن تتبعه عبر العصور ، وهناك أيضا مفهوم عربي للأمن يدخل في اعتباره العلاقات القائمة بين شعوب الأمة العربية وطبيعة انتمائها وتطلعاتها وأهدافها وأنماط التفاعلات بينها • الأمن المصري والأمن العربي اذن لا يجب أحدهما الآخر بل يكمله ويتممه ، فصحيح أن هناك « أمن مصري » ولكن هذا الأمن هو جزء من كل وهو « الأمن العربي » • ومن هنا التمييز في الاصطلاح بين الأمن الوطني والأمن القومي العربي •

في هذا الاطار يقصد بمناطق الأمن لدولة ما أو لمجموعة من الدول تلك المناطق التي يمكن أن تؤثر مباشرة على سلامتها واستقرارها من خلال ارتباطها الوثيق بمصالحها وسياستها الاسراتيجية • ويمكن أن تتحدد منطقة الأمن وفقا لثلاثة معايير :

(أ) المعيار الجغرافي : ويثار في هذا الصدد مايتضمنه عنصر الجوار من صلات طبيعية وبشرية ومايوجده من تفاعلات ومصالح اقتصادية وأمنية تنعكس على الأطراف المتجاورة ايجابا أو سلبا •

(ب) المعيار السياسي أو الأيديولوجي : الذي يتعلق بالعقيدة السياسية للدولة وما تتصدى له من أهداف ونوع الأفكار السائدة فيها بما توجده من ارتباطات وانتماءات •

(جـ) معيار قوة الدولة : فهناك علاقة ايجابية بين قوة الدولة ونطاق أمنها ، فكلما ازدادت قوة الدولة وتنوعت مصالحها وتعددت ارتباطاتها اتسع نطاق أمنها •

وكما هو واضح فان هذه المعايير ليست على نفس الدرجة من الثبات والاستمرار ، فبينما يميل الأول ــ نسبيا ــ الى الاستقرار ، فان الثاني أكثر عرضة للتغيير نتيجة تغير شكل نظام الحكم أو القيادة السياسية أو الظروف الداخلية ٠

٢ ـ البحر الأحمر كمنطقة امن :

البعد التاريخي والطرح المعاصر :

أي نظرة لخريطة المنطقة العربية لابد أن تتوقف أمام البحر الأحمر كأحد مناطق الأمن الرئيسية من زاوية الأمن المصري أو العربي ٠ هذه المنطقة التي يحدها شمالا خليج السويس والشاطىء الغربي لخليج العقبة بينما يقع الشاطىء الشرقي للخليج ضمن حدود المملكة العربية السعودية ، وفي أقصى شمال الخليج يوجد ميناء العقبة الذي يعد المنفذ الوحيد للأردن على البحر الأحمر والى الغرب منه يقع ميناء ايلات في اسرائيل ، أو الحد الجنوبي للبحر فتطل عليه اليمنيتان (الشمالية والجنوبية) والصومال وجيبوتي وأثيوبيا ٠ من هذا العرض يتضح أن أغلب هذه الشواطىء تقع ضمن حدود دول عربية ، فالدول الواقعة على الساحل الشرقي بأكمله دول عربية (الأردن والسعودية واليمنيتان) المنفذ الوحيد للأردن على البحر الأحمر والى الغرب منه يقع ميناء ايلات في اسرائيل ، أما الحد الجنوبي للبحر فتطل عليه اليمنيتان (الشمالية والجنوبية) والصومال وجيبوتي واثيوبيا ٠ من هذا العرض يتضح أن أغلب هذه الشواطىء تقع ضمن حدود دول عربية ، فالدول الواقعة على الساحل الشرقي بأكمله دول عربية (الأردن والسعودية واليمنيتان) وأن حوالي ٢٠٠٠ ميل من الساحل الغربي يقع في مصر والسودان وجيبوتي والصومال بينما تشغل السواحل الأرترية التابعة لأثيوبيا حوالي ٤٠٠ ميل من هذا الساحل (٣) ٠

ان أهمية البحر الأحمر يمكن أن تثار من جانبين : الأول هو الجانب العسكري الأمني · فالبحر الأحمر هو مدخل البلاد العربية الى افريقيا وآسيا ، وهو المنفذ البحري الوحيد لكل من السودان والأردن والصومال (وأثيوبيا) ، وهو طريق نقل البترول من منطقة الخليج الى البلاد المستهلكة ، وهو يمكن أن يكون ـ بالتعبير العسكري ـ « جبهة تعرض » لمصر العليا ومنابع النيل ، وهو علاوة على ذلك وبسببه أحد بؤر الصراع الاستراتيجي العالمي · فأمن البحر الأحمر يرتبط بأمن المحيط الهندي من ناحية ، وبأمن الخليج العربي من ناحية ثانية ، وبأمن البحر الأبيض المتوسط من ناحية ثالثة ، وهو همزة وصل بين الأساطيل البحرية في البحر المتوسط والمحيط الهندي بالاضافة الى وجود عدد من القواعد والتسهيلات العسكرية لدول أجنبية فيه · أما الجانب الثاني فهو اقتصادي ، فحركة الملاحة في البحر الأحمر تمثل المصدر الاساسي للدخل في اليمن الجنوبية ومصدرا هاما للدخل في الصومال وجيبوتي كما تتردد احتمالات وجود ثروات بترولية في قاعه ، هذا الى جانب أهميته كطريق للنقل البحري وبالذات البترول وارتباطه بحركة الملاحة في قناة السويس · ومن هنا فان أمن البحر الأحمر ينبغي أن يكون أحد قضايا ومشاغل الفكر الاستراتيجي العربي الرئيسية ·

ولا تقتصر أهمية البحر الأحمر على الفترة المعاصرة بل تظهر جليا في التاريخ القديم في شكل العلاقات التجارية بين مصر وبلاد بونت (الصومال) للحصول على البخور ، والعطور ، والأخشاب ، وفي العصور الوسطى لعب البحر الأحمر دوره كطريق للملاحة والتجارة والمواصلات جنت من ورائه مصر الكثير ·ولكن القوة البرتغالية الصاعدة دخلت مع مصر في صراع انتهى في بداية القرن السادس عشر (١٥٠٩) بهزيمة الأسطول المصري في عهد الغوري ·

واذا كان اكتشاف رأس الرجاء الصالح قد قلل لمدة من أهمية البحر الأحمر ، فقد جاء افتتاح قناة السويس (١٨٦٩) ليعيد له هذه الأهمية كممر للتجارة · وارتبط ذلك ببدء التنافس الاستعماري للسيطرة على المراكز الاستراتيجية فيه فاستولت انجلترة على عدن (١٨٣٢) وفرنسا على ميناء أبوبوك (١٨٦٢) وايطاليا على عصب بعد ذلك ·

ويقدم د· شوقي عطا الله الجمل في دراسته عن سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عرضا يوضح فيه كيف تأثرت مصر كثيرا بموقعها على البحر الأحمر ، وأن السياسة المصرية وقتذاك

عبرت عن تصور متكامل وهدفت الى ضمان الأمن المصري من خلال الوجــود والسيطرة في البحر الأحمر وردع القوى الأوربية المتطلعة الى ذلك ٠ فمن الناحية العسكرية كان الأسطول البحري المصري يجوب البحر فارضا وجوده في مواجهة أساطيل البلاد الأوربية الطامعة فيه ، ومن الناحية السياسية بدأت مصر بأن طلبت من السلطنة العثمانية خضـــوع ميناءي سواكن ومصوع للادارة المصرية (١٨٦٥) ، ثم أنشأت محافظة سواحل البحر الأحمر ، ثم ضمت زيلع الى الادارة المصرية ، ومنها خرجت حملة مصرية لفتح سلطنة هرر (١٨٧٥) ولم يأت عام ١٨٧٧ الا وكانت مصر تسيطر على ساحل البحر الأحمر الغربي كله وعلى ساحل عدن (٤) ٠

رغم ذلك فان أمن البحر الأحمر لم يطرح بشكل ملح على المستوى السياسي العملي العربي الا في عام ١٩٧٧ عنـــدما تضافرت مجموعة من العوامل التي تراكمت عبر عدة سنين وأدت في النهاية الى طرح القضية ٠ وتتمثل هذه العوامل في اعلان مصر اغلاق باب المندب خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وتصاعد الثورة في أرتريا ، وانفجار الموقف في القرن الافريقي بين أثيوبيا والصومال بخصـــوص أوجادين ، وتدهور العـــلاقات بين أثيوبيا والسودان ، وقيام طائرات مجهولة الجنسية ـ رجح أنهـــا اسرائيلية ـ بالاستطلاع فوق باب المندب واليمن الشمالية في ديسمبر ١٩٧٦ ٠

في هذا السياق التاريخي تتابعت الأحداث سراعا خلال عام ١٩٧٧ ففي شهر يناير أثارت اليمن الشمالية ضرورة الوصول الى صيغة جماعية للأمن في منطقة البحر الأحمر ضمن نطاق معاهدة الدفاع العربي ، وأثير في هذا الصدد أن عددا من الخبراء العسكريين من مصر والسعودية قد وصل الى باب المندب للقيام بدراســـات ميدانية حول كيفيـــة توفير الحمـــاية والأمن للمنطقـــة (٥) ٠

وفي ٢٧ ـ ٢٨ فبراير انعقد مؤتمر القمة الثلاثي بين مصر وسوريا والسودان في الخرطوم وكان أحد موضوعاته الرئيسية هو أمن البحر الأحمر ورغم أن أحد العبارات التي ترددت هو شعار « أن البحر الأحمر هو بحر عربي » فان البيان الرسمي للمؤتمر اكتفى بالاشارة الى الحاجة الى توفير السلم والأمن في منطقة البحر الأحمر وأن تكون منطقة سلام لصالح الشعوب

وفي منأى عن الصراعات الدولية • وجدير بالذكر أن أثيوبيا هاجمت بعنف هذه التحركات العربية واعتبرت أي اشارة الى البحر الأحمر « كبحر عربي » بمثابة تعبير عن نوايا استعمارية ونزعات رومانسية قومية عربية باعتبار أنها تتجاهل وجود دول غير عربية في منطقة البحر الأحمر •

وشهد شهرا فبراير ومارس عددا من التحركات الأخرى مثل زيارة الشيخ زايد آل نهيان رئيس دولة الامارات العربية المتحدة لليمن الجنوبية ، وجولة الرئيس جعفر نميري في سلطنة عمان والصومال واليمنيتين ، ودعا البيان السوداني ـ الصومالي المشترك الى ضرورة وصول الدول المطلة على البحر الأحمر الى استراتيجية محددة لابعاد هذه المنطقة عن الصراع الدولي والأطماع الصهيونية ، كما دعا الرئيس نميري الى مؤتمر موسع للدول المطلة على البحر ، وفي نفس الفترة زار فيدل كاسترو اليمن الجنوبي وأخيرا عقد مؤتمر تعز في مارس بحضور رؤساء السودان والصومال واليمنيتين الذي أكد بيانه على ضرورة أن تظل منطقة البحر الأحمر منطقة سلام •

وفي أبريل سافر وزير الدفاع الصومالي الى السعودية والكويت لمباحثات تتعلق بالبحر الأحمر ، وسافر مبعوث خاص للرئيس نميري الى دول الخليج لعرض نتائج مؤتمر تعز • وبرز في هذا الاطار دور السودان الذي صرح وزير خارجيته في ٢٤ فبراير الى صحيفة الأيام السودانية أن مسألة أمن البحر الأحمر هي الشغل الشاغل والرئيسي للسودان • وبينما ذكرت نفس الصحيفة أن موقفا مصريا سودانيا موحدا قد اتخذ لمواجهة أي تدخل يمس أمن المنطقة فقد أعلنت اثيوبيا أن المناورات التي تقوم بها البحرية المصرية في البحر الأحمر موجهة في الأساس ضدها كما هاجم الاتحاد السوفيتي بعنف التحركات المصرية السعودية واتهم هذه الجهود بأنها تسعى الى تشكيل حلف عسكري سياسي لخدمة المصالح الأمريكية في المنطقة وضد اثيوبيا •

وفي مايو قام السلطان قابوس حاكم عمان بزيارة مصر ، وأعلنت فرنسا عن قرارها باعطاء اقليم عفار وعيسى الاستقلال في ٢٧ يونيو مع الاحتفاظ بعلاقات عسكرية واقتصادية بين البلدين ، وكررت السودان دعوتها لعقد مؤتمر موسع لبحث قضية أمن البحر الأحمر وهو ما أيده رئيس دولة الامارات العربية المتحدة •

وفي يوليو قام نائب رئيس الصومال بزيارة دولة الامارات ، واقترحت

جامعة الدول العربية انشاء قوة ردع تشرف على أمن البحر الأحمر بعد تردد أنباء وجود عسكري اسرائيلي في بعض الجزر القريبـــــة من ساحل أرتريا بموافقة أثيوبيا ، وأدرج في جدول أعمال وزراء الخارجية العرب في سبتمبر هذا الموضوع (٦) ·

هذا النشاط المكثف بخصوص أمن البحر الأحمر لا يمكن فصله عن التحولات في توازن القوى وأنماط التحالفات الدولية التي حدثت في هذه الفترة ، واشـــتعال الحرب في القرن الافريقي فقد كانت هنـــاك محاولات ــ لم تنجح في النهاية ــ لاحتواء اليمن الجنوبي وربطه بهـــذه التحركات ، والصومال الذي كان قد ارتبط ارتباطا وثيقا بالاتحاد السوفييتي قام بالغاء معاهدة التعاون والصداقة بين البلدين وبطرد الخبراء والمستشارين السوفييت وبقطع العلاقات مع كوبا ، وبالعكس فان أثيوبيا شهدت تحـولا راديكاليا ثوريا بالانقلاب الذي قام به منجستو ماريان والذي أدى الى تقليص العلاقة مع الولايات المتحدة والى مزيد من الارتباط بالاتحاد السوفييتي الذي وصل الى درجة الاسهام العسكري المباشر ــ ومن خلال كوبا ــ في الصراع المسلح في منطقة أوجادين (٧) ·

وكما هي العادة في السلوك السياسي العربي فكما ظهر موضوع أمن البحر الأحمر بعنف وبالحاح على سطح الحياة السياسية العربية مع بدايات عام ١٩٧٧ حتى بدا وكأنه الاهتمام الرئيسي لعديد من البلدان العربية فقد انزوى مع نهاية العام مع ظهور قضايا واهتمامات جديدة لعل أبرزها زيارة الرئيس أنور السادات الى القدس وما تلاها من تطـــــورات وما أحدثته من آثار ·

٢ ــ الصراع الاستراتيجي في البحر الأحمر :

ينبغي التمييز بادىء ذي بدء بين الوجود العسكري لقوى أجنبية في المنطقة كالاتحاد السوفييتي والولايات المتحـــدة وفرنسا ، ودور وسياسات بعض القوى الاقليمية من تلك التي تطل على البحر مع التأكيد على وجود ترابط بين المستويين كما سوف يتضح من العرض ·

(أ) القوى الأجنبية :

تتمثل أهمية البحر الأحمر في موقعه كمعبر الى المحيط الهندي من ناحية ولأهمية المنطقة التي يمر فيها من ناحية أخرى • فالبحر الأحمر هو مدخل المحيط الهندي الذي يدور فيه التنافس الدولي بين القوى الكبرى على أشده (٨) وبالذات بعد بروز القوة البحرية مرة أخرى كأحد عناصر التوازن العسكري الرئيسية بعد أن كانت الصواريخ العابرة للقارات والطائرات قد قللت من أهميتها في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، وبعد بروز القوة البحرية السوفيتية حتى أن بعض المحللين الاستراتيجيين الغربيين يرون أن تطور البحرية السوفيتية ـ وبالذات نتيجة لأزمة كوبا في ١٩٦٢ ـ هي أهم تطورات الاستراتيجية العسكرية في العالم في الستينات •

في مارس ١٩٦٨ دخلت قطع الأسطول السوفييتي لأول مرة بشكل مكثف المحيط الهندي وكان ذلك حدثا له مغزاه شبهه بعض المعلقين الغربيين بصفقة الأسلحة السوفيتية لمصر عام ١٩٥٥ نظرا لأهمية الممرات البحرية عموما في الاستراتيجية السوفييتية ولأن هذا الوجود مهد الطريق لمحاولات السوفييت للتمركز عند مدخل البحر الأحمر ففي يوليو ١٩٧٤ وقعت معاهدة الصداقة والتعاون مع الصومال التي حصلت بموجبها على تسهيلات بحرية ، ثم حصلت على تسهيلات أخرى في ميناء عدن ، وتدعم هذا الوجود البحري في أعوام ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ بالوجود العسكري والسياسي الكوبي والسوفييتي في بعض البلدان الافريقية مثل أنجولا وموزمبيق وغينيا بيساو وأثيوبيا وكذا في اليمن الجنوبي والذي يمكن اعتباره بمثابة « التعويض » أو « الرد » السوفييتي على انتكاسة نفوذه في المنطقة العربية •

وهكذا فقد وطد الاتحاد السوفييتي أركان وجوده في الجزء الاستراتيجي الجنوبي للبحر الأحمر بعد أن أوجد ركيزة له أولا في الصومال وبعد خروجه منها في أثيوبيا • هذا بالاضافة الى تأثيره المتزايد على اليمن الجنوبي وبالذات بعد الأحداث السياسية التي أطاحت أولا بالرئيس قحطان الشعبي ثم بالرئيس سالم ربيع • فضلا عن وجود قوات كوبية ومستشارين عسكريين سوفييت في أثيوبيا واليمن الجنوبي والانتصارات التي حققتها في صراع القرن الافريقي وانسحاب الصومال من منطقة أوجادين •

أما الوجود الغربي في المنطقة فيتمثل أولا في النفوذ الأمريكي الذي تعرض لقدر من التقلص نتيجة اتجاه أثيوبيا ولجوئها الى المساعدة السوفييتية وعدم تجديدها للاتفاقية العسكرية التي انتهت في يناير ١٩٧٨ وبمقتضاها كان للولايات المتحدة قاعدتان في أسمرة ومصـــوع . ويتمركز الوجـــود العسكري الأمريكي في عدد من القواعد الموجودة في المحيط الهنـــدي مثل ديجوجارسيا وموريشيوس ومالديف . ويدعم النفوذ الأمريكي الأدوار التي تقوم بها عدة دول أخرى مثل فرنسا واسرائيل وعدد من الدول العربية المطلة على البحر .

أما فرنسا فقد ظلت تسيطر على عفر وعيسى بشكل مباشر حتى منتصف عام ١٩٧٧ عندما أعلن استقلال جمهورية جيبوتي ولكن لأهميتها الاستراتيجية من ناحية وللخلافات الكامنة بينها وبين كل من أثيوبيا والصومال فقد استمر الوجود العسكري الفرنسي فيها بعد الاستقلال .

(ب) القوى الاقليمية :

نستخدم تعبير القوى الاقليمية في هذا الصدد للاشارة الى الدول التي تقع جغرافيا في المنطقة ولعل أبرز البلاد التي تسعى الى فرض وجودها في البحر الأحمر بشكل واضح هي اسرائيل وبالذات بعد عام ١٩٧٣ وان كانت السياسة الاسرائيلية لها جذورها وأبعادها التي تمتد الى ما هو أبعد من ذلك بكثير . لقد كتب موشى ديان في مؤلفـــه بعنوان « مذكرات حمـــلة سيناء (٩) » أن واحدة من أهم قضايا الصراع بين اسرائيل ومصر هي حرية الملاحة الاسرائيلية في البحر الأحمر وكان يقصد بذلك كما واضح هو حرية استخدام كل من مضيق تيران وقناة السويس . وتتابعت عدة أحداث لتبرز الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر من المنظور الاسرائيلي : (١٠)

★ حادثة قيام لنش بحري مسلح في باب المندب تابع لاحـــدى منظمات المقاومة الفلسطينية بعملية قصف لسفينة تجارية اسرائيليـــة تدعى كورال ــ سي كانت ترفع العلم الليبيري . ووقتها اسرع حاييم بارليف رئيس الأركان بزيارة أثيوبيا وتعرضت الصحف الاسرائيلية للخطورة التي يمثلها باب المندب بالنسبة لاسرائيل .

★ . محاولة اسرائيل الوجود العسكري المباشر في بعض الجزر المتحكمة في مدخل البحر الجنوبي وتردد في هذا المجال وجود اسرائيل في ١٢ جزيرة منها جنش الكبرى والصغرى على بعد ١٣٦ كيلومترا من باب المندب ، وجزيرة زكر (أو زكور) على بعد ٣٢ كيلومترا من الشاطيء اليمني ، وجزيرة أبو عيل شمالي زكر بحوالي ٥ كيلومترات .

كما تردد أن الطيران الاسرائيلي يقوم بطلعات جوية منتظمة لمراقبة الأنشطة المختلفة التي تتم في المنطقة ومكنها من ذلك امتلاك طائرات فانتوم - ١٥ وهو ما أشار اليه اعلان اليمن الشمالي في ٢٦ نوفمبر ١٩٧٦ من قيام طائرتين معاديتين بالاستطلاع في باب المندب في يومي ١٨ و ٢٥ نوفمبر على التوالي .

★ وجاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣ واعلان مصر اغلاق باب المندب أمام السفن الاسرائيلية لتبرز بشكل أوضح من أي وقت مضى الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر في الصراع مع اسرائيل .

ان الأهداف الاسرائيلية في البحر الأحمر متعددة منها ضمان الملاحة التجارية لميناء ايلات ، وتوسع التجارة مع الدول الافريقية والآسيوية وبالذات شرق وجنوب أفريقيا واستراليا ، وتوفير احتياجاتها من البترول الخام .

ويشار في هذا الصدد العلاقات الاسرائيلية الاثيوبية والتي تحتل موقعا خاصا في سلم الأولويات الاسرائيلية حيث اعتبرت اثيوبيا رأس جسر لاسرائيل في أفريقيا وموطيء قدم لتثبيت وضع عسكري استراتيجي في مدخل البحر الأحمر ، ودعم من هذا الوضع - تاريخيا - عدة اعتبارات :

★ أن كلا من أثيوبيا واسرائيل يمثلان نوعا من « الهامش الاقليمي » في المنطقة على حدود الدول العربية .

★ ازدهار العلاقات الاقتصادية والعسكرية في عهد الامبراطور هيلاسلاسي والتي تمثلت في عديد من الشركات الاسرائيلية والمختلطة والتدريب وتزويد الخبرة الفنية .

★ وجود جالية يهودية في اثيوبيا « الفلاشا » وهي من أقدم الجاليات اليهودية في العالم وتعمل اسرائيل على مساعدتهم اقتصاديا ورفع مستواهم الاجتماعي .

★ استغلت اسرائيل دعم الدول العربية وتأييدها لاستقلال أرتريا لكسب ود أثيوبيا ٠

وان كان من الجدير بالذكر الاشارة الى عدم اتضاح صورة العلاقات الاثيوبية ـ الاسرائيلية الراهنة بعد قيام الحكم العسكري الراديكالي ووجهه السوفييتية فبينما تذكر المصادر الاثيوبية أية علاقة مع اسرائيل وتتخذ منها موقفا عدائيا ، أشار بعض المسئولين الاسرائيليين الى استمرار التعـاون العسكري الذي يتمثل في تزويد أثيوبيا ببعض الأسلحة الخفيفة والمعـدات اللازمة لحرب العصابات ضد الثورة الأرترية ٠

وأخيرا ينبغي الاشارة الى دور المملكة العربية السعودية التي تولي اهتماما كبيرا بمنطقة البحر الأحمر ـ فهي الدولة الوحيدة التي يمتد اقليمها من الخليج العربي الى البحر الأحمر ـ وتؤكد ضرورة التنسيق بين الدول المطلة على البحر منذ عام ١٩٧٢ ٠ ويدعم من دور السعودية ازدياد وزنها المالي ، وغياب أي أدوار عربية أخرى مؤثرة ، وتشجيع الولايات المتحدة لها باعتبارها أكثر القوى المعبرة عن مصالح لا تتعارض مع مصالحها في ظل نمو التيارات اليسارية في القرن الافريقي ٠ وتسعى السعودية الى القيام بدور رئيسي في تأمين البحر والملاحة فيه وتستعمل في ذلك صلاتها الوطيدة بكل من مصر والسودان والصومال واليمن الشمالي وهو مادفعها الى الدعوة الى عقد مؤتمر قمة للدول العربية السبع المطلة على البحر ٠

ولا تكتمل صورة الصراع الاستراتيجي في منطقة البحر الأحمر بدون عرض وملخص لقضايا الصراع الاقليمي التي تدور بين بعض دول المنطقة والتي توفر البيئة الموضوعية لتدخل القوى الخارجية وهي :

★ الثورة الأرترية وتتمثل قيمة اقليم أرتريا من الناحية الاستراتيجية في ان سواحله تمتد في مواجهة سواحل اليمنيتين امتدادا لسواحل مصر والسودان والصومال الى جنوب البحر الأحمر وهي بحـــكم تبعيتها لأثيوبيا تعتبر الساحل الوحيد غير العربي في جنوب البحر كما تعتبر المنفذ الوحيد لأثيوبيا على البحر ٠

★ الصراع الصومالي الاثيـــوبي في القرن الافريقي الذي يدور حول مناطق الحدود ويثير مشكلة مدى تمثيل الحدود السياسية التي ورثتها الدول الافريقية بعد الاستقلال للواقع الاجتماعي والبشري القائم

وكذا للحدود التاريخية في أفريقيا • وتبدو خطورة هذا الصراع فيما أدى اليه من صدام مسلح عام ١٩٧٧ بما ترتب عليه من تدخلات اقليمية ودولية • فقد أدى الصراع الى تدخل لقوات كوبية ومستشارين سوفييت الى جانب اثيوبيا ، كما أدى الى قيام عدد من دول المنطقة بتأييد الصومال (ايران ، والسعودية ، ومصر) أو أثيوبيا (اليمن الجنوبي) فاضاف بعدا جديدا للاستقطاب الناشيء في المنطقة •

★ الخلافات الكامنة حول الحدود في المنطقة مثل مطالب الصومال الاقليمية ازاء كل من كينيا وجيبوتي • كما أن جيبوتي تمثل أهمية خاصة بالنسبة لأثيوبيا • فنتيجة للثورة الأرترية وسيطرة الثوار على عدد من موانيها فان جزءا كبيرا من التجارة الاثيوبية يتم من خلال جيبوتي •

٤ ـ امن البحر الأحمر ـ المخاطر والتحديات :

لقد أدى الصراع الدولي الذي يستخدم في أغلب الأحيان أدوات اقليمية والوجود العسكري لعدد من الدول في البحر الأحمر والمصالح المختلفة التي تسعى الدول الخارجية والاقليمية الى تحقيقها الى بروز عدة اتجاهات سياسية :

- اتجاه المملكة العربية السعودية الى القيام بدور فعال في المنطقة يتفق مع تطلعاتها العامة للعب دور أكبر في المنطقة يتناسب مع ثرواتها المتزايدة ، وينبع من واقع الحرص على تأمين وانتاج ونقل بترولها وذلك بالدعوة الى تحييد المنطقة ووضع نظام لأمن البحر الأحمر على أساس جعله بحيرة عربية ، وتشجيعها السودان واليمن الشمالي والصومال للتحرك في هذا الطريق وتأييدها حركة تحرير أرتريا • وبصفة عامة فان هذا الاتجاه يهدف الى مواجهة النفوذ السوفييتي النامي في شرق أفريقيا •

- اتجاه اسرائيل لتثبيت مبدأ حرية الملاحة في البحر الأحمر وضمان عدم اغلاق مضيق باب المندب في وجه تجارتها وذلك من خـــلال العمل على افشال أية محاولة لتقريب وجهات النظر بين دوله للوصول الى صيغه بشأنه واعتبار ذلك جزءا من أية تسوية للصراع العربي الاسرائيلي (٩) .

- اتجاه اثيوبيا - بوحي من مصالحها وبتشجيع من الاتحاد السوفييتي - لأية ترتيبات جماعية عربية في البحر الأحمر ، وعـــدم تحمس اليمن الجنوبي لذلك مع التـــأكيد على ضرورة اشراك كافة الدول المطلة على البحر الأحمر في أية ترتيبات بما يعني مساهمة أثيوبيا • وجدير بالذكر أن أثيوبيا ترفض بالذات الوصف الذائع للبحر الأحمر بأنه بحيرة عربية ففي تعليق وزارة الخارجية الاثيوبية على مؤتمر الخرطوم في فبراير ١٩٧٧ ورد أن تصريحات الرؤساء الثـــلاثة عن أمن البحر الأحمر تنزع الى السيطرة والتدخل وأن وصف البحر الأحمر بأنه بحيرة عربية يثير القلق والدهشة لأن أثيوبيا تمارس سيادتها على جزء كبير من سواحله وأن « من انتدبوا أنفسهم لاتخاذ قرارات بشأن أمور تمس سيادة أثيوبيا البحرية على الجزر التي تخصـــها في البحر الأحمر فانهم يتدخـــلون في الشئون الداخلية لدولة أخرى »

ان هدف تحييد البحر الأحمر أو اعلانه منطقة سلام هو مسألة لا تتوقف على ارادة الأطراف المحلية بقـــدر ما ترتبط باستراتيجيات القوى الكبرى والتي رغم أهدافها ومصالحها فانها تتفق على الرغبة في الاستمرار في الوجود العسكري في المنطقة • وهكذا فان التحييد يدخل في باب النوايا الطيبة أكثر من اعتباره أحد البدائل السياسية المتاحة ، كما أن الحديث عن عروبة البحر الأحمر أو اعتباره بحيرة عربية قد يكون تعبيرا عن آمال أو تطلعات ولكن تعوزه الفرص والامكانات • ان السؤال الحقيقي الذي يجب أن يطرح هو كيف يمكن للدول العربية المطلة على البحر الأحمر تحقيق أقصى درجة من الأمن القومي لها على ضوء معطيات الصراع الدولي في المنطقة ؟ •

هل يمكن مثلا ان يتحقق نوع من التنسيق العسكري فيما بينها لتحقيق أهداف معينة ؟ •

هل يمكن اقامة قوات بحرية عربية مشتركة أو قيادة بحرية مشتركة في البحر الأحمر ؟ •

هل يمكن أن يزداد الوجود العسكري العربي في البحر الأحمر بشكل مؤثر وفعال وأن تطور الدول العربية أسلحتها البحرية ؟ ٠

هل تنجح البلاد العربية في اخراج المنطقـــة بقدر الامكان من دائرة الصراع بين الدولتين الأعظم ؟ ٠

ان تحقيق أي من هذه الأهداف أو بعضها يتطلب الاتفاق حول حد أدنى من مفهوم الأمن العربي في البحر الأحمر وتحــــديد الأساليب التي يمكن انتهاجها لحمايته ٠

ولعل أحد المسائل الهامة التي يمكن أن تثار في هذا الصدد هو تكريس الوجود البشري والاجتماعي والحضاري في الجزر العربية الموجودة في البحر الأحمر ٠ فبعض هذه الجزر غير مأهول بالســـكان ، وسكانها يعيشون في مستويات بدائية ومتدنية من النواحي الاجتماعية والاقتصادية ٠

نحن نعرف أن السيادة في عصرنا هذا ليست مسالة قانونيـــة وحسب ولكنها ممارسة وأمر واقع أيضا ٠ ومن ثم فان اقامة حياة عربية متكاملة من جوانبها الاقتصادية والعمرانية والثقافية والاجتماعية في هـــذه الجزر تصبح قضية استراتيجية هامة لابد أن تتضافر من أجل تحقيقهـــا الدول العربية ، وأول ما يجب توفيره في هذا المجال هو صورة دقيقة لما هو قائم في هذه الجزر فالمعلومات التي نعرفها كثيرا ماتكون مشوشة أو غير دقيقة ٠

لقـــد قيل كثيرا أن البحر الأحمر هو « بحر عربي » ٠ هذه حقيقة جغرافية تحولت الى واقع عسكري وأمني في حرب أكتـــوبر وبقي أن تصبح حقيقة استراتيجية تضعها كل الدول في اعتبارها عند تحديد أهدافها وخططها في هذه المنطقة في العالم ٠ وقتها يصبح البحر الأحمر لنا وليس علينا ومصدرا للأمن والسلم وليس مجالا للتهديد والصراع والتنافس بين الدول الكبرى ٠

الهوامش

١ ـ قليلة هي الدراسات التي عالجت مفهوم الأمن القومي من الناحية النظرية باللغة العربية • أنظر : د• حامد ربيع : نظرية السياسة الخارجية (القاهرة : د•ت) ، روبرت ماكنمارا : جوهر الأمن ترجمة يونس شاهين (القاهرة ، ١٩٧٠) •
انظر باللغة الانجليزية :

A. Wolfors, National Security as an Ambiguous Symbol, in D.S. Mclellan et al, The Theory and Practice of International Relations (New Jersey, 1960); Berkowitz, the Emerging Field of National Security, World Politics (1966); D. Schulman, What Does Security Mean Today, Foreign Affairs (1971) and W.W. Whitson ed., Foreign Pollcy and US National Security (New York, 1976).

٢ ـ حول مفهومي الأمن العربي والأمن المصري ، انظر امين هويدي : الأمن العربي في مواجهة الأمن الاسرائيلي (بيروت ، ١٩٧٥) واللواء عدلي حسن سعيد : الأمن القومي واستراتيجية تحقيقه (القاهرة ، ١٩٧٧) •

٣ ـ انظر بصفة عامة الملف الخاص عن البحر الاحمر في السياسة الدولية ، عدد ٥٤ (اكتوبر ١٩٧٨) ص ٦٦ ـ ١٠٧ وكذا

The Middle East, no. 30 (April 1977). pp. 17 - 26 and J. Campbell, The Red Sea and Suez in A. J. Cottrell and R.M. Burrell, eds., The indian Ocean its Politics, Economics and Military Importance (New York, 1972), pp. 129 - 151.

٤ ـ د• شوقي عطاالله الجمل : سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (القاهرة ، ١٩٧٤) وكذلك الوثائق التاريخية لسياســـة مصر في البحر الأحمر ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ (القاهرة : د•ت) •

٥ ـ القبس الكويتية في ١١ و ١٢ يناير ١٩٧٧ •

٦ ـ في هذه التطورات انظر النشرة الاعلامية الاسبوعية التي تصدرها هيئة الخبراء بوزارة الاعلام خلال الفترة يناير ـ يوليو ١٩٧٧ •

٧ ـ في تفاصيل الصراع في القرن الافريقي ومواقف الدول الكبرى تجاهه ، انظر ملف السياسة الدولية عدد ٥٤ (اكتوبر ١٩٧٨) ص ٨ ـ ٦٥ •

٨ ـ حول الصراع الدولي في المحيط الهندي انظر

R. Burt, Strategic Politics and the Indian Ocean, Pacific Affairs, vol. 47 (1974 - 1975), pp. 509 - 514; A. Ghebhart, Soviet and U S Interests in the Indian Ocean, Asian Survey, (1975), pp. 672 - 683 and World Armaments and Disarmament Book, Sipri Yearbook (London, 1977).

٩ ـ

M. Dayan, Diary of Sinai Campaign (London, 1967), p. 17.

١٠ ـ الدراسات عن اسرائيل والبحر الأحمر متعددة ، انظر على سبيل المثال :

M. Abir, Oil, Power and Politics : Conflict in Arabia, The Red Sea and the Gulf (London, 1971) and Red Sea Politics, Adelphi papers no. 93 (London, 1972) and R. Reppa, Israel and Iran : Bilateral Relations and effect on the Indian Ocean (New York, 1974).

موقف بريطانيا في البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى

شفيق

يحسن بالباحث قبل الخوض في دراسة موقف بريطانيا في البحر الأحمر في الحرب العالمية الأولى ، أن يلم المامة سريعة بالموقف الدولي عموما ، ليتسنى له ادراك الموقف الدولي في هـــذا البحر على وجه الخصوص ٠

للدكتور محمد محمود السروجي
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

الموقف الدولي قبل الحرب العالمية الأولى :

شاهدت السنوات الأولى من القرن الحالي تقارب بريطانيا وفرنسا بعد توقيع الاتفاق الودي بينهما في عام ١٩٠٤ ، ثم انضمام الروسيا اليهما في عام ١٩٠٧ بحيث تكون من الأطراف الثلاثة مايسمى بالوفاق الثلاثي • ومنذ ذلك الوقت أخذت الروسيا تبتعد عن ألمانيا التي ارتبطت بها منذ حلف القياصرة الثلاثة عام ١٨٧١ •

ومن الجانب الآخر نجد أن امبراطورية النمسا والمجر ظلت مرتبطة بتحالفها مع ألمانيا ، لا سيما بعد أن تكون الوفاق الثلاثي المشار اليه • وفي نفس الوقت ، أو قبل ذلك بقليل بدأ التقارب الألماني التركي عقب معاهدة برلين عام ١٨٧٨ ، تلك المعاهدة التي أنهت الحرب التركية الروسية ، والتي حققت سياسة بسمرك مستشار ألمانيا ازاء المسألة الشرقية ، والقائمة على استصلاح الدولة الاوربية الكبرى على حساب ممتلكات الدولة العثمانية •

واذا كانت ألمانيا قد عاملت مندوبي الدولة العثمانية في المؤتمر (مؤتمر برلين ١٨٧٨) باحتقار وامتهان شديدين ، وعملت ـ دون شك ـ على طرد الأتراك من أوربا ، والعمل على القضاء على دولتهم ، الا أن الأعوام التي ستعقب المؤتمر ستظهر تقاربا واضحا بين الدولتين التركية والألمانية ، اذ سيعتبر الأتراك العثمانيون أن ألمانيا ـ رغم قسوتها ـ كانت أكرم من غيرها من الدول ، فلم تقتطع لنفسها شيئا من الممتلكات العثمانية

داخل المؤتمر ، وكان بوسعها ـ لو أرادت ـ أن يكون لها نصيب الأسد في هذه الممتلكات (١) ٠

وبالفعل بدأت رؤوس الأموال الألمانية تتدفق على الدولة العثمانية في شكل مشروعات ، ومصارف ، وقروض ٠ وأهم تلك المشروعات ٠ مشروع سكة حديد برلين ـ بغداد ـ البصرة ، الذي أثار ثائرة البريطانيين ، ووقفوا له بالمرصاد ، لأنه سيقرب الخطر الألمـــــاني من الخليج ، مما يهدد المصالح البريطانية في هذه المنطقة وفي الهند تهديدا خطيرا ٠ كما عارضته الروسيا أيضـــــا ٠

ولم يقتصر التعاون بين الدولتين الألمانيـــــة والتركية على المجال الاقتصادي فحسب ، بل امتد الى النشاط العسكري ، حينما طالبت الحكومة التركية ألمانيا ايفاد أحد ضباطها الكبار للاشراف على تدريب الجيش التركي واعداده وتسليحه ٠

وفي الحقيقة أن الأسلوب الذي اتبعه بسمرك في سياسته الاوربية منذ السبعينات من القرن التاسع عشر ، القائم على الأحلاف الاوربيـــة الكبرى لفرض السلام على أوربا ـ لو صح هذا التعبير ـ لم يحقق كل ما كان يرجى منه ، « لأن الأسلوب كان أسلوب أحلاف متنافسة ، ولم يكن أسلوب عصبة عالمية شاملة ، كان ميزانا للقوى ، ولم يكن توافقا بين القوى ٠ فاذا قوي او نما تكتل ما ، أفزع وأنذر نموه الدول الأخرى التي لا تدور في فلكه ، فعمدت بطريقة آلية أو ميكانيكية الى تكوين تكتل مضـــــاد : فخلق تنافس الأحلاف سباق التسلح ، وانتهى التنافس في الكراهية والخوف بالمجموعتين المتعارضتين الى ميدان القتال » (٢) ٠

تبلور الموقف الأوربي قبيل الحرب العالمية الأولى في معسكرين اثنين : معسكر الحلفاء ويضم بريطانيا وفرنسا وروسيا ، ومعسكر الوسـط ويضم ألمانيا وامبراطورية النمسا والمجر وتركيا ، وذلك بعد أن عقدت الأخيرة معاهدة دفاع سرية مع ألمانيا في ٢ أغسطس ١٩١٤ ٠

كانت أكثر هذه الدول استعدادا للحرب ألمانيا ، وأقلها في ذلك الدولة العثمانية ، نظرا لما ألم بها من نكبات في السنوات الأخيرة ، فجزء من قواتها يحارب في اليمن لاستعادة سيطرة الدولة ، وللقضاء على الثورات والقلاقل ٠

ولم تتوقف تلك الحرب الا عندما هدد الايطاليـــون طرابلس الغرب في عام ١٩١١ ، حيث عقد الامام يحى صلح دعان (١٩١١) مع العثمانيين ، ليتيح لهم فرصة التفرغ للدفاع عن طرابلس ومحاربة الايطاليين ٠ ولكن هـــذا العمل لم يحل دون ضياع طرابلس وتنازل الدولة العثمانية عنها بمقتضى معاهدة أوشى ١٩١١ ٠

وفي نفس الوقت خاضت قوات الدولة العثمانية حربا فاشلة في البلقان ١٩١٢/١٩١٣ انتهت بخروجها من أوربا ٠ وكان هذا الضعف الذي بلغته الدولة حافزا قويا للحكومة الروسية على الاستمرار في انتهاج سياسة تمزيق أوصالها ٠ ومن ثم طلبت الحكومة التركية من ألمانيا ارسال أحد ضباطها الأكفاء لاعادة تنظيم الجيش التركي ، وقد لبت الحكومة الألمانية هذا الطلب فبعث ليمان فونساندرس Liman von Sanders. لتولي وظيفة مفتش عام الجيش التركي برتبة فيلد مارشال (مشير) (٣) ٠

حالة البحر الأحمر قبيل الحرب العالمية الأولى :

اذا نظرنا الى القوى صاحبة النفوذ في البحر الأحمر نجد أن بريطانيا تأتي على رأسها ، فهي بحكم احتلالها عدن منذ عام ١٨٣٩ ، ومصر منـــذ عام ١٨٨٢ أن توطدت أقدامها على منفذي البحر الأحمر من الشمال والجنوب ٠ كما أن انفرادها بحكم السودان في ظل اتفاقية الحكم الثنائي عام ١٨٩٩ ، وسيطرتها على زيلع وبربرة عام ١٨٨٤ قد مكنها كل ذلك من السيطرة على الساحل الغربي للبحر الأحمر تقريبا ، فيما عدا بقعة صغيرة جنوبي هذا الساحل تطل منها مستعمرة أريتريا الايطالية على هذا البحر ٠ ولم تكن ايطاليا بالقوة التي يخشى بأسها ، بل على العكس من ذلك كانت تعتمد في بقائها في هذا الجزء على رضاء بريطانيا وتأييدها ٠ بل ان بريطانيا شجعت ايطاليا على انشاء تلك المستعمرة لتنافس (٤) فرنسا في أوبوك وتاجورة (٥) التي عرفت فيما بعد باسم الصومال الفرنسي ، واعترفت بريطانيا بذلك رسميا في عام ١٨٨٨ ، بمقتضى اتفاقية تخطيط الحدود بينها وبين فرنسا في الصومال ٠ ولكن منذ عقد الاتفاق الودي لم تعد فرنسا خطرا على المصالح البريطانية في البحر الأحمر ٠

أما الساحل الشرقي لهذا البحر ، فقد كان خاضعا بنسب متفاوتة ـ فيما عدا الركن الجنوبي الغربي منه ـ حيث توجد عدن الخاضعة لبريطانيا . وبالقاء نظرة على القوى البحرية للدول الأربع بريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا ، والدولة العثمانية نجد أن الأولى أقواها جميعا ، ومن يمتلك القوة البحرية يمكنه السيطرة تماما على سواحل هذا البحر وعلى طرقه التجارية • وكانت بريطانيا يهمها في المقام الأول أن يظل هذا البحر مفتوحا أمامها لسببين جوهريين : الأول أن حياة بريطانيا قائمة على التجارة ، والسبب الثاني أنه الطريق الرئيسي المؤدي الى الهند والى ممتلكاتها في شرق وجنوبي شرق آسيا •

ولم تكن بريطانيا تخشى من قوة الدولة العثمانية في هذا البحر بقدر خشيتها من قوة خليفتها ألمانيا ـ لا سيما بعد التقارب الكبير التي تم بين ألمانيا والدولة العثمانية في السنوات القلائل التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى ـ التي قد تتخذ من ممتلكات الأتراك على ساحل البحر الأحمر مراكز تموين لأسطولها في طريقه الى المستعمرات الألمانية في شرق أفريقيا ، ونقط ارتكاز ووثوب على المصالح الانجليزية في البحر الأحمر •

حالة الجزيرة العربية قبيل قيام الحرب :

اذا نظرنا الى الخليج نجد أن العراق يطل عليه من الشمال ، وهو وان كان خارجا عن شبه الجزيرة العربية ، الا أن خضوعه للحكم العثماني يمكنه من تهديد المصالح البريطانية في الخليج ، كما أنه يقع على الطريق الآخر المؤدي الى الهند ، ولكن مما يقلل من خطورة موقع العراق عدم وجود قوات بحرية عثمانية بسواحله ، وارتباط الكويت بمعاهدة حماية مع بريطانيا في عام ١٨٩٩ • فالوجود البريطاني المسكري في الكويت يحد من التهديد التركي الموجود بالعراق •

و فيجبل شمر توجد امارة حائل تحت حكم آل الرشيد ، وتدين بالولاء للعثمانيين وترتبط بالعراق ، اذ كان آل الرشيد يتولون خفارة الحج

العراقي ، وكانوا يتقاضون عن ذلك راتبا من ولاية البصرة وبغداد (٦) ٠
وكان ابن الرشيد — في نفس الوقت — على علاقة عدائية بعبد العزيز آل سعود أمير نجد ، ويجد تشجيعا من قبل الدولة العثمانية على ذلك ، لما كان بين الدولة وأسلاف عبد العزيز من عداء وحروب ٠

وفي غرب الجزيرة العربية يوجد الشريف حسين بالحجاز ، وله من النفوذ الديني والسياسي أكثر مما لديه من قوة عسكرية ، وهو خاضع للدولة العثمانية التي تشك في اخلاصه وولائه لها ، وترى فيه نزوعا نحو الاستقلال وانتزاع الخلافة منها (٧) ٠

والى الجنوب من الحجاز يوجد الادريسي بمنطقة عسير ، وقد خاض حربا شاقة بالتعاون مع الامام يحى ضد الوجود العثماني في اليمن وعسير (٨) ٠ ولم تتوقف تلك الحرب الا بعقد الامام يحى صلح دعان مع الأتراك في عام ١٩١١ ٠ وبخروج الامام من الحرب تسوء العلاقات بينه وبين الادريسي الذي يواصل أعماله العدوانية ضد الأتراك مستعينا بمساعدة الايطاليين له (٩) ٠

ويلي الادريسي ناحية الجنوب الامام يحى الذي يعتصم بجبال اليمن مترقبا الفرصة للفوز باليمن خالصة له ٠ وكان صلحه مع الأتراك ذا فائدة كبيرة للدولة العثمانية ، اذ أتاح لها فرصة التفرغ لمواجهة الخطر الايطالي في طرابلس الغرب ، وفي مواجهة الحرب البلقانية ١٩١٢/١٩١٣ ٠ وقد دفع تورط العثمانيين في هذه الحروب الى توقيع اتفاق مع بريطانيا لتحديد منطقة نفوذهما في جنوب اليمن (١٠) في ٥ نوفمبر ١٩١٤ ، وبذلك تعترف الحكومة التركية لأول مرة بالنفوذ البريطاني في جنوب اليمن ٠

أما بخصوص سلطنة لحج فقد ارتبطت هي والنواحي التسع بمعاهدات واتفاقيات مع بريطانيا تعهدت فيها الأخيرة بحمايتها ضد أي عدوان يقع عليها ، لا سيما وأنها تجاور مستعمرة عدن وتمثل خط الدفاع الأول عنها ٠ وكذلك كان الشان بالنسبة لمشيخات الخليج ٠

وقد لخص حافظ وهبة الوضع في شبه الجزيرة العربية أجمل تلخيص حين قال « كان احتلال تركيا الفعلي موجودا فقط في العراق ، وسوريا ، وفلسطين ، ومكة ، والمدينة ، ومدن الحجاز الساحلية ، وشاطىء عسير ،

واليمن ، ولكن النفوذ الأجنبي القوي كان يتسرب الى هذه البلاد ، فلم يبق للحكومة كبير احترام في نفوس رعاياها ، أما الجزء الشرقي الجنوبي من بلاد العرب من الكويت الى عدن فلم يكن للأتراك سلطة يعتد بها ، بل كان النفوذ الانجليزي متغلبا ، ولو أنه لم يكن مباشرا الا في عدن » (١١) ٠

خطة الأتراك العسكرية في شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر خلال الحرب :

كانت خطة الدولة العثمانية العسكرية ازاء شبه الجزيرة العربية ، وخصوصا المناطق الساحلية المطلة على البحر الأحمر ترتكز على دعامتين أساسيتين : الدعامة الاولى الوجود العسكري لها في الحجاز وعسير واليمن ، والدعامة الثانية النفوذ الديني للسلطان العثماني خليفة المسلمين وحامي حمى الحرمين الشريفين ٠ وكل منهما يكمل الآخر فالضعف العسكري يعوضه ويدعمه النفوذ الديني ٠

وترتب على هذه الخطة أن سعت الدولة جاهدة الى ضم الحكام العرب الى جانبها باسم الدفاع عن الدين ، أو على الأقل الحيلولة دون انضمامهم الى جانب الانجليز ٠ ولكن حجتها في الجهاد كانت ضعيفة ، لأنها اختارت الوقوف الى جانب الألمان في الحرب لتحقيق أطماعهم الاستعمارية ، ولم يكن هذا يتفق مع مبدأ الجهاد ولا مع صالح الشعوب الاسلامية الخاضعة لحكم العثمانيين ٠

وقد حاولت الحكومة التركية استمالة علي بن أحمد العبدلي سلطان لحج الى جانبها ، ملوحة له بالدين تارة ، وبمنحه عدن بعد خروج البريطانيين منها تارة أخرى ، ولكنها لم توفق لارتباطه بمعاهدات حماية مع الانجليز ، خصوصا بعد أن تعهدوا له بعدم المساس بالدين الاسلامي ، وباحترام الحرمين الشريفين (١٢) ٠

كان من مخططات العثمانيين مهاجمة عدن وجزيرة بريم ، والاستيلاء عليهما لو أمكنهم ذلك ، في نفس الوقت الذي يهاجمون فيه قناة السويس من ناحية الشرق ٠ أي مهاجمة مدخلي البحر الأحمر في وقت واحد ٠

والحقيقة أن هذا التصور من قبل الأتراك كان بعيدا عن الصواب ، لأن الدولة العثمانية بقواتها المحدودة في شبه الجزيرة العربية ، والمحاصرة من قبل الاسطول الانجليزي لا تستطيع البتة زحزحة أقدام البريطانيين الحصينة في عدن عن طريق البر • أما عن طريق البحر فلا يمكن التفكير فيه البتة لعدم وجود أي أثر للاسطول التركي في البحر الأحمر •

أما عن الألمان حلفاء الأتراك فكانت خطتهم التي هدفوا اليها من وراء تحركات الدولة العثمانية في شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما على شواطئها الغربية ، أن تتخذ من تلك المناطق معبرا للوصول الى مستعمراتها في شرق (١٤) أفريقيا • ولكن تفوق القوة البحرية الانجليزية في البحر الأحمر قطع كل صلة تربط المانيا بمستعمراتها السالفة الذكر •

لم ينجح الأتراك في اجتذاب أحد من حكام العرب سوى ابن الرشيد • أما الامام يحى في اليمن فقد التزم بالحياد المشوب بالعطف على الأتراك ، وذلك لسببين : الأول وجود قوات عسكرية تركية في بلاده تبلغ ١٤ الف (١٥) رجل • والسبب الثاني أن موقفه كزعيم مسلم يدعوه الى عدم الانضمام الى عداء السلطان العثماني المسلم ، حتى لا تهتز صورته أمام أتباعه •

وحقيقة الأمر أن هذا الموقف قد أفاد الاثنين معا : السلطان العثماني والامام يحى ، فبالنسبة للأول أدى وقوف الامام على الحياد ، واطمئنان الدولة العثمانية اليه ، الى تفرغها لمهاجمة البريطانيين في الجنوب • هذا فضلا عن المعونات والقروض التي تلقاها العثمانيون من اليمن (١٦) •

أما بالنسبة للامام فان موقفه هذا لم يقيده بأحد من الطرفين المتحاربين ، وبذلك لا يتحمل نتيجة الهزيمة لأي منهما • وفي نفس الوقت يعطيه الفرصة الكافية لمراقبة تطور الأحداث ، واتخاذ مايراه في صالحه •

وعلى أي حال فكل ماكان يطمح فيه الأتراك في بداية الحرب هو شغل القوات الانجليزية في عدن بالهجمات المتكررة ، ظنا منهم أن هذا العمل سيرغم حكومة الهند التركية على توجيه قواتها ، المزمع ارسالها الى قناة السويس لصد حملة جمال باشا ، الى عدن لصد تلك الهجمات ، وفي ذلك بعض المساعدة لتلك (١٧) الحملة •

الاستراتيجية الانجليزية في شبه الجزيرة والبحر الأحمر :

لم يكن ميدان البحر الأحمر هو الميدان الرئيسي لبريطانيا في تلك الحرب ، فميدانها الأول الساحة الاوربية ، وفيها سيتقرر مصير الجانبين المتصارعين . كذلك فان هذا الميدان يخلو من قوة ألمانيا ، وهي القوة الرئيسية المعادية لبريطانيا ، فليس لألمانيا مستعمرات أو قوات برية أو بحرية على سواحل هذا البحر ، وحتى لو حاولت ألمانيا انزال قوات برية أو بحرية لن تستطيع ذلك لوجود الاسطول البريطاني القوي الذي لا يغفل عن محاصرة سواحل البحر الأحمر حصارا قويا . ولكن بحكم وجود قوات تركية متمركزة على سواحل هذا البحر وعلى مقربة من مستعمرة عدن ، فان بريطانيا اتخذت من الاجراءات مايكفل سلامة مواقعها ، هذا فضلا عن الدفاع عن أصدقائها وحلفائها المجاورين لها . وحتى لو انتصرت في هذا الميدان فلن يكون انتصارا حاسما يقرر مصير الحرب .

وكانت خطة بريطانيا الحربية التي وضعتها لمنطقة الشرق الأدنى ترمي الى تحقيق أمرين جوهريين : الأول « أن تحتل رأس الخليج العربي فتحمي منابع الزيت ، وتمنع العدو من تأسيس مراكز بحرية تهدد المواصلات البريطانية مع الهند ، والثاني أن تحتفظ بهذه المواصلات مفتوحة عن طريق قنال السويس والبحر الأحمر » (١٨) .

وعلى ضوء هذين الاعتبارين كان تحركها المرسوم في الخليج ، وفي شبه الجزيرة العربية ، وفي البحر الأحمر .

وكان هذان الاعتباران يمليان على بريطانيا الدخول في مفاوضات مع الحكام العرب مستغلة عداءهم للدولة العثمانية ، والخلافات القائمة بينهم ، لربطهم بسياستها ، حتى لا يكونوا جبهة متحدة ضدها . وقد أوضح تقرير جاكوب لحكومة الهند في ١٠ مارس ١٩١٦ الصعوبة الكبيرة التي تحول دون تحقيق اتحاد عربي مضاد للأتراك ، وذلك نظرا لأن « لكل رئيس عربي لعبته » (١٩) .

فمن ناحية الخليج كانت الأوضاع مستقرة بالنسبة لبريطانيا الى حد كبير ، فارتباطها بالكويت بمعاهدة حماية عام ١٨٩٩ ، وكذلك مشيخات الخليج ، ثم نجاحها في عام ١٩١٥ في كسب صداقة الملك عبدالعزيز بن‌سعود ، كل ذلك جعلها في مركز أفضل من وضع الأتراك العثمانيين في العراق ٠

أضف الى ذلك أن المعاهدة الانجليزية السعودية عام ١٩١٥ قد شلت حركة الأتراك داخل شبه الجزيرة العربية فلم تستطع الدولة العثمانية الاتصال بقواتها في اليمن عن طريق نجد ، لا سيما بعد اندلاع الثورة في الحجاز ، وبذلك اشتدت وطأة الحصار المفروض على القوات التركية بشبه الجزيرة (٢٠) ٠

ومن ناحية البحر الأحمر فقد تطلعت بريطانيا الى الشريف حسين الذي تظاهر بولائه للدولة العثمانية التي كانت تشك في اخلاصه ، ومن ثم فقد عينت وهيب بك واليا على الحجاز للقيام بمهمة التخلص منه (٢١) ٠ وكان البريطانيون يدركون مدى كراهية العرب للأتراك بصفة عامة والشريف حسين بصفة خاصة ، « وكثيرا مالعبت برءوسهم فكرة استخدام الشريف حسين » (٢٢) ٠

وجد المسئولون الانجليز في الشريف حسين بغيتهم ، وذلك لمحاربة الأتراك العثمانيين بنفس سلاحهم ٠ فاذا كان السلطان العثماني قد أعلن الجهاد ضد بريطانيا ، فان اعلان الشريف حسين — بما يتمتع به من مركز ديني كبير — الجهاد ضد الدولة العثمانية انما يبطل تأثير جهادها على مسلمي الامبراطورية البريطانية (٢٣) ٠

وقد تم لبريطانيا ماأرادت بعد اتفاقها مع الشريف حسين عام ١٩١٥ ، واعلان الجهاد في ١٠ يونيه ١٩١٦ ٠ وكان هذا الوقت مناسبا للانجليز ، وأدى لهم خدمة كبيرة (٢٤) ٠ وتعهد الشريف حسين باشعال نار الثورة في سوريا والحجاز وعسير واليمن في وقت واحد ٠ وأثيرت في ذلك الوقت فكرة قيام خلافة عربية في مكة المكرمة — كنوع من الحرب السياسية — ليجد فيها مسلمو الهند بديلا عن الخلافة العثمانية ٠ وكان لجاكوب (٢٥) رأي آخر في هذا الموضوع ، فهو يقرر بأن انتقال الخلافة من السلاطين العثمانيين الى أشراف مكة ليس الحل الأمثل ، اذ سيترتب على هذه العملية حركة احياء ديني

شبيهة بما أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من قبل ، ويخشى أن تقع الخلافة في قبضة من يستطيعون امدادها بالقوة والحيوية ٠ ونظرا لقرب الجزيرة العربية من الهند فان تأثير هذا الحدث سيكون خطيرا عليها ٠ ولذا فهو يفضل بقـــاء الخلافة العثمانية تحتضر ، حتى ولو كانت في ظل النفـــوذ الروسي ، على قيامها في شبه جزيرة العرب شعلة الاسلام (٢٦) ٠

ويجاور الشريف حسين من ناحية الجنوب الادريسي في منطقة عسير ، وهي منطقة هامة على ساحل البحر الأحمر وتجاور اليمن من ناحية الشمال ، وتركزت أنظار المسئولين البريطانيين عليه ، محاولين ضمه الى معسكرهم ، مستغلين عداءه للأتراك من ناحية وللامام يحى من ناحية أخرى ، ولوجود قوات تركية كبيرة العدد في اليمن يخشى بأسها ٠ فكســـب الادريسي لجانب الانجليز سيضع القوات التركية في اليمن بين فكي كماشة ، أي بين عسير وعدن ٠

كانت معاهدة الادريسي مع بريطانيا في ٣٠ ابريل ١٩١٥ هي أول معاهدة يعقدها البريطانيون مع أحد الزعماء العرب في الحرب ، وتنص على شن حرب ضد الأتراك ، والعمل على طردهم من اليمن ، وباستخدام الانجليز لجزر فرسان في الأعمال الحربية ، في مقابل تعهد بريطانيا بحماية الادريسي وبمساعدته ماديا وعسكريا ، والسماح لسفنه بحرية الملاحة في البحر الأحمر وبالاتجار مع ميناء عدن ٠ ولكنها حذرت الادريسي من اثارة الامام يحى في اليمن ، حتى لا يجد نفسه مضطرا للتحالف مع الأتراك ٠

استفاد الادريسي من تلك المعاهدة فائدة كبيرة ، فحصل على مايحتاج اليه من أسلحة وذخائر لدفع خطر الأتراك عن بلاده ، وفوق ذلك فقد تمتعت عسير بنوع من الرخاء نتيجة لفتح أبواب التجارة أمامها ، في نفس الوقت الذي كان يعاني فيه اليمن ضائقة اقتصادية أخذت بتلابيبه ، نتيجة الحصار الشديد والطويل على موانيه من قبل الاسطول البريطاني ٠

ورأى البريطانيون أن يكافئوا الادريسي نظير خدماته واخلاصه لهم ان يبرموا معاهدة معه في ٢٢ يناير ١٩١٧ يعترفون فيها باستيلاء الادريسي على جزر فرسان واعتبارها من ممتلـــكاته ٠ ويذكر جاكوب بأن الادريسي أنزل علمه من على تلك الجزر خشية انتقام الأتراك منه بعد انتهاء الحرب ، وفي نفس الوقت تحرج من رفع العلم الانجليزي عليها حتى لا يتهم ببيعها للانجليز ٠

وحقيقة الأمر أن البريطانيين لم يكونوا بحاجة الى رفع علمهم عليها لأن هذا يتعارض مع المعـــاهدة التي أبرموها مع الادريسي في ٣٠ أبريل ١٩١٥ ، اذ كانت تنص في أحد بنودها بعدم رغبة بريطانيا في التوسع في غرب شبه الجزيرة العربية ، فاذا ما أقدمت على رفع العلم ، فانها بذلك تكون قد أتت بما يتناقض مع نصوص تلك المعاهدة ٠

ويشكو المسئولون البريطانيون من قلة النشـــاط الحربي الذي يقوم به الادريسي في أحد تقاريرهم ، والمؤرخ في ١٠ مارس ١٩١٦ ، ويرجعون ذلك الى ترقب الادريسي لتحركات بريطانيا العسكرية في ميدان اليمن وفي غيره من الميادين ، وذلك للقيام بتحرك مدروس يحقق له مصالحه الشخصية (٢٧) ٠

العمليات الحربية في شبه الجزيرة العربية وفي البحر الأحمر :

كانت المعارك التي دارت في الجزء الجنوبي الغربي من شـبه الجزيرة العربية محدودة ، اذا ماقيست بحجم القوات الموجودة لدى الطرفين المتحاربين من ناحية ، وبمدة الحرب العالمية الأولى من ناحية أخرى ٠ ومرد هذا ــ كما سبق أن ذكرنا ــ هو أن ميدان البحر الأحمر كان ميدانا ثانويا من جهة ، ولضعف القيادة التركية وتكاسلها من جهة ثانية ٠

تحركت بريطانيا على الجبهتين الشمالية والجنوبية ــ أي جبهتي مصر واليمن ــ في وقت واحد ٠ فبالنسبة للجهة الشمالية قامت بريطانيا بتعزيز حاميتها في مصر ، وأعلنت الحماية عليها ، وفرضت الأحـــكام العرفية في البلاد ، وقامت بخلع الخديو عباس الثاني لنزعته التركية ، وضمت جزيرة قبرص التي تحمي مدخل القناة من الشمال ٠ وفي فبراير ١٩١٥ نجحت في صد هجوم جمال باشا على القناة من ناحية الشرق ، وبذلك تمكنت من ابعاد الخطر عن شمالي البحر الأحمر ٠

أما بالنسبة للميدان الجنوبي فقـــد عملت على تدعيم قواتها البرية

والبحرية في منطقة عدن وفي جزيرة بريم ، واشـــتركت مع الادريسي في الاستيلاء على ميناء اللحية في اليمن في يونيـــه ١٩١٥ ، ولكنها لم تستطع الاحتفاظ به . وكان رد الفعل المضاد من جانب الأتراك ضرب معســـكر « دير حسين » التابع للادريسي ونهبه والاستيلاء عليه (٢٨) .

ونظرا للحصار الشديد الذي فرض على القوات التركية في اليمن ، أن عاني الجيش والأهالي من جراء ذلك الشيء الكثير . ويذكر الواسعي في أحداث عام ١٣٣٣هـ (١٩١٤م) قوله « واشتدت الحرب العظمى ، وامتنعت القطارات والبواخر البحرية ، وأصاب الناس ضرر شديد بسبب ذلك » (٢٩) . ولم يكن أمام تلك القوات للخروج من تلك الحلقة المحكمة الا أن تندفع نحو الجنوب الى سلطنة لحج والنواحي التسع للاقامة فيها والتزود من خيراتها . وفي نفس الوقت الاقتراب من عدن وتهديدها والضغط على حاميتها . وتم لهم ذلك في يوليه ١٩١٥ . ولم تفلح محاولات بريطانيا لاخراجهم منها الى أن انتهت الحرب . وقد أدى سقوط لحج في أيدي العثمانيين ، ونجاحهم في الاحتفاظ بها ، الى تدهور هيبة البريطانيين لدى أصدقائهم وحلفائهم من زعماء العرب ، كما اعترف بذلك جاكوب في تقريره (٣٠) .

ويذكر العبدلي أن قائد القوات البريطانيـــة في عدن قد برر عجز القوات البريطانية عن استرداد لحج أو الحيلولة دون سقوطها في أول الأمر ، باتساع جبهة القتال ، وبأولويات جبهات القتال المختلفة ، وباعتقاده أن جبهة فرنسا هي التي ستقرر مصير الحرب ، وليست الجبهة العربية (٣١) .

واذا أمعنا النظر في هذا التبرير نجد أنه يشتمل على جانب كبير من الحقيقة ، زد على ذلك أن مايمكن أخذه دون سفك دماء ، من العبث أن يراق الدم من أجله ، خصوصا عندما أعلنت الثورة في الحجاز في منتصف عام ١٩١٦ وبدت بشائرها محققة لآمال الانجليز .

ولا نجد ــ بعد استيلاء الأتراك على لحج ــ معارك ذات قيمة تذكر ، اللهم الا بعض المناوشات المتبادلة بين الجانبين .

أما جبهة الحجاز ، فما أن قام الشريف حسين بالثورة في ١٠ يونيه/ ١٩١٦ ، معلنا الجهاد ضد الاتحاديين ، ومتهمـــا لهم بالخروج على الشريعة الاسلامية ، الا وسقطت مدن الحجاز ــ فيما عدا المدينة المنورة ــ في يد قوات الشريف حسين في أقل من ثلاثة شهور . ثم اندفعت شمالا الى العقبة ــ بعد

ان حطمت سكة حديد الحجاز ـ واستولت عليها في ٦ مايو ١٩١٧ ، حيث اصبحت مركز العمليات الحربية في شرق الأردن ۰ وأعقب ذلك استيلاء اللنبي بمساعدة العرب على مدينة القدس في ٩ ديسمبر ١٩١٧ ، وبلغ المد العربي العسكري مداه باحتلال دمشق في أول أكتوبر ١٩١٨ ۰

حدث هذا في شمال شبه الجزيرة العربية ، بينما نجد أن الجبهة الجنوبية في اليمن كانت هادئة ۰ ويبدو أن الأتراك والانجليز قد قنعـــا بما تحت أيديهما ، انتظارا لما تسفر عنه الحرب في الميدان الأوربي ۰ وأدى هذا الانتظار الذي استمر قرابة السنتين الأخيرتين من الحرب الى ايجاد نوع من التفاهم وتبادل المصالح في حدود ضيقة ۰

وعندما انهارت مقاومة دول الوسط في أوربا ، طالبت الدولة العثمانية بالهدنة ، وتم ذلك في هدنة موندروس (٣٠ أكتوبر ١٩١٨) ، وتنص على انسحاب القوات العسكرية والادارة المدنية من شبه الجزيرة العربية ۰

وخلاصة القول فقد أظهرت سياسة بريطانيا الحربية في البحر الأحمر مدى الترابط بين الجبهة العسكرية في مصر التي تقع على الباب الشمالي لهذا البحر ، والجبهة الجنوبية في عدن التي تتحكم في مدخله الجنوبي ، فعنـــدما هاجم الجنرال اللنبي الأتراك في فلسطين ، قام في نفس الوقت بضرب ميناء الحديدة ۰

وقد اتضح هذا الترابط أيضا في الخطة الحربية التركية أيضا ، فحينما هاجمت قواتهم مصر بقيادة جمال باشا في عام ١٩١٥ ، قامت قواتهم في نفس الوقت في اليمن بضرب مواقع الانجليز وحلفائهم في الجنوب ۰

كما استطاعت بريطانيا أن تدير عملياتها العسكرية بنجاح اعتمادا على بعض الحلفاء من العرب ، وعلى قوات برية قليلة العدد جيدة العدة ، وتفوق بحري حاسم ۰ وأثبتت تلك العمليات أن التفوق في البحر يتحكم الى حد كبير في سير المعارك في البر ۰

وأثبتت أيضا أن عدن رغم خضوعها من الناحيتين السياسية والعسكرية لحكومة بمباي في المقام الأول ، ولحكومة الهند في المقام الثاني ، الا أن سير القتال قد أثبت ارتباطها بالقيادة العســـكرية الانجليزية بمصر أكثر من ارتباطها بالهند ۰

ملحق بهذا المقال وثيقة يجدها القـارىء في القسم الانجليزي من هذا العدد ۰

مصـــادر البحث

أولا ــ المصادر العربية :

- أباظة ، فاروق (دكتور) : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ١٨٣٩ ــ ١٩١٨ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٦ ·
- انيس ، محمد (دكتور) : الــدولة العثمانيـــة والشرق العـــربي (١٥١٤ ــ ١٩١٤) ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ·
- جرانت ، أ· ج وتمبرلي ، هـ : أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٧٨٩ ــ ١٩٥٠ ، الجزء الثاني ، الادارة العامة للثقافة ، القاهرة ·
- الزركلي ، خير الدين : الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، دار العلم للملايين ــ بيروت ١٣٩١/هـ١٩٧١م ·
- السروجي ، محمــد محمود (دكتور) : تاريخ أوربا الدبـــلوماسي من السبعينات للقرن التاسع عشر الى الحرب العالمية الأولى ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ ·
- العبدلي ، أحمد فضل : هدية الزمن في أخبـــــار ملوك لحج وعدن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٥١هـ ·
- العقيلي ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ، جزءان ، الجزء الثـــاني ــ دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٣٨٠هـ ١٩٦١م ·
- الواسعي ، عبد الواسع بن يحى : تاريخ اليمن المســـمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٦هـ ·
- وهبه ، حافظ : جزيرة العرب في القرن العشرين ، المطبعة الثانيـــة ، مطبعة لجنة التاليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٦ ·

دوريـــات

- منسي ، صالح محمود (دكتور) : موقف أهل الشام من التبعية للحجاز ابان الحرب العالمية الأولى ـ مركز بحوث الشرق الأوســـط بجامعة عين شمس ، العدد الثاني سنة ١٩٧٥ .

ثانيا ـ الوثائق والمراجع الأجنبية :

- وثيقة لم تنشر بعث بها مارك سايكس من عدن الى حكومته ، يبين فيها الأوضاع في شبه الجزيرة العربية في عام ١٩١٥ . وقد أرفقت بالبحث كملحق له : انظر الوثيقـة في نهاية الوثائق والمراجع الاجنبية

المصـــادر

١ ـ محمد محمود السروجي : تاريخ أوربا الدبلوماسي ص ٩٥ .
٢ ـ جرانت وتمبرلي : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين ، جـ ، ص ٥٩ .
3. Gross Politik, vol. 38, PP. 283 - 305.
4. Langer, An Encyclopaedia of world History. P. 745.
5. Newsman, Britain & North - East Africa. P. 214.
٦ ـ الزركلي : الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ص ١٤ .
٧ ـ حافظ وهبه : جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٥٨ .
8. Hogarth, Arabia, P. 119.
٩ ـ فاروق اباظة : عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر ص ٥٤٧ .
10. Ingrams, H., The Yemen Imams, Rulers & Revolution, P. 62.
١١ ـ حافظه وهبه : المصدر السابق ص ١٧٠ .
١٢ ـ احمد فضل العبدلي : هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن ص ٢٠٧ .
13. Lenczowski, The Middle East in World Affairs, P. 61.
١٤ ـ فاروق اباظة : المصدر السابق ص ٦٤٦ .
15. Jacob, Kings of Arabia, P. 168.
١٦ ـ العبدلي : المصدر السابق ص ٢١١ .
١٧ ـ العبدلي : المصدر السابق ص ٢١٠ ، ٢١١ .
١٨ ـ حافظ وهبه : المصدر السابق ص ١٧١ .
١٩ ـ فاروق اباظة : المصدر السابق ص ٦٣٠ .
٢٠ ـ محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٢٧٧ .

٢١ ـ حافظ وهبه : المصدر السابق ص ١٥٨ .

٢٢ ـ جرانت وتيمرلي : اوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين جـ٢ ، ص ٣١٠ .

٢٣ ـ صالح محمود منسي : موقف أهل الشام من التبعية للحجاز ابان الحرب العالمية الاولى ـ مجلة الشرق الأوسط ، العدد الثاني ص ٧١ .

٢٤ ـ جرانت وتمبرلي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١١ .

٢٥ ـ جاكوب كان يشغل منصب المساعد الاول للمقيم السياسي البريطاني في عدن خلال فترة الحرب .

26. F. O. 371/1486 No. 16 Secret, Mark Sykes to F. O. Aden, July 23 rd 1916 P. 89.

٢٧ ـ فاروق اباظة : المصدر السابق ص ٦٣٠ .

٢٨ ـ محمد بن أحمد عيسى العقيلي : المخلاف السليماني او الجنوب العربي في التاريخ جـ ٢ ص ١٠٩ .

٢٩ ـ عبد الواسع بن يحي الواسعي : تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ص ٣٢٩ .

٣٠ ـ فاروق أباظة : المصدر السابق ص ٦٢٨ .

٣١ ـ العبدلي : المصدر السابق ص ٢٢٩ .

F. O. 371/2486 No. 16. Secret Mark Sukes to F. O., Aden, July 23 rd 1916 p. 89.

— Hogarth, D. G. Arabia, Clarendon Press, Oxford. 1922.

— Ingrams, H. The Yemen, Imams, Rulers and Revolutions London, Camelot Press, 1963.

— Jacob, Lieut, Colonel H. F., Kings of Arabia, London, Mills and Boon, 1923.

— Langer, W., An Encyclopaedia of World History.

— Lenczowski, G., The Middle East in the World Affairs, 3 rd. Cornell University Press, lthoca. N. Y. 1962.

— Newman, Britain & North East Africa.

أهمية البحر الأحمر كبحيرة سلام عربية

بقلم
محمد أبو الفتوح الخياط

البحر الأحمر هو قلب العالم العربي الاستراتيجي ـ يبدأ من قناة السويس وينتهي بباب المندب ، فان لكليهما أهمية خاصة جعلت من البحر الأحمر محلا للتنافس الدولي لا سيما في عصر اتسم بالمواجهة النووية بين القوتين الأعظم (الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي) •

وكان لزاما على دول المنطقة العربية أن تسارع بابعاد البحر الأحمر عن دائرة الصراع وجعله بحيرة سلام عربية فعقدت الدول المطلة على البحر الأحمر مؤتمر قمة في مدينة تعز بالجمهورية العربية اليمنية • الا انه لم يتحقق بعقد ذلك المؤتمر الهدف المنشود لتعود بالتالي الأطماع الدولية الى المنطقة ، وليصبح الصراع الدولي بل التواجد الدولي على مشارف هذه المنطقة •

ففي الحقيقة يعود تاريخ تلك الأطماع الى الثلث الأخـــير من القرن التاسع عشر عندما تسلطت بريطانيا على مصر وجزيرة قبرص ، بينما فرنسا على تونس ، الا أن موقف ايطاليا كان يمثل العقبة أمام هاتين الدولتين في تحقيق أطماعهما الى أن تمكنت بريطانيا من تسوية خلافاتهما عام ١٨٩١م · فاحتلت ايطاليا كسلا عام ١٨٩٤ ، وتركت لبريطانيا مصر والسودان لأنها تدرك تماما أن مفاتيح البحر الأحمر انما تكمن في البحر الأحمر ·

ومنذ هـــذا الوقت والدول المحيطة بالبحر الأحمر تعـــاني أطماعا وصراعات اشتدت بصورة واضحة بظهور التدخل الأمريكي في أسواق التجارة الشرقية في المحيط الهندي عامة والبحر الأحمر بصفة خاصة · فالأمريكيون يدركون تمـــاما أهمية البحر الأحمر وضرورة الاســـتفادة من موقعـــه الاستراتيجي · ومن هذا المنطلق ضاعفوا من نشاطهم التجـاري في المحيط الهندي والبحر الأحمر ، خصوصا الجزء الجنوبي منه ، وذلك على الرغم من صدور مبدأ مونرو ، فقد فسرت الولايات المتحدة هذا المبدأ عدة تفسيرات تهدف كلها مصالحها الخاصة ·

الا أن الانجليز وبفضل تسامح العثمانيين معهم نجحوا في دعم وجودهم جنوب البحر الأحمر (ميناء مخا اليمني) وغيره من الموانيء وتأكد وجـود الانجليز بصفة رسمية وواضحة عام ١٦١٨م ، حين ساعدوا الأئمة الزيديين بعد جلاء العثمانيين عنهم نهائيا عام ١٦٣٥م ، وكذلك بانشــــاء وكالات تجارية لهم في الموانيء اليمنية ·

وبدأت شركة الهند الشرقية البريطانية في دعم سياســـتها وتنشيط تجارتها مع الموانيء اليمنية ، وكان أبرز الاقتصاديين البريطانيين في هذا المجال الدكتور برنجل Pringle الذي كان يعمل في بومباي فأقام في مخا عام ١٨٠٠م حيث تمكن بالهدايا والعطايا أن يكتسب عطف امام صنعاء ، وأن يستصـــدر له ما أراد من الأوامر والتســـهيلات حتى تتمكن السفن الانجليزية من ممارسة نشاطها بسهولة ·

ومما ضاعف اهتمام الانجليز بالتجارة مع اليمن ظهـــور المنافسة الأمريكية وحصولها على كميات من البن بأسعار أفضل من أسعار شركة الهند الشرقية البريطانية ·

وفي عام ١٨٠٢ عينت الحكومة البريطانية السير هوم مندوبا لها في الجزيرة العربية ومنحته صلاحيات واسعة ، وتمكن بعد ذلك من اقناع السلطان أحمد بن عبد الكريم العبدلي سلطان لحج وعدن بعقد معاهدة للصداقة والتجارة في السادس من شهر سبتمبر ١٨٠٢ . وبمقتضاها أصبح ميناء عدن مفتوحا لاستقبال البضائع التي تحملها السفن الانجليزية نظير دفع ضرائب جمركية ٢٪ لمدة عشر سنوات . وفي الحق لقد كان للمعاهدة نصوص عديدة في التدخل البريطاني في شئون عدن والمدخل الجنوبي للبحر الأحمر .

فقد تتابع الدارسون والمحللون من الانجليز واقتنعوا بضرورة الوجود العسكري في البحر الأحمر ، وكانت شركة الهند الشرقية ووزارة الخارجية البريطانية تتابعان الأحداث وتوليان المنطقة اهتماماتهما .

ومن ناحية أخرى بدأت الحكومة الأمريكية تساند التجار الأمريكيين في جهودهم ومنافساتهم للتجار الانجليز . ثم عقدت أمريكا معاهدة مع سلطان مسقط وزنجبار عام ١٨٣٣ وبعد أربع سنوات احتلت بريطانيا عدن في ١٩ يناير ١٨٣٩ واتخذتها محطة لتزويد البواخر الانجليزية بالفحم على طريق المواصلات البريطانية البحرية بين بومباي والسويس ، هذا فضلا عن أن بريطانيا كانت ترمي الى اجتذاب تجارة البن اليمني من ميناء مخا والسيطرة عليه تماما .

واشتد التنافس بين التجار الأمريكيين والبريطانيين ، واهتم هؤلاء الأخيرون بعدن فازداد توافد المهاجرين اليها وتطورت المدينة بشكل ملحوظ نتيجة لانعاش حالتها التجارية ، بينما فشل العثمانيون (في تهامة) في محاولاتهم للسيطرة على مناطق انتاج البن لتحويل تصديره الى مخا والحديدة بدلا من عدن . وكان مرد هذا الفشل موقف قبائل الزيدية ازاء السيطرة العثمانية على بلادهم ، ونتيجة لذلك أصيبت مدينة مخا بالخمول والكساد ، وأفلح الانجليز في كسر احتكار الأمريكيين لتجارة البن اليمني .

وهكذا نلاحظ أن جنوب البحر الأحمر كان هدفا لمطامع استعمارية قادتها أمريكا وبريطانيا طمعا في استغلال ثرواته الاقتصادية وأهميته الاستراتيجية . فالجانب الاقتصادي يحتل الأهمية الثانية بعد الأهمية الاستراتيجية حيث تضم منطقة البحر الأحمر مختلف الثروات الاقتصادية .

الا أن عدم توفر الوسائل التكنولوجية لاستغلال امكاناته تجعل أغلب الدول المحيطة به تقف مكتوفة الأيدي أمام استغلال هذه الثروات • ولقد عبر عن هذه الحقيقة العالم العربي الدكتور فاروق الباز حينما قال : « ان منطقة البحر الأحمر هي الأكثر جاذبية لكاميرات الأقمار الصناعية » •

وقد يفرض ذلك علينا ضرورة وضع سياسة عربية حكيمة لاستغلال طاقاته الاقتصادية ، فلجنة البحر الأحمر والتي تتولى مهام استكشاف مكوناته من الثروات الدفينة يغلب عليها الطابع الروتيني • فقد استعانت هـــذه اللجنة بخبراء من فرنسا وأثمرت جهود العلماء الفرنسيين عن اكتشاف أكثر من عشرين منطقة عميقة في البحر الأحمر تغطيها رواســب معدنية عديدة وهامة من أهمها منطقة أطلنتيس ـ ٢ في مواجهة ميناء جدة بالمملكة العربية السعودية ، حيث قرر الخبراء وجود حوالي ٨٥٠ مليون طن من المواد المعدنية يبلغ سمك طبقتهــــا حوالي ١١ متـــرا وتنتشر على رقعـــة مســاحتها ٦٠ كيلومترا مربعا •

واذا كان هذا ما توصلت اليه فرق العمل الفرنســية فان المستقبل يبشر بالخير ، وهذا يفرض بدوره على الدول المحيطة به أن تنتبه جيدا الى هؤلاء الذين ينادون بحرية الملاحة فيه (كشعار يخفون من ورائه مطامعهم ، فيمكن للدول المحيطة أن تنشيء مؤسسة عربية للملاحة تشرف عليه وتنظم شئونه وتوفر له كل الدراسات التي تجعل منه بحيرة سلام ورخاء عربية •

ولا أنكر جهود مؤسسات الجامعة العربية التي قطعت شوطا كبيرا في هذا المجال الا أنني أود الا تكون هذه الجهــــود متمثلة فقط في لقاءات للمتخصصين ومؤتمرات تنتهي بقرارات وتوصيات بعيدة عن التنفيذ •

فالمرحلة الحالية تتطلب ضرورة أن نواجه الموقف بعمل عربي جماعي يؤكد حقيقة أن يكون البحر الأحمر بحيرة سلام ومصدر رخاء للعرب •

محمد ابو الفتوح الخيــاط

النشاط التجارى

فى البحر الأحمر

فى العصر العثمانى

١٥١٧ - ١٧٩٨م

للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

كلية الإنسانيات - جامعة قطر

تمهيـــــد :

منذ أقدم العصور والبحر الأحمر يعد شريانا حيويا للمواصلات ووسيلة للتبادل التجاري والحضاري بين البلدان المحيطة به من جانب ، وبينها وبين البلدان الاخرى من جانب آخر ٠

ومع اتساع نطاق التبادل التجـاري خارج النطـاق المحيط به وبخاصة بين الشرق والغرب ازدادت أهمية هذا البحر وتطلعت الدول التجارية للسيطرة عليه كطريق حيوي لنشاطها التجاري الذي أصبح يمثل عصب حياتها الاقتصادية فاهتمت في بادىء الأمر المدن الايطالية التي كانت تحتكر نقل المتاجر الشرقيـــة الى أوربا وأصبح للجاليات الايطالية وكائلها ومخازنها على سواحل هذا البحر وبخاصة في السويس والمدن المصرية الاخرى ونشطت الحركة التجـــارية في البحر الأحمر وموانيه وتبودلت السلع الهندية والمصرية واليمنية بين بلدان البحر الأحمر المختلفة وزاد من نشاط هذه الحركة التجـــارية أن التجار الاوربيين عملوا على نقل هذه التجارات الى بلادهم وترويجهـا نظرا لما أصبحت تدره عليهم من ربح وفير (١) ٠ ولكن منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر ـ أي قبيل دخول العثمانيين منطقة الشرق العربي ـ جدت على الموقف عوامل عالمية ومحلية أدت الى اصابة هذا النشاط بشيء من التدهور منها : ـ

أولا ـ نجاح البرتغاليين في اكتشاف طريق رأس الرجـــاء الصالح وتحويل النشاط التجاري الى هذا الطريق على يد قوى أوربية أخرى غير المدن الايطالية ومحاولة البرتغاليين محاصرة القـوى التجارية العربيـــة والقضاء عليها ٠

ثانيا ـ تعســف الأمراء المماليك ونوابهم في موانيء البحر الأحمر وبخاصة بعد وصول البرتغاليين الى المياه العربية فيذكر لنا ابن اياس في معرض حديثه عن موانيء السلطان الغوري أن نائبه في جدة والذي كان يدعى حسينا كان يأخذ العشر من تجار الهنـــد المثل عشرة أمثال فامتنع

التجار من دخول بندر جدة وآل أمره الى الخراب وعز وجود الشاشات من مصر والارز والاقطاع وأخرب البندر (٢) وترتب على ذلك بطبيعة الحال عدم وصول السلع التجارية الى الموانيء المصرية الاخرى التي كان التجار الاوربيون يأخذون منها هذه السلع وينقلونها الى أوربا مما أثر على أحوال مصر الاقتصادية فخرب كذلك بندر الاسكندرية وبندر دمياط فامتنعت تجار الفرنج من الدخول الى تلك البنادر من كثرة الظلم وعز وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج كما تعرض التجار لكثير من المظالم وكثرة الضرائب ومصادرة أموالهم ولم يفته من أعيان التجار أحد حتى صادره وأخذ أمواله ولاسيما ما جرى على الشيرازي والحليبي التاجر وغيره من أعيان التجار (٣) ولا شك أن ذلك كان نتيجة حتمية لما أصاب النشاط التجاري في البحر من تدهور نتيجة لتحول طريق التجارة العالمية جزئيا الى طريق رأس الرجاء الصالح ومحاصرة البرتغاليين للسواحل العربية ومداخل البحر الأحمر (٤) وان لم يقف المماليك مكتوفي الأيدي ازاء هذا الخطر البرتغالي وتهديده لاقتصاد دولتهم ولذا بدأ الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر والسيطرة عليه لأهميته الاقتصادية والاستراتيجية ٠

الصراع المملوكي البرتغالي حول البحر الأحمر :

بدأ هذا الصراع منذ وصول البرتغاليين الى البحـــار الشرقية حيث عمل كل طرف على الاستيلاء وأسر سفن تجار الطرف الآخر ٠ بل عمل كل فريق على العبث واتلاف وافســـاد ثروات الفريق الآخر ٠ وعادت هذه الأعمال العدائية من جانب الطرفين بالخسارة الشديدة على موانيء البحر الأحمر وبخاصة موانيء عدن ومخا وجدة حيث تذكر المصـــادر المعاصرة وكثرة الاشاعات بفساد الافرنج وتعبثهم على التجار وقد حاموا حول بندر جـــدة (٥) ٠

وقد قامت سياسة البرتغاليين في حقيقة الأمر منذ تلك الفترة على أساس القضاء على كل نفوذ تجاري للتجار العرب في البحار الشرقية ومن هنا كانت مطاردتهم للسفن العربية واغراقها والعمل على طرد العرب من المراكز التجارية الهندية والافريقية منذ وصول فاسكو داجاما الى هذه البحار

حيث قام أثناء رحلته الثانية سنة ١٥٠٢ بارسال حملة مكونة من خمس سفن حربية للاقامة الدائمة عند مدخل البحر الأحمر (٦) والعمـــل على مهاجمة السفن العربية ومنعها من مزاولة النشاط التجاري في مياه المحيط الهندي الا بتصريح من البرتغاليين وفعلا تمكن قائد هذه الحملة البرتغالية من القيام ببعض الأعمال العدائية ضد السفن التجارية العربية كما تمكن من أسر بعض البحارة العرب (٧) وقد ازدادت حدة الحصار البرتغالي شدة حينما وصل الى المياه الشرقية أليوكيرك سنة ١٥٠٦م الذي شدد من فرض الحصار البحري المفروض على البحار العربية ومداخلها ممـــا أضر ضررا فادحا باقتصاد كل من مصر واليمـ نوالبندقية (٨) التي كانت تسعى جادة في تلك الآونة على مقاومة الخطر البرتغالي عن طريق حث السلطان الغوري على النهوض لمقاومة العدو المشترك ورغم سوء الظروف الداخليـــة التي كانت تحيط بالسلطان الغوري فان خطته كانت قائمة آنذاك على تقوية نفوذه في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله ادراكا منه لأهمية البحر الاقتصادية والاستراتيجية بالنسبة لأملاكه في مصر والحجاز ولذا فانه أرسل في ٦ جماد آخر ٩١١هـ ـ ٤ نوفمبر ١٥٠٥م حملة بحرية تحت قيـــادة حسين الكردي من ميناء السويس ووجهتها الهند على أن تعمـــل في نفس الوقت على تحصين ميناء جدة استعدادا لمواجهة أي خطر برتغالي في المستقبل لمهاجمة الأماكن المقدسة ولذا فان الحملة زودت بالفنيين اللازمين للقيام بهذه التحصينات وقد أقام هؤلاء الفنيون فعلا بعض الاستحكامات في هذا الميناء ثم اتجهت الحملة الى موانيء اليمن الواقعة على البحر الأحمر مثل تمر بجيزان وجزيرة كمران ثم اتجهت الى مخا فعدن حيث ذكر الأمير الكردي قائد الحملة لحاكم عدن الطاهري أن الحملة تهدف الهند لمحاربة البرتغاليين فأمده حاكم عدن بما يشاء من طعام ومؤن ومع أن الحملة تمكنت حينما وصلت الى (ديو) من التحالف مع بعض الامارات الهندية واحراز انتصارات جزئية على القوى البرتغالية الا أن الهزيمة حلت بها في النهاية ولم تحقق الهـــدف المرجو منها (٩) ومنذ تلك الآونة وازداد أقتراب الخطر البرتغالي الى مداخل البحر الأحمر وخاصة بعد الحملة التي أرسلها السلطان اليمني عامر بن عبد الوهاب ٢٧ شوال ٩١٢هـ ـ ١١ مارس ١٥٠٧م لمحاربة البرتغاليين في الهند ولم تتمكن من اصابة هدفها كما أن الوضع السيء الذي كان يمر به السلطان عامر.لم يمكنه من معاودة ارسال حملة أخرى (١٠) فازدادت جرأة البرتغاليين على الاقتراب من السواحل العربية فتمكنت حملة برتغالية تحت قيادة البوكيرك من احتلال جزيرة (سقطرة) قريبا من مدخل البحر الأحمر هادفة اغلاق

هذا البحر أمام التجار العرب كما تمكن البوكيرك أثناء تواجـــده في المياه العربية من القيام ببعض الأعمال التخريبية في المنطقة المتـــدة من مدخل البحر الأحمر وحتى جزيرة (هرمز) وفي تلك الأثنـــاء حدث اتصال بين الحبشة والبرتغال بهدف ايجاد جبهة متحدة بين القوتين ضد المسلمين وبخاصة على المماليك في مصر واستطاع البوكيرك بناء على المعلومات التي توفرت لديه من الرسول الحبشي الذي أرسله الى ملك البرتغال من مهـــاجمة زيلع أثناء حملته على عدن والبحر الأحمر ١٥١٣م التي كان يهدف من ورائهـــا الى السيطرة على عدن وغلق المنافذ العربية البحرية لأنه أدرك أن القدر من التجارة الشرقية التي تصل الى أوروبا يتبع طريق البحر الأحمر ولأن عدن كانت تمثل أكبر مستودع تجاري في المنطقة ولذا فانه عمل كل جهده للسيطرة عليها من أجل تأمين طريق البرتغال الجديد أي طريق رأس الرجاء الصالح ، وفعلا تمكن من الاستيلاء عليها والقيام ببعض الأعمال التخريبية بها وأحرق كثيرا من السفن الراسية بمينائها ، كما وجه جهده بعد ذلك للاستيلاء على جزيرة كمران لأنها كانت تمثل محطة بحرية هامة بين جدة وعدن وتمكن منها في أوائل صفر ٩١٩هـ ـ أبريل ١٥١٣م (١١) ولكنه لم يستطع أن يصل الى جدة لقسوة الأحوال الطبيعية فاضطر الى العودة الى كمران مرة ثانية ، وقد هدد هذا النشاط البرتغالي العدائي بلدان البحر الأحمر ، اليمن ، الحجاز ، مصر • وكان البرتغاليون يهدفون من وراء غزو البحر الأحمر القضاء على النفوذ العربي البحري والتجاري • وتمكنوا طبقا لما تذكره المصادر من جمع قدر كبير من المعلومات عن هذا البحر وحركة التجارة به وعجزت كل من مصر واليمن عن صد هذا الخطر الذي هدد شريانها التجاري وأدى الى اضعاف اقتصاديات كل منهما (١٢) •

وكما حدث اتصال من أجل التنسيق بين القوى المسيحية في الحبشة والبرتغال ضد القوى الاسلامية فان فكرة التعاون بين القوى الاسلامية ظهرت في تلك الأثناء وتم الاتصال بين السلطان الغوري المملوكي وبين الســلطان بيازيز الثاني العثماني (١٤٨١ ـ ١٥١٢م) لمواجهـــة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر وفعلا ظهر البحارة العثمانيون في السويس واشتركوا في الحملة التي أرسلها السلطان الغوري الى جنوب البحر الأحمر تحت قيـــادة سلمان الريس الذي اشتهر باسم سلمان الرومي وكان هدف الحملة قفل البحر الأحمر أمام البرتغاليين واتخاذ عدن قاعدة لمواجهة هذا الخطر (١٣) وهي نفس الخطة التي اتبعها العثمانيون فيما بعد في هذا البحر ولكن لم يقدر لهـذا

التعاون الاسلامي أن يستمر فبدأ الصدام بين القوتين الاسلاميتين : المماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز والعثمانيين وانتهى الصدام بسقوط دولة المماليك وتولى زمام الامور في المنطقة للعثمانيين ووضع على عاتقهم مسئولية مواجهة الخطر البرتغالي في البحر الأحمر وحماية النشاط التجاري به والمحافظة عليه كبحيرة اسلامية ٠

العثمانيون والنشاط التجاري في البحر الأحمر :

منذ ٩٢٣هـ - ١٥١٧م أصبحت مسئولية حماية البحر الأحمر وسواحله تقع على عاتق العثمانيين وكان عليهم مراقبة الأطماع البرتغالية في هذا البحر ومداخله ولذا فان مرحلة جديدة من التنافس حول هذا البحر وممارسة النشاط التجاري فيه بدأت منذ ذلك الوقت وبذل العثمانيون جهدا كبيرا للحفاظ عليه كبحيرة اسلامية وتركيز النشاط التجاري على القوى الاسلامية وبخاصة على يد التجار العرب وان اتسمت خطواتهم الاولى كما هو واضح من استقراء الأحداث التاريخية بالضعف حيث أننا نجد أن الحملات البرتغالية استمرت وبشدة وضراوة على سواحل البحر الأحمر في أعوام ١٥٢٠ ، ١٥٣٣ بالتعاون مع الحبشة هادفة بالدرجة الاولى الى ضرب التجارة العربية وشل النشاط التجاري العربي عن طريق تطويق العالم العربي من الجنوب عن طريق ايجاد سياج مسيحي قوي بنشر المسيحية في مصوع ودهلك وزيلع وجميع جزر البحر الأحمر ٠ ومن أجل تحقيق هذه الأهداف استمات البرتغاليون في صراعهم للسيطرة على البحر الأحمر بعامة ومداخله الجنوبية بخاصة ففي سنة ١٥٢٥ تعرضت عدن لحصار برتغالي وضربت بالمدافع وفي فبراير سنة ١٥٣٠ تمكن (دي سلفيرا) من فرض معاهدة على عدن ٠ نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة للعدنيين بشرط عدم توجه سفنهم الى جدة كنوع من فرض الحصار على هذا الميناء الاسلامي الهام (١٤) ولكن هذه المعاهدة في الواقع لم توضع موضع التنفيذ لأن عدن أدركت أنه لابد من الصمود من أجل بقائها والمحافظة على استقلالها وخاصة وأنها فقدت كثيرا من مقوماتها نتيجة للحصار البحري الذي ضرب حولها (١٥) ٠

ومنذ ١٥٣٨ بدأ اهتمام العثمانيين بالبحر الأحمر وكمرحلة أولى في هذا الميدان بدأت محاولاتهم لاخضاع اليمن لنفوذهم تقديرا منهم لأهمية اليمن الاستراتيجية في صراعهم ضد البرتغاليين وبدأت جهودهم في ميدان البحر الأحمر فكانت حملة سليمان باشا الخادم سنة ١٥٣٨م الذي تمكن بعد عمليات حربية وبعد اتصالات جرت بينه وبين الامراء الحاكمين في جهات البحر الأحمر وبخاصة أمراء الساحل اليمني من الوصول الى عدن والاستيلاء على الميناء ثم غدر بحاكمها عامر بن داود وبعض أتباعه ممن أساء الى سمعته لدى القوى الاسلامية على السواحل العربية والهندية ومع أنه قد تمكن من الوصول الى (ديو) ومحاصرة قلعتها وتهديد القوة البرتغالية الا أنه لم يتمكنْ من تحقيق أهدافه فاضطر الى العودة الى المياه العربية فوصل الى ميناء الشحر اليمني واستولى على حضرموت ثم اتجه الى عدن وأبحر منها الى ميناء المخا حيث أنزل قواته الى البر استعدادا لاخضاع المماليك في زبيد للسيطرة العثمانية وتوكيد هذه السيطرة على سواحل البحر الأحمر والاشراف على النشاط التجاري فيه ولكن يبدو أن سوء تصرفه في عدن أساء اليه بشكل حاد مما جعله يفشل في هذا السبيل فعاد أدراجه الى مصر ٠ دون أن يحقق الأهداف الرئيسية التي كان يقصدها السلطان في حملته وأن نجح في الاستيلاء على عدن وحد بعض الشيء من الخطر البرتغالي (١٦) وفي سنة ١٥٥٧ تمكن العثمانيون من الاستيلاء على سواكن ومصوع وتم التحالف بينهم وبين ملك الحبشة فاسيليداس Fasilidas على أساس اغلاق الموانيء الحبشية في وجه البرتغاليين (١٧) والحقيقة أنه منذ سنة ١٥٥٤ يشعر الباحث في تاريخ الفترة أن أهمية اليمن لدى العثمانيين تحددت بالدفاع عن البحر الأحمر وممارسة النشاط التجاري فيه وفي موانيه خاصة وأن العثمانيين كانوا قد نجحوا في فرض تقليد جديد يقضي بمنع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز وهو التقليد الذي ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر (١٨) ومنذ أواخر القرن السادس عشر بدأت قوى دولية أخرى تدخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية في هذا البحر واقامة علاقات تجارية مع موانيه والاهتمام به كطريق تجاري عالمي ٠

فقد بدأ التطلع البريطاني اليه منذ تلك الفترة وبدأ خطواته العلمية منذ ١٦٠٩م فقد وصل الكابتن شاربي Alexander sharpey الى عدن بهدف اقامة علاقات تجارية مع الجزيرة العربية ورغم فشل مهمة بعثة شاربي

لموقف السلطات العثمانية في عدن منها . فان شركة الهند الشرقية أرسلت في العام التالي سير هنري ميدلتون Middleton على رأس بعثة تجارية الى البحر الأحمر فزار عدن ثم اتجه الى المخا الا أن هذه البعثة هوجمت في المخا من جانب بعض الأتراك وقتل بعض أفرادها وقوبلت هذه البعثة بالاستنكار من جانب السلطات الحاكمة في صنعاء التي أبدت دهشتها لجرأة المسيحيين ومحاولة اقترابهم من شبه الجزيرة العربية ومن المدن المقدسة (٢٠) .

وفي سنة ١٦١٢م جاءت الى المخا بعثة بريطانية أخرى بقيادة الكابتن ساريس John saris الذي استقبله حاكم المخا استقبالا حسنا وفي تلك الأثناء صدرت تعليمات باشا اليمن بالسماح للأجانب بالمتاجرة بحرية على الشاطىء اليمني ومع السفن الهندية وأنه مسموح لهم كذلك بشراء أي شيء يرغبون فيه من المخا (٢١) .

ومن الملاحظ أنه في نفس الفترة التي ازداد فيها النشاط البريطاني في البحر الأحمر ، دخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية في البحر الأحمر والتوغل فيه ومحاولة اقامة الوكالات التجارية ، الهولنديون ، ففي عام ١٩١٤ وصلت بعثة هولندية بقيادة (فان دي بروك) Vande Brock بقصد تجميع المعلومات حول طبيعة التجارة في موانىء البحر الأحمر وأبلغ (فان دي بروك) حاكم عدن بأن لديه تصريحا من الصدر الأعظم يعطيه حق المتاجرة في جميع أنحاء السلطنة العثمانية ومع أن حاكم عدن استقبله استقبالا حسنا الا أنه أشار عليه بأن يغادر الميناء لأن التجار المقيمين فيها اعتبروا وجوده هناك خطرا عليهم (٢٢) فاتجه صوب الشحر وأقام هناك وكالة هولندية وفي سنة ١٦١٦ وصل الى المخا واستقبله حاكمها استقبالا وديا ووافق على اقامة وكالة هولندية في المدينة كما تم الاتفاق على أن تكون ضرائب الجمارك بنسبة ٣٪٪ ولكن باشا صنعاء رفض الموافقة على اقامة وكالة تجارية هولندية بالمخا بحجة أن مثل هذه الموافقة لا تكون الا من السلطان نفسه مبديا تخوفه من توغل الهولنديين الى المدن المقدسة نفسها ولأن حصول الهولنديين على مثل هذا الحق يثير حفيظة غيرهم من التجار الفرس والهنود الذين كان يطلب منهم دفع نسبة قد تصل الى ١٦٪ (٢٣) ولذا فاننا نجد أن فان دي بروك بعد أن وضعت هذه العقبات أمام اقامته وكالة تجارية هولندية في المخا اضطر الى تركيز بعثته التجارية في الشحر وانسحب عائدا الى الهند . وهكذا نجد أن النشاط التجاري الهولندي اتخذ

من الشحر قاعدة له ولم يحاول الدخول في صراع أكثر من هذا حول التوغل في البحر الأحمر واقامة وكالات تجارية في موانيه ٠

أما الانجليز فقد استمروا في محاولاتهم حتى استطاعوا في سنة ١٦١٨ في الحصول على تصريح باقامة وكالة تجارية لهم في المخا فقد وصل الكابتن شـــلنج shilling الى المخا واستقبله حاكمها رجب أغا وأعلمه أنه يوجد تصريح من حاكم اليمن يسمح للانجليز بمقتضاه بالمتاجرة بحرية في في المخا وبتشييد وكالة لهم هناك وبتحديد ضرائب الاســـتيراد والتصدير بنسبة ٣٪ تدفع نقدا أو عينا (٢٤) وبذلك بدأ الانجليز يزاولون نشاطهم التجاري في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر بحرية تامة وصاروا هم القوة الاوربية الوحيدة التي لها حق المتاجرة حتى ميناء المخا ٠

ومنذ سنة ١٧٠٨ وفي غيبة النفوذ العثماني من اليمن وفي عهد الدولة القاسمية الزيدية بدأ التطلع الفرنسي الى المشاركة في النشاط التجاري في البحر الأحمر حيث وصلت بعثة فرنسية الى عدن بقيـــادة دي ميرفيل De Merveille ثم اتجهت الى المخا فوصلت اليها في ٣ يناير سنة ١٧٠٩م وتمكنت هذه البعثة من عقد اتفاقية تجارية مع حاكم المخا (الدولة) نيابة عن الامام المهدي حصلت بمقتضى هذه الاتفاقية على حق اقامة وكالة تجارية في المخا ، وأن تكون الضرائب الجمركية على البضائع المباعة بنسبة ٣٪ وأن يرفع العلم الفرنسي على الوكالة ، شريطة أن يعود التجار الفرنسيون الى سفنهم ليلا ٠ واستمر النشاط الفرنسي التجاري في سبيله فنجد سنة ١٧١١م بعثة فرنسية أخرى بقيادة دي لالاند De la lande تصل الى ميـــاه البحر الأحمر وفي تلك الفترة تزداد خشية السلطات العثمانية من النشاط الاوروبي التجاري في البحر الأحمر فتبدأ تحذر السلطات المحلية من خطورة هذا النشاط فترسل رسولا عثمانيا الى امام اليمن يحذره من خطر الاستمرار في المتاجرة مباشرة مع الاوروبيين ويطالبه بأن يقتصر تصدير البن اليمني على مصر ولكن امام اليمن لم يستجب لهذه الدعوة العثمـــانية التي كان فيها ولا شك اضرار باقتصاده وفرض عزلة دولية عليه ومن هنا كان رفضه لهذه الدعوة واستمر في علاقاته مع القوى الاوربية واستمرت العلاقات الفرنسية اليمنية تسير في طريقها الطبيعي حتى سنة ١٧٣٨ حينما حدثت أزمة بين حاكم المخا (الدولة) وبين الشركة الفرنسية التي أرسلت ســـفينة حربية ضربت الميناء ضربا مؤثرا تم على أثره توقيع معاهدة بين الشركة وبين حاكم

المخا (انقصت الضرائب الجمركيــــة بمقتضاها من ٣٪ الى ٢½٪) (٢٥) ولا شك أن النشاط التجاري الاوروبي كان له أقدامه الثابتة على سواحل البحر الأحمر الجنوبية في النصف الاول من القرن الثامن عشر عن طريق الوكالات التجارية المتناثرة في موانيء هذا البحر وبدأ يسعى الى الوصول الى أقصى الشمال وهذا ماسوف يحقق في النصف الثاني من القرن الثامن عشر كما سنرى ٠

وقد حاولت قوى أوروبية أخرى في النصف الثاني من القرن الثامن عشر أن تدخل حلبة الصراع حول المنافسة التجارية في البحر الأحمر واتخاذه طريقا تجاريا مثل الدنمرك التي أرســـل ملكها سنة ١٧٦٢ بعثة علميـــة برياسة نيبور Neibur بهدف دراسة الجزيرة العربيـــة بصفة عامة واليمن بصفة خاصة ووصلت الى المخا في ٥ اغسطس سنة ١٧٦٣ وسمح لها بمناقشة امام اليمن في صنعاء في كثير من الامور من بينها الامور التجارية ثم غادرت اليمن (٢٦) ٠

والواقع أن أثر هذه المنافسة التجارية قد انعكس على السوق المحلية والنشاط التجاري في بلدان حوض هذا البحر بصـــفة عامة ومصر بصفة خاصة فمثلا نجد أن شركة الهند الانجليزية بعد أن كان اهتمامها بالسوق المصرية قد قل نجد أنها عادت منذ أواخر القرن السابع عشر الى الاهتمام بهذه السوق بهدف تحدي فرنسا ومنافستها في التجارة الشرقية فعينت لها في سنة ١٦٩٧ قنصلا بالقاهرة ووكيلا بالاسكندرية وأصدر السلطان مصطفى الثاني خطا شريفا بأن يتمتع التجار ألانجليز بمصر بنفس الامتيازات التي يتمتع بها الفرنســيون وأهمها أن لا يدفعـــــوا أكثر من ٣٪ رسما على ما يستوردونه لمصر (٢٧) وكان التجار الانجليز في ذلك الوقت يصدرون من مصر مقادير لا بأس بها من العقاقير والعطور والجلود والتمر والسكر والسجاد والتبر وريش النعام والصمغ ويستوردون الزجاج والمعادن والأقمشة الصوفية من (الجوخ) خاصة (٢٨) والحقيقة التي يصل اليها الباحث أن الوقائع تظهر أنه رغم هذا النشاط الانجليزي في السوق المحليـــة المصرية كمركز لتصريف المنتجات الشرقية التي تصل اليها عن طريق البحر الأحمر فان التفوق بدا واضحا للتجار الفرنسيين الذين بلغ عددهم في القـــاهرة وحدها سنة ١٧٠٢م خمسين تاجرا فرنسيا كما كانت لهم منشآتهم التجارية بالاسكندرية ورشيد (٢٩) وان بدا واضحا أن الاهتمام الانجليزي بمصر

وبطريق البحر الأحمر التجاري قد ازداد بعد صلح باريس سـنة ١٧٦٣ والهدف واضـح وهو الربط بين مصر والامبراطورية البريطانية بالهند ومما شـجع على سلوك هذا السبيل أن السلطات العثمانية كانت قد وافقت في تلك الفترة على السماح للسفن الاوروبية أن تصل الى جدة نتيجة لمساعي شريف مكة الذي كانت الرسوم الجمركية التي يدفعها التجار تشكل قدرا كبيرا من دخله (٣٠) هذا من جانب ومن جانب آخر فان القـوى المحلية الحاكمة في بلدان حوض البحر الأحمر سواء الأشراف في مكة أو المماليك في مصر أو الأئمة في اليمن بدأت تعمل على تشجيع الحركة التجارية في البحر الأحمر وموانيه الواقعة في حوزتها بقصد الاستفادة من الرسوم الجمركية التي تجبى على التاجر في جمارك هذه الموانيء وقد بدأ تشجيع هذا النشاط على أشده في مصر منذ عهد علي بك الكبير ثم محمد بك أبو الذهب الذي عقد اتفاقية مع الانجليز عن طريق الرحالة الاسكتلندي بروس (لتشـجيع حركة التجارة بين مصر والهند وتحديد الرسوم الجمركيـة التي تدفع في الموانيء المصرية) (٣١) وحاولت السلطات العثمانية أن تحد من نشاط السلطات المحلية في هذا الميدان وأن تقف في وجه النشاط التجاري في هذا البحر ولكن دون جدوى فمع أن السلطان العثماني أصر على عدم ابحـار السفن الاوروبية شمال جدة وذكر السلطات الحاكمة في مصر ٠ بما فعـله الانجليز في الهند حيث أتوا اليها كتجار ثم تحولوا الى مستعمرين وحكام (٣٢) الا أن هذه التحذيرات العثمانية لم تستطع أن توقف هذا النشاط الدولي حول ممارسة حرية التجارة في البحر الأحمر ٠ فقد تمكنت عدة سفن انجليزية من الوصول الى الموانيء المصرية مثل السويس ــ القصير ــ الطور في الفترة من ١٧٧٥ ــ ١٧٧٩ ٠ كما شهدت هذه الفترة نشاطا فرنسيا مماثلا فقـد تمكن الفرنسيون من عقد اتفاقية مع مراد بك سنة ١٧٨٥ عين بمقتضاها جورج بلدوين قنصلا فرنسيا في مصر (٣٣) ٠ وذلك بهدف احياء طريق البحر الأحمر التجاري وتنشيط التجارة فيه وقد اتفق على تشجيع وصول السفن الفرنسية والمتاجر الفرنسية الى السـويس كما اتفق على تحديد الرسوم الجمركية وحماية الفرنسيين في الأراضي المصرية ٠

تجارة البحر الأحمر والنشاط التجاري في السوق المحلية المصرية :

واذا ما انتقلنا الى الحديث عن النشاط التجاري في الأسواق المحلية المصرية وارتباط هذا النشاط بالحركة التجـــارية في البحر الأحمر فان الوثائق المتوفرة تثبت أن العمل التجاري في السوق المحلية قد نشط وبدرجة كبيرة خلال العصر العثماني وانتشرت الوكالات التجارية المتخصصة بالمتاجرة في بعض السلع المســـتوردة عن طريق موانيء البحر الأحمر في كل أحياء القاهرة (٣٤) وأصبحت مصر مركزا لتصريف السلع التي ترد من الهنـد والشرق الأقصى واليمن والصومال الى بلدان المغرب العربي وبلاد الشام وبعض البلدان الاوروبية وترتب على هذا النشاط كثير من التغيرات التي أصابت المجتمع المصري في القرن الثامن عشر وبخاصة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي حيث أن فئة التجار خلال هذا القرن كونت فئة متميزة لهـــا نشاطها الاقتصادي الواسع كما اكتسبت مكانة اجتماعية متميزة كذلك جعلتها في مقدمة الفئات الاجتماعية التي كانت تشكل المجتمع المصري ٠

وأصبحت الأسر التجارية في مصر في القرن الثامن عشر عبـــارة عن شركات تجارية كبيرة تقوم بعمليات الاستيراد والتصدير والتوزيع في نفس الوقت وكان بعض هذه الأسر يسيطر على معظم الوكالات التجارية التي كانت قائمة في القاهرة في ذلك الوقت وكان لهذه الأسر وكلاء تجاريون في جميع موانيء البحر الأحمر التي كانت تصل اليها السلع التجارية فتذكر الوثائق أن السيد محمد خليل عمل وكيلا للحاج علي حماد الفيومي ببندر جدة وكان يقوم بارسال طرود البن اليه ويصرف أموره التجارية بهذا الثغر نيابة عنه واستمر يقوم بهذا العمل لابنه اسماعيل جلبي من بعده ويبدو أن نشاط هذه الأسرة التجاري كان كبيرا (٣٦) فنعثر على وكلاء آخرين لها ببندر جدة مثل السيد محمد نصر وابنه السيد عبد الرحمن بن السيد محمد نصر اللذين عملا وكلاء لهذه الأسرة ببندر جدة كذلك ، وقد كانت هذه الأسرة تتاجر بالدرجة الاولى في البن اليماني (٣٧) كذلك تذكر الوثائق أن الحاج عنبر عمل وكيلا للخواجا عبد العزيز الشهير بابن أبي بلعة المغربي (٣٨) هــذه أمثلة للوكلاء التجاريين للتجار المصريين في مواني البحر الأحمر ومن الملاحظ أن نظام الوكلاء التجاريين استمر حتى بعد أن تمكنت الســـفن التجارية الأجنبية أن تصل الى السويس وغيرها من الموانيء المصرية منذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر ٠

ومن الجدير بالملاحظة أن الأسر التجارية الكبيرة والتي مارست نشاطا تجاريا واسعا في البحر الأحمر خلال العصر العثماني تعود في أصولها اما الى أصول مغربية أو شامية ٠ وفي بعض الأحيان تكونت شركات تجارية بين بعض التجار من أصول متباينة مما يدل على أن السوق المحلية المصرية نظرا لقربها من البحر الأحمر جذبت كثيرا من أبناء البلدان العربية وبخاصة من بلدان المغرب العربي وبلاد الشام لممارسة نشاطهم التجاري فيه ٠

والحديث عن التجار المغـاربة ودورهم في تاريخ مصر الاقتصادي في العصر العثماني حديث ممتع وهام وسوف نتناوله في دراسة مفصلة في وقت لاحق ويكفي هنا أن نشير أن بعض التجار المغاربة أصبحوا شيوخا لطوائف التجار في بعض أحياء القاهرة مثل الخواجا الحاج أحمد المغربي الذي أصبح شيخ التجار بخط الغورية (٣٩) أكبر أحياء القاهرة التجارية في ذلك الوقت وكذلك السيد الحاج عبد السلام المغربي الذي كان من أعيان التجار بسوق الجملون والخواجا الحاج محمد الكهن الذي صار من أعيان التجار بوكالة الماوردي (٤٠) كما كان من بين التجـار المغاربة المشـهورين الخواجات الحاج أحمد ابن المرحوم الحاج سعيد المغربي الشـهير بالجملي ، والحاج أحمد حدق (٤٢) والحاج محمد المغربي الفاس (٤٣) ويكفي أن نذكر أن أسرة الدادة الشرايبي التي أصبحت تمثل أكبر البيوت المالية والتجارية بمصر في القرن الثامن عشر كانت أسرة مغربية الأصل (٤٤) ٠

أما التجار الشوام الذين برزوا على مسرح السوق التجارية في مصر وشاركوا في الاشتغال بالسلع التي كانت ترد عن طريق البحر الأحمر فان دورهم لا يقل أهمية عن غيرهم من التجار فقد استطاع بعضـهم أن يكون شركات تجارية خاصة بالمتاجرة في هذه السلع كما قام بعض الشوام بدور الموردين لبعض السلع التي تأتي عن طريق البحر الأحمر مثل الذمي نقولا النصراني الحمصي الشامي الذي كان يقوم باستيراد المرجان وتوزيعه على التجار المشتغلين بالمتاجرة في هذه السلعة بوكالة المرجان بالقاهرة وكان لهؤلاء التجار وكلاء تجاريون يعملون باسمهم في مواني البحر الأحمر في جدة ومخا والسويس كما كان لهم وكلاء ببلاد الشام لتصريف تجاراتهم بهـذه البـلاد (٤٥) ٠

وبذلك أصبحت السوق المصرية سوقا مركزية لتصريف السلع التجارية التي ترد الى مصر عن طريق البحر الأحمر وبخاصة البن اليمني والأقمشة الهندية وكذا الارز الهندي والمرجان والعاج وغيره من السلع الصومالية ٠

ومما يثبت ازدهار هذا النشاط واتساع سوقه وأنه لم يعـــد نشاطا محليا انتشار الوكالات التجارية المتخصصة وممارسة نشاطها على نطاق واسع ومع بلدان المنطقة المجاورة وبعض البلدان الاوربية حتى أنه يمكن القول أنه منذ بداية القرن الثامن عشر أصبحت البيوت التجارية في مصر تشكل بداية الرأسمالية التجارية في مصر ان صح هذا التعبير فمن طريق تتبع تركات بعض هؤلاء التجار وحصر هذه التركات يبرز حجم الثروات الضخمة التي كونوها من وراء اشتغالهم بالعمل التجــــاري كما يتضح أن هؤلاء التجار أصبحوا يمولون الصناعات المحلية وينتجونها لحسابهم الخاص واستغلال هذه المنتجات المحلية في التبادل التجاري في داخل البلاد وخارجها كما تمكنت من استثمار رأسمالها في كثير من المجــالات وخاصة ميـــدان التزام الأراضي الزراعية (٤٦) ٠

وخير دليل على ازدهار النشاط التجاري الذي شهدته مصر خلال العصر العثماني عن طريق البحر الأحمر الدخل الذي كانت تدره الجمارك المصرية من موانيها الواقعة على هذا البحر كما ترصده سجلات الجمارك في ذلك العصر فقد بلغ هذا الدخل في بعض السنوات (٥٥٤ كيسة) ، (٣٩٦٥) بارة (٤٧) وكان جمرك البهار بالسويس ذا أهمية كبيرة ويشكل دخـــلا كبيرا لمن يلتزمه (٤٨) بل أن العمل بالسمسرة بوكالة البهار بالسويس وهي الوكالة التي توضع فيها البضائع الواردة حتى تتم اجراءات الجمرك (٤٩) أصبحت تمثل دخلا هاما من مصادر دخل الباشا في العصر العثماني حيث أن عوائده التي تأتيه من الجمارك كانت تشكل موردا ضخما بالنسبة له ، ويهمنا هنا ما كان يصله من جمارك البحر الأحمر وبخاصة السويس والقصير فقد كان للباشا على كل فرق ين (٤٠٠) نصف فضة وقد وصل ايراده من جمرك السويس في عام ١٢٠٠هـ ـ ١٧٨٥م (٦٫٧٥٠٫٠٠٠ بارة سنويا) وعندما تمكن مراد بك وابراهيم بك من السيطرة على أمور الادارة بمصر تحكما في جمرك السويس ودفعا للباشا في مقابل ذلك مبلغا في نهاية القرن الثامن عشر حوالي (٧٫٥٠٠٫٠٠٠) بارة سنويا بعد أن كانت في بداية القرن تبلغ حوالي (١٢) مليـــون بارة (٥٠) وهذا العجز في دخل الباشا من الجمارك المصرية لا يعود الى ضعف الحركة التجارية بقدر مايعود في المقام الأول الى سيطرة الامراء المماليك على السلطة ، واستهانتهم بالباشوات العثمانيين هذا بالاضافة الى الصراعات السياسية التي شـــهدتها مصر في الربع الأخير من القرن الثامن عشر ٠

ومما سبق يمكن استخلاص الحقائق التالية :

أولا : أن النشاط التجاري في موانيء البحر الأحمر خـــلال العصر العثماني طبقا لما تذكره المصادر المحلية المعاصرة ووثائق المحكمة الشرعية وسجلات الجمارك لم يصب بالركود التام كما كان يعتقد البعض وذلك عن طريق ما تثبته هذه المصادر من مواد تتعلق بهذا النشـــاط مما يثبت أن الحركة التجارية ظلت مستمرة في هذا البحر وموانيه سواء منها الواقعة على ساحل شبه الجزيرة العربية أو الواقعة على الساحل الافريقي ومصر وكانت السفن التجارية الاجنبية تؤم الموانيء المسموح لها بأن تصـــل اليها حتى استطاعت في نهاية القرن الثامن عشر أن تصل الى جميع هذه الموانيء وازداد التنافس الاوروبي حول اقامة الوكالات والانفراد بالنفوذ فيها وأصبح انشاء الوكالات التجارية في موانيء البحر الأحمر هدفا رئيسيا بين هـــذه القوى المتنافسة . ومن أجل هذا الهدف عقدت هذه القوى الاوروبية المعاهدات مع السلطات الحاكمة في مصر وغيرها من البلدان التي تطل على هـــذا البحر محددة الرسوم الجمركية التي تدفعها لهذه السلطات التي تقع هذه الموانيء ضمن أملاكها .

ثانيا : كان من نتيجة هذا النشاط التجاري في البحر الأحمر أن شهدت مصر منذ مطلع القرن الثامن عشر تكوين فئة التجار المحليين الذين مارسوا نشاطهم على نطاق واسع وكونوا في بعض الأحيان فيما بينهم شركات تجارية مساهمة (٥١) واتخذوا من السوق المصرية مركزا لنشاطهم الذي امتد الى بلدان المغرب العربي وبلاد الشام كما قاموا بدور الموردين لبعض التجار الاوروبيين وقد كان لهؤلاء التجار كما رأينـــا وكلاء تجاريون في موانيء البحر الأحمر يقومون بعقد الصفقات التجارية نيابة عنهم (٥٢) وقد مارس هؤلاء التجار بحق دور المورد والمصدر في ذات الوقت كما رأينا فيما سبق .

ثالثا : ترتب كذلك على هذا النشاط التجاري ازدهـــار الرأسمالية التجارية المصرية التي أخذت تستثمر جزءا من رأسمالها في مجالات أخرى غير التجارة ، مثل تمويل الصـــناعات لحسابها والتزام الأراضي الزراعية ورهنها (٥٣) وبناء العقارات وتأجيرها وبخاصة في الأحياء التي يتركز فيها نشاطها الى جانب انشائها القصور الخاصة في الأحياء التي اشتهرت بسكن الطبقة الارستقراطية الحاكمة مثل أحياء بركة الأزبكية وبركة الفيل وقناطر السباع (٥٤) أي وجود فئة اجتماعية جديدة داخل المجتمع المصري .

المصـــادر

١ ـ دكتور فاروق عثمان اباظة ، عدن والسياسة البريطانيـــة في البحر الأحمر ١٨٣٩ ـ ١٩١٨م ـ ص ص ١٨ ـ ١٩ • حيث يذكر أن تجارة الشرق ظلت حتى القرن التاسع عشر تفي بحاجات الطبقة الراقية في أوربا مما جعلها تحتفظ بقيمتها العالية ويذكر كذلك أن ما كان يصل الى أوربا كان يحقق ربحا لا باس به للتجار في أوربا مما جعلهم يحرصون على دوام الاتصال مع بلدان الشرق مصدر هذه التجارة الرائجة والمربحة في نفس الوقت انظر كذلك :

Fisher, Sydney Nettleton, The Middie East Ahistory, P 144

حيث يذكر ان تجارة البحر الاحمر خلقت طبقة من التجار الاثرياء حيث وجد حوالي مائتين من التجار الذين زاد راس مال كل منهم عن مليـــون ودتة واكثر من الفين تاجر زاد راس مال كل منهم عن مائة الف دوتة •

٢ ـ محمد بن احمد بن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، جـ ٥ ، ص ٩٠ •

٣ ـ نفس المصدر ، ص ٩٠ •

٤ ـ Fisher, Sydney : Op. cit P. 144.

٥ ـ محمد بن احمد بن اياس ، المصدر السابق جـ ٥ ، ص ٣١٦ •

وانظر كذلك Fisher, Op. cit P. 144.

٦ ـ Fisher, Sydney : Op. cit P. 144.

٧ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الاول لليمن ط٣ ، ص ٥٣ •

٨ ـ Fisher, Sydney : Op. cit P. 144.

Ser Jeant, R. B. The Portuguese of the Arabian coast p. 43

٩ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ص ٦١ ـ ٦٣ •

١٠ ـ دكتور عبد الحميد البطريق ، من تاريخ اليمن الحـــديث ٥١٧ ـ ١٨٤٠ ، ص ص ١٨ ـ ١٩. wilson, sir Arnold T., The persian Gulf P. 117 119.

١١ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ١ ـ ٧٢ •

١٢ ـ Serjeant,R. B. op. cit, 169

١٣ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ص ٧٨ ـ ٧٠م ، دكتور جاد طه ، سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ، ص ٢٢ •

١٤ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، صص ٩٧ : ١١١ •

١٥ ـ دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، ص ١١٢ •

١٦ ـ دكتور عبد الحميد البطريق ، المصدر الســـــابق ، صص ٢٦ ـ ٢٧ ، دكتور سيد مصطفى سالم ، المصدر السابق ، صص ١٤١ ـ ١٥٠ ، ج ج لوريمر ، دليل الخليج ، جـ ١ ص ١٦ •

١٧ ـ نفس المصدر ، صص ١٩٥ ـ ١٩٦ •

١٨ ـ دكتور محمد أحمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربي ، ص ١٣٠ ، ١٣٤

١٩ Yahya Arm AjAni, Middle East, Past and Present P. 202.

٢٠ ـ جاد طه ، المصدر السابق ، صص ٢٥ ـ ٢٦ •

٢١ ـ نفس المصدر ، ص ٢٦ ، وانظر كذلك محمود كامل ، اليمن شماله وجنوبه تاريخه وعلاقاته الدولية ، بيروت ١٩٦٨/ص‌ص ٢١٤ ـ ٢١٥ ٠

٢٢ ـ المصدر نفسه ، ص ٢٧ ـ محمود كامل ، المصدر السابق حيث يذكر (ولكن الترحيب بالهولنديين في اليمن لم يلبث أن تحول الى سخط عليهم عندما هاجموا بعض السفن العربية التي كانت تقوم بنقل بضائع برتغالية باعتبار أن ذلك قد عاد على التجار العرب بخسارة جسيمة وقبض الاتراك على (دي ميلده) الهولندي كرهينه وبلغ السخط على تهاون الوالي التركي مع الهولنديين الى حد أنه أعدم شنقا) ص ٢١٥ ٠

٢٣ ـ دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص‌ص ٢٧ ـ ٢٨ ، محمود كامل ، المصدر السابق ص ٢١٥ ٠

٢٤ ـ الدكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٢٨ ٠

ـ من الطريف أن نذكر أن السلع التي كان يجلبها التجار الاوروبيون من شبه الجزيرة العربية ، اللؤلؤ من الخليج العربي ، والبخور والمر من جنوب شبه الجزيرة العربيـــة وبخاصة من ظفار وحضرموت والتوابل والمنسوجات الحريرية والسيوف والعاج والمر والبخور وريش النعام والذهب من الساحل الافريقي ٠

انظر دكتور محمود طه ابو العلا ، جغرافية شبه جزيرة العرب ، جـ١ ، طبعـــة ١٩٧٢م ٠

٢٥ ـ دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٣٠ ـ ٣١ ٠

وانظر كذلك عبد الواسع بن يحى الواسعي اليماني (تاريخ اليمن المسمى فرجة الهموم والحزن في تاريخ اليمن ، ص‌ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣) ٠

٢٦ دكتور جاد طه ، المصدر السابق ، ص ٣٣ ـ ٣٤ ٠

ـ عبد الواسع بن يحى الواسعي ، المصدر السابق ، ص ٣٢٢ ـ ٣٢٣ ٠

٢٧ ـ دكتور احمد عزت عبد الكريم ، وآخرون ، دراسات في النهضة العربية ، ص ٣٢٠ ٠

٢٨ ـ نفس المصدر ، ص ٣٢٠ ٠

٢٩ ـ نفسه ، ص ٣٢١ ٠

٣٠ ـ نفسه ، ص ٣٢١ ٠

٣١ ـ نفسه ، ص‌ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ ٠

٣٢ ـ نفسه ، ص ٣٢٢ ٠

٣٣ ـ دكتور محمد احمد أنيس ، المصدر السابق ، ص‌ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ٠

٣٤ ـ دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، دور المغـــاربة في تاريخ مصر في العصر الحديث ، القسم الاول ، في العصر العثماني ، المجلة التاريخية المغربية ، ص‌ص ٥٩ ـ ٦٢

٣٥ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة البا بالعالي ، وســجلات محكمة القسمة العسكرية ٠

٣٦ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل (١٦٥) ص ١٨٢ مادة (١٨٢) ٠

٣٧ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل (١٦٥) ص ١٩١ مادة (٢٩١) ٠

٣٨ ـ أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الباب العالي ، سجل رقم ٩٠ مكرر ، ص ٤٢ ، مادة (٢١٨) وهي عبارة عن عقد صفقات تجارية بين تجار مغاربة ، وانظر كذلك المجلة التاريخية المغربية ـ عدد (٩) صص ١٨٢ ـ ١٩٦ ٠

٣٩ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات القسمة العسـكرية ، سجل (١٧٥) ، ص ١٨٢ ، مادة (٢٥٤) ، ولمزيد من التفصيل حول هذه الموضوعات انظر :

André Raymond, Artisans et commetcants au caire
X V III siéle, Damas, 1973.

٤٠ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل (١٧٥) ، ص ١٧٠ ، مادة (٢٣٦) ٠

٤١ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات الديوان العالي ، سجل (١) ، ص ١٧ ، مادة (٣٠) ٠

٤٢ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى ، سجل (٣) ، ص ٨٣ ، مادة ٢٣٦ ٠

٤٣ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة الصالحية النجمية ، سجل ٥٠٩ ، ص ٢٠ ، مادة ٦٢ ٠ وانظر كذلك المجلة التاريخية المغربية العدد ٨٢٧ ، صص ٩٩ ـ ١٠٥ ٠

٤٤ ـ أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٣ ، مادة ٤٠٦ ٠

٤٥ ـ انظر لمزيد من التفصيل ، دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن (علاقات بلاد الشام بمصر في العصر العثماني (بحث ألقي بالمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، دمشق في الفترة من ٢٧ نوفمبر الى ٣ ديسمبر ١٩٧٨م ٠

٤٦ ـ دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٩١ ، ٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ٠

٤٧ ـ دار الوثائق القومية ، سجلات الجمارك ، سجل رقم ٦١٥ جديد ، ٤١٤٠ قديم الخاص بعام ١٠٨٨هـ ٠

٤٨ ـ كان هذا الجمرك يدر دخلا كبيرا من البضائع الواردة من الحجاز واليمن والهند وكما هو ثابت من سجلات الجمارك ووثائق المحكمة الشرعية فان الملتزمين الذين كانوا يتولون ادارة هذا الجمرك كانوا من المسيحيين أو اليهود حيث أن الاعتقاد الذي كان سائدا لدى القائمين على امور الحكم في ذلك الوقت أن جمع هذه الضرائب ينافي تعاليم الاسلام واعتبروه نوعا من الكسب لا يبرره عمل يقوم به محصل الضريبة ٠

٤٩ ـ دكتورة ليلى عبد اللطيف ، الادارة في العصر العثماني ، ص ٩٧ ٠

٥٠ ـ نفس المصدر ، صص ٩٧ ـ ٩٨ ٠

٥١ ـ أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل (١٥٢) صص ٢٤١ ـ ٢٤٣ مادة (٤٠٦) ٠

وهي عبارة عن عقد شركة تجارية ضخمة بين أفراد اسرة الدادة الشرايبي والنزاع حول هذه الشركة ٠

وانظر كذلك : دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، علاقات بلاد الشام بمصر في العصر العثماني ص ٨ ٠

أرشيف المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة القسمة العسكرية ، سجل ١٧٥ ، ص ٢٧٠

مادة ٣٨٣ ٠

٥٢ ـ ارشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٦٥ ، ص ١٨٢ ، مادة ٢٨٢ ٠

ارشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٦٥ ، ص ١٩١ ، مادة ٢٩١ ٠

ارشيف المحكمة الشرعية ، سجل ١٩٥ ، مادة ٣٠٩ ٠

٥٣ ـ دكتور عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٩١ ـ ٩٤

احمد شلبي عبد الغني ، اوضح الاشارات تحقيق عبد الرحيم ، ص ١٩٥ ٠

٥٤ ـ أرشيف المحكمة الشرعية : سجل ٥٠٩ محكمة الصالحية النجمية ، ص ٢٠ ، مادة (٦٢) ٠

: سجل ٤٨ محكمة القسمة العسكرية ، ص ١٥٧ ، مادة ٢٥٨ ٠
: سجل ٢٢٤ محكمة طولون ، صص ٤٠١ ـ ٤٠٢ ، مادة ٨٦٨ ٠
: سجل ٩٠ مكرر محكمة الباب العالي ، ص ٤٢ ، مادة (٢١٨) ٠
: سجل ٩٠ مكرر محكمة الباب العالي ، ص ١٣ ، مادة (٦٥) ٠
: سجل ١٢٨ محكمة الباب العالي ، ص ١٨ ، مادة (٣٦٩) ٠
: سجل ١٧١ محكمة الباب العالي ، صص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ ، مادة (٦٣٩) ٠
: سجل ١٣١ محكمة البا بالعالي ، ص ١٤٢ ، مادة ٥٣٤ ٠
: سجل ٢٦ محكمة بولاق ، ص ٣٥٩ ، مادة ١٨٠٤ ٠
: سجل ١٣٣ محكمة الباب العالي ، ص ١٩٦ ، مادة ٧٦٨ ٠
: سجل ١٧٥ محكمة القسمة العسكرية ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧ ، مادة (٤٠١)
: سجل ١٧٥ محكمة القسمة العسكرية ، ص ٣١٢ ، مادة ٤٣٥ ٠

البرتغاليون

والبحر

الأحمر

للدكتور سعد زغلول عبد ربه
أستاذ التاريخ الحديث - كلية الآداب - جامعة طنطا

كانت اوربا تحصل على حاجتها من سلع الشرق الأقصى من الاسكندرية وموانيء البحرين الاسود والمتوسط ، وكان تجار البندقية يتولون في القرن الثالث عشر نقلها الى أوربا • وقد ترتب على الاشتغال بتلك التجارة ثراء تجار الاسكندرية والبندقية الذين كانوا يقومون بدور الوسيط لتوزيعها في أوربا • وقد أدى التنافس الذي حدث بين البنادقة والجنويين الى اتجاه الجنويين الى البرتغال ، ومحاولة استغلال معلوماتهم الجغرافية المتعلقة بفكرة الدوران حول القارة الافريقية ، والوصول الى الهند ، وبالتالي وضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى الواردة عن طريق الهند • وكان يحكم البرتغال في ذلك الوقت أسرة ايفيز Aviz ، وكانت من الأسر الملكية المتمسكة بالدين المسيحي ، وترى ان على عاتقها تقع مهمة نشر الدين المسيحي في الأراضي الاسلامية • ولذلك تبدأ البرتغال في تنفيذ هدفها الديني بالاستيلاء على مدينة سبتة في سنة ١٤١٥ ، وتبدي اهتمامها بمعلومات الجنويين الخاصة بامكان الدوران حول القارة الافريقية ، خاصة وانه كان هناك قصة منتشرة في أوربا عن وجود ملك مسيحي يحكم في وسط آسيا أو افريقية ، هو القس يوحنا أو برستر جون P. John

وقد حددت الاشاعات مكان وجود ذلك الملك المسيحي فيما بين الصين وغامبيا ، وانه يسيطر على منطقة كبيرة •

قرر البرتغاليون الوصول الى القس يوحنا للتحالف معه وضرب المسلمين من الخلف والأمام والانتقام للهزائم التي تعرض لها الصليبيون في الشام ، وكشف طريق بحري يصل الى الهند ولا يمر بالأراضي الاسلامية ، ووضع أيديهم على تجارة الشرق الأقصى ، وبذلك يحرمون المسلمين من المورد الاقتصادي الذي كانوا يستطيعون عن طريقه تكوين وتمويل قواتهم العسكرية التي يحاربون بها المسيحيين • وقد رسم البرتغاليون خطتهم على أساس كشف ساحل أفريقية الغربي كشفا منظما ووضع أيديهم على ذهب وتجارة غرب افريقية لتمويل عملياتهم الكشفية ، وحرمان مسلمي شمال افريقية من ذلك المورد المالي الهام •

أعدت البرتغال الأساطيل اللازمة لعمليات الكشف ، واستعانت بخبرة

البحارة والجغرافيين الجنويين . وكانت عمليات الكشف في بدايتها بطيئة .
ولكن البرتغاليين ثابروا على تلك العمليات حتى استطاع بارتولوميو دياز
Bartholomew Diaz الوصول الى القمة الجنوبية لافريقية ، والدوران
حولها في سنة ١٤٨٧ . وبذلك أصبح الأمل كبيرا في الوصول الى الهند عن
طريق البحر ، وبدون المرور في الأراضي التي يسيطر عليها المسلمون .
وانتهزت البرتغال الفرصة وكونت حملة أخرى بقيادة فاسكو داجاما

V. da Gama تحركت من البرتغال في الثامن من اغسطس سنة ١٤٩٧
متجهة الى الساحل الغربي لافريقية لاستغلال كشف بارثولوميو دياز .
واستطاع داجاما الدوران حول القمة الجنوبية لافريقية في أواخر ديسمبر
سنة ١٤٩٧ ، ووصل الى جزيرة القديس جورج القريبة من موزمبيق في أول
مارس سنة ١٤٩٨ ، وحدوث تبادل تجاري بين البرتغاليين وسكان موزمبيق ،
ثم التحرك بعد ذلك شمالا الى مالندي التي حصل منها على مرشد هندي
اسمه كانا Cana ، أرشده عبر المحيط الهندي الى الساحل الغربي للهند ،
وبذلك استطاع داجاما الوصول الى الساحل الهندي بالقرب من قاليقوط في
٢٨ مايو سنة ١٤٩٨ (١) .

تكبد البرتغاليون تضحيات بشرية ومالية كبيرة ، فقد توفى ثلثا أفراد
الحملة في الطريق ، ولكن النتائج المالية كانت مذهلة جدا ، فقد تجاوز
صافي الربح تكاليف الحملة ست مرات . وكان للنتيجة المالية والقصص التي
سردها داجاما عما شاهده من عجائب الشرق أثرها على ملك البرتغال الذي
صمم على استغلال كشف داجاما ، وارسال اسطول آخر الى الهند للاستيلاء على
تجارة الشرق . ونفذت البرتغال عزمها وأرسلت في مارس سنة ١٥٠٠ حملة
جديدة بقيادة بدرو الفاريز P. A. Cabral مهمتها الحصول على قاعدة
للسفن البرتغالية في الشرق عن طريق المفاوضات أو باستخدام القوة
المسلحة ، واجبار المسلمين في تلك المنطقة على اعتناق الدين المسيحي ،
والاستيلاء على سفن المسلمين وسفن كوشين وكانانور التي يصادفونها في
طريقهم باستثناء سفن مالندي الموالية للبرتغال (٢) .

كانت تجارة الشرق الأقصى مرتبطة بالعمل المقدس ، ونشر الديانة
المسيحية بين المسلمين والوثنيين ، كما كانت تدر ربحا كبيرا . ولما كانت
سيطرة البرتغال على تجارة الشرق تتطلب القضاء على مقاومة المسلمين
بالمنطقة ، وهذا العمل يتطلب ارسال اسطول برتغالي قوي مجهز بقوة

عسكرية مدربة تدريبا جيدا على القتال البحري فقد جهز البرتغاليون أسطولا من عشرين سفينة بقيادة فاسكو دا جاما تحرك من البرتغال في العاشر من فبراير سنة ١٥٠٢ متجها الى المحيط الهندي ٠ وكان على دا جاما ابقاء خمس من سفن ذلك الاسطول بصفة دائمة في مياه المحيط الهندي لحماية المحطات التجارية البرتغالية في كوشين وكانانور ، وسد مدخل البحر الأحمر ، وابعاد العرب عن تجارة الهند (٣) ٠

وبتوالي استخدام البرتغاليين للطريق البحري الى الهند تبين للتغاليين أن الضرورة تتطلب تجول بعض سفن الاسطول البرتغالي أمام مدخل البحر الأحمر ، وتدمير السفن العربية التي تحاول الخروج منه ، وكذلك السفن العربية التي تتجول في المحيط الهندي ٠ وقد كان للوجود البرتغالي في مياه المحيط الهندي أثرا ضاغطا على التجار العرب في البحر العربي والموانيء الواقعة على ساحل الهند الغربي ٠ وازداد ظهور ذلك الضغط بمضي الوقت ، واصبح البرتغاليون من أخطر المنافسين والمزعجين في المنطقة خاصة وأن هدفهم النهائي هو القضاء كلية على طريق التجارة السابقة ، ولذلك حاولوا جهدهم وبوضوح تام وقف سير التجارة الشرقية بين الهند والبحر الأحمر ٠ وكانت تلك المحاولة من جانب البرتغاليين تتطلب وقفة صلبة من التجار العرب الذين سيطروا على تلك التجارة منذ فترة طويلة ، ولذلك فقد طلب التجار العرب المقيمون في قاليقوط وشيخ عدن وهم الذين تأثرت مصالحهم الاقتصادية المساعدة من سلطان مصر ، وكانت مصر التي تأثرت ماليتها بسبب التدخل البرتغالي على استعداد للدخول في صراع مع البرتغاليين (٤) ٠

بدأ السلطان المصري في اتخاذ الاجراءات اللازمة لوقف البرتغاليين عند حدهم ولانقاذ مصر من الانهيار الاقتصادي الذي تعرضت له ، فأرسل حملة بقيادة الأمير حسين الكردي في نوفمبر سنة ١٥٠٥ مهمتها الاولى تقوية الحكم المملوكي في منطقة البحر الأحمر ، وتحصين سواحل ذلك البحر بعد أن أعلن البرتغاليون عن عزمهم مهاجمة المدن المقدسة في الحجاز وتخريبها ٠ وما أن وصل الأمير حسين الى جدة حتى بدأ في بناء سور ضخم له أبراج عالية ، ثم توجه الى سواكن واستولى عليها ، وأقام بعض الاستحكامات بها ٠ ومن سواكن اتجه الاسطول المصري الى بعض الموانيء اليمنية حيث بقي بعض الوقت بميناء عدن (٥) ٠

تحرك الاسطول المصري من مياه عدن ، واتجه الى الهند حيث اشتبك مع اسطول برتغالي ٠ وفي ذلك الاشتباك انتصر الاسطول المصري على الاسطول

البرتغالي انتصارا جزئيا في موقعة ديو البحرية · كما استطاع بالاشتراك مع أسطول حاكم ديو هزيمة أسطول برتغالي مكون من ثمان سفن عند شول في سنة ١٥٠٨ (٦) ·

كان لانتصار الاسطول المصري على الأسطول البرتغالي أثره على البرتغاليين الذين أحسوا بالخطر الشديد الذي سوف تتعرض له مصالحهم في المنطقة خاصة وأن وصول ذلك الاسطول الى مياه المحيط الهندي كان مفاجأة لهم ، بالاضافة الى انضمام سفن عدد من الولايات الهندية الى سفن ذلك الاسطول · ولذلك سارع فرانسشكو دالهيدا نائب الملك بالهند في الخروج على رأس اسطول اخر مكون من تسع عشرة سفينة لملاقاة الاسطول المصري والقضاء عليه · واشتبك الأسطول البرتغالي مع الاسطول المصري وحلفائه عند ديو في الثالث من فبراير سنة ١٥٠٩ · وفي ذلك الاشتباك انتصر البرتغاليون على المصريين وحلفائهم انتصارا ساحقا · ويرجع ذلك الانتصار الى رفض الأمير حسين بالانسحاب بما بقى من سفنه الى جده ، بينما سارع حاكم ديو بعقد معاهدة صلح مع البرتغاليين (٨) ·

بانتصار البرتغاليين على المصريين في ديو رسخت أقدامهم في المحيط الهندي ووضعوا أيديهم على مصادر التوابل واحتكروا تجارتها · واتماما للفائدة عمل البرتغاليون على تشديد الحصار على الخليج الفارسي (العربي) والبحر الأحمر حتى لا تصل تجارة التوابل الى المصريين ، وراقبت سفنهم مدخل البحر الأحمر لمنع السفن الاسلامية من الدخول أو الخروج من ذلك البحر · وقد أدت تلك المراقبة وذلك الحصار الى استيلاء البرتغاليين في سنة ١٥٠٩ على بعض السفن اليمنية (٩) · ولم تستطع السلطات اليمنية وقف الاعتداءات البرتغالية أو الرد عليها · واضطر السلطان اليمني الظافر الثاني الى الاستنجاد بالسلطان الغوري ومطالبته بالاسراع باتخاذ عمل مضاد يقضي على استفحال الخطر البرتغالي (١٠) · وقد أرسل السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ رده على سلطان اليمن مبينا له حقيقة الموقف في القاهرة ، والاستعدادات التي تقوم بها لمواجهة البرتغاليين (١١) · وقد طلب السلطان الغوري في يونيو سنة ١٥١٠ من ملوك الهند مساعدته في القتال ضد البرتغاليين (١٢) وكما طلب من بايزيد الثاني سلطان الدولة العثمانية امداد مصر بالسلاح · وكان من رأي بايزيد الثاني أن البرتغاليين سوف يحاولون الوصول الى مكة والمدينة وتدميرهما ، ولذلك وعد بارسال السلاح ومساعدة الدولة المملوكية (١٣) · ووفى السلطان بايزيد بما وعد ، وحمل السفن المصرية وعددها ثماني عشرة سفينة بالسلاح والأخشاب والمعونة العثمانية ·

ولكن هذه المعونة لم يكتب لها الوصول سالمة الى الاسكندرية بسبب تعرضها لهجوم سفن فرسان القديس يوحنا في ١٠ أغسطس سنة ١٥١٠ ، وحدوث معركة غير متكافئة بين الطرفين أغرقت فيها سفن الفرسان بعض السـفن المصرية ، وأسرت البعض الآخر ، كما تاهت سفينتان في العاصفة • وبذلك فان السفن الست الباقية التي وصلت الى الاسكندرية لم يكن عليها شيء من المعونة العثمانية (١٤) •

ومن ناحية أخرى فقد عمد الأمير حسين الكردي الى تحصين ميناء جدة حتى تستطيع الصمود في وجه البرتغـاليين ان هم حاولوا الذهاب اليهـا ومهاجمتها عن طريق بناء سور ضخم حولها (١٥) • وطلب من أمراء الهنود الذين استمروا على حلفهم مع مصر معونة مالية لبناء السور • وبرر ذلك الطلب بقوة البرتغاليين ، واستطاعتهم دخول البحر الأحمر ، والوصول الى جدة وتدمير الأماكن الاسلامية المقدسة في مكة والمدينة (١٦) • ولما كان أمراء الهنود يعتقدون أن البرتغاليين سوف يحاولون دخول البحر الأحمر وتدمير الأماكن الاسلامية فقد قدموا حمولة ثلاث سفن من سفن التوابل اسهاما منهم في تحصين جدة (١٧) • واستطاع الأمير حسين بتلك المعونة الانتهاء من بناء السور في سنة ١٥١١ وكان قد بدأ في بنائه في سنة ١٥٠٩ (١٨) •

فرض البرتغاليون الحصار حول مدينة عـدن ، ولكنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقوة تحصيناتها الطبيعية • وكان الهدف من هذا الحصار اسقاطها والاستيلاء عليها ، واستخدامها قاعدة عسـكرية يستطيعون عن طريقها السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على الاسطول المصري المناوىء ومنعه من الخروج الى المحيط الهندي ، ومهاجمة سفنهم وطردهم من الهند • وبذلك يقضون على أمل أمراء الهند في وصول الامدادات العسكرية من مصر اليهم ، وتفتر مقاومتهم للبرتغاليين ، وبذلك تستقر الأمور للبرتغاليين في الهند (١٩) •

قرر البوكيرك الاستيلاء على عدن فخرج من جوا في ٨ فبراير سـنة ١٥١٣ بأسطول كبير بلغت عدة سفنه عشرين سفينة تحمل على ظهرها ٢٥٠٠ محارب ، ووصل الى عدن في ٢٤ مارس سـنة ١٥١٣ (٢٠) وكانت أخبار الحملة قد سبقت وصولها ، فاتخذ حاكم عدن العدة لملاقاة البرتغاليين • وعلى الرغم من انتفاء عنصر المفاجأة فقد استولى البرتغاليون على بعض السفن الراسية في ميناء عدن ، وقصفوا المدينة بنيران مدافعهم • وخشي حاكمها من تدميرها على يد البرتغاليين فأرسل بعض الهدايا الى البرتغاليين وطلب عقد هدنة معهم (٢١) • وقد رفض البرتغاليون الاقتراح ، وأعادوا له هداياه ،

وهددوا بالاستيلاء على المدينة قهرا اذا لم يستجب حاكمها ويسلمها لهم سلما ، ومنحوه مهلة حتى اليوم التالي (٢٢) ٠

رفض حاكم عدن الاستجابة لتهديد البرتغاليين ، فهاجموا المدينة ، واستطاع بعض أفرادهم تسلق الأسوار والنزول الى المدينة (١٣) ٠ ولم يخف سكان المدينة من نزول البرتغاليين في مدينتهم ، وهاجموهم بكل ما وقع تحت أيديهم من حجارة مما شجع حاكمها على رفض التسليم ، ومهاجمة البرتغاليين الذين تسربوا الى داخل المدينة ، وأجبرهم على الهرب ٠ واضطر البرتغاليون الى اطلاق نيران مدافعهم لتغطية انسحاب قواتهم من داخل المدينة (٢٤) ، وبذلك فشلت محاولة البرتغاليين الاستيلاء على المدينة (٣٤) ٠ فانسحبوا من مياهها بعد أن أشعلوا النار في السفن الراسية في الميناء (٢٥) ٠

انسحب البرتغاليون من مياه عدن واتجهوا الى باب المندب ومنه الى البحر الأحمر متجهين الى الشمال ، واستولوا على جزيرة قمران في أبريل سنة ١٥١٣ (٢٦) ٠ وكما هي عادتهم في اخافة وارهاب السكان دمروا مبانيها وقتلوا من وجدوه عليها من السكان اليمنيين (٢٧) ٠ واستقر البرتغاليون بالجزيرة حتى شهر يوليو سنة ١٥١٣ ٠ ولم يحاول سلطان اليمن اتخاذ أي اجراء لطردهم من الجزيرة (٢٨) ٠ واذا كان البرتغاليون قد وصلوا الى جزيرة قمران الا أنهم لم يستطيعوا الوصول الى ميناء جدة بسبب تعرض سفنهم لعاصفة شلت اسطولهم ، ومنعتهم من الوصول الى الأراضي المقدسة وتنفيذ هدفهم الرامي الى العبث بالمقدسات الاسلامية ، وتدمير قبر الرسول عليه السلام بالمدينة (٢٩) ٠

تحرك الاسطول البرتغالي في مياه البحر الأحمر بعد فشله في الاغارة على جدة والمدينة المنورة ، وأغارت بعض سفنه على ميناء زيلع ، وأطلقت نيران مدافعها على السفن الراسية فيه ، وأشعلت فيها النيران (٣٠) ٠

ترتب على وصول الاسطول البرتغالي الى البحر الأحمر خوف أمير مكة من نزول البرتغاليين في ميناء جدة أثناء وجود الأمير حسين الكردي في مصر ، فتحرك بقواته الى جدة ، وبعث رسالة الى السلطان الغوري بين فيها خطورة الموقف في المنطقة ، وطلب الاسراع في ارسال الامدادات الى جدة لمنع نزول البرتغاليين بها والاستيلاء عليها (٣١) ٠ واستجاب السلطان الغوري لطلب

أمير مكة فأمر الأمير حسين الكردي بالاسراع بالتوجه الى جدة ، كما أرسل معه أحد الأمراء لاستقصاء أخبار البرتغاليين ، كما أمر بسرعة تجهيز السفن التي كان يتم انشاؤها في السويس ، وتزويد الحملة المنتظرة بحاجتها من الجنود والفنيين · ولم تتوقف جهود السلطان الغوري عند هذا الحد فقد توجه بنفسه الى ميناء السويس في مارس سنة ١٥١٤ للاشراف على انزال السفن الجديدة الى مياه البحر الأحمر · وتتابعت امدادات السلطان الغوري لحسين الكردي فأرسل له قوة عسكرية أخرى في يوليو سنة ١٥١٤ ، كما أرسل أسطولا آخر في يونيو سنة ١٥١٥ بقيادة سلمان العثماني (٣١) · وقد انضم سلمان العثماني الى حسين الكردي ، واشترك معه في قيادة الاسطول المصري ضد البرتغاليين (٣٢) ·

تأثرت التجارة اليمنية بسيطرة البرتغاليين على مياه المحيط الهندي ، ولذلك عملوا في أول الأمر على امداد الاسطول المصري المتجه الى الهند في سنة ١٥٠٧ بحاجته من الامدادات ، وعاملوه معاملة الحلفاء · ولكن لم تلبث المعاملة أن تغيرت بعد هزيمة الاسطول المصري في المياه الهندية ، وبدأ البرتغاليون حملاتهم العسكرية في البحر الأحمر · فقد وقف حاكم عدن موقفا سلبيا عندما هاجم البرتغاليون ميناء عدن في سنة ١٥١٣ (٣٣) · وتبلور موقف اليمنيين ضد المصريين بوقوفهم موقف العداء الصريح ضد الاسطول المصري بقيادة حسين الكردي وسلمان العثماني · ولما كان حسين الكردي حريصا على سيادة واستقلال اليمن فقد بعث من يخبر سلطانها بأمر الحملة المصرية ، والعمل على تزويدها بحاجتها من المؤن والأموال طبقا لما تعهد للسلطان الغوري عندما طلب منه المساعدة (٣٤) · وبين له أن هدف الحملة هو الابحار الى الهند لمقاتلة البرتغاليين ·

لم يستجب سلطان اليمن لطلب حسين الكردي الذي تقدم من جيزان الى جزيرة قمران فوصلها في ديسمبر سنة ١٥١٥ · ومن هناك أرسل الهدايا الى زبيد ، وطلب تزويد الحملة بالمؤن والأموال لمساعدة الاسطول المصري على مواصلة الجهود ضد البرتغاليين (٣٥) · وكان السبب في عدم استجابة سلطان اليمن خوفه من أن يصبح ذلك التزاما سنويا عليه (٣٦) ، وطلب من والي زبيد عدم ارسال المؤن المعتادة الى جزيرة قمران والحجاز حتى لا يستولى عليها المصريون (٣٧) ·

كان تعاون سلطان اليمن مع الحملة المصرية أمرا ضروريا لنجاحها ·

ويتطلب نجاح الحملة السماح لسفنها باستخدام بعض الموانيء اليمنية ، وبذلك يستطيع الاسطول المصري تأمين البحر الأحمر وحماية سواحله . وعلى الرغم من أن حسينا الكردي كان يرى احترام سيادة واستقلال اليمن الا أن تقاعس سلطانها عن تقديم المساعدة للاسطول المصري قد أجبره على اتخاذ الخطوات اللازمة لتأمين قواته . وكانت هذه الخطــوات تتمثل في الاستيلاء على القواعد البحرية اليمنية اللازمة للاســطول المصري . وعلى أساس ذلك التفكير حول حسين الكردي جهوده العسكرية الى اليمن للاستيلاء على الموانيء اللازمة لأسطوله حتى يمكنه التفرغ بعــد ذلك للصراع مع البرتغاليين وهو مطمئن الى وجود خط دفاع خلفه يمكنه اللجوء اليه عنـد اللزوم (٣٨) .

تحرك حسين الكردي وسلمان العثماني الى زيلع في يوليو سنة ١٥١٦ بعد أن ترك بعض قواته في تهامة للاستيلاء على اليمن.(٣٩) . ولم يلبث أن تحرك من زيلع بعد اصلاح سفنه وتزويدها بحاجتها من المؤن متجها الى عدن (٤٠) ، فوصلها في ١٢ أغسطس ســنة ١٥١٦ . واستطاعت القوات المصرية بعد مقاومة عنيفة الاستيلاء على المدينة ولكن القوات اليمنية أجبرتها على الانسحاب ، ومغادرة عدن في ١٩ أغسطس من نفس العــام (٤١) . واضطر الاسطول المصري بعد ذلك الى الانسحاب الى جدة بسبب الخلاف الذي نشب بين حسين الكردي وسلمان العثماني (٤٢) .

فشلت خطة البوكيرك الخاصة بالاستيلاء على عدن في سنة ١٥١٣ (٤٣) ، الا أن هذا الفشل لم يقض على فكرة السيطرة البرتغالية على عدن على أساس أن السيطرة عليها سوف تؤدي الى السيطرة على البحر الأحمر ، وبالتالي قطع الصلة بين مصر والهند وتوجيه ضربة للمصالح المصرية التجارية في الهند ، وفي نفس الوقت تثبيت السيطرة البرتغالية على مياه المحيط الهندي وعلى التجارة الشرقية . ولذلك حاول البرتغاليون الاتصال بمملكة الحبشة المسيحية والتعاون معها ضد مصر والحجاز ، بهدف تدمير المقدسات الاسلامية في مكة والمدينة (٤٤) .

بدأ البرتغاليون في تنفيذ هدفهم فتحرك أســطول برتغالي بقيادة سوّاريز من جوا بالهند في الثامن من فبراير سنة ١٥١٧ . وكان يتكون من أربعين سفينة ، وهو يحمل على ظهره ألفين من المقاتلين . وكانت مهمة ذلك

الاسطول مهاجمة الاسطول المصري في البحر الأحمر وتدميره والاتصال بمملكة الحبشة (٤٥) ·

وصل الاسطول البرتغالي الى ميناء عدن في الخامس من مارس سنة ١٥١٧ ، ولكنه لم يهاجم المدينة وعمل على اقرار الأمور سلميا مع حاكمها ، وحاول أن يجتذبه الى جانبه ضد المصريين ، فاعلن أن الهدف من وصوله هو الوقوف الى جانب العدنيين ضد المصريين الذين هاجموا بلاده وحاولوا الاستيلاء عليها (٤٦) · وخشى حاكم عدن رفض المطالب البرتغالية ، وما قد يؤدي اليه ذلك الرفض من مهاجمة البرتغاليين لعدن ومحاولة تدميرها فأمدهم بحاجتهم من المؤن والمرشدين البحريين لقيادة سفنهم الى جدة (٤٧) ·

تحرك سؤاريز من عدن في السابع عشر من مارس سنة ١٥١٧ ، ووصل الى القرب من جدة ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب شدة الرياح ، كما فشل في تدميرها أو الاستيلاء عليها · ويرجع هذا الفشل الى قوة التحصينات التي أقامها المصريون هناك (٤٨) · وقامت سفن الاسطول المصري بقيادة سلمان بمطاردة سفن الأسطول البرتغالي وتمكنت من أسر احداها بالقرب من ميناء اللحية اليمني ، وعادت بها بمن عليها من البرتغاليين الى ميناء جدة (٤٩) ·

أسرع البرتغاليون بالانسحاب من مياه جدة ، واتجهوا الى جزيرة قمران ببعض سفنهم بينما شتتت الرياح البعض الآخر وحولته الى احدى الجزر الواقعة أمام الشاطىء الافريقي بالقرب من ميناء سواكن · ولم يستطع البرتغاليون الحصول على حاجتهم من المياه العذبة فاتجهوا الى جزيرة دهلك وهم في حالة اعياء شديد ، وموت عدد كبير منهم بسبب نفاد مخزونهم من المياه العذبة واضطرارهم لشرب المياه المالحة ، ومن هناك اتجهت الى مصوع حيث وقعت في كمين ترتب عليه قتل عدد آخر منهم (٥٠) ·

هاجم البرتغاليون بقيادة سؤاريز جزيرة قمران ودمروا التحصينات التي سبق وانشأها حسين الكردي ، وأحرقوا النخيل الموجود بالجزيرة ثم غادرها في ١٢ يونيو سنة ١٥١٧ متجها الى زيلع فوصلها في يوليو ، وقتل عددا كبيرا من أهلها انتقاما منهم ، ثم اتجه الى عدن وهو في طريقه الى الهند (٥١) · وتوقف سؤاريز خمسة أيام في مياه عدن ، ولكنه لم يهاجمها بسبب ما لحق بقواته من خسائر ، وانتشار المرض بين من بقي من رجاله ،

ولعدم تأكده من نتائج ذلك الهجوم · وبذلك تخلى سؤاريز عن فكرة مهاجمة عدن والاستيلاء عليها ، كما رفض قبول مفتاح المدينة الذي عرضه عليه حاكمها (٥٢) ·

هاجم بعض الكتاب البرتغاليين سؤاريز لعدم استيلائه على عدن ، واتهموه باضاعة الفرصة التي سنحت له في ذلك الوقت · ورأى ملك البرتغال أن الفشل الذي مني به البرتغاليون في البحر الأحمر يرجع الى سؤاريز فعزله من منصبه · وغادر سؤاريز الهند متجها الى البرتغال في ٢٠ ديسمبر سنة ١٥١٨ (٥٤) ·

لم ييأس البرتغاليون بسبب الفشل الذي تعرضت له حملة سؤاريز في البحر الأحمر ، وقرروا تنفيذ مخططهم ، فأرسلوا حملة كبيرة بقيادة لوبو سكويرا نائب الملك في الهند الذي خلف سؤاريز · ووصلت الحملة الجديدة الى مدخل البحر الأحمر في أوائل سنة ١٥٢٠ · وكانت أغراض الحملة في هذه المرة تتكون من شقين : الأول منهما مهاجمة جدة والاستيلاء عليها ، والثاني انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية الى السواحل الحبشية لانشاء علاقات دبلوماسية مع مملكة الحبشة ، والتكاتف معها للقضاء على النفوذ الاسلامي في مياه البحر الأحمر · ولم يحاول سكويرا الرسو بميناء عدن بل توجه مباشرة الى ميناء جدة مستغلا في ذلك موسم الرياح ، ولكنه لم يستطع الوصول اليها بسبب الرياح المعاكسة (٥٥) · كما وصلته أنباء تشير الى وجود قوات عسكرية اسلامية بها ، فاتجه الى ميناء مصوع حيث أنزل دي ليما المبعوث البرتغالي لملك الحبشة (٥٦) ·

أرسل البرتغاليون في أوائل سنة ١٥٢٤ حملة كبيرة الى مصوع بقيادة دي سلفيرا وكان الهدف من ارسالها استعادة المبعوث البرتغالي الى بلاط ملك الحبشة · وقد قدم حاكم عدن المؤن للحملة أثناء ذهابها الى مصوع ، وتبين دي سلفيرا ضعف عدن ، ونظرا لأهميتها الاستراتيجية فقد أجبر حاكمها عند عودته على عقد معاهدة مع البرتغاليين نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وأن تسمح للسفن البرتغالية باللجوء الى مينائها في أي وقت ، ولكن نائب الملك في الهند رفض اعتماد تلك المعاهدة على أساس أنها تضييع للجهود البرتغالية · ولم تلبث القوات البرتغالية أن ضربت بمدافعها عدن أثناء اتجاهها الى مصوع في سنة ١٥٢٥ ، ولكنها لم تحقق شيئا من النجاح · كما حاول دي سلفيرا في أثناء عودته من مصوع في

سنة ١٥٢٦ مهاجمة عدن ولكن الرياح أبعدت سفنه عنها ٠ وعلى الرغم من الفشل المتكرر أمام عدن فقد استطاع دي سلفيرا في فبراير سنة ١٥٣٠ عقد معاهدة مع حاكم عدن اعترف فيها بالسيادة البرتغالية على عدن ، ودفع جزية سنوية للبرتغاليين ٠ واعترف البرتغاليون بحق العدنيين في الملاحة في المحيط الهندي بشرط عدم ذهاب سفنهم الى جدة (٥٧) ٠ ولضمان تنفيذ بنود المعاهدة ترك البرتغاليون احدى سفنهم الحربية وعليها أربعون برتغاليا في ميناء عدن ٠ ولم يكتب لتلك المعاهدة الاستمرار الا مدة قصيرة بعد رحيل دى سلفيرا عن عدن ، اذ قبض حاكم عدن على البرتغاليين الموجودين في الميناء وسجنهم واستخدمهم في صنع الأسلحة ، وأعلن دخوله في طاعة العثمانيين (٥٨) ٠

حاول البرتغاليون في سنة ١٥٢٣ استعادة مبعوثهم من بلاط ملك الحبشة فأرسلوا حملة هاجمت الشحر ونهبته أثناء ذهابها الى مصوع ، ولكنها فشلت في تحقيق هدفها (٥٩) ٠ ولم ييأس البرتغاليون من استعادة سفيرهم فأرسلوا الحملات السنوية الى البحر الأحمر حتى أمكنهم استعادته في أوائل سنة ١٥٢٦ (٦٠) ٠ وكان المبعوث البرتغالي يحمل خطابين من ملك الحبشة ، كما صحبه سفير من قبل ملك الحبشة ٠ وفي هذين الخطابين أعلن ملك الحبشة عن رغبته في قيام تعاون بينه وبين البرتغال ، ولكنه لم يعلن عن رغبته في الاشتراك مع البرتغاليين في اعلان الحرب على المسلمين ، وفي نفس الوقت أخذ يحرض ملك البرتغال على الاستمرار في محاربة المسلمين حتى يتم القضاء عليهم نهائيا ، والاستيلاء مرة أخرى على بيت المقدس ٠ واذا كان ملك الحبشة لم يحدد في خطابيه كيفية التعاون مع البرتغاليين فقد طلب منهم أن يقدموا له المساعدات حتى يستطيع الوقوف في وجه القوى الاسلامية المحيطة به ٠ كما طلب ابقاء البعثة الدينية البرتغالية الموجودة في الحبشة لنشر الدين المسيحي في جميع جزر البحر الأحمر الواقعة على الحدود الحبشية ، لأن جميع سكانها من المسلمين والوثنيين (٦١) ٠

كان نجاح البرتغال في التحالف مع الحبشة معناه امكان تطويق العالم العربي من ناحية الجنوب ، وفي نفس الوقت يمثل تهديدا خطيرا ومباشرا للأماكن الاسلامية المقدسة في الأراضي الحجازية ٠ ولكن ذلك التحالف كان يحمل منذ البداية عوامل فشله بسبب اختلاف وجهتي نظر المتحالفين ، واختلاف مذهبيهما الديني ٠ فالأحباش يعتنقون الديانة المسيحية على المذهب الأرثوذكسي بينما يعتنق البرتغاليون الدين المسيحي على المذهب الكاثوليكي ٠ ومن ناحية الأهداف كان الأحباش يرغبون في أن يساعدهم البرتغاليون على

تطوير بلادهم حتى يستطيعوا الوقوف أمام الامارات الحبشية المسلمة المجاورة لهم · كما كانوا يرون أن تتعاون جميع الدول المسيحية الاوربية مع البرتغال بارسال قواتها الى البحر الأحمر ، وتستولى كل دولة من هذه الدول على أحد المواقع الهامة الواقعة على البحر الأحمر ، فتحتل أسبانيا زيلع ، وتحتل فرنسا سواكن ، بينما تحتل البرتغال مصوع · وفي نفس الوقت تساعد القوات المتحالفة الحبشة في الزحف على البلاد الاسلامية والاستيلاء على جدة ومكة والقاهرة وغيرها من المدن الاسلامية المهمة · وكان معنى هذا الاقتراح القضاء على احتكار البرتغال لطريق رأس الرجاء الصالح · وكان البرتغاليون يهدفون من وراء ذلك التحالف اتخاذ الحبشة قاعدة عسكرية لهم ، واستغلال ثروات الحبشة ، وتحويل الأحباش من المذهب الاورثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي ، وما أن تبين الأحباش تلك الأهداف حتى عملوا على طرد البرتغاليين من ونجحوا في تحقيق ذلك في أوائل القرن السابع عشر (٦٢) ·

كان هناك عامل آخر ظهر الى حيز الوجود وأثر على موقف الأحباش من البرتغاليين هو ظهور الأتراك العثمانيين في البلاد العربية ، فقد خشى ملك الحبشة أن يؤدي تحالفه مع البرتغاليين الى مهاجمة القوات العثمانية لبلاده ، أو التدخل في تعيين رئيس أساقفة الحبشة التي كانت كنيستها تتبع كنيسة الاسكندرية ، وكان بطريرك الاسكندرية هو الذي يعين رئيس أساقفة الحبشة · كما خشي ملك الحبشة أن يؤدي نشاط العثمانيين في المنطقة الى اثارة القلاقل في الحبشة من جانب الامارات الحبشية المسلمة · ولهذه الأسباب فضل الأحباش عدم عقد اتفاقيات محددة مع البرتغاليين بل ان الأمر وصل بهم إلى درجة التبرم من مبعوثهم في بلاط ملك البرتغال (٦٣) ·

وهكذا فعلى الرغم من محاولات البرتغاليين المتكررة الاستيلاء على مواقع استراتيجية على سواحل البحر الأحمر للقضاء على السيطرة الاسلامية على مياهه والوصول الى الأماكن المقدسة الاسلامية في الأراضي الحجازية لتدميرها والقضاء على الدين الاسلامي فانهم لم يستطيعوا الوصول الى هدفهم بسبب الجهود التي بذلها المصريون ، وخوف الأحباش من الأهداف البرتغالية ، ثم ظهور الأتراك العثمانيين كقوة اسلامية كبيرة يخشى خطرها في مياه البحر الأحمر ·

د· سعد زغلول عبد ربه
أستاذ التاريخ الحديث
كلية الآداب ـ جامعة طنطا

الهوامش

1. Strands, J.; Portuguese Period in East Africa, pp. 13 - 30.
2. Strands, J.; ibid. pp. 39, 43.
3. Strands, J.; ibid. pp. 43 - 45.
4. Strands, J.; ibid. p. 56.

٥ ـ احمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج ، ص ١٣٧ .

6. Kammerer, A.; La Mer Rouge, tome, p. 155. Barbossa, D. ; The E. African and. . .p. 61.

٧ ـ زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين صص ٤٠ ـ ٤١ .

Stephens. H.M. ; portugal, p. 197.

٨ ـ نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية .. صص ٣٠ ـ ٣١ ـ ٤١ .

Barbossa, D. : op. cit. p. 61, Kammerer, A. : op. cit., II. pp. 157, 174.

9. Kammerer, A. : ibld. II, pp. 157, 230.

١٠ ـ قطب الدين النهروالي : البرق اليماني في الفتح العثماني ص ١٩ .

١١ ـ ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ٤ ، ص ٢٠٩ .

Kammerer, A. : op cit., II, p. 232.

١٢ ـ ابن اياس : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ١٨٥ .
١٣ ـ ابن اياس : نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٩٦ .
١٤ ـ ابن اياس : نفس المرجع ، جـ٤ ، ص ١٩٦ .

Heyd, W. : Histoire du Commerce. . .II, pp. 537 - 539, Depping, G. B. : Histoire du commerce. . . II, p. 270.

15. Darnes, M. The Book of Duarte Barosa, pp. 46 - 47.

16. Darnes, M : ibid., p. 47 Depping, G. B. : op. cit., II, p. 219.

17. Depping, G.B. : ibid., II, p. 219, Darnes, : op. cit., pp. 48 - 49.

18. Darnes, M : ibid., pp. 46 - 47.
19. Wilson, A.T. : The Parsian Gulf, p. 118.
20. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 178, Wilson, A.T. : op. cit., pp. 118 119.

٢١ ـ با مخرمة : تاريخ ثغرة عدن ، جـ١ صص ١٢ ـ ١٣ ، ١٦ ـ ١٧ .

٢٢ ـ با مخرمة : قلادة النحر ، جـ٣ ص ١١٩٤ .

23. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.
24. Marco, E. : yemen and the Western World, p. 1.
25. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 186.

٢٦ ـ احمد دراج (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٥٥ .
27. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 192 - 193.

٢٨ ـ با مخرمة : قلادة النحر ، جـ ٣ ص ١١٩٥ .
29. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 193, Serjent, R.J. : The Portuguese ... p. 169.

٣٠ ـ يحيى بن الحسين : غاية الاماني ... ص ٦٤٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, p. 205.

٣١ ـ ابن اياس : المرجع السابق ، جـ٤ ، ص ٣٠٨ ، ٣١٠ ـ ٣١١ ، ٣٦٢ ـ ٣٦٦ ، ٤٥٨ ـ ٤٦٥ ، ٤٦٦ ـ ٤٦٧ .
32. Kammerer, A. : op. cit., II, 231 - 232.

٣٣ ـ انظر ص ٩ من هذا البحث .

٣٤ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II, 231.

٣٥ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٢ .

٣٦ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، ص ٢٠ .
Kammerer, A. : op. cit., II. p. 233.

٣٧ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٤ .
38. Denison, R. : The Portuguese in India and ... (J.P. A.S.) Oct. 1921, p. 560.

٣٩ ـ جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر ... ص ٢٠٣ .
٤٠ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٤٧ .
٤١ ـ قطب الدين النهروالي : المرجع السابق ، صص ٢٣ ـ ٢٤ .
٤٢ ـ السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الاول ، ص ٨٧ .
٤٣ ـ انظر ص ٨ من هذا البحث .
44. Kammerer, A. : cit., II, p. 265, wilson, A.T. : op. cit., p. 120.
45. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 205 - 266.

٤٦ ـ يحيى بن الحسين : المرجع السابق ، ص ٦٥٨ .
47. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 277.

48. Marco, E. : op. cit., p. 1, Kammerer, A. : op. cit., II, 267 - 269.

49. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 170.

50. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 269, 272.

51. Kammerer, A. : ibid., II, pp. 273 - 274.

52. Marco, E. : op. cit., p. 2, Kammerer, A. : op cit., II, p. 275.

53. Dames, M.L. : The Portuguese and ... (J.R.A.S.) Jan. 1921, pp. 12 - 13, Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 266 - 267, wilson, A, T. : op. cit., p. 123.

54. Kammerer, A. : op. cit., II, p. 276.

55. Serjeant, R.J. : op. cit., p. 171.

٥٦ ـ با مخرمة : قلادة النحر ... جـ٣ ، ص‌ص ١٢٠٩ ـ ١٢١٠ .

57. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 283 - 288.

58. Serjeant, R,J. : op. cit., pp. 55 - 59, wilson, A.T. : op. cit., p. 121.

59. Serjeant, R.J. : op. cit., pp. 52 - 53.

60. Kammerer, A. : op. cit., II, pp. 285 - 286.

61. Alvarez, F. : Narrative of the Portugnese Embassy ... pp. 389 - 399.

62. Alvarez, F. : ibld. pp. 311 - 312.

63. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to A byssinia ... pp. xxviiixxix.

المراجع

اولا ـ مخطوطات :

١ ـ با مخرمة (أبو محمد عبد الله الطيب) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ٣ أجزاء .

٢ ـ جمال الدين محمد الشبلي : السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر .

ثانيا ـ مراجع باللغة العربية :

١ ـ ابن اياس (أبو البركات محمد بن أحمد الحنفي) : بدائع الزهور في وقائع الدهور جـ٤ ، القاهرة .

٢ ـ أحمد دراج (دكتور) : المماليك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ .

٣ ـ السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الأول لليمن ، القاهرة ١٩٦٩ .

٤ ـ با مخرمة (أبو عبد الله الطيب) : تاريخ ثغر عدن ، جزءان ، ١٩٦٣
٥ ـ زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، لشبونة ١٨٩٨ .
٦ ـ قطب الدين النهروالي : البرق اليمـــاني في الفتح العثماني ، الرياض ، ١٩٦٧ .
٧ ـ نعيم زكي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتهـا بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٨ ـ يحيى بن الحسين : غاية الأماني في أخبار القطر اليماني ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

ثالثا ـ مراجع باللغتين الانجليزية والفرنسية :

1. Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssiniu during the years, 1520 - 1527, London, 1881.
2. Barbosa, D, : A Description of the Coast of E. Africa and Malabar in the beginning of the Sixteenth Century, London, 1866.
3. Castanhoso, M. : The Portuguese Expedition to Abyssinia in 1541 - 1533, London, 1902.
4. Dernes, M. : The book of Duarte Barbosa, 1518,2 vols, London, 1921.
5. Depping, G. B. : Histoire du Commerce entre le Levant I; Europe, 2 vols, Paris, 1830.
6. Heyd, M. : Histoire du Commercedu Levant, 2 toms, Leipzig, 1925.
7. Kammerer, A. : La Mer Rouge ..., 2 tomes, Le Caire, 1929, 1935.
8. Marco, E. : Yemen and the Western World, London, 1968.
9. Serjeant, R.J. : The Poruguese off the south A frican coast, Oxford, 1963.
10. Stephens, H. M. : Portugal, London, 1891.
11. Strandes, J. : The Portuguese Period in East Africa, Nirobi, 1961.
12. Wilson, R. T. : The Persian Gulf, London, 1945.

رابعـا ـ دوريـات :

1. Journal of Royal Asiatic Society (J.R.A.S.) : Jan., Oct., 1921.

تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة

للدكتور محمد أمين صالح
أستاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الآداب - جامعة القاهرة

تتضح أهمية مواني‌ء ساحل مالابار مثل قاليقوط وبابل وكوش وكولم ، وأيضا مواني‌ء ساحل جوجارات مثل ديو وكمباي في كونها مستودعات لبضائع الشرق الأقصى الواردة من الصين وجزر الهند الشرقية والملايو ، فضلا عن قربها من مصادر انتاج التوابل وخاصة الفلفل على منحدرات الجهات الغربية • ومن هذه المواني‌ء الهندية تخرج الرحلات البحرية الى هرمز على الخليج العربي أو عدن التي اشتهرت كميناء رئيسي تنهي فيه السفن الهندية رحلاتها الموسمية حيث تفرغ شحناتها من بضائع الشرق الأقصى وافريقيا ، وتقفل راجعة بمنتجات الشرق الأدنى وأوربا • أما البضائع الشرقية فتنقل من عدن شمالا اما بطريق القوافل غرب الجزيرة العربية واما على سفن أخرى صعيدا في البحر الأحمر •

وتسير القوافل من عدن الى مكة برا في طريقين • أحدهما طريق الجادة السلطانية بساحل تهامة ، والثاني الطريق الجبلي مارا بصنعاء وصعده وجرشي ونجران • وتنشط القوافل في مواسم الحج لتغذية أسواق الحجاز ببضائع الشرق الأقصى التي يقبل على شرائها الحجاج والتجار الذين يأتون مع المحمل ، ويعودون في طريق بري معروف • يبدأ من مكة الى ايلة حيث ينفصل المركب المصري عن المركب الشامي • ويسير الأخير في وادي عربة الذي يربط خليج العقبة بالبحر الميت لتنفذ منه التجارة الى مدن الشام ومواني‌ها • أما المركب المصري فانه يعبر صحراء سيناء مارا بنخل ووادي سدر وعيون موسى الى السويس ومنها الى القاهرة مارا بعجرود وشيخ التكروري والحمرا والبويب الى الريدانية التي حلت محلها بركة الحاج بعد عام ٨٤٥ ــ ١٤٤٢ حيث كان يتوقف الحجاج وجمهرة التجار ويأتي اليهم سكان القاهرة لاستقبالهم وحيث أيضا كانت تتم بعض الصفقات •

أما الطريق البحري فكانت السفن تخرج من عدن لتدخل البحر الأحمر الى عدة مواني‌ء : جدة أو ينبع في موسم الحج أو بعده أو من عدن رأسا الى أربع مواني‌ء مصرية وهم على الترتيب في الأهمية : الطور ــ عيذاب ــ

القصير ـ السويس ، الى أن حدث التطور الجديد لتجارة البحر الأحمر منذ الربع الثاني من القرن التاسع الهجري ـ العاشر الميلادي ٠

هذا وقد أشرف على تجارة البحر الأحمر واستفاد منهـــا ثلاث قوى سياسية هي : الدولة الرسولية ثم الطاهرية باليمن ، جماعة الأشراف حكام الحجاز في اطار التبعية للدولة المملوكية بمصر ، ولقــــد كان من المنتظر أن يقوم التعاون والاتفاق الكامل بين هذه القوى المشرفة على تجارة ذلك البحر بما يحقق منافع اقتصادية لها جميعا غير أن الدارس لهذه العلاقات يجد أمرا عجيبا ٠ كل منها له سياسة خاصة يحقق منفعة ذاتية على حساب الاخرى دون اعتبار لمصلحة عامة مشتركة ٠

فالحكام الرسوليون باليمن منذ مطلع القرن التاسع الهجري عدلوا عن السياسة الرشيدة التي اتبعها أسلافهم ، بكثرة المظالم ومصادرة الأموال على عهد الملك الناصر ٨٠٣ ـ ٨٢٧/١٤٠٠ ـ ١٥٢٣ ، مما جعل التجار يخرجون من عدن الى الهند أو الى جدة تاركين أموالهم ، كما جعلت قادة السفن الهندية يفكرون في تفادي عدن والابحار مباشرة الى موانيء أخرى في البحر الأحمر لتفريغ شحناتهم وهو ما حدث عام ١٤٢٢/٨٢٥ عندما خرج ناخوذاه هندي بسفينته من قاليقوط وأراد تجنب طغيان السلطات اليمنية في عدن ، فعبر باب المندب وتوجه الى جده ٠ فهل كانت الأحوال بالحجاز تجعــــله مستعدا للاستفادة من هذا التطور الجديد في تجارة البحر الأحمر ؟ ٠

نجد بيوت الأشراف من بني قتادة الحسينيين في نزاع دموي ضد بعضهم البعض بصفة عامة وضد الأمير القائم منهم بصفة خاصة ٠ ممـــا أدى على فقدان الأمن المناسب لمواسم الحج والتجارة بما كان يحدث من عدوان مستمر على السفن الواردة الى جدة أو نهب للبضائع المكدسة في مستودعاتها أو مصادرة أموال التجار الوافدين والمقيمين على السواء فقد نهبت جدة مثلا في عام واحد وهو عام ٧٨٩ ـ ١٣٨٧ مرتين من كلا الفريقين المتنازعين ٠

وقد تدخلت السلطات المصرية في محاولات التوفيق واسترضاء الأطراف الطامعين في الامارة فولى اثنان منهما اتفقا على نصف الامارة عام ٧٩٢ ولكل منهما وكلاء في مكة للحكم وبعضهم لتحصيل حقوق سيده ٠ وفشلت هــذه الوسيلة في تحقيق الأمن المنشود بما حدث من اشتداد نواب الحاكمين بالحجاج والتجار في موسم عام ١٣٩١/٧٩٣ ونهب حجاج اليمن بطريق مكة ـ نهبا فاحشا وكذا نهب الحجاج المصريين ولم ينج منهم الا من نزل بصـــحبة أمير الحج المصري وبعض الأشراف المسالمين ٠

وعادت السلطات المصرية الى تركيز الولاية في آل عجلان الأقوياء فولى منهم علي بن عجلان ٧٩٤ ـ ١٣٩٢/٧٩٧ ـ ١٣٩٤ ثم أخوه حسن بن عجلان ٧٩٧ ـ ١٣٩٤ وعمل الاثنان بسياسة واحدة وهي الاشراف على شئون الحج والتجارة بحماية قوافل تجار اليمن عسكريا ، واخضاع الأشراف الثائرين وان اختلفت وسيلة كل منهما ٠ فالأول حاول استرضاء الأشراف بالأموال ومع ذلك فلم يتورعوا عن مهاجمة جدة في ربيع الاول ٧٩٥/ينـــاير ـ فبراير ١٣٩٣ طمعا في سفينة مصرية مشحونة بالغلال أنعم بها السلطان على أمير مكة واضطر هذا الى اعطائهم منها ٥٠٠ غرارة حتى يخرجوا عن جدة ٠ ومع ذلك ظلوا يفسدون في الطريق مما ألجأ تجار الكارم الى الاعراض عن جدة والتوجـــه الى ينبع ميناء المدينة فلحق الأمير ضرر كبير واضطر الى أخــذ أموال من المجاورين بمكة ليسد مطالب الأشراف المتزايدة ومازال حريصا على ارضائهم الى أن قتل في شوال ٧٩٧/أغسطس ١٣٩٤ أما الثاني فقد لجأ الى سلاح القوة لاخماد شوكة الأشراف المناوئين فاوقع بهم كارثة في موقعة الزبارة شعبان ٧٩٨/يونيه ١٣٩٦ ٠ واذا كان أمير مكة قد فاته النفع في موسم هذه السنة لعدول تجار اليمن عن جدة الى ينبع بسبب تلك الحرب فانه ضمن الأمن الداخلي وقلت حوادث الثورات والنهب نسبيا عن ذي قبل واستحق شكر السلطان ٠ كما عمل على طمأنة تجار اليمن وترغيبهم في العودة الى جدة سواء بقيامه شخصيا بحراسة التجار في رحيلهم الى مكة وفي العودة اذا لاح شبه خطر ، أو باسقاط الثلث من قيمة الضرائب الجمركية الواجبة ثم أنه عين موظفا خاصا مسئولا عن جدة قام بعدة اصلاحات في الميناء وحــدد مرتبات للاشراف مبطلا رسومهم التي كانت تؤخذ من التاجر عند الجباية ٠ وبذلك قطع صلة الأشراف بالتجار وأراحهم من مطالباتهم ٠ وبمعنى آخــر جعل أمير مكة بمفرده صاحب الحق في هذه الضرائب ٠ وسرعان ما أتت هذه السياسة ثمارها بعودة تجار الكارم الى جدة وازدياد عددهم من عام الى آخر ٠

وعلى الجانب المقابل لهذه المجهودات الطيبـــة طمع سلاطين المماليك في الحصول على أموال من أمير مكة بدأ ذلك السـلطان فرج الذي تميز عهده بكثرة المصادرات والاقتراض من التجار وفرض ضرائب استثنائية على سائر أراضي مصر لمواجهة غزوات تيمور لنك فضلا عن الغــلاء الذي طرق ديار مصر عام ١٤٠٣/٨٠٦ ـ ١٤٠٤ حتى خربت أراضي مصر والشام ٠ اتجه السلطان فرج في باديء الامر الى طلب المساعدة المالية من الشريف حســن

ابن عجـــلان عام ١٣٠٥/٨٠٨ ـ ١٣٠٦ ثم أجـاب التماسات أمير مكة بمشاركة ابنيه بركات عام ١٤٠٦/٨٠٩ ثم أحمد عام ١٤٠٨/٨١١ معه في امارة مكة وصار الشريف حسن نائبا للسلطنة بالحجاز في مقابل الهـدايا الطائلة ٠

ثم تطور الأمر الى فرض الالتزامات المالية على أمير مكة تحت تهديد العزل ٠ ففي شوال ٨١٢/فبراير ١٤٠٩ عزل حسن بن عجـــلان وولديه بركات وأحمد ثم أعيدوا الى مناصبهم في الشهر التالي في مقابل التزامات مالية سنوية وجاءتهم الخلع والتقاليد صحبة فيروز الساقي في موسم حج هذا العام ليقبض ما التزم به الشريف حسن ٠ فحصل منه ألف زكيبة للسلطان غير ما لفيروز وشحنت المراكب بحضوره ووصلت سالمة الى مصر بطريق الطور وبيعت بخمسين ألف مثقال ٠ وعندما تأخر الشريف حسن بعد ذلك عن ارسال الهدية « مقابل ما التزم به » أرسل له السلطان يعتب عليه تقصيره في الخدمة فاسرع هذا بارسال الالتزام المالي بعد انقضاء موسم حج عام ٨١٤ ٠

وموضع الأهمية في هذه الالتزامات المالية هو التجاء الشريف حسن الى تعويضها أو استخلاصها من تجار الكارم والتجائه الى استخدام بعض الوسائل غير المشروعة لسدادها تجنبا لعزله من منصبه كالاقتراض من التجار مع عدم الوفاء لهم أو القبض عليهم وابتزاز بعض أموالهم أو فرض مبـــالغ طائلة عليهم نظير اصلاح سفنهم في مرفأ جدة دون اتباع القاعدة في أن يأخذ نسبة الربع فقط من قيمة البضائع المحمولة على تلك السفن المعطوبة ٠ وأدت تلك الاجراءات الى سخط تجار الكارم وتدخل ملك اليمن لصالح تجاره ٠ فسعى لدى السلطان المؤيد شيخ لعزل الشريف حسن بن عجلان وولديه بتزكية تولية أحد الأشراف الثائرين ٠ فاستبدل بالشريف رميثة بن محمد بن عجلان. وهكذا تحول الأمير السابق الى مناوىء خطير للأمـــير الجديد في الفترة من ربيع الاول ٨١٨ الى رمضان ٨١٩ ٠ ثم أعيد الشريف حسن مرة أخرى الى منصبه بعد أن استرضى السلطان بالهدايا وقدم وعده باسترضاء ملك اليمن ٠ وبالفعل أحسن الشريف حسن معاملة تجار الكارم الذين وصـــلوا في صفر ٨٢٠/مارس أبريل ١٤١٧ ، كما تنازل عن بعض الضرائب على تجارة الملك الناصر معتذرا عما أخذه للحاجة اليه ٠ فأعجب ذلك الملك اليمني حتى أنه أمر تجاره بقصد جدة في هذا الموسم فقدموا بأعداد أكبر من كل سنة واستطاع الشريف حسن الوفاء بالتزاماته قبل السلطان المؤيد وهو ٣٠ ألف مثقال

دفعت على أقساط كان آخرها نحو ألف افلوري دفعت في موسم الحج عام ١٤٢٠/٨٢٣ بعد مطالبات متعددة من جانب السلطان .

كل هذه الأمور تجعل الحجاز في غير حالة مستقرة مناسبة وغير مأمون العواقب لتجار جدد كما حدث لهذا الناخوذة الهندي الذي قدم جدة لأول مرة عام ١٤٢٢/٨٢٥ وليس له من قوة سياسية تحميه مثل ما كان يقدمه ملك اليمن حماية لتجاره . وتعرض للنهب من جانب أمير مكة . بأن استولى على جميع ما معه من بضائع ووزعها على التجار بالثمن الذي حدده ــ فالتجأ هذا الناخوذة عند قدومه في السنة التالية الى البحر الأحمر الى سواكن ودهلك حيث لقى أيضا سوء المعاملة وكان على سلاطين الجراكسة اتخاذ الاجراءات الحازمة اذا هم أرادوا الاستفادة من هذا التطور الجديد من قدوم البضائع الشرقية الى البحر الأحمر مباشرة دون وساطة عدن وتولى زمام التجارة الشرقية والتعامل مباشرة مع تجارة الشرق .

بدأ السلطان برسباي بأن أرسل خطابا الى الشريف حسن يندد فيه بعمله السيء ويعتب عليه أخذ فلفل التجار الواصلين الى جدة من قاليقوط ويأمره برد ذلك اليهم . ثم أرسل قوة عسكرية مع بعثة الحج في موسم ١٤٢٣/٨٢٦ للقبض على الشريف حسن ولكن هذا نزح عن مكة . وعاد أمراء الحج الى مصر وبقى الأمير قرقماس الشعباني أحد أمراء الألوف في ينبع وأرسل يطلب المدد لقتال الشريف حسن واقرار بدله في امرة مكة . فجاءته قوة من ١١٤ فارسا دخل بهم مكة في جمادى الاول ٨٢٧ مايو ١٤٢٤ بمن كان معه من الجند ومن انضم اليه من أهل ينبع وكذلك الشريف علي بن عتان بن مغامس الذي قرىء مرسوم توليته عوضا عن الشريف حسن ، وتوجه الأمير الجديد بعد يومين الى جدة لاستقبال مركبين وصلتا من قاليقوط وعومل التجار الهنود هذه المرة معاملة حسنة مما شجعهم في العام التالي على القدوم بأربع عشرة سفينة موسوقة بالبضائع ثم زيادة عن أربعين سفينة عام ١٤٢٦/٨٢٩ وتبعا لذلك بدأ أفول عدن ازاء صعود جدة التي بدأت تتركز فيها تجارة البحر الأحمر .

وأمام هذا التطور الجديد في تجارة البحر الأحمر صار على الدولة المملوكية أن تمضي قدما في بسط سلطتها الفعلية على الحجاز واقرار الأمن والنظام تمهيدا للدور المنتظر لجدة في عالم التجارة علاوة على اصدار مراسيم بتنظيمات عسكرية وادارية ومالية تحكم بها مصر السيطرة على تجارة البحر الأحمر .

أولا ـ استمر الأشراف في حكم مكة لكنهم كانوا أكثر خضـــوعا من أسلافهم نظرا للاجراءات الجديدة • فقد أوجد برسباي قوة عسكرية دائمة في مكة تعزز سنويا في موسم الحج وفي وقت وصول السفن الهندية ، وتزيد في حالة الضرورة • كذلك أكمل برسباي النفوذ المصري في المدينة المنورة وينبع التي كان حكامها يستفيدون من تحول السفن اليمنية اليها مع ضمان الاتصال السريع بالحجاز بأن بدأ منـــــذ عام ١٤٣٤/٨٣٨ ـ ١٤٣٥ سفر الوحدات العسكرية بحرا من الطور الى جدة متجنبة مخاطر البدو في الصحراء علاوة على حفر الآبار وحفظ الامن في طريق الحج والتجارة البري •

هذا وقد اكتفى برسباي بهذه الاجراءات العســكرية لاقرار الامن والنظام بدلا من القضاء على سلطان الأشراف وفرض السيادة المصرية التامة على الحجاز دون منازع أو شريك منهم وهذا الأمر الذي فكر فيه من قبل كل من السلطان محمـــــد بن قلاوون عام ١٣٣١/٧٣١ والسلطان شـــعبان عام ١٣٦١/٧٦٢ للتخلص نهائيا من ثوراتهم ومنازعاتهم المستمرة التي كانت تؤثر على النشاط التجاري بمكة • وربما كان انشغال برســـباي بمسألة قبرص ومحاولة القضاء على القرصنة في البحر المتوسط قد أبعد تنفيذ هذه الفكرة رغم ماقدمه الأمير بشبك الساقي من نصيحة الى السلطان بالاستيلاء على بندر جدة •

صحيح أنه قد ساد الامن االنسبي بالحجاز لفترة طويلة الا أن القلاقل والاضطرابات ثارت بصورة مفزعة بعودة بني حسن بن عجلان الى النزاع المسلح بينهم مدة خمس سنوات ٩٠٦ ـ ١٥٠٠/٩١٠ ـ ١٥٠٤ فنبهت جدة ومكة وكذلك القوافل بينهم عدة مرات ومنع سفر النساء للحج عامين متتاليين ٩٠٨ ، ٩٠٩ • وماكادت الامور تهدأ قليلا حتى تعرض الحجاز مرة أخرى لثورة عاتية استمرت الى عام ١٥٠٨/٩١٤ ـ ١٥٠٩ تزعمها كل من أمير ينبع وأمير خليص والتف حولهما العربان حتى منع السلطان سفر الحجاج قاطبة بين مصر والشام وكذلك الركب المغربي والركب التكروري • وهذه أول مرة يحدث فيها منع الحج في العصر المملوكي كله •

وربما كان السلطان الغوري مضطرا لاتباع سياسة التسامح لانهاء الثورات الدامية لاسيما وقد عاصر هذه الأحداث اضطراب الأحوال الداخلية في مصر لقلة الأموال وكذلك ثورات المماليك الجلبـــان من ناحيـــة ، بدء تواجد البرتغاليين في البحار الشرقية واقتراب الخطر الذي يهدد بضياع

تجارة البحر الأحمر وبالتالي كيان مصر الاقتصادي من ناحية أخرى . وأدت الأحوال في ذلك الوقت الى توزيع جهود مصر وقواتها العسكرية بدلا من التركيز في جبهة واحدة مما أضاع وقتا ثمينا تمكن فيـــه البرتغاليون من تثبيت أقدامهم في بحار الهند .

ثانيا ــ استمر بندر جدة في الازدهار ووصفها المعاصرون بأنها من أعظم الموانيء على البحر الأحمر . فقد اهتمت الحكومة باصلاح المينـــاء عام ١٤٢٨/٨٣١ وجعله صالحا لاستقبال أكبر عدد من السفن التي بلغت سنويا ما ينوف عن مائة سفينة منها مراكب كبيرة ذات سبعة أشرع . كذلك عملت الحكومة على تركيز تجارة البحر الأحمر في جدة حتى تضاءلت بجانبها الموانيء الاخرى على ساحل البحر الغربي مثل عيذاب والقصير بل لقد قضى عليهما تماما وأقفـــل الطريق البري منهما الى قوص . وكان قد تعرض لهجمات قبائل بني كنز وعرب الهوارة الذين سيطروا تماما على منطقة أسوان منذ أوائل القرن الخامس عشر . ونظرا لانعدام الامن في جنوب مصر أخذ نشاط ميناء عيذاب التجاري يتقلص تدريجيا ، كما أقل من قبل كميناء لمرور وتحول ذلك كله الى الطور الأمر الذي أعطى جدة ميزة مسبقة كونها محطة في منتصف الطريق بين عدن والطور وظلت عيـــذاب تحتفظ ببعض النشاط التجاري الى أن قرر برسباي تخريبها عام ١٤٢٦/٨٣٠ لتتفرد جدة بتجارة البحر الأحمر ، كما هوجمت سواكن عام ٨٤٤/٨٤٣ لنفس الغرض أيضـــا .

ويقرر أحد الباحثين أن الدافع الأساسي من قيام السلطات بتخريب عيذاب لم يكن الرغبة في ازالة ميناء ينافس جدة ، وانما كسر شوكة قبائل الكنز لأن تخريب هذا الثغر يعطل مصالح تلك القبائل ويؤثر على حياتهم . وقوله مردود بأن هذه المصالح قد أضيرت فعلا بسبب قلاقلهم وافسادهم في الصحراء الشرقية وتعديهم المستمر على صعيد مصر فاضاعت تجارة عيذاب وما كانت مصالحهم تتحقق الا بسلوكهم وعلاقتهم السلمية مع مصر . كما لم تكن منافسة خطيرة تدعو الى ازالة الاولى لتبقى الثانية ولكن الأمر كما تعتقد هو جعل هذا الميناء الأوحد للتجارة الشرقية في البحر الأحمر . وضمان تركيز جميع العمليات التجارية في جدة لتحصل الحكومة على الضرائب المقررة على تجارة العبور .

ويفسر هذا الغرض أيضا أسباب تغير سياسة مصر ازاء اليمن . فقد

كان من الطبيعي أن يتأثر مركز عدن التجاري تأثرا مباشرا من منافسة جدة مما جعل الملك المنصور عبد الله ٨٢٧ ـ ١٤٢٣/٨٣٠ ـ ١٤٢٦ يقوم بمنع مرور ثلاث سفن هندية الى البحر الأحمر عام ٢٤/٨٢٨ ـ ١٤٢٥ • لذا أراد برسباي ردعه حرصا منه على مستقبل جدة وأشار عليه البعض بالاستيلاء على اليمن • غير أن برسباي أرسل وفدا كان له مظهر سلمي مكلف بالتعرف على الأحوال هناك • ونزل هـــذا الوفد المكون من خمســـين من المماليك السلطانية على بني يعقوب وتوجه الأمير بريقا التنوبي ومعه خمســـة منهم لمقابلة الملك المنصور ومعه هدية وكتاب من السلطان يطلب مالا للمساعدة على قتال الفرنج في قبرص •

وبينما كان الملك يستعد لاجابة مطالب السلطان قام بقية المماليك بنهب بعض الضياع وقتل بعض الرجال • عند ذلك تنبه الملك وشـــك في نواياهم وطردهم من أرضه وعزم برسباي على الانتقام غير أنه شغل بغزو قبرص واستمر الملك الظاهر يحى ٨٣١ ـ ١٤٢٧/٨٤٢ ـ ١٤٣٨ في سياسة سلفه باجبار تجار الشرق بالقوة كي يرسوا في عدن • فأشاع برسباي أنه يعد حملة لمهاجمة اليمن فخاف الملك يحى وارسل يقسم للســـلطان أنه سوف لا يتعرض للسفن المارة وسيترك لها الحرية في اختيار الميناء الذي ترغبه •

بالاضافة الى ذلك قرر برسباي عام ١٤٣٤/٨٣٨ مضاعفة الرســوم الجمركية (العشر) على التجار المصريين والشاميين ، ومصـــادرة بضائع التجار اليمنيين اذا هم اشتروا بضائع من عدن وجاءوا بها الى جدة ، كأنه يريد بذلك أن يخنق اليمن اقتصاديا بعد أن بعدت عنه عسكريا هذا في الوقت الذي بدأت فيه قوة آل رسول في الضعف بسبب الحروب الأهلية وأعمال النهب واحتراق عدن وزبيد حتى سقطت دولتهم وقامت الدولة الطاهرية عام ١٤٥٦/٨٦٠ •

على أن عدن كمستودع تجاري لم يتلاش أمرها أمام ازدهار جدة كما يذكر المؤرخون فقد عاش بعدن كثير من التجـــار وبلغ أعدادها عـــام ١٤٧٨/٨٨٣ ما ينوف عن خمسة مكوك من الذهب ومن نقد الفضة أضعاف ذلك لاستمرار تعاملها مع موانيء الشرق بوصول السفن الهنـــدية اليها أو الخروج منها الى الهند • وبديهي أن يستمر تعامل عدن مع جدة الأمر الذي سيكون له اعتبار عند وضع التنظيمات المالية لتجارة جدة •

ثالثا ـ كان هناك اجراء وقائي اتخذته الدولة للمحافظة على سلامة البحر الأحمر وتجارته • فمنذ زمن الحروب الصليبية كان دخول البحر الأحمر ممنوعا على الفرنج لعدة أسباب دينية حماية للأراضي المقدسة الاسلامية من اعتداءات الصليبيين ، وسياسية خشية قيام تحالف بين الحبشة والمسيحيين الغربيين ، ثم اقتصادية تجنبا لمحاولات الفرنج القضاء على تجارة مصر مصدر ثرائها • ثم خفت وطأة هذا التحريم اذ كان يسمح لبعض الاوربيين وخاصة الايطاليين بدخول البحر الأحمر بعد منحهم جواز مرور من السلطات المصرية • وظل هذا السماح قائما حتى كشف الاتصال الجاري بين اسحق ملك الحبشة والفونسو الخامس ملك أراجون بواسطة التاجر نور الدين علي التبريزي في ربيع الثاني ٨٣٢ يناير ١٤٢٩ للاتفاق على حملة صليبية مشتركة وحرصا على سلامة تجارة البحر الأحمر ، أعيد مرة أخرى اغلاق المرور في البحر الأحمر أمام الأوربيين • وظل هذا الاحتراز قائما ازاء التهديدات المستمرة من جانب زرع يعقوب ملك الحبشة بتجهيز أسطول لأخذ سواحل بلاد الحجاز ، وقد أوشك الايطالي ينكولادي كونتي أن يفقد حياته في جدة أثناء عودته من الهند لولا أنه أنكر مسيحيته فأطلق سراحه والتقى مع بيرو ثافور عند الطور الذي عدل عن فكرته بالسفر الى الهند عند سماعه هذه الأخبار المزعجة • وكذلك البيرو دي‌سارتانو مبعوث البابا ايوجين الرابع ١٤٣١ ـ ١٤٤٧ أراد أن يسلك طريقا بعيدا عن مصر بالوصول الى الحبشة فبدأ من شبه جزيرة القرم الى الخليج العربي وقع أخيرا في أيدي السلطات المصرية في عهد السلطان جقمق • كذلك قبض الشريف بركات بن محمد في جمادى الأول ٩١٦ أغسطس ٩١٠ على ثلاثة أشخاص من الفرنج متخفين في زي الأروام وتحقق أنهم جواسيس بعض ملوك الفرنج وأرسلهم الى القاهرة •

ومع ذلك فقد تمكن بعض الاوربيين من دخول البحر الأحمر والرحيل من الطور الى عدن ثم الى الهند وشرق افريقيا وعادوا الى القاهرة نذكر منهم بدرو دي كوفيلام وزميله الفونس دي بايفا التي كانت رحلتهما بين عامي ١٤٨٨ ـ ١٤٩٠ من أخطر الرحلات لارتباطهما بمشروعات البرتغال • فقد كلفهما ملك البرتغال بمهمة عن مملكة الحبشة واكتشاف المناطق المنتجة للتوابل وكذا استكشاف الطرق التجارية الموجودة وامكانية ايجاد طرق أخرى بديلة • وقد انضم الرجلان الى قافلة مغربية ورحلا بالبر الى الطور ثم بالبحر الى عدن وقد تمكن بدرو دي كوفيلام من الوصول الى الهند قبل فاسكودي جاما

بعشر سنوات فزار كنانور وقاليقوط وجوا ثم عبر المحيط الهندي الى سوفالا على ساحل شرق افريقيا ثم عاد في البحر الأحمر الى الطور ومنها الى القاهرة حيث علم بفقد رفيقه الذي كان قد افترق عنه في عدن للبحث عن مملكة الحبشة · وقد أرسل بدرو دي كوفيلام الى البرتغال معلومات ثمينة كانت بلاشك دافعا قويا لها على استئناف بعثاتها الكشفية · وكذلك توجد قصص عديدة عن التجار الايطاليين الذين كانوا يتاجرون في مصر في القرن الخامس عشر ويذهبون الى آسيا · وقد وجد فاسكودي جاما الكثيرين منهم عند وصوله قاليقوط عام ١٤٩٨ ·

ولكن لم تستطع أوربا أبدا الحصول على السلع الشرقية مباشرة من مناطق انتاجها وانما كانت دائما مضطرة الى البيع والشراء مع مصر لأنه لا يمكن لأية بضاعة من التوابل أن تمر أو تباع في أي مكان الا في بلاد السلطان لأن الحكومة المصرية هي السيد المطلق في البضائع الشرقية التي تصل عبر البحر الأحمر بسبب التنظيمات المالية والاحتكارية لتجارة البحر الأحمر ·

رابعا ـ كانت القاعدة في الرسوم الجمركية هي قيمة العشر في البضائع التي يأتي بها التجار من عدن الى الموانيء المصرية · فبدأ تحصيل ضريبة الوارد هذه من التجار الهنود في جدة مضافا اليها رسوم أخرى فقررت للناظر والشاد وشهود القباني والصيرفي وغير ذلك من الأعوان وصلت في مجموعها الى نحو ١٥٪ وقد تضرر التجار الهنود من هذه الزيادة في الضرائب علاوة على ما كان يطرح عليهم من المرجان والنحاس أثمانا لبضائعهم · فعاد أغلبهم الى عدن عام ١٤٣٣/٨٣٧ ·

واضطر برسباي ازاء هذا العمل الخطير الى التخفيف عنهم في الموسم التالي بأن كتب في ١٣ صفر ٨/٨٣٨ سبتمبر ١٣٤ بالاكتفاء بتحصيل قيمة العشر فقط ·

ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ في السنوات السابقة أو أنه احتاج الى تعزيز اذ أصدر السلطان جقمق مرسوما آخر عام ١٤٣٩/٨٤٢ يقضي بعدم تحصيل أكثر من العشر على التجار الواردين الى جدة بحرا على أن يؤخذ صنفا لا مالا من كل عشرة واحد ، وبطلان ما كان يؤخذ سوى ذلك من رسوم المباشرين وغيرهم ·

واذا كانت الدولة لم تحاول زيادة هذه الرسوم الجمركية عن قيمة العشر فانها عوضت ذلك بتعدد تحصيل هذا العشر في مراكز جمركية مختلفة كضريبة صادر يرد ذكرها فيما بعد ·

أما عن حقوق الأطراف المعنية في هذه الرسوم فنلاحظ أنه عند بدء عصر الجراكسة وقبل التطـور الجديد لتجارة البحر الأحمر كان للأشراف حكام الحجاز حق جباية هذه الضرائب لصالحهم من التجار الذين يأتون برا من اليمن ومن العراق الى مكة في الموسم وأيضا من التجار الذين يأتون من اليمن بحرا الى جدة · وتبعـا لذلك قام الشريف علي بن عفان بتحصـيل الرسوم الجمركية على السفينتين الهنديتين اللتين وصلتا جـدة في جمادى الأول ٨٢٧/أبريل ١٤٢٤ لصالحه غير أن الحكومة المصرية استحدثت نظارة جدة كوظيفة سلطانية يخلع على متوليها كل عام ويسافر الى جدة صحبة القوة العسكرية المجددة ويتواجد بها وقت وصول المراكب الهندية اليها وهو المكلف بجميع الضرائب الجمركية على البضائع الشرقية · وأول من عين لهذا المنصب ابراهيم بن سعد الدين المشهور بابن المرة سافر من مصر في ربيـع الاول ٨٢٨/فبراير ١٤٢٥ الى جدة ليستقبل وصول أربعـة عشر مركبا موسوقة ببضائع الهند ، فأخذ منها العشر · « وهذا أول ما أخذ من العشر لصاحب مصر بجدة » الذي بلغت قيمته سبعين ألف دينار عاد بها ابن المرة الى القاهرة في المحرم ٨٢٩/نوفمبر ــ ديسمبر ١٤٢٥ ومن ثم تعارضت مصالح السلطتين المركزية والمحلية في أحقية كل منهما في هذا المورد المالي فأصدرت الدولة مراسيم بتنظيمات مالية جديدة تحقق بها منفعتها الخاصة ·

ونصت هذه المراسيم على التفرقة بين تجارة البر الواصلة الى مكة وبين تجارة البحر في جدة بالنسـبة للتجارة البرية ثبت للأشراف حقهم في تحصيل المكوس لصالحهم استمرارا لما كانوا يحصـلون عليه من قبل ·

أما العشور على التجارة البحرية الواردة الى جدة سواء بالسفن الآتية من اليمن أو من الهند مباشرة فقد جعلها السلطان برسباي جميعها من حقوق الدولة مستحوذا بذلك على حق سابق للأشراف في مكوس السفن الواصلة الى جدة وقد حصلها الشريف علي بن عفان فعلا لآخر مرة عام ٨٢٧ وحصلها ناظر جدة في العام التالي وجاء بها الى القاهرة كما أشرنا آنفا ·

ولكي يسترضي السلطان أمير مكة عن هذا الاجراء الأخير فانه أجرى مساومة مالية مع الشريف بركات بن حسن بن عجلان · فقد كان أبوه أمير

مكة السابق واللاجيء الى حلي بن يعقوب متجنبا الاحتكاك بالحامية المصرية قد جاء الى القاهرة مصالحا للسلطان في المحرم ٨٢٩/نوفمبر ديسمبر ١٤٢٥ وخلع عليه من جديد ٠ في امرة مكة نظير دفع مبلغ ثلاثين ألف دينار سنويا ٠ وما لبث أن توفى الشريف حسن بالقاهرة في جمادى الاولى ابريل ١٤٢٦ قبل أن يرحل الى مقر حكمه فاستدعى ابنه بركات الذي حضر الى القاهرة في رمضان/أغسطس وخلع عليه بالولاية في ذي الحجة/أكتوبر ملتزما بحمل عشرة آلاف كل سنة وأن لا يتعرض لما يؤخذ بجدة من عشور بضائع التجار الواصلة من الهند أو غيره ٠

وهكذا انقص برسباي عشرين الف دينار من قيمة الالتزام المالي قبل شريف مكة مقابل حق الدولة في حصيلة الرسوم الجمركية على التجارة البحرية جميعا والتي وصلته فعلا أول هذا العام بقيمة سبعين ألف دينار ٠

ولم يكن الأشراف يرضون بهذا الحرمان من حق سابق لهم ٠ فثاروا في رمضان ٨٣١/يونيه ـ يوليه ١٤٢٨ مطالبين بحقوقهم السابقة في جدة قبل وصول السفن الهندية مباشرة اليها ٠ فأرسل برسباي قوة عسكرية قوامها خمسون جنديا بقيادة اسنبغا الطياري أحد أمراء « العشرات تقوية لناظر جدة على حفظ المال » ٠

ومع ذلك فقد رغب برسباي في استقرار الامن بالحجاز ضمانا لرواج التجارة فتنازل في العام التالي للشريف بركات عن ثلث تلك العشور ـ واستمر الحال على ذلك بضع سنين بدون رضاء الشريف بركات الى أن قام بثورة أخرى عام ١٤٣٧/٨٤٠ وانتهى النزاع الأخير بالاتفاق على أن يأخذ أمير مكة نصف الأموال التي تحصل على البضائع الواردة من الهند وعرفت بالهندي تميزا لها عن رسوم التجارة المكية البرية التي عرفت بالعدني فهي من حقوق أمير مكة جميعها ٠ وكل من الهندي والعدني ضرائب جمركية على الواردات ٠

ومن ناحية ثانية أرادت الدولة مشاركة أشراف مكة في العدني أيضا بالنصف مثل مشاركتهم لحق السلطان في الهندي فقد أمر السلطان قايتباي ٨٨٣ ـ ١٤٧٩/٧٨ بتحصيل نصف العدني وأصر السلطان على تنفيذ هذا الأمر رغم مراجعة الشريف محمد بن بركات وناظر جدة له في ذلك ونفذ هذا الأمر مدة عامين ثم عاد قايتباي وانعم بجميع العدني على الشريف في مقابل خدمة السلطان في حجته ٠

كذلك لم يفت الجراكسة تحصيل رسوم جمركية على التجارة المكية بطريق آخر دون المساس بحق الأشراف في العدني وذلك بفرض رسوم جمركية على الصادر من هذه التجارة البرية من مكة الى العراق أو الشام ومصر ٠ واعتبره المقريزي مظلمة جديدة على الحجاج تعليقا على ماذكره في حوادث المحرم ٨٢٩/نوفمبر ـ ديسمبر ١٤٢٥ بالزام التجار الذين اشتروا بمكة وخرجوا في قافلة الحج الى الشام بالحضور الى القاهرة مع المركب المصري لتؤخذ منهم مكوس بضائعهم فنزل التجار والحجاج بركة الحاج وخرج اليهم مباشرو الحج وأعوانهم واشتدوا عليهم وقد نفذ هذا الالتزام لمواسم الحج في العامين التاليين ونودي مرة أخرى في موسم حج عام ١٤٢٦/٨٣٠ بضرورة حضور جميع التجار الى القاهرة والا تعرضوا للقتل والمصادرة ٠

وعندما اشتكى تجار الشام من ذلك تم الاتفاق في ربيع الثاني ٨٣١/ يناير وفبراير ١٤٢٧ على اعفائهم من الحضور الى مصر على أن يؤخذ منهم بمكة عن كل حمل قل ثمنه أو كثر ثلاثة دنانير ونصف ٠ واذا حملوا ذلك الى دمشق يؤخذ منهم المكس هناك كالعادة على أن الالزام بالحضور الى القاهرة عاد مرة أخرى مع تشديد الحراسة عليهم في الطريق وتفقدهم وعد أحمالهم حتى قدموا صحبة الحاج الى القاهرة في المحرم ٨٣٢/أكتوبر نوفمبر ١٤٢٨ وقد نفذ هذا الالتزام بكل دقة حتى أنه في عام ٨٣٩/٣٥ ـ ١٤٣٦ صودرت أحمال من البهار لطائفة من أعيان دمشق حملت من الحجاز الى دمشق مباشرة دون المرور على القاهرة ولم يفرج عن هذه البضائع الا بعد أن دفع هؤلاء التجار مالا اتفقوا عليه الى ناظر الخاص ٠

واخيرا نلاحظ أن المراسيم التي أصدرها برسباي لتنظيم هذا المورد المالي الجديد أبانت عن تعدد دفع ضريبة العشر على البضائع التي تصل الى كل مدينة داخل أراضي الدولة ٠ فهي أولا في جدة ومكة على جميع التجار ثم عند المراكز الجمركية على الطرق البرية الموصلة من الحجاز الى مصر والشام والعراق عند بدر وحنين وجسر الحسا والعقبة ٠ والمركزين الأولين على طريق الحج العراقي والثالث قرب الكرك والأخير خاص بمصر ٠ كما أقيم بالطور مركز جمركي للتجارة التي تأتي بالبحر ومرة ثالثة تدفع ضريبة العشر عند الوصول الى القاهرة حتى ان ثمن السلعة في مصر أصبح خمسة أضعاف ثمنها في الهند هذا بجانب تطبيق نظام الاحتكار الأمر الذي أدى بطبيعة الحال الى ارتفاع أسعار البضائع الشرقية وخاصة التوابل ٠

خامسا – بلغت التنظيمات الادارية والمالية لتجارة البحر الأحمر في عهد السلطان برسباي ذروتها باصدار الحكومة عدة مراسيم لتنفيذ سياسة الاحتكار التجاري تجعل من السلطان التاجر الوحيد لتجارة البحر الأحمر وخاصة التوابل وأصبح الاحتكار نظاما اقتصاديا سارت عليه الدولة حتى نهاية العصر ·

ويتوقف الباحثون كثيرا لمعرفة الأسباب التي أوحت للسلطان برسباي اتباع هذه السياسة التجارية الجديدة فمنهم من يربطها بفساد النظام الاقطاعي في أواخر الدولة المملوكية الاولى وأوائل الثانية وعجزه عن الوفاء بالتزامات الدولة المالية بعد أن أهملت العناية بشئون الري ومنهم من يربطها بحاجة الدولة الى الأموال لتغطية نفقات حملة قبرص أو أن برسباي أغرته المكاسب فتوسع في احتكار تجارة العبور ·

ومهما يكن من سبب فقد كان هناك المتجر السلطاني كأحد أجهزة الدولة يتولاه ناظر الخاص ويختار من بين تجار الكاريم للاستفادة من خبرتهم في ادارة المتجر مثل ابراهيم بن عمر بن برهان الدين المحلي التاجر المشهور في عهد السلطان فرج وبرقوق ومثل شيخ علي الكيلاني الذي جهزه المؤيد شيخ بخمسة آلاف دينار ليشتري له الفلفل بغرض التجارة واجتهد الكيلاني في مهمته اذ اشترى معظم الفلفل الوارد الى جدة بسعر ١٥ دينارا لكل مائة من (المكيال ومائة منه تساوي قنطارا) واشترى التجار باقي الفلفل بسعر خمسة وثلاثين وبلغت نسبة مكسب السلطان بعد بيع الفلفل على التجار الفرنج بالاسكندرية ١٤٠٪ ·

ويجب أن نفرق بين هذه العمليات التجارية الحكومية وبين الاحتكار التجاري بمعنى أن يكون السلطان الممثل للدولة هو المشتري الوحيد والبائع الوحيد بشكل أصاب طائفة الكاربية بضرر كبير أدى الى زوال · في حين أنهم لم يشعروا بخطر حقيقي من المشاركة الحكومية في العمليات التجارية فيقوم المتجر السلطاني بشراء التوابل عامة والفلفل خاصة من تجار الهند بأسواق جدة كما يأتيه أيضا الضرائب العينية من هذه الأصناف ثم يقوم المتجر ببيع بضاعته الى التجار الفرنج بالاسكندرية وبأسعار السوق المحلية والتي أمكن برسباي زيادتها · بطريقة تخالف العرف في المعاملات التجارية ففي المحرم ٨٣٠ نوفمبر ١٤٢٦ رسم السلطان بزيادة ثمن الفلفل المباع على التجار الفرنج من الديوان سافروا به وكلف قناصلهم وفاء هذه

الزيادة عنهم محققا بذلك هدف الحصول على أكبر قدر من الأرباح التجارية مضافا الى أكبر قدر من المكوس في المراكز التجارية المتعددة ٠

ثم بدأ برسباي باعطاء المتجر السلطاني امتيازا خاصا متمثلا في مرسوم صدر أول عام ٨٣٢/أكتوبر ١٤٢٨ بأن ألزم جميع التجار الحضور ببضائعهم الى القاهرة وحجر على الفلفل أن يشترى لغيره ولا يباع الا في الاسكندرية بعد أن يكتفي السلطان ٠ ووضحت أهداف هذا الامتياز في اعطاء المتجر السلطاني أولوية شراء احتياجاته من الفلفل من البضاعة الحاضرة سعر السوق الحرة ٠ وكذا أولوية البيع للتجار الفرنج في الاسكندرية متحكما بذلك في أسعار البيع بالزام التجار الفرنج شراء الفلفل السلطاني بسعر ١٢٠ دينارا للحمل بينما كانت قيمته في السوق الحرة لدى تجار الكارم خمسين دينارا في القاهرة و ٨٠ دينارا للحمل في الاسكندرية ٠ ونتج عن هذه الوساطة التجارية المفروضة بين البائع المشتري الاضرار بمصالح الجميع ٠ فما استطاع المتجر السلطاني تصريف كل موجوداته من الفلفل بهذا السعر الاجباري ، وما استطاع تجار الكارم التعامل مع تجار الفرنج الذين اضطروا الى العودة بأكثر نقدهم دون أخذ احتياجاتهم من تجارة العبور ٠

وفي العام التالي ارتفع السعر الاجباري لحمل الفلفل الى ١٣٠ دينارا وألزم به تجار الفرنج ٠ ويظهر أنهم استنفدوا ما لدى الديوان من توابل وأرادوا الشراء من السوق الحرة محاولين تعويض فروق السعر بالمساومة مع التجار الذين كانت لديهم رغبة في تصريف بضاعتهم المكدسة من العام الماضي بسعر ٦٤ دينارا لحمل الفلفل لكن الفرنج تمسكوا بتسعة وخمسين ٠ عندئذ تدخل السلطان مفوتا الفرصة على تجار الفرنج ونزل مشتريا للفلفل بالسعر الأخير ٠ وتبعا لذلك أمر السلطان باحضار التجار من الاسكندرية لمقابلته في القاهرة في جمادى الأولى ٨٣٣/فبراير ١٤٣٠ حيث ألزمهم جميعا أن لا يبيعوا شيئا من أصناف البضائع التي تجلب من الهند كالفلفل ونحوه لأحد من تجار الفرنج ويكون بيع البهار للسلطان وهددوا على ذلك بمنعهم من التجارة فيه ٠

وهكذا كانت الخطوة الأولى في الاحتكار تمثلت في جعل السلطان هو البائع الوحيد لما يرد من تجارة البحر الأحمر في الاسكندرية ، بوقف منافسه تجار الكارم واخضاع الفرنج بقبول الشراء بالسعر الاجباري الذي يحدده ٠

ثم تقرر تطبيق الاحتكار الحكومي في عمليات الشراء فصـــدرت في شعبان ٨٣٥/أبريل ١٤٣٢ مراسيم الى الشام والحجاز والاسكندرية أن لا يبيع أحد البهار ولا يشتري الا السلطان ٠ وتجددت مراسيم الاحتكار في ربيـــع الثاني ٨٣٨/نوفمبر ١٤٣٤ بالنسبة للفلفل بأن صار مخصوصا للسلطان « لا يبيعه ولا يشتريه أحد الا هو بالخصوص » وهكذا يمكن اعتبار عـــام ١٤٣٢/٨٣٥ تاريخ بدء الاحتكار الرسمي الكامل للدولة في تجارة العبور ٠ كما تقرر قصر التجارة في التوابل وسلع الشرق على جدة ومنع التجار من حمل تلك السلع الى مكة ٠ وهكذا تركزت عمليات الشراء في جدة كما تركزت عمليات البيع في الاسكندرية ٠

ولم يقتصر الاحتكار على التوابل فقط بل امتد في السنوات اللاحقة الى سلع شرقية أخرى كثر الطلب عليها مثل أخشاب الصباغة وعود الند والسجاد والبورسلين ٠

ويتضح الهدف من احتكار تجارة البحر الأحمر وهو الحصـــول على الأموال من تجارة التوابل بخاصة التي أصبحت تمثل مصدرا رئيسيا لدخل الدولة بعد أن قل الدخل في القطاعين الزراعي والصناعي وبلغ الحد الأقصى للأسعار الحكومية بمائة دوكات للحمل الواحد من التـــوابل الشريفة دون تنزيل تسليم الاسكندرية في عهد السلطان اينال ٠ وأكد كل من اينـــال وقايتباي والغوري احتكار التوابل وحاول قايتباي رفع السعر الحكومي الى مائة وعشرين دوكاتا ببندقية وتأزمت الامور بينه وبين تجار البندقية الى أن تم التعامل بسعر مائة دوكات ٠ وكان لابد أن يتأثر هذا السعر الحكومي بالانخفاض الى ثمانين دوكات أثر نجاح البرتغاليين في الوصول الى الهنـــد وجلب التوابل بطريق رأس الرجاء الصالح وبيعها في لشبونة بسعر أربعين بل بعشرين منافسة بذلك أسعار الاسكندرية وقاضية بعد ذلك على تجارة مصر والبحر الأحمر وكانت هذه الخاتمة السيئة احدى نتائج الاحتـــكار التجاري خصوصا اذا علمنا أن الكشف البرتغالي انما استهدف القضاء على مصدر ثراء مصر بحرمانها من احتكار التجارة الشرقية ٠

وثمة نتيجة هامة أخرى تمخض عنها الاحتكار وهي تأثر التجار الكارمية بالركود ثم زوالها كطبقة اجتماعية بارزة بعد اصابة نشاطها التجاري ٠ وقد كان الظاهر بيبرس قد وضع أسس السياسة التجارية المصرية التي سار عليها سلاطين المماليك من بعده والتي تستهدف المحافظة على مكانة التجار الكارمية

الاقتصادية في البحر الأحمر ومصر وعن طريقهم امتد نفوذ مصر التجاري الى المحيط الهندي • وأدى هؤلاء الكارمية دورهم في اقامة العلاقات التجارية والصلات الطيبة بين مصر واليمن وتمكنوا هناك من الوصـــــول الى أعلى المناصب • ويرجع ذلك كله الى قيامهم بأهم تجارة عالمية وهي تجارة التوابل وسلع الشرق في أسواق الهند واليمن والحجاز امتـدادا الى أسواق مصر والشام حيث كانت تتم أخطر مراحل رحلة الســـــلعة الشرقية من مراكز انتاجها وأسواقها الآسيوية والمصرية الى المســتهلك الاوربي • وقد كونت هؤلاء الكارمية عدة بيوتات أهمهـــــا آل الخروبي والكويك ويسر ومسلم والمحلي حفل تاريخها بالرغبة والاجتهاد في توطيد مكانتها التجارية واحتلت مكانة الطبقة الوسطى في المجتمع المصري في العصر المملوكي ، وعبر هؤلاء عن كيانهم الاجتماعي بتكوين طائفة خاصة بهم يختارون لهم رئيسا من بينهم يخضع له سائر التجار ، وله في مصر وفي بلاط السلطان المركز الرفيع فضلا عن مكانته المرموقة في اليمن والحجاز •

وليس من الغريب أن يمثل الكارمية الرأسمالية التجارية بلغت درجة عظيمة من الثراء • فقد كانت تجارة التوابل والسلع الشرقية أهم نشاط لاستثمار الأموال حتى بلغت ثروات بعضهم مليون دينار وربما أضعاف ذلك وهي أرقام جديدة في تاريخ رأس المال الفردي ، نذكر منهم ناصر الدين محمد بن مسلم ت ٧٧٦هـ كان أعجوبة عصره في كثرة المـــال ، حتى كان لا يعلم قدره • فيروى أنه خاصم بدر الدين الخروبي التاجر الكرمي المشهور فقال له ابن مسلم اشتري بمالك شكاير واحضرها أملؤها لك مالا • ومنهم التاجر الكبير ابراهيم بن عمر بن علي بن برهان الدين المحلي ت ٨٠٦هـ الذي جاء ابنه من اليمن الى مكة ومعـــه أموال لا تدخل تحت حصر وقلما تناولت كتب التراجم أحدا من هؤلاء الكارمية الا ذكرت أنه من ذوي الاموال الواسعة أو أنه ترك مالا كثيرا جدا أو ما شابه ذلك •

ولم تكن طائفة الكارمية تعيش بمعزل عن الأحداث السياسية أو بعيدة عن حاجات الدولة والمجتمع وسجل التاريخ لهم خدماتهم المالية وقت الأزمات والحروب ففي عام ١١٨١/٥٧٧ قدم هؤلاء التجار زكاة أربع سنوات الى صلاح الدين بناء على طلبه وعن طيب خاطر ولم يكونوا بعد قد استقروا بمصر وذلك لمواجهة الاسطول الصليبي الذي ظهر في البحر الأحمر مهددا طريق الحج والتجارة • وكان بالاسكندرية عام ١٣٢٦/٧٧٧ ـ ١٣٢٧ تاجر

يعرف بابن رواحه لديه مخازن للسلاح يمكنه أن يجهز منها المائة أو المائتين وقت الخطر وقد أبدى مقدرته لأميرين من المماليك على ضمان الاسكندرية ودفع مرتبات الجند والسلطان والرجال وقت الخطر فاتهمه الأميران بالثورة على السلطان وقتلاه • وهناك ابراهيم بن عمر نور الدين المحلي الذي أنفق من ماله الخاص في اعداد قوة عام ٨٠٥ ــ ١٤٠٢ الى الاسكندرية لمطاردة القراصنة الذين يهددون السواحل دائما • وهذه الأمثلة تدل على استعداد الكارمية لتقديم الأموال والسلاح للمحافظة على مصالحهم الحيوية •

وكذلك قدم الكارمية القروض الكبيرة لسلاطين مصر وغيرهم من الحكام وأمراء المماليك فقد أقرض أحدهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون مبلغ ١٦ ألف دينار كما قدم التاجر الكارمي سراج الدين بن الكويك قرضا الى منسا موسى ملك التكرور والى بعض رجاله عند مرورهم بمصر في طريقهم الى الحجاز في موسم الحج عام ١٣٢٣/٧٢٤ كذلك قدم أحد تجار الشوبك مبلغ ١٠٠ر٠٠٠ دينار الى برقوق أثناء اعتقاله بقلعة الكرك ووضع نفسه وماله وأولاده في خدمة السلطان المخلوع حتى استعاد عرشه •

وتم بعد ذلك أكبر قرض مالي بين تجار الكارم وبين الدولة عام ١٣٩٦/٧٩٦ فقد أقرض ثلاثة منهم المحلي وابن مسلم والخروبي السلطان برقوق مليون درهم • وقد جاء هذا القرض وقت استعداد مصر لملاقاة تيمورلنك كما اقترض السلطان فرج منهم عام ٨٠٣ ــ ١٤٠٠/١٤٠١ لنفس الغرض أيضا • هذا بالاضافة الى أن الكارمية كانوا يمدون الخزانة سنويا بمبلغ كبير من الرسوم الجمركية على بضاعتهم الصادرة والواردة بخلاف ضريبة الزكاة على أموالهم اذا حال عليها الحول •

أما عن خدماتهم في مجال نشر الثقافة الاسلامية فكانت أجل أثرا ونفعا وتتحدث كتب التراجم عن قيام معظمهم ببناء المدارس التي تنسب اليهم بالقاهرة والاسكندرية ووقف الأوقاف الكبيرة عليها أو الانفاق على الدارسين فيها ، وكذا اشتغال بعضهم بتعليم الحديث والفقه أو نظم المدائح النبوية أو قيامهم بالانفاق في عمارة المساجد كالحرم المكي الشريف ومسجد عمرو بالفسطاط وبناء الخانقات ومنهم من كان واسع العطاء للفقهاء والشعراء وسعة البذل والكرم للناس والاقراض بدون فائدة •

ولم يكن من الغريب أن يعيش هؤلاء التجار في القصور العظيمة فقد

روي أن قصر الكارمن برهان الدين المحلي على شاطيء النيل بالقاهرة كان أعجوبة عصره في اتقان البناء وكثرة الرخام والزخرفة . وقيل ان ما أنفقه في بناء القصر مبلغ ٥٠ ألف مثقال ذهب والواقع أن من هؤلاء الكارمية من كان يملك أن يحيط بمظاهر العظمة والغنى حتى يصبح في هيئة السلطان تماما .

ورغم هذه المكانة المالية والاقتصادية والاجتماعية التي بلغها الكارمية فلم يكن لهم شأن أو نفوذ مماثل في شئون الحكم والادارة التي انفرد بها النظام الاقطاعي المملوكي المسكري ولم تتمكن من الوصول الى الحكم أو محاولة ذلك أو حتى الدفاع عن مصالحها دفاعا مؤثرا عندما أذنت ساعة الخطر واحتكر السلطان تجارتهم .

ومن الغريب أننا لم نسمع عن ثورة أو احتجاج صارخ في مصر من جانب هذه الطبقة البرجوازية ضد قرارات الاحتكار التي تصيب مصدر ثرائهم في الصميم بل رضخوا رضوخا غريبا لادارة الحاكم « حتى أصبح بعض كبارهم مجرد مندوبين للسلطان يكسبون عيشهم في ركابه » . وكل ما نقرأ عنهم هو محاولة تحدي هذه القرارات سواء بنقل التوابل الى الشام دون مصر أو الاتفاق مع تجار الفرنج في الاسكندرية . ولم تكن عيون الدولة غافلة عن مثل هذه المحاولات اليائسة ومن يساعدهم في ذلك من الموظفين المرتشين وضيق عليهم الخناق فصار التاجر يغيب سنة فما فوقها ويحضر فلا يستطيع أن يبيع حملا واحدا من بضاعته ولا يجد من يشتريه وعنده ما يساوي عشرة آلاف ومعنى هذا أن طبقة الكارمية قد أخذت في الانكماش في مجالات استثمار أموالهم وأسواقهم ففر بعضهم من مصر الى البحر الأحمر وخاصة الحجاز حيث قاموا بتجارة متواضعة وحيث أمكنهم عامي ٨٥٠ ــ ٨٥١ ١٤٤٦ ــ ١٤٤٧ فكان يقتص منهم بالضرب أو بالحبس ولم يظهر أحد منهم في الأسواق في عام ٨٥٩/١٤٥٥ ولم تذكر المصادر عنهم شيئا منذ عام ٨٨٩/١٤٨٤ .

وهكذا قضى الاحتكار على هذه الطبقة التي تمثل الرأسمالية التجارية التي كان في قدرتها اعانة الدولة ماديا على مواجهة الأخطار الخارجية . فلم يجد السلطان قايتباي عام ٨٩٢/١٤٨٧ من أعيان التجار في السوق المصرية قدرات التجار الكارمية فقد احتاج الى ٤٠ الف دينار استعدادا لحملة ضد العثمانيين فضج التجار من هذا القدر وأظهروا العجز عنهم ولم يقدموا سوى اثنى عشر ألفا .

والخلاصة : أنه كان في وسع تجار الكارمية تجار البحر الأحمر أن يمدوا الدولة ماديا ومعنويا للدفاع عن مصالحهم المشتركة ، للدفاع ضد الخطر البرتغالي الذي أحدق بالتجارة الشرقية وقطع طريق البحر الأحمر مثل ما أمده في مناسبات سابقة ·

وانهى الاحتكار دور البرجوازية المصرية الفعالة كظهير قوي للاقطاع العسكري المهلهل الذي وقف وحيدا في المعركة الاقتصادية ضد البرتغاليين وفي المعركة العسكرية ضد العثمانيين وكانت النتيجة المحتومة ·

مصـــادر ومنــاهج البحث

١ ـ **الأسدي** : التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار ، مخطوط دار الكتب رقم ٤٢٨٦ ·

٢ ـ **ابن اياس** : بدائـع الزهـــور في وقائـع الدهـــور ، ج ١ ـ ٣ مصر ١٣١١ ـ ١٤١٢ ·

٣ ـ **الجزري** : الدرر والفرائد المنظمة في أخبار مكة المعظمة ، مخطـوط مكتبة تيمور ٦٢٩ تاريخ ·

٤ ـ **ابن حجر** : انباء الغمر بأبناء العمر ، مخطوط دار الكتب رقم ٢٤٧٦

٥ ـ **الخزرجي** : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، مصر ١٩١١

٦ ـ **ابن الربيع** : قرة العيون في أخبار اليمن الميمـــون ، مخطوط دار الكتب ٢٢٤ تاريخ
بغية المستفيد في أخبـــار مدينة زبيد ، مخطـوط دار الكتب ١١ ·

٧ ـ **سليمان عطية** : سياسة المماليك في البحر الأحمر حتى نهـــاية عصر برسباي ، رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة ·

٨ ـ **سونياي · هـ** : في طلب التوابل (مترجم) ، القاهرة ١٩٥٧ ·

٩ ـ **ابن شاهين** : زبدة كشف المماليك ، باريس ١٨٩٤ ·

١٠ـ **صبحي لبيب** : التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى ، مجلة الجمعية التاريخية ١٩٥٢ ·

١١ـ الصيرفي : نزهة النفوس والأبدان في تاريخ الزمان ، مخطـوطة دار الكتب رقم ١١٦م .

١٢ـ الفاسي : العقد الثمين في أخبار البلد الأمين ، مخطوطة دار الكتب تيمور رقم ٨٤٩ .

١٣ـ القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩١٩

١٤ـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، كاليفورنيا ١٩١٥ ـ ١٩٣٥ .

حوادث الدهور في مدى الأيام والشـهور ، مخطـوطة دار الكتب رقم ٢٣٨٧ .

المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، مخطوطة دار الكتب رقم ١١١٣

١٥ ـ المقريزي : المواعظ والاعتبـار في ذكر الخطط والآثار ، بولاق مصر ١٢٧٠ هـ .

١٦ـ نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب في أواخر العصور ، رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة .

17. Darrag, L' Egypte Sous Le Regne de Barsbary, Damas, 1961.
18. Depping, Histoire du carmmerce ..T. 1811, Paris, 1830.
19. Hegd, Histoire dus Cammerce, T. 1811, Leipzig, 1925.
20. Jomier, Le Mahmal et la Caravane Egyptienne de .. Le Cairo, 1935.
21. Kammerer La Mere Rouge, T. 1811, Le Cairo, 1929 - 1935.
22. Piloti, L" Egypte au Commencement du x ve Siecte, Le Cairo, 1950.



ميثاق أمن جدة عام ١٩٥٦م
ومؤتمر تعز عام ١٩٧٧م

للدكتور رأفت غنيمي الشيخ
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

عند الحديث عن أمن البحر الأحمر لا يعني ضمان أمن مياه هذا البحر دون أراضي الأقطار المطلة عليه . بل ان أمن مياه البحر من أمن أراضي هذه الأقطار ولنا في القرآن الكريم خير مثل اذ يقـــول الله تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها » صدق الله العظيم .

وليس المقصود بالقرية مبانيهـــا وشوارعها وانما المقصـــود سكانها ، ومن هنا عنـــدما نتحدث عن أمن البحر الأحمر فاننا نعني أمن الأقطار المطلة على هذا البحر وضـــمان كيانها واستقرارها ضد الأخطار الخارجية .

وقد أثيرت قضية أمن البحر الأحمر في عام ١٩٧٧م عنـــدما بدأت مشكلة القرن الافريقي تطفو وتفرض نفســـها على السياسة العالمية ، وما تبع ذلك من وجود قوى أجنبية في مياه البحر الأحمر . ومن هنا جاءت مبادرة الرئيس السوداني جعفر نميري الداعية الى عقد اجتماع قمة لرؤساء الدول المطلة على البحر الأحمر للبحث في كيفية ضمان أمن هذا البحر .

وليست هذه القضية جديدة على المنطقة بل هي قضية قديمة ترجع الى أوائل القرن السادس عشر عندما اجتاز البرتغاليون رأس الرجاء الصالح ووصلوا الى مداخل الخليج العربي والبحر الأحمر بهدف تحـــويل التجارة الهندية عن هذين البحرين العربين كأسلوب لمحاربة التجارة الاسلامية العربية وبالتالي الأقطار العربية التي كانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب تمر عبر مياهها وأراضيها .

وهي قضية قديمة عندما استولى العثمانيون على أقطار المشرق العربي في أوائل القرن السادس عشر أيضا وأرادوا ايقاف زحف البرتغاليين الى هذه الأقطار باتباع تقليد جديد يدعو الى منع دخول المراكب المسيحية في البحر الأحمر لأنه يطل على الأماكن المقدسة للمسلمين في الحجاز ، وهو التقليد الذي ظلت الدولة العثمانية متمسكة به حتى أواخر القرن الثامن عشر (١) وكانت تعني بذلك عدم السماح للسفن البرتغالية المعتدية بصفة خاصـــة بدخول مياه البحر الأحمر وتهديد الممتلكات العثمانية .

اذن فالقضية قديمة ولكن يجددها ظهور قوى أجنبية غير «بحر أحمرية» في مياه هذا البحر بل واتخاذ مواقف عدائية من بعض الدول العربية التي تطل على مياهه . فعندما انتزعت انجلترا من فرنسا أكبر مستعمراتها في الهند في صلح باريس عام ١٧٦٣م ، اتجه اهتمامها الى تيسير المواصلات بين انجلترا وامبراطوريتها الهندية ، ومن هنا انبعث التفكير الى احياء الطرق البرية القـــديمة وأهمهـــا طريق البحر الأحمر ومصر ، وطريق الخليج والفرات (٢) .

ومنذ ذلك الوقت أخذ اهتمام انجلترا بالبحر يزداد ، فوجدناها تستولي على عدن ــ مدخل البحر الأحمر الجنوبي ــ عام ١٨٣٩م وتنذر محمد علي بأن أي اعتداء على عدن يعد اعتداء على جزء من الأملاك البريطانية (٣) ثم أخذت انجلترا تعمل على ايجاد ممتلكات لها في شرق وشمال شرق أفريقيا (٤) حتى اذا افتتحت قناة السويس للملاحة العالمية عام ١٨٦٩م ــ عملت انجلترا على الانفراد بالسيطرة على البحر الأحمر من جنوبه الى شماله في مصر خاصة بعد شرائها لنصيب مصر من أسهم شركة القناة .

وفي سبيل ذلك وضعت انجلترا سياستها على الاهتمام بالبحر الأحمر في المقام الأول اذ جاء في تعليمات اللورد سالسبوري Salisbury وزير الخارجية البريطانية للسير ادوارد ماليت Malet والأخـــير في طريقه الى القاهرة لتسلم مهام منصبه كقنصل عام لانجلترا في مصر ، ووكيل حكومة جلالة الملكة ــ وهذه التعليمات مؤرخة في ١٦ أكتوبر ١٨٧٩م ــ يجب أن يكون واضحا في الأذهان أنه اذا قسمت الامبراطورية العثمانية الى أقاليم وأصبحت مصر مستقلة فان الجزء من مصر الذي يستحوذ على اهتمام انجلترا هو ساحل البحر الأحمر ، الى جانب الخطوط الحديدية ووسائل المواصلات الاخرى عبر برزخ السويس (قناة السويس) واذا تم فعلا تقســيم مصر ذاتها وبقى ساحل البحر الأحمر ووسائل المواصلات تحت سيطرة انجلترا أي خاضعة للنفوذ الانجليزي بينما ظلت داخلية البلاد من جهة أخرى في حالة من الاستقرار في ظل نظام حكم يكفل هذا الاستقرار فان انجلترا لن تجد في هذه الحالة سببا يدعوها الى القلق أو عدم الرضا (٥) .

وهكذا حدث الاحتلال الانجليزي لمصر غام ١٨٨٢م لتصبح لانجلترا السيطرة على مداخل البحر الأحمر الجنوبية (عدن) والشمالية (قنـــاة السويس) . وحتى عندما أرغمت انجلترا مصر على اخلاء السودان دافعت

البحرية البريطانية عن ميناء سواكن وظلت تحتفظ به ـ باسم مصر ـ طوال عهد الدولة المهدية في السودان ، ولذلك لا نعجب أن نسمع من جوزيف شمبرلين Champerlain أحد قادة الاستعمار البريطاني يصف البحر الأحمر بأنه وتر بريطانيا الحساس ٠

وعندما قامت الثورة المصرية عام ١٩٥٢م تطلعت الى ضمان أمن البحر الأحمر بواسطة الأقطار التي تقع على شواطئه دون وجود قوى خارجية ، ومن هنا ظهر ما عرف بميثاق أمن جدة عام ١٩٥٦م الذي ضم كلا من مصر والمملكة العربية السعودية واليمن وهو وان كان ميثاقا دفاعيا الا أنه يعني حماية أمن البحر الأحمر من خلال الدفاع المشترك والدول العربية الموقعة على الميثاق ضد العدوان الخارجي سواء في الأرض أو البحر ٠

ثم جاء مؤتمر تعز في مارس ١٩٧٧م نتيجة لمبادرة الرئيس جعفر نميري لتثير القضية من جديد أمام خطر جديد ٠ وفي هذه الوريقات سنسوق القضية من عام ١٩٥٦م مرورا بعام ١٩٧٣م وحتى مؤتمر تعز عام ١٩٧٧م ٠

ميثاق أمن جدة

لم يكن عقد هذا الاتفاق بين حكومات كل من جمهورية مصر ، والمملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية بمدينة جدة بتاريخ ٢١ أبريل ١٩٥٦م وبحضور كل من الرئيس جمال عبد الناصر ، والملك سعود والامام أحمد الا حلقة من حلقات الاتفاقات بين الأقطار العربية كانت مصر محورها وقلبها ٠

وذلك أنه منذ فبراير ١٩٥٥م بدأت مصر سلسلة من اللقاءات والاتفاقات الثنائية والثلاثية والجماعية من أجل التضامن العربي ضد القوى الخارجية ، كان منها المؤتمر الذي شاركت فيه حكومات كل من الأردن وسوريا واليمن والسعودية الى جانب مصر وأصدر قراراته بالقاهرة في ٨ فبراير ١٩٥٥م ، وكان منها البيان السوري المصري الصادر بدمشق في ٣ مارس ١٩٥٥م والذي انضمت اليه المملكة العربية السعودية في ٥ مارس من نفس العام ، وينص على عدم الانضمام الى الحلف التركي العراقي أو اي

أحلاف أخرى ، وعلى اقامة منظمة دفاع وتعاون اقتصادي عربي مشترك ، وعلى الالتزام بالاشتراك في صد أي عدوان يقع على احدى دول المنظمة ، وعلى انشاء قيادة مشتركة دائمة ، وعلى عدم قيام أية دولة مشتركة في المنظمة بعقد اتفاقات دولية عسكرية (٦) ·

كما كان من بين هذه الاتفاقات العربية ميثاق الحلف العسكري الذي تم التوقيع عليه في القاهرة في ٢٧ أكتوبر عام ١٩٥٥م بين كل من المملكة العربية السعودية وجمهورية مصر لضمان الأمن والسلام ورد العدوان الخارجي عند وقوعه في اطار مبادىء ميثاقي الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية ·

ثم جاء ميثاق أمن جدة لتكتمل المسيرة في اطار التحالفات العربية حيث جاء في البلاغ الذي أذيع في ختام الاجتماعات التي عقدت بين الزعماء الثلاثة بمدينة جدة في العاشر والحادي عشر من شهر رمضان ١٣٧٥هـ الموافق للعشرين والحادي والعشرين من شهر أبريل سنة ١٩٥٦م ، بأنه قد عقدت خلال هذين اليومين عدة اجتماعات تم فيها بحث المسائل التي تهم الدول الثلاث بوجه خاص ، وتتصل باقرار الأمن والسلام في العالم العربي بوجه عام ، ودارت المباحثات والمشاورات بين الرؤساء في جو ودي خالص ، وتكاتف كامل ، وحرص الجميع على تمكين أواصر الاخاء والتعاون بين دولهم مستهدفين في ذلك أماني الشعوب العربية في الحرية والكرامة والأمن والسلام ·

وقد أسفرت هذه الاجتماعات عن عقد اتفاقية دفاع مشترك وقعها الزعماء الثلاثة وأتاحت لهم تبادل الرأي في وضع الخطط العملية التي تكفل نمو الروابط الاقتصادية والثقافية والفنية بين الدول العربية وتوثيق قوى التعاون بينها لتحقيق خير الأمة العربية ·

من هذه المقدمة للاتفاق تتضح المبررات لعقده بين الدول الثلاث · وهي الدول التي تمسك بكل شاطىء البحر الأحمر الآسيوي ومعظم الشاطىء الافريقي · والتي تمسك بمدخل البحر الأحمر من الجنوب والشمال ، وان كان الاتفاق دفاعيا الا أنه يمكن القول أن أمن البحر الأحمر عمل دفاعي ·

ومن ثم جاء في صلب الميثاق « أن حكومات جمهورية مصر والمملكة

العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمانية ، توطيدا لميثاق الجامعة العربية وتأكيدا لاخلاص الدول المتعاقدة لهذه المبادىء ، ورغبة منها في زيادة تقوية وتوثيق التعاون العسكري ، وحرصا على استقلال بلادها ومحافظة على سلامتها وايمانا بأن اقامة نظام أمن مشترك فيما بينها يعتبر عاملا رئيسيا في تأمين سلامة واستقلال كل منها ، وتحقيقا لأمانيها في الدفاع المشترك عن كيانها ، وصيانة الأمن والسلام وفقا لمبادىء ميثاق جامعة الدول العربية وميثاق الأمم المتحدة وأهدافها ، وعملا بما نصت عليه الفقرة الأولى من المادة التاسعة من ميثاق الجامعة العربية ، قد اتفقت على عقد اتفاقية لهذه الغاية » ٠

ويقيني أن النص على ايمان كل من حكومات مصر والسعودية واليمن بأن اقامة نظام أمن مشترك فيما بينها يعتبر عاملا رئيسيا في تأمين سلامة واستقلال كل منها ، دليل على اصرار هذه الأقطار الثلاثة ، على تأمين سلامتها الاقليمية سواء في الأرض أو البحر ، وحيث أنها تطل على البحر الأحمر ولها فيه مياه اقليمية فان تأمين هذا البحر ضد أي اعتداء خارجي من مسئولية هذه الأقطار كدفاعها عن الأرض ٠

كما أن يقيني بأن الدفاع عن كيان واستقلال هذه الأقطار الثلاثة يستلزم بالضرورة الدفاع عن البحر الأحمر الذي تطل عليه من الناحيتين وان هذا الدفاع عن الأرض والبحر يحقق أمانيها في الدفاع المشترك عن كيانها بحسبان البحر الأحمر جزءا من مسئولية هذه الأقطار في تأمين السلامة الاقليمية لها ٠

ومن ثم فقد نصت المادة الأولى من هذا الميثاق الأمني على حرص الأقطار الموقعة عليه على « دوام الأمن والسلام واستقرارهما » وهذا يعني اعتزام كل من مصر والسعودية واليمن على تأمين الأرض والبحر ضد كل عدوان خارجي ولكن ــ كما جاء في نفس المادة ــ باللجوء أولا الى أسلوب « فض جميع منازعاتها الدولية بالطرق السلمية » ٠ وذلك تمشيا مع نصوص ميثاقي هيئة الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية بهذا الخصوص ٠

كما نصت المادة الثانية من الميثاق على أن « تعتبر الدول المتعاقدة كل اعتداء مسلح يقع على أية دولة منها أو على قواتها اعتداء عليها ، ولذلك

فانها عملا بحق الدفاع الشرعي الفردي والجماعي عن كيانهـــا تلتزم بأن تبادر كل منها الى معونة الدولة المعتدى عليها وبأن تتخذ على الفور جميع التدابير وتستخدم جميع مالديها من وسائل بما في ذلك استخدام القـــوة المسلحة لرد الاعتداء ولاعادة الأمن والسلام الى نصابهما » ٠

ويقيني أيضا أن ضمان أمن البحر الأحمر عمل جماعي ودفاع مشترك لا تنفرد به دولة واحدة ، ومن ثم نصت هذه المادة الثانية على مشاركة دول الميثاق في ضمان الأمن والسلام حتى وان استدعى الأمر اللجوء الى استخدام القوة المسلحة ضد العدوان الخارجي على أرض أو مياه دول الميثاق مجتمعة أو احدى دوله حتى ينتهي العدوان وتعود الى الأرض أو المياه الاقليمية الأمن والاستقرار ويستتب السلام ٠٠ وحسـباني أن مياه البحر الأحمر ميـــاه اقليمية لدول ميثاق أمن جدة الثلاث باعتبارها تشرف على هذا البحر من جانبيه الافريقي والآسيوي وتمتلك معظم شواطئه على القارتين ٠

كما نصت المادة الثالثة على أن « تتشاور الدول المتعاقدة فيما بينها ، بناء على طلب احداها ، كلما توترت واضطربت العلاقات الدولية بشكل خطير يؤثر في سلامة أراضي أية واحدة منها أو استقلالها ، وفي حالة خطر الحرب الداهم أو قيام حالة مفاجئة يخشى خطرها تبادر الدول المتعاقدة على الفور الى اتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية التي يقتضيها الموقف » ٠

واعتقـــادي أن توتر أو اضـــطراب العـــلاقات الدوليـــة بصورة تؤثر على أمن وسلامة أراضي ومياه دول الميثاق أمر يستدعي التشاور لاتخاذ الاجراءات اللازمة لضمان الأمن والسلامة لأراضي مصر والسعودية واليمن وبينها مياه البحر الأحمر الواقع وسط هذه الأراضي ، ومن ثم التزمت هذه الأقطار الثلاثة باتخاذ التدابير الوقائية والدفاعية الضرورية لضمان استمرار الأمن والسلام ودوام الاستقرار للمنطقة أرضها وبحرها ٠

وحرصت المادة الرابعة من الميثاق على تأكيد التزام الأقطـار الثلاثة بالدفاع المشترك وضمان الأمن حتى في حالة وقوع عدوان خارجي مفاجيء على احدى دول الميثاق سواء حدث العدوان على الأرض أو المياه الاقليمية لتلك الدولة ٠ وجاء هذا التأكيد في النص على أنه « بالاضافة الى الاجراءات العسكرية التي تتخذ لمواجهة هذا العدوان ، تقرر الدول الثـــلاث فورا الاجراءات التي تضع خطط هذه الاتفاقية موضع التنفيذ (٧) ٠

وتتوالى مواد الميثاق لتؤكد التزام الدول الثلاث بضمان أمن وسلامة أراضيها أو مياهها باتخاذ الاجراءات اللازمة لتنفيذ هذا الالتزام ومن بين هذه الاجراءات ما نصت عليه المادة الخامسة بتشكيل عدة أجهزة تتولى تنفيذ ما نص عليه الميثاق من التزام دفاعي مشترك مثل : المجلس الأعلى ، والمجلس الحربي ، والقيادة المشتركة ٠

وقد عالجت المواد السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة كيفية تشكيل هذه المجالس واختصاصاتها ووظائفها وتمثيل دول الميثاق الثلاث فيها ٠ فالمجلس الأعلى يتكون من وزراء الخارجية والحربية للدول المتعاقدة ، والمجلس الحربي يتكون من رؤساء أركان حرب الجيوش الثلاثة التابعة لدول الميثاق ، بينما تتكون القيادة العامة من قائد عام وهيئة أركان الحرب والوحدات التي يتقرر وضعها لتأمين القيادة المشتركة وادارة أعمالها ٠ وتمارس هذه القيادة عملها وقت السلم والحرب وهي ذات صفة دائمة ٠

ويقيني أن هذه الأجهزة هي الأدوات أو الوسائل العملية الكفيلة بضمان الأمن والاستقرار وأن مجرد قيامها دليل على التزام دول ميثاق أمن جدة بالدفاع عن أراضيها ومياهها ٠ هذا وقد تشكلت القيادة العامة وجعل على رأسها قائد عام مصري واختيرت القاهرة مقرا لهذه القيادة العامة ٠

وانتهى الميثاق بالمادتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، الأولى نصت على عدم تعارض نصوص الميثاق مع مواثيق هيئة الأمم المتحدة ، بينما نصت الثانية على سريان الميثاق لمدة خمس سنوات تتجدد بتلقاء نفسها لمدة خمس سنوات أخرى وهكذا ،٠ ولأي دولة من الدول المتعاقدة أن تنسحب منها بعد ابلاغ الدولتين الأخريين كتابة برغبتها في ذلك قبل سنة من تاريخ انتهاء أي من المدة المذكورة سابقا ٠

وهكذا كان ميثاق أمن جدة خطوة عربية لضمان أمن البحر الأحمر ولمواجهة أي تهديدات خارجية لهذا البحر ، وبالتالي للدول المطلة عليه ، لأن تهديد أمن البحر الأحمر تهديد للدول الواقعة على شواطئه الافريقية والآسيوية في آن واحد ، كما أن تهديد أمن الدول التي لها سواحل على البحر الأحمر تهديد لأمن هذا البحر وجعله مسرحا لاضطرابات دولية بل وتنافس عالمي حول امكانيات البحر الأحمر وامكانيات دوله في وقت واحد ٠

ومما هو جدير بالذكر ان ميثاق أمن جدة الذي شاركت في التوقيع عليه حكومات كل من مصر والسعودية واليمن في ٢١ أبريل عـــام ١٩٥٦م تمشت مواده ونصوصه مع مواد ونصوص ميثاق الحلف العسكري الذي تم التوقيع عليه في القاهرة بتاريخ ٢٧ أكتوبر عام ١٩٥٥م بين كل من حكومتي جمهورية مصر والمملكة العربية السعودية • أي أن الميثاق الثنائي الذي عقد بالقاهرة عام ١٩٥٥م كان هاديا ومقدمة لميثاق الأمن الثلاثي الذي عقد بجدة في العام التالي •

مؤتمر تعـز عـــام ١٩٧٧م

لم يكن انعقاد مؤتمر تعز في ٢٣/٢٢ مارس ١٩٧٧م الا آخر الخطوات التي اتخذتها الدول المطـــلة على البحر الأحمر حتى الآن للبحث في كيفية ضمان أمن هذا البحر بعد أن تعرض هذا الأمن لتهـــــديدات قوى خارجية أو معادية للأقطار العربية المطلة على هذا البحر • اذ كانت هناك خطـوات أخرى فردية وجماعية من جانب الأقطار العربية ومنذ ميثاق أمن جدة حتى مؤتمر تعز للحفاظ على أمن واستقرار البحر الأحمر من بين تلك الخطوات موقف المملكة العربية السعودية من مرور السفن الاسرائيلية في خليج العقبة تحت مظلة قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ عقب حرب السويس عام ١٩٥٦م ذلك الموقف العنيد الذي استنكر مرور السفن الاسرائيلية باعتبارها سفن معادية تهدد أمن البحر الأحمر والدول العربية المطلة عليه ، وجاء ذلك الاستنكار في البيان الرسمي الذي أصدرته الحكومة السعودية يوم ١٤ شعبان سنة ١٣٧٦هـ الموافق لعام ١٩٥٧م (٨) كما جاء هذا الاستنكار مرة أخرى في مذكرة وزارة الخارجية السعودية الموجهة لوزارة الخارجيــــة الأمريكية بتاريخ ٢٧ ذي القعدة ١٣٧٦هـ ردا على بيان وزارة الخارجيــــة الأمريكية الصادر في ٥ يونيو عام ١٩٥٧م باعتبار خليج العقبة ممرا عالميا حرا تستطيع السفن الأمريكية المرور فيه متى شاءت ، بينما لم تكن تستطيع ذلك عندما كانت شرم الشيخ في يد القوات المصرية ، وخليج العقبة خليج عربي تمر فيه فقط السفن المصرية والسعودية والاردنية • كما جاء هـــذا الاستنكار أخيرا في اذاعة لسياسي سعودي بالتليفزيون الأمريـــكي يوم ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٧٦هـ (٩) •

ثم جاء عدوان اسرائيل عام ١٩٦٧م على مصر والاردن وهما دول البحر الأحمر الى جانب سوريا لينبه الى خطورة انطلاق اسرائيل الى مياه هذا البحر جنوبا الى آسيا وأفريقيا وهذا يستلزم المواجهة العربية للوقوف أمام دخول السفن الاسرائيلية المعادية الى مياه البحر الأحمر ولم تكن هناك خطوة عملية في هذا السبيل قبل حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ٠٠

ولعلنا نتذكر ما أعلنته مصر في بداية المعركة ـ ٦ أكتوبر ١٩٧٣م ـ أن كل البحر الأحمر من باب المندب جنوبا الى قناة السويس شمالا منطقة عمليات عسكرية وان مصر تحذر من دخول أية سفن الى البحر الأحمر أثناء المعارك ـ وحتى اشعار آخر ـ حتى لا تتعرض للقذائف المصرية من السفن الحربية أو طائرات القتال ٠ وحقيقة هذا الاعلان ـ في رأيي ـ هو منع السفن الاسرائيلية من المرور في هذا البحر أو دخول سفن أجنبية بهدف مساعدة اسرائيل ، وهذا حفاظ على أمن هذا البحر وضمان لحرمان العدو من المساعدات الأجنبية الخارجية ٠

وفي اعتقادي أن هذا الاعلان شبيه بالاعلان الذي صدر عن الدولة العثمانية في القرن السادس عشر ، عندما احتلت مصر والحجاز ووصلت الى اليمن بأن البحر الأحمر تطل عليه الأرض التي تتشرف بوجود الأماكن المقدسة فيها فيحرم على السفن المسيحية المرور في مياه هذا البحر ٠ والاعلان العثماني يهدف في المقام الأول حرمان السفن البرتغالية من دخول البحر الأحمر حيث كانت البرتغال آنذاك أعدى أعداء الشعوب الاسلامية ٠ واعلان مصر عام ١٩٧٣م يهدف في المقام الأول الى ضمان أمن البحر الأحمر لمصلحة مصر والدول العربية المطلة عليه وحرمان القوة المعادية ومن يساندها من انتهاك أمن هذا البحر وتهديد سلامة وكيان الأقطار العربية « البحر أحمرية » وفي مقدمتها مصر ٠

ثم جاء مؤتمر تعز عام ١٩٧٧ كخطوة عملية بارزة المعالم على طريق ضمان أمن البحر الأحمر ضد التهديدات الخارجية ومن هنا لابد من الوقوف على مبررات عقد هذا المؤتمر قبل أن نبحث في كيفية انعقاده ونتائج الاجتماعات أي القرارات التي صدرت عن المؤتمر ومدى مناسبتها لضمان أمن البحر الأحمر ٠

لعل أهم المبررات التي دفعت بالقضية الى الظهور في الأقطار العربية المطلة على البحر الأحمر هي :

اولا : حدوث ثورة اشتراكية في اثيوبيا ادخلت الاتحاد السوفيتي الى مياه البحر الأحمر عند السواحل الاثيوبية والارترية ·

ثانيا : ازدياد اشتعال الثورة الارترية ضد السيطرة الاثيوبية ·

ثالثا : الصدام بين اثيوبيا والصومال حول اقليم أوجادين الذي تسيطر عليه اثيوبيا رغم أن معظم سكانه صوماليون ودخول الاتحاد السوفيتي وكوبا الى جانب اثيوبيا ·

رابعا : محاولات اسرائيل التعاون مع اثيوبيا ضد الدول العربية من أجل أن تجد لها مواقع في جنوب البحر الأحمر ·

خامسا : الصراع البحري على شواطيء المحيط الهندي قرب مدخل البحر الأحمر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ·

سادسا : الخلافات العربية « البحر أحمرية » خاصة بين اليمن الشمالية واليمن الجنوبية ، وبين اليمن الجنوبية وسلطنة عمان ·

هذه أهم المبررات لعقد هذا المؤتمر ، وهي ما يمكن تسميته بخريطة الصراع التي دفعت بالرئيس جعفر محمد نميري الى اعلان مبادرته التي أنتجت عقد مؤتمر تعز ·

اولا ــ الثورة الاثيوبية :

تعتبر اثيوبيا هي الدولة غير العربية الوحيدة التي تطل على البحر الأحمر ، ومن ثم نجدها تنظر بارتياب الى أي اجتماع يدعو اليه أحد الزعماء العرب حتى ولو كان الاجتماع لبحث موضوع اثيوبيا طرف فيه مثل أمن البحر الأحمر · ثم اعلان الثورة الاشتراكية في اثيوبيا منذ عام ١٩٧٤م قد باعد بينها وبين التعاون مع الأقطار العربية « البحر أحمرية » وخاصة مصر والسعودية والسودان واليمن الشمالية بسبب ادخال الاثيوبيين للوجود

السوفيتي والكوبي الى مياه البحر الأحمر • مما اعتبرته الأقطـار العربية تهديدا لأمنها وأمن البحر الأحمر ولا شك أن هذا مبرر قوي من المبررات التي كانت وراء الدعوة لعقد مؤتمر لبحث ضمان أمن البحر الأحمر •

ثانيا ـ الثورة الأرترية :

ترجع أصول القضية الأرترية الى سنوات طويلة منذ أن أنهى الامبراطور هيلاسلاسي امبراطور اثيوبيـــا كيان الاقليم الأرتيري وجعله جزءا من امبراطوريته • هذا على الرغم من أن الثورة في الاقليم لم تبدأ الا منذ حوالي عشرين عاما حين هاجم الثوار آنذاك أحد المخافر الحكومية في أقصى حـدود ارتريا الغربية الملاصقة للسودان • ومنذ ذلك الحين والثورة تشتد ضد حكم الامبراطور ثم ضد الحكم العسكري في اديس أبابا حتى سيطر الأرتيريون على حوالي ٨٠٪ من أراضي الاقليم •

ومما يزيد في حدة الأزمة الأريترية أن النظرة الأمهرية لحكام اثيوبيا الجدد للثورة في الاقليم لا تكاد تختلف عن نظرة الامبراطور هيلاسلاسي اذ كان الامبراطور يحاول أن يحبسها عن سمع العالم كله ، يصورها وهما بأنها مجرد نوع من « الشفتا » ـ أي قطاع الطرق الجبلية وحكام اثيوبيا العسكريون يصورونها الآن بأنها مجرد عمليات عنف مصدر من الخارج من بعض الدول العربية من أجل القضاء على الامبراطورية الاثيوبية (١٠) •

ونظرا لاشتعال الثورة الأريترية والموقف المتصلب لحكام اديس أبابا فلا يمكن اعتبار الموضوع مسالة داخلية ، حيث أن للاقليم الاريتري تاريخه الذي كان فيه غير خاضع لاثيوبيا ، ثم ان الاقليم يقع على ساحل البحر الأحمر وبه ميناءا عصب ومصوع اللذان تعتمد عليهما اثيوبيا كل الاعتماد ـ الى جانب ميناء جيبوتي بجمهورية جيبوتي ـ في حركة التجارة الاثيوبية مع العالم الخارجي • ومن هنا لابد للأقطار « البحر أحمرية » من أن تبحث الموقف في اريتريا لأن استمرار التوتر هناك يهدد أمن البحر الأحمر والأقطار المطلة عليه •

ثالثا ـ الصدام الصومالي الاثيوبي :

منذ أن حصلت الصومال على استقلالها في أول الستينات من القرن الحالي وهي تنظر باهتمام الى الأقاليم الصومالية الخاضعة لدول أفريقية أخرى منذ أن سيطر الاستعمار الغربي على شرق افريقيا في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ومن بين هذه الأقاليم الصومالية اقليم أوجادين التي تسيطر عليه اثيوبيا رغم أنه يكون جزءا طبيعيا متمما للصومال وغالبية سكانه العظمى من الصوماليين ، ومن هنا كان التوتر بين الدولتين المتجاورتين اثيوبيا والصومال •

ومما يزيد من حدة الصراع بين الدولتين اصرار اثيوبيا على عدم التفاوض مع الصومال لتقرير مصير اقليم أوجادين المتنازع عليه ، ورغم أن الاتحاد السوفيتي كان صديقا للطرفين : جمهورية الصومال الديمقراطية ذات النظام الاشتراكي ، والحكم العسكري في اثيوبيا الأكثر اتجاها نحو الاشتراكية ، الا أنه من الواضح أن الروس يتعاطفون مع الأثيوبيين • وهذا يفتح بابا لتدخل قوى أجنبية في مسألة « بحر أحمرية » مما يهدد أمن البحر الأحمر •

ومما تجدر ملاحظته أن لروسيا ومنذ القرن التاسع عشر تطلعات نحو اثيوبيا بصفة خاصة وتشير الوثائق البريطانية الى محاولات روسيا القيصرية ايجاد موضع قدم لها في اثيوبيا سواء بادعاءات دينية أو لتقديم مساعدات عسكرية للاثيوبيين ضد أعدائهم •

فتذكر « موسكو جازيت » في عددها الصادر في ١٦ سبتمبر ١٨٨٧م أن من الخطأ تجاهل المصالح الروسية في اثيوبيا والبحر الأحمر في الوقت الذي تتواجد فيه مطامع انجليزية وفرنسية هناك • وأن مصالح روسيا مع اثيوبيا تعتمد على الارتباط الديني بين البلدين اذ أن مذهبهما هو الارثوذكسية (١١) .

وتحقيقا لما نادت به « موسكو جازيت » بدأ توافد الروس على اثيوبيا في شكل جماعات أو حملات منظمة ، فيرسل القنصل البريطاني في بورسعيد بتاريخ ٦ يناير ١٨٨٩م أن ١٤٦ رجلا روسيا مع قليل من النساء ورجال الدين غادروا بورسعيد آنذاك على باخرة نمساوية متجهين الى أوبوك (١٢)

كما أبرق القنصل البريطاني في سواكن بأن هذه البعثـــة الروسية والتي اتضح أنها بقيادة الجنرال نيكولاييف Nicolaieff وعـــدد أفرادها حوالي ١٥٠ فردا قد غادرت أوبوك على نفس الباخرة وتراقبها ســـفينة حربية ايطالية (١٣) ثم أضاف حاكم سواكن عن طريق سير ايفـــلن بارنج المعتمد البريطاني في مصر ـ أن هذه البعثة الروسية تنوي التوجه من أوبوك الى جنوب الحبشة عن طريق هرر للعمل في الجيش الاثيوبي ، حيث تحتاج اثيوبيا لعدد من الضباط ، وحيث يوجد فعلا بعض القوزاق Cossacks في أوبوك ومن المنتظر وصـــول المزيد الذين يحتمل وصـــول عددهم الى الفين (١٤) ٠

كما أن السفير البريطاني في سان بطرسبرج St. Petersburg أرسل لوزير الخارجية البريطانية يذكر أن حملة روسية يقودها كارجوبولوف Kargopoloff في طريقها الى الحبشة ، حيث غادرت طشقند وستمر بكل من فارس ، بومباي وعدن الى جيبوتي ، ثم تتقدم الى هرر تحت ادعاء بأن مهمتها البحث العلمي (١٥) ٠

وكانت هناك بعثة ثالثة بقيادة الكابتن ليونتيف Leontieff في طريقها الى الحبشة واستمرت هذه البعثة حوالي خمس ســـنوات من بدء رحلتها حتى عودتهـــا وقد تابع البريطانيون هذه البعثـــة سواء في نزولها بالقاهرة ومحاولة دخول الحبشة عن طريق الخرطوم ، أو عودتها بعد وصولها عن طريق البحر الى الحبشة ، وردا على استفسارات البريطـــانيين في شرق أفريقيا أجاب الأيرل أوف كمبرلي Earl of Kimberley بأنه فهم من السفير الروسي في لندن بأن هدف بعثة ليونتييف الوحيـــد هو الجانب الديني فقط (١٦) ٠

وقد سقت هذه الشواهد لأدلل على اهتمام الروس من وقت مبكر بشرق أفريقيا ومدخل البحر الأحمر ، فما نشاهده الآن ومنذ أوائل السبعينات من القرن الحالي من تواجـــدهم في القرن الافريقي ماهو الا احيـــاء لأطماعهم القديمة منذ الثمانينات من القرن الماضي ٠

وفي اعتقادي أنه على الرغم من أن الصومال كانت أسبق من أثيوبيا في الارتباط بالروس حتى وصل هذا الارتباط الى حد اعطائهم تســـهيلات في ميناء بربرة الصومالي ، الا أن أثيوبيا عندما حدثت بها الثورة الاشتراكية

ـ كانت أكثر اغراء من الصومال بحكم وجود ظروف اقتصادية واجتماعية تشجع على انتشار المبادىء الاشتراكية الماركسية في اثيوبيا عن الصومال ناهيك عن عامل الدين ، فالصومال بلد اسلامي شعبه الفقير يتمسك بالاسلام دينا ، بينما الأثيوبيين مسيحيون شرقيون ، والروس قبل الثورة البلشفية مسيحيون شرقيون • لهذا صار الاتجاه الروسي نحو اثيوبيا يهـــدد أمن البحر الأحمر ويهدد مصالح الأقطار العربية المطلة على هذا البحر •

رابعا ـ اسرائيل ومداخل البحر الأحمر :

منذ أن أصبح لاسرائيل ميناء على خليج العقبة وصارت سفنها ـ خاصة بعد أحداث السويس عام ١٩٥٦م ـ تمخر عباب البحر الأحمر اتجهت لتكوين صلات قوية مع اثيوبيا لتصبح للسفن الاسرائيلية مواضع قدم في مواجهة الغلبة العربية على مياه البحر الأحمر ومداخله من الشمال والجنوب • ومن هنا حدث التعاون الاسرائيلي الأثيوبي في المجالات العســكرية والاقتصادية والفنيـــة •

وعندما تحققت الغلبة على مياه البحر الأحمر أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣م حاولت اسرائيل من جديد اثارة مخاوف اثيوبيا من هذه الغلبة لكي يصبح لاسرائيل موضع قدم في أي مكان من الجزر الصخرية العديدة الخالية من الحياة والتي تتناثر حول المدخل الجنوبي للبحر الأحمر في مواجهة جزيرة مينون أو بريم التي تحكم مضيق باب المندب ، علما بأن تلك الجزر الصخرية تتنازع السيطرة عليها كل من حكومات الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديموقراطية واثيوبيا • ومحاولات اسرائيل هذه تهدد أمن البحر الأحمر وبالتالي تزيد من تهديداتها لأمن الأقطار العربية المطلة على هذا البحر •

خامسا ـ امريكا وروسيا ومدخل البحر الأحمر :

استطاع الأمريكيون الحصول على عدد من القواعد العسكرية في المحيط الهندي في كل من موريشيوس ومالديف وجزر دبيوجارسيا ، كما استطاعوا

أيضا استئجار جزيرتي دهلك وسنتيان لمدة ٢٥ سنة من اثيوبيا ، والجزيرتان من الجزر الأخوات السبع التي لا تبعد عن مضيق باب المنـــدب بأكثر من ٦ أميــال بحرية (١٧) . وفي المقابل حصل الاتحاد السوفيتي على تسهيلات بحرية في عدن وفي ميناء بربرة الصومالي ، وفي موزمبيق وبدأ يتطلع الى الموانيء الاثيوبية على البحر الأحمر .

وهذه التحركات الأجنبية عند مدخل البحر الأحمر الجنوبي تتطلب بالضرورة اليقظة واعداد العدة لضمان أمن البحر الأحمر ودوله وابعاده عن الصراعات الدولية والمطامع الأجنبية .

سادسا ــ الخلافات العربية « البحر احمرية » :

ان وجود خلافات ــ مهما كانت أســـبابها ــ بين قطرين أو أكثر من الأقطار « البحر أحمرية » يهدد بالضرورة أمن البحر الأحمر وأمن اقطاره ناهيك عن صعوبة القيام بعمل مشترك لأبعاد الأخطار الخارجية والصراع الدولي عن البحر الأحمر واقطاره . فالخلاف القائم بين جمهورية اليمن الجنوبية وسلطنة عمان ، والخلاف بين الجمهورية العربية اليمنية وجمهورية اليمن الديموقراطية ، من ذلك النوع من الخلافات التي تحول دون الاتفاق على عمل مشترك لضمان أمن البحر الأحمر وخاصة تأمين مدخله الجنوبي أمام المحاولات الخارجية للتدخل وفرض الوجود .

كانت تلك ــ في رأيي ــ مبررات كافية لأن ينعقد مؤتمر تعز ، ولكن هل كانت تلك المبررات لمجرد اجتماع رؤساء أربع دول فقط من دول هذا البحر ؟ في الواقع جاءت مبادرة الرئيس جعفر نميري لعقـد مؤتمر يبحث كيفية ضمان أمن البحر الأحمر موجهة الى كل دول البحر الأحمر وفي مقدمتها مصر والمملكة العربية السعودية والسودان والصومال وجمهـوريتي اليمن الشمالية والجنوبية الى جانب اثيوبيا . ولكن دول الســـودان والصومال واليمنيتين فقط هي التي استجابت للنـــداء واجتمع رؤساؤها في تعـــز في مارس ١٩٧٧ .

ولسنا بصدد الدخول في تفاصيل اللقاء الرباعي ، ولكننا نستعرض بالمناقشة التوصيات التي صدرت عن المؤتمرين ، وقد سبقت تلك التوصيات

كلمات للرؤساء ابراهيم الحمدي رئيس اليمن الشمالية وجعفر نميري رئيس جمهورية السودان ، توضح الهدف من المؤتمر واستجابة الأقطار الأربعة للمبادرة السودانية ٠

ومما جاء في كلمة المقدم ابراهيم الحمدي : أننا كدول مطلة على حوض البحر الأحمر مسئولة عنه بحكم حقنا في السيادة الوطنية على مياهنا الاقليمية كما أن هذا اللقاء يعتبر فريدا من نوعه عمليا واستراتيجيا وبخاصة ومحادثاتنا ليست مقتصرة على موضوع بعينه وانما سنتناول العديد من المواضيع التي تهمنا كمسئولين في دولنا وشعوبنا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا ٠

وهذا في رأيي هام للغاية فلايمكن النظر الى ضمان أمن البحر الأحمر باعتبارها مسألة استراتيجية فقط ، لأن وجود تخلف اجتماعي واقتصادي على شواطيء البحر الأحمر يساعد على عدم الاستقرار ويفتح بابا للصراع الدولي يدخل منه ويفرض نفوذه ٠ ومن هنا كانت كلمة رئيس اليمن الشمالية لها دلالتها الواعية ، ودعوة للعمل الجاد المتكامل الشامل ٠

وأضاف الرئيس الحمدي في كلمته : أن هذا اللقاء ليس مظاهرة ضد أحد ولا من أجل التآمر على أحد ولا أرى فيه خروجا عن حقنا المشروع كأخوة أشقاء في أن نلتقي لنتدارس أمورنا وقضايانا صغيرة وكبيرة وخصوصا ما يتعلق بالتعاون المشترك على ما فيه حماية سيادتنا على أراضينا ومياهنا الاقليمية في حوض البحر الأحمر ٠ وعلينا اليوم تقع مسئولية عظيمة تلك هي الخروج بأوطاننا من شباك الصراع الدولي ٠ وفي سبيل الحفاظ على أمن البحر الأحمر في حاجة بالطبع الى مساندة أشقائنا العرب ، ومن مبدأ وحدة النضال العربي ضد الصهيونية وقوى الغزو الأجنبي ومن مبدأ أن أول خطر يتهدد منطقة عربية هو خطر على العرب أجمعين (١٨) ٠

كانت هذه الكلمات علامات على أهداف المؤتمر وما ينبغي عمله لتحقيق تلك الأهداف ، وازالة مخاوف أثيوبيا والتمسك بميثاق الأمم المتحدة الداعية الى السلام والاستقرار ، وكانت تلك الكلمات مقدمة للوصول الى التوصيات التي صدرت عن المؤتمر في شكل بيان صحفي كان أهم ما جاء به :

بسم الله الرحمن الرحيم : انطلاقا من روح التضامن العربي وأهمية التشاور بين الأشقاء وفي يوم الثلاثاء الثاني من شهر ربيع الثاني ١٣٩٧هـ

الموافق ٢٢ من شهر مارس ١٩٧٧م تم لقـــــاء تشاوري على مستوى قمة بين كل من :

- فخامة الرئيس جعفر نميري رئيس جمهورية السودان الديموقراطية ٠
- فخامة الأخ محمـــــد سياد بري الأمين العام للحزب الاشتراكي الثوري الصومالي ورئيس جمهورية الصومال الديموقراطية ٠
- فخامة الأخ سالم ربيع علي رئيس مجلس الرئاسة لجمهـــورية اليمن الديموقراطية الشعبية ٠
- فخامة الأخ المقدم ابراهيم محمد الحمدي رئيس مجلس القيادة والقائد العام للقوات المسلحة للجمهورية العربية اليمنية ٠

وبعد أن اجريت لهم مراسم الاستقبال ٠٠ تشاوروا حول تنسيق جهود دولهم مع الدول العربية المقتدرة في سبيل تطوير مواردها والرقي بشعوبها في اطار التعاون والتضامن العربي ٠ وفي هذا الشأن تم الاتفاق على تحرك مشترك ٠ وتناول الرؤساء الوضع في حوض البحر الأحمر واتفقـــوا على ضرورة أن يظل منطقة سلام ووئام وأن تعمل الدول المطلة عليه على تحقيق هذا الهدف بالتشاور والتنسيق فيما بينها نظرا للعلاقات الطيبة بين فرنسا والدول العربية ٠ وتحقيقا لوعود فرنسا المعلنة والمتعلقة في اعطاء الساحل الصومالي ـ جيبوتي (١٩) استقلاله التام عن طريق الديمقراطية الحقة ، يناشد الرؤساء الأربعة فرنسا بمنح جميع المواطنين في الساحل الصومالي حقهم الشرعي في ممارسة الاقتراع على أسس وطنية وديموقراطية ، وليس على أسس قبلية مما قد يؤدي الى التناحر وتهديد الأمن والسلام في البلاد وتأزم الموقف في المنطقة ٠

« وشدد الرؤساء على أهمية التضامن لمواجهة الســـــياسة العدوانية لاسرائيل والقوى الصهيونية التي تدعمها ٠ واتفق الرؤساء على أهميـــة استغلال ثروات البحر الأحمر لما فيه خير شعوب الدول المطلة عليه ، وتقرر في هذا الشأن تكوين لجنة فنية مشتركة لاجراء الاتصالات الضرورية اللازمة للدول المطلة على البحر الأحمر واعداد الدراسات اللازمة وأن تواصل الدول المشتركة في هذا اللقاء جهودها من أجل عقد لقاء موسع يضم كافة الدول المطلة على البحر الأحمر ٠٠ » (٢٠) ٠

« صدر في تعز يوم الأربعاء الثالث من ربيع الثاني ١٣٩٧هـ الموافق ٢٣ من شهر مارس ١٩٧٧م » ٠

وليس لنا تعليق على هذا البيان الصحفي الذي صدر في ختام يومين من الاجتماعات بين رؤساء الأقطار العربية الأربعة التي تمسك بزمام مدخل البحر الأحمر الجنوبي الا أن نقول أنه كان بداية لاثارة قضية لها أهميتها وتنبيه الأقطار العربية « البحر أحمرية » الى الأخطار التي تهددهم سواء كانت أخطارا خارجية ترجع الى الصراع الدولي حول المنطقة أو أخطارا داخلية تتمثل في وجود تحركات اسرائيلية وشكوك اثيوبية ، أو كانت مخاطر تخلف الأقطار العربية اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وعسكريا بصورة تساعد على عدم الاستقرار بل وتتيح الفرصة للتدخل الأجنبي ، الى جانب الخلافات بين الأقطار العربية ذات الأثر الخطير على كل عمل مشترك لمصلحة العرب ٠

المصـــادر

أولا ـ الوثائق :

١ ـ ميثاق أمن جدة ١٩٥٦م ضمن الوثائق المنشورة في كتاب أصدرته وزارة الخارجية السعودية بمكة المكرمة تحت عنوان المعاهدات ٠

٢ ـ **الوثائق البريطانية**

A : F. O. 403/90/75.
B : F. O. 403/123/2, 13, 15.
C : F. O. 403/125/93.
D : F. O. 403/221/54.

ثانيا ـ الدوريات :

١ ـ جريدة الثورة اليمنية الأعداد : ٢٩٠٩ ، ٢٩١٠ ، ٢٩١١ ، ٢٩١٢ ، ٢٩١٣ في الفترة من ١٩٧٧/٣/٢١ الى ١٩٧٧/٣/٢٥ ٠

٢ ـ جريدة الأهرام المصرية عدد الجمعة ١٥ أبريل ١٩٧٧م ٠

ثالثا ـ المراجع :

١ ـ د٠ أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة ٠

٢ ـ أمين سعيد : تاريخ الدولة السعودية ٠

٣ ـ د٠ محمد أنيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ٠

٤ ـ جورج كيرك (مترجم) : موجز تاريخ الشرق الأوسط ٠

5. Kirkwood : Britain and Africa,
6. Langer : European Alliances.

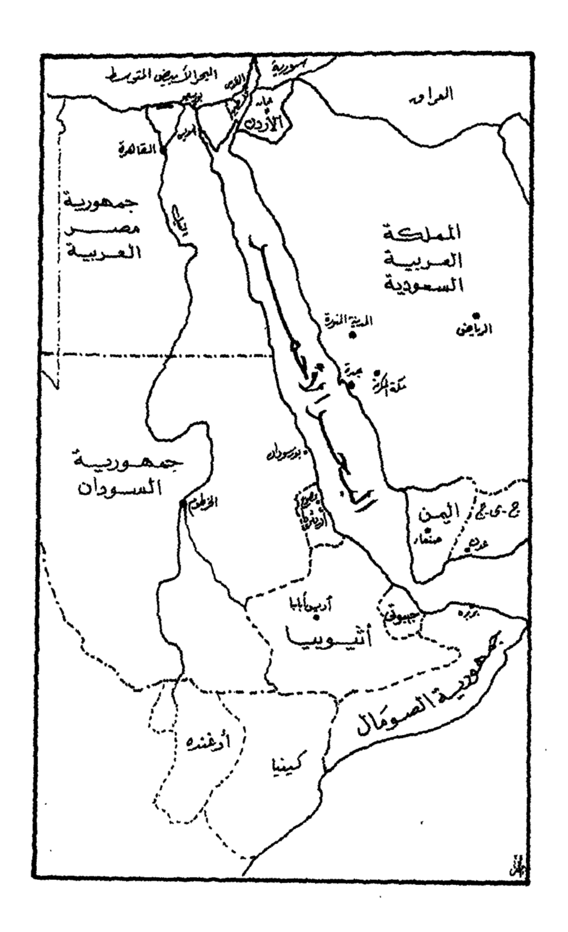
رابعا ـ خريطة للبحر الأحمر ٠

١ ـ د٠ محمد انيس : الدولة العثمانية والشرق العربي ص ١٢٨ ٠
٢ ـ د٠ احمد عزت عبد الكريم وآخرون ٠ دراسات في النهضة العربية الحديثة ص ٢٢١ ٠

٣ ـ جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ١٢٧ ٠
٦ ـ امين سعيد : تاريخ الدولة السعودية جـ٢ ص ١٢٩ ٠
٧ ـ وزارة الخارجية : مكة المكرمة : مجموعة المعاهدات ٠
٨ ـ امين سعيد : تاريخ الدولة السعودية جـ ٣ ص ١٩٨ ٠
٩ ـ نفس المصدر ص ٢٠١ ٠
١٠ ـ جريدة الأهرام عدد الجمعة ١٥ ابريل ١٩٧٧م
١٧ ـ جريدة الاهرام عدد الجمعة ١٥ ابريل ١٩٧٧م ٠
١٨ ـ جريدة الثورة اليمنية : العدد ٢٩١١ الاربعاء ٣ ربيع الثـــاني ١٣٩٧هـ ٢٣ مارس ١٩٧٧م ٠

١٩ ـ لم تكن قد حصلت بعد على استقلالها ٠
٢٠ ـ جريدة الثورة اليمنية : العدد ٢٩١٢ الخميس ٤ ربيع الثـــاني في ١٣٩٧هـ الموافق ٢٤ مارس ١٩٧٧م ٠

4. Kirkwood : Britain and Africa, P. 19.
5. Langer : Ewropan Alliances chap. 8.



البحر الأبيض المتوسط
سورية
العراق
الأردن
القاهرة
جمهورية مصر العربية
المملكة العربية السعودية
المدينة المنورة
الرياض
جدة
مكة المكرمة
بورسودان
جمهورية السودان
الخرطوم
اليمن
عدن
أديس أبابا
أثيوبيا
جيبوتي
بربرة
جمهورية الصومال
أوغندة
كينيا

أسس تحول عدن من قاعدة بحرية إلى قاعدة جوية

(١٩٢٧-١٩٢٩)

« دراسة وثائقية »

للدكتور جاد محمد طه
أستاذ التاريخ الحديث المساعد بكلية الآداب جامعة المنيا
والمعار بكلية الآداب جامعة محمد بن عبد الله ـ فاس ـ المغرب

مع بداية عام ١٩٢٧ بدات سلسلة من الاتصالات والمراسلات بين وزارة الدولة للمستعمرات ووزارة الدولة للهند ووزارة الطيران وحكومة الهند وحكومة بومباي وهيئة الخزانة البريطانية ودار الاقامة في عدن بخصوص تحويل عدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، وذلك تطبيقا لقرار مجلس الوزراء البريطاني في هذا الشان • وبعد دراسات مستفيضة من كل هذه الجهات ، تم وضع اسس التغيير اللازم في النواحي الحربية والادارية والمالية والقضائية ونشاط المخابرات . واستمر العمل بهذه الاسس حتى عام ١٩٣٢ حين انفصلت عدن عن حكومة بومباي واصبحت تابعة لحكومة الهند ، الا انه لم يطرا تعديل كبير على هذه الاسس كنتيجة لهذا التغيير في التبعية (١) • ومع عام ١٩٣٧ تتحول عدن الى التبعية المباشرة لوزارة المستعمرات ، وتبدا بذلك تغييرات اخرى في كل المجالات •

تمهيـــد

سقطت عدن في أيدي الاستعمار البريطاني في ١٦ يناير سـنة ١٨٣٩ ، وكان الكابتن هينس Haines هو اول مقيم سياسي بريطاني في عدن بعد احتلالها (٢) . وكان الهدف الأول ليهنس هو وضع أسس الدفاع الدائم عن عدن حتى يمكن مقاومة أي هجوم مفاجىء عليها ، وكذلك كان عليه أن يجعل القبائل العربية في حالة هادئة حتى يمكنه تشييد التحصينات اللازمة للدفاع . وقد نجح هينس في تحقيق هذين الأمرين ، وبدات سلسلة من الأعمال الانشائية على طول خليج عدن . ومع نهاية شهر يناير سنة ١٨٣٩ ، بدات بريطانيا في تنفيذ سياسة التهدئة في المنطقة حتى تضمن استقرار الامور في عدن بما يحقق في النهاية مصالحها الاستراتيجية والتجارية والبحرية (٣) .

والواقع أن موقع عدن الاستراتيجي الهام كان يحتم وجود هدوء نسبي كي تستفيد بريطانيا منه فائدة محققة ، وعلاوة على ذلك فان عدن كانت في غاية الأهمية بالنسبة للتجارة بين الشرق والغرب « فالطريق التجاري الذي تعبر خلاله منتجات انجلترا والهند سيحقق التبادل التجـــاري مع اليمن وحضرموت ، هذا بالاضافة الى أن التجارة مع الشاطىء الشرقي الافريقي سوف تتركز في سوق عدن » (٤) . لكل ذلك كان لابد من هدوء الأحوال في عدن ، ومن ثم بدت واضحة أهمية العلاقات الودية مع الحكام العرب في المنطقة ضمانا لولائهم ، وربط هذه العلاقات بالمشاهدات المالية (٥) .

الا أنه منذ التدخل العثماني في منطقة جنوبي الجزيرة العربية في عام ١٨٧٢ ، أصبح النفوذ البريطاني مهددا تهديدا خطيرا ، وبدا واضحا ــ من وجهة النظر البريطانية ــ ضرورة الانتقال من طور معاهدات الصداقة مع الشيوخ العرب في المنطقة الى طور جديد يؤمن النفوذ البريطاني ويدعم بقاءه

في المنطقة ، ولم يكن هذا الطور الجديد سوى الحماية التي تم فرضها على الرؤساء العرب بموجب معاهدات عقدت بينهم وبين الحكومة البريطانية (٦) ٠

وهكذا يبدو واضحا أن الحماية التي فرضتها بريطانيا على القبائل المحيطة بعدن لم تكن من مقاصدها السياسية الاولى ، أي أنها اضطرت الى عقدها درءا للأخطار التي هددت عدن نتيجة للتدخل العثماني في المنطقة (٧) ٠
وتجدر الاشارة الى أنه بينما كانت سياسة القبائل العربية تختلف من قبيلة الى أخرى ومن حاكم الى حاكم ، فان السياسة البريطانية كان ينفذها المقيم السياسي في عدن وفق رغبات حكومة بومباي وحكومة الهند والحكومة البريطانية أيضا (٨) ٠

وعلى الرغم من أن ابعاد السياسة البريطانية في سلطنات ومشيخات وامارات الجنوب العربي كانت تتغير من آن لآخر طبقا لتغير المقيمين السياسيين في عدن ، فان هذه السياسة كانت تلتزم بصفة عامة بعدم التدخل في شئون القبائل الا بالقدر الذي يحقق المحافظة على المصالح البريطانية (٩) ٠
فلم تكن علاقات بريطانيا بسلطنات ومشيخات وامارات الجنوب العربي تعني السيطرة الادارية عليها ، بل ان الأمر لم يتعد في بعض الأحيان سوى عقد معاهدات الصداقة ومنح المساعدات ثم عقد معاهدات الحماية دون تدخل فعلي في شئون هذه السلطنات ٠ أي أن القصد الرئيسي من عقد هذه المعاهدات لم يكن سوى تأمين عدن والمحافظة عليها ، وكذلك تأمين الطرق الممتدة بين عدن والمناطق الداخلية ضمانا لانتظام التبادل التجاري بين عدن والمناطق الداخلية ٠

وقد ظلت عدن منذ سقوطها في أيدي البريطانيين في عام ١٨٣٩ تابعة لحكومة بومباي ، الا أن حكومة الهند كانت تتدخل أحيانا في شئون عدن حتى أنها عينت أحد حكامها سنة ١٩٠٦ دون الرجوع الى حكومة بومباي (١٠) ، مما أثار بعض المناقشات ، الا أن عدن على أية حال ظلت من الوجهة الرسمية تابعة لحكومة بومباي حتى عام ١٩٣٢ (١١) ٠

ومع بداية ١٩٢٧ بدأت الدراسات في لندن توضح أهمية جعل عدن قاعدة جوية في الأساس بعد أن كانت قاعدة بحرية في الأساس ، وكيف أنه طبقا لذلك يجب اعداد الترتيبات المالية والادارية والحربية والقضائية التي تحقق هذا التحويل نظرا للأهمية القصوى التي حازت عليها القوات الجوية في

ذلك الوقت بل في كل وقت · وقبل الحديث عن هذه الترتيبات تجدر الاشارة الى الأوضاع التي كانت سائدة في عدن قبل وضع أسس التغيير حتى يمكن تفهم هذه الأسس ·

وضعية عـدن في عام ١٩٢٧

يستحسن أن نعتمد في تصوير الأوضاع في عدن في ذلك العام على تقرير مفصل كتبه المقيم السياسي في عدن يوضح فيه بحياد كامل الأوضاع السائدة في عـدن في ذلك الوقت · فهو يرى أن الأهداف الخاصـة الاسـتراتيجية والاستعمارية في عدن تنحصر في تحقيق الآتي :

١ ـ ميناء مجهز لتقديم الوقود والاحتياجات الاخرى للاسطول وللقوات الجوية ، وكذلك المحافظة على خطوط الاتصالات ·

٢ ـ قاعدة لممارسة النفوذ السياسي مع السكان في جنوب غربي الجزيرة العربية وخصوصا في المنطقة الساحلية ضد أية اتفاقات وطنية مع قوى بحرية أو حربية أجنبية ·

٣ ـ مركز للتجارة مع سكان المنطقة ومع الأقطار المجاورة وأوضح المقيم كذلك مدى القصور في مجال الخدمات في عدن والمحميات ، « وأنه في الماضي كانت مثل هذه الخـدمات غير مطلوبة ، وأنه أمكن ضـمان ولاء الشيوخ بمشاهدات تافهة وبتقديم بعض المعاونات وخصوصا بالنسـبة لامدادهم بالأسلحة والذخائر حتى يمكنهم المحافظة على سلطاتهم ·· ومنذ سنوات طويلة جذبت مستشفيات عدن المرضى من كل أنحاء المنطقة ، وعدد طلبات العلاج يزداد باستمرار · واذا كانت الاحتياجات من أجل التسهيلات التعليمية لم تتضح بعد ، فان ذلك يرجع في الأساس الى أن التعليم باللغة العربية يستهدف الدراسات الدينية فقط ، الا أن هناك بعض الأمل في أنه في المستقبل القريب يمكن تدعيم عدن بالمؤسسات المختلفة لتقديم تعليم أفضل وتسهيلات علاجية أحسن » (١٢) ·

ويجب أن نتذكر هنا أن الاستعمار البريطاني لم يوجه طيـلة عهده الطويل في جنوبي الجزيرة العربية كبير اهتمام الى النواحي التعليمية وانشاء

المدارس المختلفة (١٣) . فهو لم ينشيء منذ احتلال عدن في سنة ١٨٣٩ وحتى الاستقلال سنة ١٩٦٧ سوى مدرسة ثانوية واحدة للبنين وأخرى للبنات في عدن نفسها ، هذا بجانب بعض المدارس الابتدائية في عدن أيضا . أما في الامارات فلا توجد سوى الكتاتيب التي تعلم القراءة والكتابة (١٤) .

أما بالنسبة للصحة العامة ، فلم تكن توجد في عدن في ذلك الوقت سوى مستشفى الملكة اليزابيث الحكومي ومستشفى القوات المسلحة في التواهي ومستشفى الارسالية الاسكتلندية في الشيخ عثمان . وفيما عدا هذه المستشفيات القليلة في عدن نفسها ، فانه لم تكن توجد في كل منطقة جنوبي الجزيرة العربية سوى أربع مستشفيات صغيرة في المكلا ولحج وابين وسلطنة الكثيري (١٥) .

الا أن المقيم البريطاني يعود فيذكرنا بتطور عدن الاجتماعي والاقتصادي منذ الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٣٩ « ... فان قرية عربية بدائية كان يعيش فيها بعض صيادي السمك تحولت الى قلعة حصينة ، والى ميناء خطير للتجارة العالمية ، والى مركز لصناعة الملح ، وأدى ذلك الى أن تنتقل اليها مجموعات بشرية كبيرة ، من الداخل بصفة رئيسية ، ومن الأقطار المجاورة ـ غرب وهنود وصوماليون ـ حتى أصبح عدد سكان المستعمرة نحو ٦٠٫٠٠٠ نسمة ، وهذه الكثافة السكانية هي بدون الاوربيين والهنود المرتبطين بهم ، والذين مع المجموعات السكانية الاخرى صبغوا عدن بصبغة تجارية » . وكان عدد السكان العرب في عدن في ذلك الوقت ـ طبقا لتقرير المقيم ـ يصل الى نحو ٦٠٪ من جملة السكان . وقد سهل وجود العلاقات مع القبائل المجاورة لاتصالهم بها بالنسب والعقيدة . كما أن العرب في عدن كانوا يؤلفون العنصر المتوقع منه أن يعوض أي نقص بشري لازم لانعاش الميناء . ويسترسل المقيم في تقريره موضحا « أن العائد من عمليات شحن السفن هو عائد كبير ، وأعمال الوقود ناجحة وتجارة الترانزيت رائجة وحركة السوق المحلية من الداخل مزدهرة ، وأنه بالنسبة للسوق المحلية في عدن ذاتها فانه يمكن انعاشها بزيادة عدد العرب المقيمين في عدن زيادة معقولة ، وذلك بتشجيع الصناعات المحلية والوطنية ، وتحقيق أحوال سياسية أفضل في المحمية ، وهكذا فان الزيادة المستمرة في السكان الوطنيين في عدن سوف تخدم الاقتصاد ، كما تخدم المصالح الاستعمارية » .

كما أوضح المقيم أن تكوين عدن البشري ـ رغم واقعه العربي الصرف ـ

لا يمكنه القيام بحركة وطنية لأنه من الناحية الثقافية والسياسية شديد التخلف ، أما تهنيد عدن فهي عملية مناسبة ـ من وجهة نظره ـ طالما ظلت الهند بريطانية ، وذلك لأن الهنود في عدن ليست لديهم روح وطنية أو سياسية ، « وهم بالتحديد في جانب الانجليز » ٠

أما بالنسبة لادارة عدن ، فانها ـ في رأي المقيم ـ انتقلت من دور الأعراف والتقاليد الى الأحكام القانونية ، ورغم ذلك فان عدن كانت صغيرة جدا بالنسبة لاقامة حكومة كاملة بها لها الشكل الاستعماري ، هذا بالاضافة الى أن عدن كانت تحوز على بعض الفوائد من ارتباطها بالهند البريطانية ، فرغم أنها جزء من حكومة بومباي فهي تابعة لعدة ادارات مركزية في حكومة الهند ٠ وكان من رأي المقيم أنه من الأفضل معاملة عدن كولاية ملحقة وأنه « يمكن تجميع الانفاق السياسي في المحمية في خزانة واحدة تتم موازنتها باسهام من الخزانتين الهندية والبريطانية وفقا للانفاق المدني والسياسي ، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الأغراض الاستعمارية ـ وهي مسئولية مشتركة بين الحكومتين البريطانية والهندية ـ قد يعززها تقدم اداري في عدن كوحدة شبه ملحقة تحت رئاسة حكومة الهند ، وكذلك فانه من الضروري لهذا التقدم رفع مستويات خدمات الادارة المحلية وخصوصا الشرطة والطب والتعليم » ٠

واضاف المقيم إنه بالنسبة للأمور السياسية ، فان العلاقات السياسية والاجتماعية القائمة بين بلدية مستعمرة عدن والمحميات يجب أن تظل بلا تغيير ، « فهي الآن أكثر استقرارا من المجازفة بالتعجيل بالتغيير ، الا أنه سيظل واضحا أن تطور أسلوب محميتنا الى أي تقدم اقتصادي سوف يزيد من علاقاتنا السياسية ، مما يؤدي الى أن تصبح عدن عاصمة ادارية لكل جنوب اليمن » ٠

أما بالنسبة لتحويل عدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، فان المقيم اعطى تقديرا تقريبيا لتصوره عن الفوائد المالية الناجمة عن هذا التحويل ، فان « نفقات خاميسة عدن حاليا هي بصفة رسمية ؛ ٣٠٠ر٠٠٠ جنيه فقط » (١٦) ٠ وهنا نتساءل ما هي أسس الترتيبات العسكرية تطبيقا لقرار الحكومة البريطانية القاضي بتحويل عدن الى قاعدة جوية ؟ ٠

الترتيبات العسكرية :

بدأت عدن في التحول من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، وهكذا تقرر أن مسئولية تنظيم الدفاع عن عدن سوف تنتقل من وزارة الحرب الى وزارة الطيران ، وأن « ضابطا من القوات الجوية الملكية سوف يعين من أول أبريل سنة ١٩٢٨ ، ليتولى قيادة قوات الحامية » (١٧) وقد أدى هـــذا التغيير الاستراتيجي في عدن الى الاستعداد لاحـــداث تغييرات كبرى في واقع عدن الاداري والاستعماري ، وأخـــذ المجلس الدائم في عدن يدرس الترتيبات المطلوبة بالنسبة للادارة ومرتبات القوات المقترح تعديلها في عدن (١٨) ٠

وقد اقترح المستر اميري Amery وزير الدولة للمستعمرات أن تقوم وزارة الطيران نيابة عن وزارة المستعمرات بمناقشة الامور المالية مع مستشاري هيئة الخزانة البريطانية ، ثم تقـــدم وزارة الطيران في النهاية شهادة بالاضافات المالية الى وزارة المستعمرات والتي عليها دفع قيمتها دون مناقشة « وأكثر من ذلك فان وزير الدولة للمستعمرات يقرر أنه اذا ما ثار سؤال لحسابات القوات قبل عرضها على المجلس العـــام للمحاسبات ، فان الضابط المحاسب لوزارة المستعمرات قد صدرت اليـه التعليمات باستدعاء الضابط المحاسب لوزارة الطيران كي يجيب هو بنفســـه على الاستفسارات المطلوبة وعلى مسئوليته » (١٩) ٠

وقد وافقت وزارة الطيران على وجهات نظر وزارة المستعمرات بالنسبة لقنوات الاتصال بين عدن والسلطات في لندن في الامور الخاصـــة بادارة القوات ، ولأن هذه القوات ستكون تحت رئاسة وزارة المستعمرات ، فان كل المراسلات الخاصة بها ستكون مباشرة بين المقيم ووزارة المستعمرات » ٠ ومن ناحية أخرى اقترحت وزارة الطيران بأنه يكون أكثر ملاءمة أن يتراسل قائد المجموعة الجوية مباشرة مع وزارة الطيران في الامور الخاصة بالقوات الجوية (٢٠) ٠ كما وافقت وزارة الطيران على الترتيب المالي الذي اقترحته وزارة المستعمرات (٢١) ٠

وفي هذه المرحلة ، ثارت مسالة شكلية خاصة باسم القوة البريطانية التي سوف ترابط في عدن بعد تحقيق هذه الترتيبات ، فقد وجهت بعض الاعتراضات على اسم (قوات اليمن) واقترحت وزارة المستعمرات أيضا اسم (قوات محمية عدن) وكاسم مختصر وغير رسمي اقترح (قوات المحمية) وقد تمت الموافقة على ذلك (٢٢) ٠

وقد وافقت المستعمرات على كافة مقترحات وزارة الطيران الخاصة بالاتصال المباشر بين قائد القوات الجوية في عدن ووزارة الطيران (٢٣) ، وكذلك على الاسم المقترح للقوات الجوية في عدن (٢٤) ٠

ومع هذا التغيير الاستراتيجي لعدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، أصبحت بعض الأراضي والمباني في عدن زائدة عن حاجة القـــوات نتيجة لانقاص عدد أفرادها وللتغيير في تنظيم الحامية ، فما هو التصرف حيال هذه المباني والأراضي ؟ (٢٥) ان حكومة الهند كانت قد وافقت على تعهد عام بتقديم أية أراض مطلوبة في عدن لأغراض الدفاع ، كما انها أوردت في هذا الصدد « بأن أية أراض أو مبان زائدة عن احتياجات القوات فانه يجب التنازل عنها للسلطات البلدية في عدن ٠ أما المباني التي شيدت على نفقة الامبراطورية وأصبحت أيضا زائدة عن حاجة القـــوات فان شروط تسليمها يخضع لاعتبارات أخرى » (٢٦) ٠

كما طلبت وزارة الهند من وزارة المستعمرات أن تكون منطقة معسكر عدن داخلة ضمن نطاق المستعمرة (٢٧) ، وقد وافقت وزارة المستعمرات على هذا الطلب لأن هيئة أركان حرب الطيران وقيادة البحرية لم تعترضا على ذلك (٢٨) ٠ واخيرا طلبت وزارة الهند من وزارة المستعمرات أن يكمل المقيم السياسي الماجور جنرال ستيورات فترة تعيينه في منصب المقيم (٢٩) ، الا أن المستر اميري وزير الدولة للمستعمرات اعتذر بأنه لا يستطيع أن يبت في هذا الموضوع (٣٠) ٠ الا أنه بعد فترة وجيزة قرر أنه من الضروري ابقاء الماجور جنرال ستيوارت في منصبه حتى أول أبريل سنة ١٩٢٨ لأنه رأى أنه من المستحيل اجراء كل التغييرات قبل هذا التاريخ (٣١) ٠

الترتيبات الادارية :

أدت الترتيبات المسكرية الى ضرورة اجراء ترتيبات ادارية أيضا في عدن والمحمية ٠ وقد أوضح قرار الحكومة البريطانية الخاص بتحويل عدن الى قاعدة جوية أن المقيم السياسي أو الحاكم في عدن يجب أن يكون بمثابة

سلطة عليا في كل الأمور السياسية والحربية وأمور الادارة الداخليـــة في المستعمرة ، وان هذا الضابط تعينه الحكومة البريطانية بالاتفاق مع حكومة الهنـــد .

وقد أوضح وزير الدولة للمستعمرات « أنه في الوقت الحاضر ، هناك بعض المصالح والادارات في مستعمرة عدن ليست تحت رئاسة المقيم مثـل البريد والمواصلات ، فهي تحت الاشراف المبـــاشر من ادارات مركزية في الهند ، وأنه يجب اتخـاذ الاجراءات الكفيلة بتطبيق قرار مجلس الوزراء البريطاني ، وجعل كل أعمـــال الخدمات في عـــدن تحت اشراف المقيم أو الحاكم » . كما كان من رأي وزير الدولة للمستعمرات أن يكون تعيين حاكم عدن بقرار من الملك البريطـــاني وبتوصـــية من وزير الدولة للمستعمرات . وأشار وزير الدولة للمستعمرات الى أنه قد فهم من زميله وزير الدولة للهند ايرل اف بيركنهد Earl of Birkennead أنه يفضل أن يختار المقيم أو الحاكم بالتناوب دوريا من خدمة المستعمرات وخدمة الهند ، الا أن وزير الدولة للمستعمرات لم يفضل هذا الاتجاه وفضل أن يكون الاختيار حرا ولأكثر الضباط ملاءمة للتعيين في هذا المنصب (٣٢) .

وقد قامت وزارة الهند باتصالات مع حكومة بومباى وحكومة الهند بخصوص التغييرات الادارية الواجب تحقيقها بناء على قرار مجلس الوزراء البريطاني بتحويل عدن الى قاعدة جوية ، وأبدى وزير الدولة للهند ملاحظته بأن وزير الدولة للمستعمرات يميل الى الرأي القائل بوجوب سيطرة المقيم على كل الأمور الداخلية في المستعمرة ، « ... الا أنه من الصعب أن يمارس المقيم سلطات واسعة كالتي يمارسها حكام المستعمرات ، فعـــدن بعدد سكانها القليل جدا ، وبمصادرها المحدودة لا يمكنها أن تتحول الى وحـدة ادارية منفصلة ومعتمدة على خطوط اقتصادية معقولة » . كما كان من رأي حكومتي الهند وبومباي أنه يجب « اتخاذ خطوات في التشريع الهندي لجعل المقيم في وضع (متصل) بالسلطات الهندية كما يمارس حاكم السند الآن سلطاته متصلا بحاكم بومباي » . وعلى حد قول وزير الدولة للهنـــد : « ... هل من الأفضل أن يمثل المقيم الجديد بتبعيته لحكومة جلالة الملك مكانة حاكم استعماري عادي ؟ الا أنه بالنسبة للامور التي سوف تظل تحت الادارة الهندية ــ رغم لقبه ــ فيكون مايشبه مفوض السند في علاقته بحاكم بومباي » . ومن هذه النقطة تبزغ المسالة الخاصة بالادارات الداخلية في عدن « ... والتي لا تدار حاليـــا عن طريق المقيم ولا عن طريق حكومة

بومباى ، ولكن تديرها الادارات المركزيه في حكومة الهند ، وان تحويل هذه الادارات لتكون تحت الاشراف المباشر للمقيم سيكون من شأنه اضعاف لها ، هذا مع الاحاطة بأن هذه الادارات تعمل الآن بكفاءة ودون وقوع أي مشكلات من جراء النظام القائم » (٣٣) ٠

أما بخصوص اختيار المقيم أو الحاكم ، فالواقع أن أهمية دور الهند التجاري في عدن ، والعدد الكبير للرعايا الهنود الانجليز والذين هم تحت اشراف اداري للمقيم ، والرغبة العميقة لدى هؤلاء الهنـــود في التمسك بالارتباط مع الهند ، كل هذه المسائل جعلت مسألة اختيار المقيم من أهم المسائل من وجهة نظر حكومة الهند ٠ وقد وافق وزير الدولة للهند على وجهة نظر وزير الدولة للمستعمرات بخصوص تلافي النظـــام الصارم والقاضي بالتعاقب في منصب المقيم بين وزارة المستعمرات ووزارة الهند ، وهو يرى « أن أفضل حل هو وضع ترتيب يكون تعاقب ضـــباط الخدمة الاستعمارية والهندية بموجبه طبيعيا وليس حتميا ، وأنه اذا ما وافقت وزارة المستعمرات على ذلك فان وزير الدولة للهند لن يعترض على أن يكون أول مقيم يعين طبقا لهذا الترتيب من الخدمة الاستعمارية » ٠

أما بالنسبة للهيئة المدنية بالمستعمرة ،، فان حكومة الهند بعد التشاور مع حكومة بومباى ترى أنه يجب أن يستمر تخصيصها من الهنـــد ، وأن الادارة الداخلية في عدن يجب أن تستمر مرتبطة بحكومة الهند وأن تسير على الخطوط الهندية ، وأن التنظيم القضائي في المستعمرة يجب أن يستمر طبقا للقضاء الهندى وطبقا للممارسة القضائية الهندية ٠

كما أوضح وزير الدولة للهند أنه يتفق مع حكومة بومباى وحكومة الهند في أنه اذا كان المقيم من الخدمة الاستعمارية ، فان مساعده الأول يجب ان يكون من خدمة الهند ، أما اذا كان المقيم من الخدمة الهندية فيجب أن يكون مساعده الاول من خدمة المستعمرات (٣٤) ٠

الا أن وزارة المستعمرات كانت لها آراء أخرى بالنسبة لاختيار المقيم ومساعده الأول ، « ٠٠٠ ففي الوقت الحاضر فان المساعدين الأول والثاني للمقيم قد تم تعيينهم من ناحية في عمل له طبيعة سياسية ، ومن ناحية أخرى

في أعمال مرتبطة بمستعمرة عدن ، وهذا الترتيب يبـــدو لوزير الدولة للمستعمرات غير مناسب ولا يرى داعيا لاستمراره ، لأن الحكومة البريطانية سوف يكون لها السيطرة الكاملة على الشئون السياسية » • وأضاف وزير الدولة للمستعمرات أنه يمكن تعيين ضابط واحد لمزاولة العمل المتصـل بالمحمية ، وأن مساعدي المقيم يجب أن يكرسوا أنفسهم كلية للأعمال المتصلة بالمستعمرة • واقترح الوزير بأن هذا الضابط الذي يمكن أن يسمى سكرتير المحمية يجب أن يكون في رتبة أقل من المساعد الأول للمقيم ، وأن المساعد الأول تنحصر واجباته في أعمال المستعمرة فقط ، ويمكن أن يكون ضابطا من الخدمة الهندية ، ويحل محل المقيم أثناء غيابه ، ولم يوجه وزير الدولة اعتراضا قويا على هذا الترتيب الذي يفصل تماما العمل في المستعمرة عن ذلك العمل الخاص بالمحمية • وأوضح الوزير عن رأيه في أن هذا الفصل يساعد حكومة الهند في تعيين الهيئة المختصة بالأعمال المدنية والبلدية لتميزها عن الامور السياسية وذلك بدون استشارة الحكومة البريطانية ، وأن الحكومة البريطانية تعين ضابطا للتعامل في شئون المحمية دون استشارة حـــكومة الهند ، وأن هذا الترتيب يساعد كل حكومة في حسم أية مشكلات يمكن أن تبرز بخصوص ضباطها •• « ووزير الدولة للمستعمرات يعرف أن حكومة الهند قد تعترض على هذا الاقتراح على أساس أنه اذا لم يقم المساعد الأول بواجبات لها الصبغة السياسية فلن يكتســـب الخبرة اللازمة له كي يحتل منصب المقيم ، ولكن وزير الدولة للمستعمرات يعتقد بأنه اعتراض يمكن الرد عليه بأنه طبقا للاقتراح فان المساعد الأول للمقيم يحل محل المقيم أثناء غيابه ، وهكذا يمكنه الحصـــــول على أية معلومات عن شـــئون المحمية » (٣٥) • وبذلك يكون وزير الدولة للمستعمرات قد أظهر تماما عدم موافقته على أن حاكم عدن يتم اختياره بالتبادل من خدمة المستعمرات وخدمة الهند • وقد رأت حكومة الهند لذلك أهمية فتح باب المناقشة من جديد بالنسبة لهذه المسالة (٣٦) •

ولا ننسى في هذا السياق أن مستشاري هيئة الخزانة البريطانية قد وافقوا على التنظيم المقترح بالنسبة لتحويل عدن الى قاعدة جوية بشرط أن لا تتخطى المشاركة البريطانية المالية المخصصات المحددة لذلك ، وذلك اذا ماوزعت الواجبات الادارية والسياسية الى عدة أقسام بين كل مساعدي المقيم • كما طلب المستشارون « تقريرا يوضح التقسيم المقترح للتكاليف الكلية لهيئة الاقامة للخدمة البريطانية والهندية » (٣٧) •

وعلى أية حال فان وزير الدولة للهند ـ بعد مشـــاورات مع حكومة الهند ـ اقترح على وزارة المستعمرات أن يتفرغ المســـاعد الأول للمقيم للشئون المدنية وأن لا يتحمل أية مسئولية سياسية ، على أن يقوم بمراجعة كل الملفات السياسية بعد انتهاء العمل فيها ، « وكقاعدة يستلم نسخا من هذه الملفات السياسية » • وأبدى وزير الدولة للهند موافقتـــه « على أن سكرتير المحمية سوف يتم اختياره باستمرار من خدمة المستعمرات ، وكاجراء تنظيمي فان واجبات المساعد الأول للمقيم عند تغيبه يقوم بها المساعد الثالث وليس سكرتير المحمية ، وأنه في حالة تغيب المقيم والمساعد الأول ـ وهـذا بعيد الاحتمال ، فان المساعد الثـــاني وسكرتير المحمية يعمـــل كمقيم يعمل كمقيم بالنيابة » (٣٨) • وقد وافقت المستعمرات على مقترحات وزارة الهند السابق ذكرها (٣٩) •

ومن ناحية أخرى قام وزير الدولة للمستعمرات بابلاغ المقيم في عدن بالترتيبات الجديدة بالنســـبة لاختصاصات المساعدين الأول والثـــاني للمقيم (٤٠) • وأن المساعد الثـــاني للمقيم يمكنه الاطلاع على الأوراق الخاصة بشئون المحمية عن طريق المساعد الأول « ••• على أن يكون مفهوما أن المساعد الثاني أمام المقيم مباشرة وليس أمام المساعد الأول » (٤١) ، كما أبلغه أيضا بأن ادارات معينة في عـــدن كالبريد والطرق ستظل تحت اشراف ادارات مركزية في الهند (٤٢) •

الا أن هذه الترتيبات العسكرية والادارية لا شك أنهـــا ستتطلب اجراءات مالية وتنسيقا ماليا بين حكومتي بريطانيا والهند لمواجهة هـذه التغييرات •

الترتيبات المالية :

أرسلت وزارة المستعمرات الى هيئة الخزانة البريطانية تقريرا يوضح حصة كل من الاعتمادات البريطانية والهندية في الانفاق على عـدن في العام المالي ١٩٢٧/١٩٢٨ والتي صنعت « أعمال سياسية » في تقديرات عدن ، والحصة لنفس الانفاق في سـنوات تالية • وقد أبرزت وزارة المستعمرات موافقتها على المقترحات التي قدمتها حكومة الهند بالنسبة لهذه المسألة •

وأضافت وزارة المستعمرات أنه «مادام مستشارو الخزانة البريطانية يعلمون أنه قد تقرر مؤخرا أن الواجبات التي يتفرغ لها المساعد الأول للمقيم هي كلها مدنية ، وأن المساعد الثاني للمقيم وسكرتير المحمية سوف يخصص للأعمال السياسية فقط ، وأن مرتب المساعد الأول هو من مسئولية حكومة الهند ومرتب المساعد الثاني كله هو من مسئولية الحكومة البريطانية ، فان حكومة الهند تطلب اعتمادا ماليا خاصا نتيجة لهذا القرار للسنوات القادمة » . وكذلك فان مبلغ الـ ٨٦٫٠٠٠ ريال (دولار) الواردة في (المعاشات المحلية والسياسية لتقديرات عام ١٩٢٧/١٩٢٨) تتطلب اعتمادات أيضا . وأن المبلغ المسئولة عنه المالية البريطانية هو ٧٩٫٥٠٠ ريال منها ٢٦٫٤٠٠ ريال تدفع سنويا لسلطان العبدلي طبقا لاتفاق شراء الشيخ عثمان منه والتي هي الآن ملحقة بالهند (٤٣) . وكانت حكومة الهند قد عقدت معاهدة مع سلطان العبدلي في ٦ فبراير ١٨٨٢ وافق السلطان بمقتضاها على بيع ٣٥ ميلا مربعا من الأرض الملاصقة للشيخ عثمان بين الحسوة والعماء وكذلك ملاحات الشيخ عثمان والقناة التي بينها وبين عدن (٤٤) وذلك في مقابل أن يستلم السلطان ٢٥٫٠٠٠ ريال هدا الراتب الشهري المعتاد أي ٥٤١ ريالا و ١١٠٠ ريال شهريا منها ٦٠٠ ريال من أجل الميـــاه و ٥٠٠ ريال ثمن الملاحات (٤٥) وبصفة عامة فان المبلغ الصافي المسئولة عنه المالية البريطانية هو ٧٩٫٥٠٠ ريال ينقص منها ٢٦٫٤٠٠ ريال .

وقد استفسر وزير الدولة للمســـتعمرات عن بعض النقاط وهي تختص بالآتي :

١ ــ موقف مساعد المقيم في بريم .

٢ ــ كيفية الدفع للفروع العربية والسرية .

٣ ــ مرتبات الجنود .

٤ ــ بدل السفر للضباط السياسيين .

٥ ــ بدل السفر لدار الاقامة والخزينة .

٦ ــ امتياز المرور للاقامة والخزينة .

٧ ــ ايجار السكن لمكتب المخابرات .

٨ ــ اعتمادات الطوارىء .

كما أوضحت وزارة المستعمرات لمستشاري الخزانة البريطـــانية أن مقترحات حكومة الهند والاعتمادات السابق بيانها قد تمت مناقشتها بطريقة شبه رسمية مع ممثلين من وزارة الهند والخزانة ، وأن التقارير
(مرفقة في نهاية البحث) هي في غاية الأهمية بالنسبة للمسألة كلها ويوضح الجدول الأمور المسئولة عنها حكومة الهند ، أما الجدول فيوضح الأمور المسئولة عنها الحكومة البريطانية ، أما الجدول فيوضح الأمور المشتركة بين الحكومتين طبقا لمقترحات حكومة الهند واضاف وزير الدولة للمستعمرات أن مستشاري هيئة الخزانة البريطانية « ... سوف يستخلصون من الجدول أنه من الضروري مراجعته بعد استلام معلومات أكثر بالنسبة للبنود الواردة به ، وأنه من مجموع الانفاق ٢٥٩ر٤٤٩ ريالا مبلغ ١٨٧ر٥١٣ ريالا أو نحو ٧٢٪ من المجموع الكلي يقع على كاهل حكومة الهند ، والباقي وهو ٧١ر٩٣٦ ريالا أو نحو ٢٨٪ من المجموع الكلي يقع على كاهل الحكومة البريطانية .. ويعتقد وزير الدولة للمستعمرات أن الانفاق العـــام في الجدول C يجب أن يقسم بين حكومتي الهند وبريطانيا بنسبة ٧ : ٣ وليس ٢ : ١ كما تريد حكومة الهند » .

واستفسر وزير الدولة للمستعمرات عن وجهـــات نظر مستشاري الخزانة بالنسبة لهذه المسائل مع الأخذ في الاعتبار أن هذا الترتيب ســوف يستمر لفترة ثلاثة أعوام اعتبارا من أول أبريل سنة ١٩٢٨ . وأنه يمكن فقط احـــداث تعديلات في نهاية هـــذه الفترة . كما طلب وزير الدولة للمستعمرات أيضا موافقة مستشاري هيئة الخزانة البريطانية على أن حكومة الهند هي السلطة الوحيدة التي يقع على كاهلها الانفاق في الجـــدول C أثناء الفترة التي يغطيها هذا الترتيب مع التحفظات الآتية :

١ ـ لا يدخل تعديل على مخصصات ورواتب المقيم ومعاونيـه دون موافقة مسبقة من وزير الدولة للمستعمرات .

٢ ـ لا تزيد حكومة الهند في الانفاق من أكثر من ٢٠٪ من كل مجموع الانفاق في الجدول C دون الرجوع المسبق الى وزير الدولة للمستعمرات .

واخيرا طلب وزير الدولة للمستعمرات وجهات نظر مستشاري هيئة الخزانة البريطانية بالنسبة لاعتمادات الانفاق في عام ١٩٢٧/١٩٢٨ واعتماد هذا الانفاق في السنوات الثلاثة التالية اعتبارا من أول أبريل سنة ١٩٢٨ .

وقد وافقت هيئة الخزانة البريطـــانية على مقترحات وزير الدولة للمستعمرات السابق بيانها ، وعلى التقسيم المقترح للانفاق بين الحكومتين الهندية والبريطانية طبقا للجداول A,B,C. وان كانت قد أوضحت أنه بالنسبة للاقتراح الخاص بتقسيم الانفاق في الجدول C بين حكومتي الهند وبريطانيا بنسبة ٧ : ٣ بدلا من النسبة الحقيقية وهي ٧٢٪ الى ٢٨٪ ، فانه أسهل من ناحية العمل المالي جعل النســبة ٨ : ٣ أو ٣ : ١ · كما أوضحت هيئة الخزانة البريطانية أنه من خبرتها المالية « فانه يبدو من غير الممكن ممارسة الامور المالية بطريقة حدية ، وأنه من المعقول اضافة ١٠٪ الى المجموع النهائي لعام ١٩٢٩ (٤٧) · وقد أبلغت وزارة المستعمرات وزارة الهند بفحوى وجهات نظر هيئة الخزانة البريطانية ، وبصفة خاصة بالنسبة المئوية المقترحة للزيادة ، وكذلك اضافة ١٠٪ لمواجهـــة الطوارىء في الانفــاق » (٤٨) ·

الا أن حكومة الهنـــد أثارت بعض المشكلات الماليــة التفصيلية ، « فارسال ضباط من الخدمة الهندية للخدمة في عدن يثير بعض التعقيدات أمام الانفاق المالي وذلك بالنسبة للعلاوات وحقوق السفر ، وأن التقسيم الحدي لنفقات السفر الفعلية سيكون أمرا بالغ الصـــعوبة » ·· وذلك بالنسبة للتقسيمات المختلفة للاسهام بين حكومتي الهند وبريطانيا ، بينما المبدأ السائد هو ربط اعتمادات الانفاق بين حكومة الهند ووزارة الخارجية ، وأنه في هذه الحالة فانه يجب تخصيص « بدل خاص » لنفقات السفر ، كما أوضحت وزارة الهند أن علاوة شهرية ثابتة من خمسين ريالا قد خصصت حديثا من حكومة الهند لتغطية مسئوليات الموظفين في الخدمة الهندية (٤٩) ·

أما حكومة بومباي فقد انحصرت وجهات نظرها بالنسبة لعمليـــات الانفاق في عدن في :

(أ) مسألة دفع ٢٦٫٤٠٠ ريال سنويا لسلطان العبدلي ·

(ب) حدود الخدمات السياسية الواردة في الجدول C .

(جـ) المنحة التي تدفعها وزارة المستعمرات لرعاية العمال الهنود ·

وبالنسبة للنقطة الأولى ، فان وجهة نظر حكومة بومباي تلخصت في أن مبلغ ٢٦٫٤٠٠ ريال الذي يدفع سنويا لسلطان لحج كتعويض عن تنازله

عن حقوق الماء والملح في الشيخ عثمان طبقا لاتفاق ١٨٨٢ ، وأنه على الرغم من أن هذا المبلغ « يقدم حتى الآن في الميزانية في الجـــدول ٤٤ الخاص بالماشات المحلية والسياسية ، فان الانفاق يستهدف فائدة الادارة المدنية ، وأنه من رأي المقيم والقائد العام في عدن أن البند كله يجب أن يكون من مسئولية الخزانة المدنية » ٠

أما بالنسبة للنقطة (ب) فتجدر مراجعـــة الجدول × (المرفق) وأن الحكومة بالهند أبلغت بالجزء الذي تشارك به في مرتب مساعد المقيم في بريم وهو ١/٤ سياسي و ٣/٤ مدني ٠ وقبل مناقشة مسالة المسئولية كما جاءت في الجدول C والذي أعده المحاسب العام لحكومة بومباي مع الجدولين A و B (وكلاهما يسجل المصروفات في عام ١٩٢٨/١٩٢٧ وهما أعـدا على نفس الخطوط كالجداول C و B و A الصادرة عن وزارة المستعمرات وهما من ملاحق البحث) ، وقد تعرض تقدير المحاسب العام لحكومة بومباي لبعض التفصيلات التي جاءت في التقرير A الذي يسجل بيانات الانفـــاق كله الواقع على مالية الهند ، فالمحاسب العام قد ضمن الجدول مبلغ ٢٠٠ر١٢ ريال هي عبارة عن منحة للمعاهد الطبية وبعض بدلات السفر وأغراض أخرى ٠
وبالمثل فان الأرقام المسجلة في جدول للمحاسب العام والواقع كله على

مسئولية الحكومة البريطانية لا يحتاج الى تعليق سوى أن مبلغ ٤٠٧ر١٥٢ ريالا للمخابرات تضم ٠٠٠ر١٥٠ ريالا دفعت لسلطان لحج بتعليمات من المحاسب العام لوزارة الهند ، كما أن مبلغ ٢٩٦ر١٨٤ ريال الموضـــح في الجدول C من تقرير المحاسب العام يتضمن :
(أ) ٦٢٠ر١٤ ريالا للمشاركة السياسية في تأجير السفينة ٠
Messrs Cowasji Dinshaw Brother's Ship

(ب) ٦٩٤ر١٢٨ ريالا للمشاركة السياسية في الانفاق على محطة الســـفن Cornwallis من أبريل الى أكتوبر ، وهذا الانفاق لم يأت في تقديرات عام ١٩٢٨/١٩٢٧ ٠

أما بالنسبة للنقطة الرئيسية بخصوص المسئولية تجاه العمال الهنود المتعاقدين فيوضح المحاسب العام لحكومة بومبـــاي أن الأرقام الواردة في العمود ٦ من التقرير C للمحاسب العام للهند توضح المســـئولية الكاملة لحكومة الهند بالنسبة لهذه المسالة في عام ١٩٢٨/١٩٢٧ ٠ « وحكومة الوطن غير مستعدة للموافقة على نسبة ٢ : ١ بخصوص تقسيم الانفاق ، ووزارة المستعمرات اقترحت ٧ : ٣ والخزانة العامة تفضـــل ٨ : ٣ أو ٩ : ٣

والتقرير ٧ (المرفق) يوضح أن قسمة الانفاق هي تقريبـــا ١٥٣ : ٦٤ أو نحو ٥ : ٢ وهذه النسبة هي على أساس عام واحد هو ١٩٢٧/١٩٢٨ ، وحكومة بومباي لا ترى أساسا أفضل للتقسيم يمكن التوصل اليه » (٥٠) ٠

أما المقيم في عدن فقد ألح في وجوب تكفل حكومة الهند بدفع ١٥٠٠٠٠ر ريال كانت قد دفعت لسلطان لحج وقد وافق وزير الدولة للهند على تحمل عبء مشاهرة سلطان لحج نيابة ع نالمالية الهندية (٥١) ٠

وعلى أية حال فان وزارة المستعمرات لم توافق على دفع ١٤٣٣١٤ر ريالا قيمة ايجار القوارب ووافقت على دفع ١٥٠٠٠٠ر ريال لســلطان لحج ٠

وقد اشتكت وزارة المستعمرات من تأخر وصول الحسابات السنوية ، وأن « هناك سوء تقدير ناجم عن استلام التقارير قبل بضعة أيام من حلول اليوم المحدد لاغلاق حسابات الوزارة ، وأنه من المرغوب فيه ارسال تقرير مفصل عن الانفاق في عدن في نهاية كل ثلاثة أشهر حتى يمكن التوصل الى التقدير السليم للميزانية المطلوبة » (٥٢) ٠

وفي النهاية ، وبعد اتصالات ومراسلات عديدة بين وزارة المستعمرات وهيئة الخزانة البريطانية ووزارة الهند وحكومة الهند ، وافق وزير الدولة للهند على أن بدلات السفر والهبات والهدايا للسلاطين تؤدى للمقيم على أن تشترك فيها مناصفة الحكومتان الهندية والبريطانية ، وأن تتحمـــل كل حكومة مسئوليتها في الانفاق على الضباط التابعين لها (٥٣) ٠ كما طلبت وزارة الدولة للمستعمرات من هيئـــة الخزانة البريطانيـــة الموافقة على الجدول ٠ C (٥٤) الخاص بالانفاق المشترك للحكومتين الهندية والبريطانية في عدن ، وقد وافقت هيئة الخزانة على هذا الطلب (٥٥) ٠

الترتيبات القضائية :

ان السلطة القضائية التي مارستها الحكومة البريطانيـــة في محمية عدن هي عن طريق الحاكم العام للهند ٠ وهذه السلطة لم تتخـــذ شكلا محددا ، فحكومة الهند لم ترغب في اقحام نفسها بأي شكل من الأشكال ، ولم

ترد تحمل مسئوليات التدخل في شئون رؤساء القبائل لايقاف ممارستهم معاقبة رجالهم الذين يقترفون الجرائم · ورغم ذلك فان حكومة الهند رأت أنه من المستحسن أن يقوم ضباط سياسيون في محمية عدن بدور السلطة القضائية ، وذلك لمنح اجراءاتهم سلطة حكومة الهند · وقد أوضحت الخبرة مزايا الضباط السياسيين العسكريين الذين يتمتعون بسلطات يستطيعون استخدامها ببعض الحذر (٥٦) ·

أما شروط الممارسة القضائية ، فقد جاءت في دليل أصدره الحاكم العام للهند في أول فبراير سنة ١٩٠٧ (٥٧) والمقطع الأول من الجزء الثاني من هذا الدليل ينص على « أن مساعد المقيم في عدن بالموافقة الكتابية من المقيم السياسي في نفس الوقت يمارس كل السلطات المخولة للمستشارين الاقليميين وقضاة المحاكم كما جاءت في دليل الاجرام لسنة ١٨٩٨ ، وكذلك سلطات نواب المستشارين أو قضاة المحاكم طبقا لقانون جرائم القتل على الحدود لسنة ١٩٠١ » وهكذا فان المقيم السياسي ومساعديه في عدن قد تم تعيينهم قضاة في محمية عدن ·

الا أن الدليل أوضح أيضا أنه في حالة ما اذا كان المتهم أو المتهمين ليسوا رعايا بريطانيين ، فان المحكمة تعتبر أنه كافيا لأسباب سياسية أن تتلكأ في ممارسة السلطة المشار اليها أو تخول المحكمة الحق في ذلك ، بل ان حكومة الهند أوصت المقيم ومساعده القضائي برفض ممارسة تلك السلطات في حالة ما اذا كان كلا من الخصمين ليسا رعية بريطانية ، الا اذا كان الأمر لا يمكن حسمه بالتقاليد المحلية أو القبلية (٥٨) ، وواضح أن البند الوحيد في المعاهدات مع قبائل المحمية بالنسبة لممارسة السلطة القضائية في المحمية جاء في المادة الثالثة من المعاهدة مع قبيلة العبدلي في عام ١٨٤٩ (٥٩) والتي توضح أنه تقدم للمحاكمة في عدن الحالات التي تختص بالرعايا البريطانيين (٦٠) ·

وطبقا لقرار الحكومة البريطانية الخاص بتحويل عدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، استفسر وزير الدولة للهند من المقيم عن الوضع الجديد عن امكانية القاء مهمة السلطة القضائية على عاتق سكرتير المحمية بصفته المساعد الثاني للمقيم ، ويكون أيضا قاضي المحمية ، وهذا بطبيعة الحال اعتمادا على ماجاء في التشريعات البريطانية لماكفرسون وطبقا للمقطع الأول من القانون الذي ينص على أن المساعد الثاني للمقيم « يستطيع

بالموافقة الكتابية للمقيم أن يمارس سلطات المستشارين الاقليميين وقضاة المحاكم » (٦١) ٠

وقد وافق المقيم على وجهات نظر وزير الدولة للهند ، الا أنه اقترح رفع المسألة الى حكومة بومباي التي يتبع لها هذا المقيم (٦٢) ٠

ولكن ما هو الوضع القانوني في المحميات الواقعة في جنوب اليمن في ذلك الوقت ؟ ٠٠ يمكن القول بصفة عامة أن التاج البريطاني كان يتمسك بالسلطة القضائية على الرعايا البريطانيين ، وفي بعض الحالات على الأجانب بمقتضى معاهدة أو امتياز أو اية وسائل قانونية أخرى ٠ ويمكن الاشارة الى ما جاء في قانون السلطة القضائية على الأجانب الصادر في عام ١٨٩٠ (المادتان ٥٣ ، ٥٤ ٠ 37 ٠ C) من أن « السلطة القضائية على الأجانب لا تمارس بواسطة التاج حتى في المحميات البريطانية دون موافقة الأجنبي وحكومته ٠ وهذا المبدأ مبني على نظرية أن السلطة القضائية هي مفوضة من حكومة المنطقة التي تمارس فيهـــا ٠ وفي مؤتمر برلين ١٨٨٤/٨٥ لم تذعن ــ بريطانيا ــ لوجهات النظر العامة للدول الاوربية الاخرى بالنسبة لسلطة قضائية غير محدودة على الرعايا الأجانب ٠ الا أنه بالموافقة على القانون العام لمؤتمر بروكسل سنة ١٨٩٠ بالنسبة للمحميات الافريقية ، فان انجلترا وافقت على مد السلطة القضائية على الأجانب بالنسبة لافريقيا على الأقل » ٠

ومن الواضح أنه طبقا للمادة الثالثة من المعاهدة التي عقـــدت مع قبيلة العبدلي ، فانه تقدم للمحاكم في عدن قضايا المحمية المتهم فيها رعايا بريطانيون ، وأهم المواد في القـــانون الخاص بالسلطة القضـــائية على الأجانب هي :

١ ــ السلطة في ارسال الأشخاص المتهمين بالاعتـــداء على الممتلكات البريطانية الى المحاكم ٠

٢ ــ شروط خاصة بالنسبة لمكان العقاب للمتهمين الذين تثبت ادانتهم ٠

٣ ــ حدود السلطة القضائية للمحاكم البريطانية ، وهناك قرار صدر في عام ١٩٠٢ يسمى القانون الهندي وأهم مواده المقطع الثاني الذي ينص على ان « حدود هذا القانون هي الأراضي التابعة للهند وخارج الهند البريطانية والأراضي الاخرى التي يحددها صاحب الجلالة كأراض تمتد عليها السلطة القضائية لجلالته عن طريق الحاكم العام للهند » ٠

أما المقطع الثالث فينص على أن « التعليمات قد صدرت الى الحاكم العام كي يمارس السلطة القضائية التي يملكها صاحب الجلالة ، وأن يفوض لمن شاء هذه السلطة القضائية » ٠

وينص المقطع الرابع على أن « الحاكم العام صدرت اليه التعليمات لاعداد قواعد وأوامر خاصة بالآتي :

١ ــ ملاحظة التمسك بالقانون والاجراءات ٠

٢ ــ تحديد الأشخاص الذين يمارسون السلطة القضائية ٠

٣ ــ تحديد المحاكم في الهند البريطــــانية والتي تمارس السلطة القضائية ٠

٤ ــ تنظيم طريقة دفع الرسوم » ٠

أما القوانين التي كانت سائدة في محمية عدن فهي :

١ ــ الدليل الهندي الجنائي الصادر في عام ١٨٦٠ ٠

٢ ــ الدليل الهندي للاجراءات الجنائية الصادر في عام ١٨٩٨ ٠

٣ ــ قانون جرائم واغارات الحدود الصادر في عام ١٩٠١ ٠

٤ ــ قانون أسلحة (التهريب البحري) الصادر في عام ١٩١٠ ٠

٥ ــ أوامر معينة في قانون الجمارك البحرية ٠

وبالنسبة لتحويل عدن الى قاعدة جوية ، فان المقيم السياسي أورى بأنه لايرى داعيا لتغيير الأوضاع القضــــائية ٠ ويمكن للمقيم السياسي والمساعد الأول للمقيم أن يمارسا ســــلطات المستشارين القضائيين داخل المحمية ، « والمقيم السياسي نفسه وكل مساعديه هم قضاة ، وهذا يعني أنهم يستطيعون ممارسة سلطات مستشاري الطبقة الاولى بالنســـبة لأوامر القبض على المتهمين » ٠ كما كان من رأي المقيم أن الأوربيين المتهمين بصفة فردية أو جماعية مع آخرين بجريمة عقوبتها الاعدام ، فانه يجب تحويلهم الى المحكمة العليا ببومباي ٠ كما أنه طبقا للقسم ١٨٨ من دليل الاجراءات الجنائية فانه « عندما يقدم هندي رعية بريطانية بجريمة في أي مكان خارج

أو داخل حدود الهند البريطانية ، فانه يحاكم بخصوص هذه الجريمة كما أنه اقترفها في أي مكان داخل الهند البريطانية » ·

وأنهى المقيم آراءه باقتراح أن سكرتير المحمية بوصفه المساعد الثاني للمقيم يمكن تعيينه قاضيا للمحمية · وقد وافقت كل الأطراف على هذه المقترحات (٦٣) ·

الترتيبات الخاصة بالمخابرات :

بمناسبة تحويل عدن الى قاعدة جوية ، تم تعيين الملازم الطيار ريكاردز Rickards ضابط المخابرات ممثلا لمخابرات القوات الجوية في (المكتب) ، وهو لذلك يطلع على كل تقارير المخابرات ويبلغ المقيم السياسي مباشرة بكل المناطق التي تطلب قيادة القوات الجوية في عدن معلومات خاصة عنها ·

ومن رأي المقيم أن (المكتب) « يعمل بكفاءة عالية ، الا أنه اذا أرادت القوات الجوية أن تبدأ في أي وقت تنظيما للمخابرات خاصا بها فانها تستطيع ذلك » (٦٤) ·

ولكن هل كان هناك داع لذلك ؟ ·· ان تنظيم المخابرات المحلي هو تحت ادارة المساعد الأول للمقيم والمسئول أمام المقيم عن كفاءة هذا التنظيم · والسبب في هذا هو أن السلطات السياسية في عدن تملك أهم عوامل نجاح عمل المخابرات ·· هيئة ملائمة وتحويل ملائم وممثلين سريين من وزارة المستعمرات والحكومة الهندية » · والمساعد الأول للمقيم هو على اتصال مستمر مع شيوخ المحمية ، وهؤلاء الشيوخ مسئولون عن تقديم المعلومات له · كما أن المساعد الأول للمقيم هو على اتصال باليمن · أما قيادة القوات الجوية فليس لديها في الوقت الحاضر لا تحويل للمخابرات ولا عملاء محليين مع حاجتها الماسة الى الحصول على مخابرات منتظمة ودقيقة » ·

وعلى أية حال ، فقد اتجهت الآراء الى عدم ضرورة تشكيل هيئة مخابرات محلية منفصلة خاصة بالقوات الجوية « لأن المنطقة المعنية هي

قبلية وقواتها التقليدية التي قد تكون معـــادية لنا لا تتطلب ادارة خاصة توظف أنواعا مختلفة من العملاء ، وقد يكون هـذا مطلوبا بالضرورة اذا ما تعاملنا مع أعداء متحضرين ، وأنه لمن المستحيل أيضا في هذه المناطق وضع خط حدي بين المخابرات الحربية والسياسية ، فالاتجاه العام لقبيلة معينة ، وعدد المدافع اللازمة في الميدان ، وعلاقاتنا بالزيديين (اليمنيين) هي كلها أمور خاضعة للأهمية السياسية والحربية أيضا » ٠

وأن انشاء مكتب منفصل لمخابرات القوات الجوية له أيضا مشكلاته ، فهناك الانفاق المضاف لهيئة المكتب الجديد ، مع الابقـــاء على المخابرات السياسية ، وهكذا تقوم هناك ادارتان تعملان في منطقة واحدة ، مما يؤدي الى التداخل في الأعمال المختلفة ، وكذلك الى منافسة غير صحية بين الممثلين السياسيين والعسكريين ، الذين بدلا من أن يركزوا أعمالهم في الحصول على المعلومات ، فانهم سوف يضيعون جزءا كبيرا من أوقاتهم في الدس لبعضهم البعض ٠ وبالنسبة لليمن ، فان تخصيص ممثل موثوق به في أي مركز هو نوع من الترف ، وتخصيص اثنين أحدهما سياسي والآخر عســكري سوف يزيد من صعوبات العمل ٠

وكان من رأي المقيم السياسي في عدن أنه يمكن أن يقوم المساعد الأول للمقيم بالاشراف على المخابرات العسكرية والسياسية ، وأن رئاسة القوات الجوية يمكن أن تكون ممثلة في (المكتب) ببعض الضـــباط الذين ينحصر عملهم في معاونة المساعد الأول للمقيم في النواحي العسكرية ٠

كما أوضح المقيم أن نظام (المكتب) قد أثبت نجاحه ، « وأنه أثناء العداوة الحديثة مع الامام ، فان المكتب أرسل نسخا من تقارير المخابرات الى قيادة القوات الجوية ، وأنا أتصور أن نظاما على الخطوط السابقة يمكن أن يحقق أفضل النتائج » ٠ وقد وافقت الأجهزة المختلفة على هذه الآراء ، الا أنها أضافت أنه من حق قيادة القوات الجوية في وقت لاحق أن تنظم هيئة مخابرات خاصة بها (٦٥) ٠

وعلى أية حال ، فقد استقرت الجهات المعنية على السير على أسس التغيير السابق بيانها تطبيقا لقرار الوزراء البريطاني بتحـــويل عدن من قاعدة بحرية الى قاعدة جوية ، الا أنه مع عام ١٩٣٧ تتحول عدن الى التبعية المباشرة لوزارة المستعمرات (٦٦) وتبدأ بذلك تغييرات أخرى في كل المجالات ٠

المصـــــادر

1. Gillian King - Imperial outpost Aden. Its place in British Strategic policy. Issued under the auspices of the Royal Institute of International Affairs. Oxford University press - London - New York - Tornto. 1964 p. 46

2. Richard Sanger - The Arabian Peninsula. New York, Cornell University press. 1954 p. 204

3. Playfair R. L. - A History of Arabia Felix or Yemen, form the commencement of the christian era to the present time, including an account of the British settlement of Aden. Bombay Education Society's press, 1859 p. 164

4. India Office Library (I. O. L.) - India Board - Indian Papers F. 23 Correspondence Relating to Aden (1836 - 1839) No. 16. Minute by The Governer of Bombay. Sept. 23, 1837.

٥ ـ امين الريحاني ـ ملوك العرب او رحلة في البلاد العربية جـ١ ـ بيروت ـ المطبعة العلمية ١٩٢٥ ص ٣٨١ .

6. Harold Ingrams - The Yemen. Imams, Rulers and Revolution. London, Camelot Press 1963. p. 58

٧ ـ امين الريحاني ـ المصدر السابق ص ٣٨٢ .

8. Harold Ingrams - op. cit. p. 53

9. Harold Jacob - Kings of Arabia. London, Mills and Boon. 1923. p. 252

10. I. O. L. Political and Secret Department (L/P and S/18) B. 158. Notes by sir W. Lee and sir Hugh Barnes on Goverment of India's letter No. 119, dated August 9, 1906 (vol. No. 1455/06) Sept. 9, 1906.

11. Gillian King - op. cit. p. 46

12. I. O. L. Political and secret. Department Middle East No. 22 Confidential. Papers Relating To The New Arrangements for the Government of Aden, and Relations with the Aden Protectorate. Part 3 Correspondence (March, 1927 - Feb 1930) C. 69330/29 (No. 3) Bombay, Aden, 23th December, 1929 G. S. Symes Resident and Commander in Chief, Aden.

١٣ ـ امين الريحاني ـ المصدر السابق ص ٣٤٧ .

١٤ - قحطان محمد الشعبي - الاستعمار البريطاني ومعركتنا العربية في جنوب اليمن (عدن والامارات) القاهرة - دار النصر ١٩٦٢ ص ٦٩ .

١٥ - المصـــدر الســـابق ص ٨٣ .

16. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. No. 27.

17. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59264/28 (No. 3) No. 28 Draft announcement for communication to the press. (Reseived in Colonial Office 12th January 1928).

18. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59264/28 (No. 17) No. 29 Colonial Office to Air Ministry. Walter D. Ellis. Downing Street, 21 st January, 1928.

19. I. O. L. P. and S. D. Middle No. 22 op. cit. C. 59282/28 (No. 9) No. 30 Colonial Office to Air Ministry. J. E. Shuckburgh, Downing Street 12th March, 1928 .

20. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59282/28 (No. 13) No. 31 Air Ministry to Colonial Office. London W. C. 2 13th March, 1928.

21. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. No. 30.

22. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59282/28 (No. 19) No. 33 Air Ministry to Colonial Office. London W. C. 2, 22nd March, 1928.

23. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59282/28 (No. 16) No. 34 Colonial Office to Air Ministry. Downing Street, 24th March, 1928.

24. I. O. L. P. and Secret Department Middle East No. 22 op. cit. C. 59282/28 (No. 20) No. 35 Colonial Office to Air Ministry. Downing Street, 16th April, 1928.

25. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59259/28 (No. 133) No. 36 Air Ministry to Colonial Office. Air Ministry, Kingsway, W. C. 2 12st December, 1928.

26. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 59259/28 No 133 Enclosure in No. 36 B. E. Holloway The Under - Secretary of State. India Office, London S. W. I. 20th December, 1928.

27. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit. C. 48041/27 (No. 47) No. 24 India Office to Colonial Office. India Office London S. W. I. 3rd November. 1927.

28. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (No. 48) No. 25 Colonial Office to India Office, 15th November, 1927.

29. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (No. 17) No. 21 The Secretary of State to the Resident L. S. Amery. Downing Street, 17th March, 1927.

30. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (Nos. 31, 32) No. 22 Colonial Office to (1) India Office (2) War Office. Downing Street, 6th May, 1927.

31. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (Nos. 41 and 42) No. 23 Colonial Office to (1) India Office (2) War Office 25th July, 1927.

32. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (Nos. 31 and 32) No. op. cit.

33. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 48041/27 (No. 53) No. 26 India Office to Colonial Office. 17th November, 1927.

34. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59264/28 (No. 24) No. 37 India Office to Colonial Office 23rd January, 1928.

35. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (Nos. 7 and 8) No. 38 Colonial Office to (India Office) (Treasury) 3 rd February, 1928.

36. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 16) No. 39 India Office to Colonial Office, 10th February, 1928.

37. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 66) 40 Treasury to Colonial Office. 7th March, 1928.

38. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No.68) No. 41 India Office to Colonial Office 7 th April, 1928.

39. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 71) No. 42 Colonial Office to ndia Office, 28th April, 1928.

40. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 115) No. 45 The Secretary Of State to The Resident, 31st August, 1928.

41. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 28) No. 47 The Secretary of State to the Resident, 14th December, 1928.

42. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59270/28 (No. 115) No. 45 op. cit.

43. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 13) No. 48 Colonial Office to Treasury, 27th June 1928.

44. C. U. Aitchison - A Collection of Treaties, Engagements and Sanads Relating to India and Neighbouring Countries. Calcutta. Office of the Superintendent of Government Printing, India 1892 vol. XI p. 94

45. Ibid p. 139

46. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 13) No. 48 op. cit.

47. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No.22) No. 49 Treasury to Colonial Office. Treasury Chambers, 26th July, 1928.

48. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 23) No. 50 Colonial Office to India Office, 9th August, 1928.

49. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 38) No. 51 India Office to Colonial Office, 23rd November, 1928.

50. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No.34) Enclosure in No. 52 Conf. J. R. Martin Chief Secretary to the Government of Bombay to The Secretary - India Office, London. Bombay Castle, 10th November 1928.

51. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 34) Enclosure in No. Conf. G. S. Symes Resident and Commander in Chief - Aden To The Chief Secretary to Government, Political Department, Bombay. Aden 8 th Sept., 1928.

52. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59274/28 (No. 34) Enclosure in No. 52 Conf. Chief Secretary to The Government of Bombay to The foreign Secretary to the Government of India, Foreign and Political Dep. Bombay Castle, 10th November, 1928.

53. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 69274/29 (No. 48) No. 57 India Office to Coloial Office. 11th Sept., 1929.

54. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 C. 69274/29 (No. 50) No. 58 Colonial Office to Treasury. 9th October, 1929.

55. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 C. 69274/29 (No. 55) No. 59 Treasury to Colonial Office, 26th November, 1929.

56. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59288/28 (No. 6) No. 60 The Secretary of State - Colonial Office to The Acting Resident, Aden 29th September, 1928.

57. Nacpherson : British

انظر

Enactments. Volume IV. No. 368
F. B. Pages 400 - 402.

58. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59288/28 (No. 6) No. 60 op. cit.

59. Hunter - op. cit. p. 160

60. C. U. Aitchison - op. cit. p. 131

61. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59288/28 (No. 6) No. 60 op. cit.

62. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59288/28 (No. 8) No. 61 The Resident to The Secretary of Stare. Aden, 6th November, 1928.

63. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59288/28 (No. 8) Enclosure in No. 61 Note by J. T. Lawerence. Judicial Assistant Resident - Aden 4th November, 1928.

64. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59330/28 (No. 1) No. 62 The Acting Political Resident to The Secretary of State. Aden 12st June, 1928.

65. I. O. L. P. and S. D. Middle East No. 22 op. cit.
C. 59330/28 (No. 1) Enclosure in No. 62 Memorandum regarding Local Intelligence. T. C. W. Fowle Acting Political Resident, Aden to The Air Staff Officer. Headquarters British Forces, Aden. Residency Office, Aden, 31st May, 1928.

66. Gillian King - op. cit. p. 46

Enclosure in No. 48.

STATEMENT A.

Wholly Civil.

Item		Rs.	
2.	First Assistant Resident	24,000	Rs. 58,800
4.	Third Assistant Resident	10,800	
5.	Judicial Assistant	24,000	
6.	Registrar of the Court	5,400	
9.	Chairman, Port Trust and Aden Settlement	3900	
10.	Deputy Educational Inspector	5,566	
	Head Master	4,800	
	Lady Doctor	4,320	
13.A	Administration of Justice Establishment	14,163	
	Educational Department	22,170	
	Trade Registration Establishment	10,593	
	Civil Hospital Establishment	10,692	
	Military Telephone Establishment	7,420	
19.	Local allowance	660	
23.	Hospital charges	21,740	
24.	Grant-aid to School	25,278	
		195,502	
	Less contribution from Aden Settlement and Port Trust ...	10,000	
		185,502	
	Add Head 44 — Political Pension (Abdali Sultan)	26,400	
		211,902	

STATEMENT "B"

Wholly Political

Item		Rs.	Rs.
3.	Second Assistant Resident	13,333	
20.	Entertainment Charges	75,000	
22.	Secret Service	2,500	
		90,833	79,500
	Add Head 47 — Durbar Presents	70,036	Less 26,400
	44 — Political Pensions and stipends	53,100	
		213,969	53,100

Non-effective charges — Amount not yet ascertainable.

STATEMENT "ج"

Divisible Erpenditure.

Item		Rs.	Civil. Rs.	Political Rs.	
1.	Pay of Resident	36,000	18,000	18,000	½ Civil and ½ Political.
	Reservist	25,682	20,932	4,750	Divided in proportion to totals of Assistant Residents.
7.	A. D. C. to Resident	8,700	4,350	4,350	½ Civil and ½ Political.
8.	Assistant Resident, Perim	3,600	1,800	1,800	
10.	Civil Surgeon and fees	24,000	19,200	4.800	4/5ths Civil, 1/5th Political.
	Leave Salary	1,555	1,268	287	Divided in proportion to totals of Assistant Residents.
11.	Pay of Superintendent, Office Establishment	7,200	5,400	1,800	¾ Civil, ¼ Political.
12.	Pay of Cleks, Residency Office : Arabic and Confidential Branches	36,472	25,906	10,566	Represents pay of Arabic and Confidential Branches.
13A.	Treasury Office	13,260	12,882	378	1/35th Political.
	Leave Salary	18,496	16,184	2,312	Roughly 8/9ths Civil, 1/9th. Political.
14.	Fixed conveyance allowance to Officers	3.000	2,450	500	Divided in proportion to totals of Assistant Residents.
15.	Travelling allowance to Political Officers and Sumptuary allowance to Resident	11,000	7,080	3,920	Sumptuary allowance of Rs. 6,000 divided ½ Civil and ½ Political. Renlinder in proportion to totals of Assistant Residents.
16.	Travelling allowance to Residency and Treasury Establishment	8,840	5,894	2,946	Depends on final allocation of 12.
17.	Passage concession to Residency and Treasury Establishment	9,000	6,000	3,000	Ditto.
18.	House rent to Superintendent and Confidential Clerk	3,600	2,970	630	
21.	Contract Contingencies	49,044	37,197	11,847	
		259,449	187,513	71,936	

Civil = approx. 72 per cent.
Political = " 28 " "

Total amount of Divisible Expenditure approx. £ 19,500
For every 1 per cent. approx. £ 200 in involved.

STATEMENT "X"

Divisible Expenditure

Item	Rs.	Civil. Rs.	Political Rs.	
8. Assistant Resident, Perim	3,600	2,700	900	3/4 ths Civil and 1/4th Political
11. Pay of Superintendent, Residency Office	7,800	5,850	1,950	3/4 ths Civil and 1/4th Political
12. (a) Pay of Confidential Branch	5,100	1,275	3,825	1/4th Civil and 3/4ths Political
(b) Pay of Arabic Branch	6,936	—	6,936	Wholly Political
(c) Residency Office	23,724	23,724	—	
13. Pay of Treasury Establishment	13,947	13,549	398	1/35th Political, 34, 35 ths Civil
13. (a) Leave Salary	18,496	16,184	2,312	Roughly 7/8ths Civil and 1/8th Political
16. Travelling Allowance to Residency and Treasury Establishment	8,840	5,894	2,946	This is divided in the proportion of 2 Civil to 1 Political
17. Passage concession Residency and Treasury Establishment	5,000	3,333	1,667	2/3rds Civil and 1,3rd Political
18. House rent to Superintendent and Confidential Clerk	*3,600	3,105	†495	†3/4the of the rent of Confidential Clerk and 1/4th of the Superintendent
Contract Contingencies	49,044	37,197	11,847	No charge

(*) Please see paragraph 4 of Resident's letter dated the 9th July, 1927.

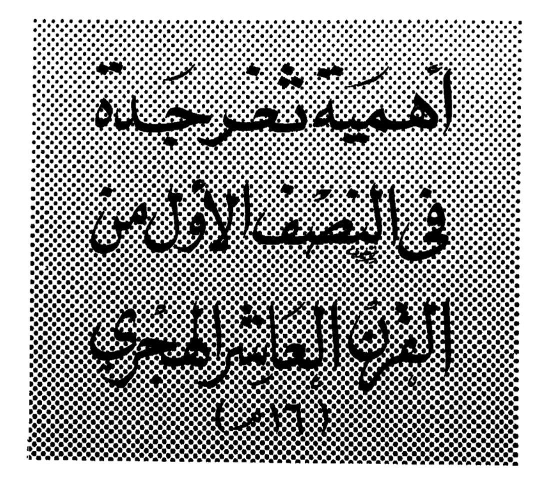
STATEMENT "Y"

Showing the ratio in which the divisible expenditure in 1927 - 28 to be shared

Itim.		Total crpenditure.	Civil	Political	Non-effective		Passage Contrribution
					Civil	Political	Civil
(1)	(2)	(3)	(4)	(5)	(6)	(7)	(8)
		Rs.	Rs.	Rs.	Rs.	Rs.	Rs.
1.	Pay of Resident	31,742	15,871	15,871	—	—	300
	Reservist	20,644	16,534	4,130	—	—	—
7.	Aide-de Camp to Resident	9,408	4,704	4,704	1,881	1,001	300
8.	Assistant Resident, Perim	3,526	2,644	882	1,058	35	450
10.	Civil Surgeon and Fees	21,063	16,851	4,212	6,740	1,685	—
11.	Pay of *Superintendent* Office Establishment	5,020	3,765	1,255	627	209	—
12.	Residency Office	22,326	22,326	—	—	—	—
	Arabic Branch	7,789	—	7,789	—	1,171	—
	Confidential Branch	3,318	830	2,488	138	514	—
13.	Treasury Office	12,988	12,617	371	1,972	58	—
	Leave Salary	7,524	6,584	946	—	—	—
15.	Travelling allowance and Sumptuary allowance to Resident ...	6,563	3,282	3,281			
16.	Travelling allowance to Residency and Treasury Establishment ...	485	323	162			
17.	Passage Concessions to Residency and Treasury Establishment ...	3,392	2,261	1,131			
18.	House Rent to Superintendent and Confidential Clerk	900	405	495			
21.	Contingencies	40,982	30,737	10,245			
	Total	1,97,690	1,39,734	57,956	12,416	5,771	1,050

Expenditure debitable to Civil Rs. 1,53,200 (Totals of Columes 4,6 and 8)

Expenditure debitable to Political Rs. 64,477 (Totals of Columns 5, 7 and 9) which brings the ratio 153 : 64 or roughly 5 : 2.



منذ أن اهتم المسلمون بانشاء ثغر جدة في عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان (١) وهو يكتسب مع مرور الزمن اهميـــة دينية واقتصادية واستراتيجية الى أن أصبح من أهم الثغـــور في الجزيرة العربية والبحر الأحمر ، وقد حظى بهذه المكانة لأنه ميناء أم القرى مكة المكرمة ، ومفتاحها الى البحر والعالم ، فاليه يصـــل حجيج بيت الله الحرام الذين يركبون البحر ، ومنـــه تزود الحجاز وقلب الجزيرة العربية بالمؤن والبضائع من شتى بقاع العالم ، وغدت لجدة اهمية تجارية على مر الأيام فاصبحت مركزا من مراكز تجارة العـــالم في العصور الوسطى تلتقي فيها السفن الآتية من الهند وشرق افريقيا بالسفن القادمة من مصر ، فكانت أغلب السفن تفرغ حمولتهـــا في جدة وتعود مسرعة الى الهند قبل فوات موسم الرياح ، ثم تقوم سفن أخرى بحمل هذه البضائع الى السويس حيث تجد طريقها عبر مصر الى أوربا .

وقد عرف الحكام المسلمون عبر العصور الاسلامية لميناء جدة هـــذه الأهمية الدينية والاقتصادية فاهتموا بعمارته وتحصينه ·

وفي العصر المملوكي تطلع ســــلاطين المماليك في مصر الى الاهتمام بحماية الحرمين الشريفين وتأمين سبل الحج والعناية بثغر جـدة لأهميته ، فتدخلوا لتوطيد حكمهم في الحجاز ، ففي سنة ٦٦٧هـ حج السلطان الظاهر بيبرس وعين نائبا له بمكة يرجع اليه أشراف مكة في المهمات « ويكون الحل والعقد على يديه (٢) » وهو شمس الدين مروان ، ومن تلك السنة استمرت هذه الولاية بمكة الى آخر دولة قانصوه الغـــوري ، وكان يطلق على نائب السلطان المملوكي بمكة اسم « باش مكة » أو « باشا الترك » (٣) ·

أما جدة فقد عين المماليك بها حاكما عاما كان يسمى « نائب جدة » ويقيم في مقر يطلق عليه « دار النيابة » أو « فرضة السلطان » (٤) يطل على ميناء جدة مباشرة لكي يشرف منه على الحركة التجارية العالمية ·

وثمة نص ذكره المؤرخ قطب الدين النهروالي في كتابه « الاعلام بأعلام بيت الله الحرام » فيه اشارة الى هاتين الامارتين بمكة وجدة ، وذلك عندما تحدث عن أمر السلطان قايتباي في سنة ٨٨٤هـ بغسل البيت الشريف من داخله ومن خارجه وغسل المطاف وذلك لرؤيا رآها فقال : « فحضر شريف مكة وقاضي القضـــــاة برهان الدين بن ظهيرة وباشا الترك الراكز بمكة الأمير قايتباي اليوسفي والأمير سنقر الجمالي والدوادار الكبير الأمير جاني بك نائب جدة المعمورة ·· وغيرهم ·· وغســـلوا الكعبة الشريفـــة من داخلها ·· ومن خارجها ·· وسائر المطاف » (٥) ·

وفي مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميـــلادي) ظهرت أهمية جدة في الدفاع عن الحرمين الشريفين والبحر الأحمر في وجه الأطماع البرتغالية فعمل سلطان مصر يومئذ الأشرف قانصوه الغوري «٩٠٦ـ٩٢٢هـ» على تقويتها وبناء الاستحكامات اللازمة للدفاع عنها ·

ذلك أن البرتغاليين نجحوا في عامي ١٤٩٨/٩٧م في الالتفاف حـــول افريقيا مرورا برأس الرجاء الصالح (٦) وتمكنوا بذلك من الالتفاف حول العالم الاسلامي تحدوهم رغبة انتقامية امتزجت فيهـا الدوافع الاقتصادية بالعوامل الدينية التي كانت تدفعهـــا روح صليبية جارفة جعلت المسيحيين البرتغاليين أكثر تحمسا وشراسة في مطاردة المسلمين والانتقام منهم في عقر

دارهم ، وازدادت هذه الرغبة تأججا وضراوة وعنفا عندما نجحوا في الوصول الى الهند (٧) سنة ١٤٩٨م ٠

وشجعت البابوية في روما هذا المخطط الصليبي لغزو الاسلام في عقر داره ، وتورط بعض البابوات فوصفوا الاسلام في مراسيمهم بأنه طاعون ، وباركت البابوية عملية الانخراط في الحملات البرتغالية ، فكان البابا يعد المشتركين في تلك الحملات بالنجاة من النار يوم الحساب ، وكانت سفنهم تخرج ناشرة أشرعتها وعليها الصلبان مرسومة يرافقها دعاة المسيحية المتعصبون لنشرها (٩) ٠

وبعد أن ثبتت أقدام البرتغاليين في الهند بدأوا يقومون بأشنع أعمال القرصنة في المحيط الهندي ومدخلي البحر الأحمر والخليج العربي ويناوئون التجارة الاسلامية التي كانت في يد الحكومة المصرية ، فعملوا على مهاجمة السفن الاسلامية واغراقها أو الاستيلاء عليها ٠

وكان يراود البرتغاليين أمل يرجون تحقيقه في أسرع وقت وهو الاتصال بملك الحبشة المسيحي للتحالف معه لرسم مخطط لضرب القوى الاسلامية في البحر الأحمر والاستيلاء على (جدة) مركز المقاومة الاسلامية والولوج منها الى مكة لضرب العالم الاسلامي في أغلى مقدساته ٠

ومن ثم تسلل البرتغاليون في مياه البحر الأحمر سنة ١٥٠٥ ، وفي سنة ١٥٠٧م استولوا على جزيرة سوقطرة (١٠) للسيطرة على مدخل البحر الأحمر ٠

وفي غضون ذلك تنبه المماليك في مصر لخطورة الغزو البرتغالي الذي استهدف حرمانهم من التجارة العالمية وبدأ يهددهم في مقدساتهم وأملاكهم ، وتركزت خطتهم تجاه هذا الغزو في تقوية حكمهم في أقاليم البحر الأحمر وتحصين سواحله وعلى الأخص ثغر جدة لأهميته في حماية الأراضي المقدسة الاسلامية ، فأعد الأشرف قانصوه الغوري حملة بحرية بقيادة الأمير حسين الكردي في سنة ٩١١هـ (١٥٠٥م) مهمتها تحصين جدة أولا لتكون على استعداد لصد أي عدوان مفاجيء تتعرض له ثم تقوية ثغور اليمن والتوجه الى الهند بعد تأمين خطوط العودة الى مصر ٠

ويذكر ابن اياس أن جنود حملة حسين الكردي كانوا في مجموعهم من جنود الطبقة الخامسة أي من العساكر التي جددها الغوري في أيامه (١١)

وكانوا يتكونون من المغاربة الذين يرأسهم أميرهم على المسـلاتي « باش المغاربة » ومعهم « بعض أولاد الناس وبعض مماليك سلطانية والغالب فيهم مغاربة وعبيد سود رماة وتراكمة وغير ذلك » (١٢) ومعهم فريق من البنائين والنجارين وكثير من العمال لاقامة التحصينات اللازمة كما سنرى فيما يلي ٠

وعلى الرغم من أن السبب الرئيسي في اعداد هذه الحملة هو الغزو البرتغالي كما ينص على ذلك ابن اياس وغيره من المؤرخين ، الا أن صاحب كتاب « السلاح والعدة في تاريخ جدة » (١٣) يضيف سببا آخر لهذه الحملة وهو : عمليات السلب والنهب التي قام بها عربان بني ابراهيم (١٤) لحجاج بيت الله الحرام ونهبهم لمكة وجدة ولم يكن حينئذ على جدة سور وعلى الرغم من قرب صاحب كتاب السلاح والعدة من تلك الفترة التاريخية الا أنه يغفل عن الأسباب الرئيسية التي دفعت الغوري الى ارسال هذه الحملة ويجعـل سببها الرئيسي هو أعمال السلب والنهب والتخريب التي قام بها عربان بني ابراهيم ومن شايعهم ٠

وعلى الرغم من عدم احاطة صاحب « السلاح والعـدة » بالظروف والملابسات السياسية والعسكرية التي أحاطت بحملة حسين الكردي الا أنه يعتبر أهم مصدر وصف لنا عملية تحصين جدة وبناء سورها على يد المصريين في عهد قانصوه الغوري كما وصف السور وصفا دقيقا لا نجده في مصـدر سـواه ٠

ونظرا لأهمية هذا الوصف ولأن هذا السور الذي بناه المصريون ومعهم بعض الحجازيين كان من أهم العوامل التي دفعت عن جدة عادية البرتغاليين أكثر من مرة فسنتناول هذا الوصف بشيء من التفصيل فيما يلي :

يذكر الشيخ عبد القادر بن فرج أنه بمجرد وصـول حسين الكردي وجماعته الى جدة شرع في عمارة السور التي تمت في تسعة أشهر (تمت في ذي الحجة من سنة ٩١٢هـ) بما في ذلك الأبراج العالية ودار النيابة (١٥) في جدة وجامع الميناء ومصلى العيد ٠

ومما هو جدير بالذكر أن الشريف بركات شريف مكة ساعد في عملية بناء السور وملحقاته وساعد في نزع ملكية بعض البيوت التي كانت قريبة من السور منها بيت الصابوني وكان في جهة السور من ناحية اليمن ، وبيت الدهمي في جهة الشام ، وصار محل البيوت آثار تدل عليهـا ، كما حضر

الشريف بركات بنفسه عملية البناء ، وكان في بعض الأيام يقف على العمارة راكبا فرسه « ليحضر لحضوره جميع من في البلد ويعينون بالحمل للمونة الكبير منهم والصغير والغني والفقير والمأمور والأمير » (١٦) ٠

وبذلك يتضح لنا أن عملية تحصين جدة شارك فيها مع المصريين الشريف بركات وأهل جدة على كل المستويات ، ولعل هذا هو السبب في براعة العمارة وسرعتها في مدة وجيزة كما يشير الى ذلك عبد القادر ابن فرج ٠

وكان ارتفاع السور من الأساس حتى أعلاه (١٢ ذراعا) وطول محيطه من ناحية مكة واليمن والشام ٣٠٠٠ ذراع وعرض جداره أربعة أذرع ، أما الأبراج فكانت ستة أبراج ومحيط كل برج منها ستة عشر ذراعا وارتفاعه من على وجه الأرض خمسة عشر ذراعا ، منها برج شامي تجاه الشمال وآخر يماني تجاه الجنوب وبرجان قبليان تجاه مكة ملاصقان لبابين يسمى أحدهما باب الفتوح وهو الأيمن والآخر يسمى باب النصر وهو الأيسر ، أما البرجان البحريان فقد نزل بهما الغواصون في البحر اثنا عشر ذراعا (١٧) ٠

كما كان من تمام هذا العمل حفر خندق محيط بالمدينة من جميع نواحيها ، وبعد اتمام البناء وحفر الخندق زود المماليك المدينة بكثير من المدافع والعتاد الحربي ، وكان جملة ما صرف على عمارة السور وملحقاته (الأبراج ودار النيابة وجامعها ومصلى العيد وحفر الخندق) مائة ألف دينار غوري (١٨) ٠

وتتضح لنا من عملية بناء سور جدة الحقائق التالية :

أولا : أن الشريف بركات ومعه جم غفير من أهل جدة على كل المستويات « الكبير والصغير والغني منهم والفقير والأمير والمأمور » شاركوا مع المصريين في عملية بناء سور جدة في همة ونشاط ٠

ثانيا : أن المصريين هم أول من وضع حجر الأساس (١٩) في الاهتمام بثغر جدة وتقويته في عصر قانصوه الغوري بعد أن أصبح مستهدفا من البرتغاليين ٠

ثالثا : أن بناء السور كان قويا بأبراجه العالية وخندقه المحيط به

وتسليحه الامر الذي جعل من جدة صخرة تحطمت عليها آمال البرتغاليين في نهاية العصر المملوكي وبداية العصر العثماني ٠

وبعد أن أنجزت الحملة المصرية عملية تحصين جدة توجهت الى الهند وأحرزت انتصارا جزئيا أمام الاسطول البرتغالي في مياه « ديو » في خريف عام ١٥٠٨م ، (٩١٤هـ) بالتعاون مع المسلمين الهنـــود الا أن البرتغاليين سارعوا في تجميع قوتهم البحرية لمواجهة التحالف المصري الهندي وأحرزوا نصرا حاســـما في ٣ من فبراير ١٥٠٩م وهي المعركة المعروفة في التاريخ بمعركة (ديو البحرية) ، تلك المعركة التي أنهت عهدا من السيطرة المصرية على طريق التجارة البحري الى الهند ٠

وقد تضاءلت بعد معركة ديو البحرية الأهمية التجارية للبحر الأحمر الى حد بعيد ، تلك الأهمية التي ظل يتمتع بها طوال العصور الوسطى ، وانتقل مركز الثقل منه الى طريق رأس الرجاء الصالح وساحلي أفريقيا الشرقي والغربي ذلك الطريق الذي غدا يزخر بخطوط ملاحية لأول مرة في التاريخ بين أوربا وافريقيا الشرقية والهند وغيرها من بلدان الشرق الأقصى حتى فتح قناة السويس للملاحة الدولية سنة ١٨٦٩م ، وعـــودة النشاط التجاري الى البحر الأحمر وموانيه من جديد ٠

وبعد هذه الهزيمة التي مني بها المصريون في الهند نقل البرتغاليون معركتهم البحرية الى البحر الأحمر وهددوا اليمن والحجاز ومصر فتوغلوا في البحر بقيادة (البوكيرك) وخربوا ميناء عدن في المحرم من سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) وفي أواخر صفر من نفس العام استولوا على جزيرة «كمران (٢٠)» ثم خربوها وتركوها متجهين شمالا قاصدين جدة ، وكانت خطة البوكيرك ترتكز على التقدم نحو ميناء مصوع التابع للحبشة ليتمكن من الاستيلاء على جزر تهلك المواجهة لجدة ثم يعد منها لمهاجمة جدة ، ويمهد منها أيضا لاقامة علاقات تحالف ضد المسلمين مع امبراطور الحبشة للقضاء على قوة مصر في البحر الأحمر ومهاجمة الأماكن المقدسة الاسلامية ٠

ولقد حاول البوكيرك مواصلة مشروعه الكبير وهو مهاجمة جدة فاتجه لذلك شمالا ولكنه جوبه بريح صرصر عاتية أجبرته على الرجوع قبل أن يصل الى جدة ، فعاد يباشر القرصـــنة والتخريب في موانيء البحر الأحمر فأحرق السفن الراسية في ميناء زيلع وعاد الى عدن فضربهـــا بالمدافع نحو أسبوعين (٢١) ٠

وكانت القوات المصرية قد عادت أدراجها الى مصر بعد أن ترك حسين الكردي بعضها في جدة وذهب الى ميناء السويس لبناء قوة بحرية يستطيع بها مجابهة الاسطول البرتغالي المتفوق ، واتجه السلطان الغوري الى العثمانيين يطلب مساعدتهم في شراء ما يحتاجه من أخشاب وأدوات لصناعة السفن فأمر السلطان بايزيد الثاني (والد سليم فاتح مصر) بارســـال ثلاثين مدفعا وثلاثين ألف سهم وأربعين قنطارا من البارود ، وغير ذلك من عتاد الحرب هدية الى مصر دون مقابل كما أرسل نحو ألفين من البحــــارة العثمانيين للمساعدة في اعداد الاسطول في ميناء السويس والمشاركة في الحملة البحرية المنتظرة على الهند برئاسة سلمان الريس الذي أطلق عليــــه ابن اياس « سلمان الرومي » والذي أصبح قبطانا للاسطول المملوكي بعد اعداده ٠

وبينما كان المصريون يعدون لبناء قوة بحرية في السويس وصــلتهم الأخبار بأن البرتغاليين غادروا الهند بقيادة البوكيرك بحمــــــلة في فبراير سنة ١٥١٥م ، وتوجهوا الى البحر الأحمر وكان هدفهم من هذه الحملة هو تخريب جدة ومكة ، فأرسل الغوري على الفور قوة بقيادة الأمير حسين الكردي نائب جدة (والذي كان يباشر عملية اعداد الاسطول الكبير بالسويس) (٢٢) ، فما كاد حسين الكردي يصل الى جدة حتى قام بتقوية أسوارها ودفاعاتها مرة أخرى ، وجمع بعض الأموال من أهالي جدة لمعاونته في مهمته واضـــطر الى مصادرة أموال بعض تجار جدة ، كما ألزم الناس للعمل في تحصيناته لجدة ، وعلى الرغم من هذه الظروف الحربية الاستثنائية التي تبيح للقائد جمـع الأموال من المواطنين وتجنيدهم في العمل للدفاع عن أوطانهم الا أنه لم يسلم من انتقاد بعض المؤرخين المعاصرين له وسخطهم عليه (٢٣) ٠

وبينما كانت الحملة البرتغالية في طريقها الى البحر الأحمر لتحقيق غرضها وصلها خبر بقيام ثورة في جزيرة (هرمز) التي سيطر البرتغاليون عليها في مدخل الخليج العربي ، فاتجه البوكيرك اليها ، وما أن سيطر على الأوضاع فيها حتى اشتد به المرض وعاد الى مركزه في الهند حيث توفى بعد وصوله مباشرة ، ونجت (جدة) و (مكة) من التخريب المنتظر مرة أخرى ٠

وبعد أن أتمت القوات المصرية استعدادها البحري في السويس وجدة خرجت من الشواطىء المصرية وقامت بعملية تحصينات في موانيء البحر الأحمر وخاصة في الثغور اليمنية التي كانت في حاجة الى تحصينات على غرار التحصينات التي أقيمت في جدة من قبل وذلك لاغـــلاق البحر الأحمر أمام

البرتغاليين وتأمين خط الرجعة للقوات المصرية ، ولكن مما يؤسف له أن حسين الكردي اشتبك بقواته مع أمراء اليمن عندما رفضـــوا اقامة هذه التحصينات وقام المصريون بمهاجمة السواحل اليمنيـــة بالقوة ، وتطور الصراع حتى انتهى بقتل السلطان « عامر بن عبد الوهاب » سلطان صنعاء واحتل المصريون صنعاء ، واضطرت القوات المصرية في بادئ الامر لخوض الحرب مع اليمنيين للدفاع عن أنفسهم أثناء اقامة التحصينات ، ولكن هذه المعارك تطورت تطورا خطيرا أبعد الحملة عن هدفها الأصلي ، وبذلك يصح أن يقال عن هذه الحملة بأنها غرقت في اليمن ومشاكله قبل الوصول الى مياه الهند ٠

وفي غضون ذلك تنبه العثمانيون لضعف المماليك (الذين وقع على كاهلهم الدفاع عن البحر الأحمر ضد البرتغاليين في الجنوب ومحاربة فرسان القديس (٢٤) يوحنا في البحر المتوسط في الشمال) فبدأ العثمانيون يتدخلون في المنطقة لملء الفراغ العسكري الذي أصبح واضحا بعد أن فشل المماليك أمام الزحف البرتغـــالي أكثر من مرة ، وأصبح الطريق مفتـــوحا أمام البرتغاليين لتحقيق هدفهم نحو الأراضي المقدسة الاسلامية ، فبدأ العثمانيون يتدخلون وكان تدخلهم سلميا على نحو ما رأينا بحجة مساعدة المماليك في حربهم ضد البرتغاليين ، وتأكد لهم عن قرب ضعف القوة المملوكية فأعدوا أنفسهم لملء هذا الفراغ ٠

وفي صفحات ابن اياس اشارات كثيرة الى الآثار السيئة التي نجمت عن استيلاء البرتغاليين على التجارة الشرقية وأعمالهم التخريبية ضد السفن والثغور الاسلامية فيقول ابن اياس في حوادث المحرم من سنة ٩٢٠هـ مانصه : « وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانشحاب والتعطيل ، فان بندر الاسكندرية خراب ولم تدخل اليه القطائع (البضائع) في السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بســـبب تعبث الفرنج (البرتغاليين) على التجار في بحر الهند فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنوات وكذلك جهة دمياط » (٢٥) ٠

بذلك انهارت امكانيات مصر الاقتصادية وألقت هذه الحالة الاقتصادية السيئة بظلها على الأوضاع العسكرية المصرية ، فضعفت قوة المـــاليك العسكرية وتدهورت قدرات مصر الدفاعية ، الأمر الذي أغرى البرتغاليين والعثمانيين بالوثوب على أملاكها ، وقام ســـباق رهيب بين البرتغاليين من الجنوب والعثمانيين من الشمال لملء هذا الفراغ ، وحاولت كل من الدولتين أن ترث الدولة المملوكية المتهالكة ٠

وبينما كان البرتغاليون يعملون المرة تلو المرة على التوغل في البحر الأحمر حتى هاجموا جدة في عام ١٥١٧م كان العثمانيون قد نجحوا في خلال عام ١٥١٦م وأوائل عام ١٥١٧م (٩٢٢ ـ ٩١٣هـ) في الاستيلاء على أملاك الدولة المملوكية في الشام ومصر ، ولم يتمكن الغوري من الانتصار في لقائه الأول مع العثمانيين في موقعة (مرج دابق ١٥١٦م) لأنه كان مشغولا بالدفاع عن البحر الأحمر ضد الزحف البرتغالي ، وكانت قواته المتباغضة موزعة في كثير من ثغوره وخاصة في ثغور اليمن والحجاز ، كما كان يقاوم ضربات فرسان القديس يوحنا المتكررة في البحر المتوسط ٠

وعندما دخل السلطان سليم القاهرة في المحرم من سنة ٩٢٣هـ وتغلب على مقاومة طومان باي آخر سلاطين المماليك وشنقه على باب زويلة بالقاهرة في ٢١ من ربيع الأول ٩٢٣هـ (١٣ من أبريل ١٥١٧م) (٢٦) أسدل الستار على فترة من أهم فترات التاريخ الاسلامي كانت مليئة بالجهـــاد والنضال كتب للمماليك فيها النصر على الصليبيين والمغول ، ولكنهم أخفقوا في رد عادية البرتغاليين والعثمانيين ٠

انضمام الحجاز الى العثمانيين :

لم تكن الدولة العثمانية منعزلة تمام الانعزال عن الحجـــاز ، فان حجاجها كانوا يأتون كل عام في موسم الحج الى الحرمين الشريفين ، وكان سلاطين آل عثمان يرسلون الهدايا الى الحرمين كل عام ، وكانوا حريصين كل الحرص على ابلاغ شريف مكة بانتصاراتهم في أوربا ، وعنـــــدما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م أرسل الى شريف مكة رسالة بهذه المناسبة يبشره فيها ويطلب منه الدعاء كما أرسل اليه بعض الهدايا من غنائم الفتح (٢٧) ، وفي عام ٨٨٦هـ ، أدى السلطان بايزيد الثـــاني (ولد سليم فاتح مصر) فريضة الحج وتوثقت عرى المودة بينه وبين شريف مكة ٠

وكان العثمانيون يطمحون الى مد نفوذهم الى الحرمين الشريفين وتتوق نفوسهم الى أن ينعتوا بلقب حماة الحرمين الشريفين ، ذلك اللقب الذي اعتز به حكام مصر من المماليك وغيرهم ، وذلك لاعلاء مكانتهم في العالم الاسلامي ، وقد عبر السلطان سليم عن هذا الأمل عقب انتصاره في معركة مرج دابق

على المماليك سنة ٩٢٢هـ ودخوله حلب ، فقد حضر صلاة الجمعة في مسجد حلب وخطب الخطيب باسمه وأغدق عليه لقب « خادم الحرمين الشريفين » وعندما سمع سليم هذا اللقب من خطيب المسجد طرب له ، وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بهذا اللقب وخلع على الخطيب خلعا وأحسن اليه احسانا زائدا (٢٨) .

وعندما أتم السلطان سليم فتح مصر اظهر حسن نواياه تجاه جماعة من الحجازيين كانوا بمصر ابان فتحها ، منهم من مكة الخطيب محيي الدين العراقي الذي أنعم عليه بالانعام الجزيل ، واستقبل قاضي قضـــاة مكة صلاح الدين محمد بن ظهيرة وكان من المعتقلين في مصر (٢٩) فأكرمه وعظمه وخلع عليه وأحسن اليه .

ولما أراد سليم أن يجهز جيشا الى الحجاز اتصـــل قاضي قضاة مكة صلاح الدين بن ظهيرة برجال السلطان سليم وأقنعهم بعدم ارسال هـــذا الجيش وأن الرأي عنده « ارسال مكتوب الى (شريف مكة) ولا تبدو منه مخالفة أبدا » ولا يحتاج الأمر الى تجهيز جيش ، فأخذ السلطان ســـليم برأيه ، وكتب صلاح الدين رسالة من طرفه الى الشريف يعرفه فيها بما وقع ويطلب منه ارسال ابنه محمد أبو نمي الى السلطان سليم (٣٠) .

ونظر شريف مكة الى الظروف والملابسات الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز ابان الزحف العثماني بعين الخوف من المجهول ، فمن ناحية كان الحجاز يمر بظروف حربية صعبة حيث تعرضت موانيـــه وعلى الأخص (جدة) لكثير من هجمات البرتغاليين الشرسة التي سبق أن أشرنا اليها، وهدد البرتغاليون بمهاجمة الأراضي المقدسة الاســـلامية والعبث بمقدسات المسلمين ، ولم تكن لدى شريف مكة القوات والعتاد التي يستطيع بها صد المعتدين البرتغاليين .

ومن ناحية أخرى فقد كان الحجاز يعتمد من الناحية الاقتصادية على المخصصات الثابتة التي كانت تأتيه من مصر نظرا لندرة الزراعة به وقلة موارده ، فان دولة المماليك ومن سبقها من الدول الاسلامية التي ضـــمت الحجاز اليها قد عملت كل منها على رصد المخصصات وحبس الأوقاف بالديار المصرية على سكان الحرمين الشريفين . فكان الحجاز بذلك يتلقى من مصر سنويا كل ما يحتاجه من غلال الى جانب مرتبات الأشراف والعاملين على خدمة الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، والتي كانت ترسل سنويا صحبة أمير الحج المصري .

هذه الظروف الحربية والاقتصادية التي كان يعيشها الحجاز ابان الزحف العثماني هي التي أملت على شريف مكة الشريف بركات قبول السيادة العثمانية ، ورد على رسالة ابن ظهيرة بارسال وفد برياسة ابنه أبو نمي لتقديم الولاء والاستعداد بدخول الحجاز تحت السيادة العثمانية ، وذلك لكي يضمن استمرار تدفق التموين من مصر ، ويضمن وجود قوة اسلامية كبرى تقف أمام الزحف البرتغالي على الأراضي المقدسة الاسلامية ٠

واستقبل السلطان سليم وفد الشريف بركات في القاهرة في ١٦ من جمادى الثانية ٩٢٣هـ (٦ من يوليو ١٥١٧م) استقبالا حافلا وقدم أبو نمي الى سليم بعض الهدايا ، وبعض الآثار النبوية الشريفة التي كانت موجودة في مكة والمدينة ثم سلمه مفاتيح الحرمين ، وهكذا تم اقرار شريف مكة بقبول السيادة العثمانية ، ومنحه سليم تفويضا بحكم « مكة المشرفة المنورة المطهرة ونواحيها وضواحيها وتوابعها ولواحقها المعطرات ولكل موضع كان الجناب الكريم حاكما وضابطا فيه بمراسيم السلاطين القديمة » (٣١) ثم أمره بقتل حسين الكردي نائب جدة من طرف المماليك ٠

وعقب عودة وفد الشريف الى مكة قرىء التفويض على الأهالي وأمر الشريف بالقبض على حسين الكردي فأخذ مقيدا الى جدة وقتلوه غرقا في ميناء جدة في تلك المياه التي سبق له أن دافع عنها ضد الغزو البرتغالي ، وهكذا شاءت الأقدار لهذا المجاهد أن يختفي في البحر الذي شهد نضاله وكفاحه عن شواطئه منذ عام ٩١١هـ (١٥٠٥م) حتى مقتله سنة ٩٢٣هـ ٠

وبذلك دخل الحجاز تحت السيادة العثمانية دخولا سلميا وكان سلطان شريف مكة يمتد الى جميع بلاد الحجاز ، ومن مهامه الرئيسية العمل على تأمين قوافل الحج الوافدة الى الحرمين الشريفين من جميع بقاع العالم الاسلامي ، وكان يعتمد في ذلك على صلاته بالقبائل الضاربة في الحجاز والقريبة من طرق قوافل الحج ، كما يعتمد على عصبيته ونفوذه الديني الواسع ، وكان شريف مكة يتمتع في التشريفات العثمانية بأسمى مقام في صف « الصدر الأعظم » فيالآستانة و « الخديوي » في مصر (٣٢) ٠

أما ثغر جدة فان السلطان سليم ولى عليه نائبا جديدا بعد مقتل نائبه المملوكي ، وهذا النائب الجديد هو التاجر قاسم الشرواني الذي كان من تجار مكة وسافر قبل الفتح العثماني الى مصر وصادف وجوده دخول السلطان

سليم مصر ، فاتصل قاسم بالسلطان سليم وتقرب اليه بالخدمة فعينه نائبا لجدة ، فوصل اليها وباشر مهام منصبه في تلك السنة (٣٣) .

وجعل العثمانيون امارة جدة تابعة لهم مباشرة يعينون لها نائبا من طرفهم بعيدا عن نفوذ شريف مكة ، وذلك بسبب وضعها الحربي وأهميتها الاقتصادية والاستراتيجية ، وأبطل العثمانيون منصب باشا مكة ، وتركوا لشريف مكة السلطة على الحجاز ، وجعلوا له استقلالا عن نائب جدة الا في الحالات الضرورية التي يلزم عليه أن يتعاون معه على استتباب الأمن في ربوع الحجاز لتأمين سير قوافل الحج الى الحرمين الشريفين .

وقررت السلطات العثمانية لشريف مكة أن يأخذ نصف محصول ميناء جدة كل عام ، ومن ثم فقد تسبب هذا الأمر في اثارة كثير من المشاحنات بين نائب جدة وشريف مكة ولم تهدأ هذه الحوادث بينهما طوال العصر العثماني ، كما تسببت ثنائية الحكم هذه في خلق جو من الاضطراب والفتن والفوضى لا في جدة ومكة فحسب بل في الحجاز كله (٣٤) .

وهكذا حظيت الدولة العثمانية بشرف حماية الحرمين الشريفين ، وأضاف سلاطين آل عثمان الى ألقابهم لقب « خادم الحرمين الشريفين » وظل هذا اللقب من الامور التي يحافظ عليها سلاطين العثمانيين ، وحافظوا من أجله على بقاء الحرمين الشريفين في حوزتهم ، كما ورثت الدولة العثمانية أيضا نفوذ المماليك في البحر الأحمر بعد الاستيلاء على مصر وضم الحجاز ، وقابلت في الوقت نفسه مشاكل البحر الأحمر التي كانت بين البرتغاليين والمماليك حول السيادة عليه والسيطرة على التجارة الشرقية ، وبرزت أمام العثمانيين بمجرد ظهورهم في المنطقة قضية الدفاع عن البحر الأحمر وأصبحت احدى القضايا الملحة التي تحتاج الى عمل حربي حاسم منهم .

وقد أثبتت حوادث الاعتداءات البرتغالية على ثغور البحر الأحمر بسرعتها وتلاحقها صدق ذلك ، فقبل أن يصل نائب جدة الجديد « قاسم الشرواني » .. لمباشرة مهام منصبه كان البرتغاليون قد أعدوا هجوما على جدة في عام ١٥١٧م ، فقد أرسلوا حملة بقيادة نائب الملك في الهند « لوبو سوريز » الذي تولى بعد البوكيرك وكانت هذه الحملة تتكون من أربعين سفينة ومن ألفين من الجنود المسلحين ، وهدف هذه الحملة هو الهجوم على جدة وتدميرها والقضاء على الاسطول المملوكي في البحر الأحمر ، واقامة اتصال مباشر مع الحبشة .

ونظرا لأن هدف هذه الحملة هو جدة فانها لم تتعرض لعدن وخاصة ان أميرها (مرجان) قد أمد الحملة البرتغالية بالمؤن اللازمة لها وببعض المرشدين من بحارة اليمن لارشادها داخل البحر الأحمر للوصول الى جدة بعيدا عن مخاطر الشعب المرجانية ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل البرتغاليون امام جدة بسبب مناعة سورها وقوة استحكاماتها التي أقامها المماليك من قبل ، كما فوجئوا بتغير السلطة فواجهوا العثمانيين لأول مرة فكان عليهم أن يعودوا أدراجهم كي يعيدوا حساباتهم قبل مجابهة العثمانيين ، وكان الريس سلمان العثماني بعد مقتل والي جدة حسين الكردي قد سيطر على الامور في الثغر ريثما تصله الأوامر العثمانية ووقف أمام الهجوم البرتغالي على جدة ، وعندما انسحب البرتغاليون واصل مطاردة السفن المرتدة عن جدة الى جزيرة كمران ، وتمكنت سفنه من الاستيلاء على سفينة برتغـــالية وأسر بحارتها وأرسلهم الى استانبول ٠ ووصلت القوات البرتغالية المرتدة الى عدن حيث حصلت على الامدادات اللازمة من أميرها مرجان وعادوا قافلين الى مركزهم في هرمز (٣٥) ٠

وكانت هذه الحملة التي هددت جدة والحرمين الشريفين كفيلة بجعل العثمانيين يفكرون بطريقة جدية في حماية البحر الأحمر والأراضي المقدسة الاسلامية من هجمات البرتغاليين المتكررة والتي أخذت تتركز بصورة ملحة على ميناء جدة الاسلامي ولكنهم بعد قليل من وصول نائب جدة الجديد قاموا بسحب الريس سلمان العثماني من جـــدة ، فعاد الى القـــاهرة في شعبان سنة ٩٢٣هـ ، ومعه بعض الأسرى من البرتغاليين (٣٦) وكان تعيين التاجر قاسم الشرواني في منصب في تلك الفترة الحرجة من تاريخ المدينة معنـــاه الاسترخاء العسكري في جدة وفي البحر الأحمر الى حين ، وعلى كل فهذا من الامور التي تحتاج الى ايضاح والقاء الضوء على هذه الفترة وخاصة أن حالة الاسترخاء هذه ظلت حتى سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) ٠

ولما كان المماليك قد فشلوا في الســـــيطرة على عدن لجعلها المركز الرئيسي للدفاع عن البحر الأحمر ، لذلك ألقت الظروف بثقلها على جـــدة لتكون مركزا للدفاع عن البحر الأحمر في بداية العصر العثماني ، وأصبح لزاما على العثمانيين اعادة تحصـــــينه وتدعيم دفاعاته التي أقامها حسين الكردي من قبل بما يتلاءم مع الوضع العسكري الجديد ٠

بيد أن خطوات العثمانيين ظلت بطيئة في هذا المجال حيث لم يبدأوا

العمل الجدي الا في عام ٩٤٥هـ وكان ذلك على ما يبدو بسبب انشغالهم بكثير من المشاريع الحربية في أوربا وآسيا ، فقد كانوا يعملون على مد نفوذهم في كثير من المناطق الاوروبية منتهزين الحرب الايطالية التي شغلت أوربا في تلك الأثناء (١٥١٥ ـ ١٥٥٩م) كما كانوا يعملون من ناحية أخرى على مد نفوذهم في العراق وفارس لتوحيد العالم الاسلامي ٠

وفي عام ١٥٢٠م (٩٢٦هـ) توفي السلطان سليم وتولى بعده ابنه سليمان القانوني الذي جذبته أحداث أوربا وفارس حتى سنة ١٥٣٨م لكن ظلت مشاريع تأمين مدخل البحر الأحمر وتدعيم دفاعاته وأهمها جـــدة من أهم الامور التي يجب أن يعمل على انجازها العثمانيون ٠

وعلى الرغم من أن سياسة الحكومة المركزية في استانبول كانت تعني الاسترخاء العسكري في جبهة البحر الأحمر الا أن والي مصر خاير بك تولى ارسال المعدات العسكرية والقوات اللازمة لتعزيز حامية جدة ، وذلك عندما كانت تصل الأخبار الى مصر بتحركات عسكرية للسفن البرتغالية في البحر الأحمر قريبا من ميناء جدة ٠

ففي شهر جمادى الآخرة سنة ٩٢٤هـ أخذ خاير بك في تجهيز قوة عسكرية على وجه السرعة الى جدة ، وذلك عندما وصلته الأخبار من الحجاز على يد رســـول من شريف مكة بأن سفن البرتغاليين تعبث بالبحر الأحمر قريبا من ميناء جدة وتقوم بقطع الطريق على المسافرين مما يتســـبب في الاضرار بوضع جدة الاقتصـــــادي ، وذكر الشريف بركات في رسالته الى خاير بك أنه يخشى على ثغر جدة من أن تدهمه السفن البرتغالية على حين غفلة فبادر خاير بك بالنزول الى ميدان الرميلة بجانب قلعة القاهرة وقام باستعراض بعض القوات العسكرية ثم عين منها فرقة للسفر على وجه السرعة لنجدة جدة ، وكانت هذه الفرقة تتكون من نحو ٢٥٠ جنديا من « المماليك الجراكسة وأولاد الناس والمغاربة وغيرهم » وكان من بينهم مجموعة من البحارة المغاربة (٣٧) ٠

وفي العام التالي (رمضان ٩٢٥هـ) وصلت الأخبار الى القاهرة بأن البحرية البرتغالية قامت بتحركات جديدة حول جدة ، فأمر خاير بك بارسال قوة عسكرية أخرى الى جدة مكونة من ٣٠٠ جندي من المماليك والأتراك وعين نائبا جديدا لجدة عندما وصلته الأخبار بأن قاسم الشرواني نائب جدة السابق جمع كثيرا من الأموال المتحصلة من الميناء واســـتولى على كثير من الأسلحة وهرب بها بحرا الى ميناء (هرمز) ٠

وكان نائب جدة الجديد هو (حسين الكخيا أغات الكمولية) أو حسين الرومي كما تسميه بعض المراجع ، وقد أمره خاير بك بأن يتوجه على رأس القوة العسكرية الجديدة صحبة قافلة الحج المصرية ، كما أصدر خاير بك اليه أمرا بأن يضم اليه ولاية السواحل اليمنية الى جانب ولاية جدة ٠

ويبدو أن نائب جدة الهارب قاسم الشرواني لم يتمكن من الهرب فقد قبضت عليه القوات العسكرية وأرسلته الى القاهرة حيث سجنه خاير بك حتى ترى فيه سلطات استانبول رأيها ، فارسل السلطان سليم باستدعائه الى استانبول في رجب سنة ٩٢٦ (٣٨) ٠

ولم تكد تنتهي فترة وجيزة من ارسال نائب جدة حسين الرومي حتى شب خلاف بينه وبين شريف مكة الشريف بركات أدى الى نشـــوب معركة حربية بين القوات العثمانية المرابطة بجدة بقيـــادة حسين الرومي وبين الشريف بركات وقواته تسببت في وقوع كثير من القتلى من جنود الشريف بركات كما خرج نائب جدة جريحا من المعركة (٣٩) ٠

وتعتبر تولية حسين الرومي (٤٠) نائبا على جدة بداية لمرحلة جديدة في سياسة العثمانيين في البحر الأحمر ، وذلك لأنهم جعلوا سلطته تمتد الى اليمن الى جانب نيابته لجدة ، ومعنى هذا بداية العمل الجدي في مدخل البحر الأحمر وعلى السواحل اليمنية ، وترتب على هذا أن زحف حسين الرومي من جدة الى اليمن ولكن لم يسلم له المماليك بسهولة وعارضه اسكندر الجركسي ، وفي غضون ذلك وصل حسين الرومي في اليمن خبر وفاة السلطان سليم فرجع الى قاعدته جدة من غير قتـــال حتى يتضـــح الموقف في عهـــد السلطان الجديد (٤١) ٠

وفي غضون ذلك ظهر سلمان الريس في سماء جدة من جديد فقد فر من مصر بعد عصيان واليها أحمد باشا واتصل بحسين الرومي في جدة وحسن اليه الذهاب الى اليمن من جديد ولما توجه الى اليمن وأحرز حسين الرومي معه بعض الانتصارات والتف اليمنيون حول حسين الرومي (٤٢) خاف سلمان على نفسه وعاد الى مصر مرة أخرى وأغرى واليها ابراهيم باشا بارســال عساكر معه ليدفع بها البرتغاليين كما ادعى فجهزه بنحو أربعة آلاف مقاتل توجه بهم الى الحجاز أولا ٠

ومما هو جدير بالذكر أن قوات سلمان هذه كانت مصدر شقاء لأهل

جدة ومكة لأنهم كانوا في مجموعهم من الصناع والأساكفة وقطاع الطرق والجهال وغيرهم من أراذل الناس ، فلما وصل سلمان الى جدة سنة ٩٣٢هـ بهذه القوات عاثوا فيها فسادا وصاروا يتعرضون للعرب وينهبون الأسواق فانقطعت المسيرة عن مكة فحصل فيها قحط شديد وغلاء عظيم بحيث صار تاريخا عند أهل جدة ومكة فكانوا يقولون : « سنة سلمان » (٤٣) وامتدت يد سلمان الى محصول جدة فأخذه كله واستولى عليه لنفسه وكان في هذه السنة (٩٣٢هـ) تسعون الف دينار ذهبا ، ووافقه على ذلك نائب جدة الجديد وهو علي بك جاويش وكان هذا المحصول نصفه للسلطان ونصفه لشريف مكة ٠

وفي غضون ذلك أضحت جدة المركز الرئيسي لمحاولات العثمانيين في فرض نفوذهم الفعلي في اليمن لتأمين مدخل البحر الأحمر ٠

وفي سنة ٩٣١هـ (١٥٢٥م) عين العثمانيون سليمان باشا الخادم (٤٤) واليا على مصر ، فأمره السلطان سليمان سنة ٩٣٧هـ ببناء ثمانين سفينة في السويس من مختلف الأنواع والأحجام وزوده بالأخشاب والمواد اللازمة لبناء السفن من استانبول ، وفي ١٥ من المحرم ٩٤٥هـ قام بحملته الشهيرة الى اليمن وقد تمكنت هذه الحملة من السيطرة الكاملة على موانيء اليمن من جيزان شمالا حتى عدن جنوبا ، أما جهات اليمن الداخلية فقد ظلت تحت حكم الزيديين بزعامة الامام شرف الدين ٠

بيد أن سليمان الخادم فشل في حملته على الهند ولم يستطع أن يجابه القوات البرتغالية هناك ، وبعد فشله في الهند عاد منها وتلكأ في طريق عودته الى استانبول خوفا من عواقب الامور المرتقبة ومحاولة منه لتغطية فشله لدى سلطات الباب العالي فبقى في الحجاز أكثر من شهرين (من ذو القعدة ٩٤٥هـ حتى المحرم سنة ٩٤٦هـ) ثم قضى نحو خمسة أشهر أخرى في مصر ، عمل خلالها على نشر الدعاية الكاذبة حول انتصاره المزعوم على البرتغاليين ٠

وقد بقيت جدة في هذه الفترة ومابعدها مهملة بدون نائب حتى سنة ٩٤٩هـ ٠

وبعد فشل حملة سليمان باشا الخادم على الهند لم يفكر العثمانيون في سياسة هجومية ضد البرتغاليين وظلوا ينهجون سياسة دفاعية قوامها السيطرة على البحر الأحمر واغلاقه ، كما ترتب على هذه الهزيمة أيضا أن قام البرتغاليون بشن هجوم كبير في سنة ٩٤٨هـ على البحر الأحمر هدفه

تحطيم الاسطول العثماني في ميناء السويس وكانت هذه الحملة بقيادة نائب الملك في الهند وبلغ عدد سفنها أكثر من ثمانين سفينة ، وقام البرتغاليون بمهاجمة ميناء سواكن وجزر دهلك وخربوها وأسروا بعض سكانها ، كما هاجموا أيضا بعض السفن الشراعية الصغيرة في القصير والطور غير أنهم لم يجرءوا على مهاجمة الاسطول العثماني في السويس ولاذوا بالفرار (٤٥) عائدين الى الموانيء الحبشية التي أضحت قاعدة لهم ·

وقد تعرض ميناء جدة لعملية تخريب أثناء مرور الحملة البرتغالية في طريقها الى السويس ، وتنبه شريف مكة أبو نمي للخطر المحدق بجدة في غيبة نائبها فترك مكة في موسم الحج وتوجه الى جدة في جيش كبير جمعه من أهل مكة والقبائل المجاورة لها وأمر المنادي بالنداء في مكة وضواحيها : « من صحبنا فله أجر الجهاد وعلينا السلاح والنفقة » (٤٦) ·

واجتهد الشريف أبو نمي في تلك الفترة الحرجة بجمع المؤن لقواته من جميع الأطراف فكانوا يحضرون أنواع الطعام الى جدة بأغلى ثمن وذلك لأن جدة مواردها كانت تأتي من البحر فلما حاصرها الاسطول البرتغالي اعتمد الشريف في تزويد قواته بها على المناطق الداخلية الفقيرة ، وعزت الأقوات بها وغلا ثمنها و « فرغت الحبوب ·· فاقبلوا على نحر الابل فكانوا ينحرون لكل مائة نفس بدنة فاستمر ذلك مدة » وتحمس الشريف لعملية الاستمرار في تزويد قواته حتى قال : « اني نويت أن أنحر ما أملكه ويملكه أولادي وأحفادي فاذا نفذت الابل نحرت الخيل ثم كل حيوان يجوز أكله (٤٧) ·

ورفض الشريف أن يغادر جدة في هذه الظروف لمقابلة أمراء قوافل الحج على العادة ، وكلف ابنه أحمد أن يقابل أمراء الحج ويلبس الخلع الواردة اليه ويحج بالناس على عادة أجداده نيابة عن والده ، وبعد اتمام مناسك الحج توجه اليه أمراء الحج بجدة لالباسه الخلع فوجده شاكي السلاح لابسا درعه على هيئة المقاتل وأمر الشريف بأن تضرب المدفعية تحية لقدوم أمراء الحج عليه ، وكان من نتيجة هذا الموقف الجاد لشريف مكة في الاهتمام بالدفاع عن جدة أن أمر له السلطان سليمان بنصف « معلوم جدة » أي محصول ميناءها وذلك بعد أن تعدى عليه نواب جدة في بعض السنين ، وأنعم عليه بكثير من المنح والهدايا ·

وترتب على هذا الهجوم البرتغالي الشامل للبحر الأحمر أن فكر

العثمانيون جديا في اغلاقه في وجه البرتغاليين وقطع الاتصال بين البرتغاليين والأحباش ذلك الاتصال الذي أفادت منه البحرية البرتغالية حيث ضمنت مرافيء آمنة في البحر وضمنت تزويدا لسفنها وجنودها ، ولعبت الوشيجة الدينية بين الأحباش والبرتغاليين دورا هاما في توطيد العلاقات الودية بين الطرفين حتى صارت تحالفا يضر بأوضاع البحر الأحمر الأمنية بالنسبة للمسلمين ٠

ونشطت السفن العثمانية في حصار السواحل الحبشية وأخذت تطوف في دوريات منتظمة في البحر الأحمر حتى جعلت عملية الاتصال بين الأحباش والبرتغاليين نوعا من المغامرة ، كما بدا العثمانيون يدعمون قواعدهم البحرية في اليمن (٤٨) ٠

وهكذا يمكن القول بأنه اذا كانت حملة (لوبو سوريز) على جدة عام ٩٢٣هـ (١٥١٧م) هي التي وجهت أنظار العثمانيين الى الخطر البرتغالي بعد فتحهم لمصر مباشرة ، فان حملة سنة ٩٤٨هـ (١٥٤١م) البرتغالية هي التي دفعت العثمانيين الى التفكير في اغلاق البحر الأحمر أمام البحرية الأوروبية بصفة عامة والبحرية البرتغالية بصفة خاصة وقد نجح العثمانيون في هذا المجال الى حد كبير ٠

وعندما تمكن العثمانيون من اغلاق البحر الأحمر أصبحوا يحافظون على تدعيم وجودهم العسكري في عدن من آن لآخر فقد أصبحت عدن مركزا لخط الدفاع الأول عن الحرمين الشريفين بينما أضحت جدة في هذه الفترة مركزا لخط الدفاع الثاني عن الحرمين ، وقد اتضح هذا من رسالة وجهها السلطان سليم الثاني (٩٧٤ ـ ٩٨٢هـ) الى قائده سنان باشا الذي وجهه لاعادة فتح اليمن في سنة ١٥٦٩م (٩٧٧هـ) وقد جاء في هذه الرسالة : « ان استردادنا لملكة اليمن وان كان ذلك مما يتعين علينا لأنها ميراث أبينا المرحوم المقدس ، لكن جل قصدنا من ذلك انما هو حفظ ثغر عدن صونا للحرمين الشريفين على الكفار الملاعين (٤٩) ٠

اضافة جدة الى ولاية الحبش :

واصل العثمانيون تدعيم وجودهم العسكري على الشاطيء الافريقي المقابل ولسواحل اليمن ، واستمروا في هذا الصدد حتى هاجموا الحبشة في

عقر دارها بعد نجاح عملية الحصار البحري عليها وذلك لكي يكملوا جهودهم البحرية بجهود حربية داخل الحبشة نفسها لمطاردة البرتغاليين هناك ٠

وكان نفوذ العثمانيين منذ البداية لا يتعدى حدود نيابة سواكن وزيلع اللذين ورثهما العثمانيون عن المماليك بعد استيلائهم على مصر ، وكان (أزدمر باشا) أول من لمس أهمية السواحل الحبشية بالنسبة للسيطرة على البحر الأحمر وذلك بفضل الفترة التي قضاها واليـــا على اليمن من سنة ٩٥٦هـ حتى عزل سنة ٩٦٢هـ (١٥٤٩ ـ ١٥٥٥م) فقدم مشروعا عقب عزله من ولاية اليمن الى السلطان سليمان القانوني يقضي بارسال حملة لتدعيم النفوذ العثماني على ساحل الحبشة وتوسيع مداه فأرسل السلطان الى مصر لتجهيز جيش بها لهذا الغرض ٠

وتم اعداد جيش في مصر قوامه ثلاثة آلاف جندي زحف به أزدمر باشا الى الحبشة عن طريق صعيد مصر ، ونجح أزدمر في السيطرة على بعض جهات النوبة ، واستولى على بعض الأقاليم الساحلية حول « سواكن » وأتم بذلك تكوين ما سمي : « ولاية الحبش » وأصبح أزدمر باشا أول وال لهذه الولاية حتى توفى بها سنة ٩٦٧هـ (١٥٥٩م) وكانت من قبله يتوجه اليهـا الأمناء من مصر ، وقد خلف أزدمر في ولاية الحبش هذه ابنه عثمان (٥٠) وكانت هذه الولاية تضم المناطق الساحلية حول سواكن ومصوع ٠

وقد ربط العثمانيون بين ولاية الحبش وثغر جدة الاسلامي في ادارة واحدة فأضافوا ثغر جدة الى ولاية الحبش (٥١) وقد أرادت الدولة العثمانية بهذا الاجراء الاداري تدعيم متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطىء العربي والشـــاطىء الافريقي لاحكام السيطرة على مياه هـــذا البحر ٠

ولما أصبح طريق البحر آمنا على النحو السالف غدت الأقوات المجهزة الى مكة والمدينة ترد عن طريق البحر ، فيذكر مؤرخ قافلة الحج المصرية في هذه الفترة وهو عبد القادر بن محمد الجزيري أن الأحمال المصاحبة لقافلة الحج المصرية كانت تبحر سنة ٩٦٠هـ من ميناء السويس الى مينائي جــدة وينبع ، ولعل من المفيد أن نذكر أن هذه الأحمال كانت في سنة ٩٥١هـ نحو ٢٠٣٩ر٥ حملا وفي سنة ٩٥٢هـ كانت ٢٠٣٧ر٥ حملا ، ولعل من المفيد أيضا أن نذكر أنواعها فيما يلي :

عـدد		نوعه
٣٥٠	حملا	من الدقيق المحزوم
١٨٠	حملا	من البقسمات المنشف (وزن كل حمل ٦٥٠ رطلا صافيا)
٢٠	حملا	من الأرز المحزوم (كل حمل اردبان وربع اردب)
٥	أحمال	من الكشك (كل حمل أربعة أرادب)
٥	أحمال	من البرغل (كل حمل أربعة أرادب)
٥	أحمال	من الباسلا (كل حمل كضريبة الأرز في المقدار)
١٠	أحمال	من الجبن الحالوم (عبارة عن ٦٠ قنطارا في أقفاص مغلقة) ٠
١٢	حملا	من العسل (عبارة عن ٦٠ قنطارا في مزاود مغلقة)
٥٠٠	حمل	من القفف كقرب السقائين ٠
٤	شمعات	(زنتها أربعة قناطير برسم الكعبة شمعتان وبرسم الحجرة الشريفة شمعتان) ٠
١	حملا واحدا	من السلب الليف يحتاج اليه في مكة
٦	قناطير	من الزيت السكندري معباة في زلمتين ٠
١٥٠	اردبا	من الشعير المغربل ٠
٣٩٠٠	اردبا	من الفول الصحيح المغربل ٠

وكانت هذه الأقوات تقسم أيام المماليك بين جـــدة وينبع لكل بندر منهما النصف بالسوية ، ولما كان احتياج مكة أكثر من احتياج المدينة وزعت ابان العصر العثماني الثلث لينبع والثلثين لجدة وهذا هو الذي كان معمولا به سنة ٩٦٠هـ ٠

وكانت هذه الأقوات تفرغ في ثغر جدة وتوضع في مخازن (حواصل وشون) كانت موجودة في الميناء لوضع هذه الأقوات وغيرها من البضائع لأمراء

الحج والتجار بغير أجرة ولكن شريف مكة في العصر العثماني وضع يده على هذه المخازن والشون وبناها بيتا له يسكنه زمن الموسم الهندي كما يقول الجزيري ، وفي سنة ٩٦٠هـ احتاج أمير الحج الى موضع بالميناء توضع فيه هذه الأحمال ريثما تنقل بدورها الى مكة ، فوضعها في فضاء كبير (حوش) خاص بجماعة من الأشراف على مقربة من الميناء بغير أجرة ، وبمضي الزمن تظلم هؤلاء حتى عين لهم أمير الحج أجرة في مقابل ذلك ٠

وكان على شريف مكة بعد ذلك أن ينقل منها الى مكة حمولة ألف جمل من غير أجرة وماعدا ذلك اما أن ينقله أمير الحج على جماله اذا حضر أو يجهز له شريف مكة جمالا بالأجرة تنقله الى مكة ، وأما أمير ينبع فليس عليه سوى احضار الجمال فقط وأما أجرتها فعلى أمير الحج لكل جمل نصفان من الفضة (٥٢) ٠

الخلاصة :

نستطيع من هذه الدراسة السريعة أن نبين أهمية هذه المرحلة من تاريخ جدة فيما يلي :

١ ــ في مطلع القرن العاشر الهجري أصبحت جدة غرضا مستهدفا للاستعمار البرتغالي بعد أن ضعفت القوى الاسلامية في المنطقة وظهرت أهميتها في الدفاع عن مكة حتى أصبحت رباطا للمجاهدين وأفتى علماء المسلمين بأنها أهم رباط في الاسلام فقالوا : « ينبغي لمن دخل هذا الثغر المبارك أن ينوي الرباط والجهاد والذب عن بيت الله العتيق ويصحب معه شيئا لدفع أهل الكفر والعناد » وقالوا بأن ثغر جدة أفضل الثغور لاضافته الى بيت الله الحرام الذي من دخله كان آمنا من كل محذور ، وأن فضل مرابطيه على سائر المرابطين كفضل مكة على سائر البلدان في سائر الأزمان والدهور ، ويغفر الله للناظر منه مد بصره مما يلي البلد ، ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : «يأتي على الناس زمان يكون أفضل الرباط رباط جدة» (٥٣) ٠

٢ــ أن المماليك على أيام السلطان قانصوه الغوري هم أول من رسم سياسة حربية دفاعية لثغر جدة الاسلامي بما يتناسب مع أهمية مكة في قلوب المسلمين في جميع بقاع العالم الاسلامي ، فحصنوها بكل وسيلة وبنوا

سورها العظيم وحفروا حوله خندقا كبيرا وزودوها بالأسلحة والمرابطين للدفاع عنها في أية لحظة طارئة ، فجعلوا منهـــا بذلك مركزا لخط الدفاع الثاني بعد عدن للدفاع عن الحرمين الشريفين ضد الهجمات البرتغالية ، كما جعلوا منها مركزا دفاعيا متقدما للدفاع عن الأراضي المصرية ٠

٣ ـ عندما ورث العثمانيون أملاك المماليك في المنطقة سنة ٩٢٣هـ ساروا على هدى الخطط المملوكية في الدفاع عن البحر الأحمر والاهتمام بثغر جدة بيد أنهم أبطأوا في أعمالهم الحربية حتى عـــام ١٥٣٨ (٩٤٥هـ) ففي تلك السنة تمت لهم السيطرة على سواحل اليمن وأرسلوا حملة الى الهند بقيادة سليمان الخادم لم يتمكن من عمل شيء أمام النفوذ البرتغالي الذي تمكن من تجارة الهند والسيطرة على البحار الشرقية ٠

٤ ـ بعد عام ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) كانت سياسة العثمانيين دفاعية في البحر الأحمر ولم يفــكروا في اجتيازه الى الهند لمنافســـة النشاط التجاري البرتغالي أو غيره من نشاطات الدول الاستعمارية الغربية الاخرى التي بدأت تظهر في مياه البحار الشرقية ٠

٥ ـ بيد أنهم استطاعوا (بعد سيطرتهم على عدن وغيرها من موانيء البحر الأحمر) اغلاق البحر الأحمر أمام السفن الاستعمارية وجعلوه بحيرة اسلامية مغلقة بحجة أنه يطل على الأماكن المقدسة الاسلامية ، فكان على مثل هذه السفن أن تفرغ حمولتهـــا في موانيء اليمن الجنوبية وتقوم السفن الاسلامية بحمل هذه التجارة الى داخل البحر الأحمر ، وجعلوا من السواحل اليمنية قاعدة لغلق البحر الأحمر فقط ولم تعد نقطة انطلاق لحملات كبيرة الى الهند أو الى البحار الشرقية ، وتجنب البرتغاليون اثارة الدولة العثمانية منذ ظهر نفوذها في البحر الأحمر فأصبح نشاطهم فيه محددا خوفا من أن توجه الدولة العثمانية نشاطها الحربي الى الهند ، وخاصة أن البرتغاليين كانوا يدركون مدى قوة الدولة العثمانية في ذلك الحين ، وذلك باستثناء بعض حملاتهم مثل حملة ســـنة ٩٤٩هـ التي كانت ردا على حملة العثمـــانيين بقيادة سليمان باشا الخادم سنة ٩٤٥هـ ٠

٦ ـ عندما تم للعثمانيين السيطرة على سواحل الحبشـــة في البحر الأحمر وأنشأوا منها ولاية كانت تســـــمى بولاية الحبش قاعدتها سواكن

(٩٦٢ ـ ٩٦٧هـ) ربطوا بين هذه الولاية وثغر جدة الاسلامي في ادارة واحدة فأضافوا ثغر جدة الى ولاية الحبش فكأنما كانت مهمة هذه الولاية هي متابعة الدوريات البحرية في البحر الأحمر بين الشاطيء العربي والشاطيء الافريقي لاحكام السيطرة على مياه هذا البحر ٠

دكتور
فائق بكر الصواف
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
ورئيس قسم التاريخ بكلية
الشريعة والدراسات الاسلامية
جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة

دكتور
مصطفى محمد محمد رمضان
أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية
جامعة الملك عبد العزيز ـ مكة المكرمة



المصــــادر

١ ـ يذهب بعض المؤرخين الى ان جدة كانت قبل ذلك ثغرا معتمدا على ماذكره ابن جبير في رحلته من انه رأى اثر سور محلق بها ، وماذكره ابن فهد في كتابه : « اتحاف الورى باخبار أم القرى » من ان بجدة اثر رسوم قديمة تدل على قدم اختطاطها وانها كانت مدينة كبيرة زمن سيطرة الفرس وان سلمان الفارسي رضي الله عنه وأهله سكنوا فيها لأنهم كانوا قوما تجارا وهم الذين بنوا سورها الأول وكان ماء البحر يدور حولها وهي يومئذ شبه جزيرة وسط لجة البحر ٠

انظر : عبد القادر أحمد بن فرج ، « السلاح والعدة في تاريخ جدة » مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٨ تاريخ دهلوي ص ٨ ٠

وانظر أيضا : احمد الضراوي ، الجواهر المعدة في تاريخ جدة ، مخطوط بمكتبة الحرم المكي رقم ٢٧ تاريخ دهلوي ، ص ٧ ـ ٨ ٠

٢ ـ انظر : عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، طبعة المطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٨٤هـ ، ص ٢٨٣ ٠

٣ ـ بطل منصب « باش مكة » منذ الفتح العثماني ، وصارت بعض اختصاصاته يقوم بها نائب جدة كما سيأتي بيان ذلك ٠

٤ انظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢١ ٠

٥ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ، على هامش كتاب : خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، طبعة المطبعة الخيرية بالقـــاهرة سنة ١٣٠٥هـ ص ١٥٣ ٠

٦ ـ راس الرجاء الصالح كان اسمه قبل هذه التسمية « راس العواصف » وذلك لكثرة ما به من عواصف ، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه « راس الرجاء الصالح » وذلك بعد أن نجح البرتغاليون في اجتيازه ، لأنه فتح باب الرجاء والأمل أمامهم في الوصول الى الهنـــد •

انظر : يحيى بن الحسين ، غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، القسم الثـاني ص ٦٣٠ هامش ٤ •

٧ ـ نجح البرتغاليون بقيادة فاسكودا جاما في الوصول الى الهند سنة ١٤٩٨م ، بفضل رئيس البحر الملاح احمد بن ماجد الذي ارشدهم الى الطريق الصحيح ، وابن ماجد له مؤلفات قيمة في الملاحة بعضها في المكتبة الأهلية في باريس وبعضها في مكتبة لينلجراد ، وغيرهما ، وقد نشر بعض هذه المؤلفات وعلق عليها المســتشرق الفرنسي جبرييل فران والمستشرق الروسي « تيودور شوموفسكي » وايدوا جميعا ما ذكره قطب الدين النهروالي في كتابه « البرق اليماني » من ان فاسكودا جاما لم يتمكن من الوصول الى الهند الا بفضل احمد بن ماجد الملاح الذي صاحبهم في الوصول الى الهند مرشدا لهم •

انظر : قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، طبعة دار اليمامة بالرياض ص ١٨ ـ ١٩ ويحيى بن الحسين ، غاية الأماني في اخبار القطر اليماني ، القسم الثاني ص ٦٣٠ ـ ٦٣١ هامش ٥ ، و د• انور عبد العليم « الفوائد في اصول علم البحار والقواعد » لأحمد بن ماجد ، بحث نشر في مجلة تراث الانسانية ، المجلد الخامس عدد ٤ ص ٢٧٤ ، وكذلك لنفس المؤلف كتاب : ابن ماجد الملاح من سلسلة اعلام العرب ، رقم ٦٣ •

١٨ ـ انظر : د• عبد العزيز الشناوي ، اوربا في مطلع العصور الحديثة ، الطبعة الاولى ، القاهرة سنة ١٩٦٩ ، الجزء الأول ص ٩٤ •

٩ ـ عبر عمانويل ملك البرتغال (١٤٩٥ ـ ١٥٢١م) عن اغراض الحملة الاولى في خطبة طويلة جاء فيها : « أن الغرض من اكتشاف الطريق البحري الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق » •

انظر : د• السيد مصطفى سالم الفتح العثماني الأول لليمن ، الطبعة الثانية ، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ص ٤٦ ـ ٤٧ •

١٠ ـ جزيرة سوقطرة أو (سقطرة) تقع بالقرب من الساحل الجنوبي للجزيرة العربية الى الشرق من عدن ، وهي جزيرة جبلية وعرة قليلة السكان تنتشر حولها الشعب المرجانية ولكن لها اهمية استراتيجية لمن يريد التحكم في مدخل البحر الأحمر •

١١ ـ انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة (١٩٦٠ ـ ١٩٦٣) الجزء الخامس ص ٢٠٣ •

١٢ ـ المصدر السابق ، ج٤ ص ٨٤ ـ ٨٥ •

١٣ ـ مؤلف كتاب السلاح والعدة في تاريخ جدة ، هو الشيخ عبد القادر بن احمد ابن فرج الشافعي من أهل جدة وخطيب مسجدها ، ولد بها ونشا وكانت وفاته في ســنة ١٠١٠هـ وعاصر بداية الفتح العثماني •

انظر : مجلة المنهل المجلد السابع ص ٤٤٤ والاعلام للزركلي ج ٤ ص ١٦٢ ، وخلاصة الأثر للمحبي ج٢ ص ٤٣٥ .

١٤ ـ بنو ابراهيم أشهر القبائل التي كانت تسكن يومئذ بين ينبع ومكة ، وكانت السلطات المصرية توكل اليهم حراسة قافلة الحج المصرية في بعض مراحل الطريق وفيما بين سنة ٩٠٧ ، وسنة ٩١١هـ قام أعراب بني ابراهيم بكثير من أعمال السلب والنهب للحجاج بيت الله الحرام متضامنين مع امير ينبع يحيى بن سبع واشتد أمرهم في سنة ٩١١هـ فامر الغوري بايقاف عملية الحج في هذه السنة .

١٥ ـ كان يطلق على دار النيابة التي هي مقر نائب جدة « فرضة السلطان » .

١٦ ـ انظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعـــدة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٠ ـ ٢٢ .

١٧ ـ نص الشيخ عبد القادر بن فرج على أن هذا الذراع هو ذراع العمل واضاف انه اي ذراع العمل هذا ذراع ونصف بذراع النجار ، وبالرجوع الى علي مبارك في خططه وهو اهم مصدر تعرض لتقدير الاطوال تبين لنا ان ذراع النجار التي اشار اليها بن فرج تبلغ ٧٧٫٥ سم فتكون ذراع العمل التي قدر بهـــا ابن فرج أبعـاد سور جدة هي : ٧٧٫٥ سم × ١٫٥ = ١١٦٫٢٥ سنتيمتر .

١٨ ـ انظر عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة ، ص ٢٢ .

١٩ ـ انظر : احمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ، القاهرة سنة ١٣٠٥هـ ص ٥١ .

٢٠ ـ « كمران » جزيرة بالبحر الأحمر تجاه زبيد باليمن وهي حصن لمن ملك تهامة اليمن (ياقوت ـ معجم البلدان) كما أنها محطة بحرية هامة بين عدن وجدة .

٢١ ـ انظر : د. الســيد مصطفى سالم ، الفتح العثمـــاني الأول لليمن ، ص ٧١ ـ ٧٤ .

٢٢ ـ انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٣٠٧ ـ ٣٠٨ .

٢٣ ـ انظر : قطب الدين النهـــروالي ، الاعلام باعــــلام بيت الله الحــــرام ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ .

٢٤ ـ كان فرسان القديس يوحنا يسيطرون على بعض الجزر في شرقي البحر المتوسط ويتمركزون في جزيرة رودس وكانوا يشنون الهجمات المتوالية على الموانىء الاسلامية وخاصة المصرية ، وقاموا بكثير من أعمال القرصنة البحرية في مواجهة السفن الاسلامية ، وكانوا يعدون هذه الأعمال العدوانية من قبيل الجهاد الديني وظلوا في جزيرة رودس حتى اجلاهم السلطان سليمان القانوني عنها سنة ١٥٢٢م الى غرب البحر المتوسط وتمركزوا في جزيرة مالطة الى ان قضى على نفوذهم بونابرت وهو في طريقه الى مصر سنة ١٧٩٨م .

انظر : الهجمات المتكررة لهؤلاء القراصنة على ثغور مصر في كتاب ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٤ ص ١٤٥ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٢٠ .

٢٥ ـ انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج٤ ص ٣٥٩ .

٢٦ ـ محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، طبعة بولاق ، القـــاهرة ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

٢ ـ انظر ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٦ ـ ٢٧ ٠

٢٨ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، الاعـلام باعـلام بيت الله الحرام ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ٠

٢٩ ـ كان السلطان الغوري قد طلب من قاضي قضاة مكة ابن ظهيرة عشرة آلاف دينار فعجز القاضي عن سدادها فامر الغوري بالقبض عليه وحمله الى مصر واعتقله بها ، وعقب هزيمة الغوري في موقعة مرج دابق اخرجه طومان باي من السجن وظل في مصر حتى قابل السلطان سليم ٠

انظر : احمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، ص ٥٠ ٠

٣٠ ـ المصدر السابق نفس المكان ٠

٣١ ـ انظر : نص الرسالة التي ارسلها السلطان سليم للشريف ، وقد ترجمها الى العربية الدكتور أحمد فؤاد متولي ونشرها في احدث كتاب نشر عن « الفتح العثماني للشام ومصر » بالقاهرة سنة ١٩٧٦م ، ويمتاز هذا الكتاب بكثير من الوثائق التي ترجمها المؤلف من التركية الى العربية وقد استقاها من الأرشيف التركي وغيره من المصادر التركية (انظر الوثيقة رقم ٣٠ في ملحق الوثائق لنفس الكتاب) ٠

٣٢ ـ انظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٤١ ٠

٣٣ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام ص ١٩١ ، وانظر ايضا ، أحمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان امراء البلد الحرام ص ٥١ ٠

٣٤ ـ انظر : على سبيل المثال ماحدث من حروب بين شريف مكة ووالي جدة في سنة ١٠٧٩هـ وسنة ١١٨٤هـ ومابعدها في كتاب : خلاصة الكلام لأحمد بن زيني دحلان ٠

٣٥ ـ انظر : د٠ السيد مصـطفى سالم ، الفتح العثمـاني الأول لليمن ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ٠

٣٦ ـ انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، حوادث شعبان ٩٢٣هـ ج ٥ ص ٢٠٣ ٠

٣٧ ـ انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٢٦٢ ٠

٣٨ ـ المصدر السابق ، ج٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٦ ، ٣٤٢ ٠

٣٩ ـ المصدر السابق ، ج٥ ص ٣٣٠ ٠

٤٠ ـ كان حسين الرومي هذا من الأمراء الذين وردوا مع السلطان سليم الى مصر وكانت له وجاهة عند خاير بك والي مصر فولاه نيابة جدة واضاف اليه اليمن ٠

٤١ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني ، ص ٣٤ ٠

٤٢ ـ لم تطل الامور بحسين الرومي في اليمن فلم يزل ان توفي بعد مرض طويل في سنة ٩٣٢هـ ودفن باليمن (انظر المصدر السابق ، ص ٤٢) ٠

٤٣ ـ المصدر السابق ص ٤٢ ـ ٤٤ ٠

٤٤ ـ كان سليمان الخادم احد مماليك السلطان سليم الأول ومن المقربين اليه وظل واليا على مصر حتى غادرها الى العراق للاشتراك في فتح بغداد سنة ١٥٣٤م ثم بدات ولايه الثانية لمصر سنة ٩٤٣هـ واستمر حتى خرج منها على رأس حملة بحرية لفتح اليمن سنة ٩٤٥هـ (١٥٣٨م) ٠

٤٥ ـ انظر : د٠ السـيد مصطفى سالم ، الفتح العثمـاني الأول لليمن ، ص ٣٩٨ ـ ٣٩٩ ٠

٤٦ ـ انظر : احمد بن زيني دحلان ، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، ص ٥٣ ٠

٤٧ ـ المصدر السابق ٠ نفس المكان ٠

٤٨ ـ انظر : د٠ السيد مصطفى سالم ، الفتح العثماني الاول لليمن ، ص ٤٠٠ ٠

٤٩ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، ص ٢٣٣ ٠

٥٠ ـ انظر : قطب الدين النهروالي ، البرق اليمـــاني في الفتح العثماني ، ص ١١٩ ـ ١٢٠ ٠

٥١ ـ انظر : ساطع الحصري ، البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ٠

٥٢ ـ انظر : عبد القادر بن محمد الجزيري ، درر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٤٠١ ـ ٤١٦ ٠

٥٣ ـ انظر : عبد القادر بن فرج ، السلاح والعدة في تاريخ جدة ، ص ٢ ، ص ٢٨ ٠

اطلالة على الصراع السياسى البريطانى الإيطالى فى البحر الأحمر

خلال فترة الحرب العالمية الأولى

بقلم : عصام ضياء الدين السيد
الباحث بالدارة

حقا للبحر الأحمر موقع فريد ، اذ انه حلقة الاتصال بين البحار الشرقية والبحار الغربية ، وهو يقع عند التقاء قارات العالم القديم الثلاث ، وقد ظل هذا البحر على مدى العصور عاملا فعـــالا لربط البلاد المحيطة به بعضها ببعض ، فقد كان طريقا للملاحة بينها ، ووسيلة تسهـل التبادل التجـاري ، وحينما تقدمت الملاحة وبدأت المواصلات مع الهند والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى ازدادت أهمية هذا البحر فاصبح الممر التجاري لتموين العالم الأوربي بكل مايلزمه من المنتجات (١) ٠

فلا غرابة أنه بمجرد أن أصبحت الهند تاج الامبراطورية البريطانية صار الدفاع عنها يشغل بال واضعي الاستراتيجية في لندن . فمن أجل الدفاع عن الهند وجدت بريطانيا أنه لزاما عليها تواجد نقاط استراتيجية حيوية عبر كل طرق المواصلات . فاهتمت لذلك ببسط النفوذ على الطريق الممتد من بورسعيد على ساحل البحر الأبيض مرورا بقناة السويس الى البحر الأحمر (٢) .

وكان من الطبيعي ازاء ذلك أن تكالبت الدول الاستعمارية في محاولة بسط النفوذ على البحر الأحمر . فتارة يشتد الصراع بين بريطانيا وفرنسا خصوصا في أعقاب الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م فاقدمت بريطانيا لذلك على احتلال جزيرة بريم عام ١٧٩٩م لمنع أي اتصال من جانب الفرنسيين بالمحيط الهندي عن طريق البحر الأحمر . وتارة ينشب الصراع بين بريطانيا ومصر في عهد محمد علي حينما هالها تقدم قوات هذا الأخير في الجزيرة العربية والسودان ومساهمته في تجارة الهند فعمدت الى ابعاد أي ظل للمنافسة المصرية في مداخل البحر الأحمر ، ومن ثم اتجهت الى احتلال عدن عام ١٨٣٩ لتأكيد نفوذها بنوع خاص في هذا البحر . وتارة يندلع الصراع بين بريطانيا والدولة العثمانية خصوصا في سبعينات القرن التاسع عشر منذ بداية التدخل العثماني في جنوب اليمن . وان كان ذلك الصراع هو أقل الصراعات خطورة على بريطانيا في البحر الأحمر حيث كان العثمانيون يقومون لبريطانيا بحماية طرقهم الى الهند والشرق الأقصى . واطمأنت بريطانيا لذلك الا أنها من الواضح كانت مصممة على ألا تقوم دولة أوربية أخرى بما كانت تؤديه الدولة العثمانية لها .

وبقى الأمر على هذا النحو حتى انقلبت الموازين بتحالف الدولة العثمانية مع الألمان في الحرب العالمية الاولى فحيادها انهار تبعا لذلك . فباندلاع الحرب في عام ١٩١٤م تفجرت مشكلة رئيسية لبريطانيا في الشرق الأوسط لأنه بمجرد اعلان الترك الحرب باتت الطرق البريطانية مهددة في النقاط التي لا تعد ولا تحصى من سيناء الى الخليج العربي . فلكي تكسب بريطانيا الحرب في الشرق الأوسط توصلت لحد من التفاهم مع العرب لسببين ، أولهما أن صداقة العرب سوف تساعدها على ضمان تأمين طرق الامبراطورية حتى لو كانت الحكومة العثمانية في عداء معها . أما السبب الثاني فان العرب يسيطرون على الأماكن المقدسة الاسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة وأنهم بتحالفهم معها تستطيع بريطانيا ضمان الحج سنويا

بالنسبة لرعاياها من المسلمين ومن ثم يتيح لها مجابهة دعوة الخلافة العثمانية للجهاد أو الحرب المقدسة · فبفقدان الترك للحجاز سيعني أنهم ليس بوسعهم تهديد مصر وقناة السويس أو الطريق البحري الى الهند (٣) ·

حقا كانت هناك مدرستان على طرفي نقيض تكشف الفكر الاستعماري لبريطانيا ازاء الجزيرة العربية احداهما مكتب الهند الذي ينظر الى الجزيرة العربية كاقليم خاص به ، فدلهي وليست لندن تدير الأمور السياسية لعدن والأراضي الداخلية والخليج وتدافع عن الطريق الاستراتيجي للشرق · بينما على النقيض المدرسة الانجلومصرية التي تدير العمليات من القاهرة وتميل بالمرة ناحية الشريف حسين بن علي في الحجاز ، وكان هدفها تحويل البحر الأحمر الى بحيرة مصرية تحت النفوذ البريطاني وفي نفس الوقت مد الهيمنة المصرية البريطانية تجاه الشمال عبر المشرق · فعلى هذا النحو تكون الأماكن المقدسة للمسلمين مكة المكرمة ، المدينة المنورة ، والقدس الشريف تحت النفوذ البريطاني (٤) ·

بالتأكيد ان الموظفين الرسميين البريطانيين في مصر قد شاركوا وجهة نظر نظرائهم في مكتب الهند حول الاهتمام بمواصلات الامبراطورية ، ولكنهم وضعوا افضلية أكثر للمرور البحري الى المحيط الهندي عن الطريق البري الى الخليج (٥) ·

ففي ٩ فبراير ١٩١٥ وافقت الحكومة البريطانية على اقتراح مكتب القاهرة بتقسيم البحر الأحمر الى قسمين : القسم الشمالي تحت القيادة البريطانية السياسية في القاهرة · والقسم الجنوبي تحت الادارة السياسية للمقيم السياسي في عدن الذي يعمل بناء على تعليمات حكومة الهند (٦) وكان تقسيم الادميرالية قد حدد الدورية الشمالية من جدة الى السويس أما الدورية الجنوبية فكانت من عدن الى جدة ، لهذا كانت هذه الأخيرة بمثابة حلقة الاتصال بالنسبة للدوريتين (٧) · وذلك على عكس ما أراده المقيم السياسي في عدن في البداية حينما أرسل الى الضابط الأعلى للبحرية يقول بأنه يعتبر جدة في الدورية الجنوبية الواقعة تحت قيادته · الا أن المندوب السامي في القاهرة جعلها حلقة اتصال فلم يعترض على امتداد الدورية الجنوبية الى جدة طالما أن ذلك يعد ضروريا لأمور التجارة مع الهند · ولكنه في نفس الوقت حذر من تخطي العلاقات مع شريف مكة الذي يتعامل مع القاهرة مباشرة لأسباب وصفها بأنها قوية وأنه لذلك يعتبر أن العلاقات السياسية مع الحجاز وموانيه يجب أن تبقى تحت قيادته في القاهرة (٨) ·

هذا في الوقت الذي قرر فيه وزير بريطانيا لشئون الهند مد سلطة المقيم السياسي في عدن الى عسير بالاضافة الى بقية اليمن وأسفل الساحل الى عدن • وحرصا منه على ضمان تماسك السياسة بين الفريقين فانه طلب أن تكون المعلومات المتبادلة بين المندوب السامي في القاهرة والمقيم السياسي في عدن طليقة حول الاجراءات المعتزم اتخاذها في مجالات سيطرتهم (٩) مما يدل على اهتمام الحكومة البريطانية بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر فأكد الوزير البريطاني على أنه باستثناء أمان السفن الحربية البريطانيـــة فانه يرجع الاعتبارات السياسية على أي اعتبارات محلية أخرى في القسم الجنوبي في الوقت الراهن وأنه لا يتخذ أي قرار عن طريق ســفن الحرب البريطانية باستثناء اتفاق رأي الضباط السياسيين المصاحبين لها وكذلك ممن ســوف يتلقون التعليمات من المقيم السياسي في عدن وجدة (١٠) •

على أية حال لقد تكشفت لبريطانيا أطمـــاع ايطاليا في البحر الأحمر تدريجيا فأخذت الأولى ترقب الخطوات الايطالية التي استهدفت التسلل الى جنوبي وغربي الجزيرة العربية وساحل البحر الأحمر • فلم يغب عن بال بريطانيا الحرب التركية الايطالية عام ١٩١٢ حينما قصف الايطاليون ساحل اليمن متخذين من مصوع قاعدة بحرية لهم فأثر هذا القصـــف على الرعايا البريطانيين الذين كانت تتركز في أيديهم نسبة كبيرة من تجارة البحر الأحمر تأثيرا خطيرا • أكثر من ذلك أن الايطاليين ظاهروا الادريسي بالمال والعتاد فأثر ذلك على اليمن أكثر من قصفهم لساحله فتمكن الادريسي من الاستيلاء على جزر فراسان وأصبح في موقف التهـــديد المبـــاشر للأتراك في داخل اليمن (١١) •

وبدأت ايطاليا تخطو خطوات سياسية متأنية لتسبر غور الســـياسة البريطانية حينما بدأت الحرب الكبرى الأولى فنلاحظ اعلان ايطاليا انضمامها الى جوهر الاعلان الذي أعلنته كل من فرنسا وبريطانيا وروسيا بمقتضى المادة ١٢ من معاهدة لندن الصادرة في ٢٦ ابريل ١٩١٥ التي تقـــول بأن الجزيرة العربية وكل الأماكن المقدسة فيها سوف تترك تحت ســـلطة قوة اسلامية مستقلة • بينما ترجمت المادة العاشرة من اتفاق سايكس بيكو الصادر في ١٦ مايو ١٩١٦ سياسة بريطانيا في تضييق الخناق على ايطاليا في الجزيرة العربية والبحر الأحمر فتقول هذه المادة ان حكومتي بريطانيا وفرنسا وافقتا على أنهما لن يحرزا لأنفسهما ، ولن يصادقا على قوة ثالثة ، كي تكتسب ممتلكات اقليمية في شبه الجزيرة العربية • وانهما لن يقبلا لقوة ثالثة أن

تؤسس قاعدة بحرية سواء على الساحل الشرقي أو في جزر البحر الأحمر .
ثم يدعى الاتفاق بعد ذلك أن هذا لا يتعارض مع تسوية حدود عدن نظرا لضرورتها بالنظر للعدوان التركي الراهن .

وفي يناير ١٩١٦ طلب السفير الايطالي تزويده بصورة من الأوامر البريطانية التي أعلنت ضم جزر
لممتلكات حضرة صاحب الجلالة البريطانية فرجحت حكومة هذه الأخيرة بأن من المحتمل أن الحكومة الايطالية تخطط لقرار مماثل بشأن بعض الجزر في البحر الأحمر . فانتهز سير A. Nicolson (لورد Carnock فيما بعد) الفرصة في محادثة مع السفير الايطالي ليتقصى بطريقـــة غير رسمية ، فيما اذا كانت حكومته تعتزم اتخاذ أي قرار له نفس الطبيعة والمح له بأن مثل ذلك الاحتمال يعني أن القضية لا يمكن أن تبقى غير هامة لأنها تعتبر قضية واحدة تهم الحكومة البريطانية والرأي العام في بريطانيا . غير أن السفير الآيطالي تنصل من معرفته شيئا عن هذه المسألة . فصدرت الأوامر الى السفير البريطاني في روما بعد ذلك أن ينتهز أول بادرة لينقل تلميحا بطريقة غير رسمية الى وزير المستعمرات الايطالية يشير فيه الى أن اقدام الحكومة الايطالية على اتخاذ مثل ذلك القرار سوف ينجم عنه استياء كبير في بريطانيا .

الا أنه في ديسمبر عام ١٩١٦ اعتقد الايطاليون أن بوسعهم توجيه ضربة موفقة غير متوقعة في البحر الأحمر في جزر فراسان على نحو خاص .
ولكي تفوت بريطانيا عليهم الفرصة قررت ارسال سفينة ترفع علما بريطانيا على جزر فراسان ، مع أن هذه الخطوة جاءت متـــأخرة قليلا لأن الحكومة البريطانية كانت قد اتخذت قرارا من قبل في يونيو ١٩١٥ لتنفيـــذ ذلك فاضطرتها الظروف مع ايطاليا الى تنفيذ هذا القرار في ١٩ ديسمبر ١٩١٦ حيث قامت بالفعل برفع العلم البريطاني بالنيابة عن الادريسي وصاحب ذلك في نفس الوقت انزال قوة حراسة صغيرة في الجزيرة (١٢) .

والجدير بالذكر أن السلطات البريطانية لما اتخذت في البداية ذلك القرار اتفق على أن القوات المطلوبة في حالة الشروع في احتلال هذه الجزر سوف تسحب من تلك القوات الموجودة في مصر (١٣) .

على أية حال لم يدم الوضع الذي فرضته بريطانيا على فراسان طويلا

فلقد وقعت الاولى معاهدة مكملة مع الادريسي في ٢٢ يناير ١٩١٧ اعترفت فيها له بأن جزر فراسان قد تم الاستيلاء عليها من الترك وأنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من ممتلكات الادريسي الذي ضمنت له استقلاله · ثم تعهدت أيضا بحماية هذه الجزر وساحل الادريسي من أي عمل عدواني بدون التدخل في شئونه أو استقلاله · أما الادريسي فلقد تعهد من جانبه بعدم التخلي او رهن أو تسليم هذه الجزر ولا الأماكن الواقعة على ساحله بما في ذلك المصالح المتعلقة بها لأية دولة اجنبية ، كما وافق على استدعاء الحكومة البريطانية لمساعدته اذا ما تعرضت هذه الأماكن أو المصالح فيهـا للهجـوم أو التهديد من الخارج · وأخيرا تعهد الادريسي بالاحتفاظ بقوة عسكرية في الجزر كرمز لاستقلاله وللحفاظ على امتلاكه للأرض وبمقتضى ذلك أصـبح يحق له رفع علمه على الجزر وبقية أقاليمه · وتبعا لذلك أنزل العـــلم البريطاني وسحبت قوة الحراسة التي أرسلت من قبل · وبالجملة ارباك ايطاليا تماما ، فحضر عضو السفارة الايطالية يتساءل في ٢٩ يناير ١٩١٧ عما اذا كان العلم البريطاني قد أنزل حقيقة من جزر فراسان نظرا لورود تقرير الى حكومته يفيد ذلك وان الأخبار التي لديه مشوشة لحد ما · فأحيط عضو السفارة علما بأنه في يونيو ١٩١٥ صدرت الأوامر برفع العلم على هذه الجزر ولكن بسبب بعض سوء الفهم لم ينفذ القرار الا حديثا فرفع العلم البريطاني وانزلت قوة حراسة صغيرة وأن ذلك تم بالنيـــابة عن الادريسي · ثم تعهدت حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية بســيادة سلطته على الجزر ، وتبعا لذلك فقد تم تسليم الجزر اليه وأنزل العــلم البريطاني وسحبت القوة · وحرصت بريطانيا على عدم الافصاح لايطاليا بتفاصيل المعاهدة · ففي الحق لم تكن بريطانيا تنظر الى جزر فراسان على أنها مجرد نقطة لحماية اتصالاتها مع الشرق فحسب وانما حرصت على أن يكون هذا التبرير مبهما حتى لا تكشف عن المزايا الواضحة التي أرادت جنيها باستغلال الزيت والمصادر الاخرى في الجزر (١٤) ·

كان من الطبيعي ألا يقتصر اهتمام بريطانيا على جزر فراسان فنجد أن المقيم السياسي في عدن يولي أهمية أيضا لجزر كماران في البحر الأحمر التي تبعد نحو ١٥ ميلا جنوبي اللحية وبضعة أميال شمالي الحديدة فهي تتمتع بمواقع استراتيجية خطيرة بالنسبة لمداخل البحر الأحمر ولسواحل الجزيرة العربية بل والساحل الشرقي الافريقي · فطلب المقيم الســياسي في عدن التصديق على احتلال هذه الجزر لاتخاذها قاعدة حيوية للاحتفاظ بمراقبة الموانيء التركية المجاورة لهذه الجزر (١٥) كما أنه يرى من ناحية أخرى

أنها يمكن أن توقف العبور الذي يحدث خلسة من الجزيرة العربية الى الساحل الافريقي (١٦) ٠ وذلك بعد أن ثبت لديه أن حوالات كبيرة من المال والبرقيات والبريد قد وصلت الى مركز قيادة اليمن عبر جدة وأنها نقلت عن طريق مراكب صغيرة في منتصف فبراير ١٩١٥ ٠ وأنه لذلك أصبح من الضروري ايقاف مثل هذه الطريقة من الاتصالات ، واقترح ارسال قوة من ٢٠٠ في الحال على الباخرة « امبراطورة روسيا » في صحبة الباخرة « مينتو » والباخرة « امبراطورة آسيا » لاحتلال جزر كماران ، التي يمكن استخدامها بعد ذلك كقاعدة لعمليات بحرية مستقبلا (١٧) ٠

وشاطر القائد العام للبحرية في بورسعيد المقيم السياسي في عدن رأيه حيث قال أنه اذا أمعن التفكير في عمليات فيما جاور جزر كماران فان هذه الجزيرة سوف تكون مفيدة للغاية كقاعدة بحرية لمراكب صغيرة ودهاوي مسلحة وأنه يمكن حراستها بخمسين شخصا (١٨) ٠

غير أن نائب الملك في الادارة الخارجية والسياسية بالهند رأى أنه من غير المرغوب فيه في الوقت الراهن اتخاذ أية عمليات عسكرية ضد جزر كماران للأسباب التالية :

اولا : على الأرجح فان العرب المحليين لن يذعنوا لاحتلال الجزر ٠

ثانيا : ان ذلك ربما يلقي الرعب في قلب الادريسي ويثير كراهية اتباعه ٠

ثالثا : ثمة احتمال لاساءة فهم القرار على أنه موجه مباشرة ضد الأماكن المقدسة وكتدخل في حركة الحج ٠

رابعا : ثمة اعتراضات في ارسال جزء من الاسطول من عدن خصوصا لمثل هذا البعد ٠ وأنه طبقا لهذه الاعتبارات أحيط المقيم السياسي في عدن علما بعدم التصديق على اقتراحه (١٩) ٠

ولكن لم يهدأ للمقيم السياسي في عدن بال مؤكدا على وجود تحركات في تركيا ضد محمية عدن ، وأن مائتي رجل فقط بوسعهم احتلال الجزر واستبقائهم فيها ثم قال انه على قناعة بأن الاحتلال من غير المحتمل تفسيره على أنه تهديد لحركة الحج (٢٠) فرد سكرتير حكومة الهند في الادارة الخارجية والسياسية بعدم التسليم بهذه المقترحات مرة أخرى للأسباب التالية :

أولا : انه يرى أن التحركات التركية ضد محمية عدن فاترة وتفتقد العزم ، وكذلك بسبب أنه من غير المرغوب فيه أكثر القيام بأي عمليات عسكرية ثانوية يمكن أن تحث العرب على الانضمام للترك بهمة ٠

ثانيا : من المحتمل اساءة تفسير قرارهم ضد كماران في الهند على أنه تدخل من بريطانيا لحركة الحج بوصفه عملا موجها مباشرة للأماكن المقدسة ٠

ثالثا : ثمة اعتراضات لارسال جزء من القوات من عدن خصوصا لمثل هذه المسافة ومن رأيه أن بورسُودان أفضل من كماران لكونها أقرب وغير مثيرة للاعتراض اذا أقيمت فيها قاعدة بحرية فانها تصبح ضرورية لمراقبة جدة (٢١) ٠

مهما يكن من أمر الاعتراضات فلقد حسم الوزير البريطاني لشئون الهند في لندن الأمر برمته في برقية الى نائب الملك في الادارة الخارجية والسياسية حيث أوضح أنه يميل أكثر لمعظم آراء المقيم السياسي في عدن وان كان تحفظ على مسألة ترك قوة حراسة صغيرة في الجزيرة ، فأعلن موافقة حكومة حضرة صاحب الجلالة البريطانية على احتلال جزر كماران من حيث المبدأ وأنه يترك له فرصة اختيار اللحظة المناسبة (٢٢) ٠

لقد كانت السلطات البريطانية في البحر الأحمر وعدن يقظة للغاية ومتحفزة للوثوب على أية جزر استراتيجية في ذلك البحر ، وفي نفس الوقت فانها أخذت ترقب طموحات ايطاليا التي أصبحت تتركز أساسا في اليمن ٠ حقيقة كانت اليمن تفتقد الوحدة شأنها في ذلك شأن الجزيرة العربية آنذاك قبل أن يوحد معظم أجزائها الملك عبد العزيز آل سعود ويلم ماكان مبعثرا منها مما كان نهبا لأطماع الدول الاستعمارية ٠

على العموم أخذت بريطانيا تتدارس الظروف السياسية والتوقعات المحتملة في المنطقة لاسيما وأن طرد الترك من الجزيرة العربية بات أمرا واردا وبالتالي خشيت من احتمال وقوع الجزيرة تحت سيادة غير عربية نتيجة لهذا الفراغ ٠ ثم ان الادريسي يطالب بمد ممتلكاته حتى مخا ، بينما امام صنعاء سيطالب ببقية الجزء الأكبر فأصبح لذلك الصراع السياسي بين الادريسي والامام محتملا ٠ الا أنه لم يغب عن بال بريطانيا تأثير الحرب الايطالية ــ التركية التي جعلت ايطاليا أكثر الدول المسيحية غير محبوبة في

العالم الاسلامي . كما أن هذا الشعور غير الودي تزيده الأساليب الايطالية في ادارة المستعمرات سوءا . كما أن امام صنعاء لديه سبب خاص لمقته الحصار الايطالي لساحله ومساعده الادريسي بالأسلحة والأموال خلال الحرب . فاذا الادريسي بمقتضى صلته السابقة يرحب بالايطاليين فمن المؤكد أن الامام سيعارضهم . وهذا سوف يعني أعمالا عدوانية على حدود الوجود البريطاني في المنطقة ينتهي في أحسن الأحوال الى سلام محفوف بالمخاطر ذلك أن الايطاليين سيكونون بمنأى عن الانهاك لكونهم يباشرون عمليات حاسمة في التلال الأمر الذي قد يجر بريطانيا لاحتمال وقوع أعمال عدوانية على حدود محميتها . إما الاحتمال الآخر اذا ما قبل الامام التسلط الايطالي فمن المتوقع أن الثمن الذي سيطلبه هو التأييد أو على الأقل الصمت حول مطالبه التي لا تتعارض مع ايطاليا في محمية عدن وفي حضرموت . فخشيت بريطانيا من أنه في حدوث مثل هذا الاحتمال أن يكون من الصعوبة بمكان الوقوف في وجه مكائد الامام والاكتفاء بمناشدة روما . وبالتالي فان مركز بريطانيا في عدن سوف يكون في وضع مختلف تماما . فان استراتيجيتها العسكرية كانت تقوم هناك على الاستفادة لحد كبير بمناعة حصن عدن في مواجهة القبائل فان بوسعها السيطرة عليها بقوة صغيرة للغاية والتحكم في المحمية بوسائل الهيبة والعون المالي . أما اذا حدث ومال امام صنعاء ناحية ايطاليا فانه سيلقى على الحكومة البريطانية تبعا لذلك أعباء جديدة لأنه لن يجدي الاحتفاظ بقوات ضئيلة في الحصن وممارسة تسلط واهن على القبائل انما سيتطلب السيطرة على المحمية بالقوة .

فمن خلال كل هذه الظلال السياسية والتوقعات رأت بريطانيا أن ظهور ايطاليا في اليمن سوف ينجم عنه في غربي وجنوبي الجزيرة العربية غليان لن يكون محصورا في هذا البلد بل انها خشيت أن تقاسي بدورها منه أكثر لأن معنى تركها ايطاليا على هذا النحو فان الاستياء سيعم أيضا الشريف حسين والعرب . لأنها بذلك نقضت عهدها بانشاء دولة عربية مستقلة ، ومن المحتمل أن ينسحب هذا الاستياء على العالم الاسلامي بما في ذلك الهند لأنهم سيعتبرون بريطانيا تخدع العرب بعد أن خدعت الترك بتعيينها الحدود بينها وبينهم في اتفاقية ١٩١٤ . فكان لابد عليها أن تقوي مركز الشريف في الحجاز بدرجة كافية مع وضع الدول المسيحية على مسافة كافية لأن أخشى ما تخشاه اذا احتلت ايطاليا اليمن ربما يجعلها سيدة على الحجاز . الأمر الذي يؤثر على سمعتها كدولة صديقة للاسلام ، وكذلك على مركزها في عدن (٢٣) .

على أية حال في محاولة من بريطانيا لفرملة الأطماع الايطاليا تم تبادل مذكرات بين الجـــانبين في ١٨ أغســـطس ١٩١٧ المعروفة باتفـــاق S T. Jean de Maurienne تعهدت ايطاليا فيه لبريطانيا بشروط مماثلة للمادة العاشرة من اتفاق سايكس بيكو الذي أشرنا اليه من قبـــل مع فرنسا • الا أنه نظرا لأن الاتفاق ارتبط بمصادقة روســيا ، وهي لم توافق عليه ، فانه أصبح باطلا تلقائيا ، وبالفعل ربما ينظر اليه على أنه وئد في حينه • ولذلك في ٢ ديسمبر ١٩١٨ قام الســـفير الايطالي بتسليم مذكرة حول تطلعات ايطاليا لتسوية ممتلكاتها الاستعمارية في افريقيـــا لتقديمها الى مؤتمر السلام المقرر عقده في باريس بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى • جاء في هذه المذكرة أن ايطاليا اعتبرت نفسها واحدة من القوى المسلمة التي تشكل حدا على البحر الأحمر وأنه لا يمكن أن تظل غير مبالية لمسالة توازن القوى في البحر الأحمر وللظروف السياسية في الجزيرة العربية التي تواجه اريتريا • لذلك فانها تطلب :

أولا : الا تحتل أية قوة الجزيرة العربية مؤكدة على وجوب جعـــل التجارة والتغلغل التجاري حرا طليقا •

ثانيا : بقاء الأماكن المقدسة للاسلام في أيدي المسلمين •

ثالثا : يجب ان تحتل ايطاليا جزر فراسان حتى ساحل عسير •

لقد تحققت بذلك مخاوف بريطانيا وكان لابد أن تواجه بحزم هذه المطالب خصوصا بعد أن تقدمت ايطاليا بمذكرتها هذه لدى انعقاد مؤتمر السلام • ففي ٢١ يناير ١٩١٩ رد الوفد البريطاني على هذه المذكرة بأنه ليس هناك مسألة مكاسب لايطاليا في جزر فراسان نظرا للاعتبارات الآتية :

١ ـ ان مثل هذه الخطوة ستكون مضادة لكل من مصـــالح بريطانيا السياسية والاستراتيجية •

٢ ـ وجود الزيت في الجزيرة •

٣ ـ ان الجزر كانت تحت الوصـــاية وأنه اعترف باســـتقلال الادريسي •

الا أن ايطاليا لم تتوقف عن رفع مذكرتها مرة أخرى عند اجتماع اللجنة الاستعمارية المنعقدة في وزارة المستعمرات الفرنسية في ١٥ مـايو ١٩١٩ وذلك للنظر في تنفيذ المادة ١٣ من معاهدة لندن ٢٦ ابريل ١٩١٥ التي تناولت تعويضات ايطاليا في افريقيـــا ٠ فأبدى مستر دي مارتينـــو

ملاحظة بأن المطلب الايطالي يشمل أيضا جزر فراسان في البحر الأحمر مشيرا الى أنه منذ سنوات عديدة سابقة أملت المانيا في الحصول على منزلة ضمن المجموعة (الاوربية) ولكن الفكرة استبعدت تبعا للاعتراضات التي تقدمت بها حكومتا بريطانيا وايطاليا في وقت واحد ٠ وبعد هزيمة المانيا شعرت ايطاليا بأنها مؤهلة بحق المطالبة من جديد من هذه المجموعة ٠ غير أن اللورد ملنر أعلن أن اللجنة غير مخولة لمناقشة الموضوع وأنه يجب عدم اثارة هذه المسألة من جديد خصوصا بعد ما أعلنه في محضر مؤتمر السلام عن أطماع ايطاليا « ٠٠ لقد لاحظنا عليهم بأن لديهم طموحا غير محدد بأن يكون لهم ضلع في الجزيرة العربية المبعثرة ٠ انني أود أن أخبرهم الآن بروح ودية ولكن بطريقة واضحة بأننا لا يمكن أن نسمح لهم بالتدخل في هذا الجزء وأنه بينما نحن ليس لدينا مطامع اقليمية في الجزيرة العربية فاننا عزمنا على الاحتفاظ بعلاقات خارجية لهذا الاقليم تحت ادارتنا الكلية ٠ وانني أعتقد بأننا مؤهلين للقول لهم بأنه في أثناء المناقشة الراهنة حول التعويضات العادلة فانكم أثرتم مسألة الجزيرة العربية واننا اعترضنا في الحال وأنكم أسقطتم الموضوع ٠ ولكننا ننتظر منكم التاكيد بأنكم تخليتم نهائيا عنه وأنكم تعترفون بالأسباب التي تضطرنا لابعاد الجزيرة العربية عن أي نفوذ سياسي اوربي باستثنائنا نحن ٠ اعتقادي بأن اشارة الايطاليين للجزيرة العربية انما هو مجرد اختبار فقط وأنهم بالتاكيد لن يأخذوا المسألة الى أبعد من ذلك ٠ وأنهم اذا تفهموا بوضوح أننا لن نتسامح في التدخل في الجزيرة العربيـة وأنهم لو حاولوا ذلك فانهم سوف يخسرون شعورنا الودي نحو سعيهم الاقليمي وأهدافهم في الجزء الشرقي من شمال افريقيا وعلى الأخص الحبشة (٢٤) ٠

لقد كان ذلك تحذيرا واضحا من بريطانيا الى ايطاليا بعدم التدخل لا في الجزيرة العربية ولا البحر الأحمر بطبيعة الحال مع اعطـــاء الضوء الأخضر لها في الحبشة ٠

وبالفعل آثرت ايطاليا العافية وظلت فترة لا تثير مسالة أطماعها في البحر الأحمر اللهم الا في عام ١٩٢٦ حين ابرمت مع حكومة الامام يحيى

معاهدة في هذه السنة فكانت مقدمة لمحاولة الوثوب مرة أخرى على البحر الأحمر بتسترهم من وراء الامام الذي أعد صيغة بمطلب عام لا يستند على أي أساس قوي بمطالبته بكل الاقليم الجنوبي للجزيرة بما في ذلك محمية عدن ٠ وبدا أنه على وشك الهجوم على جزر فراسان ٠ هذا في الوقت الذي بذل فيه للايطاليين وعدا بحقوق امتيازية على الجزر الأمر الذي يساوي عمليا احتلالا ايطاليا لها ٠ وتلك أحداث أخرى اختلفت ظروفها والمسرح السياسي لها بهيمنة الملك عبد العزيز على الجزر مما نرجو أن نتناوله في دراسة أخرى بمشيئة الله ٠



١ ـ جاد طه : سياسة بريطانيا في جنو باليمن ص ٢١٩

2. Clayton Gilbert : An Arabian Diary pp. 3-4.

3. Ibid : pp. 7 - 9

4. Ibid : pp. 13 - 14

5. Ibid : p. 14

6. F. O. 371/2478 : From His Majesty's secretary of state for India, London to His Excellency 9 feb 1915.

7. F. O. 371/2478 : From the political Resident, Aden to the Secretary to the Government of India Delhi, 24 Feb 1915.

8. F. O. 371/2478 : From the British High Commiissioner, Cairo to the Secretary to the Gorenment of India 28 Feb 1915.

9. F. O. 371/2478 : From His Majerty's Secretary of state for India, London to His Excellency the Viceroy, Delhi 9 Feb 1915.

10. F. O. 371/2478 Ibid. 9 feb 1915.

١١ ـ جاد طه : سياسة بريطانيا في جنوب اليمن ص ٢٣٥ ـ ٢٣٦

12. F. O. 371/11448 : E 4679/2660/91 Memorandum from Mr. Field. 11 July 1926.

13. F. O. 371/2478 : From His Excellency, The Viceroy to His Majesty's Secretary of state for India 16 Feb 1915.

14. F. O. 371/114478 : E 4679/2660/19 Memorandum from Mr. Field. 17 July 1926.

15. F.O. 371/2478 : Tel P.A. 36 from the political resident Aden. to His Majesty's secretary of state for India 7 Mars 1915.

16. F. O. 371/2478 : Tel. No. 33 from the political Resident Aden to the secretary to the Government of India.

17. F. O. 371/2478 : from the political Resident Aden to the secretary to the Government of India. 17 Feb 1915.

18. F. O. 371/2478 : from His Exellency the Naval Commander - in - chief, port said to the secretary to the Government of India .. 21 Feb 1915.

19. F. O. 371/2478 : from His Excellence the Viceroy (Foreign and political Department to His Majesty's secretary of state for India 3 Mars 1915.

20. F. O. 371/2478 From His Majesty's secretary of state for India, London to His Excellency the Viceroy.

12. F. O. 371/2478 : Tel. D. S. 206 from the secretary to the Government of India to the political Resident, Aden 11 Mar 1915.

22. F. O. 371/2478 : from His Majesty's secretary of state for India, London to His Excellency the Viceroy 10 Mar 1915.

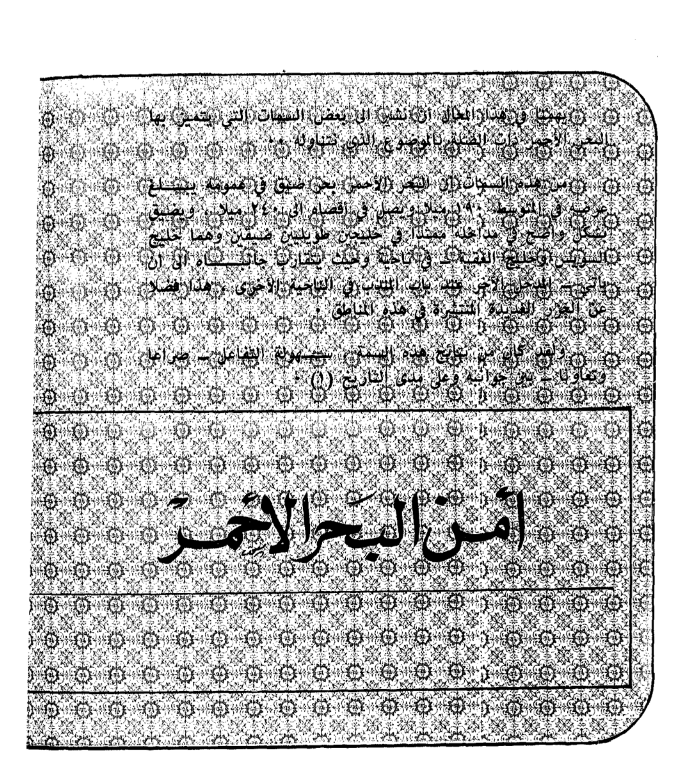
23. India Office- : Memorndum about Britsh Interests in Arabia B 247. 20 January 1917.

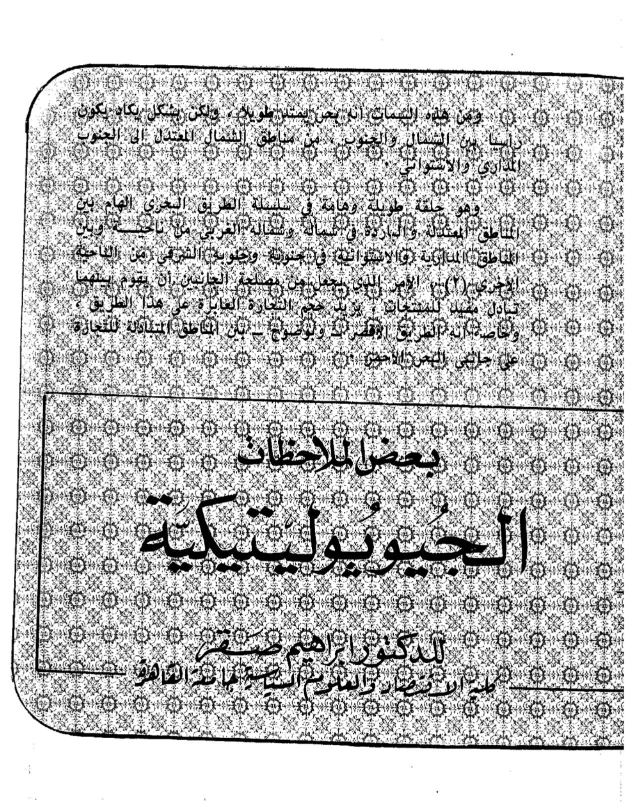
24. F. O. 371/11448 Memorandum from Mr. Field 17 July 1926.

تدارك

أعتذر الى القارىء عن تفاوت بعض الأرقام في الصفحات لأسباب فنية من جهاز التحرير ٠

رئيس التحرير


يهمنا في هذا المجال أن نشير الى بعض السمات التي يتميز بها البحر الأحمر ذات الصلة بالموضوع الذي نتناوله ..
من هذه السمات أن البحر الأحمر بحر ضيق في عمومه يبلغ عرضه في المتوسط ١٩٠ ميلا ويصل في أقصاه الى ٢٤٠ ميلا ، ويضيق بشكل واضح في مداخله ممتدا في خليجين طويلين ضيقين وهما خليج السويس وخليج العقبة ـ في ناحية وحيث يتقارب جانباه الى ان يأتي ـ المدخل الآخر عند باب المندب في الناحية الأخرى ، هذا فضلا عن الجزر العديدة المنتشرة في هذه المناطق .
ولقد كان من نتائج هذه السمة سهولة التفاعل ـ صراعا وتعاونا ـ بين جوانبه وعلى مدى التاريخ (١) .
أمن البحر الأحمر



ومن هذه السمات أنه بحر يمتد طويلاً ، ولكن بشكل يكاد يكون رأسيا بين الشمال والجنوب ، من مناطق الشمال المعتدل الى الجنوب المداري والاستوائي .

وهو حلقة طويلة وهامة في سلسلة الطريق البحري الهام بين المناطق المعتدلة والباردة في شماله وشماله الغربي من ناحيــة وبين المناطق المدارية والاستوائية في جنوبه وجنوبه الشرقي من الناحية الأخرى (٢) ، الأمر الذي يجعل من مصلحة الجانبين أن يقوم بينهما تبادل مفيد للمنتجات ، يزيد حجم التجارة العابرة على هذا الطريق ، وخاصة أنه الطريق الأقصر ـ وبوضوح ـ بين المناطق المتبادلة للتجارة على جانبي البحر الأحمر .

بعض الملاحظات الجيوبوليتيكية

للدكتور ابراهيم صقر
كلية الاقتصاد والعلوم السياسية جامعة القاهرة

واذا أخذنا في الاعتبار أن انشاء قناة السويس قد جعل من هـــذا الطريق طريقا مستمرا لا تتخلله أية حلقة أرضية تفرض التفريغ واعادة الشحن ، هذا فضلا عن أن النقل البحري هو ـ وبشكل واضح ـ أرخص أنواع النقل ٠٠ فان هذا الطريق البحري ، المستـمر الأقصر من الطرق المنافسة هو ٠٠ الطريق المتفوق ـ وبشكل بارز ـ في نقل التجارة الضخمة المشار اليها فيما سبق ٠٠ ومن ثم يكون البحر الأحمر ـ وهو حلقة طويلة على هذا الطريق ـ ذا أهمية كبيرة لهذه التجارة العابرة الضخمة ٠

وزاد من هذه الأهمية أن الطريق يربط ما بين البلاد المتقدمة عموما من ناحية والبلاد المتخلفة عموما والتي استعمرتها بلاد المجموعة الأولى ـ من ناحية أخرى ٠٠ الأمر الذي جعله طريقا هاما لخدمة التجـارة بين هاتين المجموعتين من البلاد ، وهي تجارة تقوم على اختلاف مراحل التطور ، وعلى أساس من الاستغلال الاستعماري غير المتكافيء ٠ وهي على أي الأحـوال ذات أهمية خاصة بالنسبة للبلاد المتبادلة لها على جانبي البحر الأحمر ٠

وفي هذا المجال فقد ازدادت أهمية طريق السـويس الاقتصـادية والاستراتيجية وبشكل بارز ٠٠ ومن ثم ازدادت أهمية البحر الأحمر كمعبر للتجارة ، مع تزايد أهمية البترول ، وبروز أهمية الخليج العربي كمنتج ضخم وكمصدر أول في العـالم له ومع أهميته الحيـوية لأوربا الغربية وأمريكا ٠٠ على الجانب الآخر من الطريق ٠

ومن هذه السمات أيضا أن البلاد العربية تكاد تغطي كل شواطيء البحر الأحمر ، الا أن الوجود الاسرائيلي الصغير على خليج العقبة وأهمية البحر الأحمر كمنفذ لتجارة اسرائيل مع المناطق الى جنوبه وشرقه ، يجعل البحر الأحمر مجالا من مجالات الصراع بين اسرائيل والبلاد العربية ٠ واذا كانت محاولات الوصول الى تسوية الدائرة منذ مدة الى الآن قد تخفف اذا انتهت الى تسوية ـ من الصراع بين اسرائيل وبعض البلاد العربية فان من المحتمل أن الصراع بين اسرائيل وبعض البلاد العربية الأخرى سوف يستمر وسوف يستمر لأمد غير قصير ٠٠ وسوف يعكس ذلك نفسه بالضرورة في البحر الأحمر ٠

ويمكننا أن نضيف الى هذه الصورة بعض الظواهر الهامة في عالمنا الراهن ٠٠ وهي ظواهر لها انعكاساتها على موضوع هذه الندوة ، أي على البحر الأحمر ٠٠ وعلى الصراع فيه ٠٠ وعلى مشاكل أمنه ٠

ومن هذه الظواهر ، ظاهرة تزايد أهميـــة الوطن العربي والشرق الأوسط ككل ·· بمنافذه المتعددة ·· المتنوعة ·· وفي اتجاهات شـتى ، ببتروله ·· الأضخم انتاجا ·· واحتياطيا ·· وتصديرا ·· وأرصدة ·· وقوة مالية لها آثارها في العالم ·· متقدمة ومتخلفة ، بقدرته الشرائية الضخمة ، بتلاصقه مع جنوبي الاتحاد السوفيتي ·· أحد العمـــلاقين ، بوجوده ·· كحلقة وصل متوسطة في قلب الثالوث القاري بكل ما له من أهميات خطيرة ، وعلى المداخل من الشمال والشرق للقارة الافريقية ··

وهذا ينقلنا الى الظاهرة الثانية التي تهمنا وهي تزايد أهمية القارة الافريقية في المرحلة الراهنة ·· بثرواتها الضخمة ·· والمتنـــوعة ·· والمتزايدة بما يكتشف من جديد فيها ، اليوم تلو اليوم ، بسوقها الكبير والمتزايد سواء لحاجات الاستهلاك ، أو الانتاج والنمـــو ·· أو كمجال للاستثمار ·· كبير ومتزايد بأهميتها الاستراتيجية ·· كمصدر لكثير من المواد ذات الأهمية الاستراتيجية ··

وكعمق لأوربا الغربية والشرق الأوسط ·· يقرب انبعاج فيه (عند داكار) من نصف الكرة الغربي ، كما لا تقرب أية نقطة أخرى في العالم القديم ·· ويبتعد طرف فيه (في نهايتها الجنوبية) عن الكتـــلة الشرقية كما لا تبتعد أية نقطة أخرى في الثالوث القاري ·· وكشاطىء تمر حواليه الطرق البحرية الهـــامة ·· طريق الســـويس وطريق رأس الرجاء الصالح ·· الخ ·

ويقود ماسبق الى الحديث عن ظاهرة ثالثة في عالمنا الراهن ·· وهي ظاهرة تزايد الصراع الدولي في ، وبين وعلى هذه المناطق ، وفي وبين وعلى بلاد العالم الثالث عمـــوما ويظهر ذلك بشكل أبرز في نصـــف الكرة الشرقي ··

ذلك أن ما تحقق من توازن الرعب النووي أو توازن الردع النووي أدى ـ فيما أدى اليه ـ الى درجـــة أكبر من التركيز ـ في الصراع بين الكتلتين الغربية والشرقية وبالأساس بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الاتحاد السوفيتي ـ على بلاد العالم الثالث ، التي تعاني الآن من درجة متزايدة من الاستقطاب ·

وتتفاعل هذه الدرجة المتزايدة من الاستقطاب مع درجة متزايدة من

الصراع الاجتماعي في بلاد العالم الثالث ، بين القوى التي تنشد التغيير لمصلحة الطبقات الأفقر التي تشكل الغالبية الساحقة في هذه البلاد ، بين القوى التي تحاول مقاومة التغيير أو تعطيله ·

وتتداخل مستويات الصراع أو دوائره المحلية والاقليمية والعالمية ، وتتساند فيه الجوانب ذات المصالح المشتركة أو المتقاربة ، في مواجهة الجوانب المضادة التي تتساند هي الاخرى ويدعم بعضها بعضاً ·

وتتزايد حدة هذا الصراع ·· وتبرز ضراوته ·· وتستعمل فيه كل الوسائل المتاحة · وتزداد هذه الحدة بشكل واضح في المناطق ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية ·· ومن هذه المناطق ·· الوطن العربي والشرق الأوسط على وجه العموم ·· وكذلك القارة الافريقية ، وان كنا نخص بالذكر منها ـ وخاصة هنا ـ أي فيما يتصل بموضوع الندوة ـ منطقة القرن الافريقي :

من كل ما سبق يمكننا أن نقرر ، أن للمنافذ المختلفة ، وخاصة البحرية منها ـ في عالم اليوم الذي يموج بالصراع دورا كبيرا ·· وأهمية متزايدة · وان للبحر الأحمر أهميته الخاصة بين هذه المنافذ ·· وخاصة مع أهمية المناطق المحيطة به ··

وقد كثر الحديث في الماضي القريب ، وخاصة في الفترة الأخيرة عن البحر الأحمر ، وعن أمنه ، واهتمت بذلك الحكومات ، وتحركت الهيئات المختلفة للبحث والنقاش في الموضوع ويكفي أن نشير الى اللقاءات الحكومية المتعددة ثنائية ومتعددة الأطراف ، في العامين الماضيين بخاصة ، والى البيانات الصادرة عن هذه اللقاءات والتصريحات الى هذه الندوة التي فكر فيها من مدة ، وانتهت الى الشكل الذي تتخذه اليوم ، والى المشروع البحثي المشترك الذي يقوم به مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية التابع لمؤسسة الأهرام ، بالتعاون مع مجموعات بحث من ايطاليا والمانيا الغربية (٣) ·

وفي منطقتنا ·· يتحدث البعض عن تحويل البحر الأحمر الى «بحيرة» عربية ، وعن السيطرة على «مداخله» أو «مخارجه» ، واغلاق العرب له على من يريدون ، أو دون من يريدون ، وعن أبعاد البحر الأحمر عن « نفوذ القوى الكبرى » ، وعن الصراع الدولي ·· الخ

وفي مناقشة هذه الأهداف ·· نبدأ بابراز بعض النقـــاط المتصلة بالصراع الدولي الواسع الذي يعتبر مايجري في البحر الأحمر جزءا منه · لا ينفصم عنه ·· بل أن بينهما علاقة عضوية ·

وبادىء ذي بدء ، فان مجرد السيطرة على الشواطىء ، أو على نقط ذات أهمية استراتيجية عليها ، أو على جزر ذات موقع هام في مرحـــــلة معينة ·· كل ذلك ، رغم أهميته ، فانه لا يضمن وحده ــ السيطرة البحرية في منطقة ما ··

ذلك أن العنصر الأهم في السيطرة البحرية ، هو القـــــوة البحرية ذاتها ·· هذه القوة ــ اذا حققت تفوقا على غيرها ــ هي التي كانت تحقق السيادة في البحر ·· وتعوق غيرها أو تمنعـــــه ·· وهي التي كانت تثبت مراكزها في النقط ذات الأهمية الاستراتيجية ·· وتمنع غيرها من ذلك ·· وكانت حتى تخرجه أحيانا منها أن حارس هـــــذه « البوابات » والنقط الاستراتيجية على العمـــــوم هو الأساس · أن « البـــــوابات » والنقط الاستراتيجية لا تحقق في ذاتها ·· سيطرة أو سيادة أنها تساعد وتدعم ·· ولكن العبرة أساسا بالقوة التي تحقق السيادة والسيطرة ·

ويكفي في ابراز ذلك ، أن نشير الى تفوق البرتغاليين ، بعد عصر الكشوف البحرية · لقد فشل البنادقة والمصريون في مواجهتهم ، ووقف مدهم ، وتفوقهم في التجارة بين الشرق والغرب ·· وأكثر من ذلك فان الأسطول البرتغالي دخل الى البحر الأحمر وحتى خليج السويس ··

وأن نشير الى تفوق الانجليز ، وسيطرتهم ، فيما بعد ، على ناصيته البحار ، ولمدة ثلاثة قرون تقريبا ، وفرضهم للسلام البريطاني ، كسادة للبحر في هذه الفترة · ويكفي أن نشير هنا الى فشل نابليـــــون في مصر والشرق ·· وفشله بالنهاية في المواجهة الشاملة ، الى أهميـــــة استمرار السيادة البريطانية على البحار فيما تلا ذلك من صراعات · لقد أثبتت معيار الدولتين التاليتين فعاليته لقد كان التفوق في القوة البحرية هو الذي يحقق التفوق في البحر ، بل ويدعمه بسيطرة هذه القوة البحرية المتفوقة ، على النقاط ذات الأهمية الاستراتيجية ، وحرمان الغير منها ·

ويمكن أن نشير أيضا الى ايطاليا ، والى أحلامها الكبيرة بتحـــــويل البحر المتوسط الى « بحيرة ايطالية » ورفعها لشعار " Mare Nostrum "

لقد كانت النتيجة ، ليس فقط أن هذا الشعار لم يتحقق ، وانما أيضا أن خطوط اتصال الدولة الأم والامبراطورية قد تقطعت لقد كان التفوق في القوة البحرية عاملا هاما ٠٠ بل وحاسما وانتهى الحلم ٠٠ وانتهت الامبراطورية ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية ٠٠ كان التفوق البحري الأمريكي صارخا ٠٠ وفي كل مكان ٠٠ وفرض ماسماه البعض آنذاك « السلام الأمريكي » ولكن هذه الفترة لم تطل كثيرا ، اذ كان العملاق الآخر في العالم يزداد بروزه ٠ وبدأ هذا العملاق الثاني يمد زراعة البحري ، الى كل مكان في العالم ، بالتدريج وبسرعة ٠٠ ونحن نعيش اليوم ـ مرحلة العملاقين البحريين ـ كما هما عملاقان في كل مجال آخر ٠٠ الفارق بينهما وبين غيرهما كبير ٠٠ ، حتى أنه ليشار الى الآخرين ٠٠ أيا كانوا ٠٠ على أنهم الدول الأقل (The Lesser Powers)

ان الدولتين العملاقين ٠٠ هي دول عالمية بحق Globol Powers وهي دول ذات مصالح عالمية ، تسندها قدرة على استعمال مالديها من أدوات متنوعة للقوة في اي مكان في العالم ، وفي أكثر من مكان ، في وقت واحد ٠ وهنا يمكن أن نرى أهمية وجود الدولة العملاق البحري ، الذي تسنده قواتها البحرية ٠٠ وقواتها على وجه العموم ٠

ونحن نعيش في ظل التوازن النووي ٠٠ مرحلة الانفراج (Detente) وهي مرحلة الصراع المحكوم ٠ ذلك أن الدولتين بينهما تناقض لا مجال للتوفيق فيه ، ومن ثم فلا مندوحة من استمرار الصراع بينهما ٠٠ ولكن بتحفظ أساسي ، هو ألا يؤدي الصراع الى حرب ، تتحول الى حرب نووية بينهما ٠٠ ومن هنا ، فانهما تديران الصراع بكل الوسائل المتاحة ٠٠ في اطار يقف بحركته عند احتمال أن تؤدي هذه الحركة الى صراع نووي ٠ وفي موضوعنا هنا ، نجد أن الدولتين العملاقتين اللتين تتعايشان في عالم اليوم مع صراع وتنافس ٠٠ تعملان في بحار مفتوحة بالكامل لهما ٠٠ ان أحدا غيرهما لا يستطيع اغلاقها وأن أيهما لا يتصور أن يفكر في حرمان الآخر من استعمالها ٠٠ الأمر الذي يعني حرمانه من تحقيق مصالح حيوية ، ومن ثم يؤدي الى مواجهة نووية لا يحتملها الطرفان ٠

ان لأمريكا مصالحها الحيوية في البحر الأحمر كمعبر للتجارة العالمية عموما ، ومعبر للبترول ، وحلقة هامة في انسياب قواتهـــا البحرية على المستوى العالمي ، وتواجدها ، حيث تستدعى الأحداث ، داخل هذا البحر ، أو في مكان آخر ‧‧ عن طريقه لتسند الأصدقاء وتردع الأعداء لتستعرض العضلات ، وتظهر الوجود ، وعلى أي الأحوال لتوازن الوجود السوفيتي بوجود امريكي ‧‧

وأن للاتحاد السوفيتي هو الآخر مصالحه الحيوية في البحر الأحمر كمعبر للتجارة العالمية وجزء هام من طريق حيوي يربط بين أجزاء الاتحاد السوفيتي ، وحلقة هامة في انسياب قواته البحرية على المستوى العالمي ، وتواجدها حيث تستدعي الأحداث ، داخل هذا البحر أو في اي مكان آخر ‧‧ عن طريقه ، لتسند الأصدقاء وتردع الأعداء ، لتستعرض العضلات ، وتظهر الوجود ، وعلى أي الأحوال لتوازن الوجود الأمريكي ـ والوجود الغربي عموما ـ بوجود سوفيتي ‧

ان جزءا من عالمية مصالح الدولتين العملاقتين وقوتهما ، هو تواجدهما في كل مكان على ظهر البسيطة ‧‧ ومن ثم ، لا يمكن أن ينغلق عنهما اي بحر عام ، مهما كان صغيرا ، أو ضيقا ، ولا يتصور أحد أن تسمحا بذلك ‧ ومهما امتنعت القواعد والتسهيلات فسوف تعملان على التواجد ، مهمـــا كلفهما الأمر ‧‧ وقد يكون ذلك صعبا ‧‧ ولكنه ليس مستحيلا بأي حال من الأحوال ‧‧

أن التموين في البحر حقيقة قائمة ‧‧ وأبعاد كبيرة ‧‧ ويعوض عدم توفر التسهيلات الأرضية الكافية أن التقدم في بناء السفن ، والتطور في استعمال الوقود لا يحتاج الى وجود قواعد متعددة ‧‧ متقاربة ‧‧ كما كان الأمر يقتضي في الماضي ‧‧ حتى الماضي القريب ‧ ثم أن التقـــدم في الطيران الاستراتيجي ، والامكانيات الضخمة في نقل القوات المحمولة جوا ‧‧ تشكل عند اللزوم ، سندا هاما للقوات البحرية ، في قيامها بمهماتها في أماكن كثيرة في العالم ‧

وينبغي علينا أن نذكر بنقطة هامة ‧‧ وهي أنه في هذا العالم ، الذي يزداد فيه التركيز في الصراع على بلاد العالم الثالث ، وتتداخل فيه دوائر الصراع ، فان من غير الصحيح ، أن يتصور البعض ، أنه بحرمانه

جانبا عملاقا من استعمال تسهيلات كان يستعملها سابقا ، يمكنه أن يحرم هذا الجانب ، من الوجود في منطقة ما ، والتأثير فيها بفاعلية ٠٠ ذلك أن الدولة العملاق الى جانب أنها لن تسمح بذلك ، مهما كلفها الأمر (٥) ٠ فانها عادة ما تكسب تسهيلات في أماكن أخرى ، حين تفقد التسهيلات في بعض الأماكن ٠ ويكفي أن نشير على سبيل المثال الى أن السوفييت ، في الوقت الذي خسروا فيه بعض التسهيلات في البحر الأحمر وما وراءه ، في مصر والسودان والصومال فان التسهيلات التي يتمتعون بها قد زادت في اليمن الجنوبية وأثيوبيا وفي أماكن عدة في المحيط الهندي ٠

ولو تصورنا من الناحية الافتراضية البحتة ، أن القوى المحلية وقفت جميعها معا ـ وهذا في الظروف السائدة في المرحلة التي نعيشها ، افتراض غير واقعي ـ وأن هذه القوى أرادت أن تحول بحرا ما الى « بحيرة » فيما بينهما ، وأن تبعد عنه الدول العملاقة ، والصراعات الدولية فيما بينها ٠٠ فان ذلك أمنيات لا يمكن أن تتحقق ٠٠ أن التواجد في البحر الأحمر ، كحلقة في سلسلة طرق الملاحة العالمية ترتبط بما وراءها من المنافذ البحرية ٠٠ بل أن التواجد في البحر الأحمر ذاته ، كواحد من بحار العالم ، وبأهميته الاستراتيجية الكبيرة ٠٠ كل ذلك مسائل أساسية ٠ ولا يمكن ابعاد القوى العالمية عن هذا البحر ٠٠ مهما كانت المحاولات ٠٠ فضلا عن الأحلام والأماني ٠

بل ان الصراع والتنافس بين الدولتين العملاقين ٠٠ لا يفرض فقط أن يتواجد العملاقان في البحر الأحمر ٠٠ وانما يعطى للآخرين ٠٠ درجة أكبر من حرية الحركة فيه ٠٠ ولا يمنع أحدا من استعمال هذا البحر ذي الصفة الدولية ٠٠ وذي الأهمية الاستراتيجية ٠

ان الدول الأقل (The Lesser Powers) الكبيرة ٠٠ فضلا عن الأعراف الدولية ٠٠ وحرية ذرع البحار ٠٠ تتمتع بدرجة أكبر من حرية الحركة عن ذي قبل ٠٠ وهي عادة ما تنتمي الى كتلة ٠٠ في الصراع ٠٠ في مواجهة الأخرى ، ومن مصلحة أصدقائها ٠٠ أن تتواجد فتضيف نشاطا ٠٠ وتضيف قوة ٠٠ وتضيف مساندة ٠ ومن المهم أن نضيف هنا ٠٠ أنه في عالم التدخل غير المباشر ، الذي نعيشه في هذه المرحلة ٠٠ في عالم التدخل (Intervention By Proxy) فاننا كثيرا ما نجد لهذه الدول نصيبا هاما عند توزيع الأدوار (Role Distribution) وفي لعب هذه الأدوار ٠

أن وجود هذه القوى في البحار ·· ضروري لها ·· وضروري لغيرها ·

ان الدول الصغيرة هي الاخرى ·· فضلا عن الأعراف الدولية ·· وحرية ذرع البحار ·· تتمتع بدرجة أكبر من حرية الحركة عن ذي قبل ·· وبعضها - على الأقل - يلعب دورا بالوكالة في المنطقة التي يقوم فيها ·· وهو بذلك ·· اذا كان لا يربح طرفا ما في صراع العمالقة والكتل فانه يقدم شيئا ·· وقد يكون شيئا كثيرا ·· على المستوى الاقليمي ·· للطرف العملاق الآخر بمساندته اتجاها سياسيا أو جماعة معينة ، أو بمحاربته اتجاها سياسيا أو جماعة معينة وحرية حركة هذه القوى في البحـــار ·· ليست فقط مسألة حيوية لمصالحها هي ·· وانما هي كذلك مسألة ضرورية لحركة الكبار ·· وتفاعلهم في الاطار الدولي الراهن ·

وفي عصر تداخل مستويات أو دوائر الصراع ·· الذي نعيشه في عالمنا - مع طقس التعايش المتنافس السائد ·· فان الدول الأصغر ·· في الاقليم ·· فضلا عن الأعراف الدولية ·· وحرية ذرع البحـــار ·· تتمتع - في ظل أصدقائها الأكبر - بدرجة أكبر من حرية الحركة ·· لم تكن تحلم بها من قبل ·

ان الضغط والمنع ·· والحرمان - في ظروف الاســـتقطاب الدولي بما يتسم به من صراع محكوم ·· تعايش ·· وتنافس في وقت معا - مسألة غير واقعية ولا يمكن أن يتصور ·· الا اذا اتفق عليـــه العملاقان ·· أو سكت عنه العملاقان معا ، وفي وقت واحد ·· وهذا شيء ، لا يســـهل تصوره ، في ظل الصراع الدولي القائم اليوم ·

وهذا ينقلنا الى مايزعمه البعض ·· وما يتمناه البعض الآخر ·· من أن ينجح العرب اذا اجتمعت كلمتهم - في أن يغلقوا البحر الأحمر على اسرائيل · ويهمنا هنا - أن نتناول الأمر بشيء من الموضوعية ··

(أ) فحتى لو تصورنا أن تتحد كلمة كل الدول المطلة على البحر الأحمر - فيما عدا اسرائيل - على منع هذه الدولة من استعمال البحر الأحمر ·· فان هذا لا يضمن تحقيق الهدف لأن هناك - بالمصلحة والضرورة والواقع - دولا خارجية ، يمس هــــذا التصرف مصالحها ومكانتها ·· ولا تستطيع أن تسكت عليه ·· وهي قادرة على شل حركة من يحاولون هذا المنع · وليس من مصـــلحة الجانب الآخر ·· في الصراع الدولي المحكوم

الذي نعيشه ٠٠ أن يساعد على هذا المنع ٠ بما يحمله من معان ٠٠ وما قد يؤدي اليه تصرفه من مضاعفات ٠

(ب) هذا فضلا عن افتراض أن تتحد كلمة كل الدول المطلة على البحر الأحمر ٠٠ في ظروف الاستقطاب التي يمر بها بلاد العـــالم الثالث ٠٠ افتراض غير واقعي ٠

(جـ) بل ان افتراض أن تتحد كلمة كل الدول العربية المطلة على البحر الأحمر ٠٠ في ظروف الاستقطاب والصراع الاجتماعي التي تمر بها بلاد العالم الثالث ٠٠ افتراض غير واقعي ٠

(د) ولقد أثبتت تجربة الحرب الأخيرة مع اسرائيل ، بعد أيام من بدئها ، أن محاولة اغلاق البحر الأحمر على اسرائيل ، لا يمكن أن تستمر ٠٠ لأن الكتلة الغربية ٠٠ والولايات المتحدة بالأساس ٠٠ لا يمكن أن تسمح بهـــا ٠

(هـ) هذا فضلا عن أن لاسرائيل مخرجا آخر على البحار ، عن طريق البحر المتوسط ٠٠ ورغم أن هذا المنفذ ـ وكان هو منفذ اسرائيل الأساسي الى أفريقيا الشرقية والى جنوبي وشرقي آسيا ٠٠ رغم أنه منفذ أطول كثيرا مما لو استعمل البحر الأحمر كمنفذ الى هذه المناطق ٠ فان اسرائيل ، قبل عام ١٩٥٦ ، لم تركع على ركبتيها في صراعها ، ولم تشل حركتها مع المناطق المذكورة ٠٠ ولقد أظهرت الأحداث فيما بعد ، أن اغلاق البحر الأحمر على اسرائيل مسألة لا يمكنها ٠٠ ولا يمكن لأصدقائها الكبار أن يسلموا بهـا ويسكتوا عليها ٠

(و) وبعد كل هذا ٠٠ فالكلام في هذا الموضوع هذه الأيام ٠٠ بعد ، ومع محاولات الوصول الى تسوية نهائية مع اسرائيل ٠٠ وهي تسوية تضمن بنصوص واضحة ـ حرية حركة اسرائيل ٠٠ وحرية الحركة منها واليها ٠٠ يصبح غير ذي موضوع ٠

ويمكن أن ننتهي من كل ما سبق ، الى أن السيطرة المطلقة على البحر الأحمر ـ في الظروف الدولية السائدة ـ بواسطة قوة من خارجة ، أو قوة أو عدة قوى داخل هذا البحر ٠٠ أمر غير وارد ٠٠ وترتبط بهذه الحقيقة الحقيقة التالية ٠٠

وهي أن ابعاد أية قوة عن البحر الأحمر ، أو منع أية قوة ، داخلية او خارجية ، من أن تذرع هذا البحر وتستعمله ، وتمر منه الى ما وراءه ٠٠ هذا الابعاد ٠٠ أمر غير وارد ٠ ومن ثم فان ابعاد البحر الأحمر عن وجود القوى الكبرى ٠٠ أمر غير وارد ٠٠ ذلك بارز اليوم ، كما لم يبرز في أي وقت مضى ٠٠ في ظروف الاستقطاب السائد في الظروف الراهنة ٠٠ ومع ظروف التداخل الشديد بين مستويات أو دوائر الصراع ٠٠ محليـــة كانت أو اقليمية ٠٠ أو عالمية ٠٠

ان تشابك المصالح وترابطها بين الجوانب المتقاربة ، على المستويات الثلاثة ٠٠ من ناحية وتعارضها مع المصـــالح المتشابكة والمترابطة بين الجوانب المتقاربة ، على المستويات الثلاثة ٠٠ في الطرف الآخر للصراع ٠٠ من ناحية أخرى ٠

هذا مع امكانية العمل المشترك ٠٠ وفاعليته الأكبر ٠٠ يجعـــل من مصلحة الأطراف المتصارعة ، تواجد الأصـــدقاء ٠٠ على المســـتوى الاقليمي ٠٠ وعلى المستوى الدولي الأشمل ٠٠ هذا التواجد مسألة بالقطع مفيدة ٠ ومن ثم فهي مسألة تهم هذه الأطراف لدعم المساندة في المواجهة ٠

بل أن وجود القوى الصديقة لدولة ما أو عدد من الدول في بحر ما ، سواء أكانت هذه الدول الصديقة من داخله أو من خارجه ، فضلا عن أن أحدا لا يستطيع أن يمنعه ببساطة ، فانه مفيد لهذه الدولة أو هذه الدول ، من حيث أنه يوازن وجود الآخرين ٠٠ من غير الأصدقاء ، ومن حيث أن هذا الوجود ، في ذاته ، يشكل رادعا لمن قد تحدثه نفسه من غير الأصدقاء بالتحرك المضاد ٠

وفي ضوء كل ما سبق فان التحدث عن تحويل البحر الأحمر الى بحر « محايد » أو « بحر سلام » كما يدعو البعض ٠٠ لن يتجاوز مجرد الكلام ، ولا يمكن أن يتحقق في ظروف عالم اليوم ٠ ويكفي أن نشـــير هنا الى ما حدث بالنسبة لتحويل المحيط الهندي الى « بحر سلام » ، وازالة القواعد العسكرية الموجودة في أجزائه المختلفة ، وذلك ، رغم قرارات الأمم المتحدة ، ورغم بيانات مجموعة دول عدم الانحياز ٠٠ الخ ان أقصى ما قيل قريبا من هذه « الحيدة » على لســـان دولة كبرى ٠٠ هو أن يتحقق ذلك على أساس المساواة ٠

ومن ثم ٠٠ فما كان وجود طرف قائما ومستمرا فان الطرف الآخر

سيسعى للتواجد والاستمرار ولن تتوقف هذه العملية لقرار يتخذ هنا — او رغبة تبدى هناك ٠٠ بل أن بعض الأطراف المحلية والاقليمية — قد ترى تواجدا ما مفيدا اليها ، بعكس تواجد ما في الجانب الآخر من الصراع — فيغض الطرف عن التواجد الأول ، وتحمل بشدة على التواجد الثاني ، ويغلب أنها حين تتحدث عن ابعاد « القوى الكبرى » والنفوذ الأجنبي ، انما تقصد التواجد الثاني دون التواجد الأول ٠

يبقى بعد ذلك موضوع هام وهو العمل على تطوير التعاون بين البلاد المطلة على البحر الأحمر ، وهو همزة وصل تجمع فيما بينهما ٠ سواء أكان ذلك بين كل بلاد البحر الأحمر أو بين البلاد العربية المطلة عليه ٠

ولا يمكن أن يكون عاقل ضد محاولات تطوير هذا التعاون والتنسيق بين هذه البلاد سواء فيما بين نشاطاتها كدول ، أو في عملها المشترك على استغلال ثروات البحر الأحمر ذاته ٠٠ والعمل في هذا المجال بأقصى الطاقة والى أقصى مدى ممكن امر مطلوب (٦) ٠٠

وتدخل في هذا المجال قضية حيوية ، هي قضية الأمن في كل بلاد البحر الأحمر ، قضية الأمن الجماعي لبلاده العربية ، أو لبلاده جميعا ٠ ولا شك أن العمل المشترك في هذا المجال أمر مطلوب ٠٠ وكما ذكرنا سابقا ، لأقصى مدى ممكن ٠٠

وتدخل في هذا المجال أيضا قضية حيوية أخرى ، هي قضية تأمين حركة البترول عبر البحر الأحمر الى الشمال والغرب ٠ والى جانب ما أشرنا اليه ، متصلا بهذا الموضوع ، في مكان سابق من هذا البحث ، فنكتفي هنا بأن نقرر أن هذه مسالة حيوية بالنسبة للكل ، بما في ذلك الدول الكبرى والعملاقة ، الأمر الذي يجعلها تهتم باستمرار انسياب البترول بحرية ، في جميع منافذه ٠ هذا فضلا عن وجود طريق بديل ، للطريق الذي يمثل البحر الأحمر حلقة هامة فيه ، وهو طريق رأس الرجاء الصالح ٠

ونختتم حديثنا بأن البحر الأحمر سيبقى ولأمد غير قصير — بحرا مفتوحا للجميع ٠ وأن البحر الأحمر سيبقى — ولأمد غير قصير — مجالا للتعاون ، ومجالا للصراع ، بين دولة عربية أو غير عربية ٠٠ مع تداخل بين ذلك وبين الصراعات العالمية في المنطقة وعليها ٠

ولا يمكن أن يهدأ الوضع فيه ، بما يوسع دوائر التعاون ويعمقها ، الا اذا استقرت الأمور على أساس سليم من رضى الشعوب ، في أجزائه المختلفة ، وفيما بين هذه الأجزاء ، وفيما بين هذه القوى الفاعلة في الصراع الدولي على وجه العموم ٠

الهـــوامش

١ ـ وهذا يتضمن الاتجار بين اجزائه المختلفة في منتجاتها المختلفة ٠

٢ ـ وفيما يتصل بالمناطق المعتدلة الى الجنوب والجنـــوب الشرقي فان اختلاف الفصول بين الشمال والجنوب يؤدي ايضا الى قيام تبادل تجاري بين المناطق التي تقع على جانبي البحر الأحمر ٠

٣ ـ اذا نظرنا الى البحر الاحمر كجزء من وامتـــداد للمحيـــط الهنـــدي فاننا نلاحظ الاهتمام المتزايد بالمحيط الهندي وكثرة الدراسات والبحوث واللقاءات التي تناولت هذا المحيط ٠٠ وخاصة في السنوات العشر الماضية ٠ ولازال هذا الاهتمام بالمحيط الهندي يتزايد باطراد ٠

٤ ـ لو كان ما نعيش فيه مرحلة وفاق (entente) بين الدولتين العملاقين كما يتصور البعض لاختلف الوضع عما هو عليه ، بشـــكل جذري ، ولانطلقت أيدي الدولتين ـ في توفيق وتنسيق ـ في السيطرة وتقسيم العالم الى مناطق نفوذ ، بدرجة لا يمكن ان تحدث في الظروف التي نعيشها ٠

٥ ـ يكفي ان نشير ، على سبيل المثال ، الى تحركات القوات البحرية الامريكية من الفلبين والقوات السوفيتية من فلاديفوستوك ، الى المحيط الهندي في الأيام الاخيرة ، والى وجود سفن تموين مع هذه القوات ٠

٦ ـ على اننا لابد وان نحتفظ ـ مرة اخرى ـ مذكرين ، بان في الظروف الراهنة ، عناصر تعمل اثرها ، وتضع الحدود والقيود ، على انطلاق هذا التعاون والتنسيق ٠٠٠ وان ما يتسم به الوضع الراهن ، من تركيز على بلاد العالم الثالث ، وخاصة المناطق ذات الاهمية الاقتصادية والاستراتيجية فيها ، ومن تدخل ، ومن تداخل بين مستويات الصراع المتعددة ، لابد ان ينعكس على هذه المنطقة ، ويترك آثاره فيها ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

نادي القصيم الأدبي ــ ببريدة

ت : ٠٤٨٢٠ ــ ص٠ب : (٨٧٢)

مسابقة دراسة شخصيات اسلامية

يسر نادي القصيم الأدبي ببريدة ٠ أن يطرح للأدباء مسابقته الثانية المتعلقة بدراسة تحليلية شاملة لبعض الشخصيات الاسلامية ذات العلاقة ٠ وهو بهذا يرجو أن تكون فتحا جديدا للكشف عن معالم نهضتنا ٠٠

موضوع المسابقة :

المسابقة تنحصر في تقديم دراسة واقعية عن الشخصيات التالية :

أولا : فضيلة الشيخ المرحوم/ محمد بن ابراهيم آل الشيخ ٠

ثانيا : فضيلة الشيخ المرحوم/ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

ثالثا : فضيلة الشيخ المرحوم/ عبد الرحمن بن محمد الدوسري ٠





الشروط :

أولا : أن يكون المتسابق سعودي الجنسية ٠

ثانيا : أن تكون الدراسة جديدة ولم يسبق طبعها أو الاشتراك بها في مسابقات أخرى ٠

ثالثا : يقوم المتسابق بدراسة شخصية واحدة أو أكثر دراسة مستوعبة مفصلة ، وموثقة بالمراجع ٠ ويحسن تزويدها . بالوثائق المخطوطة ان أمكن على أن يستوفي الدارس (الترجمة) من ولادة ، ونشأة ، وتعلم ، وتعليم ، وجهود علمية ، ومؤلفات ، ومآثر مع استقصاء آثاره المطبوع منها والمخطوط ٠

رابعا : تكون الدراسة ذات منهج محدود بحيث لا تقل عن أربعين صفحة « حجم الفلسكاب » على أن يزود البحث بالفهارس التفصيلية ٠

خامسا : أن يكتب البحث بخط واضح ويفضل طبعه على الآلة الكاتبة من أصل وصورتين ومزود بغلاف موضحا عليه اسم المشترك ٠ وعمره ٠ وعمله وعنوانه ٠

سادسا : تقدم البحوث الى النادي بالبريد على العنوان التالي : ـ

بريدة ـ نادي القصيم الأدبي ـ ص٠ب : (٨٧٢) رئيس النادي الأدبي ٠

سابعا : المسابقة مفتوحة للجنسين ٠

موعد تنفيذ المسابقة وتقديم الانتاج :

من الآن وحتى يوم ١/٤/١٤٠١هـ ٠



لجنة فحص البحوث :

سيقوم النادي بتشكيل لجنة لدراسة البحوث وتقويمها على أن تضم نخبة من الأساتذة والعلماء المتخصصين ومن ذوي الشخصيات المدروسة ٠

موعد فحص البحوث :

في المدة من ١٥/٤/١٤٠١هـ وحتى ٣٠/٤/١٤٠١هـ ٠

الجوائز والحوافز :

أولا : يستحق الفائز جائزة نقدية مقدارها ألفا ريال (٢٠٠٠) هذا ويحصل على الجوائز النقدية الفائزون الثلاثة الأول ٠

ثانيا : سيقوم النادي بطبع البحـوث الفائزة في كتاب مستقل لتعم الفائدة وسيتم تسويقه بمعرفة النادي ٠

هذا وستعلن النتيجة وأسماء الفائزين بواسطة الصحف المحلية بعد فحص وتقويم البحوث مباشرة • وتبـــلغ النتائج والجوائز لأصحابها على العناوين التي تصلنا منهم ، كما يمكن تسليم البحوث التي لم تفز لأصحابها •

وايمانا من النادي بالدور الاسلامي الهام الذي قام به أولئك الأفذاذ من علمائنا الأجلاء لنهيب بشبابنا أن يكونوا على مستوى تطلع النادي اليهم ، والنادي وهو يبادر الى مثل هذه الجوانب الهامة من حياتنا الفكرية يهمه بالدرجـة الأولى أن يضع علماءنا وقادة الفكر في بلادنا في المكان المناسب لهم ، كما يريد أن يذكر المتشاغلين بلون من ألوان العظاء ويشـــعرهم بأهمية أناس كاد الموت أن ينسينا أمجادهم وأفضالهم •

هذا وسيعقب هـذه المسابقة مسابقات أخرى تتنـــاول شخصيات علمية وسياسية وقيادية لهـــا علينا حق الاشادة والوفـــاء •

وفق الله الجميع الى صالح الأعمال وخالصها ؟

رئيس النادي الأدبي بالقصيم
حسن الفهـــد الهويمـل



ملخص الأبحاث
بالانجليزية



success as when one problem is dealt with under one hand.

I feel that in giving the above opinion, that I should say that my point of view and knowledge is perhaps biased by experience of the Levant, and I recognise that there is the Indian point of view with which I am unfamiliar, which includes the questions of the Indian pilgrimage, the connection of Hadramaut with Haiderabad, the long tradition of Indian control in the Protectorate, and the Indian commercial interests which have grown up under it.

I therefore only give this view under due reserve and hope to write further on the matter after I have had an opportunity of discussing the question with the authorities at Simla.

I have Sir,

the honour to be

Your obedient servant,

Mark Sykes

movement, which in his opinion has no basic elements of lasting friendship to Great Britain.

licy.

Colonel Jacob considers that the eventuality of the fall of Constantinople will not greatly impress the minds of the Arabs in the Yemen, even the public surrender of the Ottoman army to the British at some selected spot in view of the chieftains of the region would not have any real effect. The Arabs have a great contempt for diplomatic victories no matter how ceremonious, and nothing short of fighting will make them believe that we are capable of enforcing our authority in the future. He therefore considers that military and strategic considerations permitting we should if possible retake Lahej by force of arms before a general peace is concluded.

With regard to our future policy Colonel Jacob is of opinion that a final decision should be come to defining precisely what our relations with the various chiefs in the hinterland, and with the ImamYahya are to be when the Turks eventually depart, as Imam Yahya will undoubtedly claim soverignity of all land evacuated by the Turks. He considers that the best policy will be to stand strictly by our treaty of 30 April 1915 with Sheykh Idris upholding the full observance of Clause 5, even though this may militate against the theory of an absolutely independent Arabia.

Arabia.

ccupation of Kameran.

Lastly Colonel Jacob pointed out the good effect of our occupation of Kameran in that the Moslem pilgrims were defended from molestation and outrage of their women.

sonal observations
Aden.

As far as concerns our policy in the Aden Protectorate, I am personally of opinion that it would be a great mistake to get involved in any operations beyond Shaykh Othman during the present war. A modest force is ample to hold the ground essential for us at Aden and Shaykh Othman, but it is impossible for anyone to foretell what may be required if we once again ~~[illegible]~~ extend our military obligations into the Protectorate itself.

This need not prevent our assisting Shaykh Idris in arms and munitions but not in actual men.

I believe in event of Constantinople falling our future policy towards Imam Yahya will be a question of importance. I should imagine that his prospects as anything more than a local Caliph will be small, and that he will never recognise the suzerainty of the Sherif no matter what title the latter assumes.

One point which greatly impressed itself upon my mind is the want of co-ordination in our Arabian policy, owing to Aden ~~[illegible]~~ being politically and militarily under Bombay in the first place and the government of India in the second instead of directly

under

under Egypt. All the moral and intellectual ties between the Arabs and ourselves lie in Cairo rather than in India.

The Shaykh Idris is connected with the Senussi, the Imam Yahya is on terms of fluctuating friendship or hostility with the Sherif of Mecca, the pan-Arab movement is influenced by the Al Azhar University at Cairo.

The intercourse between the Arabs of Arabia and the African coasts of the Red Sea is another and important bond of union. I should therefore imagine that it would tend to facilitate the development of a sound Anglo-Arabian policy if Aden were transferred temporally to the General Officer Commanding in Egypt.

I am well aware of the departmental difficulties which lie in the way, but at the present moment the necessity of co'ordination is of great importance especially in view of the fact that our enemy is working against Aden and Egypt from one centre of political and military influence.

It is to be anticipated that the next few months must see a profound change in the political composition of the near East, and it would appear to be advantageous that the centres of our political and military control should during this period of transition coincide [illegible] with the native centres of influences which are coming into play. Even though two departments may pursue a policy agreed upon mutually it cannot be so easy to achieve

ykh Idris.

With regard to Shaykh Idris, Colonel Jacob is unshaken in his confidence in him, and considers thathe is our strongest point d'appui in this region.

Caliphate.

With regard to the Caliphate it is important to note that ~~Ø Ø X~~ Colonel Jacob does not concur in the general view, that a transfer of the Caliphate from the Ottoman dynasty to that of the Sherifian family would prove the most satisfactory solution.

He considers that the transfer would result in a general turmoil in Arabia, which might end in a religious revival such as produced the Wahabi movement, resulting in the Caliphate falling finally into the hands of those who could imbue it with a renewed vitality. The proximity of Arabia to India, and the difficulty of exercising any influence or control over the sacred territory which might prove the focus of unrest and intrigue adds to the danger.

Colonel Jacob is therefore of opinion that a moribund Caliphate in an atrophied Turkey, even under Russian influence, would have fewer potentialities of danger than a Caliphate situated in Arabia where the vital [illegible] of Islam survives.

Colonel Jacob considered the views of Shaykh Rashid Rida as expressed in my despatch No 14 as typical of the pan-Arab

war, the issue of which to him is uncertain, he has no inclination to avail himself either of our protection or interest. Our action at Shaykh Said has made him suspicious of our policy, and he represents our temporary occupation of the place as a violation of his rights. The Imam is probably influenced by a double ambition, his immediate object is to obtain control of Yemen, Asyr, Hadramaut, and the area contained in the Aden ~~hinterland~~ Protectorate. He hopes in these regions to be undisputed temporal and spiritual chief, and to be regarded as Caliph by its inhabitants. He is at this moment intriguing with the chiefs of Hadramaut and endeavouring to obtain a promise of support from them.

However Colonel Jacob thinks that notwithstanding this, should a propitious turn of events make it possible, the Imam would not hesitate to endeavour to get himself recognised as Caliph throughout the Moslem world. He has hitherto accorded but a cold reception to the exponents of the pan-Arabian theory, but this perhaps is owing to his dislike of the idea of recognising the overlordship of the Sherif of Mecca which that theory presupposes - if the Imam saw an opportunity of diverting pan-Arabism from the Sherifian orbit into his own he might change his views.

With regard

may intimidate the anti Turkish elements and confirm the fanaticism of others.

lic feeling among natives in Aden.

Before closing this part of this despatch I should like to lay stress on the general atmosphere of loyalty and confidence prevailing among the Arabs of Aden. The unfortunate death of the Sultan of Lahej which I should have imagined would have given rise to a crop of rumours and suspicions of a very sinister kind, is known to have been caused by an accident and had produced no visible ill effects, this speaks very well for the general belief in our honesty and sincerity which in this matter has been put to a severe test.

I had a long interview with Colonel Jacob to whom I showed the draft report of the committee. Colonel Jacob made several important observations on the general situation obtaining in Southern Arabia.

amYahya.

The attitude of the Imam Yahya he stated was decidedly anti British in sentiment for the following reason, when in 1906-7 he appealed to His Majesty's Government for some moral support against Turkish tyranny, he received no encouragement although he had obtained considerable success in the field and had an adequate force at his disposal, now that he is virtual ruler of Upper Yemen and that Great Britain is involved in a

state of anarchy which would extend as far North as Mosul if not Diarbekir. He said he could not imagine the Imperial Ottoman regime surviving the fall of Constantinople owing to the disaffection of the Arabs. He further said in answer to a question that it was unthinkable that the Arabs should be able to rule Irak without European assistance particularly in the domain of finance. Speaking as a native of Baghdad he was pessimistic as to the future, because he feared that as the Ottoman Empire collapsed, anarchy would supervene before a settled government could be established from within or imposed from without.

This no doubt is a real danger and if possible should be forestalled, I gathered from him that some organisation allied to the pan-Arab movement, is at work among the Arab officers in the Ottoman army, but that it was incoherent in plan and undecided in policy.

I suggest that in view of possible future developements discrimination should be shown in the treatment of prisoners.

I venture to suggest that, if it is not already done, that Christians, Syrians, Baghdadis, and Kurds should be separated from those who are of pure Turkish stock, and those who are natives of regions which may some day come under the influence of Great Britain might to accorded specially favourable treatment, and kept away from the influence of the Turks who

may

apprehensive of being handed back to the Ottoman authorities, and complained of the menaces they were subjected to by the Turkish and Albanian prisoners of war.

The two others from Nablus were (as indeed are all the Moslems of that region) intensely fanatical, one of them said "we had done six years in the Yemen and our discharges were made out, but thank God the war came before we left". It is obvious that they had nothing to gain by talking in this way, and this remark should be remembered when considering optimistic statements concerning the attitude of Moslem Syrian Arabs.

Rauf Bey, a major in the Turkish army, captured at Lehej just before our retirement, is a Baghdadi of the Jebebi house, a powerful family of Turkish origin, comprising about 400 members in Baghdad, and owning considerable estates. In the course of conversation he said that if Constantinople fell, the people of Baghdad would probably declare themselves independent, under a Caliph who would probably be a member of the Koraysh. He suggested however that the Turks might appoint Ibn Rashid as ruler of Irak and leave matters at that. He considered that this would be but a prelude to a

state

all that was known was that a British force had had to retreat, that the Arabs were disaffected, the Turkish troops were within a short distance of Aden, and that reinforcements had been despatched hurriedly from Egypt.

It was impossible for any person who had not been to Aden to realise that the affair was far less serious than could be imagined. I would venture to suggest that in a case of this kind where the main facts cannot be concealed, that a detailed account giving the actual state of affairs would be the best way of frustrating the enemy's object, which is obviously intended to produce moral effect on the surrounding population.

kish Prisoners at Aden.

I visited the Turkish prisoners and deserters at the prison in the crater, and specially interviewed four Syrian privates and Rauf Bey the battalion commander captured at Lehej. The talk of the Syrians was interesting and instructive. Two who were deserters were from the neighbourhood of Jerusalem, they complained of the brutal treatment accorded to them by the Turkish officers, and described the bulk of the Southern Syrians as only anxious to escape from service. They were piteously

apprehensive

Aden

Secret.

July 23rd 1915.

No 16.

Sir,

I have the honour to inform you that I arrived at Aden on July 21st, the day on which Shaykh Othman was re-occupied and the Turks and disaffected Arabs driven back in the direction of Lahej.

Military situation.

With regard to the military situation, there is I think little to be said. Sir George Younghusband kindly showed me his memorandum giving his appreciation of the position of affairs, and the inevitable conclusions with regard to an advance on Lahej. With reference to the military aspect of the situation the only point to which I would venture to draw attention is the bad effect of semi-secrecy as regards the turn of events in the hinterland, on Egypt, and the Red Sea littoral.

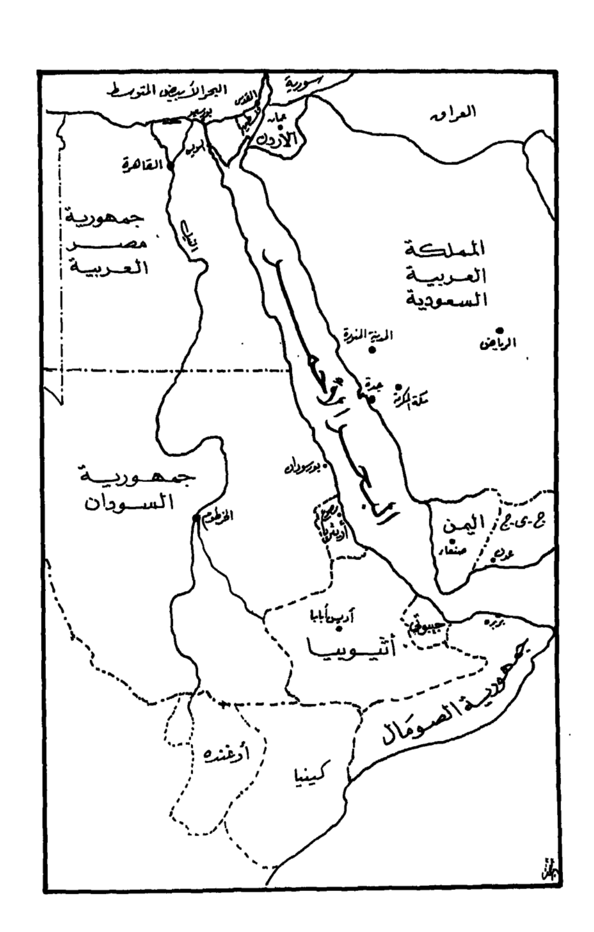
The rumours afloat after the first news were made public, were of the darkest kind, and all whom I met (natives and British) imagined that Aden itself was seriously threatened;

all

Mj General C.E. Callwell C.B.
Director of Military Operations,
War Office, Whitehall S.W.

مطابع وإعلانات الشريف

الرياض - ت ٤٠٢١٨٧١


البحر الأبيض المتوسط
سورية
العراق
القدس
عمان
الأردن
القاهرة
جمهورية مصر العربية
النيل
المملكة العربية السعودية
المدينة المنورة
الرياض
جدة
مكة المكرمة
البحر الأحمر
بورسودان
جمهورية السودان
الخرطوم
اليمن
صنعاء
عدن
ج.ى.ج
أديس أبابا
أثيوبيا
جيبوتي
بربره
جمهورية الصومال
أوغنده
كينيا

(The Holy Koran, Chapter of the Spoils, Verse 60)

If a small force is represented by troops of horses, then the required force in the Red Sea must be in the form of a mighty fleet.

Before writing this foreword. I had heard about the opening ceremony of King Abdul Aziz naval base at Jubail. I hope that our fleet be an integral part of other Arab fleets with which it cooperates under a solidarity banner of the Arab Nation.

May I remind you how Saladin the Ayyubide established a fleet in the Red Sea after he had been informed that crusader prince Arnold entitled "Arnat" in our history had threatened to invade the Two Sacred Shrines. Saladin prepared the ships and vowed to kill Arnat with his own bare hands. Allah anwered his prayers and Arnat fell in captivity, killed by the Kurd, Kirkuki, Damascene, Egyptian Saladin. As a matter of fact this moslem leader was an excellent example of the Islamic and Arab Nations.

This imminent danger in the Red Sea spurred our activity to obtain some essays and researches read in a seminar held in Egypt. We published this volume as a special issue on the Red Sea. And as we are pressed for time because the next issue date is approaching, thus we promise our readers of more elaborate researches on the same subject in the near future. May Allah grant us success.

The Editor

Translated by Sabry Ibrahim

FOREWORD

My concern here is not to add more researches to those already written in this issue. The researches in this volume furnich the reader with a plain idea on the position and importance of the Red Sea. The many events that took place in the area of the Red Sea have increased that importance in spite of the fact that all throughout history the case was true. The truth of this statment is elucidated in the researches of this issue. I shall write down a new definition of history, a definition that achieves equilibrium between sentiment and reason.

The Red Sea was originally a terrain of land when the Arabian Peninsula and Eastern Africa were once a connected terra firma before the geological split had occurred. The Red Sea was an Arabian gulf before the opening of the Suez Canal. After its digging the Red Sea was rendered as an Arabian strait, where its eastern and western coasts save the Abyssinian littoral are owned by the Arabs. When the Red Sea was an Arabian gulf, there were no regional boundaries defined by miles and the whole area was sheer Arabian. Therefore the Suez Canal has made the Red Sea an international trade passage.

The Red Sea became the most dangerous area of conflict in the Middie East, when some of its coastal countries had extended certain facilities to foreign powers to take refuge in their ports. Thus they brought this danger to themselves and to their neighbours by bringing the foreign powers fleets to their territories.

The Arabs have to get acquainted with this danger and prepare themselves to repel it " Therefore prepare against them what force ye are able and troops of, horses, whereby ye may strike a terror into the enemy of god, and your enemy, and into other infidels besides them, whom ye know not, but god knoweth them. "

ADDARAH

Notice :

— All Correspondence should be directed to the Editor in- Chief
P. O. Box 2945 — Riyadh

— Articles are arranged technically, regardless of the writers' **prestige.**

— This English section contains summaries of some of the essays written in Arabic.

— **Price :**

a) **In Saudi Arabia :**
2 Riyals a copy.
15 Riyals per annum.

b) **In Arab Countries :**
The equivalent of 50 S. piastres a copy.
The equivalent of 15 riyals per annum.

c) **Non Arab Countries**
$1 a copy.
$6 per annum.

ADDARAH

QUARTERLY JOURNAL

by

King Abdul Aziz Research Centre
Concerned with

the Intelletual and Historical Heritage
of the Kingdom and the Islamic World.

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

RABI AWWAL 1401 SIXTH YEAR
JANUARY 1981 NO. : 2

P.O.B. 2945 RIYADH
Tel. : 4038646 KINGDOM OF SAUDI ARABIA

ADDARAH



QUARTERLY JOURNAL by KING ABDUL AZIZ RESEARCH CENTRE
VOLUME 2 (6) 1401 A.H./1981 A.D.

IN THIS ISSUE

– British Policy in Arabia and The Red Sea

مطابع واعلانات الشريف
الرياض – ص.ب ١٤٩٧ ت ٤٠٢١٨٧١

